

التاريخ السري لإخلاء الجبلtram مصر

ألفه

مستر الفريد سكاون بلنت

وَأَيُّهُ وَالْقَوْمَ مَا فِيهِ

الشيخ محمد عبده

تمهيد

عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب يحتوي على :

- ١ - تاريخ عربي بغيره وبعض حوادث سنة ١٨٨٢م بغيره أيضاً .
- ٢ - وتقريرين عن بعض هذه الحوادث بغير الشيخ محمد عبده .
- ٣ - وتفسير آخر من جرون نية رفيعه عربي ومن بعض المصريين الذين اشتبكوا في تلك الحوادث .
- ٤ - وبرنامج الحزب الوطني وعظائبات من مستر غوردون .
- ٥ - والبرشور المصري سنة ١٨٨٢م



42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 2390066

مكتبة الأديب

٥٢ ميلاد الأديب - القاهرة - ت ٢٩٠٠٠٨٨

السياح السرى

لأجل إلهال انجلى لئلا مضرو

الفهمة الفردى كما ون لبت
وراجه ووافق على ما في الشىخ محمد عبد

محمد بن بقالم عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب بحوى على تاريخ لمرالى بقلية وبعض جوارى ١٨٨٤
بقية ايضا. وتغير بين بعض من هذه الجوارى بقلية الشىخ محمد عبد
وتقارير اخرى من جون نيدى رفيق عربى ومن بعض المصيرين الذين
اشتركوا في تلك الجوارى. وبنامى العرب الوطنى وخطابات
من ستر غلا رستون. والديسور المصير ١٨٨٢

مكتبة الآداب

٤٧ ميدان الأوبرا - القاهرة ق: ٨٦٨-٢٩٠٠



الناشر

مكتبة الآداب
علي حسن

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

بلنت ، ألفريد سكاون.

التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر /

ألفه ألفريد سكاون بلنت ؛

وأجمعه محمد عبده ؛ تمهيد عبد القادر حمزة .-

القاهرة : مكتبة الآداب ، ٢٠٠٨ .

٥٨٢ ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ١ ٩٤٩ ٢٤١ ٩٧٧

١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - الاحتلال

البريطاني (١٨٨٢-١٩٥٦) .

أ - محمد عبده ، محمد عبده بن حسن خير الله ، ١٨٥٠ - ١٩٠٥ (مراجع)

ب - حمزة ، عبد القادر (تمهيد)

ج - العنوان

٩٦٢ ، ٠٤

مكتبة الآداب

علي حسن

١٢ ميدان آزادي - القاهرة

هاتف : ٠٦٨ - ٠٦٦٩٢٢٩ (٢٠٢)

e-mail: adabook@hotmail.com

عنوان الكتاب: التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر

تأليف: مستر ألفريد سكاون ويبدئه

رقم الإيداع: ٤٤٢ لسنة ٢٠٠٨م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 - 241 - 949 - ١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على نبيينا الكريم

محمد

نحن وقار يخنا الحديث

كل مانعاه مصر الآن من جراء الاحتلال البريطاني، وكل مانعاه من في سبعة وأربعين عاما مضت، وكل مانعاه من الى أن تحصل على استقلالها التام، مرتبط بالحوادث التي كانت مصر مسرحا لها من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن احتل الانجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢. وذلك أن هذه الحوادث كانت مقدمات أو عللا والحالة التي نحن فيها الآن نتائج لها أو معلولات، وقد كلن هذا داعيا لأن نعرف تلك الحوادث شرة بحث ودراسة لتعرف كيف ومن أين ابتدأنا ولكننا مع الأسف لا نعرف منها الا صورة مبهمه يذهب مرور الأيام بها في أذهاننا من الابر. فليس فينا الآن من درسها ووضع فيها كتابا باللغة العربية مع أن الأوربيين وضعوا فيها عشرات من الكتب ذات القيمة فرنسية وانجليزية وألمانية وإيطالية. وحتى هذه الكتب التي وضعها الأوربيون، والتي لا ريب في أن بعضها منها كتبه رجال اشركوا بأنفسهم في تلك الحوادث فكتاباتهم تعتبر مستندا يقابل بشيرة من المستندات لاستخراج الحقائق التاريخية كما أن بعضها آخر كتبه رجال لم يشركوا بأنفسهم في الحوادث ولكنهم استطاعوا أن يصلوا الى المستندات الرسمية الخاصة بها في وزارات الدول فكتاباتهم تعتبر مستندا آخر، هذه الكتب لم ينقل منها الى اللغة العربية على ما نعلم الا كتاب وضعه اللورد كرومر بعد خروجه من مصر وكتاب آخر وضعه فستر تيودور وونستين ونشرته في سنة ١٩٢٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وقد يكون السبب في قلة اهتمامنا بدراسة تلك الحوادث وبتعريب ما كتبه الاوربيون فيها ان أشخاصاً من الذين ساهموا فيها بتصيب كبير كانوا أحياء الى زمن قريب ، وبعض هؤلاء الأشخاص لم تكن لهم سلطة تخشى جانبها كمرابي ومحمود سامي ورياض ولكن شخصاً آخر هو الحديدي توفيق باشا كانت له ولايته عباس باش من بعده سلطة تخشى وهو محمور دارت حوله الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ فكان من الصعب على الباحث المصري أن يجتنبه أو يجتنب الحكم على مواقفه . وهو اذا كتب هذا الحكم إما أن يكتبه كما يوحيه اليه ضميره . وجبئذ قد يكون ضد توفيق باشا فيستهدف لغضب ذوي السلطة واما أن يكتبه مصوغاً بصيغة للدارة واذن يكون يحشمه غير برى . ويفقد قيمته .

وهذا الذي يقال في التأليف يقال في التعريب لأن كل الذين قرأوا المؤلفات الاوربية التي وضعت في هذا الموضوع يعلمون أن أصحاب هذه المؤلفات اختلفت آراؤهم في مواقف توفيق باشا فكان منهم من يبررها ومنهم من خطأها ولكنهم جميعاً لم تخل كتاباتهم عنه من غمز جارح . ولعل كتاب الورد كرومر « مصر الحديثة » وكتاب الورد ملتر « إنجلترا في مصر » هما وحدهما اللذان خلوا من مثل هذا الغمز . ولكن هذا السبب ليس عنراً صحيحاً ، وهو ان صح لا يكون الا لوقت ، وفي رأيي ان هذا الوقت انقضى وان الاوان قد آن لأن يدرس الباحثون منا تلك الحوادث التي كانت مصدر مآخض في الآن من المتاعب . ولهذا اخترت « لبلاغ » أن يهد سبيل هذا البحث بأن يعرب بعض المؤلفات الاوربية التي تعتبر مستندات فعرّب مترجموه كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » :

Secret history of the english occupation of Egypt

ومؤلفه مستر ألفريد سكاون بلنت الذي شهد بنفسه حوادث سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكان فيها متصلاً بمرابي وجرى شطر كبير منها على يده . وكتاب « المسألة المصرية » — Question Egyptienne — ومؤلفه مسيو دي فريسييه الذي

كان رئيساً لوزارة فرنسا حينما ضرب الانجليز الاسكندرية واحتلوا القاهرة . وكتاب « النار والسيوف في السودان » Fire and Sword in the Sudan ومؤلفه سلاطين باشا الذي بقي في أسر المهدي الى أن أعيد فتح السودان في سنة ١٨٩٧ .

وقد نشرت هذه الكتب متوالية في «البلاغ» ورأيت اليوم أن أجمعها في كتاب
يتيسر اقتناؤها وحفظها . وهذا كتاب «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر»
ولها وسيلة الآخران .

مسترا . س . بلنت

نشأ مستر بلنت مؤلف «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر» في أسرة عريقة
في الفن والجاء وبدأ حياته السياسية وهو لا يزال قريبا فعين في الثامنة عشرة من
عمره ملحقا بالوكالة الانجليزية في أثينا ثم بقي يتنقل في المناصب بعد ذلك اثنتي عشرة
سنة في الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها الى أن اعتزل خدمة
الحكومة في سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج حفيدة الشاعر المعروف اللورد بيرون
فشرع يطوف معها في البلاد الشرقية فطاف في تركيا سنة ١٨٧٣ وفي الجزائر
سنة ١٨٧٤ وزار مصر أول مرة سنة ١٨٧٥ . وفي هذه الزيارات رأى الفلاحين وجال
بينهم جولة أrote ما كانوا فيه من البؤس والبلاء ^(١) بسبب الديون التي كان الخديو
اسماعيل باشا قد أوقع البلاد فيها والضرائب الباهظة العديدة التي كانت تجبي منهم
بالكرباج لسداد تلك الديون .

وغادر مستر بلنت القاهرة في ربيع سنة ١٨٧٦ فزار بلاد العرب وأنشأ علاقات
بينه وبين بعض القبائل فيها ثم عاد في السنة نفسها الى إنجلترا . وفي صيف سنة
١٨٧٧ رجع يطوف في الشرق فزار حلب وأنهدر في الفرات الى بغداد وعقد في
رحلته هذه علاقات مودة مع القبائل التي مر بها في طريقه . وفي سنة ١٨٧٨ ذهب
الى دمشق وعرف فيها السير ادوار ماليت وكان اذ ذاك سكرتيرا للسفارة الانجليزية
في الاستانة وكان يطوف مثله في سوريا . والسير ماليت هذا هو الذي كان قنصلا
عائنا لثولته في القاهرة في سني ١٨٨١ و ١٨٨٢ فهو الذي جرت علي يديه كل حادثة
هاتين السنتين في مصر .

ثم انتقل مستر بلنت الى نجد ثم الهند ثم كر راجعا الى عدن وفيها علم بمنزل

الخدوي اسماعيل في سنة ١٨٧٩ ثم واصل رحلته فصار الى السويس ومنها الى الاسكندرية
ثم عاد الى بلاده

عاد وقد أخذت تساوره أفكار كثيرة عن الشرق والشرقيين وتلكته فكرة
استقلال العرب فصار يعمل لها ويحدث فيها رجال السياسة في بلاده . وكانت هذه
الفكرة تبعث فيه الشوق الى الشرق كلما استقر في إنجلترا فلم يكده يستقر فيها عاما
بمدرجته تلك حتى أبحر في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠ الى مصر فلما وصل الى القاهرة
عرف فيها بعض شبوخ الازهر وتلتذ لواحد منهم هو الشيخ محمد خليل كي يدرس
عليه اللغة العربية واتصل بعريدي السيد جمال الدين الافغاني وزار الشيخ محمد عبده
في حي الازهر يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ فالتقت بينهما من ذلك اليوم أوامر صداقة
استمرت ربع قرن وذكر مستر بلنت هذا اليوم في كتابه فقال : « يجب ان أميزه
علي سائر الايام لأنه فتح لي باب صداقة بقيت الآن ربع قرن مع رجل من أحسن
وأحكم الرجال العظام » . وبعد أن اقام في القاهرة زما ذهب الى جدة فأقام فيها
أياماً ثم عاد منها الى مصر فسوريا

وفي شتاء سنة ١٨٨١ أي في الوقت الذي كانت فيه نار الحركة العرابية قد
اشتعلت عاد مستر بلنت الى مصر فالتقى بعراي وبكل مؤيديه من الضباط والنواب
وغيرهم من الوزراء ورجال السياسة المصريين . وكان السير مالت فنصلاً عاملاً بالإنجلترا
في القاهرة فلما عرف صداقته للعرايين طلب منه أن يفتهم بأن « مذكرة الدولتين (١) »
لا ترمي الى سوء قبيل مستر بلنت أن يقوم بهذه المهمة . وهو يقول انه اذاها كلرها
لأنه لم يكن مقتنعاً بما كان يحاول أن يفتعه غيره ويقول أيضاً انه لم ينجح في وساطته .
واستمر يعاون « الحزب الوطني » الذي كان مؤلفاً اذ ذاك برئاسة عراي ففشر
برنامجه في جريدة التيس ثم لما رأى ان الحوادث أخذت في مصر دوراً خطيراً

(١) مذكرة فرنسا وإنجلترا للخدوي توفيق باشا في ٧ يناير سنة ١٨٨٢ وقد
ارسلتها على اثر اجتماع مجلس النواب المصري وقالنا فيها انهما تؤيدان سلطة
الخدوي ولا تريان سلاطناً مصر الا بتأييد هذه السلطة . وكان العرض منها تحدى
مجلس النواب . وسيأتي الكلام عنها

وأن السير مالت يستخدم الكذب والنشوية في محاربة الوطنيين المصريين سافروا لاحتلوا ليطلع مستر غلادستون رئيس الحكومة البريطانية ورجال السياسة البريطانيين والرأي العام البريطاني على الحقيقة وليحاول ردحهم عن سياسة العداء . وكان له سكرتير شرقي اسمه صايونجي فأرسله الى مصر ليوافيه بأخبارها . فبقى بلنت بسى في لندن فغالب مستر غلادستون ونشر كتابات كثيرة في الصحف البريطانية وخاصة في التيمس وكان مما نشرته له التيمس في يونيو سنة ١٨٨٢ خطابات حارب فيها السبلة التي يجرى عليها السير مالت والسير أوكلند . كوفلن (العضو الانجليزى في المراقبة الثنائية التي كانت مضروبة على مالية الحكومة المصرية اذ ذاك) وفضح ما تحتوى عليه هذه السياسة من تمدد التشويه وافساد الجو السياسى وذكر أنها استعانة به حينما كان يحسن الظن بهما فتوسط لهما عند الوطنيين المصريين غير مرة ولكنه وقف بعد ذلك على دسائسها فاشتمأز واضطر ان ينفصل منها . فما كادت التيمس تظهر بهذه الخطابات حتى ثارت ضجة حولها في مجلس الاوردات في جلسة ٢٣ يونيو^(١) واضطر السير اوكلند وكوفلن أن يصرح في اول يوليو بأنه لم يكلف السير بلنت البتة « بمفاوضات رسمية » مع عرابى . وما كان بلنت يقول انه كلف « بمفاوضات رسمية » وانما كان يقول انه توسط بنا . على طلب مالت وكوفلن وساطة غير رسمية .

واستمر بلنت يجاهد فتارة يحيل اليه أنه ناجح وتارة يرى الفشل بارزا امام عينيه الى أن ضربت الاسكندرية وانتهت معركة التل الكبير وسلم عرابى وزملاؤه أنفسهم للجيش البريطانى فأخذ يهتم بالدفاع عنهم أمام قضائهم وعين لهم محامين بريطانيين على نفقته ونفقة جماعة من أصدقائه اكتبوا لهذا الغرض . وبلغ مادفنه للمحامين قريبا من ثلاثة آلاف جنيه .

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » —

La Situation Internationale de l'Egypte et du Soudan مؤلفه جول كوشيرى

Jules Cochais صفحة ١٤٦

وبعد بضع سنين أوى مستر بلنت الى مصر وأقام في ضيعة كانت له في المطرية
— بضواحي القاهرة — اسمها « الشيخ عبيد » وكان جاره فيها الشيخ محمد عبده
فأطلعه في سنة ١٩٠٤ على «سودات » التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر» فراجعها
الشيخ وصحح ما رآه فيها مستحقاً للتصحيح .

وكان الشيخ محمد عبده يلح على مستر بلنت في طبع كتابه هذا بالانجليزية
وكان ينوي أن ينقله هو الى العربية لولا ان المنية عاجلك في سنة ١٩٠٥ . فلما توفي
حزن عليه مستر بلنت حزن الصديق على الصديق ثم طبع كتابه بالانجليزية فبقى
كذلك الى أن تولى قلم الترجمة في « البلاغ » نقله الى العربية .

وفي سنة ١٩١٠ عقد الحزب الوطني المصري تحت رئاسة محمد فريد بك مؤتمراً
في بروكسل للاحتجاج على الاحتلال وكان مستر بلنت قد انتقل الى إنجلترا فأرسل
اليه في ١٣ سبتمبر خطاباً آمحى فيه بأشد الاوم على بقاء الاحتلال وعلى السياسة التي
تتبعها إنجلترا في مصر وحذر المصريين من هذه السياسة فقال كلمات نقلها هنا
لأنها تشهد له بالصراحة والأخلاص .

قال مخاطباً المصريين ^(١) : «احذروا منا فإنا لا نريد لكم شيئاً من الخير . إن تناولوا
منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . وما دما في
مصر فالغرض الذي نسعي اليه من البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية
في منشتر ، وأن نستخدم أموالكم لتسمية مملكتنا الافريقية في السودان » .

ثم قال : « لم يبق لكم غدر اذا أنتم اتخذتم في نياتنا بعد أن وضع الأرفبها
وضوحاً تاماً . فاحذروا أن تتساقوا الى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها »

ثم أخذ ينصح لوطنين المصريين فقال : « ثابروا على أن تعارضونا معارضة
جهرية جريئة كل يوم . اطلبوا بلسان واحد وفي كل فرصة أن يوضع حد لما نتألمون
منه وأن تعودنن الى حظيرة القانون وأن نسحب جنودنا من بلادكم وأن نكف
عن التدخل في شؤونكم . اطلبوا ذلك فانكم بطلبه لا تنحسرون شيئاً اذ نحن غربا

(١) مجموعة المؤتمر الوطني للمصري Congress National Eg. صفحة ٨٧ وصفيحة

عنكم ومن حقكم أن تطالبونا بترككم. ذكرونا دائماً، وبكل وسائل الاعلان،
بلاحق لانجلترا في أن تصرف عندكم تصرف السيد وانكم لا تريدونا حاملي لكم
ولا مستشارين ولا منظمين لاداراتكم. ولا تركوا لنا عنراً نعتذر به لندعي
لاصنا شيئاً من ذلك.

« أظهروا معاداتكم لنا بصراحة، ولكن لا تظهروها بثوارت ساقية للأوان
لا تخدكم شيئاً، بل بتلك الوسائل التي تستطيعها كل الشعوب التي غنى بالاجنبي
ثبتت له اسئدائها وهي مقاطعت في معاملاته التجارية والسمية وفي علاقات الافراد
معهم بعض

« لديكم جالية أجنبية كبيرة غير انجليزية فوثقوا روابطكم بها واجتهدوا في
أن تقضوا أشغالكم معها بدل أن تقضوها معنا

« سلموا كل الناس ولكن لا تحاولوا أن تسالمونا لان كل محاولة من هذا النوع
مما تذهب عبثاً ولأن كل نداء. توجهونه الى شعور العدل فينا وشعور الشرف
والانسانية يكون بعد اليوم موجبا للسخرية وليس له عندنا غير جواب واحد هو
الاحتقار.

« لا. لم يبق لكم الا وسيلة واحدة لاقناعنا وهي أن تثبتوا لنا أن احتلالنا
ببلادكم مصدر تمب لنا ينمو دائماً ومصدر خطر عظيم علينا اذا شئت الحرب. أقنعونا
بذلك إذ في اليوم الذي يضم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم
لا توازي المتاعب والاحطار التي يسببها لنا، نرى انكم محقون ونترك بلادكم. وتقوا
بأننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة »

تلك هي نصائحه التي وجهها الى الوطنيين المصريين ولا ريب في ان الانجليز
الذين يقولون مثلها قليلون

وقد تردد ذكر مصر بلنت في أكثر الكتب التي ألفت للآن عن حوادث
سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢، فقال عنه جول كوشيري صاحب كتاب «الحالة الدولية لمصر
والسودان» (١) ان مساعيه وكتابه والانتقادات الحارة التي وجهها الي انجلترا

دلت على أنه من أولئك الانجليز الذين يجرون العالم في رأسهم فكرة أو قضية يبادون بها ويدافعون عنها بكل ما في الخلق الانجليزي من الصلابة وماني الايمان من العقيدة المقدسة. وروى آشيل بيوفيس Achille Biais في كتابه «الفرنسيون والانجليز في مصر» (١) انه لما حصل مستر بلنت من العرايين على برنامج الخبز الوطني وراحته مع الشيخ محمد عبده علم ببحره السير ماليت فرغب الى مستر بلنت في تعديل بعض فقراته قبل نشره في التيمس فلم يتمكن من ذلك إلا بعد عدة أيام كان فيها مستر بلنت سفيراً بيه وبين العرايين وحيث كسب السير ماليت الى لندن يثي على مستر بلنت ويقول انه «مدين له بكثير من الفضل وانه قد يعتمد عليه في المستقبل في مهام جدية» (٢). وقال اللورد ماطر ان مستر بلنت كان في بعض الاوقات ينزل في فندق شرد فكان كلما ذهب الى المحطة للسفر أو جاء منها ركب جملاً. وقال غيرهم أشياء أخرى لا محل للامانة فيها

ونوفى مستر بلنت في عام ١٩٢٤ بعد أن طبع مذكرات له في ثلاثة مجلدات ضخمة فيها حزمه عبر قليل عن حوادث مصر قبل الاحتلال وبعده. وقد نشر «البلاغ» تعريب هذا الجزء، وربما جمع في كتاب على حدة.

• • •

عهد اسماعيل باشا

نظرة سريعة

ليس كتاب «التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر» تاريخاً بالمعنى المعروف من كلمة «التاريخ» وإنما هو قصة شخصية قص صاحبها رحلاته في سوريا والعراق والمند ونجد وحده ومصر، ثم اذ استقر في القاهرة في آخر سنة ١٨٨١ قص الحوادث التي حرت على يديه فيها، ثم اذ غادرها بعد ذلك الى لندن قص مصاعبه السبابة فيها من جانب والاخبار التي كان سكرتيره صابونجي يرسلها اليه من مصر

(١) Français et Anglais en Egypte صبعة ٤٣

(٢) الواقع ان السيد ماليت كتب تلغرافين بهذه الالفاظ الى اللورد جرنيل الذي سافر اذ ذاك وزيراً لخارجية انجلترا في ٢٦ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

من جانب آخر . فهو لم يكتب كتابه هذا ليحمله تاريخا ككل التواريخ وإنما كتبه ليكون قصة لحوادث رأها بعينه وكن له ضلع فيها . ولا مثال هذه القصص التي يرويها شهود الرؤية قيمة كبيرة في تحديد الحقائق وتسجيلها في صفحات التاريخ ولكنها ليست التاريخ في ذاته ولهذا رأينا أن نضع أمام نظر القارىء ، قبل أن يقرأ القصة موجزاً سريعاً للحوادث من عهد الحديو اسماعيل باشا الى أن دخل الانجليز القاهرة كي تكون هذه الحوادث ماثلة في ذهنه أثناء قراءته القصة .

مأساة القروى

لا يسع كل من يقرأ تاريخ مصر من عهد اسماعيل باشا الى اليوم الا أن يحكم من هذا العهد كل بدء السكيات التي نالت على هذه البلاد بعد ذلك حتى رمت بها بين برائن الاحتلال . فان قصة الديون التي اندفع فيها اسماعيل باشا بطيش لاشيل له كانت مأساة قتلت البلاد من الرخا ، وراحة البال الى الحراب ثم الي الوقوع في شاك النفوذ الاحبي ثم الى الثورة ثم الاحتلال . ومهما بقل القائلون في الاصلاحات حتى أنشأها اسماعيل باشا فان مأساة ديونه تذهب بكل قول لانها باقاعها البلاد في الحراب قصت على جميع الاصلاحات ثم لانها زادت بعد ذلك فقصت على استقلال البلاد .

وقد وصف الورد ملتر ^(١) لهيمايل باشا فقال انه « المثل الكامل للتنذير ، وأعظم من عرف في التاريخ بالسفه مع عنم الاكثوات بالعواقب » ثم قال انه « لم تكن له مبادي ، يصدر عنها بل كانت له أعمال جنوبه تمتاز بأنها نشبه في ضخامتها صخامة الاهرامات أو معبد الكرنك » . ثم استمر فقال ان « الاستبداد كان خلقا فيه ولكنه مع ذلك نزل حتى صار مستعظياً وأسيراً » . تلك هي الاوصاف التي وصفها به الورد ملتر ، والورد ملتر سياسي انجليزى يعرف أن ديون اسماعيل كانت أول عامل في الحوادث التي استغلتها انجلترا حتى وضعت يدها على مصر فليس من السهل ان ينهم بالسكرامية له والحقد عليه .

ونع الآن مرور السهم بقصة هذه الديون فنقول انه لما ولي اسماعيل العرش في

سنة ١٨٦٣ كان كل الدين الذي على مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انجليزي^(١) وكانت ضريبة العدان ٤٠ قرشا وكانت الملاك ورجالها ظاهر فشرع يبيع القصور ويقسم الحفلات وينشى المشاريع الصغرى غير ترويه ولا حساب كأنما كانت كل فكرته أن يعلن عن نفسه لا أن يصلح^(٢). فاشأ طرقا وهامل وورث وصاعات كانت كلها ضخمه ولكمها لم تكند توحده حتى أهملت وصار كثير منها مأوى للوحوش^(٣). واندفع في حب الظهور فادش لموك أوربا بما كانوا يسمونه كراما شرفا وهاهو الاسراف القاتل. وقد بقيت حفلاته التي أقامها للملك أوربا وملكانه، وأمراتها وأميراتها في فتح قناة السويس مثلا يتحدث به الأوروبيون الى اليوم في كل ما يكتبونه عنه. وكلن يدهيا أن ميراية مصر لا تتحمل هذه النفقات فكل من الضروري لاسماعيل أن يستدين فاندفع عا فيهم عدم المبالاة بالمواقب فادال حتى قضي على نفسه وعلى مصر معه

بدأ فقد أول قرص في سنة ١٨٦٤ سائدة ٧ في المئة عبر الاستهلاك. وعقد في سنة ١٨٦٥ قرضا ثانيا. ثم مصت سنة ١٨٦٦ غير أن يعقد قرضا ولكن لما جاءت سنة ١٨٦٧ حدث به الحاجة الى فرض ثالث وكان قد برع في التمهيد للاقراض وى التطاهر بالبدخ استحللها لارباب الاموال فجعل لمصر جناحا في معرض عام فتح في تلك السنة في «ريس ثم حا. بنفسه اليه وأحد يظهر

(١) يقوله مسيو دى فريسيزه في كتابه « المسألة المصرية » ان اسماعيل باشا لما تولى العرش اصدر بيانا بالدين الذي تركه سلفه سعيد باشا ادخل فيه ثمن الـ ١٧٦ الف سهم التي كانت حصه مصر في شركة قناة السويس والتي كانت على مصر ان تدفع قيمتها ، فكان هذا البيان ٣٦٧ مليون فرنك اي نحو ١٤ مليون جنيه ونصف مليون. وكان ثمن الاسهم مقدرا في هذا المجموع بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهو لا يصح ان يعتبر ديناً.

على اننا لم نجد لهذا التقدير الذي اصدره اسماعيل باشا مستندا صحيحا ووجدنا كل مصادر التاريخ تقول ان دين مصر في ذلك الوقت لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين جنيه

(٢) انظر كتاب Croquis Egyptiens صفحة ٨٥ مؤلفه de Khonschy

(٣) انظر رسائل كتبها اذ ذاك مدام Lee Chaur تحت عنوان Impressions

de voyage

من ضروب الاسراف ما ائت اليه الا نظار ، ولم يرح باريس حتى عقد مع محل مالي
بها قرضا ببلغ ٢٩٦ مليون فربك أى قريبا من ١٢ مليون جنيه^(١)

وفي الـام التالى ١٨٦٧ عقد قرضا راسعا فبلغ مجموع ما اقترضه ٢٥٠٠٠٠٠٠
شراوح فائدتها الاسمية بين ٧ وفي السنة اسافا فائدها الحقيقية فنشراوح بين ١٢ و ٢٩ في المائـة^(٢) .
وحينئذ تفتت الحكومة العثمانية لما قد يكون من تأثير هذه الديون على مصر لخطورت
على اسماعيل ان يستدين ، ولكنه بالرغم من هذا الحظر عقد في سنة ١٨٧٠ قرضا مع
المك الفرنسي المصري ببلغ ١٧٥ مليون لراك ومائة ١٣ في المائـة ودهن فيه بمص
أماكلا وأماكلا أسرته . وهذا القرض هو الذي كان يسمى قرض الدائرة السنـية .
وحينئذ كتب الباب العالي الى الحكومة الانجليزية باعتبار اسمها ممثلة لمعظم دائتي
اسماعيل « يحتاج مقدما على كل اتفاق مالي بمس دخل مصر بالذات او بالواسطة ولا
يكون جلالة السلطان قد أقره »^(٣)

وهل تظن ان شهوة الاقتراض في اسماعيل وقفت عند هذا الحد أو أنه شعر
بالملاوية التي تحفرها هذه القروض تحت اقدام مصر فكبح جماح نفسه ؟
كلا ، ولم تزد الشهوة فيه الا استعكاما ولم يبق له شاغل يشغله الا ابتكار الخيل
لا اجتذاب المرائين وعقد القروض معهم . ولكن سنة ١٨٧٠ كانت سنة الحرب بين
المانيا وفرنسا وكانت هذه الحرب قد أفضت أسواق أوروبا فإذا يفعل ؟ أنه اذن
يلجأ الى حيلة غريبة يئز بها الاموال من كل ذى مال بين المصريين ، وهي ان
يصدر ما يسمى « قانون المقابلة » وفيه تتعهد الحكومة اكل من يدفع مقدما ضرائب
ست سنوات على أطبائه باعفائه من نصف الضرائب على هذه الاطيان الى الابد .
وبهذه الحيلة يحصل اسماعيل على خمسة ملايين جنيه ينفقها الى ان تنقش امامه أسواق
الترابين في فرنسا وانجلترا .

(١) كتاب « المسألة المصرية » لسبوى قريشيه ص ١٤٨ و ١٤٩

(٢) تقرير مئة كيف صفحة ١ وسياق ذكره

(٣) الصحيفة البريطانية (١٠٠) ١٧٨٠ ص ١ (عن كتاب المسألة

المصرية لستر يودور وتستن وتريب الاستاذين عبد الحيد البادي وعبد دران)

وكانت ديون اسماعيل الى هذه الساعة شخصية تقع عثها على أملاكه وأملاك أسرته المرهونة ثم على دخل الحكومة في عهده بمقتضى ماله من سلطة التصرف في هذا الدخل ولكنها لا تقع على دخل الحكومة بعد عهده . وكان اسماعيل قد وضع يده بأساليب مختلفة على أطيان واسعة من أملاك الفلاحين لأن المرايين ذكره . بأن جميع أطيان القطر المصري كانت ملكا للوالى في عهد جده محمد على باشا وأن سعيد باشا هو الذى خالف هذه القاعدة ونزل عن ملكيتها للأهالى . وكان قصد المرايين من ذلك أن يحصلوا على أعظم صيان ممكن لأموالهم وأطباعهم . ولكن فاء المديون شخصية كان من شأنه أن يضع حدا للاقتراض فلما بلغ اسماعيل هذا الحد ورأى أن الباب العالى « يحتاج مقدما على كل اتفاق مالى بمس دخل مصر بالدات او بالواسطة » فكر في أن يزيل هذه العقبة من وجهه وإن يحصل من الباب العالى على السلطة التى تبيح له ان يرهن دخل الحكومة كي يحول ديونه الشخصية الى ديون على الحكومة وكى يتسح المجال امامه الى قروض جديدة . وفعل ما سعى له هذه الغاية في الاستانة وأرسل اليها نوبار باشا فما زال ينثر فيها الذهب حتى حصل على فرمان سنة ١٨٧٣ وبه نال اسماعيل لقب « خديو » وصار عرش مصر إرثا لانه بعد ان كان للارشد في أسرة محمد على وصار من حق اسماعيل ان « يتصرف التصرف التام المطلق في شؤون البلاد المالية » ، فحول كل ديونه السابقة الى ديون على الحكومة رهن فيها جزءا كبيرا من الدخل ثم شرع يطرئ ابواب المالىين في انجلترا وفرنسا لتعرض لم يكن يرضيه في هذه المرة الا أن يكون ٨٠٠ مليون فرنك أى نحو ٣٧ مليون جنيه

ورهن اسماعيل في هذا القرض دخل السكك الحديدية ودخل ميناء الاسكندرية وكل دخل مرهون من قبل يصبح حراً بعد سداد ما عليه . وكان اسماعيل ومواري قد بذلا كل الجلب وكل الجهود كي ينجح هذا القرض ولكن لما فتح الاكتتاب

والى ها ملقت ديون اسماعيل القمة ووقفت البلاد من جراتها على شاة
المناوبة . وقد حصرت هذه الديون سد ذلك بقليل اى حيا صدر « قانون التصمية »
فكانت كما يأتي : —

الدين المتأثر	٢٢٦٨٩٨٠٠ جنيه انجليزي
الدين الموحد	« « ٥٨٦٠٤٠٣٣٦
قرض الدائرة السنية	« « ٩٦٥١٨٨٠٤
قرض القومين	« « ٨٦٥٠٠٠٠٠
المجموع	٩٨٦٧٤٨٩٣٠

ناذا نحن اسندنا من ذلك الثلاثة الملايين التى اقترضها سلفه سعيد باشا كان
مجموع ما اقترضه اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٥ اى فى ثلاث عشرة سنة
قريبا من ٩٦ مليونا . وهذا عدا حصة ملايين اخذها فى « قانون المقابلة » وحصة
ملايين اخرى اخذها فى « الررنانة » وثمانية ملايين اخذها فى السندات التى أصدرها
على الخزينة وأربعة ملايين من أسهم شركة قناة السويس وملايين أخرى استولى عليها
من كبار التجار وكبار المزارعين لم نحصر ولم نقيّد فى حساب

(١) يؤخذ من كتاب وضعه مسيو شارل رو أحد النواب الفرنسيين تحت عنوان
« برزخ وقناة السويس » — L'isthme et le Canal de Suez — فى سنة ١٩٠١ أن
الحكومة البريطانية قبضت عن هذه الاسهم من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٩٤ قائدة
قدرها ٥ ملايين فرنك فى السنة أى ١٢٠ مليونا . ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ الى
سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٧ و ١٦ مليونا اى ٨٥ مليونا . فيكون
مجموع ما قبضته من الرخ لثاية سنة ١٩٠٠ — ٢٠٥ ملايين اى ضعف المئتين الذى
اشترت به من اسماعيل . وهذا غير الرخ الذى قبضته من سنة ١٩٠٠ الى اليوم
(وصفيحة ٣٥ — جزء ثان من الكتاب المذكور)

اما نحن هذه الاسهم الان فيقرب من ٩٠٠ مليون فرنك ذهباً

في أعمال الزاوية

ولادة حكومة جمع اسماعيل هذه الديون ؟

الحكومة مصر التي كان كل دخلها في عهد سعيد باشا لا يزيد على خمسة ملايين جنيه، وكان في عهد هو، بعد ان ردت ضرائب الاطيان من ٤٠ الى ١٦٠ قرشاً وبعد ان أزهق أهلها عشرات من الضرائب، لا يزيد على تسعة ملايين ونصف مليون. وبأية فائدة كان اسماعيل يقرض هذه الديون ؟

بفائدة اسمية بين ٧ و١٢ و١٣ في المئة وفائدة حقيقية بين ١٣ و٢٦ في المئة كما ثبت ذلك مسر « كيف » الذي سيأتي ان الحكومة البريطانية أرسلته في ديسمبر سنة ١٨٧٥ ليفحص حالة المالية المصرية (١)

على ان مبالغ هذه الديون لم تصل كاملة الى يد اسماعيل بل كان مقرضوه من المراهين يكتبون القرض كاملاً ثم يقدمون له حساباً طويلاً بالسمرة والفوائد التي يحجزونها مقدماً على أساس ٢٦ في المئة كي يكون الباقي منها ٧ في المئة كما هو مذكور في العقد ثم تغير ذلك من المصروفات والأتعاب والهبات « البقشيش ». وكان اسماعيل يقبل منهم هذه الحسابات بسهولة ولهذا دل التحقيق على انه لم يستلم من القرض الكبير الذي عقده في سنة ١٨٧٣ بمبلغ ٣٢ مليون جنيه غير ٢٠٠٠٠٠٠٠ ر. ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه (٢) ولم يستلم من القرض الذي عقده في سنة ١٨٧٠ بمبلغ ٧ ملايين حيه غير ٥ ملايين ثم لما احتج الباب العالي على ذلك وشا اسماعيل الصدر الاعظم فأسدل الستار وعاد كل شيء الى السكوت (٣). وأخيراً ان كل الدين لمحموا مالية مصر في تلك الاوقات

(١) صفحة ٧ من تقرير كيف

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذي تقدم ذكره ص ٧٠

(٣) كتاب Croquis Egyptiens الذي تقدم ذكره ص ٩٥ - وكتاب « الحالة

الدولية لمصر والسودان » ص ٧٠

يجمعون على أن اسماعيل لم يستلم سوى ما يقرب من ٥٤ مليون جنيه من كل اقروض
التي عقدها والتي تقدم اليها بلغت حوالي ٩٩ مليوناً (١)

ونظر كيف كان تأثير هذه الديون في ميزانية الحكومة . حصرت الميزانية في
سنة ١٨٧٧ وكان مجموع الإيرادات ٩٥٤٣٠٠٠ جنيه ثم كان ما حصص منها للديون
بين فوائد واستهلاك ٧٤٧٣٠٠٠ ر ٧٤٧٣٠٠٠ جنيه يضاف اليها الوبركو المحصص للباب العالي
وما كان على الحكومة أن تدفعه لشركة قناة السويس في تلك السنة يكون الباقي من
الإيرادات ١٠٧٠٠٠ ر ١٠٧٠٠٠ جنيه . فهذا المليون الواحد والسبعين ألفاً كان على الحكومة
أن تتفق على جميع شئون البلاد على موظفيها وعلى الجيش والبوليس والارز والاعمال
والحاكم والصحة العمومية وغير ذلك من كل ما يجب ان تقوم به الحكومة

ولم تكن مصروفات الحكومة في ذلك الوقت عادية بل كان فيها عصر مجف
هو المصروفات المحصصة للموظفين الاجانب والتعويضات الفاحشة التي كانت تدفع
في كل وقت للأفريقيين من الاجانب . وذلك ان اسماعيل رغب مند توليته العرش
في ان يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وبما ان العكرة كانت تتحول عنده بسرعة الى
دعونة ظن أنه يستطيع ذلك بالكثارة من الموظفين الاوربيين وواعظاتهم المرتبات
الضخمة واعدائهم الهدايا والنعم ليشوا عليه وعلى حكره . ثم لما وقع في الدين
اهالت عليه من الدائنين ومن الحكومات الاجنبية سيول من مستعطي الوظائف فلم
يجسر أن يرد أحداً ، حتى اذا جاءت سنة ١٨٧٧ التي مر ذكرها كانت مرتبات
الموظفين الاجانب ٣٧٣٠٠٠ ر ٣٧٣٠٠٠ جنيه فاذا هي خصمت من المليون والسبعين ألفاً التي
تقدم ذكرها لم يبق للحكومة ولجميع شئون البلاد غير ٧٠٠ ر ٧٠٠ جنيه .

اما التعويضات للأفريقيين فان اكثر عشرين اسما عيل في السنين الاخيرة كانوا
قوما كل مهم ان يستثيروا شهوات نفسه وان يقضوا هذه الشهوات ليقتصروا
من ورائها كل ما يمكن اقتناصه من المغانم . فتقدموا له بطلبات امتيازات
لأنشاء معامل والبحث عن معادن ولجلب صناعات اوربية وغير ذلك من الاعمال .
ولم تكن طلباتهم هذه جدية ولم يكن قصدهم منها ان يعملوا وانما كان كل قصدهم

(١) كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » ص ١٩ من الترجمة

فقد يحصلوا على الامتيازات ثم أن يتعلوا بأية علة من العلل كي يلقوا مسئولية
 فشلهم على الحكومة وكي يطالبوها بتعويض . وكان اسماعيل سهلا في دفع هذا
 التعويض حين كانت أبواب القروض لا تزال مفتوحة في وجهه وحين كانت يده
 تفتح هذه القروض بيننا وشمالا فكان ذلك يشجعهم ويحملهم حوله جيشا
 جبرلوا . ولكن لما سدت أبواب الاقتراض في وجهه لجأوا الى المحاكم
 القبلية معتدين انها لا تد أخذة باصرم ضده . وكانت هذه المحاكم قد أنشئت في
 سنة ١٨٧٦ فأحصيت التويضات المطلوبة من الحكومة المصرية أمامها في تلك السنة
 وحدها فكانت ٤٠ مليون جنيه ^(١) . وبروي في هذا ان اسماعيل استغل ذات
 يوم واحدا من أولئك الأفاقيين أصحاب الامتيازات وكانت نافذة الفرقة مفتوحة
 فعلى موظفا من موظفي قصره وقال له : « أغلق بالله هذه النافذة لئلا يصاب السيد
 (مشيراً الى زائره) ببرد فيكلفني ذلك عشرة آلاف جنيه » ^(٢)

تأثير البربرية في حالة الشعب

وفي أثناء ذلك كانت حالة الشعب أسوأ حالات ، فضرائب الاطيان زادت
 كما قلنا من ٤٠ الى ١٦٠ قرشا والضرائب الأخرى لم تكن تعد لأن اسماعيل كان
 كلما وقع في الحاجة اقترح ضريبة جديدة وجعل الكرياج وسيك الى تمصيلها . ثم لما
 ذكره المرابون كما تقدم بان جميع الاراضي كانت ملكا للوالي وأن جده محمد على
 بقى الى عدة سنوات صاحب الامتياز في تجارة مصر الخارجية عول على أحياء هذه
 الحقوق في شخصه ^(٣) فأخذ يرهق المزارعين حتى تصبغ الاراضي عالة عليهم
 فيضطروا الى بيعها بأثمان بخسة او الى تركها والفرار منها فيضع يده عليها . وبهذه
 الطرق استولى على خمس الاراضي الزراعية في القطر ولما يحض على حكمه بضع

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » القدي تقدم ذكره صفحة ٧١

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها

(٣) كتاب « التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر » صفحة ١٧ من الترجمة

سنتين^(١) وحسب ان نقلها ما كنه مستر بلس وصفا لحالة الفلاحين وقد رآهم
اذ ذاك بعينه ، قال :

« كان من الامور المألوفة في تلك الايام ان يرى الانسان شخصا في الحقول
وعلى رأسه عمامة او على ظهره شئ ، اكثر من قميص . وحتى في ضواحي القاهرة ،
وبالاكثر في الميوماتي بما بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الخمال ، يمكنني
ان اقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عبادة .
وايضا ههنا كانت الخمال كذلك . وغصت مدن الارياض في ايام الاسواق بالنساء
اللاتي اتين لبيع ملابسهن وحليهن النفيسة للرأبب الاروام لان حامى الضرائب
كانوا في قراهن والكرباج مشهر في ايدهن . فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة واصفينا الى
قصصهن واشترى كما معلن في استنزال الاموات على الحكومة التي حملهن عرايا »

فهذا الوصف يدل على مقدار ما وصل اليه سوء الحال في ذلك الوقت . وقد
شمل هذا سوء جميع الطبقات وجميع المهنات ومن بينها هيئة الصايط والخيصة ،
وكان أحد عرابي أحد هؤلاء الصايط فأجاب جماعة من زملائه عصية سرية لمخلع
اسماعيل^(٢) ولكن هذه العصية لم تفعل شيئا . وكان السيد جمال الدين الانصافى
اذ ذاك في مصر فاقترح على الشيخ محمد عبده ، وكان أحد تلاميذه ، أن يقتل اسماعيل
على جسر قصر النيل^(٣) وهذا ما يقوله الشيخ محمد عبده في ذلك : « كان الشيخ جمال
الدين موافقا على المخلع واقترح على أن يقتل اسماعيل وكان يمر في مركبته كل يوم
على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما تنهاسه فيما بيننا . وكنت
أنا موافقا الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه
الحركة » .

(١) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧

(٢) انظر « تاريخ أحد عرابي بقلمه » في ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٤٧

(٣) انظر المصدر السابق في الصفحة نفسها - وانظر ايضا « رأى الشيخ محمد

عبده في تاريخ عرابي » المنشور في ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٥٤

تغير الميزانية في مائة اليوم السياسية

هذا كان تأثير الديون في شؤون البلاد المادية فنظر بعد ذلك في تأثيرها في الشؤون السياسية وسفرى أنها كانت البلب القذى نسرّب منه النفوذ الاحي الى سلطة الحكومة المصرية ودخلت منه إنجلترا حتى وصمت يدها على مصر

عد أن افضلت الاسواق المالية كلها في وجه اسماعيل في سنة ١٨٧٥ وبينما كان يحكر في بيع سهم مصر في قناة السويس كان يرى أن تمن هذه السهم لا يكتفي وأن لا حد له من قروض جديدة ، غير أنه كان يعلم أن اسواق أوروبا لن تعود تفتح أبوابها له الا اذا قام لديها يرهان على أن مصر قادرة على الدفع وأن مالىتها تحمّل قروضا تغرى ، فهداه التفكير الى أن يكون هذا البرهان شهادة يأخذها من مندوب تنديبه لدى الحكومات لفحص حالة مصر المالية . ولم يكن أمامه لهذا الغرض غير احدى حكومتين هما إنجلترا وفرنسا لان ديونه كلها كانت في بلادهما ، ولكن فرنسا كانت لاتزال مرتبكة بعد حرب سنة ١٨٧٠ فلم تكن أسواقها مستعدة لان تهرض فاقبجه الى الحكومة البريطانية وخطب قنصلها العام في مصر الخمرال استاتن في أنه « محتاج الى موظف عليم بالنظم التابعة في مالية الحكومة البريطانية ليعاون ناظر المالية المصرية على سد الخلل الذى يعترف به سموه في هذه النظارة »^(١) وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت سليمة من كل تدخل للحكومات الاجنبية فكان هذا الطلب أول دعوة لانشاء هذا التدخل^(٢)

وكتب الخمرال استاتن الى الورد دوبي وزير خارجية الحكومة البريطانية بما طليه منه اسماعيل فاعز الورد بان يكون الطلب كتابة وأن يكون موضوعه « استعارة موظفين بشرقان على التدخل والمخرج ويكونان خاضعين لارشاد ناظر المالية وأمره »

-
- (١) كتاب « المسألة المصرية » لنيودور روستين ص ١٠ من الترجمة
(٢) كان اسماعيل قد استعار قبل ذلك من الحكومة البريطانية موظفين مما ستر يل ومستر اكنز للعمل في مصلحة التجارة ولكن طبيعة عملهما لم تكن تجعل لهما صفة سياسة فكانا كثيرهما من الموظفين الاجاب اما وجود مندوب من الحكومة البريطانية يعاون وزير المالية فهو امر لا تخفى صبغته السياسية

فرضي اسماعيل وكتب ما أملى عليه . وفي أثناء ذلك ، وقبل أن يجيب اللورد دربي على هذا الطلب ، اشترت الحكومة البريطانية سهوم مصر في قناة السويس في ٢٥ نوفمبر ، بعد هذا الشراء . يوم واحد كتبت جريدة التيمس تقول : « ان الجمهور في هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذي قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لامن نواحيه التجارية . سيعده مظهرة وشيئاً أكثر من مظهرة . سيعده اعلاناً لنيانسا وشروعا في الفصل على تحقيقها . ان من المستحيل أن نفكر في شراء أسهم قناة السويس . معصلا عن علاقة إنجلترا المستقبلية بمصر » . وبعد ذلك يوم واحد أيضا أي في ٢٧ نوفمبر كتب اللورد دربي الى الخرنال استانتون يقول ردا على طلب اسماعيل « ان الحكومة البريطانية ترى أن ترسل الى مصر بعثة خاصة تنظر هي والحدود فيما يساله من النصح في الشؤون المالية » وبذلك حولت الحكومة البريطانية طلب اسماعيل موظفين الي « بعثة » وحملت مهمة هذه البعثة « النصيح » ، والنصح في لغة السياسيين معناه الوصاية

وقبل اسماعيل رأى الحكومة البريطانية بحكم حاجته الى المال فألقت البعثة من نخبة من موظفي الحكومة البريطانية تحت رئاسة مستر كيت وقدمت الي مصر في النصف الثاني من ديسمبر وشرعت تفحص حالة المالية المصرية . وفي ٢٩ يناير سنة ١٨٧٩ كتبت جريدة التيمس تقول : « لاشئ . أضمن لسلامة مصر من القيام بتغيير أساسى في الحكومة المصرية وماليتها . ولا شك في أنه لو كانت الثقة بمصر فيما معنى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع ذاتها على خير من الشروط التي اتفقت معهم عليها . فالمسألة اذن هي كيف نموز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر ان كل ما يقال في هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بان الحدو سيضع بطريقة من الطرق صاغراً للإرشاد الانجليزي وأنه سيعهد الي إنجلترا بإدارة مالية مصر ، وبذلك يتحول الى مصر بعض من ثقة الجمهور بانجلترا فتحتمل من تحويل ديونها واتقاص أناسها السنوية قصاً كبيراً » . اذن كلن الانجليز يريدون من بعثة « كيف » أن تؤدي الى اخضاع اسماعيل للإرشاد الانجليزي ثم أن يتولوا ادارة المالية المصرية . وكلن معلوم

في ذلك على ما يعرفونه في اسماعيل من الرغبة في قروض جديدة ثم على ما يعرفونه
في حيله من الاشراف على الافلاس

وكان اسماعيل حينما فكر في طلب مندوب من الحكومة البريطانية يعرض
عليه ويطلب شهادة عنها يعتمد أولا على استطاعته خدع هذا المندوب واخفاء الميوب
عن عينيه وثانيا على مظاهر التودد والاكرام يحيط بها ومظاهر القتي والبذخ
يتظاهر بها امامه . وهذا وذلك اعتقد اسماعيل انه مستطيع ان يأخذ من رتبة « كيف »
تحريراً يرضيه فلا يكون عليه بعد ذلك الا ان ينشره ليعود الاسواق المالية تفتح له
تجول الاقتراض .

ولم لم يتساهل مع الحكومة البريطانية في تحويلها طلبه مسدودا الى رتبة وفي
حسابه هذه الرتبة « النصح » الا توهمه انه بذلك يستدرجها الى معاونته
على قصده . ولكنه نسي في هذا الحساب أولا ان كثر دائنيه كانوا من
الاجليز الذين تسأل الحكومة البريطانية عن رعاية مصالحهم وثانيا ان هذه الحكومة
كانت ترى مصالحها في التجميل بخراجه وشهد الحقائق عليه لانها بذلك توقعه . في
ليس ونستدل فنتسليم أن نسخره لتحقيق مطامعها السياسية . ولهذا لم تصح رتبة
« كيف » التقرير الذي كان اسماعيل يرجوه بل وضمت تقريرا لا يسره فلما رأى ذلك
استاء ولم يقبل البرنامج الذي اقترحه عليه والذي كان مؤداه أن يخضع « للنصح »
«بريطاني» ، ولكنه مع ذلك لم يفلت من مخالب الحكومة البريطانية لانه قبل أن يعمده
بموظف من عندها هو السير رفرز ولن يتخذ مستشاراً ماليا يعاون وزير المالية
وكانت الحكومة الفرنسية تراقب من قرب ماضي الحكومة البريطانية في مصر
فما علمت أنها سترسل السير رفرز ولن مستشارا ماليا لاسماعيل رأته أن يجيب على
هذه الحركة بحركة مثلاً فأرسلت علي الفور أحد موظفيها ، وهو مسيو فيليه ، ليسانس
اسماعيل على تنظيم ماله . فتضايقت الحكومة البريطانية من هذه المقاومة وأرسل
الورد دربي الى اسماعيل يطلب منه ألا يتسرع في اتخاذ أي قرار وأن ينتظر وصول
السير ولن

ووصل السير ولن رأى أن مسيو فيليه عرض على اسماعيل مشروعا لتنظيم

المالية المصرية (ليس هنا مكان يانه لانا تقتصر في مانكتنه على الوجهة السياسية) فلم يقبله ولم يقبله معه حكومته ، ولكن اسماعيل قبله وأظهر الرغبة في الاحد به ، فلم يكن من الحكومة البريطانية الا أن أحابت على ذلك بأن صرت اسماعيل ضربة أليمة كانت سببا في اسمعيل مغرابة . وذلك أنها كانت قد اتفقت معه على عدم نشر التقرير الذي وصعته بعثة « كيف » فلما رآته ميالا للاحد شروع ميوفيليه لوحث له فانما ستر التقرير فكتب اليها بحتج على نيتها هذه ويقول ان المعلومات التي قدمت لبعثة « كيف » سرية محضة . فطاهرت بالاصفاء . واحتجاجه ولكنها أوعزت الى أحد الدواب البريطانيين بان يسألها في البرلمان متى ينشر التقرير ، فلما طرح عليها السؤال لم تجب بان التقرير وضع على أن يكون سريرا لا ينشر بل أحاب مستر دزرائيلي بانه لا يمانع في نشره ولكن الحدي هو الذي يمارض في ذلك أشد المعارضة ^(١) . فكان هذا الحواب أسوأ من التقرير نفسه وكل من تأثيره أن تدهورت في الحال أسعار السندات المصرية تدهورا شديعا ، وحينئذ لم ير اسماعيل الا أن يعود فيسمح بنشر التقرير ونشر في ٣ ابريل أي بعد عشرة أيام فقط من نصريح اللورد دزرائيلي . وشعر اسماعيل بألم هذه الضررة فقال وهو يكاد يبكي : « لقد حفروا الى القبر » ^(٢) -

Ils ont creusé ma fosse

وكان علي اسماعيل أن يدفع قسطاً من الفوائد — Coupon — في أول ابريل ، ومع أنه كان قد قضى من الحكومة البريطانية قبل ذلك بأربعة أشهر أي في ٢٥ نوفمبر أربعة ملايين جنيه في اسهم قناة السويس لم يكن لديه شيء يدفع منه هذا القسط ، فلما أعلن اللورد دزرائيلي تصريحه المار ذكره وهوت أسعار السندات المصرية لم يجد اسماعيل بداً يمتد اليه بقرض جديد يدفع منه . فكتب في ٢٨ مارس أي قبل ميعاد الاستحقاق بثلاثة أيام الى الحكومتين الفرنسية والانجليزية يسألها في تذلل وحموع أن تأتيا لمعونة والا حل به الدمار ^(٣) فاحات الحكومة البريطانية بالرخص اما الحكومة الفرنسية

(١) « تيودور روستين ص ٢٠ و ٢١ من الترجمة — و « المناقشات البرلمانية »

لهنارد مجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٣٩

(٢) المصدران السابقان

(٣) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٥٧

مرت لن تحت مظلة ساحة لاحتداب اسماعيل انها فاحات بالقول ودبرت المال على
على حوصل الى لندن في الساعة الاحيرة من مساء ٣١ مارس واختب اسماعيل بذلك
اللقب افلاسه

واقترحت الحكومة الفرنسية حينئذ على اسماعيل أن يشي، ادارة خاصة تسمى
« صندوق الدين العمومي » تتولى، تحت اشراف مندوبين عن الدولة، تحصيل جزء
من ايرادات الحكومة المصرية ودفع الاقساط منه . فتردد اسماعيل في قبول
هذا المشروع لما رآه فيه من تقييد سلطته وزهدت الحكومة البريطانية أن توافق
عليه لانها لم ترض عن شروطه . وعلى أثر هذا الرفض كتبت التيمس في يوم ٧ ابريل
تقول : « لا بد من احد أمرين إما أن تقوم حكومة والية للحدود فتمد اليه يد مبادئها
بحرة نظير قبوله سلطتها الحالية والافيت تقدم الحدود بشرع من عنده » فكل هذا حلياً
في نزاجاترا كانت تسمي من ذلك الحين لا كراه اسماعيل على قبول هاجتها ،
وكن مسلحها جلبا في انها تحمل وسيلتها الى ذلك شرك الديون الذي أوقع اسماعيل
مصر فيه والحزب القدي جره على ماليها

ولم يستند اسماعيل من القسط الذي دفعته عنه الحكومة الفرنسية (قسط أول
بريل) أكثر من أن يتنفس أسبوعا واحدا ، لأن الداء كان عضالا لا يعيد فيه ذلك
لكن الوقتي . فبعد هذا الأسبوع الواحد عاد الداء . فظهر أشد مما كان ولم يجد اسماعيل
مسلحاً من أن يخضع في هذه المرة لإعلان افلاسه فطلعت الحكومة المصرية في صباح
٨ ابريل في بورصة الاسكندرية اعلانا بانها عازمة عن دفع القسطين المستحقين في
بريل ومايو في ميعادهما وستدفعهما بعد ثلاثة أشهر . فكان هذا اعلانا لتوقف عن
الدفع أى للافلاس .

وما كاد هذا الاعلان ينشر حتي انتلأت السوق للمصرية وعبا فذعر اسماعيل
وسارع الى ابلاغ الحكومة الفرنسية انه يقبل انشاء صندوق الدين القدي اقترحته
عليه ظاناً انه بذلك يتقذ موقعه . وأمضى فعلا في ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ أمرين بانشاء
هذا الصندوق الذي لا يزال قائماً الى اليوم وخصص له ايراد مديريات الغربية
والموقية والبحيرة وأسبوط ، و ايراد الدخولية في القاهرة والاسكندرية ، و ايراد

جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وإيراد
السكك الحديدية ، وإيراد رسوم الدخان، وإيراد احتكار الملح، وإيراد المطرية (دقهلية)
وإيراد رسوم السكرى والمراكب ، وإيراد كبرى قصر النيل ، وأخيراً إيراد
أطيان الدائرة السفية .

وفي المادة الثانية من الامر الصادر باشاء هذا الصندوق ان على الموظفين الذين
يتولون تحصيل الإيرادات المار ذكرها أن يوردوا ما يحصلونه للصندوق لالوزارة
المالية . وفي المادة الرابعة منه ان جميع المارعات التي تقوم بين الصندوق وإدارات
الحكومة المصرية ترفع الى المحاكم المختاطة . وفي المادة الثامنة ان الحكومة ممنوعة من
أن تعدل ضريبة من ضرائب هذه الإيرادات تمديلاً يكون من شأنه انقاص الوارد
منها الا بموافقة أغلبية المتدوين الذين يديرون الصندوق . وفي ديباجة الامر ان الذين
يديرون الصندوق مندوبون أجاناب تتدبهم الدول ويعينهم الخديو شاه على هذا
الانتداب . ومن هذه المواد يتضح أن اشاء هذا الصندوق كان اشاء لسلطة أجنبية
بمحاسن سلطة الحكومة وقد قال مسيو دي فريسنيه انه كا « أول اعتداء على سلطة
الخديو لانه مكن الدائنين من أن يكونوا سلطة في الحكومة » (١)

وقد تدرت هذه الإيرادات المخصصة للصندوق فكان مجموعها ١١٤٠٤٠٦٧٤٠٠٠ جنيهها (٢)
من دخل يتراوح بين ٩ و٩ ملايين ونصف مليون جنيه

المراقبة الثنائية

تلك كانت المرحلة الاولى من مراحل التدخل الاجنبي في شؤون الحكومة المصرية
بسبب ديون اسماعيل ، ويقول مثل أوربي ان الخطوة الاولى هي العززة فسرى في
ما يلي ان اسماعيل بعد ان خطا هذه الخطوة سار بعبداً وبسرعة حتى نزل لانجلترا
وفرسا عن كل سلطة الحكومة ، ثم اذ خطر له بعد ذلك ان يسترد سلطته لم
يستطع وعوقب بالعزل والابعاد

رأينا ان الحكومة البريطانية لم ترض عن النظام المالي القبي أنشئ على أساسه

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيو دي فريسنيه ص ١٥٩

(٢) كتاب « الحالة المالية لمصر والسودان » ص ٧٧

صندوق الدين لانها كانت ترى فيه مصلحة لحلة السندات من الفرنسيين فثار على
 صحتي يمكن ان يمنحها منه حلة السندات من الانجليز . فلما انتهى الصندوق
 عمت فرنسا والها وايضا ليا مندوبها فيه وامتنعت انجلترا عن ان تعين مندوبا لها .^(١)
 يختر سير ديمرواسن مصر عائدا الى أوروبا معلماً ان بقاءه في مصر صار مستحيلاً^(٢)
 ووثت الحكومة البريطانية بعد ذلك أن احتلالها مع فرنسا لا يحقق اعراضها
 صحت الى الاتفاق معها ولكن من وراء ستار فسافر الى باريس مستر غوشن ،
 وكان عضواً في البرلمان وشريكاً في مصرف فرلنج الذي اقترض اسماعيل دبره
 لاوتى ، وهناك اجتمع بحلة السندات من الفرنسيين فما زال بهم حتى اتفق معهم
 على نظام مالي جديد للصندوق الدين (ليس هنا مكان البحث في هذا النظام لاسا كما
 قمت من قبل تنظر الى الحوادث من وجهتها السياسية) أساسه أن يطلب الدائنون من
 سمبل تعيين مراقبين أوروبيين يراقب أحدهما دخل الحكومة ويراقب الثاني خرجها
 يضمن الدائنون بذلك حصول صندوق الدين على الإيرادات المخصصة له .

ثم سافر مستر غوشن مندوباً عن الدائنين الانجليز ومسيو جويير مندوباً عن
 الدائنين الفرنسيين الى مصر وشرعا يهاجمان اسماعيل ليحملاه على الرضى بتعيين
 مراقبين . فقامت في البلاد ضجة استنكر وكان اسماعيل صديق باشا المشهور بالفتش
 خطراً للمالية فأيد هذه الضجة ونصح للخديو اسماعيل بالرفض والمقاومة . ثم حدث
 أن قتل صديق باشا غيلة فكتب مراسل التيمس في الاسكندرية الى حريته يقول : « ان
 التخلص من المفتش بعد خاتمة نظام عتيق لقد كان المفتش زعيم حرب يقاوم
 نفوذ الادويي وكل تقدم للندية » الى أن قال : « ان سقوط صديق باشا الذي
 قال انه كان قد أعد مشروعاً معارضاً — (أى معارضاً لمشروع غوشن وجويير) —
 نبع من أقوى دواعي النجاح » . وبعد ذلك بأيام أعلن اسماعيل أنه قبل مشروع
 غوشن وجويير وأصدر في ١٨ نوفمبر أمراً عالياً بضرب المراقبة على المالية المصرية

(١) عمت انجلترا مندوباً لها بعد سنة وهو السير افلين بطارنج الذي صار فيما بعد
 الكورد كرومر

(٢) التيمس في ٥ يونيو سنة ١٨٧٦

وتتضمن المادة السابعة من هذا الامر بان يعين مراقبان عاملان أحدهما مراقب إيرادات الحكومة والثاني مراقب مصروفاتها والاعمال المحاسبية الخاصة بالدين وتقتضي المادة الثامنة بان يكون جميع الموظفين الذين يتولون تحصيل الإيرادات تحت ادارة مراقب الإيرادات وأن يكون هو الذي يقترح على الخديو تعيينهم بواسطة وزير المالية . وله الحق في وقفهم عن وظائفهم وعزلهم . وتقتضي المادة التاسعة بان يكون مراقب المصروفات مستشارا لوزير المالية وأن يكون هو الذي يراقب حسابات الحكومة ويسهر على تنفيذ القوائم الخاصة بالدين . ولا يكون أمر بالصرف صحيحا الا اذا أمضاه ولو كان صادرا من وزير المالية . وتقتضي المادة العاشرة بان يشترك المراقبان في وضع الميزانية العمومية . وتقتضي المادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة بان يكون أحد هذين المراقبين انجليزيا والثاني فرنسيا وأن يختارهما حكومتا المختار ومساقيعهما الخديو بناء على هذا الاختيار .

وبهذا الامر انتقلت سلطة الحكومة كلها تقريبا الى هذين المراقبين الاحدين وصار اسماعيل المسند العظيم أسيرا وصارت مصر في قبضة السياسة الاجنبية تدفع بها الى ما تريد وحسبما تريد .

النظارة المصرية

أخذ هذا النظام الجديد الذي سمي نظام « المراقبة الثنائية » في العمل فاختارت الحكومة البريطانية مستر دومين مراقبا انجليزيا واحتلت الحكومة الفرنسية البارون دي مالاريت مراقبا فرنسيا صفائي هذان المراقبان الصواب لانهما لم يجدا حسابا منظما ولا قوانين ولا لوائح تضبط الإيراد أو الدخل بل لم يجدا أوامر مكتوبة مع أن هذه الاوامر كانت تنفذ بالكراج فكتب اثنان من أعضاء « اللجنة التحقيق » التي عينت بعد ذلك سنة والتي سيأتي ذكرها يصفان هذه الحالة قتالا في تقرير قدماء الى تلك اللجنة وقدمت اللجنة الى الدول ^(١) : « كلما كان هناك من النظام هو أن شيخ البلدينفذ

(١) هذا التقرير كتبه « م . ي . بيرج » و « ا . دي كزيمر » وهو منشور في القسم الخاص « بمسألة مصر » من مجموعة « المستندات السياسية التي اصدرتها » الحكومة الفرنسية في سنة ١٨٨٠

الأمر التي تصدر إليه من المدير . والمدير يعيد ما يصدر إليه من المفتش العام .
والمفتش يتلقى الأمر من السلطة العليا (أي من الخديو) . وهذا الأمر هو القانون الذي
يجب أن ينفذه موظفو الحكومة ولو كان شفوياً دون أن يباح لأحد من الموظفين أن
يتقش في وجوده أو في مؤداه . وهذا كانت تدار الآلة الحكومية في عهد اسماعيل
وتحاشى في أيامه الأخيرة حيناً اختلط الخابل بالنايل ولم يكن لاسماعيل هم الا ابتذاع
ترواع جديدة من الضرائب والمقارم كل يوم للاستيلاء على الأموال والمحصولات

وأهم المراقبين بان يدفعوا الأقساط (أو الكوبونات) في مواعيدها ليتنبأ ذلك
كففتها وكفاءة النظام الذي يمثلونه فخبسا عن اسماعيل ونسائه وقصوره ومطابخه
وتبائعه جميع نفقات البدخ وحبسا عن طائفة من الموظفين المصريين مرتباتهم وأمر
بتسريح فريق من : حال الجيش ، وبهذه الوسائل وأمنائها استطاع ان يمسك المال
البلاد قسماً ينابر قبل معاده فتبائها بذلك وقدماء لأرباب الديون رهاناً على
كففتها ونفع النظام الجديد . ولكن المصين أخذ ينصب في الشؤون التالية فاستولي
عليها الأزعاج وارسلوا الحجة يمجون الضرائب بالكرباج^(١) وتفتن في أيام الامتيازات
لشركت^(٢) ومع هذا قرب الموعد الذي يدفع فيه قسط يوليو ولم يكن ليهما ما
يقنعان منه فطارأاً بذلك وضعا ايديهما على محمولات فلاحى الأقاليم المحصنة لاداء
الدين وبعاء صفقة واحدة لشركة آل هوتورث بنصف مليون جنيه^(٣) .

وعلى أثر ذلك كتب قنصل انجلترا العام الى حكومته تقريراً قال فيه : لقد
استلعت مصر أن تؤدي في ثمانية أشهر ما يقرب من ٦ ملايين جنيه وهذا كله
يحل على كفاية المراقبة الجديدة غير أنى أخشى ان تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه
حلول الفلاحين يحملهم على بيع محمولاتهم قبل حصادها وجباية الضرائب قبل

(١) كتاب « المسألة المصرية » لستر تيودور روستين ص ٤٥ من الترجمة

(٢) التيمس في ٣ مارس و ٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧

(٣) رسالة من الاسكندرية الى التيمس في ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧ وكتاب

« المسألة المصرية » لستر تيودور روستين ص ٤٦

مواعيدها . أما الموظفون الوطنيون الذين يقتضي صلاح الادارة الطراد دفع مرتباتهم فقد ذهبوا ضحية الكوبونات وأصبحوا ولم يتأخرات حسنة »

وحينذ ردوى أن السفينة لا تبحر وأن دولاب العمل في مصر وقف فانهم الدائنون اسماعيل بأنه يخفي عن المراقبين بعض الابراد وهددوا بمقاضاة ناطر المالية أمام المحكمة المختلة وأنخبراً طلبوا تعيين لجنة لتحقيق . فحاول اسماعيل أن يصمم أذنيه فازدادوا ضجيجا ولوحوا له باسم الامير حليم مطالبا بعرش مصر . وكانت نفسية اسماعيل قد الت الاذعان فاذعن في هذه المرة أيضا وأصدر في ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ أمرا بتعيين اللجنة ، ولكنه قصر اختصاصها على موارد الدخل فاحتج الدائنون وكتب ممثلهم مسر غوشن في التيس في ٣١ يناير يقول « سوف لا أحجم عن بذل ما أوتيت من جهد وضود لقصاء على ما تحاوله الحكومة المصرية من حصر دائرة التحقيق » . فارد اسماعيل أن يجتمعي في سلطان تركيا قائلا انه « السلطة الوحيدة التي يخضع لها » ^(١) فلم تقل إنجلترا وفرنسا فاضطر ان يصدر في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ أمرا بعد اختصاص اللجنة الي الدخل والمخرج وجميع الشؤون المالية .

وألفت اللجنة من فردينان دلبس مشى ، قننة السويس رئيساً ورفرز ولسن وكيللا ودي بلير وبار افلى وييرنج ودي كيرمر ورياض ماشا أعضاء . ولكن داسس كان كثير الغياب في باريس فكان رفرز ولسن الرئيس المعلي

وأخذت هذه اللجنة في عملها فانضخ في الحال أن السير فرز ولسن لا يرضى عن هذا العمل الا اذا انتهى الى نتيجة معينة هي أن تتولى هيئة أجنبية ، أو بعبارة أخرى انجليزنية ، ادارة الامور في مصر . وكتب قنصل فرنسا العام اذ ذاك البارون دى ميشل الى حكومته تقرراً أظهر فيه قلقه من هذه الخطة وأشار الى أن هناك اشاعة « بأن السير رفرز ولسن سيكون وزيراً لاسماعيل فكانه يهيئ السبل لتحقيق هذه الاشاعة » ^(٢) . وأتمت اللجنة تقريرها النهائي وقدمته الى اسماعيل في ١٣ اغسطس

(١) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٨

(٢) دى فريسيليه ص ١٩٦ و ١٩٧

سنة ١٨٧٨ وكان السير رفرز ولسن هو الذى انفرد تقريبا بكتاشته (١) وفيه اتهم اسماعيل بأنه مسئول عن عجز في الإيرادات قدره عشرة ملايين جنيه وطلب منه في مقابل ذلك أن ينزل عن ألبانه للدائنين . فتردد اسماعيل في قبول هذه النتيجة ولكنه بعد أن ذل حتى صار أسيراً في أبدي انجلترا وفرنسا لم يمه لا أن يصدر في ٢٤ أغسطس أمراً بالموافقة على ما في التقرير وتنفيذه

وقال له اذ ذاك السير رفرز ولسن وقال له ان الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يصلح ماله وأن يسترد الثقة به هي أن يدخل تعديلاً جوهرياً على طريقة الحكم . فرد عليه اسماعيل بالكلمة التي اشتهرت عنه وهي قوله : « ان بلادي ليست الآن في أفريقيا . انا الآن حرة من أوروبا فـ الطبعي ان تتركه الماضي وان تتبع نظاماً مطابقاً لحالتنا الاجتماعية » (٢) . وكان هذا التعديل الذي طلبه من السير رفرز ولسن ان ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كي يكون هذا المجلس مسؤولاً عن أعمال الحكومة . وكانت هذه هي الوسيلة التي رى السير رفرز ولسن أن يدخل بها الوزارة . وفعلاً أصدر اسماعيل أمراً الى نوبار باشا في ٢٨ أغسطس قال فيه انه يريد من الآن فصاعداً ان يحكم « مع مجلس نظاره وبواسطته » . (٣) ودارت حلوزات طويلة بينه وبين انجلترا وفرنسا بشأن تأليف هذا المجلس كانت تبيجتها أن أصدر أمراً في ١٤ أكتوبر بتعيين السير رفرز ولسن ناظراً للمالية ومسيو دي بختيار ناظراً للاشغال . ولذلك بقيت هذه النظرة التي كان نوبار باشا يتولى رئيسها بالنظرة الأوروبية

وهكذا صار ناظران اوريان احدهما اختارته الحكومة الانجليزية والثاني اختارته الحكومة الفرنسية هما اللذان يحكمان مصر . اما اسماعيل ، اسماعيل العظيم

(١) دى فريسييه ص ١٦٩

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٨ وهذا هو النص بالفرنسية :

Mon pays n'est plus en Afrique ; nous faisons partie de l'Europe actuellement. Il est donc naturel que nous abandonnions des arrangements anciens pour adopter un système conforme à notre état social.

(٣) هذا الامر هو الأساس الذي اعتبر دستوراً لمجلس الوزراء من ذلك الوقت

لأن هذا الدستور المصري في سنة ١٩٢٤

المستبد الفخور قد نحي الى زاوية من روايا الاحمال . وليس اسمايل وسلطه
عما اقدان بعيانا في هذا وانما استقلال الحكومة المصرية هو الذي يسياروه والذي
هدم الى آخر حجر منه بتأليف هذه التطارة

٢٧٦٠

ولتأخر بين الدول حين تأليف هذه التطارة الاوربية قصة طريفة هي انه لما
قل اسمايل أن ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كان من المتفق عليه بينه وبين
الحكومة البريطانية أن يعين السير فرزولسن ناظراً للمالية وأن يستغنى بذلك عن
المراقبين الانجليز والفرنسي فلما علمت الحكومة الفرنسية بهذا هاجت وطالت أن
تعطى نظارة مدارق المفاوضات في ذلك بين لندن وباريس الى أن تم الاتفاق بينهما
على أن تأخذ فرنسا نظارة الاشتغال . وهذا هو السبب في ان الساطرين الاوربيين
لم يعبأ الا في ١٤ أكتوبر سم ان الامر صدر لتولوا باشا بتأليف تطارته في
٢٨ أغسطس

ولما علمت ايطاليا والنمسا بان انجلترا وفرنسا اقتسمتا القنصة على هذا النوال
تقدمت كل واحدة منهما تطلب لنفسها نظارة فطلبت ايطاليا نظارة الحفانية وطلبت
النمسا نظارة المعارف (١) فاسترضيتا بان عين ايطالي مراقبا عاما للحسابات وعسوى
مساعدنا ناظر المالية

اذن كان اعتقاد الدول ان الحكومة المصرية لم تعقد استقلالها فقط
بل فقدت وجودها أيضاً وصارت تركتها لها مقبلاً بفور بالقنصة الكبرى
منه ذوالقوة الجسور

٢٧٦١

وكان اول ما فعلته النظارة الاوربية أن رهن السير فرزولسن الاطيان التي نزل
عنها اسمايل وأمرته (وهي ٢٥٠٧٢٩ فدانا) ليت روتشيلد وعقد قرضاً جامع
٨٠٠٠٠٠ ربا جنيه وهو الذي كان يسي قرض اللومين ، فدفعت منه بعض الاقساط

(١) التيمس في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٧٨ - وكتاب « المسألة المصرية »
ليودور روستين ص ٩٥ من الترجمة

هاتين وكان من المتفق عليه أن تدفع من المراتب المتأخرة الموقوفين فلم تدفع لهم
تحتى سنة ١٨٧٩ حتى كان قد ذاب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس وصار من الحرارة
تقبحى الاموال لتدفعها للدائنين بحيث رأى كل ذى عين أنها إنما تحكم مصر لمصلحتهم
لا لمصلحة المصريين . واشتد الكرب بالناس من جراء هذا النوع من الحكم حتى
التعرف به مكاتب التيمس في الاسكندرية فكتب في ٢٣ يناير سنة ١٨٧٩ يقول :
« لست مبالغا اذا قلت ان في القاهرة الآن مئات من المشايخ يمثل كل منهم قرية
من القرى حادوا بمروضااتهم يسألون فيها تخفيف الضرائب وكل منهم بطل أنه
لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه . انهم جموع محتشدة امام أبواب الطارات يمتعضون
النظر في غدوم ورواحهم وممرضاتهم غلا أقلام المصالح » . وبعد ذلك بشهر
وتصف شهر أي في ٣١ مارس كتب هذا المراسل عنه يقول : « يؤكد أهل الدلتا أن
الرجوع الثالث من ضرائب هذا العام يجبي بنفس الطرق التي كانت تجبي بها الضرائب
قيا مضى . قد يعصب الناس من وقوع ذلك بإزاء ما يسمعون من أن المصريين يموتون
على قولوع الطرق وأن أراضي شاسعة تركت بورا لقتل الاعباء المالية المفروضة عليها وأن
الفلانين يباعوا واهبهم وأن النساء بمن حليهن وأن أقلام الرهون غاصت بالمرايين يحملون
وتقتسم وأن المحاكم لا عمل لها سوى النظر في قضايا غلق الرهون اجابة لطلب هؤلاء .
الرايين »

وبينا الحال كذلك والناس يضرعون بالشكوى في كل مكان جاء قسط مايو
وليس في الخزينة ما يكفي لدفع فأمرت الوزارة بتسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش
وحقت القسط مما اقتصدته من مرتباتهم . وكانت لهؤلاء الضباط مرتبات متأخرة
تقدتية عشر شهرا فلما فصلوا بغير أن تدفع لهم متأخراتهم هاجوا وماحوا . وكان
لحقت قد ملأ النفوس استمدادا للثورة فلم يترددوا في أن يكونوا أول من يضرم
قروها وأخذوا نوبار باشا والسرديفر ولسن وهما خارجان من ديوانيهما يوم ١٨
يناير سنة ١٨٧٩ هاجوما ولكوما وشدوا شاريهما (١) وسجنوما في نظارة

المالية^(١) وعلم الخبير اسماعيل مركب الى نظارة المالية محاطا بحرسه وأمر الضباط
بالانصراف فلم ينصرفوا فامر فاند حرسه بالطلاق الرصاص فاطلقة في الهواء. فصرق
المجتمعون واستطاع اسماعيل بذلك أن يخرج نوبار ورفيقه من سجنهما^(٢)

وعلى أثر ذلك أعلن اسماعيل أنه لا يكون مشغولا عن الأمن العام اذا لم يستقل
نوبار فاستقال. ولكن اسماعيل واقفا الى أن يسترد ولو بعض ما كان له من السلطة

(١) رواية عراقى المنشورة في ص ٣٤٦ من هذا الكتاب تقول ان الضباط
هاجموا نوبار باشا واهابوه وحده. أما رواية مسيو جولي كوشري (ص ٨٠) فتقول
انهم هاجموا نوبار باشا والسير ريفرز ولسن واهابوهم وسجنوهم. وكذلك رواية
مستر تيودور روستين (ص ٦٨ من الترجمة). وهذه الرواية الاخيرة هي الصحيحة
لانها تطابق ما نشر في «الوقائع المصرية» اذ ذاك. وقد نشر في «الوقائع»
أيضا أن الحكومة اعتذرت عن ذلك اعتذاراً رسمياً للسير ريفرز ولسن عن الالامة
التي لحقت به

(٢) اشتد العبط بالسير ريفرز ولسن بعد هذا الحادث فانهم اسماعيل بأنه هو الذي
دبره ليختطف من النظارة الاوربية وسرى هذا الاتهام الى كثير من الناس ومنهم
مستر بلنت في كتابه هذا. ولكن يحسن أن ننقل هنا ملاحظة كتبها في ذلك مستر
تيودور روستين وهي :

« يذكر مستر بلنت تأييدا للرواية السير ريفرز ولسن شهادة عراقى باشا والشيخ
محمد عبده. ولكن عراقى كما يقول هو نفسه كان وقت حدوث الفتنة غائبا في الاقاليم.
وكل ما يقوله الشيخ محمد عبده مجرد تصديق لقول عراقى. ويطلب على الظن أن
كلا الرجلين إنما كانا يرددا الاشاعات التي ترددت فيما بعد وصدها في غير تمييز
بنفسها منه لاسماعيل. اما اللورد كرومر الذي لا يمكن أن يتهم بشدة الاقتصاد في
الظمن على اسماعيل فانه يعترف « بأن كل ما يقال من ان اسماعيل كان على علم بالفتنة
ليس الا من قبيل الخدس والتخمين ». وغاية ما يستطيع اللورد أن يرمي به اسماعيل
هو اشتراكه الادبي في الفتنة »

تلك هي ملاحظة مستر تيودور روستين ونضيف نحن إليها أن مستر فيليان
الذي كان قنصلا عاما لا محلثرا في ذلك الوقت كتب تقريرا للحكومة برأ فيه اسماعيل
من هذه التهمة وقال ان الفتنة كانت نتيجة استياء عام أضيف اليه استياء الضباط

وكان يرى في تقهر الشعب من النظارة الاوربية فرصة صالحة لهذا التمرص فلم يمين خلفا لوبار وتولى هو رئاسة مجلس الطار . ولكنه لم يكد يفعل حتى أبلغته انحطرا وقرضا أن توليه رئاسة النظارة بخالف للأمر الصادر منه في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ والذي نزل به عن السلطة للطار . وأبلغه مستر فيزيان قنصل إنجلترا بحلم أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة نوبار باشا عملا شخصيا وأنها لذلك لا تقبل أن يترتب عليها تغيير في سير الامور . وبعد معاوضات لم تدم أكثر من أيام اضطر اسماعيل أن يعلن يوم ٩ مارس ان الاتفاق تم على ما يأتي :

أولا — لاجتماع الخديو مداوات مجلس النظارة في أي حال من الاحوال

ثانياً — يتولى الامير توفيق باشا رئاسة المجلس

ثالثاً — للعصوين الاوربيين القدين في النظارة حق المعارضة المطلقة :—

« Velo absolu » — في كل مالا يوافقان عليه . وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ .
وكن لكي تكون معارضتهما صحيحة يجب أن تصدر منهما معا^(١)

وهناك شرط رابع يصيغه مسيو جول كوشيري وهو أن يستشير اسماعيل حكومتى انحطرا وقرضا في اختيار نظاره الجدد^(٢)

وهكذا جرب اسماعيل فعرف أنه اذ شد وثاق البلاد بالديون شد بهذه الديون نفسها وثاق نفسه، وأنه اذ عالج أن يخفف ضغط هذا الوثاق باء بالقفل وازداد وثاقه شدة على شدة . وهكذا أيضاً رأى المصريون رأي العين أن حكومتهم لم تبق لهم وأن استقلالهم الذاتي الذي اشتروه بدمائهم في حروب عديدة والذي سجلته الفرمانات وأبدته المعاهدات الدولية في سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤١ صارت هديون اسماعيل حبراً علي ورق

وثبة من اسماعيل لاسترداد سلطته

وكان المصريون ينظرون الى هذه الحال متألمين ، وكانت الشدائد التي قاسوها طول حكم اسماعيل قد ملأت صدورهم مرارة ، وكان المتألمون قد عرفوا من المثل

(١) فرى فريسينيه ص ١٧٣

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨١

الذي ضربه لهم الصباط في مهاجمتهم نوبار ماشا والسير ولسن أن الأثم لا يفيد ما لم يصبح عمل وانه ان أراد الشعب أن يسترد استقلاله الذاتي وأنت يضع حداً لاستقلاله لمصلحة اسماعيل تارة ولمصلحة اللذانين الاجانب مارة أخرى عليه أن يعمل لهذه الغاية . وذلك ما صم عليه أعيان المصريين فأخذوا يقصدون الاجتماعات يوحدون بها الحكمه ويرسمون الخطة حتى اذا تم لهم ذلك كتبوا العرائض وجعلوا يرسلوها تارة الى النظارة وتارة الى اسماعيل يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية وأن تكون للأمة رقابة عليها^(١)

ولا حدالى أن اسماعيل نظر الى هذه الحركة عين الرضى لأنه كان يرى فيها وسيلة للحلاص من نير السلطة الاجنبية على الموم والنظارة الاوربية على الخصوص، ولكن لا حدال أيضاً في أنها كانت ضده كما كانت ضد النفوذ الاجنبي، وقد رأينا في ما تقدم أنه كان من بعض اعراضها التفكير في قتله وسرى في ما يلي أنه لما أراد أن يخضعها لاهوائه بعد أن تخلص بها من النظارة الاوربية أبت ووقفت في وجهه تطلب أن تكون رقابتها على سلطته فعلية^(٢)

وأجاب السير ريفرز ولسن على هذه الحركة بان أعلن بصفته ناظراً للمالية تأجيل « كوبرن » ابريل شهراً فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية وكان من الضروري أن تتيحه قيود جديدة وأعباء مالية جديدة . وكان السير رفرز ولسن يظن أنه بذلك يضرب اسماعيل والحركة الوطنية ضربة تمخده أنفاسها فلم يصح حسابه وازداد بالعكس هياج الافكار وكتب الاعيان مذكرة وقها منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الاسلام وبطربرك الاقباط وحاخام اليهود وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش طلبوا فيها عزل

(١) التيمس في ٣١ مارس سنة ١٨٧٨ — وكتاب تيودور روستين ص ٨٤
ن الترجمة

(٢) يذهب تيم من المؤرخين الاوربيين الى أن اسماعيل هو الذي خلق هذه الحركة وأن المصريين كانوا فيها آلات مسخرة في يده ولكن الحوادث أثبتت فساد هذا الزعم

السير ديفرز ولين وتآليف وزارة وطنية وإيجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة وتكون الوراثة مسئولة أمامه^(١).

وفي مساء ٧ أبريل استدعى اسماعيل فاضل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق في وسعهم أمام هياج الرأي العام في مصر إلا أن يحكم بنظارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب وأن ابنه توفيق باشا استقال وأن شريف باشا عين خفصاً له في رئاسة مجلس النظار . وقدم الفاضل في الوقت نفسه مشروعاً مالياً جديداً بتسديد الديون في ٦٥ عاماً وتخفيض الفائدة إلى ٥ في المئة وتخصيص ٤ ملايين جنيه من دخل الحكومة لشؤون الادارية . وأعلن أن المراقبة الثنائية التي كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الاوربية تعود الى ما كانت عليه

ولاعلم الوزيران الاوربيان بذلك احتجا على اسماعيل واتهامه بأنه هو الذي جبر هذه الحركة ليخلص من تهديداته . ثم استقالت لجنة التحقيق بعد ثلاثة أيام قبيل استقالتها في ١٣ أبريل وأصدر في ٢٢ أبريل امراً عالياً بتنفيذ المشروع الذي قدمه للقتاقل

عزل اسماعيل

هنا أخذت الحوادث تجري سراعاً فتم اسماعيل أنه اذ ألقى بالبلاد في هاوية العمى ألقى بنفسه في أيدي الأجانب وأنه اذ أضاع استقلال حكومته بالمراقبة الثنائية تم بالنظارة الاوربية أضاع عرشه وأضاع نفسه، وذلك هي دائماً عاقبة من لا يكثرث الحواجب

تألفت الوزارة الوطنية برئاسة شريف باشا كما تقدم وأعلن اسماعيل في الامر الذي قصده بتشكيلها أنه يريد لها مسئولة أمام النواب ثم أراد أن يرد نظام المراقبة الثنائية الى ما كان عليه فطلب من السير افلنج بارنج (اللورد كرومر) العضو الانجليزي في صندوق الدين ومن زميله العضو الفرنسي أن يتوليا المراقبة فرفضا وأضرب جميع

(١) جريدة الوطن عدد ٧٤ في ١٢ أبريل سنة ١٨٧٩ — التيمس في ١٩

أبطل سنة ١٨٧٩

المواطنين الاوربيين عن العمل^(١) في مصالح الحكومة . وأراد شريف باشا أن يقدم كيون مايو باعتار العائدة ٥ في المائة مرفوض صندوق الدين أن يتسلم شيئاً . وأرسل وزير فرنسا ماسيو وادخمتون الى قنصل فرنسا العام في القاهرة يطلب منه أن يبلغ اسماعيل أنه يعتبر عمله « قصصاً متعمدا في الرعاية الواجبة لفرنسا والمجتمرا » . أرسل في ٢٥ ابريل تلغرافاً آخر كان فيه أصرح منه في تلغرافه الاول فقال^(٢) : « اذا استمر الحديو علي الامتناع عن الرضى بمعاونة الساخرين الاوربيين لحكومته لا يبقى أمام فرنسا والمجتمرا الا أن تحتفظا بحريتهما التامة في تقدير الحالة وفي العمل لحاية مصالح رعاياهما ثم في البحث عن أفضل الوسائل التي تضمن لمصر حكومة صالحة » . وكان هذا تهديداً صريحاً ولكن اسماعيل كان قد تحمل من دل الاذعان ما لم يؤمنه مزيد وكان في وقت ثورة ثارتها نفسه على هذا القتل عاجب في ٤ مايو^(٣) : « بان الحالة التي صار اليها الرأي العام المصري لاتسمح بمودة الساخرين الاوربيين الى النظارة » . وحينئذ تفاوضت فرنسا والمجتمرا في ما تعلق به وطلبتا من الدول الاخرى أن تؤازرها فيما عازمتان عليه . وكل رأى بمرء هو الذي يهمها أكثر من غيره . ففى السير ريفرز ولسن حتى حصل عليه وأرسلت المانيا والنمسا في ١٨ مايو تحتجنان على الامر الذي أصدره اسماعيل في ٢٢ ابريل خاصاً بنسوة الديون وتخفيض فائدته ثم تنهما روسيا وايطاليا . وبعد ذلك أى في ١١ يونيو قدمت انجلترا وفرنسا لفصل فارسنا احتجاجا قالتا فيه انهما « لا يقران الامر ٢٢ ابريل بآية قيمة قانونية » . واذا ذلك شعر اسماعيل بان العاصفة تجمعت وسهب فاخته الرعب وحاول أن ينجيها بان كتب شريف باشا في ١٥ يونيو^(٤) الى الدول يلغها على عجل أن الامر ألتمى ، ولكن العاصفة كانت أقوى من أن يردا هذا العلاج ، وغضب انجلترا وفرنسا عما كانت تعتبرانه ثورة عليهما من اسماعيل كانت أشد من أن يسكنه هذا الاذعان المتأخر ، فأرسلت الحكومة الفرنسية الى قنصلها العام في القاهرة

(١) كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر — الجزء الاول ص ٣٠١

(٢) دى فريسينيه ص ٥٧١ الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨٢

(٣) دى فريسينيه ص ١٧٦

(٤) تلغراف من روتر شر في الخميس في ١٦ يونيو سنة ١٨٧٩

يوم ١٨ يونيو تلغرافاً قالت فيه ^(١) : « اننا متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن ننصح بالحدود بأن يبرل عن عرشه وأن يقاد مصر . فان أطاع هذا الصبح حصل معاً ترتيب معاش له ولقباء وراثته العرش لابه توفيق » . وأرسلت يوم ٢٠ تلغرافاً آخر قالت فيه ^(٢) : « اذا رفض الحديو أن يصفى لصحابا بل يتردد في الاتجاه الى الدولة صاحبة السيادة على مصر لتطلب من «سلطان عرل هذا الأمير الذي أنكر واجابه اسكراً خطيراً وتعيين خلف له » . وفي الوقت نفسه تولت الحكومة البريطانية الى قنصلها العام في القاهرة مثل هذه الاوامر . وتردد السميل أياماً وعلم الباب العالي أن إنجلترا وفرنسا لا يجتئان اليه لتطلبانه عزله وأنه سوف لا يرضى طلبهما ففضل ان يسبقهما اليه ليظهر به يظهر صاحب السلطة ^(٣) فأرسل في ٢٥ يونيو وقبل ان تطلب الدولتان منه شيئاً تلغرافاً الى اسماعيل عزله وأرسل في ٢٦ يونيو تلغرافاً الى توفيق بتوليته مكان أبيه ^(٤) . وفي ٣٠ يونيو وجع اسماعيل ابنه باكياً وهو يقول له : « كن أسعد حالاً من أبيك » ^(٥)

وعاش اسماعيل بقية حياته في إيطاليا ثم في الاستانة الى أن توفي في ٣ مارس سنة ١٨٩٥ فنقل جثته الى مصر فوصلت الى قصر رأس التين مساء يوم ١١ مارس . وفي هذا المساء نفسه كانت فرقة أوردية تمثل في مسرح الأوبرا بالقاهرة ، أى في مسرح الذي بناه أيام مجده وملاذاته ليسر به ملوك أوربا وملكانها وهو يستقبلهم في عاصمة ملكه ، كانت فرقة تمثل نفس الرواية التي أوصى بها «وضعت ومثلت خبيثاً في نفس المسرح : لا أولئك الملوك والملكات : أوديدرواية « عابدة » . فيالها تفتت سحرية القدر جادته على يد الاوربيين الذين أعطاهم كل مافي مصر من مل وحكومة لا على يد المصريين الذين أشقاهم وأشقى معهم مصر الى زمان طويل

(١) دي فريسيثية ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) يقول هناسمترنيودورونستين ان اسماعيل نزل عن العرش بحضور

من أعيان مصر ولكن هذا غير صحيح

(٥) كتاب مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩

الحياة النيابية في مصر

ليس من قصدي كما قلت أن أكتب تاريخاً وإنما كل قصدي أن أمهد لكتاب مستر بلنت بنظرة سريعة يستعين بها القارئ، على استحضار الحوادث التي تناولها هذا الكتاب أثناء تلاته . وهذه الحوادث سلسلة واحدة عقدت حلقاتها الأولى في عهد اسماعيل وحلقاتها الثانية في عهد ابيه توفيق ، وقد مررنا بالحلقات الأولى مرأيا فيها اسماعيل يتسلم زمام مصر في سنة ١٨٦٣ وليس عليها من الدين الا ثلاثة ملايين وحكومتها مستقلة لا سيطرة عليها لنير الوالي ولا يد فيها لتبر أهلها فما أخرج عنها في سنة ١٨٧٩ حتى كان ديها قريبا من ٩٩ مليوناً وكانت السيطرة على حكومتها لاحتلرا وفرنسا من دون حديوبها وكانت اليد العاملة فيها للاوربيين من دون المصريين . والآن نصل الى الحلقات الثانية حلقات الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وفيها ومن أجلها وضع هذا الكتاب فلتترك مستر بلنت يتكلم ليقول لنا ما عرفة وما جرى على يديه منها

ولسكتنا وقد رأينا أنه كان للحياة النيابية في آخر أيام اسماعيل شأن مذكور نرى أن نلم هنا بطرف منها ثم بطرف آخر منها في عهد توفيق ليعرف من لم يعرف أن لهذه الحياة عروفا ذاهبة الى الاعماق في أرض مصر وأن المصريين الذين نادوا بسلطة الامة في سنة ١٨٧٩ ، ثم في سنة ١٨٨٢ ، لا يمكن ان ينصرفوا عنها في سنة ١٩٢٨

من نابليون الى اسماعيل

يمكن أن يقال ان النواة الأولى للحياة النيابية في تاريخ مصر الحديث كانت هي التي وضعها نابليون بونابرت في يوم الخميس ٢٧ يولييه سنة ١٧٩٨ اذ طلب من العلماء والاعيان ورؤساء الفرق أن ينتخبوا من بينهم عشرة يتألف منهم « ديوان للنظر في الامور الداخلية والمصل في الدعاوى » فوق اختيارهم على عشرة كان منهم الشيخ عبد الرحمن الشرفاوي ، الشيخ خليل الكا ، والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي .

كان هذا الديوان ظاهرة أولى ضئيلة من ظواهر سلطة الأمة ثم جاءت الظاهرة الثانية قوية يوم كره المصريون واليهام خورشيد باشا وشعوا مظالمه فسار علماءهم ومثابيحهم ورؤساء جنودهم الى محمد علي، وكان ذلك في ٦ مايو سنة ١٨٠٥، وقالوا له لا نريد هذا الشا حاكنا علينا فقال ومن يريدون اذن - قالوا لا رضى الا بك ١١ ثمومه فيك من حب العدل والخير . قيل فتمنع محمد علي ثم رضى فاحضروا له كرعا وعليه قطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فالبساه ثم بعثوا الى خورشيد باشا فذلك قتال ابنى مولى من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة . فحاصروه فى القلعة وكتبوا الى الباب العالي يطلبون تعصيب محمد على وما زالوا حتى صدر الفرمان بذلك ووصل الى القاهرة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وبعد أن استتب الامر لمحمد على وشرع بنظام حكمه أنشأ مجلسا كان يسمى «مجلس المشورة» فما كان يقرأ أمراً إلا بعد عرضه عليه . وها هو ذا ما نشرته فى ذلك «الوقائع المصرية» فى عدد هـ رقم ٤٩ الصادر فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ :

« بيان كيفية ترتيب المجلس »

« ان حضرة افندينا ولى النعم الا كرم منحه الشفقة والمراحم ما برح متفكرا فى عمار تلك ولله وفى راحة أهالى الامصار والبلاد ورقامية الرعايا والمباد ولا يزال يتصور تحصيل أسباب الامور الخيرية ساعيا ويحتهدا فى استخراج أسبابها من القوة الى الفعل ولاجل ذلك أوصى حضرة افندينا ابراهيم باشا ولى النعم قبل أن أرسله من الاسكندرية الى مصر بان يجمع مأمورى الاقاليم المصرية المطام ومشايخ البلاد فلكرام وينقد مجلس للمشورة كل يوم ويدي كل منهم ما فى باله ويقولون مرادم من غير تعصب وعناد أى لا يمارون بما يرون بل يقولون على وجه الحق والانصاف ليخرج منها القضية الخيرية فيحصل رضاه السنى . وأمر ايضا بان يجتمع فى ذلك المجلس اشراف العلماء المصرية لكي لا يبدو انحراف عن تلك الأصول المستحسنة التى براد تأسيسها على جادة الشريعة المطهرة فاجتهد سعادة المشار اليه بتحصيل رضا سعادته بما كان مفطورا عليه من حسن للسمى والاجتهاد حيث جمع المذكورين كلهم الى قصره بعد مضى يومين من وقت تشريفه مصر وأوضح لهم ما سمع من آية الأكرم من الوصايا والنصائح فذلك انعقد المجلس فى القصر السالى فى اليوم الثالث من شهر ربيع الاول بعد العصر وسئل كل منهم عما لاح فى ضميرهم وتقرر ان يضبط الوقائع سال ما جرى ويجرى فى ذلك المجلس »

وقد تمت الحياة النيابية واقعة عند حد هذا المجلس الى أن تولى اسماعيل قاشا في آخر سنة ١٨٦٦ «مجلس شوري النواب» ووضع له «لائحة أساسية» و«نظامنة» عرفنا بلائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣^(١)

(١) هذه «اللائحة» تشتمل كما قلنا على قانونين أحدهما «للائحة الأساسية» والثاني قانون المجلس وكان يسمى «النظامنة» ونحن نورد هنا بنصهما :

اللائحة الأساسية لمجلس شوري النواب

(١) تأسس هذا المجلس مبني على لنداوله في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها الحكومة انها من خصائص المجلس بصير المذاكرة واعطاء الرأي عنها وعرض جميع ذلك للحضرة المجدوية

(٢) يجوز اصحاب من بلغ عمره ٢٥ سنة وما فوق ذلك شرط أن يكون موصوفا بالرشد والكمال وأن يكون من الاشخاص المعلومين عند الحكومة بأنه من الاهالي الناجسين لها ومن أولاد الوطن

(٣) يحرم من صلاحية الانتخاب الاشخاص الذين حكم على أموالهم وأملأهم بأحكام الافلاس وتطلقت بهم حقوق للغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق التي حرموا منها وايضا الفقراء والمحتاجون والاشخاص الذين أعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة والاشخاص الذين صار مجازاتهم بالبيان والطرده بحكم

(٤) ان الاشخاص الذين انتخبون النواب يلزم أن يكونوا من الذين لم يحكم على أموالهم وأملأهم بأحكام الافلاس وتطلقت بهم حقوق للغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق اليهم وأن لا يكون سبق مجازاتهم بالبيان والطرده بحكم وأن لا يكونوا من الاشخاص الداخلين سلك العسكرية تحت السلاح

(٥) المستخدمون في الخدمات الليرة والمستخدمون في الجهات الخارجية عن الميري سواء كانوا من العمد والوجوه أو غيرهم وكذا الداخلون سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امداديين لا يجوز انتخابهم ليكونوا من أعضاء المجلس وأما من رفقوا من المستخدمين بلا جنحة حسب الايجاب أو انقضت مدتهم من الامداديين فيجوز الانتخاب منهم ان كانوا حائزين الاوصاف المعتبرة للذكورة

مجلس شورى النواب

فتح هذا المجلس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ والتي فيه اساميل خطاب الافتتاح
من النواب أن يساعدوا الحكومة على تنفيذ الاشتغال العمومية وتحديد
مواعيد سنوية لحياة الاموال وغير ذلك مما تريد الحكومة أن تستشيرهم فيه . وكان

(٦) ان انتخاب الاعضاء من الاقاليم يلزم أن يكون على حسب التعداد فلذا لم
تصطب واحد أو اثنين من كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره
وبصير انتخاب ثلاثة من مصر واثنين من اسكندرية وواحد من دمياط

(٧) حيث ان كل بلد على منشاخ معينون برغبة الاهالى وبالطبع هم المنتخبون من
حرف اهالى ذلك البلد والباقيون عنهم لا تصطب العضو المطلوب انتخابه من القسم
ونما كان اولئك المشايخ حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة فهؤلاء المشايخ يحضرون
في المديرية ويكتب كل أحد منهم اسم من ينتخبه من القسم في ورقة مخصوصة
ويضعها مغفولة بالصندوق المعد لقسمه بالمديرية

(٨) بعد ما يتم وضع الاوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وتاظر قلم
للمسؤول وقاضي المديرية فينظر اذا كانت أكثر الآراء متفقة على انتخاب واحد
من القسم فيصير هو قائبا عن القسم وان تساوت الآراء في انتخاب اثنين أو ثلاثة
فيقرع بينهم بمصووم والذي تصيبه القرعة يصير قائبا عن القسم وفي كلا الحالتين
يؤخذ من المشايخ الحاضرين بالمديرية من البلاد ورقة باختيارهم بالاستقرار عليه الحال
في انتخاب اولئك النواب واما الانتخاب في مصر واسكندرية ودمياط فيصير
بإتفاق أو أكثرية آراء وجوه واعيان تلك المدن

(٩) يصير تجديد انتخاب الاعضاء في كل ثلاث سنين حسبما هو موضح بالبند
سابع والثامن

(١٠) اعضاء المجلس لا يزيدون عن خمسة وسبعين شخصا
(١١) لا يقصد المجلس اذا غالب من اعضاءه أكثر من الثلث وان كان أحد اعضاءه
له عذر ضروري فيلزم عرض عذره على رئيس المجلس قبل انقضاءه بشهر فان قبل
عذره بالمجلس فيها والا كان لم يحضر بعد اعلان عدم قبول عذره فيصير انتخاب غيره
بدله من قسمه وجهته حسب اللائحة

(١٢) لا يسوغ التوكيل عن أحد الاعضاء بل هو يحضر المجلس بنفسه

اختصاص هذا المجلس ، كما يرى في المادة الاولى من لائحته الاساسية ، مقتصر على
المدولة في « التصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس » وتبينة
المدولة في هذه « التصورات » تعرض على الحديبو دون أن يكون مفيداً شئ منها .
وهذا معناه أولاً أن اختصاص المجلس بالنظر في مسألة من المسائل كان متروكاً للحكومة

(١٣) يصير تحقيق حال كل عضو من اعضاء المجلس حين اجتماعهم معرفة فرميون
فان وجد مستكمل الشروط المثيرة المحررة في للبنود السابقة بقبل والا فتلقى نيابته
و ينتخب غيره من قسمه وجهته

(١٤) سد ما يصير تحقيق احوال النواب المنتخبين القومسيون ويوجدون حائزين
الاوصاف المذكورة في البنود السابقة فيعطى قرار عهم بالقومسيون ويمرض منه
الى رئيس المجلس ومنه ايضا الى الاعتاب الحديبوية ليعطى كل واحد منهم بيورلدى
يتضمن كونه منتخباً في ظرف ثلاث سنين في شوري النواب

(١٥) حيث من المعلوم ان كل مجلس من المجالس الماثلة لهذا له حدود ونظامامة
فبالطبع حدود ونظامامة هذا المجلس ستعطى له

(١٦) ان عقد المجلس سيكون في هذا العام من ١٠ هاتور لغاية ١٠ طوبه واما
في السنين الاتية فيصير انعقاده من ١٥ كيهك لغاية ١٥ امشهر

(١٧) لولى الامر جمع المجلس او تأخيره او تحديد مدته او تبديل اعضاءه واختخاب
غيرهم في مدة معلومة حسبما هو موضع هذه اللائحة
(١٨) لا يجوز قبول عرض حالات من احد ما بالمجلس

حدود ونظامامة مجلس شوري النواب

- (١) مجلس الشورى يكون بمحروسة مصر
- (٢) مجلس الشورى وظيفته المدولة في المنافع الداخلية . والتصورات التي تراها
الحكومة اياها من خصائصه تصير للمذاكرة فيها واعطاء الراى عنها كما هو مذكور
في السند الاول من اللائحة الاساسية لما تحصل المدولة فيه بمجلس الشورى فيما
يتعلق بالمنافع الداخلية يرسل من طرف الرئيس الى المجلس المخصوص ويجرى
المذاكرة عنه بالاقلام والقومسيونات بمجلس الشورى حسبما يأتي بعده بما يتعلق

ان شادت سمحت به وان شادت منعه وثانياً أن رأيه الذي يديه في ما تعرضه
للحكومة عليه استشاري محض

وقد أذاع بعض الاوربيين عن هذا المجلس خرافة من الخرافات التي ألغوا ان
يصفوها بالمصريين فزعم مسيو ملك كون في كتابه « مصر كما هي » — ص ١١٨ —

يختصرات من البند ١٦ الى البند ٢٠ والبند ٢٣ من هذه اللائحة و قد إعطاء
الخطير عنها تنظر بمجلس الشورى ايضا كما في البند ٢١ و ٢٢ وبإتمام للمذاكرة
وإعطاء الرأي يرضى جميع ذلك للحضرة المحمدية

(٣) رئيس مجلس شورى النواب ووكيله يتصيان من طرف الحضرة المحمدية
(٤) افتتاح مجلس شورى النواب اما ان يكون بذات الحضرة المحمدية او من
وكيل ذلك بالارادة السنية وتقرأ فيه مقالة فان كان افتتاحه بالحضرة المحمدية فقرأه
بالتلفظ المحمدية او من يوكل من قراءتها متعلق بالارادة السنية وان انتصحه
الوكيل كما ان تكون المقالة من الحضرة المحمدية ويقرأها الموكل بالافتتاح او انها
تكون من الموكل بالافتتاح وهو الذى يقرأها بموجب الامر

(٥) بعد افتتاح مجلس شورى النواب وقراءة المقالة يكون لاربابه الحق في ان
يقيموا جوابا عنها في مدة يومين وهذا الجواب لم يكن الا من قبيل الرسوم بحيث
لا يخلط فيه بشئ عن امر من الامور المقتضى نظرها بمجلس الشورى

(٦) اذا كانت المقالة من الحضرة المحمدية فيجوز تحرير جوابها في مجلس الشورى
يجب تقديمه للاعتاب الكريمة بواسطة رئيس مجلس الشورى ويكون معه من كل
فئة اثنان من الاعضاء بالملايس الرسمية بعد تسمينهم بمعرفة جميع الاعضاء

(٧) حيث تقرر في البند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة في
حين من يحصل انتخابه لوظيفة العضوية ففي حال الانتخاب بالمديرية اذا كان الجوز
ثم انتخاب النواب يمينون أشخاصا من التمر جاز تسمينهم لذلك فيا لطبيعة بحسب
الوضع بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية يصير الايضاح من المديرية الى مفتش العموم
حين كفيهم ومن طرفه يجرى تعيين ذلك بالكشف الذى يرسل لرئيس مجلس
الشورى باسماء النواب الذين يمينون لاجل اجراء منطوق البند المشار اليه

(٨) من بعد افتتاح مجلس الشورى وقراءة المقالة يصير تقسيم الاعضاء الى خمسة
اقلام بانتخاب خمس الاعضاء بعضهم بعضا ورؤساء الاقلام يكون انتخابهم بمعرفة

ان شريف باشا أراد يوما ان يوضح لاعضائه النظام الذى ينبغى أن يتبعوه في حلوسهم فقال انت العادة جرت في البرلمانات الاوربية بان مجلس مؤيدو الحكومة في مقاعد البين ومعارضوها في مقاعد الشئال فما كان من الاعضاء جميعا الا ان انتابوا الى مقاعد البين وقالوا « نحن عبيد افنديا » . وزعم كتاب اوريون آخرون

الاعضاء ايضا وفي الاقلام المذكورة يجرى التفحص عن المنتخبين حسب المدون بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية بمعنى ان كل قلم يتفحص عن احوال المنتخبين الذين هم بقلم آخر واعضاء القلم الجارى فيه التفحص المذكور يصير التفحص عنهم بمعرفة قلم من الاقلام الاخرى وبعد اعطاء القرارات اللازمة عن ذلك يصير اعطاؤهم الى رئيس مجلس الشورى لعرضهم للحضرة المحمدية كما في البند ١٤ من اللائحة الاساسية .

(٩) متى تم تحقيق صحة الانتخاب لزم رئيس مجلس شورى النواب ان يعرض للحضرة المحمدية بذلك ولا ينتظر صدور الحكم بخصوص الانتخابات الموقوفة او المنازع فيها متى كان الدين صحيح انتخابهم يجوز اسناد مجلس الشورى بهم كالوضح بالبند ١١ من اللائحة الاساسية

(١٠) ترتيب اشغال مجلس الشورى يكون بالنظر بحسب ما يراه رئيسه ويكون لذلك دفتر واضح ببيان تلك الاشغال مادة مادة بنابة الاختصاص وتواريخ ورودها والنظر الى وضعت عليها بالنسبة لترتيب رؤيتها وملحوظ يتاخر فيه عما يجرى فيها (١١) من يؤمر من الذوات من طرف الحكومة بالمباحثة في شأن تصور من التصورات المعروضة للذاكرة بمجلس شورى النواب متى طلب أن يتكلم لزم الاذن بذلك ولا يقتضي الزامه بالانتظار للنوبة حسب المقيّد بذكر النوبة

(١٢) مجلس شورى النواب له ان يجبر على الحضور بالشورى كل من لم يمنعه مانع صحيح معتبر وذلك بواسطة ترتيب عقوبات على من لم يحضر مجلس الشورى وكل رئيس قلم من الاقلام يعطى الى رئيس مجلس الشورى قائمة كل يوم صباحا بمن حضر من الاعضاء ومن لم يحضر

(١٣) اذا كان عدد مجلس الشورى في يوم من الايام أقل من القدر الموضح عنه بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لزم تأخير عقده الى اليوم الذي يليه وهكذا في كل

من القديو اسماعيل ، وليس شريف باشا ، هو الذي حدثت معه هذه الحادثة .
ونكن لا ريب في أن هذه الرواية مكذوبة لأنها لا تتند الا الى دعوى أولئك
الاجانب الذين سرف نحن الآن مبلغ ما يدعون علينا من الكذب ، وهم يكذبون
علينا بالرغم من معرفتهم ان اتصالا عالم المدنية وثيق وان كذبهم لا يكاد يظهر

يوم . في انضغ الحال على هذا الوجه يجب على الرئيس أن يؤخره الى اليوم
الذي يليه

(١٤) اذا كان عدد مجلس الشورى في يوم من الايام أقل من القدر الموضح عنه
البند ١١ من اللائحة الأساسية لكن تقس الاقلام يوجد منهم مستوفيا بقدر
التحسين بالنسبة لاصل اعضائهم فالقلم الذي يكون هذه الصيغة لا يصير تعطيله بل
ينظر في الاشغال المحولة عليه

(١٥) الذي يامر بافتتاح كل جلسة من جلسات مجلس شورى النواب وقفلها
هو الرئيس ويقتضي في كل آخر جلسة ان يبين الرئيس من بدال السؤال من الاعضاء
ساعة افتتاح الجلسة التي تليها وترتيب الاشغال بالاوقات المقتضية ويعلق الترتيب
الذكور في عمل مجلس الشورى وترسل صورة الترتيب في الحال الى كاتب الدوان
القديوي ويقتضى ان يجري الرئيس ما يلزم من طرفه بوصول الاخباريات والتبليغات
اللزامة اليه باوقاتها المقتضية

(١٦) التصورات التي تراها الحكومة تمثل صورتها بمجلس شورى النواب بمعرفة
من يتوب لهذه للمأمورية من طرف الحكومة

(١٧) بعد قراءة التصورات المذكورة في البند ١٦ يصير طبعها وتوزيعها على
الاقلام للنظر فيها باوقاتها فتبحث فيها وتعين الاقلام من مجموعها قومسيون مركبا
من عدة أعضاء يصير اصنافهم طريقة اعطاء الرأي عنهم بالصندوق سرا
وباقومسيون المذكور ينظر في تلك التصورات ويصحر التقرير اللازم عنها

(١٨) اذا صدر رأى من واحد او جماعة من الاعضاء الغير داخلين بالقومسيون
الذكور في البند ١٧ من اللائحة بخصوص مادة من المواد المتدرجة بالتصورات
المرسلة من طرف الحكومة ولم يكن ذلك من المحوخلات المذكور عنها بالبند ٢٣ من
هذه اللائحة يقتضى ان يصير تسليم ذلك الرأي الرئيس مجلس الشورى وهو بوصله
الى القومسيون المختص بالنظر في ذلك ولا يجوز قبول أى رأى كان فيها يتعلق بمادة

حتى يفسح فيهم في سنة ١٨٦٦ والصله بين مصر وعالم المدينه مقطوعة وقد كان للمصريين في هذا العالم أعداء طبعيون هم المراءون والافاقيون الذين كان يسمونهم أن تداع عن الامه المصريه كل النفاض ليعاونوا اسماعيل على صفتها بيديه فيبقى لهم الخير الذي ندره عليهم أصامه . وسنرى في ما يلي ان هذا

من ذلك متى تقدم التقرير في شأنها من ذلك القومسيون الى مجلس الشورى وأما عند تلاوة ذلك التقرير بمجلس الشورى يجرى ما يلزم له من المذاكرة وأخذ الآراء حسب الوارد بنود اللائحه من البند ٢٠ الى البند ٢٢

(١٩) كل من أورد رأيا بخصوص ماده من المواد المدرجه تلك التصورات كما ذكر في البند ١٨ من هذه اللائحه كان له حق التكلم في هذا الخصوص بالقومسيون المختص بالنظر في ذلك

(٢٠) متى تقدم التقرير الصادر من القومسيون بخصوص صورة ماده لزم ان يتلى بمجلس الشورى ويطلع ويوزع على اعضاء مجلس الشورى قبل المذاكرة بأربع وعشرين ساعة على الأقل

(٢١) تفتح المذاكرة بخصوص التقرير المذكور عنه في البند ٢٠ من هذه اللائحه في الوقت المعين له في ترتيب اشغال مجلس الشورى ويقتضى افتتاح المذاكرة أولا فيها يعلق بكل فم أو باب منها خاصه

(٢٢) من بعد أخذ الآراء عن كل ماده خاصه من المواد المتركب منها التصورات

المذكورة يجب أخذ الآراء أيضا بخصوص مجموع تلك التصورات على وجه العموم

(٢٣) اذا تراءى للقومسيون المختص بالنظر في احدى التصورات المرسلة من

طرف الحكومه ملحوظات فيها يعلق بذلك تتقدم الى رئيس مجلس الشورى وقبل

تلاوتها بمجلس الشورى تبحث من طرفه للحكومة

(٢٤) المسائل التي يلزم التداول فيها بمجلس شورى التواب بواقع ترتيب اشغاله

بحسب ما يستقر عليه الحال في آخر كل جلسة كما ذكر بالبند ١٥ من هذه اللائحه

يلزم في الجلسة الثانية ان كل مسالة منها قبل وضعها في ديوان المداولة يؤخذ رأي

مجلس الشورى عن لزوم او عدم لزوم المداولة فيها وعلى واقع ما يقتضى عليه الحال

في ذلك يجرى العمل

(٢٥) اذا التصلقه بالمنافع الداخليه التي يلزم التداول فيها بمجلس الشورى بواقع

يجلس فيه آثار ووجه الحكومة عاصمة من المعارضة ونادى ، على الرغم من ضيق
تصلحه ، بأن سلطة الأمة تستل فيه وأن من حقه أن ينصص الظار لمراقبه

ويتلخص تاريخ هذا المجلس من سنة ١٨٦٦ الى نهايه سنة ١٨٧٨ في انه كان
الحكومة نعم المرشد في كثير من المشروعات الزراعية والصاعبة وأعمال الري كما

يجب أشغاله كما في البند ١٥ من هذه اللائحة يلزم ان كل مسألة منها قبل وضعها
في ميدان المذاكرة يؤخذ الرأي من مجلس الشورى عن لزوم المذاكرة فيها وقتئذ
وتأخيرها لوقت آخر او نحو ذلك

(٢٩) اذا طلب الكلام اثنان او ثلاثة من اعضاء مجلس الشورى في آن واحد
فإن أعمال الفرقة المقتضية في تقديم أحدهم على الآخر ين معرفة رئيس مجلس الشورى
(٣٠) في حالة المكلة بمجلس الشورى في مسألة لا يجوز افتتاح للمكلة في
مسألة أخرى

(٣١) في حالة المكلة اذا تكلم احد الاعضاء فيما هو التكلم جار من اجله
لا يتكلم غيره قبل اتمام كلامه

(٣٢) لا يجوز لاحد ان يتكلم في كل مسألة بمجلس الشورى الا مرة واحدة
على ان يحض الحال على بعض الاعضاء بالتكلم غير مرة اذا احتاج الامر الى اعطاء
التصريحات او اعطاء جواب مرة ثانية بناء على طلب عضو آخر واما في القومسيونات
التي تشكل بمجلس الشورى فلكل عضو من اعضائها حق التكلم متى شاء
(٣٣) لا يجوز لاحد ان يتكلم الا اذا طلب الكلام وافذ له الرئيس بذلك
ولا يتكلم الا وهو في موضعه

(٣٤) اذا اراد الرئيس ان يتكلم بنفسه ويجب الاصغاء اليه

(٣٥) يجب ان يكون اخذ الاراء بالصندوق في الجهر وبطريق الاكثرية المطلقة

(٣٦) تحرير صندوق الاراء يكون بمعرفة كاتب السر

(٣٧) لا تكون عملية اخذ الاراء صحيحة معتمدة الا اذا كان الحاضر بمجلس

الشورى كما في البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٣٨) يجب على مجلس الشورى احترام حق العدد الاقل وفي ضمن المذكرات

يجب الاصغاء للعدد الاقل وان تسمع المحفوظات الصادرة منه

كان في كثير من الاحيان يردد مدى الشكاوى الجمة التي كان الاهالي يشكونها من فسادة الضرائب وعدم النظام في جبايتها . ثم لما كثرت ديون اسماعيل وارتبكتها الحكومة وأخذت القوذا الاخير يسيطر على البلاد كلت النواب أول المتذمرين ، وفيهم وفي الضباط وفي جماعة من الاعيان والعلماء وجدت جيداً فكرة

(٣٦) اذا كان عدد الاعضاء المتأخوذ رأيهم هو الاقل واما الاكثر لم يعطوا رأياً في المادة المروضة لزم الرئيس ان يسأل باقي الاعضاء عن رأيهم

(٣٧) رئيس مجلس شورى النواب هو الذي يؤدي وظيفة الرئاسة عليه فقط ان يسأل ارباب مجلس الشورى عن رأيهم وليس له رأى مطلقاً الا في صورة انقسام الآراء الى طرفين متساويين وأما فيما عدا ذلك من الاحوال فلا يدخل بنفسه في رأى من جملة الآراء بمجلس الشورى وليس له أن يتدخل في مذكرات مطلقاً

(٣٨) متى صار التصديق على صورة مادة بمجلس الشورى لزم ان تكون نسختها الاصلية مقيمة في دفتر مخصوص لذلك ويختم عليها الرئيس والاعضاء وتصدر نسخة اخرى عليها علامة كاتب السر وختم الرئيس وتقدم للحضرة المحذوية

(٣٩) الحجب الى مجلس الشورى يومياً والذهاب منه يكون بحسب ما يراه رئيسه باستناب المجلس

(٤٠) اعضاء مجلس الشورى يحضرون الى المجلس بملابس الحشمة اللائقة وجلوهم فيه يكون بجهة الادب

(٤١) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس شورى النواب ان ينيب بدون اذن بصدر اليه منه وتصرفه تذكرة رخصته من طرف الرئيس ولا يجوز له ان يحمر تذكرة رخصة الا من بعد صدور الاذن من مجلس الشورى ما لم تقض الضرورة الشديدة بتصريح التذكرة على وجه العجلة وبعد تحريرها على هذه الكيفية يغير الرئيس مجلس الشورى بذلك

(٤٢) المحاضر التي تصدر لانات وقائع مجلس شورى النواب تكون مشتملة على أسماء الاعضاء الذين تكلموا بالشورى ورأى كل منهم بالاختصار

(٤٣) المحاضر المذكورة في البند ٤٢ تقيد بدفتر مخصوص لذلك ويقرأها كاتب

تجئف الحزب الوطنى ، ومن بعضهم الفت جمعيات سرية ، وعلى السنة هذه الجمعيات
وهؤلاء التذمر من حرت لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كله : « مصر للصريين » .
وكل هذا كان كما قلنا الى ما قبل سنة ١٨٧٩ ، أما فى هذه السنة فللمجلس شورى
تتولب شأن آخر

قرر فى أول مجلس الشورى المنعقد فى اليوم الذى يلى يومها ويضع الرئيس امضاءه
على ذات المفتى فى كل يوم

(٤٤) الاوامر التى تصدر من الحضرة المدبوبة فيما يتعلق بأحدى الخصوصيات
المذكورة بالبند ١٧ من اللائحة الاساسية تنلى بمجلس الشورى فى الحال ويجرى
المعمل على مقتضاها

(٤٥) التنبيه بأرجاع ما يخرج عما يلقى بحسب الاصول انما هو من وظائف
الرئيس وحده

(٤٦) اذا خرج المتكلم فى مادة من المواد عن المسألة المفتضى الكلام فيها لزم
الرئيس أن ينبه عليه بالرجوع اليها وعدم الخروج عنها ولا يجوز للرئيس أن يادن
بالكلام فيها يتعلق بسباب الرجوع الى المسألة المفتضى الكلام فيها

(٤٧) يؤذن بالكلام لمن خرج عن الاصول وتنبه عليه بالرجوع اليها فرجع
وطلب الكلام ليعتذر ولا يؤذن بالكلام للخارج عن الاصول فى غير الصورة المذكورة
(٤٨) اذا خرج المتكلم عن الاصول وتنبه عليه بالرجوع اليها مرتين فى مسألة

واحدة وطلب الكلام للاعتذار يلزم الرئيس أن يسأل أرباب مجلس الشورى عن
لزوم منه من الكلام فى بقية الجلسة فيما يتعلق بالمسألة ويقتضى أن يحكم مجلس
الشورى فى هذا الامر بالاغلبية

(٤٩) اذا خرج للتكلم عن المسألة المفتضى الكلام فيها وصار ارجاعه اليها مرتين
فى مسألة واحدة ثم لم يخرج عنها مرة ثالثة لزم الرئيس أن يسأل أرباب المجلس
عن لزوم منه من الكلام فى باقى الجلسة بخصوص المسألة المتكلم فيها ويقتضى
أن يحكم مجلس الشورى فى هذا الامر بالاغلبية

(٥٠) اذا اقتضت الحال الى التنبيه على أحد من الاعضاء بالسكوت لكونه
تكلم فى غير محله وقطع الكلام على غيره فيقتضى أن لا يؤذن له بالكلام فى بقية الجلسة

انتهت سنة ١٨٧٨ ومجلس شورى النواب في عطلة فصدر أمر عال بدعوتهم
للإجتماع هذا نصه :

و نحن خديو مصر
بناء على ما عرض علينا من مجلس وزرائنا فأمر :

(٥١) لا يسوغ لاحد بمجلس الشورى أن يصدر منه مسبة لاحد ولا اشارة
بالاقرار أو بعدمه علي قول احد بمجلس الشورى

(٥٢) اذا حصل من أحد الأعضاء أمر يحل بانتظام حال مجلس الشورى لزم
أن ينبه عليه بالرجوع عن ذلك بالاسم من طرف الرئيس فان أصر على ذلك ولم
يرجع لزم الرئيس ان يامر بقيد التنبيه عليه في ضمن المحضر الذي يتحرر بما يقع
في مجلس الشورى في ذلك اليوم وفي صورة ما اذا أصر على عدم الرجوع عن الامر
المحل بانتظام بمجلس الشورى يلزم المجلس بناء على طلب الرئيس ان يتحكم من غير
مذكرة بإخراجه من محل مجلس الشورى بمدة لا يقتضي ان تزيد على خمسة ايام
فقط ولا بأس ان يامر أيضا باعلان صورة المذكور بالجهة التي يكون صاحب النائب
المحكوم عليه بذلك من طرفها

(٥٣) في مدة افتتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا تعمل دعوى على
احد من اعضائه بوجه من الوجوه الا ان كان لا سمح الله حصل من احد منهم
مادة قتل فطعنا لا يعدم من اعضاء مجلس الشورى ويتمن بدله حسبما هو مدون في
البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٥٤) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس الشورى ان يطبع وينشر المقالة التي قالها
بمجلس الشورى او المذاكرات التي حصلت بها من غير ترخيص رئيس المجلس
بذلك له فان طبع ونشر بدون ترخيص يترب عليه الجزاء اللازم بقرار من قوسميون
يتمن من القلم الذي هو من اعضائه

(٥٥) في مدة المصوبة اذا حصل من احد الاعضاء ما يمنع لياقة وجوده فعوض
بمجلس شورى النواب بما هو واضح بالبند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية
يسقط حق من المصوبة ويتمن بدله كما في البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٦) في مدة دوام افتتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا يقبل الاستعفاء

تولاً بالنظام مجلس شورى النواب في يوم ٢٩ ديسمبر الجاري
 شيخا جميعين احمد رشيد باشا رئيسا على هذا المجلس . ونكف باظر داخلينا
 هذا امرنا هذا

مؤاد من الاعضاء وفي اوقات تعطيله انا اراد احد منهم ان يستعفى لزم ان
يهم الاستعفاء الى رئيس المجلس ويوصله الى يد الرئيس قبل انعقاد المجلس بثلاثين
يوم في الاقل وحينئذ تجري المسكاة لهته لاجل تسعته غيره كما في البند ١٣ من
الوصية الاساسية

(م) إذا تراءى لرئيس مجلس الشورى تأخير عقد المجلس في يوم واحد من اليوم الذي يليه ولو كان عدد الأعضاء مستوفيا كما كان في البند ١١ من الوثيقة الأساسية فلا مانع من تأخير عنده في ذلك اليوم فقط وبمرض الرئيس المستمرة المندوبة عن ذلك في الحال

(٦٠) لا يدخل جهة مجلس شورى النواب الا الاعضاء المنتخبون والاشخاص
المتفقون بمجلس الشورى ومن يرسل من طرف الحكومة بامورية تختص
بمجلس الشورى وهذا يتبع اجراءه لحد ما يصدر الامر من الحضرة الخديوية
بغير تدخل من يتصرح له بذلك بموجب التناكر التي تعطى لهم حين ذاك من
طرف رئيس مجلس الشورى

ولكن لما جاء يوم ٢٩ ديسمبر لم يتيسر لعدد كبير من النواب أن يحضروا
فتأخر فتح المجلس الى ٢ يناير سنة ١٨٧٩. ووصفت «الوقائع المصرية» هذا الفتح
في عددها الصادر في ٢٩ يناير بقالت :

« صار افتتاح مجلس شورى النواب الساعة ٥ ونصف عربى
بحضور سعادة الخديو الاكرم وبني يديه دوللو افتدتم عهد توفيق باشا ولى عهده
ودوللو افتدتم حسن باشا ثالث انجاله ودوللو نوبار باشا ناظر مجلس النظار وناظر
الخارجية والحفانية وجناب الميسور بغرز ولسن ناظر المالية وسعادة عهد راتب باشا
ناظر الجهادية وسعادة مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية وسعادة على مبارك باشا
ناظر الاوقاف والعارف وجناب مسيو دولينير ناظر الاشغال العمومية وسعادة
احمد خيرى باشا مهردار الحضرة الخديوية وتليت مقالة النطق بالكرام وصورتها اذاعة :
« أبدي لكم تمنونتي من اجتماعكم بهذا المجلس واخبركم بان سبب اجتماعكم هو ان
نظار حكومتى سيتذاكرون معكم في بعض مسائل مالية واشغال داخلية فترجو من
المولى الكريم ان تم المذاكرة في ذلك على احسن حال والله للموفق للصواب »

وكن الرأى العام يعلق آمالا كبيرة على هذا المجلس وكان يريد منه أن يخرج
عن الطوق الضيق الذى حدد فيه اختصاصه فيكتتب جريدة الوطن في عددها الصادر
في ٤ يناير تقول : « ان الآمال جميعها متعلقة بان المجلس المذكور يحذو في هذه
المرّة حذو مجالس أوروبا في استعمال حرية الافكار في جميع مناظراته ومداولاته فان
ذلك هو السبب الاقوى للمصر ان الشاهد في عموم أوروبا الميان »

وفي يوم الافتتاح ألف المجلس لجنة منه لرد على « مقالة » الخديو ثم وضعت
الجنة الرد ووافق المجلس عليه وقدمه وفد الخديو يوم ٦ يناير في قصر عابدين
بحضور جمع من الابرار والنظار والكبراء . وفي هذا الرد جهر المجلس بأن «النواب
هم وكلاء الامة والمدافعون عن حقوقها » ثم جهر بمعنى آخر كل يتبر جريئاً في ذلك
الوقت وهو أن مجلس النظار مسئول أمام الامة وتمم مجلس النواب . وها هو الرد
تنقله بنصه عن جريدة الوطن الصادرة في ١١ يناير سنة ١٨٧٩ :

« نحن نواب الأمة المصرية وكلأؤها المدافعون عن حقوقها الطالون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الترخيمه الشكر الجميل حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب الذي هو اساس المدنية والنظام وعليه مدار العمران وهو السبب الموجب لتوال الحرية التي هي منبع التقدم والرفق وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق التي هي جوهر العدل وروح الانصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزراء جعلته مسئولاً كلياً أمام الأمة تأييداً لمجلس النواب وتحميلاً له . ولذلك حينما تطلعت لرأيتها السامية الجن يطر الزراء في أمور المالية والاشغال الداخلية دعت نواب الأمة ليتداولوا سهم في ذلك حفظاً لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة »

ثم استمر الرد قد ذكر ان ما جاء في « مقالة » الخديو من أن المقصود باحياى المجلس هو المداوة مع النظار في المسائل المختلفة بالمالية والاشغال والداخلية بحث في القلوب « روح العصر الجديد وأحيا آمال الأمة »

وهذا كله يدل على أن المجلس كان يستخيل في تلك السنة روحاً قوية في البلاد هي روح الالم بما وصلت اليه الحال على يد اسماعيل والرغبة في أن تتولى الأمة أمرها بيداً لتدبر الخطر عن نفسها . فلنتظر ماذا فعل بعد ذلك وكيف كان مسلكه بآراء الحكومة

كان الوقت وقت النظارة الاوردية ، ونحب أن يلاحظ القاري أن الوقت كان أيضاً وقت رضا اسماعيل بالنظارة الاوردية لانه لم يثر عليها الا في ابريل ونحن الآن في يناير ، فلما عند المجلس جلساته الاولى بدأ فأخذ على النظار أنهم لا يحضرون اجتماعاته ولا يقدمون اليه المسائل ذات الاهمية . وعلم النظار بهذا الاتقاد فخصم له تنظر الاشغال مسيو دي بلشير فجاء وتناقش مع المجلس وسمع ملاحظاته أكثر من مرة . واقترح بما سمعه من جوابه . أما رئيس النظار نوبار باشا وناظر المالية السير ديفرذ ولسن فقد كان لكل منهما موقف يستحق أن يذكر على حدة .

ونبدأ بناظر المالية فتقول إنه كتب الى المجلس يطلب منه أن ينتخب بعض اعضاءه

ليذهبوا اليه في وزارة المالية (١) ويتداولوا معه في بعض المسائل فرفض المجلس وقال ان رأيه لا ينحصر في فريق من ولكنه قبل مع ذلك أن يفتدب حصة أو ستة منه على شرط أن تكون كل منهم سماع ما يريد الناظر تبليغهم إياه وان يعودوا الى المجلس ليعرضوا عليه ما سمعوه . ولا ريب في أن هذا كان خطأ من المجلس لار اسواب ليسواسماة يريدون أن على كل ناظر أن يقدم بنفسه بما لديه ، ولكن لعل المجلس ظن أنه بذلك يبعد عن نفسه مهمة التعصب على النظارة الاوربية والناظر الاوربي وقد كانت هذه المهمة دائرة في ذلك الوقت على لسان كل طامع في المصريين

على أن ناظر المالية استمر بعد هذا ممتنعا عن أن يقدم شيئا فاستعجله المجلس

(١) ننقل هنا من محضر جلسة المجلس في يوم ١٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« سعادة رئيس المجلس اخبر بانه وردت اقادة من ناظر المالية صورتها : « من حيث اننا نريد المكاملة مع ارباب شورى للنواب في مسائل مهمة تتعلق بامور مالية الحكومة والاسترشاد من معلوماتهم وتجاربهم المحلية فنظور انه اذا امكن المداولة مع بعض من حضرات الاعضاء الذين يصير انتخابهم بمعرفة المجلس ويحضرون للمالية يكون ذلك متافيا لظروف الاحوال ويتانى منه تسهيلات لماموريتنا . فالرجاء تبليغ ذلك للمجلس والترجي منه بالقبول حسب ما يقتضيه الحال »

«ومحمود بك الطار قال المجلس لا ينحصر رأيه في بعض الاعضاء بل لا بد من المذاكرة بحضور جميع الاعضاء . وانما من حيث ان سعادة ناظر المالية طالب بعض ارباب المجلس للاسترشاد فلا بأس من تعيين قدر خمسة او ستة منهم بحيث ان لا يكون لهم رأى ولا قول في اي مسألة كانت وانما ما هو لازم الاستفهام عنه يصير تبليغه لهم ويحضر منهم مكاتبه للمجلس بالكيفية وعنددها ينظر وينطلى القول لللازم

« استقر رأى المجلس على ذلك وان الذين يوجهون م..... الخ »

فلم يرد عليه فاضطر المجلس أن يحجر بذلك في جلسته ١٩ يناير^(١) وأن يعود فينتسب استعجالاً ثانياً . ثم مصت ثلاثة أيام أخرى وناظر المالية لا يزال ساكناً فلما انعقد المجلس في ٢٢ يناير شكوا أعضاءه بـ « إصرار من هذا السكوت^(٢) ثم لم يجدوا إلا أن يبدوا ما لديهم من الملاحظات على الشؤون المالية »

وهل تظن أن الشنطرس ويفرر وأن أصفى بعد ذلك لهذه الشكوى ؟ كلا لم يصغ إليها وكأنه لم يشعر بها ولا بوجود المجلس . ولو أنه كان موثقاً بمصر بلا يستد في منصبه إلا إلى سلطة الحكومة المصرية ما استطاع أن يشكر المجلس هذا الانكار

(١) ننقل هنا من محضر الجلسة في يوم ٢٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ١٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« عبد السلام بك المولى — قال حيث افتتح المجلس كان أصل مساء كما هو من مقتضى المقالة المدوية الطرق مسائل مالية وأشغال داخلية وتقدم تقرير المجلس عن لزوم حضور ذلك وقد حضرت أفادة من الداخية عن مسائل لأشغال وحصل الوعد عن حضور مسائل المالية . ولما لم يحضر تحرر استعجال وللا أن لم تأت والمجلس لم يزل في الانتظار . وقبل افتتاح المجلس معلوم عند سعادة ناظر المالية أهمية المسائل المفتضى تقديمها للمجلس وما هو لحد الآن ما ورد منها شيء فأت وافق بكون استعجال حضورها — استقر الرأي على ذلك »

(٢) ننقل من محضر جلسة ٢٩ محرم — ٢٢ يناير ما يأتي بنصه :

« تقدم انتهاء من حنا أفندي يوسف والشيخ عثمان الهرمبل والسيد أحمد الرسمي وبخوم أفندي لطف الله وأحمد أغا عبدالصديق والشيخ فضل الزمر ويوسف أفندي رزق وعبد الشهاب أفندي بطرس والشيخ خضر إبراهيم والشيخ حسن عبد الله والشيخ أحمد جاد الله والشيخ محمود عبد الله والشيخ إبراهيم الجبار والسيد اللوزي والسيد سليمان القرني والشيخ محمد فرج ومحمود بك العطار . صار ثلاثه وصورة أدناه :

« مبنى افتتاح المجلس إنما هو عن رؤية مسائل مالية وأشغال داخلية حسب المنصوص في المقالة المدوية التي نليت يوم الافتتاح وقد صار الاطار لورود مسائل المالية ومع تحرر الاستعجالات عنها المرة بعد المرة ما كانت ترد . وقد مضى على المجلس من يوم افتتاحه لحد تاريخه نحو العشرين يوماً وقد سبق القول بالمجلس أن بعض حضرات الاعضاء عند عدم ملحوظات يرغبون إبداءها لكن مدطرون ويرود تلك المسائل وحيث أنها ما وردت فقد ألجأت للضرورة لأن توضح ما عندنا من الملحوظات الخ »

ولكنه كان موطأا انجليزيا بسند في منصبه الى انتداب حكومته من جهة والى السلطة التي كان الدائنون قد كسبوها في داخل الحكومة المصرية من جهة أخرى فكان سهلا عليه أن يحقن المصريين مادام مستطيعا أن يبرز منهم الاموال بقوة الكرياج للدائنين ومن هنا معهم انه حينما طلب من اسماعيل أن يتول عن السلطة لمجلس نظاره لم يكن يريد إيجاد حكومة مستولة وإنما كان يريد إيجاد حكومة يمكن أن يدخلها ويكون صاحب السلطة المطلقة فيها

وقيت الحال كذلك عدة أيام وكان المجلس قد بحث بالملاحظات التي أبدتها بعض أعضائه على الشؤون المالية الى الحكومة كي يرد عليها باطر المالية فاقصت أسابيع ولم رد الباطر ثم اجتمع المجلس في ٩ مارس فقدم ٢٩ عسوا من اعصانه احتجاجا على الباطر ^(١) ينوا فيه ملك العت الذي بسلته وشرحا الفصل الذي

(١) نقل من محضر جلسة ١٦ ربيع الاول - ٩ مارس ما يأتي :

« تقدم انهاء من تسعة واربعين من الاعضاء وصار تلاوته وصورة اداءه :
 « لا يحى انت معنى افتتاح مجلس النواب في هذا العام كان من اجل التطري
 مسائل مالية واشغال داخلية لما ان ذلك من مقتضى المقالة الكريمة التي تليت يوم
 افتتاحه وقد حضرت للمجلس مسائل تتعلق بالمليات ونظر فيها وتحررت للمحفوظات
 اللازمة عنها وبشت للداخلية واما المسائل المالية فع ظله مراراً وعدم حضورها
 ومعلوماتنا بما هو حاصل للاهالي من الضك والمشفة وعدم امكان القيام بوفاء
 المربوط فتقدم البيان عن التضرا الحاصل من اقلام الارادات والمجلس الخمس حضور
 سعادة فاطر المالية للمذاكرة معه في هذا الخصوص ولما لم يحضر كتبت للمحفوظات
 المقتضية وارسلت للداخلية وما كان يرد عنها بخاوبة للآن . وبما ان حقيقة حال
 الاهالي وما هم عليه من درجات الصبر والمشفة معلوم عندنا كما يجب ويلزمنا ايضاح
 ما هو متراء لنا في خصوصها بالنسبة لكوننا نوابا عنهم ولا شك في ان نقل الاحمال
 التي كلفوا بها هو الذي صيرهم الى عدم امكان الوفاء بتلك المطالبات وحيث
 قد مضى من وقت افتتاح المجلس لحد تاريخه زيادة عن سبعين يوما اي اكثر من
 المدة المقررة للايجة وما كانت نحضر المسائل المالية اللازم النظر فيها ولا الجاوبة
 عن المحفوظات التي تقدمت من المجلس فقد التزمنا ايضاح الكيفية بالتفصيل
 وبيننا ما هم عليه الاهالي كما هو من واجبات وطائنا حتى لا يبق علينا ادنى ملامة
 في المستقبل - المجلس وافق على هذا الانهاء وقرر ارساله الى نظارة الداخلية »

تحتيه البلاد وأشهدوا الأمة على أنهم فعلوا واجبه فلم تبق عليهم ملامة . وعند هذا
لقد من النزاع تقف مؤقتاً لننتقل الى النزاع الثاني الذي قام بين المجلس ونوبار باشا
وسرى بعد ذلك كيف انتهى النزاعان

لاحظ اثنان من النواب هما محمود بك المطار وعبد السلام بك المويلحي أن
أمراً عالياً صدر في ٦ يناير — أى بعد افتتاح المجلس بأربعة أيام — ونشر في عدد
١٦ فبراير من الوقائع المصرية وفيه أن اللجنة التحقيقية التي عينت لفحص مالية مصر
ولمجلس النظار أن يضما لوائح وقوانين يصدق عليها الخديو ويصدرها بغير أن
تعرض على مجلس شورى النواب فاحتجوا على ذلك أمام المجلس فأقر المجلس
استجابهما وطلب حضور نوبار باشا ليستجوبه في هذا الموضوع . وكانت وقفة
المجلس في ذلك اليوم ، يوم أول فبراير وقبل أن يفكر استماعه في الثورة على النظارة
الأوربية بأكثر من شهرين ، وقفة تذكر في تاريخه وتاريخ الحياة النيابية في مصر
ولهذا نقل من محضر اجتماعه ما يأتي نصه :

« قال الرئيس تقدم انهاء من حضرتي محمود بك المطار وعبد السلام بك وصار
تلاوته وصورة أدناه :

وأبنا في العدد ٧٩٣ من الوقائع المصرية ذكر يتو مبني على ما عرضه رئيس مجلس
النظار على الحضرة الخديوية ونصه :

بناء على التقرير الذي عرض علينا من رئيس مجلس النظار وبناء على رأى
مجلس النظار الموافق ذلك التقرير أصدرنا أمراً هذا .

أولاً أن قوميون التحقيق الأعلى مكلف بوضع لوائح وقوانين لجميع الوادائي
اشتغل فيها وبعد نظرها في مجلس النظار واستصوابها يرفها اليها للتصديق عليها
ان دعت الحاجة الى ذلك

ثانياً انه من اجداء التاريخ الذي بين بد لا يصير تحصيل أموال ولا اجراء
أى أمر يختص بموم الادارة الا بعد صدور قانون من مجلس نظارنا مصادق عليه
منا ومنشور في الصحيفة الرسمية . وقد وكلنا رئيس مجلس النظار بتنفيذ هذا الذكر هو .
حرر في ٦ يناير سنة ١٨٨٧

ولم ير مجلس النواب في هذا الذكر يتو امياً ولا خبراً مع أن سائر ما يختص
بالادارة العمومية من تحصيل أموال وضرب ضرائب ووضع لوائح أو قوانين

لذلك وما كان من هذا القليل انما يقصد به الاهالى لاعتد وكل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضام به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به. وحيث انهم اباؤنا عن أنفسهم نوابا منهم منوطين بالدفاع عنهم والحماية عن حقوقهم والنظر في شئونهم سين المصلحة فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . وذلك لا يخفى على دولة رئيس مجلس النظار . وكيف يخفى عليه ان للامة المصرية نوابا وهو يعلم دعوتهم للانتظام وقد شهد يوم اجتماع المجلس وحضر افتتاحه وسمع تلاوة الخطاب المندوبى في أعضائه وحضر يوم اجابة الاعضاء على ذلك الخطاب ووقف على مضمون كل من الخطابات وجوابه وعلم ما فوض اليهم أمر المذاكرة فيه . ومن ثم قد أخذنا المعجب وذهب منا الاسف كل مذهب ولا شك في أنكم مشر للنواب قد أخذكم من المعجب والاسف ما أخذنا وكيف لا وان مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يجمل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها كما لا يشكر ان موضوع الذكر يتوالمحكى عنه ، هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التى لا يصح انتهاكها ولذلك كانت الحضر والمندوبية من عهد تشكيل مجلس النواب لا تريم غالب الامور المهمة التى تكون من هذا القليل الا بعد أن تعرض على أعضائه ولا يقضى فيها الا بعد اقرارهم على وضعها مع أن تلك الحضر هي التى منعت الامة تشكيل هذا المجلس . واذا كانت حقوقه محفوظة في الجملة حيث لم تكن ثم ودارة قائمة على دعائم الحرية مكلفة بأمر الاصلاح ومسئولة عنه فكيف تضع تلك الحقوق في عهد تؤمل الامة فيه نوال نوابها بآل حريتهم وقاية حقوقهم علما بأن تلك الوزلة أدرى بشئون البرلمان وأعرف بمقداره - ا هـ

قرر المجلس المداولة في ذلك وارسل صورة منه الى رئيس مجلس النظار ومطالبة رئيس النظار بالحضور لكي تكون المداولة بحضوره »

فنظن ان كل مطلع على هذا الحضر يوافقنا على أن قول المجلس ان « كل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضام به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به » وقوله ان « من الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه » كانا تعبيرا صحيحا عن المطالبة بسلطة الامة وحق نوابها في التشريع .

وفي ٤ فبراير اجتمع المجلس وحضر نوبار باشا فابتدأ بأن قال انه « يقدم المجلس لاحترامات الفاتحة » مقابل المجلس هذه الاحترامات بالشكر ثم نلى تقرير محمود بك المطار وعد السلام بك الموبليحي وطلب من نوبار باشا أن يجيب عليه فقال ما نقله هنا عن المحضر بنصه وهو :

« المسألة التي قالوا عنها انما هي مسألة أساسية ولو كانت من خصائص الداخلية او المالية او الحفافية او الاشغال كان من الممكن ان اجاب عنها انا ورفقائي لكن لارجو قبول عذري في عدم المجاوبة عنها الآن وهذا بالطر لكونها مسألة اساسية نحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظار والعرض عنها للاعتاب السببة »

فرد عبدالسلام بك بمحمود بك المطار بأنهما يوافقان رئيس النظار على ان المسألة اساسية وليكهما يقولان ان هذه الاساسية نفسها هي الموجب لان يكون النظر فيها من حقوق المجلس . ثم قالوا وقال المجلس معها « ان كل مملكة وكل حكومة تقدمت كفن اساسها اشتركت النواب في امثال ذلك » وان « المرجو هو استحصال المجلس على حقوقه » . فلم يجب نوبار باشا بغير أن كرر قوله السابق ثم لحا بسرعة الى احدى حيله التي اشتهر بها فطلب من النواب أن يشركوا معه في اختيار « الموظفين المستقيمين السير » لاصلاح الادارة المصرية ١١ ورحامتهم ان يأتوا اليه في ديوانه لهذا الغرض ١٢

ولم يعد نوبار بعد ذلك الى المجلس بالجواب الذي وعد به ولكن مجلس النظار اجتمع في النصف الاخير من مارس وقرر قض المجلس بدعوى ان مدته انتهت واستصدر من الحديو امراً هذا نصه :

« بناء على ما حواه البند التاسع من مجلس شوري النواب من ان مدة توكيلهم عن الاهالي تكون ثلاث سنوات ومعرض علينا من مجلس النظار من ان المدة قد انقضت أصدرنا أمراً بانفضاض المجلس وكلفنا ناظر داخلينا بتنفيذ ذلك في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٩ »

فكان هذا الامر جواب النظارة على النزاع بين القلين قلما بين رئيسها وناظر ماليها من جانب والمجلس من جانب آخر، كما كان دليلا على ان النظارة الاوربية كانت تريد ان تخلص بهذه الطريقة من مراقبة المجلس ومن الروح القوية التي كانت تراها فيه . ولكنها لم تخلص وما كن الامر الذي استصدرته بفض المجلس

الاسبيل لا زدياد السخط في البلاد واذا ذلك شعر المجلس بان من حوله قوة كبيرة من
الرأى العام تؤيده وتطلب منه المقاومة قاوم وكان لذلك يوم جليل مشهود

يوم كيوم ميرابو

ذهب رياض باشا ، وكان وزيراً للداخلية ، الى المجلس وفي يده أمر الفضي
فتلاه على الاعضاء . وهو معتقد أنهم جميعاً سيقابلونه بالسمع والطاعة وأنهم قد يتذمرون
ولكنهم سيكظمون تذرهم في أعماق قلوبهم وسيصنفون . كان هذا هو الذي
يتمتده ، فلشد ما دهش اذ رأى صد الفراغ من التلاوة ، أن الاعضاء ما زالوا في
أما كنهم وأن واحداً منهم هو عبد السلام المويلحي بك وقف وقال في قوة وغضب
ان ما تقوله الحكومة من ان مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح لان المدة لم
تنته بعد ولهذا سيبقى المجلس في مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدي واجبه نحو
الامة . وقام عضو آخر ^(١) وقال ان هذا رأينا جميعاً فاحاب كل الاعضاء بالاجاب .
وخرج رياض باشا كما جاء فلم يحمل الى النظارة خبر اغضاض المجلس وأما حمل خبر
تمسكه بحجة وثورته عليها . ويحسن هنا أن نترك الكلام لحريدة « الوطن » ^(٢) فقد
قالت في عددها الصادر في ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ :

« بعد أن تكلمنا مراراً كثيرة عن مجلس النواب وأصل وضعه وحقوقه
وواجبات الامة نحوه وذلك في وقت افتقاد مجلس شورى النواب المصرى شغلنا
عن ذكر ما تراه شواغل الايام والآن نقول ان حضرة عطوفتو رياض باشا حضر
أمام المجلس وأخبرهم بلسان حضرة الخديو باغضاضه وان الحكومة متشكرة لهم
على ما أبدوه من الساعى اى النظر في الاحوال والدعاوى فقام حضرة من اشهر

(١) لم نثر مع الاسف الشديد على محضر اجتماع هذه الجلسة ولكننا عثرنا على
ما كتيبت عنها جريدتنا الوطن والتمس في ذلك العهد . ولم نجد في الجريدتين اسم
هذا العضو ولكن حضرة يوسف بك المويلحي اطلعنا على مذكرات عنده تقول
انه حسن بك عبد الرزاق

(٢) كان مدير جريدة الوطن ورئيس تحريرها في ذلك الوقت مبخايل افندى
عبد السيد وكان يؤيد الحركة الوطنية تأييداً صادقا

الصراحة والبلاغة وللندافة عن حقوق ابناء وطنه عزقو عبد السلام بك المويلحي
خرج بساير المصعب وبيانه العذب بأنه لا معنى لشكرات الحكومة فانهم لم يبدوا
حيرة تضر ولم يغفلوا شيئا مطلقا يذكر وان المجلس يستمر على انقاده. فقام عضو
آخر وقال ان هذا الحكم هو اعراب عن افكارنا ومطابق لمطابقة عامة لانظارنا
غلب جميع الاعضاء بالانجاب وقالوا له بصوت واحد ان هذا هو الصواب فان
لا ريبا كانت المسألة والمشاكل السياسية تستلزم استشارة امثالهم كما هو حاصل في
السلطة الثابتة والاولية فانه اذا وقعت أية دولة في ارتباكات ومشاكل وعقد مدلهمة
وشواغل استماتت باستشارة نواب الامة. فاستغرب سعادة ناظر الداخلية من هذه
التهامة والمهمة وتطلبهم لحقوقهم المهمة وأخبرهم بأنه سيرض هذه القضية على
السلطة الجديدة وعلى مجلس الوزراء. فاجتمع النواب وحرروا خطابا لناظر الداخلية
يتناول فيه بعض الاسباب الموجبة لعدم انقضاء المجلس وذكروا انهم لغاية الآن
لم يعرفوا ما استقر عليه مجلس الوزراء من جهة الترتيبات وغيرها مع ان وظيفتهم
تستلزم الاطلاع على هذه الامور وتقتضي بذل السعي المبرور لهم الشمت وضم المنشور
وهذا الامر مناسب جداً فانهم لم يأوا شيئاً إذا وإلا اذا سافروا الى نواحيهم وسألهم
بعض متخبيهم عما فعلوه فبأى شيء يجهلونهم. ألا يتدبرونهم قائلين قد رجعت بخفي
حين بل انتم السبب في تجريئنا كاس الحين

ثم ختموا جوابهم بإقامة الحجة على منع حرية للطبوعات الاحلية. ويقال انه
قد اجتمعت جمعية من العلماء وانايت واحدا منهم ليحرم مجلس النواب بانهم مؤيدونهم
في مطلوبهم مساعدتهم على مرغوبهم وانه يجب على كل منهم ان يكتب لاهل
أحيته لتسكين خاطرهم واعمال جاشهم الذي جاش عند بلوغهم باقضاء المجلس .
فهذه هي احوال مجلس النواب في الوقت الحاضر . ويستفاد من خطابهم الذي
حرروه انهم لم يشتغلوا لغاية الان الا بأمور جزئية وانهم لم يميلوا بعد التنام عن
الامور الكلية فلم ينظروا في الميزانية مع انكشافها للبعض ولم يطلوا بعد على
التقرير الذي حرره ناظر المالية وارسله لجميع القناصل وبلاد أوروبا ولم يعرفوا
لغرض الب وغيرها . وبالاختصار انهم لم يطلوا على الترتيبات الجديدة والنظامات
المديدة ومعلوماتهم بهذه الامور لم يخرج عن حد الحدس والتخمين . وزد على ذلك
انهم لم يسنوا لا تقسيم قانونا ليكون المجلس آلة قوية في الاصلاح كما حصل في
امارة البشار

ونشرت التيسر لمراسلها في القاهرة في ١٦ أبريل مايلي :

« ان أعضاء مجلس شورى النواب اظهروا ادلة كثيرة على حياتهم واستقلالهم ، و ليس آخر هذه الادلة اقلها شأنا فقد ذهب رياض باشا ماطر الداخلية منذ أيام الى المجلس ليعلن رسميا انتهاء دور انعقاده فخطب النواب خطبة لطيفة رقيقة نوه فيها بمخداتهم وأشار الى انتهاء واجباتهم كلها . ولكن رياض لم يحد حذو اوليعر كرومويل وأبى المجلس ان يرفض وقام أحد النواب خطيبا فرفض تحية رياض الختامية وصرح بالنيابة عن بقية النواب بان النواب على عكس مقال رياض باشا لم يفعلوا شيئا وإن أمامهم عملا كبيرا هو مراقبة الوزراء وأهم من أجل ذلك يابون الارفضاض . وأيد الخطيب زملاؤه كلهم كما أيد الاعيان في ماصب التنس فرساي فخطيبهم ميرابو في احد المواقف المشهورة . وعلى ذلك لا يزال مجلس شورى النواب المصرى يعتقد اجتماعاته وهو الآن يتشدد في وجوب خضوع النظار الاجانب والمصريين لارادته وصيورتهم مسئولين أمامه عن تصرفهم في أعمالهم . فانواب في الواقع يتوون تحويل الحكومة المسئولة اسما الى حكومة مسئولة فعلا »

مجلس نأى الوزارة أمام

لم يكذب خبر هذا الموقف الذى وقفه مجلس شورى النواب يصل الى الجمهور حتى تحركت في النفوس كوا من الآلام والآمال وانتعشت بان وجدت قائدا يقودها وصوتا ينادى بما يختلج فيها . وكانت فكرة « مصر للمصريين » قد انتشرت وكانت جمعيات سرية وغير سرية قد ألفت ، ثم كانت الفكرة الوطنية قد نمت حتى شملت كما تقدم اسماعيل صديق باشا قبل قتلها ، وكانت دروس السيد جمال الدين الافغانى قد أنبتت في شيوخ الازهر روحا تتردد على الفساد وتنادى بالاصلاح ، فالتأم كل ذلك مع ثورة المجلس على نظام الارهاق فكان أن اخذت البلاد كلها تغلى بثورة فكرية هي ثورة القيد المعذب يريد ان يكسر قيده لينخلص من عذابه

وممن شك في أن الحدبو اسماعيل باشا كن ينظر الى هذه الحركة بعين الارتياح لانه رأى فيها بابا لاستعادة سلطته والخلاص من اغلال النظارة الادورية . ويطلب على الظن انه وقد قوي في نفسه هذا الامل وصحت عزيمته على تحقيقه أراد أن

يوجه الحركة الى الطريق التي يربطها ما عزالى بعض الوزراء السابقين بان يندمجوا فيها ويتولوا قيادتها . فكان ان عقد اجتماع^(١) في أوائل ابريل في بيت اسماعيل واغلب باشا حضره شريف باشا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وجعفر باشا وخيري باشا والسيد البكري والشيخ الخلفاوى والشيخ العدوي واتفقوا على كتابة عريضة بطلبون فيها أن تكون النظارة وطنية وأن يعاد نظام المراقبة الثنائية وأن تكون الوزارة مسئلة أمام مجلس النواب . فكتب العريضة ووقعها الحاضرون جميعا ووقعها معهم بطريك الاقباط وحاجام الاسرائيليين وسبعون من العلماء وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش . وقد قدم ذكر هذه العريضة كما تقدم أن الخديو اسماعيل باشا اعتمد عليها في استدعائه قناصل الدول مساء ٧ ابريل وأبلغهم انه كلف شريف باشا تأليف وزارة وطنية مسئلة أمام مجلس النواب .

المجلس في وزارة شريف باشا

وفي الواقع ان الخديوي كان قد أصدر الى شريف باشا في اليوم نفسه وقبل أن يستدعي القناصل أمرا نذكره هنا بنصه لاهيت وهو :

« اي بصفة كوني رئيس الحكومة ومصر يا أرى من الواجب على ان اتبع رأى الامة وأقوم بإدائها ما يليق بها من جميع الالوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير القدى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من ان ذلك السير كان على غير رضا اللة والاهالى حتى نشأ عنه اضطراب وتورمرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك في غاية الهدوء والكون . وطالما اخبرت النظار ووكلاء الدول وبنههم على تلك المصوغات فلم ينفذوا لها ولم يلتفتوا اليها . وزيادة على ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر المالية واظهر بها ان القطر في حالة المدم (٢) وابلل العمل بمقتضى القوانين المتخيرة وتجارى فيها على الحقوقى الشاجة كانت سببا لتغيير قلوب

(١) جريدة الوطن بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٨٧٨

(٢) تقدم ان السير رفرزولسن اعلن تأجيل كوبون شهر ابريل فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية

الامة ونورها من هيئة النظارة كل النور . وحقق في ذلك المحضر الذي تقدم لي في هذا الخصوص (٧) . فاجابة لما عرض على بذلك بالنظر لثبوته عدى قدوكتكم تشكيل هيئة النظارة بناء على الارادة المبادرة في ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ وان تكون تلك النظارة مشكلة من اعضاء اهلين مصريين بقعون في سيم الطرق المنصوص عا ١ في الادارة المذكورة وان يحفظوا على مامورياتهم كل التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسئولة لدى مجلس الامة الذي سيجرى انتخابه وتعيين ماموريته بوجه كاف للقيام بواجبه مايلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة ههنا »

هذا هو الامر الذي اصدره اسماعيل الى شريف باشا ومن السهل أن يري فيه كل انسان ان اسماعيل يعمد ان ياتي بالمسئولة في جميع المصائب التي حلت بالبلاد في عهده على النظارة الادورية ليكتسب ميل الامة . وكل من يقرأ تاريخ تلك الايام يري أنه كان يحضر اجتماعات وحفلات تمام في بيت البكري وغيره ثم يقف فيها بين الناس فيدعو بالخير للامة ويقرأ الفوائح لاريا . الله كانه زعيم وطني ورئيس ديني ، ولكننا نمر بهذا لاتنا لا ننتظر فيه بل في شيء آخر هو الحياة النيابية . ولهم لدينا الآن ان هذا الامر يص على تأليف وزارة يكون اعضاؤها « مكلفين بالمسئولة لدى مجلس الامة الذي سيجرى انتخابه » ، وتلك هي اول مرة ألفت فيها وزارة على هذا الاساس .

وبعد اربعة ايام من تأليف وزارة شريف باشا في ١٠ ابريل سنة ١٨٧٩ (١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦) اجتمع مجلس شوري النواب فقرأ عليه رئيسه خطابا جاءه من وزارة الداخلية هذا نصه (٢) :

« ولوانه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن اقتضاى مجلس شوري النواب لاقتضاء مدته حسب ما تقرر لسماذتكم في ربيع آخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٣١ لكن حيث ان مقتضيات الاحوال مستلزمة إبقاء للمذاكرة والمفاوضة معه في بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذي تشكل الآن استمراره واقتضى تخريجه لسماذتكم للاحاطة بذلك وتهمهم حضرات اعضاءه بدم الانصراف »

(١) يريد المريضة التي سبق ذكرها

(٢) الوقائع المصرية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦

وفي جلسة ١٧ مايو حصر شريف باشا وقال ^(١) : « انه يقدم للمجلس اللامتناهين
 لمختارين بأسماء المجلس وبالاتحاد . وقد أحصر معه اللائحة الأساسية ^(٢) . اما لائحة
 لانتخاب وهي تحت التمييز والبطر في مجلس النظار »
 وفي اليوم التالي الف المجلس لجنة من بعض أعضائه للنظر في « اللائحة » التي
 قدمها اليه شريف باشا . وفي ١٥ يونيو قدمت هذه اللجنة تقريرها وتلى في المجلس .
 وفي ٢٥ و ٢٦ يونيو عزل اسماعيل وولي توفيق . وفي ٥ يوليو كان عزل اسماعيل عنوة
 قد أثر في النفوس فمقد مجلس شورى النواب آخر جلساته وذلك ان نظارة الداخلية
 أبلغت انها لا تستطيع أن تقدم اليه لوائح ولا قوانين الا بعد زمن طويل فرأى
 أعضاؤه أن يقضوا هذا الزمن في مهامهم الخصوصية وانصرفوا ثم لم يجتمعوا بعد ذلك
 الا في ديسمبر سنة ١٨٨١ .

- (١) الوقائع المصرية في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦
 (٢) لم تصدر هذه اللائحة ولذلك لا ترى حاجة لنشرها غير اننا نلخص هنا
 أهم ما كانت تشمل عليه وهو : مدة النيابة ثلاث سنين . المسائل التي تقدم من
 النظار للنواب تصير انذكرة فيها بمجلس النواب واذا تراءى فيها ملحوظات تجري
 المناقشة عنها مع مجلس النظار وانما يكون ذلك مقرونا ببيان الأوجه والاسباب .
 اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار
 المناقشة وبيان الاسباب ولم تستعف المناقشة للحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس
 النواب وتجديد انتخاب أعضائه على شرط ألا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة أشهر
 من يوم اقصاؤه الى يوم اجتماعه . اذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه رأي
 المجلس السابق وجب تنفيذه ويجوز للامة ان تنتخب نفس النواب السابقين او
 بعضهم . رئيس المجلس ووكلاءه وكتبه يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس . مذكرات
 النواب ومداولاتهم في الجلسات العمومية تكون علنية . وضع القوانين واللوائح
 يكون ابداء بمجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها بحيث
 لا يكون القانون مستعيراً دستورياً للعمل ما لم يجل بمجلس النواب بندا فبتداً ويعط
 عنه القرار ويجوز التصديق عليه من الحضرة الخديوية . لائحة ادارة مجلس النواب
 الداخلية تعمل بمعرفة . اعضاء مجلس النواب لا يزيدون على ١٢٠ بما فيهم نواب
 السودان حسب البيانات التي توضح بلائحة الانتخاب . للنظار مسئولون امام مجلس
 النواب عن كافة الاحوال والاعمال المختصة بإدارتهم وبناء على ذلك يجب على مجلس

مُشاهدات ذات قيمة

والآن وقد مررنا من هذا الدور من ادوار مجلس شورى النواب بحسن ان
ثبت هنا الشهادات الآتية :

شرت التيمس لراسلها بالاسكندرية في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٩ كلمة عن المجلس
قال فيها : « اظهر مجلس شورى النواب المصر فائدة عظيمة في مناقشة مشروعات
الاصلاح الزراعى وتوسيع نطاق الاعمال العامة »

وقال مسبو ملك كون فى كتابه « مصر كما هي » فى هامش صفحة ١١٨ : « ان
النواب عامل مفيد فى سياسة مصر الداخلية »

النظار المبادرة الى وضع قانون لحاكة الطار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب.
لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضي من الناظر المختص ومطابقا
لقانون معتبر . اذا تراءى للنواب التكلم فى بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من
النظار فتجرى المداولة فيها ويرسل اخطار ذلك لمجلس الطار ومد تمانية أيام من
تاريخ إرسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس النظار أوجه تمنع من المذاكرة فيها
ويقر النواب قبول تلك الاوجه فلم ان يتمموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها .
الطار ملزمون بالجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب اما بان يتوجهوا
بانفسهم او بان يقتدروا أحد كبار متوظفى دوائرم للمجاوبة بالنيابة عنهم . من حقوق
النواب ان يلاحظوا المصاريف العمومية بالدفعة التامة وان يقررو مقدارها ويجب
عليهم ان يبينوا كبة الواردات وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها
وأوقات تحصيلها فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها وتخصيلها
ولا تشكيلف الاعالى بشئ . ما الا بعد اقرار مجلس النواب عليها كما لا يجوز صرف
شيء من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه مجلس النواب . للنواب ان
يطلبوا عقب افتتاح المجلس الميزانية العمومية الجارية للواردات والمصروفات لينظروا
فيها ومتى قرروا عليها بعد البحث التام لا يعمل بها الا فى تلك السنة ويلزم فى
السنة التالية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على مجلس النواب كما تقدم وهكذا سنويا .
لكل نائب من النواب حق اذا رأى أى قصور من أى مأمور وفى أى ادارة من
ادارات الحكومة ان يكتب بذلك للناظر المختصة به الادارة وهذا فقط فى
الواد العمومية

وقالت التيس في مقال انتاحي في ١٦ إبريل سنة ١٨٧٩ : « ربما كان كثير من الاعضاء صناع الخديو ولكنهما تكن طريقة انتخاب هيئة نيابية فلا يدان فحصل هذه الهيئة على شيء من الاستقلال عندما تعمل مجتمعة . ويظهر ان مجلس نواب مصر لا يشذ عن هذه القاعدة »

وقد تقدم ما كتبه مراسل التيس في القاهرة ونشرته هذه الجريدة في ١٦ إبريل سنة ١٨٧٩ عن جلسة مجلس شورى النواب التي رفض الاعضاء فيها ان ينفصوا وان قبلوا الامر الذي تلاه عليهم رياض باشا

هذه كلها شهادات تدل على ان روح مجلس شورى النواب كانت مستقلة تعمل لمصر لا لاسماعيل . واليك شهادة اخرى تدل على ان المجلس كان محاطا بحركة وطنية منبعثة من الشعب وان هذه الحركة كانت حقيقية لا صورية .

كتبت التيس في ٣ مارس سنة ١٨٧٩ تصف ثورة الشعب الفكرية على أثر فترة الضباط التي وقعت في ١٨ فبراير وقالت :

« لقد وقعت الفتنة في حرمهم بالخط والتذمر فكانت مثل شعلة متقدة أقيت في مستودع بارود فلا نسل عما ابتغته من اضمار سخط المصريين انفجروا عمل في مظاهرات واحتجاجات للشايخ والاعيان والطلاب وأقرت استعجال القضاء النظام (اى نظام الحكم الذى كان موجوداً اذ ذاك) وخرجت منها وفود الى الخديو تحده المعونة في نزاعه مع سادته الاوربيين وتطلب أن تكون للأمة يد في حكومة البلاد »

وكتب السير فرنك لاسل الذى كان قنصلا عاما لانجلترا في القاهرة في ذلك الوقت الى وزارة خارجية حكومتهم تقريراً في ٢٩ إبريل سنة ١٨٧٩ وصف فيه الاحتيا العام الذى كان يشمل الشعب المصرى ثم قال :

« ويؤكدون ان هذا الاسياء عينه من الحال الحاضرة منتشر انتشاراً كبيراً في الجيش وانه قد شعور عداً للخديو ليس فقط بين أفراد العسكرية المتخمين الى طغاة الامة المرهقة بل بين الضباط أنفسهم . ويؤكدون لى أيضاً ان هؤلاء وان كرهوا كل الكراهة أى تدخل أوربي يتبرون الخديو مشولاً عن القسائب التي أصابت البلاد »

ادن كان السخط على التدخل الاوربي وعلى اسماعيل شاملا للشعب والجيش معا.
وى التقارير التى يراها القراء فى ذيل هذا الكتاب قلم احمد عرابي ما يؤيد هذه
الحقيقة . وبدهى انه لولا ان يكون السخط قد شمل الجيش لما نشبت فتنة الضباط .
ولدينا بعد ذلك شهادة قوية أخيرة هى التى كتبها مستر تيودور روستين فى
كتابه « المسألة المصرية » صفحة ٨١ من الترجمة وهى قوله :

« ان ما فعله المؤرخون الرسميون من تصوير الاعيان والملوك وغيرهم من
الطبقات المصرية الراقبة فى ذلك الوقت فى صورة آلات فى يد اسماعيل مسخرة
لامره فاقدة الاستقلال الحظي والفكري لمن قيل « اجبت بالخفايا التاريخية وتشويهها .
قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للاقياد لاسماعيل ومساعدته فى رفع النبر
الاوربي عن بلادهم ولكنهم مع ذلك كانوا يمتقونونه لانه كان على شقايمهم وبلائهم وقد
بلغ هم الامر بعد الانقلاب السياسى (اى بعد اقالة النظارة الاوربية وتعيين نظارة
شريف باشا) ان فكروا فى عزله . وما يسل حقيقة على مبلغ كره المصريين له انه لما
عزل وأخرج من البلاد لم يرتفع صوت واحد بالدفاع عنه »

عمر نوبس باشا

انتهى عهد اسماعيل وجاء عهد ابنه توفيق فلما لا نجد أبليخ من هذا الابن
وصفا لما خلفه أبوه من الشقاء وايضا لما كان على البلاد ان تعانيه من صده وبسبه
من المتاعب . فقد كتب هذا الابن غداة توليه العرش الى شريف باشا يكلفه ان
ؤلف النظارة فقال :

« يا وزيرى العزيز

لقد استمعت الوزارة كالكفك بتشكيل وزارة جديدة ولا أزيدك بحقيقة
الحال علما

« ولما قضت العناية الآلهية بحولتى أمر بلادى جعلت على واجبات ليس من
همى الا النهوض بها بامانة وشهامة على علمى بمقدار صعبونها وجسامتها للطالب
المقراكة على مع الارتباك والفترة للآلية التى انزعجت منها المواطن اذ وقعت حركة
الصحارة وأوجدت فترة فى البلاد لم تقع فى مصر من قبل . على انى عظيم المبل الى
بلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الامة التى اظهرت لمرور بولايتى وفى اخراجها

من هذه الحال البينة . ومع هذه المواقف قاني عازما عزم أكيدا على بذل الجهد
وصرف المهمة الى التماس احسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المقدس لكثير من
المصالح الخ »

هذا هو ما خلمه اسماعيل : مطالب متراكمة ، وارتباك ، وحالة مالية ازعجت
فيها الحواطر ووقعت حركة التجارة ، وفترة لم تنفع مصر في مثلها من قبل ، واختلال
معدد لكثير من المصالح . والذي يقول هذا هو انه توفيق ، وفي نفس اليوم
الذي عاد فيه من توديع والده يكفكف الدمع حزنا على هذا الوالد ورناء لما اصابه .
لا جرم كانت البلاد مقبلة على خطر وكان المصريون يشعرون بهذا الخطر ويعرفون
انهم لم يستندوا له الا لان حكم الفرد عث بمصالحهم في سبيل شهواته فلا
منجاة لهم الا بان يتولوا امرهم بأنفسهم وان يقيموا الحكومة البالية .
ولقد كانت صيحات مجلس شوري النواب باسم الامة لا تزال ماثلة في الادهان ،
ثم كانت الامر الذي أصدره اسماعيل لشريف باشا في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩
بتأليف وزارة مسئولة أمام النواب قد اعتبر خطوة غرت بها الامة بعض حقها ،
كما كان مشروع القانون الاساسي الذي قدمه شريف باشا لمجلس شوري النواب قد
اعتبر متما لهذا الخطوة ، كل ذلك فكانت القوم منسجمة بالرغبة في الحكم
النيابي متألة من انها وقد دنت منه حتى أوشكت أن تقبض يدها عليه جاءت حوادث
فصلتها عنه الى حين .

تلك هي الحالة النفسية التي كانت عليها البلاد حينما تول توفيق العرش . ويجب
ان نعتقد انها كانت قوية لان توفيقا اضطر ان يردد صداها في « أمر كريم » أصدره
في ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ الى وزارة شريف باشا بعد تأليفها وقد أراد منه ان يكون
بربها يأخذ على نفسه أمام الامة ، وإليك ما قاله فيه :

« ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة المصرية الى يدا فضلا منه ولحسانا
فقد تشرفنا بأمر شريف بذلك من متبوعى الانغم وسلطان الاعظم بصره الله
..... ولعلنا ان الحكومة الحديوية يلزم ان تكون شورية ونظارها
مشواي قاني اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا انحول عنه . فليتنا تايد
شوري النواب وتوسيع قوانينها لكن يكون لها الاقتدار في تنقيح القوانين وتصحيح
الوازين وغيرها من الامور المتعلقة بها الخ »

ففي هذا البريماج قرر توفيق جرياً مع الحالة العسية التي كانت عليها البلاد أولاً ان الحكم يجب ان يكون نيابياً، وثانياً ان الطاريج يجب ان يكونوا مسئولين. نعم انه لم يمين هنا المهمة التي يسأل الطاريج أمامها فهي مجلس النواب أم الحديو ولكننا لا نظن ان كلمة « مسئولين » كانت تلقي في ذهن الرأى العام في ذلك الوقت شيئاً غير المسئولية التي ذكرها اسماعيل في أمره الصادر في أبريل ، وخاصة لان توفيقاً يتحدث بعد ذلك عن « تأييد مجلس شورى النواب » و « توسيع قوانينه » كأنه يشير بذلك الى المشروع الذى كان شريف باشا قد قدمه .

ولكن توفيقاً بعد ان ارتبط أمام البلاد بهذا العهد الطوى في ٣ يوليو ترك مجلس شورى النواب ينفذ في ٥ يوليو ، ثم منعت شهور وشهور دون ان يدعو للاجتماع مصفاً في ذلك لنصائح المراقبين الاجنبيين الذين كانوا يستمعان بالسلطة المطلقة في مالية الحكومة فكانوا يكرهان ان يوجد بجانب مجلس نواب يمارسها هذه السلطة . ومصفاً أيضاً لنصائح قنصلي انجلترا وفرنسا الذين كان نموذما قد تغفل في جميع دوائر الحكومة حتى صاروا السيدين المطلعين من الحديو والظارة فلم يكن يسرها ان يأتي مجلس النواب بعد ذلك فيأخذ منها هذا النموذ .

ولم تنش نظارة شريف باشا الا أياماً ثم استقالت فتولى توفيق رئاسة مجلس النظر بنفسه ثم ارسل فاستدعى رياض باشا من اوريا فلما جاء اصدر اليه في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أمراً بتأليف النظر فلم يذكر فيه شيئاً لا عن الحكومة التي يجب ان تكون شوربة ، ولا عن مجلس شورى النواب الذى يجب توسيع اختصاصه ، ولا عن النظر الذين يجب ان يكونوا مسئولين . والف رياض باشا نظارته ورفع بتأليفها كتاباً الى توفيق فلم يذكر فيه هو أيضاً شيئاً عن الشورى ولا عن المجلس ولا عن مسئولية النظر .

ومضت بعد هذا سبعة عشر شهراً من سبتمبر سنة ١٨٧٩ الى فبراير سنة ١٨٨١ بشير ان يدعى مجلس شورى النواب للاجتماع ويقرر ان يدعو على توفيق رغبتى الوفاء بعهده فاشند التذمر منه ومن وزارة رياض باشا وكان هذا التذمر واحداً من الاسباب العميقة التي حركت عوامل الاضطراب . نعم ان لهذا الاضطراب الذى ظهرت

يوافقه في حادثة قصر النيل ثم في طلب عرابي وزملائه عزل عمان رفقي باشا ناظر
 للجهادية عوامل أخرى كان أظهرها استياء الضباط المصريين من اختصاص رملاتهم
 الشراكسة بكل صاحب الجيش العالي، غير أن الحق الذي لا يستطيع أحد إنكاره
 هو أن هذا الاستياء وحده ما كل كافي لأن يحدث اضطرابا ولا لأن يؤدي إلى ثورة
 هو أن الأمر اقتصر عليه وهاج الضباط من أجله لبقى هياجهم محليا ولوجدت
 الحكومة من سند الامة ما يساعدها على اطفاء الفتنة بانصاف المستأجرين أو مساقبة
 الغزنيين، ولكنها لم تجد هذا السند بل وجدت الامة بالمعكس، مؤيدة للمستعصين عليها
 متحفزة للثوب أمامهم الى الثورة فانكشت مدها وطالت يد الصباط. ولا أحب
 هنا أن اجادل كثيراً في هل الفكرة الاولى التي صدر عنها هؤلاء الضباط حينها احوا
 وطلوا عزل رفقي باشا واصرموا بذلك أول شرارة في نار الثورة العرابية كانت
 فكرة المناصب وحدها أو كانت المناصب والحكم النيابي (وباب الجدل في هذا
 مفتوح لأن عرابياً يؤكد أنهم طلبوا في عريصهم التي قدموها لمرل رفقي باشا
 إقالة الحكم الباشي^(١) بينما الشيخ محمد عبده ينكر ذلك^(٢)) ولكني أقول أنا اذا
 سلنا بأن الفكرة كانت فكرة المناصب وحدها فيجب أن نسلم أيضا بأنها لم تكن
 كذلك الا في نظر الصباط وحدهم أما الشعب فانه رأى في انتفاضهم على الحكومة
 انتفاضا على هيئة كان يعتبرها مصدر الآلهة وكان ينهم رئيسها الاعلى بانه حرمه من
 قلبه المشتحي بعد اذ دنا منه ونكث في ذلك بعدد على يشينه النكث به. ولهذا
 السبب وحده، ولهذا المعنى لا تغيره، يد الصباط. فان نحن قلنا ان المسألة كانت في
 نظرم مسألة مناصب فيجب أن نقول انها كانت في نظر الشعب غير ذلك، ثم
 يجب أن نقول ان الضباط شعروا بهذا وعرفوا قوته فاضطروا على عمل أن يلبسوا
 حركتهم ثوب المطالبة بالحياة النيابية، لأن حادثة قصر النيل لم تكند تنتهي حتى أخذ
 عرابي يوزع على العلماء والاعيان وعمد البلاد ومشايج العربان منشورا هذا نصه
 بعد الدعاية^(٣):

-
- (١) انظر « تاريخ أحمد عرابي بقلمه » ص ٣٤٩ من هذا الكتاب
 (٢) انظر « رأي الشيخ محمد عبده في تاريخ عرابي » ص ٣٥٥ من هذا الكتاب
 (٣) مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩٠

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشلطة وعدلت عن الصراط المستقيم ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من مبيع أراض كثيرة للجانب ووجود كثير منهم في ادارات الحكومة ومصارفها بالرواتب الفادحة والسعي في رفع الاسعار الطبيعية الموجودة في بونغاز الاسكندرية . وانت سكوننا واضرابنا عن ذلك بعد من البحر والجن والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا . فاعلموا يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المستظمين في سلك الجهادية قد اتكفوا على الباري سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاغاث بمقوقكم . وذلك لا يتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية البتة . فالمطلوب منكم ان توقفوا على الكتابة للرسالة اليكم في ضمن هذه النشرة والكتابة المقصود بها ان اكون نائبا عنكم في كل ما يتعلق باحوال البلاد »

ويقول هنا صاحب كتاب « مصر للمصريين » ان عرايا « تحصل بهذه الوسيلة على أختام الجميع ماعدا سلطان باشا قاته ابي وقال ان هذه الطلبات لا تعلق لها بالمسكرة » . فتقول نحن ان تحصل عرايا بهذه الوسيلة على أختام الجميع هو البرهان الذي لا يدفع على ان الجميع كانوا يتعطشون الى الحياة النيابية ويتألون لحرمان البلاد منها ويؤيدون كل من يتقدمهم للمطالبة بها .

مظاهرة الجيش في عابدين

نحن لانتابع حوادث الثورة الراية وانما نتابع موضوعا معنا هو الحياة النيابية ولهذا ننقل دفعة واحدة من حادثة قصر النيل (في ٤ فبراير سنة ١٨٨١) الى مظاهرة الجيش في عابدين (في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) ولا نأخذ من هذه المظاهرة الا الجانب الذي يمس ما نحن فيه .

رأينا فيما قدم أن الحركة الراية لبست بعد حادثة قصر النيل ثوب المطالبة بال دستور وأن عرايا زعم هذه الحركة شرع يأخذ من العلماء والاعيان والعهد ومشايخ العربان توكيلا للمطالبة بعزل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب . فها تقول ان الاشهر التي اقتصت ما بين فبراير وسبتمبر من تلك السنة كانت كلها اشهر ترديد لكلمات الحرية ، وسيادة الامة ، والحكم النيابي ، والهد الذي أعطاه

توفيق على نفسه في كئانه الى شريف باشا بجمل الحكومة شورية وتوسيع اختصاص
مجلس شورى النواب ثم تلبسه هذا العهد وعمله بضده . فلما جاء شهر سبتمبر وعاد
توفيق من الاسكندرية الى القاهرة كان الحزب العراقي قد أعد عدته للتظاهر في
ساحة عابدين ، ففي اليوم التاسع من هذا الشهر (الجمعة ١٥ شوال سنة ١٨٩٨) اجتمع
الحيش في هذه الساحة وأمر عرابي باقامة الحراس على ابواب عابدين لمنع الدخول
اليه والخروج منه ، ثم ظهر توفيق واستدعى عرابيا فجاءه راكبا جواده سالا سيفه
ومن حوله ضباط الخيالة ، فأمره توفيق بالتوجه بالرجل وانغماد سيفه وابعاد الضباط عنه
فصل ثم دار بين الاثنين حديث تقتصر منه على ما يأتي .

قال توفيق ماهي اسباب حضورك الى هنا بالحيش

فاجاب عرابي للحصول على طلبات عادية

فسأل توفيق وما هي هذه الطلبات

فاجاب عرابي هي اسقاط النظارة وعقد مجلس النواب وزيادة عدد الحيش
وال تصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

وبعد مفاوضات دارت داخل القصر بين توفيق وقناصل الدول استقر الرأي
على اجابة هذه الطلبات تدريجيا وابلغ عرابي ذلك فرفض ولكنه اشترط عزل الوزارة
قبل انصرافه فعزلت فطلب تعيين شريف باشا فاستدعى وعرض عليه الامر فقبل ان
يشكل الوزارة على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكري بالطاعة أو امره وان يقدم
أعيان البلاد وعمدها ضمانا على هذه الطاعة

هزيمة الشعب بطلب الحياة النيابية

وفي اليوم التالي تقدم لشريف باشا كل من سلطان باشا وسليمان باشا
وشريس باشا ومنشاوي بك وأمين الشمسي بك والشيخ علي البني وعبد السلام
للويلحي بك والشيخ الصباحي والشيخ احمد محمود و ابراهيم الركيل افندي ومعهم
تقريبان احدثهما وقمة فريق من العلماء والعمد والاعيان ضمانا لرؤساء الحزب
المسكري والثاني وقمة الف وسبائة من الكبراء والعلماء والعمد بطلب تشكيل
المجلس النيابي .

وهذا التقرير الثاني هو الذى بهما فى موضوعنا ولذلك ثبت نصه وهو :

« لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية ، الا بالعدل والحرية ، حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حراً فى أفكاره وأعماله ، بما فيه سعاده وحسن مآله . وهذا لا يتأتى الا بإيجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تنطرق اليها طوارق الفساد ، انخذت الممالك المتعدنة العادلة مجالس ملية من نيهاء أعمها ، يتوبون عنها فى حفظ حقوقها ، نجاه هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة . وعلى هذه القواعد ، ولاجل هذه المقاصد ، كان قد انخذت حكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق . وبما ان مقاصد خديوننا العظيم جميعها خيرية ونياته سليمة فطلبنا لقطع بلادنا من بوائق الدهر نجاسرتنا بمرض هذا راجين من المراحم الدائرية صمدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لامتنا يكون له ما لمجلس الامم الاوربية المتعدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة وذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادلهما نعم وتصبح حكومتنا العادلة أنموذجاً شريفاً يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم . واننا على يقين من قبول التماسنا هذا وقتنا لارادة ولي النعم آدام الله إجلاله »

ولا بد لناها من ملاحظة وهي ان تاريخ هذه العريضة ١٤ شوال (٨ سبتمبر) فى حين ان مظاهرة الجيش فى ساحة عابدين وقعت فى ١٥ شوال (٩ سبتمبر) فلا تفسير لذلك فى نظرنا غير ان العريضة كتبت قبل المظاهرة وان عرايا وزملاء كانوا يعرفونها . ولعلمهم كانوا قد انتظروها قبل ان يتحركوا ليكونوا على بينة من ان الامة تشد عضدهم وليستطيعوا ان يقولوا انهم باسمها يتحركون وبلساها ينطقون . ويكون المعنى حينئذ ان طلب الامة الحكم النيابي سابق للمظاهرة فهو اصل والمظاهرة فرع وليس العكس . اما تقديم العريضة لشريف بشا فى يوم ١٦ شوال فليس دليلاً على انها كتبت فى ذلك اليوم ، ونظن ان كل انسان يوافقنا على انه كان من المنصير جمع الـ وسنائة توقيع من أعيان القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة والميا وبنى سويف وأسبوط فى اربع وعشرين ساعة

خطبته العراقية

وطلب شريف باشا من عراقي ان يسافر بالايه الى رأس الوادي فاطاع واجتمع خلق كثير لتوديعه في محطة القاهرة ساعة سفره وخطب بعضهم فرد عراقي بخطبة قال فيها :

« بكم ولكم قنا وطلبنا حرية البلاد وقلعنا عرش الاستبداد ولا ننثني عن عزمنا حتى نحيا البلاد وأهلها . وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا اننا نحن في اذلال واستعباد ولا يتمتع في بلادنا الا للبراب . حركتنا الغيرة الوطنية والحمية الحربية الى حفظ لبلاد ونحررها والمطالبة بحقوق الامة وقد ساعدتنا العناية الالهية ومحتنا مولانا وأمرنا الخديو باطلناه من سقوط وزارة المستبد علينا السالطينا في غير طريق الوطنية ونمتنا بمجلس الشورى لتنظر الامة في شؤونها وتمرف حقوقها كباقي الامم المتقدمة في العالم »

ولما وصل الي الإقاريق التي خطبة أخرى مثل هذه وفي مصاها

بعادة مجلس شورى النواب

وفي ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٦ كان شريف باشا قد أم البحث في انشاء مجلس نيابي ذي سلطة فرأى تهيدا لذلك ان يعاد مجلس شورى النواب ليكون هو الذي يقرر مشروع القانون المنشئ ، لمجلس النواب المحدد لسلطته واختصاصه وخالفه في ذلك عراقي وطلب منه انتخاب مجلس النواب دفعة واحدة بتنفيذ مشروعه الذي كان قد قدمه لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٧٩ فلم يقبل شريف باشا ورفع الي الخديوي تقريراً هذا نصه :

« لقد أظهرت التجارب في عدة مرار خلل الخلق الموجودة عليها البلاد الآن ولهذا فالاصلاحات التي سنشرع فيها في ظل الساحة المليمة تكون متعلقة بام صوالح الديار المصرية لانه يترتب على اجرائها تغيير الخلق المذكورة واصلاحها شيئاً فشيئاً وتوطيد الادارة المصومية على أساسات قوية وثابتة

« انما الاشتغال بمسائل مهمة كهذه والنظر فيها يلزم لاجراجها من حيز التصور للعمل لايتاني حصونه باقراد هيئة النظار فقط بل المترائي لهم ان تبادل الافكار فيها مشترك الرجال الذين يؤهلهم استعدادهم وخبرتهم بالاشغال واستقامتهم ومرتبتهم

لحياسة ثقة ورضاء اخوانهم بهم ولا تصخابهم للنيابة عنهم هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة من تلك الاصلاحات. وقد طاق رأى عمدا الاهاالى بالنيابة عن عمومهم هذا رأى الذى رآته هيئة النظار ولذلك يرى انه من الواجب علينا ان نطلب من المراحم الخديوية تلبية الناس أهالى البلاد وجميع أعيان ووجوه القطر لاخذ رأيهم بخصوص احتياجات الاقاليم وعرض الخلل الحاصل فى الادارة عليهم واجراء الاصلاحات اللازمة بمساعدتهم

« وللوصول لهذا الغرض لا يوجد الآن شىء سوى اتباع لائحة مجلس شورى النواب الصادرة فى سنة ١٢٨٣ . نعم ان تلك اللائحة ليست مستوفاة ولا ملائمة لا أفكار الاهاالى ومقاصدهم وكانت قد عمحت جملة مشروعات وتقدمت عن هذا الخصوص لكن هيئة النظار باعادها مع مجلس شورى النواب مستقتل فى البحث عما يلزم اجراؤه من التنقيحات والتعديلات فى قانون النواب مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وحالة القطر

« هذا ومن الجلى التنى عن البيان ان اليهود والترتبات التى نشأت عن الحالة المالية وارتبطت بها الحكومة وكذلك القوانين والاوامر المالية المشتتة على تلك اليهود والترتبات لا تدخل ضمن المسائل الجائز نظرها والبحث فيها بمجلس النواب لانها موضوع عقد حصل مع الدول ولا يجوز تعديلها او تغيير شىء منها الا برضاء الدول التى عقدت معها

« وعلى ذلك فمجلس النواب سيؤدى مامورته بدون تعرض للمصالح الواجب احترامها وسيكون عضد الحكومة لاذنكم المالية فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها وعونا على تأمين المصريين تأميناً كافياً على النفس والمال

ولهذا وانابا لمادة ١٦ من لائحة مجلس الشورى المؤرخة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ أتشرف بان أقدم للاعتاب السنية مشروع امر طال باختيار النواب وافتتاح المجلس فى ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ الموافق غرة صفر سنة ١٢٩٩ و٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ « وفى اليوم نفسه صدر الامر المالى باختيار النواب « بالصفة والشرط الموضحة فى لائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ « وبأن يكون افتتاح المجلس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ . وفى ١٨ ديسمبر صدر أمر بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا للمجلس وسليمان اباظه باشا وكلا

ولم يتيسر ان يفتح المجلس فى الميعاد المحدد له ففتح فى ٢٦ ديسمبر وجاء

الحديث فجلس على مقعد اعدله في قاعة الاجتماع ثم مثل بين يديه سلطان باشا وقال
لن النواب مستعدون لسماع خطابه فوقف وأخذ يمتدح عن نكته بهذه فقال :

« ابدى لخضرات النواب مسروريتي من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن
الاهالي في الامور العائدة عليهم بالنفع . وفي علم الجميع اني من وقت ما استلمت
زمام الحكومة عازمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر للان بسبب
المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فاما الان فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من
دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالي على قدر
الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما انا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذي
اما قانعه في هذا اليوم باجتماعكم »

ثم تكلم عن رغبته في رفاهية الاهالي وتعميم التعليم وأشار الى قرارات لجنة
التصفية وتعهدات الحكومة للدول وقال :

« قالوا يجب علينا الاعتدال والثاني وحسن التدبير وان نكون يدا او واحدة في
امام الاعمال النافعة متوسلين ببنية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة
ارتباطنا بالخضرة الشاهانية والدولة العلية ادامها الله ونسال الله النجاح انه ولي
التوفيق »

ولم تكن الجلسة عليه لان لائحته ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ تقضى كما تقدم بان
تكون جلسات مجلس شوري النواب سرية ولكن الحراس لم يستطيعوا منع الجمهور
من الدخول فكانت الجلسة علنية في الواقع

وعين المجلس بعد ذلك عشرة من اعضاءه لتقديم الرد على خطاب الافتتاح
فقدموه في ٢٩ ديسمبر وبه قال المجلس انه يشكر الحديث ففتح اياه « اجابة لرغبة
الامة ونظرا للمصلحة العامة » .

واقام الناس حفلات عدة فرحا بعودة المجلس فخص بالذكر منها حفلة اقيمت
بأمر بطريرك الاقباط في الكنيسة البطريركية حضرها رجال الاكثيروس

انجلترا وفرنسا تحرمانه بالمجلس

هنا يقوم البرهان المادي على ان انجلترا وفرنسا ما كانتا تنظران الى وجود المجلس ولا الى عو الروح الوطنية بعين الاطمئنان لانهما وقد ألتا بفصل اسماعيل وقروضة ان تسيطر على الحكومة المصرية كانتا تكه ان يشرذم المصريون على هذه السيطرة وأن يوجد مجلس نواب يطالب بحقه الشرعي في مراقبه أعمال الحكومة . وقد درج كثير من الكتاب الادريين ، الذين كانوا يشايون انجلترا وفرنسا في غرضهما هذا وبشايون الدائنين في أرتبقى مصر قره لهم حلوما ، على أن يحتقروا الوطنية المصرية في ذلك الوقت ويهونوا من شأنها ولكن غيرهم من الناصعين اعترفوا بها وقالوا انها كانت جذيرة بكل عطف واحترام . ولا يحب ان تذكر في هذا غير شهادتين لرجلين رسميين أحدهما دي فريسينيه وقد كان رئيساً لوزارة فرنسا في معتيح سنة ١٨٨١ ثم في الشهور الأولى من سنة ١٨٨٢ وبقي في منصبه الي ان ضرب الانجليز الاسكندرية وجرت معركة التل الكبير . والثاني بارنلي سانت هيلير وقد كان وزيراً لخارجية فرنسا في وزارة جول فيري في بعض من سنة ١٨٨١

فقد صرح دي فريسينيه في كتابه « للنساء المصرية » (من ١٩٤) بأنه كان من الحكمة في ذلك الوقت أن يوسع اختصاص مجلس شوري النواب ثم قال :

« ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا في ان يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس حتى ليخيل الى الذي يقرأ خطابات بعض الخطباء ان الوطنية المصرية كانت في ذلك الوقت تلقيفا وان وادي النيل لم يكن يحتوي الاعلى قلاحيين تحمي الصما ظهورهم . فكل ما نرده على هؤلاء الكتاب والخطباء هو أن آباءنا كانوا أقل من هذا امتنا الوطنية المصرية في عهدهم ، وذلك أن نوابنا في سنة ١٨٤٠ لم يرددوا في ان يتكلموا في خطبهم عن الرابة الواجبة «للوطنية المصرية الناشئة» . فقد كانت هناك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرابة في سنة ١٨٤٠ . ولست في هذا مبالوا لاما من يحبون المبالغة ولكن لا ريب في انه كانت توجد في قلوب

للمصريين من اربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن ان تراعى في حدود مستدلة. تلك حقيقة لا تخفى جدلا ، غير أن الذين كانوا يقبضون على حط مصر لم يكونوا يرون في المصريين غير قوم مدبّين فلم يكونوا يعرفون في معاملتهم الامصلحة واحدة هي مصلحة الدائمين الاوربيين التي يجب ان تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتهوا الى ان منابرتهم على اعتبار مصر رهنا ومدخلتهم في شؤونها مداخلته أدت بحكومتها الى ان نصير في ايدي الاجانب ، كما قد انتهت على طول الايام ان تجرحا شعور الشعب للمصري الذي هو شعب حي مهمل يقل الفاتلون في سموده الطاعة والخضوع من اجيال »

أما دارتلى سانت هيلير فقد كتب الى قنصل فرنسا العام في مصر في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨١ ميانا بما كانت تراه وزارة خارجية فرنسا حينذاك في المسألة للمصرية فاشار في آخره الى الوطنية المصرية فقال ^(١) :

« ليس من السهل علينا ان نقدر من هنا (أى من باريس) قوة هذه المطامح الشعبية (يريد مطامح الوطنية المصرية) ولا كيف يمكن ارضاؤها . ولكن هذه للمطامح حقيقة الى أعظم حد ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اتمامها ولا يمكن على الخصوص التمسك في خفتها »

هاتان شهادتان من رئيسين لوزارة فرنسا في ذلك العهد هما صريحتان في أن حركة وطنية شريفة كانت نهز مصر في ذلك الوقت وأن مجلس شورى النواب كان وليد هذه الحركة ، فلا يبقى بعد هذا الا أن يعرف القراء ان انجلترا وفرنسا أعطتا للحرب على هذا المجلس لينضج انهما ما كانتا تحاربان شعبا ولا عصيانا عسكريا بل كانتا تحاربان حركة وطنية فكانتا بذلك مذمومتان الى الشعب وتوجبان بار الثورة ففي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ سقطت في باريس وزارة جول فيرى وخلفتها وزارة غلبينا . وتولى غامبنا مع رئاسة الوزارة وزارة الخارجية وكان رجلا جريئا واسم

(١) دى فريسييه ص ٢٠١

هذا نص عبارة باللغة الفرنسية :

Il ne nous serait pas aisé de juger d'ici quelle est au juste la puissance de ces aspirations légitimes ni comment on pourrait les satisfaire. Mais ces aspirations sont trop réelles, et à certains égards trop justifiées, pour qu'on puisse les négliger, ni surtout songer à les étouffer

المطامع وكانت مصر تدخل في دائرة مطالعة فلم ير أن يترك الحوادث تسير سيرها العادى البطي، ولا أن يترك للحكومة البريطانية قيادة دفعها فكسب في ١٤ ديسمبر يسأل الحكومة البريطانية ألا ترى أن الوقت قد حان لان تصام الدولتان في عمل تصلان في مصر وهل توافق على أن تكون الخطوة الاولى من هذا العمل أن تطلق الدولتان انهما يؤيدان توفيقاً وأن نوحيا اليه بأن يثق بهما ثقة مطلقة وأن يعتمد على معونتهما دون غيرها؟^(١) وكانت السياسة التي تجري عليها انجلترا في ذلك الوقت أن تتفرد بالعمل في مصر فكانت كلما دعها فرنسا الى الاشتراك معها في عمل تأت واعتبرت تارة بأن العمل من حق سلطان تركيا وطوراً بأن وقته لم يحن، ولكنها كانت كلما رأت من فرنسا اعراضاً عن العمل تقدمت هي وعملت. فلما جاءها هذه الدعوة من غامبتا سككت خمسة عشر يوماً ثم أجاب وزير خارجيتها اللورد جرنفيل في ٣٠ ديسمبر بأنه يخشى أن يكون ذلك مصحلاً للثورة^(٢). فرد غامبتا، وهذا تطير النية جلية في محاربة مجلس شورى النواب، بأن من الخطر أن نسكت الدولتان حتى تقاجسهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية « بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب »^(٣) فرضي اللورد جرنفيل أخيراً وطلب من غامبتا ان يضع مشروع المذكرة التي ترسلها الدولتان فوضعها ووافقت الحكومة البريطانية عليها فكانت مذكرة ٧ يناير، وهذا نصها :

« حضرة القنصل العام

« كلفناكم غير مرة ان تخبروا الجانب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا في مساعدته ومساعدة حكومته للتعلم على المعاصب المتنوعة التي تزيد الارتباك والقلق في القطر المصري فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر لاسيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة وأخصها صدور الامر الخديوى

(١) آشيل بيوفيس ص ٤٨ — ودى فريسليه ص ٢٠٧ و ٢٠٨

(٢) مجموعة التفرقات التي تبودلت بين فرنسا وانجلترا في سنتي ١٨٨١ بشأن مصر

(٣) آشيل بيوفيس ص ٤٩ — ومجموعة التفرقات التي مر ذكرها

يجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخافة بين الدولتين وإعادة النظر في شؤون
اتفاقهما المذكور

« وبناء على ذلك نرجوكم ان تصرحوا الآن للجناب الخديوي بان حكومتى
فرنسا وانجلترا تريان وجوب تأييده في الخديوية وفقا للاحكام المقررة في القرارات
السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولاً رسمياً على اعتبار انها وحدها تكفل الآن وبعد
الآن استمرار السلم والسكون ونوجب توسيع نطاق الثروة والعمران في البلاد
المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتعنتين على الاشتراك في السعى
الى دفع كل ما من شأنه ان يحدث في مصر ارتباكاً او يعجل بنظامها واحوالها سواء
اكان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين من اسباب خارجية ام من اسباب داخلية
« ولا ريب عندنا في ان هذا التصريح العلني المبين لمقاصد الحكومتين يمنع
حدوث ما عساه ان يطرأ على حكومة الخديوي من الاخطار وان حدث فالحكومتان
لا ترددان في دفعه ولا تحجبان عن صده

« وفي أمل الدولتين ان يستمد الخديوي من هذا التصريح الثقة والقوة اللتين
هو محتاج اليهما لادارة أمور الشعب المصري والبلاد المصرية »

وبينا كانت هذه المفاوضات تدور بين الدولتين كانت مصر هادئة مستقبلة
بوزارة شريف باشا وباجتماع مجلس النواب ثم بالامل في تحويل هذا المجلس
الى مجلس نواب ذى سلطة . وكان الامن شاملاً والنظام تاماً وقد تمهدت وزارة
شريف باشا باحترام المراقبة الثنائية وقانون التصفية وقبل المجلس هذا التصديق فلم
يكن أحد يفكر في المساس بمصلحة الدائنين أو للاجانب . فلما وصلت مذكرة
الدولتين الى الخديوي كانت كالتنبؤة انفتحت فجأة في جو هادئ . بقصد تعكيره ،
ورأى فيها كل انسان نحرشاً بمجلس شورى النواب لم يكن سبب من الاسباب
يقضي . ولم ينجف على المصريين أن الدولتين يخرسان بذلك توفيقاً على مقاومة
الحركة الوطنية وهولان له انهما من أجل ذلك تبسطان حمايتهما عليه وتريدان منه أن
يشدد على هذه الحماية .

وقد كان من واجب توفيق ان يرد على هذه المذكرة وكان على شريف باشا
خاصة أن يشجع على هذا الرد حفظاً لسمعة نظارته . ويقال انه أعد رداً يرفض

به توفيق حاية انجلترا وفرنسا ويقول : « ان اليوم الذى تؤيدني فيه الدولتان ضد ارادة بلادى هو اليوم الذى نهى فيه الساعة الاخيرة . ومتى فصلت الرأس من الجسم لم يبق سبيل الا الى الموت . فأتانا أن آكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا » (١) غير أن حكومة فرنسا علت بالعزم على الدفء عند توفيق وشريف كي يعدلا عن عزمهما ويلتزموا السكوت فأطاعا وسكتا ولكن تركيا لم تسكت بل احتجت بمذكرة ارسلتها الى الدولتين في ١٤ يناير ١٨٨١ م كما قالته فيها :

« ان مصر جزء من ممالك الحضرة السلطانية ، والسلطة المعطاة للحدود هي لحفظ الراحة العمومية عند اللزوم وللحفاظة على سعادة البلاد وادارتها على محور حسن ، فتأيد هذه السلطة من حقوق الباب الدالى وحده ومن اختصاصاته دون سواء . ولهذا كان من الواجب عندما انفتح ان الحالة تدعو الى ارسال تلك المذكرة ان يؤخذ قبل كل شيء رأى الدولة العلية ، وبواسطتها وحدها ترسل التصريحات ، وبواسطتها ايضا يكون الحصول على التاكيدات المطلوبة »

وبسبب مذكرة ٧ يناير هذه وقع خلاف طويل القبول بين انجلترا وفرنسا في تحديد ما ارتبطت به كل واحدة منهما فقالت الحكومة البريطانية ، جريا على سنتها في مراوغة فرنسا حينما تدعوها الى الاقدام ، انها لم تربط بعمل معين بل لم تربط حتى بالعزم على العمل . وقالت الحكومة الفرنسية ان المذكرة تعقد حينئذ قيمتها وتصبح عبئا . ونحن ندع هذا الخلاف جانبا لانه من تلويح المسألة السياسية لامن تاريخ الحياة النياية ، غير اننا نقول ان التية التى كان غامبتا يبيتها من وراء تلك المذكرة انفضحت حينما أرسل مكاتب التيمس في ٣ فبراير (اى بعد ارسال المذكرة بأقل من شهر) الى جريدته يقول ان وزارة غامبتا كانت تعد سرا فى جنوب فرنسا حملة حربية ترسلها الى مصر (٢)

(١) روى هذه الرواية بمخاضها مراسل جريدة الطان الباريسية فى القاهرة اذ ذاك ونشرتها الجريدة فى عددها الصادر فى اول مارس سنة ١٨٨١

(٢) فوجئت الحكومة الفرنسية بإذاعة هذا الخبر فاولت ان تقضى عليه فوعزت الى جريدتى البال مال غازيت والدبلي نيوز بكذبه فرد مكاتب التيمس على هذا التكذيب بتأكيد الخبر وبيان الاسلحة والوحدات الحربية التى اعدتها وزارة غامبتا لهذا الغرض ثم ذكر القائل الذى عينه لقيادة هذه القوات - (آشيل يوفيس ص ٥١ و ٥٢)

وأينا أن شريف بانها اأخذ على نفسه، في كتابه الذي استصدر به في ١٤ أكتوبر ١٨٨٦ أمرا بمند مجلس شوري الواب، ان يقدم لهذا المجلس مشروع « لائحة قسليه » لانشاء مجلس نواب ذي سلطة، ففي يوم ٢ يناير توجه الى مجلس شوري النواب وقدم له « اللائحة » التي وعد بها والتي خطابا نذكر هنا بعض فقراته وهي: « لما كانت لائحة النواب التي اجتمعتم على مقتضاها لانتلائم أفكارنا جميعاً كما أوضحت ذلك من منذ ثلاث سنوات وكررتة بالعروض الذي وقفته أخيراً لعدة المديونية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتطت مع رفقائي بصحضر لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الان أقدمها لحضراتكم لتتقرر فيها

» ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر كان يلزم أن السلطة التي تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدرج شيئاً فشيئاً ولكن حيث ان مقصداً جلياً واحد وهو خير البلاد والحكومة معتدة بكفاءة النواب وعملهم بحقوقهم واجباتهم وعينهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة في ابداء آرائكم وحق المراقبة على افعال مأموري الحكومة من أي درجة وأي صنف كانوا ونصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها وبطرق كافة القوانين واللوائح . وقد التزمت الحكومة بدم وضع أي ضريبة ولا شر أي قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق واقرار منكم . وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يرتب عليه اخلال بحقوقهم والغاية فانه لم يحجر عليكم في شيء ما ولم يخرج أمرهم عن حد نظركم ومراقبتكم

« اما لا ينبغي انكم الخاطا للالاية التي كانت عليها مصر مما اوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهداتها بالالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بقعود خصوصية والى بعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعاً لتنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينا قبل كل شيء القيام بصهداتنا وعدم خدشها بشيء ما حتى نصلح خلقنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية . ومتى رأيت منا تلك الحكومات

الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن اخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه الخ »

أما « اللائحة » نفسها فلا داعي لانتهاها هنا بحذفها لالها لم تصدر ولكنها شئت منها مادار الخلاف حوله مكان سببا في سقوط وزارة شريف وهو :

« المادة ٣٠ — ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكثـر

« المادة ٣١ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

« المادة ٣٢ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الادارة العمومية بلك النظارة

« المادة ٣٣ — لمجلس النواب أن ينظر في الميزانية ويبحث فيها وتعتمد بعد اقراره عليها . وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك الى ناظر المالية لغاية اليوم العشرين من شهر ديسمبر بالاكثـر

« المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الوريكو المقرر للاستانة أو للدين العموي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية » (١)

ومن هذه المواد يتضح أن شريف باشا أخرج من اختصاص المجلس وبركو الاستانة والدين العموي وكل ما التزمت به الحكومة بناء على قانون التصفية أو بناء

(١) نذكر هنا مواد أخرى من مشروع اللائحة لا نملأ من أهمية وهي :

١٨ — اذا قرّر قرار النواب على أن يستدعى الحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة قبل النظار أن يذهب الى المجلس بنفسه أو بسنّيب عنه أحد كبار الموظفين بدوانه لجيب عما يسأل عنه وله أن يؤخر الجواب لاول مدة الافتتاح الثاني لا أكثر وعليه بيان الاسباب ومسئولية التأخير

١٩ — للنواب حق المراقبة على موظفي الحكومة جميعا فلهم بواسطة رئيس المجلس أن يشمروا كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تمد أو خلل أو قصور نسب لاحد موظفي الحكومة التابعين لنظارته

على معاهدات عقدت بينها وبين الحكومات الأجنبية ولم يترك المجلس من الميزانية إلا ما دون ذلك أى ما لا عس بحال أية مصلحة للدول أو للدائنين . وكان المخصص لعهد العمومي ووركو الاستانة في ذلك الوقت وسعد قانون التصفية يعادل نصف ميزانية الحكومة أو يزيد عنه قليلا فكان المجلس كان محروما من الطر في أكثر من نصف الميزانية .

وقد قبل المجلس هذا الاختصاص المتواضع منذ أن تلى عليه رغبة منه في أن

٢٠ - النظار متكفلون في المسؤولية أمام مجلس النواب عن كل ما يقرر بمجلس

النظار

٢١ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخاربة و بيان الاسباب ولم تسعف النظارة فلحاضرة المندوبين يأمر بعض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة اشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السابقين او بعضهم

٢٢ - اذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه فينتقد الرأى المذكور قطعا

٢٣ - مشروعات اللوائح والقوانين تشمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لتنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستورا للعمل ما لم يتل في مجلس النواب بندا فبندا ويقرر حكما حكما ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحاضرة المندوبية واذا تراهى للمجلس لزوم سن قانون وطلبه من مجلس النظار بواسطة الرئيس فيجيب الى ذلك

٢٤ - لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو يركو في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون مصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحميل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة امرت بتحميل شيء من ذلك وكل مستخدم سرور كشوفات او تعريفات عنها وكل شخص باشر تحميلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كخطئ وترد الحقوق لاربابها

يطعن الدائنون وتطعن الحكومات الاجنبية الى أنه ، وهو يعرف أن شرطاً كبيراً من قروض اسماعيل لم يدفع وأن تمسك الدائنين به وفوائده الباهظة ليس سوى سرقة ، يحترم هذه القروض ولا يتعرض لمصلحة مالية من مصالح الاجانب والحكومات الاجنبية بسوء . ولكن انجلترا وفرنسا لم ترضيا حتى بهذا الاعتدال وشرعنا في الحال نهاجان المجلس لأنها كانتا يريدان أن تقصيا على زرعته ونزعة الحركة الوطنية على الصوم الى اتخاذ الحكومة من سيطرتها واتخاذ البلاد من هياوى الضياع .

في سيراته التصل

ولم تتردد انجلترا وفرنسا في أن تعلمنا الحرب على المجلس عملا عدة ٧ يناير فاضمتا شريف باشا أنهما لا توافقان على المادة الثالثة والثلاثين من مشروعه لأنها تمنع المجلس حق « تقرير » حرية من الميزانية فابلق شريف باشا المجلس ان النظارة من أجل ذلك تصل المادة الثالثة والثلاثين بما يحمل الرأي القوي بيديه مجلس النواب في الميزانية استشاريا .

وكان المجلس قد الف لجنة من ستة عشر عضواً من أعضائه برئاسة سلطان باشا لدرس المشروع وتقديم تقرير عنه فبدأ في الحال أن هذه اللجنة والنواب جميعا يشيئون بأن يكون لهم الحق المطلق في تقرير الميزانية فياخلا ما استثته المادة الرابعة والثلاثون من المشروع ، فما كلفت بينهم هذه تعرف حتى كتب المراقبان الاجنبيان في ١٢ يناير بمحتجان عليها فقالا (١) :

« يظهر ان مجلس شورى النواب يتبها لأن يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبتا ان نقول ان اعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الادارات والمصالح التي لم تخصص ايراداتها للدين ، يفسد الضمانات الماعطة للدائنين ، لانه سيكون من نتائج الضرورية أن تنقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب »

٤٣ - كل قرار يترتب عليه مسؤولية للنظار لا يجوز صدوره الا بالاغلبية للفرقة منها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة

(١) دي فرمينيه ص ٢٢٤

وبهذا أعلن المراقبان أن النظرية التي تمسك بها انجلترا وفرنسا هي أن تبقى إدارة البلاد في يد مجلس النظار لكي يمكن أن تبقى خاضعة لسيطرتها ، فما كاد النواب يعرفون ذلك حتى اشتد بهم الاستياء ووصسوا على أن يثبتوا في الدفاع عن حقهم . وقد يحسن أن نقل هنا رددم على احتجاج المراقبين فقد روى عنهم دى فريسينيه ^(١) « أنهم لم يقبلوا أن تكون بلادهم متاعا مرهونا في يد الدائنين وإن يكون عليهم ، لأجل كل شاغل يساور هؤلاء الدائنين ، أن يقبلوا الحرمان من الحقوق الأولية التي تملكها كل أمة متدبنة . وكان مما لاحظوه في ذلك أن هناك حكومات تزوج تحت ديوبها أكثر مما تزوج الحكومة المصرية بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت أن تدفع ما عليها ولكنها كلها لم تحرم مع ذلك من حقها في أن تحكم نفسها بنفسها . أمامهم ، ودائنوهم لا يجدون محلا للشكوى منهم ، فانهم يمنعون من أن يدخلوا على قوانينهم ، بالاتفاق مع خديويهم ، إصلاحات يعترف الكل بفائدتها للحكومات والشعوب »

ونقل أيضاً ما كتبه في مثل ذلك ميو سينكوكيز قنصل فرنسا العام من تقرير أرسله إلى حكومته في ١٥ يناير وهو ^(٢) : « يصدر مجلس شورى النواب في مطالبته بأن يكون صاحب الرأي النافذ في تقرير الميزانية عن اعتقاده بأن له الحق في أن يراقب باسم الأمة سير الإدارة في مجموعها والطرق التي تستخدم بها موارد البلاد . ويقول المجلس أنه يحترم كل الاتفاقات الدولية ، بل يحترم حتى بقاء الموظفين الأجانب في وظائفهم ، غير أنه يحفظ لنفسه الحق في الاقتصاد ليحصل بسداد الدين العمومي ، ونعود بعد ذلك إلى سرد الحوادث فنقول أن لجنة المجلس فرغت في أيام قليلة من النظر في مشروع شريف باشا ، وكانت قد أخذت من المجلس تفويضاً في أن تتفاوض مع النظارة رأساً تقدمت لشريف باشا يوم ١٥ يناير التمديلات التي رأت أن تدخلها على للمشروع ومنها بقاء المادتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين على أصلها ، أي أن يكون للمجلس حق تقرير الميزانية فيما خلا الويركو والدين العمومي

(١) ص ٢٢٤

(٢) دى فريسينيه ص ٢٢٣

وما ألزمت به الحكومة في قانون التصفية أو في المعاهدات الدولية، فلم يقبل شريف باشا هذه التعديلات . وفي هذا اليوم نفسه أرسل غامبا الى قنصل فرنسا العام التلغراف الآتي (١) :

« اطلعت على المذكرة التي سلمها اليك المراقبان وأنا أوافق عليها وعلى النصائح التي تبذلها لشريف باشا . فتأبر على اتخاذ هذا الحزم »

وأرسل القورد جرفل الى قنصل إنجلترا العام السير مالت مثل هذه التلميحات . ثم اقترح مالت على النواب أن يكون رأيهم استشاريا الى ثلاث سنوات وأن يتحول بعد ذلك الى رأي قطعي ، وكلف متر بلس أن يقنعهم بقبول هذا الحل ، فكتب قنصل فرنسا الى غامبا يسأله رأيه فيه فجاءه الجواب بالرخص ، وفي الوقت نفسه عاد متر بلس الى مالت يخبره بأن اقتراحه لم يلق من النواب وزعماء الحركة الوطنية غير الرفض واليك ما كتبه في ذلك (٢) :

« بعد أن تناولت مع الشيخ محمد عبده الذي كان كدأه من الميل الى التبصر والمسألة اتفقا على أن التقي في منزله بوقد منهم لا تقشهم وأريهم النتائج المحتملة للمقاومة أى التدخل المسلح . ومن ثم قيدت وجهة نظر المراقبين المألين مع كلن (هو المراقب الانجليزى) ووضعت مع مالت قواعد المناقشة التي عولت على استعدادها وكانت تطلبني تنحصر في أن أذكر لأعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان ان يحسها بغير موافقة الحكومتين الرقيتين . وكان على أن أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها مالت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارقفها بالمشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم ان يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية او ليست كذلك . وهل اذا كانت كذلك ألا نكون خارج دائرة اختصاصهم بعد ان اعرفوا بان المسائل الدولية يجب ان لا تمس . وخول لي كلن ان اقول انه هو شخصيا لا يمانع في تعديل الاجراءات الحاضرة تمديلا طفيفا بحيث يسطى للجلس

(١) دي فريسييه ص ٢٢٥

(٢) ص ١٤٢ من هذا الكتاب

حق استشاري قد يحصل فيما بعد الى حق اقتراح . قانا قبلوا ذلك عرض ماليت
 المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع ان يطمئن على قبولها من
 جانب إنجلترا او فرنسا . اما سائر خلاقاتهم مع شريف قطيهم ان يسووها معه بانفسهم .
 « على هذه القاعدة وبمساعدة صابونجي والاساذ الشيخ محمد عبده ناقشتهم طويلا
 في المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لا يدعون . نعم انهم وافقوا
 على تعديل ثلاث او اربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وادمجوا
 التعديلات التي اقترحتها عليهم فيها يختص بها في اللامعة ولكنهم تشبهوا برأيهم في
 مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاساذ محمد عبده لي ولم يقبلوا ان يشيروا سطرأ
 من المادة الخاصة بها . فمدت مطأطىء الرأس لا يبلغ ماليت حكاية فشلي »

ثم قال مستر بلنت بعد ذلك :

« ومع اني بذلت كل جهدي لاجل الاعيان (يريد النواب) على الاذعان
 تحت تأثير اعتقادي بانهم مهددون بالتدخل الاوربي لم يسعني مع ذلك الا الاعتراف
 بانهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميزانية اذا كان الحكم البرلماني سيكون
 حقيقة لا نموها »

وقال بعد ذلك أيضا :

« وتدل تفرقات ماليت في ذلك الحين على ان الاعيان (اي النواب) كانوا
 بدأ واحدة في هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذي كان بطبعه رجلا ضعيفا يسهل
 لرواياه اعلان بصريح العبارة ان دستور شريف باشا كالمطلة تحدث صوتا ماليا
 ولكنها فارقة »

ذلك ما كتبه مستر بلنت عن وسائله وهو ناطق بأن قنصلي فرنسا وإنجلترا
 لم يجدا سببا صحيحا يهاجمان به موقف الحق والاعتدال الذي وقفه النواب ، وانهما
 لذلك حاولا أن يدخلوا عليهم ان النظر في الميزانية مسألة دولية فلم يفلحان النواب
 كانوا من سلامة الفهم بحيث لا تجوز عليهم هذه الحجة . وها هو ذا مستر بلنت
 يشترط بانه وان كلن قد جادلهم واجتهد في اقناعهم الا أنه كلن يشعر في داخلية نفسه
 بانهم على الحق وان ما يريد اقناعهم به هو الباطل . وهم ما ثبتوا في موقفهم هذا الثبات
 ولا تشبوا به هذا التثبت الا لانهم كانوا قد ذاقوا الآلام من جراء

الحكم المطلق ورأوا الخطر داهما على استقلال البلاد فكانوا من أحل ذلك يريدون الحكم البرلماني ، كما يقول مسر نلت ، حقيقة لا عموها .

نواضع آخر في طلبات النواب

ولكن الرئتين رُفضانه

فيقتصر النواب ويستقبل شريف باشا

واقترحت الحكومة بعد ذلك على النواب أن يقر رأي المجلس استشاريا ولكن تعدل المادة الثانية والثلاثون بما يجعل ميزانية المصروفات منقمة الى أبواب أكثر فرض النواب قائلين ان قسمة الميزانية الى أبواب أكثر أو أقل لا تعيد شيئا ما دام المجلس لا يملك حق التقرير . وأخيراً رأوا أن يقدموا برهانا جديداً على أنهم يذهبون في مسألتهم ونواضع طلباتهم الى أدنى حد ممكن فاجتمعت لجلسهم يوم ٢٠ يناير وقررت أن تفرج على شريف باشا حسبا للخلاف أن يعين المجلس عدداً من أعضائه مماثلا لعدد النظار فيكون هؤلاء . وأولئك هم الذين يقررون الميزانية ويكون لرئيس النظار صوت مرحح عند الاختلاف وتساوى الاصوات في الفريقين . وحل سلطان باشا هذا الاقتراح في اليوم التالي الى شريف باشا فمضاه هذا على قصلي انجلترا وفرنسا^(١) فقالا انهما سيرفعانه الى حكومتهما . وفي ٢٣ يناير جاء جواب غامبا بالرفض القاطع ثم جواب اللورد حرقيل بالرفض أيضا ولكن مع التلويح باحتمال الاتفاق في مسائل أخرى جزئية^(٢)

ومضى بعده هذا أسبوع وضع شريف باشا في أثناءه مشروع لائحة جديد حذف منه المادة الخاصة بالميزانية وأدخل على مواد الأخرى شيئا من التعديل ثم أرسله الى المجلس في ٣١ يناير وأرسل معه كتابا هذا نصه :

« ان جناب قصلي فرنسا وانجلترا انجزا تقديمهما للحكومة مذكرة تتضمن ثلاثة أمور وهي أولا ان حكومتى فرنسا وانجلترا تريدان ان الاتفاقات الدولية المتعلقة

(١) دى فرسييه ص ٢٢٦

(٢) المصدر السابق

بالامور المالية لا تسمح للحكومة المصرية فان تمنح مجلس النواب حق تقرير الميزانية تقريراً قطعياً. ثانياً ان المنصليين المواليين اليهما مستعدان لفتح محادثات للاتفاق على هذه المسألة . ثالثاً ان فتح المحادثات بناء على طلب الحكومة لا يكون الا بعد تمام الاتفاق قطعياً بين الطارة ومجلس النواب

« وحيث قد علم من القومسيون المذكور (يريد اللجنة التي عينها المجلس للنظر في مشروع اللائحة) ان النواب يريدون الاشتراك في تقرير الميزانية ومن الواجب حينئذ ان يحصل الاتفاق على سائر بنود اللائحة ما عدا ما يتعلق بالميزانية فيبدت تكرار المداكرة بين النظارة وبين القومسيون المذكور قبلت الحكومة مشروع اللائحة المرفوقة مع هذا . فارجو من سماهتكم التصديق عليه من المجلس شرط ان قبول المجلس به لا يعد قطعياً ولا يقترب عليه تنفيذ تلك اللائحة الا بعد الاتفاق على مسألة الميزانية ودرجتها . اما ما يختص بهذه المسألة فان الحكومة مستعدة للمخاطرة انما يلزم ان يكون طلبها صريحاً مستوفياً ولهذا قال ان مجلس النواب يصرح بافكاره في هذه المسألة كتابية ويسمل عنها البنود المترائي له اعمالها حتى تكون اساساً للمخاطرة »

فقابل النواب هذا الكتاب بالامتناع لانهم رأوا فيه ان شريف باشا يدخل انجلترا وفرنسا في مسألة هي من جهة أساسية في نظام الحكم ومن جهة اخرى داخلية ليس لها أن يدخل فيها . وكانوا قد امتنعوا منه قبل ذلك لسكوته على مذكرة ٧ يابر كما امتنعوا منه لعدوله عما وضعه بيده في مشروعه الاول خاصاً بلطة المجلس في الميزانية ولا نفيهما الى الدولتين في وقوفها في وجه المجلس وحيلولهما دون أن يتخذ الحكومة من السيطرة الاجنبية . فاجتمع فريق كبير منهم في اليوم نفسه في بيت سلطان باشا وتداولوا في ذلك طويلاً ، ثم اجتمع المجلس في اليوم التالي (١٢ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ - أول فبراير سنة ١٨٨٢) اجتماعاً غير عادي فبدأ الرئيس فقال : « اعيدت من جانب مجلس النظارة لائحة مجلسنا الاساسية التي نظرت في اللجنة للجنة لذلك مشفوعة باقتاد ريادة مجلس النظارة المشار اليه تتعلق باللائحة عموماً وعند النظر في الميزانية خصوصاً فقدت هذه الجلسة لمرض ذلك على هيئة المجلس مع تقرير اجمالي من اللجنة المذكورة »

ثم تلى تقرير اللجنة وهذا نصه :

« ان اللجنة التي ائتمنوها للنظر في مشروع لائحة المجلس الاساسية المرسلة من جانب الحكومة قد نهضت بهذه المهمة وعقدت لها جلستها الاولى في يوم

الثلاثاء ١٣ صفر سنة ١٢٩٩ بوجود عزتو بطرس بك غالى كاتب امرار مجلس
النظار (سابقا) (١) مندوما عن الحكومة قرأت وعدلت وقررت بحو نصيب
اللائحة بحضور المندوب المشار اليه ثم توالت جلساتها بغير وجوده حتى انتهت على
آخر الواجب معنا وتمديلا واستكلت وضع اللائحة الاساسية على الصورة التي
حسبتها موافقة للاحوال حافظه لحقوق المجلس مع الرعاية لجميع العهود والمواثيق المرعية
« وبعد أن فرغت من ذلك ارسلت صورة اللائحة على حسب ما انتهت اليه
في تعديلها الى جانب مجلس النظار لتنظر فيه . ثم جرت بينها وبين المجلس المشار
اليه محادثات ومفاوضات شبيهة بالرسمية على عدة بنود من اللائحة فاقامت الادلة
على أحقية ما عدلته وما وضعته مقبولا معظم بنودها ومغيراً بعضها ومعدوفا منها
بند النظر في المزاوية لتقريرها في مجلس النواب . فاما البنود المغيرة فان المقاربة بين
الاصل والمرسل من اللجنة والنسخة الواردة من مجلس الطائرتين لخضرائكم ما حصل
فيها من التغيير ومكان ذلك من الاهمية أو عدم الاهمية ومحل من القبول والرفض
واما بند المزاوية فقد كان السبب في حذفه مايقهم من منطوق الافادة الواردة من
رياسة مجلس النظار .

« وقد رأت اللجنة ان واجباتها وحقوقها تقف عند هذا الحد من المخاطرة ولذلك
فهي تعرض لخضرائكم نص اللائحة الاصلية الواردة اولا من جانب الحكومة ،
ثم نص تلك اللائحة معد تعديلها في اللجنة ، ثم صورتها الواردة بالامس من جانب
مجلس النظار بالتغيير والحذف السابق ذكرها ، مع الافادة للنوّه عنها ليعلم بذلك
ما اجرته اللجنة وما آل الامر اليه . فاما ان يفوض اليها من لديكم حق وحدوده
جديدة في القبول او الرفض او تميم المخاطرة واما ان يتولى المجلس هذا الامر بنفسه
والله ولي الامور »

ثم جرت المناقشة فقرر أولا أن يجتمع لجنة المجلس لتنظر في التغييرات الاخيرة
التي أحدها مجلس النظار في مشروع اللائحة وفي الكتاب الوارد مع هذه التغييرات
من رياسة مجلس النظار لان اللجنة « ادري باحراف المسألة واعرف بأصولها وفروعها ».

(١) كلمة (سابقا) هذه موجودة في صلب تقرير اللجنة وذلك لان بطرس بك
غالى كان سكرتيراً لمجلس النظار حينما بدأت اللجنة تنظر في المشروع ثم نقل انما
نظرها فيه الى منصب آخر

وحيث ان يكون اجتماع اللجنة لهذا الغرض في اليوم نفسه وان تقدم تقريرها ظهر
اليوم التالي . وثالثا أن يجتمع المجلس طهر اليوم التالي ليفصل في الموضوع كله
بحرارة حاسم .

وفي الحال اجتمعت اللجنة فبحثت وتناقشت ثم عادت الى الاجتماع صباح اليوم
التالي فوضعت تقريرها ورفعت الى المجلس وهو :

« عقدت هذه اللجنة امس الاربعاء الساعة ٩ وربع فاعدت النظر في مشروع
اللائحة الاساسية المقاد الى المجلس من جانب مجلس النظار وجرت مبادلة الراى
بينها وبين اعضاء اللجنة الذين كلّفوا بمذاكرة النظار في بعض اوجه التسوية .
وبعد للمفاوضة والمداولة قبلت ما احدثه مجلس النظار من التغيير في اللائحة وردت
اليكى الاخر الى اصله باعتقاد انه اوفى بالمصلحة واوقع في يابه . ثم وضعت للنظر
في الميزانية والاشراك في تقريرها ثلاثة بنود واثبتت هذه البنود في النسخة المروضة
الآن لديكم .

« وقد تلى فيها رقم دولة رئيس النظار فوقع لديها موقع الاستتراب لعلها بان
للساعة التي بين الحكومة ومجلس النواب داخلية محضة لا تقتضي ازواج اى خاطر
بالتدخل والوساطة ولا سيما بعد تساهل النواب الى حد الرضا بالمشاركة في تقرير
الميزانية ليس غير .

« على انها لم ترد ان تعد لتلك الرقم جوابا لسببين الاول انها رأت من الاهمية
بحيث يبنى له راي الهيئة بجمليتها والثاني انها تؤثر على مطال الرسالة سرعة المشافهة
بمضى انها ترى من اللالام حسم الامر بوجه السرعة اجتنابا للمخاطرة وتصريحا بكون
المجلس يرى ان تقرير الميزانية من حقوق الحكومة دون سواها وانها قادرة على
اعطاء هذا الحق لمجلس النواب ارضاء للرأى العمومى وعملا بما تقتضيه المصلحة
الوطنية وحمايا للخلاف

« فاذا حسن لدى الهيئة هذا الرأى فليد على سمعها نص اللائحة ببيان ما احدثته
الحكومة بها من التغيير وما قبلته اللجنة من ذلك وما ردت الى الاصل ولها في امر
تعيين الوفد او رقم الجواب على رقم رئاسة النظار رايها العالي موقفا للصواب ان
شاء الله تعالى »

أما البند الذي جاء في هذا التقرير أن اللجنة وضعتها للنظر في الميزانية والاشتراك في تقريرها فهي :

« تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويمن من أعضائه لجنة مساوية لمجلس النظار عدداً وراياً ليقروها جميعاً بالاتفاق أو الغالبية فإن وقع بينهم خلاف وكان العدد متساوياً من الجانبين وجب إعادة الميزانية للنواب فلما ان يؤبدوا رأى النظار ولما ان يؤبدوا رأى لجنة النواب فإن كان الأول وجب تنفيذ الميزانية وان كان الثاني ولم يمكن حصول الوفاق كان الحكم في ذلك حكم بند الخلاف وهو انه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على امر ما فلما ان يفض مجلس النواب ولما ان يستفي النظار وفي هذه الحال اي اذا ايد النواب رأى اللجنة وخالفوا رأى النظار نفذ الميزانية في التهم الضرورية منها لإدارة المصالح وعدم اخير الاشغال تنفيذاً موقتا ويبقى الباقي من أمر الميزانية الى ما بعد تسوية المسألة بأي طريقة ووسيلة »

ومعنى هذا ان اللجنة نزلت ، كما قالت هي ، عن المطالبة بحق تقرير الميزانية واكتفت بطلب المشاركة فيه

ثم عقد المجلس فجلس عليه تقرير اللجنة والتعديل الذي وضعت له المادة الخاصة بالميزانية ثم جرت المناقشة كما يأتي (١) :

« محمد بك الشوارى - لا بأس في تشكيل لجنة تسمى الى الجانب الجديدوى طالبة من حضرته السيد اقرار اللائحة التي استقرت عليها آراء النواب فذلك ادنى للنتيجة وأولى من المراسلة خصوصاً بعد ظهور المسألة بالمظهر الجديد المنه عنه في رقيم مجلس النظار »
« ابراهيم افندى الوكيل - اوافق على رأى حضرة محمد بك الشوارى في ارسال اللجنة . ولكن ارى ان تسمى اولاً الى دولة رئيس مجلس النظار فتذكر له سوء تأثير رقيه في المجلس وتطلب منه التصديق على اللائحة بلا غفارة ولا تأجيل . فان ابى فاللجنة تقصد الجانب المالى ومساهمة التصديق على قبول اللائحة سريعاً »
« احمد افندى عبد النصار - ارى ان يكتب مع ذلك رد الرقيم بانكار ما فيه لكي لا يحسب السكوت عنه اعترافاً به وقبولاً

« احمد افندى محمود - ان سير اللجنة على الوجه السابق المذكور كاف في رد

(١) هذه المناقشة منقولة حرفاً بحرف من محضر الجلسة

الرقم وحاسم للأمر بلا مرأه . ومع هذا فان تقرير اللجنة الذي تلى الان علينا وقبل مضمونه بالاتفاق رد لا مشاحة فيه بقيت في سجل المجلس وينشر فيعلم لدى
الرأى العمومى

« بعض النواب — احسنت

« الرئيس — يحسن اخذ الاراء على قبول تعيين اللجنة برفع الايدى علامة القبول
« قبول عمومى

« احمد افندى عبد الغفار — ان وافق فليكن عدد اعضاء اللجنة عشرة

« عبد بك الشواربى — بل خمسة عشر

« الجميع — فى عمله »

واختار المجلس فى الحال خمسة عشر عضواً من أعضائه يسرون الى شريف
يشاء الى الحديو وكلفهم ان يؤدوا مهمتهم قبل أن يقضى النهار ، فساروا الى
شريف باشا فى نظارة الداخلية وقدموا اليه التعديل الاخير الذى أقره المجلس لمادة
الميزانية وقالوا ^(١) :

« ان تأخير تنفيذ اللائحة جالب للفشل ولهذا عقدنا النية على ألا نترك هذا
اليوم يمضي بغير قبولها او رفضها »

فجعل يلاطفهم وقال : « تعملون اني منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اترض
شئ من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها
على انى ما زلت لا اتحول عن هذا الرأى فذلك لى اصادق على ما رأيتوه من أمر
الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن »

فقالوا : « ان هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه فان سألنا لا نمس بالمهم
من الحقوق ولا نقرر لهم مصلحة »

فقال : « لا سبيل الى ذلك البته »

فقال جماعة منهم : « انا نأسف جدا ان يصادق لنا على اللائحة غيرك » .
يريدون بذلك انهم سيطلون من الحديو اسقاط وزارته .

(١) انظر « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لميخائيل شاروبيم بك

جزء ٤ ص ٢٧٣ و ٢٧٤

ثم خرجوا متجهين الى قصر عابدين وفيه قابلوا الخديو وقالوا : « انا جازمون
 بمحبة مولانا للوطن وميله الى اصلاحه ولهذا الغاية مسح الامة المصرية حقوق الشورى
 وفتح مجلسها فنظمتنا له هذه اللائحة وقنعناها وطلنا الي الوزير محمد شريف باشا ان
 يوقعا فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما في العقود الدولية »
 فقال الخديو : « اذا كانت الوزارة قد آتت التصديق على اللائحة فاذا تطلبون »
 فقالوا : « نطلب ان تمرل فنشكل وزارة اخرى لا تأبى التصديق والعمل
 معنا »

فألهم ^(١) : « وبأى حق تطلبون هذا »

فاجابوا ^(٢) : « تلك هي إرادة الامة »

فوعدهم بالجواب غداً ، فاصرفوا وأرسل فاستدعى شريف باشا وقضى انجلترا
 وفرنسا فيمد أن تداول معهم ساعة استقر رأيهم على أن يستقيل شريف باشا وان
 يترك الخديو للواب اختيار الوزارة الجديدة ^(٣) . وحيفئذ لم ينتظر الخديو الى غدا بل أرسل
 في المساء الى الحصة عشر نائباً فلما جاءوا أخبرهم باستقالة شريف باشا وأسلمهم بمن
 تؤلف الوزارة التي تخلف وزارته . فقالوا ان اختيار الوزراء من حق الخديو . فاصرف
 فاصرفوا ثم أيضاً على الامتناع ، وأخيراً عادوا الى الصلاح (الجمعة ٣ فبراير) فابلغوه أنهم
 يشيرون محمود سامى رياسة الوزارة على شرط أن يصدق على اللائحة ، فكان
 ما أرادوا

انجلترا وفرنسا هما المعتربتان

هنا نقف لحظة لقول ان انجلترا وفرنسا هما اللتان خلفتا بحرهما وسوء نيتهما
 هذه الامة لانهما بارسلهما مذكرة ٧ يابى لغير ما سبب بحرشتا بالمجلس وبادرتاه
 بالمدوان وحاولتا أن تمرلا الخديو ، أو بعبارة اخرى الحكومة ، من الامة . ثم لانهما
 أرادتا بعد ذلك أن عمما النواب من أن تكون لهم سلطة على الميزانية حتى في الجزء الذى

(١) و (٢) أشيل بيوفيس ص ٦٥

(٣) المصدر السابق

لا أساس لها منها بالدول ولا بالدائنين . وما كان المجلس في كل أدوار الازمة الا واقفاً موقف الدفاع ضد هجمات الدولتين ، وقد تواضع في طلبانه حتى ذهب الى طلب الاشتراك في تقرير الميزانية ، لا الافراد بتقريبها ، فاصرت الدولتان على الرضى فكانتا متدينتين أولاً وأخيراً وكان اعتناؤهما حلقة من خطة سياسة أريد منها أن تؤدي في النهاية الى التدخل المسلح . وكل من يقرأ الرسائل والمذكرات التي كانتا تتبادلانها في تلك الايام يرى سهولة أن ية التدخل والاستيلاء على مصر كانت جلية عندهما على السواء . ولكن شيئاً واحداً كان يفصلهما وهو أن انجلترا كانت تريد هذا التدخل لها وحدها ، أما فرنسا فكانت تعرف هذا القصد من زميلتها وكانت تخشى أن يتم فكلن وزيرها غامبتا يدفع الحوادث دفعاً لكي تتدخل الدولتان معاً لما استعمل غامبتا في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ وخلفه دي فريسييه في رئاسة الوزارة لم تتغير هذه الخطة وأما تغيرت الوسيلة البها واصلت فرنسا لادفع الحوادث توصلا الى التدخل بل تجر أوروبا للاشتراك مع الدولتين عسى أن يحول ذلك دون الغرض الذي تعمل له الحكومة البريطانية .

فالدولتان كانتا في شهرى يناير وفبراير تحاربان المجلس والحركة الوطنية كلها عملاً بسياسة الاعتداء التي أعلنتها في مذكرة ٧ يناير . ولنا قول هذا وحدها وأما بقوله مما فصل فرنسا العام اذ ذلك مسيو سينكويكز فقد كتب في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٢ الى حكومته تقريراً قال فيه (١) :

« ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب في ان يصير برلماناً والخطة القوية التي رأت الدولتان من جانب آخر ان تختارها والتي كانت مذكرة ٧ يناير تعبيراً عنها ، هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما ، بالأخر فاجدا الموقف الحالي

« وفي الواقع انني كلت ان أقدم تلك المذكرة بالاتفاق مع السيد ادوارد ماليت للحدوث في الوقت الذي بدى فيه بالتكلم جدياً في اعظم مسألة تشغل الافكار في الوقت الحاضر وهي مسألة للارابية . ولهذا المذكرة أهمية عظيمة لانها ترسم خطة الدولتين رسماً جلياً صريحاً تؤكد أن من الضروري ان يبقى النظام الحالي على ما هو عليه

ولا تعير وجود الحرب الوطني أدنى التفات ولقد أدركت الدولتان حق الإدراك ما كان مقدراً لارادتهما هذه ان تجده من معارضة الحزب الوطني ومعارضة غيره في خارج مصر مصرحتا بأنهما مسعدتان لمقاومة الارتباكات الداخلية والخارجية التي يمكن ان تهدد النظام الحالي »

وكتب الى حكومته يوم ٦ فبراير يقول ^(١) :

« يمكن ان يقال ان الانقلاب الذي أحدثه مجلس النواب المصري جواب منه على مذكرة ٧ يناير . فلقد أعلننا في هذه المذكرة اننا نحتفظ بالنظام الحالي ضد الجميع فاجاب المجلس على ذلك بان غير هذا النظام تغييراً جوهرياً . وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت للضرورة فاقضية علينا فيه ان نتدخل او نعدل سياستنا » (٢)
وهذا اعتراف جلي بان الدولتين هما اللتان تمعدنا سياسة تؤدي بهما الى التدخل المسلح

وكتب جريدة التيس في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ قول :

« ان السير ادوارد مالت كتب في ٩ يناير الى رئيسه يقول ان مذكرة ٧ يناير أبدت عنا كل ثقة . لقد كان كل شيء يسير سيراً حسناً وكان ينظر الى انجلترا كما ينظر الى دولة بارة مخلصة لمصر اما الآن فالعربون يتقدون ان انجلترا ألقت بنفسها في احضان فرنسا وان فرنسا تحملها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا »

المجلس في وزارة محمود سامي

صدر الامر لمحمود سامي في ٤ فبراير بان يؤلف الوزارة قائمها ورفع الى الحديبو كتاباً طمأن فيه الاجانب على احترام التعهدات الناشئة من قانون التصفية والادارات الخاصة بالدين العمومي ثم قال :

« وقد كان أبداً في خلد عظمتكم ان لا بد من مساعدة مجلس شوري لانعام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق . وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالي

(١) آشيل يوفيس ص ٦٦

(٢) ثبت هنا نص هذه الجملة الاخيرة باللغة الفرنسية وهو :

Nous nous sommes places ainsi dans la nécessité d'intervenir ou de modifier notre politique

والوزارة أيضا من هذا الرأي وهي ستوجه همتها وعنايتها الى اصلاح الحاكم والمحاسب وانتظام الادارة واجراء التحسين اللزم في أمر المعارف العمومية مساعدة للملاد على السير في سبيل المدنية والتنتاج . وسننظر في اتخاذ الوسائل الآتية الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الإصلاحية التي كانت موضوع امانى عظمتكم . ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب ان نعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له ان يأتى الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وان يحقق أمل البلاد المحصورة فيه . ولذلك نقول شيء نشرع فيه الوزارة هو وضع نظام اساسي للمجلس المواليه ويكون من احكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية وكل التعهدات المطلقة بالدين العمومي وما توجب هذه التعهدات درجة في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلحق الوزارة امام المجلس وكيفية المصارفة والمباينة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها . وسيكون هذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم «بدأ من ان يكون سببا لقلق البال »

فرد عليه الحديوي بكتل قال فيه :

« . . . ونوافق على رأيكم التضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لانعام الاصلاحات القضائية والادارية ونشر قانون اساسي لمجلس النواب ينطبق على الآراء التي أبدتموها في لائحتمكم »

وفي ٦ فبراير نظر مجلس النظار في مشروع اللائحة الاساسية فوضعه في الصيغة التي ترضى مجلس شورى النواب . وفي ٧ فبراير عقد المجلس وجاءه ناظر المعارف عبد الله فكرى باشا وناظر الاوقاف حسن الشريعى باشا وقدمتا اليه المشروع في صيغته الجديدة فصادق عليه النواب بالاجماع ^(١) وهذه هي المراد الخاصة فيه بسلطة المجلس على الميزانية :

« ٣٤ — لا يجوز للمجلس ان ينظر في دفعيات الويركو المقرر للاستانة او الدين العمومي اوقيا التزمت به الحكومة في امر الدين بناء على لائحة التصفية او المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية

٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند السابق) ويحين لها لجنة من اعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا في الميزانية ويقررونها بالاتفاق أو بالاكثرية

(١) نص هذه اللائحة منشور في ذيل هذا الكتاب من ص ٤٤٨ الى ص ٤٥٤

٣٦ - إذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان أنبت رأى لجته فيكون المعدل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة . وأما ما حصل فيه الخلاف من الميزانية فإذا كان مقروا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يقد المجلس الثاني بمقتضى المادة ٢٣

٣٧ - إذا أيد المجلس الثاني رأى المجلس الاول في أمر الميزانية وجب تنفيذ الرأى المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣ «

اما المادتان ٢٣ و ٢٤ أثير اليهما في هذه المواد فهما :

« ٢٣ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المحاورة وبيان الاسباب ولم تستف للنظارة فللحاضرة الخديوية أن تأمر برفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط أن لا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانقضاء الى يوم الاجتماع . ويجوز لأرباب الانتخاب أن ينتخبوا قس النواب السالفين أو مضمهم

٢٤ - اذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا «

وفي يوم ٨ فبراير كان مجلس النواب مجتمعاً فجاء محمود سامي ومعه اللائحة وقد صادق عليها الخديو والنظار فقدمها وألقى الخطاب الآتي :

« أيها السادة النواب

أحسب نفسى سعيد الطالع بمحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذي سيكون ان شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ويسرنى كل السرور اننى لم اعمله اليكم الا بعد تيقنى انه خير أساس يمكنكم ان ترفقوا عليه من الاعمال ما يبرز شأن البلاد وينمي ثروتها ويقوى اصول المدالة فيها

وهذه نعمة من الله سبقت لنا على حين احتياجنا اليها والحمد لله قد وصلنا الى المرغوب مع احترامنا شرائع الحكمة ونواميس السكينة ولم يكن شئ من الوسائل بعيدا لو لم تكن عناية جناب خديويتنا الاعظم هى سندنا في جميع أعمالنا ومقاصده السامية هى -رشدنا في سبيل سيرتنا فهو الكريم لذى اجريت هذه النعمة على يديه فأول واجب علينا جميعا ان نقوم لحضرته العلية بفروض الشكر وواجب الثناء

إلا اننى اعلم كما تعلمون ان مجرد وضع القانون على اصول الحرية وقواعد العدالة لا يكتفى في وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لابد ان يضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم في المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر في الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والامكار منحصرة في دوائرها وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال اعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها في دائرة القانون انما ينال بدلائنا وطول التجارب لكن لا اعد هذا صعبا عليكم فان العناية الالهية ساعدت سعد البلاد بوقوع الانتخاب على حضراتكم واتم على اكل درجات العقل والفضيلة ولا عناء في اتباع القانون الا على العاجزين

« وفى امل انكم ستحققون ما يطمح احباء البلاد فيكم عندما يتبدلون في الاعمال المهمة التى تهيأتم الان لباشرتها بان تستملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى المهم حتى لا يصبح الزمن الطويل في الحصول على قاذرة قليلة وهذا لا يكون الا بتخليص الامكار وتخصيص الطوليا من شوائب الرغبات الشخصية بان نجعل الاعمال وفقا على المصالح العمومية التى تقعها في الحقيقة حامد عليكم وعلى ابتائكم

« ان الثقات النظر الى الخصوصيات يست في القلوب محاسنات ومناظرات تحصل على الخلاف الدائم (نعوذ بالله) وانكم تعلمون ان الذين رقبوا الى ذروة العز واولج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم في طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب قاحلتهم اعلى للنازل فنتهوا في مكاتهم ماداموا بحيلة الاخلاص

« واني اتمنى قسى بوقوف بين عقلاء البلاد المعارفين بمقوق بلادهم عليهم العالمين بان شرفهم مفود بشرف اوطانهم الموقنين بانهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا انا اقلما على صدقهم براهمين من العمل وحجبنا من العقبات في خطتنا لا اعتدال حتى يفتح بها البعيد كما عرفها القريب

« وفى علم حضراتكم ايها السادة اننى عند استلامى رئاسة النظر رفعت الى جناب خديوينا الاعظم تقريرا انت فيه مبادئ الهيئة الحاضرة واظنكم قرأتموه وتعلمتم ما فيه وقد تكرم على الجناب الخديوى بقبوله واني مؤمل فيكم ان تكونوا محضدا لنا وساعدا قويا على تنعيم ما قصدنا ليعتقر امر النظام وتتوفر لدينا اسباب الحرية والرقابة ونحفظ الحقوق التى لنا ونؤدى الواجبات التى علينا ونوق بجميع جهودنا لمن ماهدناه ونكون بذلك قد ارضينا سلطاننا الاعظم الذى يسره نجاحنا

وتقدمنا وارضينا جميع الدول المتقدمة التي تحب ان ترانا حائزين لشرافنا حافظين لحقوقنا
قائمين بيهودنا

« وآخر ما توأصى به ان لا نجعل للنصب المشرقي دخلا في الاعمال الوطنية
التي كلفكم البلاد ان تقوموا بادائها وان تكون الوطنية الحقة هي الباعث القوي
على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل
« نسأل الله ان يوفقنا جميعا لما فيه رغبة أوطاننا وتقدم بلادنا وان يجمع البلاد ببقاء
حضرة خديويتنا المعظم أبيه الله »

فرد عليه سلطان باشا كركاً للوزارة انها اجابت طلب النواب. ثم توجه النواب
الى الخديوي فشكروا له تأليف الوزارة التي لبست طلب الامة. وأقيمت لذلك احتفالات
في كثير من انحاء البلاد

وفي ٢ فبراير صدر أمر عال بان نيابة اعضاء مجلس النواب المجتمع اذ ذاك تمتد
الى خمس سنوات ابتداء من يوم عقده وبذلك صار مجلس شوري النواب هو نفسه
مجلس النواب القوي نص عليه في اللائحة الاساسية

وصدر مع هذا الامر أمر ثان بان يبقى سلطان باشا في رئاسة مجلس النواب
خمس سنوات .

وأمر ثالث بان انتهاء اجتماع المجلس في هذه السنة يكون في ٢٦ مارس
سنة ١٨٨٢

وعقد المجلس بعد ذلك أكثر من عشرين جلسة ما بين ٦ فبراير و ٢٦ مارس
فنظر في جملة غير قليلة من شؤون الزراعة والتعليم والرى والصحة وغيرها. وقدمت
له الوزارة مشروعاً لقانون الانتخاب القوي ينتخب على أساس مجلس النواب فبحثه
وعدله فيه ما عدله ثم صدر قانونا في ٢٥ مارس وهذا أهم ما يشتمل عليه :

« يحق الانتخاب لكل مصري من دعايا الحكومة المحلية سواء كان مولوداً
في مصر او متوطناً أقام فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات على شرط ان يكون
بالا من العمر احدى وعشرين سنة كاملة وان يدفع للحكومة من مال الضرائب
او الرسوم المقررة أيا كانت ما يبلغ خمسمائة قرش اميري في السنة — (مادة ١)

ثبتت حق الانتخاب لمن يأتي ذكرهم ولولم يكن عليهم المبلغ المقرر وم أولاً
العلماء الحائزون رتبة التدريس او المشهورون بصفة العالمية . ثانياً القس وسائر

الرؤساء الرومانيين من المسيحيين . ثالثا خاضعات الاسرائيليين . رابعا للمدرسون في المدارس المصرية والدكانب الالهية والحائزون للشهادات من المدارس السالية . خامسا ارباب الوظائف الملكية سواء كانوا في الوظائف او متقاعدين . سادسا ضباط العسكرية سواء كانوا في الخدمة او مستودعين او متقاعدين . ساجا وكلاء المرافعات (الافوكاتية) المقبولون في المجالس النظامية . ثامنا الاجزالية والاطباء والمهندسون .
(المادة ٣)

يكون لمصر مائة وخمسة وعشرون فائيا (المادة ٦)
ينتخب الذين لهم حق الانتخاب في كل دائرة واحدا من كل مائة منهم على شرط ان يكون بالغا من العمر محسا وعشرين سنة بالاقل والذين يقع عليهم الانتخاب على هذه الصورة هم الذين ينتخبون النواب (المادة ٣٣)
يصبح انتخاب كل شخص بلغ من العمر محسا وعشرين سنة فما فوق ايا كان محل توطنه في مصر على شرط ان يجتمع فيه الصفات المطلوبة في حق الانتخاب ويكون ساريا عليه احكام قوانين البلاد بما فيها للقرعة العسكرية ويكون عارفا بالقراءة والكتابة معرفة كافية - (المادة ٦٧) - «

محتاج المراقبين

وكان من الجلي الا يرضى المراقبان الاجنبيين عن هذا النظام الجديد لان خضوع النظار للمسئولية امام مجلس النواب واعطاء هذا المجلس حق المشاركة في تقرير الميزانية ينتهلان الحكومة المصرية من بعض السيطرة التي كانت لديك المراقبين ويهدان لما سبيل الاستقلال . ولهذا ما كاد المراقبان يلمان ان اللائحة الاساسية صدرت حتى احتجا عليها في خطاب طويل رفعاه الى الحديو^(١) ودعا فيه ان هذا التفسير القوي حدث بانتقال السلطة من الحديو ونظاره الى مجلس النواب غير ملائم لحالة البلاد السياسية والاجتماعية . ثم ارادا ان يحرضا الحديو على المجلس قائلا انه قضى على سلطه وجعلها كما مهلا وانت النواب صاروا يعزلون الوزراء ويعينونهم . الى ان قالا :

« ولقد كن المصدر الوحيد لتأييد قواني الادبية شخص الحديو والوزراء . أما

الآن فلا بد أن تصير هذه القوة ومهمة مع الوزراء الذين انتقام نواب البلاد
ورؤساء الجيش »

ثم ادعى ان قبول وزارة محمود سامي ما قبله « انهك الحرمة نفوذ انجلترا
وقرنا ». وأخيراً انذروا بأن استقلال الحكومة المصرية عن سيطرتها سيذهب
بالاصلاحات كلها بعد أن نوطلت أركانها في السنتين الماضيتين

اذن كان هذا الاستقلال كل ما ينضب المراقبين وحكومتهم ، ولكنه كان
أيضا كل ماسى اليه مجلس النواب بعد ان رأى الخطر محيضا . وليس في الدنيا عقل
سليم كان يطلب من المجلس أن يفرط في استقلال بلاده ليجنب هذا الغضب
ولم تصغ حكومة محمود سامي لهذا الاحتجاج بأكثر من أنها ردت عليه وأكدت
لتنصلي الدولتين ان حقوق الدائنين ستبقى مصونة وأن نظام المراقبة سيبقى محترما

انتهاء دورة المجلس

وفي ٢٦ مارس تقدم محمود سامي الى المجلس ومعه الامر السالى باقهاء دورة
المجلس فالتى كلمة قال فيها :

« ان المدة القصيرة التي اقتتموها والاعمال الكثيرة التي باشرتوها تدل على شدة
ميلكم الى النجاح ورغبتكم في تقدم البلاد . وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المحين
لانقضاء المجلس بمقتضى لائحكم الاساسية قد أتيت بالاصالة عن نفسي والنيابة
عن اخواني لاقدم لكم الشكر على مساعيكم المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا
أفكاركم في مدة الاستراحة بالنافع العامة والمشرعات التي ستوضع في العام القابل
موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة . وهذا هو الامر السالى الكريم الناطق
بانقضاء المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول في توفيقنا جميعا »

ثم تلا الامر وبعد الفراغ من تلاوته تكلم رئيس المجلس فشكر الوزارة ودعا
الله أن يوفق النواب الى الخير والائحاد . وانقض المجلس فلم يجتمع بعد ذلك لان
الانجليز احتلوا القاهرة فكان أول ما فعلوه بعد الاحتلال أن قسوا على الحكم النيابي
فبقى ممطلا الى أن اسرده الامة في سنة ١٩٢٤

شهادات ذات قيمة

والآن ماذا فعل المجلس في دورته هذه ؟ وكيف كان تأثير وجوده في الحكومة وفي البلاد ؟

انه اجتمع في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٦ وانفض في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٧ فالمدة كلها ثلاثة اشهر انقضى منها شهر ونصف في انتزاع الدستور ونحويل الحكم المطلق الى حكم نيابي . فالشهر والنصف الباقيان هما وحدهما الاذان كان فيهما صاحب سلطة تحسب عليه وهما الاذان انصرف فيهما الى أعمال الإصلاح . فاذا نحن سألتنا كيف كان تأثير وجوده في الحكومة وفي البلاد فيجب أن يكون مفهومنا أن وجوده وعمله لم يتعديا هذه المدة القصيرة

كانت مدته قصيرة ومع ذلك اسمع مايشهد به له الكتلة المنصفون والرجال للثقلون . كتب ستر نيودور دوشتين (ص ١٥٦ من الترجمة) يذكر أعماله :

« لم يكن ينتظر أن يعمل المجلس في خلال هذه المدة القصيرة عملا يذكر من الوجهة التشريعية اللهم الا ازالة بعض فضائح الماضي الظاهرة لكل ذي عينين . ومع ذلك كانت التطارات المختلفة اثناء هذه المدة تكدر في تهيئة مشروعات الإصلاح لعرضها على المجلس في دور انعقاده القادم فكانت تعد قانونا جديدا للانتخاب (١) وقانونا لمنع السخرة ومشروع اصلاح المحاكم المختلطة التي آذت الفلاحين فيما مضى أدى لبناء وآخر لانشاء مصرف زراعي وما الى ذلك من الأعمال اما المجلس نفسه فكان اثناء ذلك مكابلا على فحص الماهدات والمناقشات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورباهاها وفي مناقشة النطار في المساوي . المختلفة التي وصلت الى علمه وأهمها المساوي الخاصة بمسح الاراضي الذي كان قد تم منذ ثلاث سنين تحت اشراف موظفين من الانجليز ولم يكن له اثر ظاهر غير النفقات الباهظة التي ذهبت في شكل مرتبات واجور ونفقات انتقال وغير ذلك . وقد اتهمى الامر في هذا الصدد بان ألقت المجلس لجنة خاصة لفحص هذا الموضوع فازعج ذلك المساحين الذين قاموا بهذا العمل »

(١) تقدم ان المجلس بحثه وصادق عليه وانه صدر في ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣

وكتب وزير فرنسا ميسودي فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية »
(ص ٢٤٩) يذكر المدة التي وجد فيها مجلس النواب وتولت الحكم وزارة
محمود سامي تحت مراقبة هذا المجلس فقال :

« كانت ادارة محمود سامي صالحة نافعة الى حد لا بأس به واقضي شهر فبراير
ومارس في راحة وهدوء. كدبا التنبؤات التي كان المراقبون الالمان قد توقعوها ^(١) »
ولهذه الشهادة الاخيرة من فريسينيه قيمة كبيرة لان صاحبها كان في ذلك
الوقت رئيسا للحكومة فرنسا فكان واقفا على حوادث مصر وأعمال حكومتها ومحملها
التبائي يوما وبوما مطلقا على التقارير السياسية التي كانت تدور حينذاك بين فرنسا
وانجلترا ثم بينهما وبين دول اوربا في موضوع المسألة المصرية ، فشهادته هذه للحكم
البياني وللحكومة الدستورية في سنة ١٨٨٢ لاتعد لها شهادة

فلو أن انجلترا تركت مصر وشأنها لتركها فيها هذا النبات الطيب ولماشت به في
رغد وراحة بال، ولكنها لم تتركها لان غامبتا كان قد استقال وخلفه دي فريسينيه ،
وكان هذا عدوا للوثنيين في مصر ^(٢) فرأت انجلترا أن الحرج خلا أمامها
وأن الفرصة التي كانت تنتظرها سحبت فضت تدس الدسائس وتنصب الخيائل
في مصر واوريا حتي ضربت الاسكندرية في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتلت القاهرة
في ١٤ سبتمبر من السنة نفسها. وقد تقدم انه لما اوتبكت مصر يد يون اسماعيل
كشنت التمس في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٩ تطلب بسط الحماية البريطانية عليها . وتقدم
أيضا ان عامبنا ما كان يريد بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ غير احتلال مصر وانه كان
يعد القوة اللازمة لذلك بينما كان يكتب تلك المذكرة . فنضيف الى هذا وذاك ان قصور

(١) هذا هو نص عبارة دي فريسينيه بالفرنسية :

L'administration de Mahmoud fut assez bienfaisante , les mois le
février et de mars s'écoulèrent dans une tranquillité qui donnait un
démenti aux prévisions des contrôleurs généraux.

(١) كان فريق كبير من نواب فرنسا يرون في ذلك الوقت أنه لا يزال على
بلادهم ان تضمد جراحها التي خرجت بها من حربها مع المانيا في سنة ١٨٧٠ وأن
اشتراها مع انجلترا على عمل مسلح في مصر يخلق بينها وبين انجلترا تنافسا فعداوة
وأن ذلك يضرها في موقفها أمام المانيا وهذه هي السياسة التي جرى عليها دي فريسينيه

قرنا العام مسيو سينكويكز كان بين ديسمبر سنة ١٨٨١ ويناير سنة ١٨٨٢ يكتب الى حكومته فيذكر التدخل المسلح ويقدر القوة اللازمة له بارسين ألف رجل^(١)، و**قن** للمفاوضات السياسية التي كانت تدور بين الدول في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ بشأن **مسألة** للمصرية فكانت تتردد فيها كلها تقريباً كلمة « العمل في مصر » وكيف **يكون** ومنه يكون . فالعزم على هذا « العمل » كان قديماً ظهرت بوادوه من اليوم **الذي** ارتبكت فيه المالملة المصرية وتجمست امراضه في المراقبة الشاية وفي النظارة **الاوربية** . وما كانت انجلترا تنتظر أن يوجد مجلس النواب للعمل وإنما كانت تنتظر **قن** تخليها فرنسا الطريق

ومن ذا الذي يرى تمتع الامير السيمور في خلق الاعذار لضرب الاسكندرية ولا يحكم بان هذا الضرب لم يكن لانه كان في مصر مجلس نواب ولا لانه كانت فيها حركة وطنية بل لان الاحتلال كان غرضاً مقصوداً

وامرته

هذا هو تاريخ الحياة النيابية في مصر الى سنة ١٨٨٢ أى الى الوقت الذي يقف عنده كتاب مسر بلنت . وقد لا يجاوز هذا الحد كثيراً اذا نحن أضفنا اليه أن الحكومة البريطانية أرسلت اللورد دومرين الى القاهرة في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ليضع للحكومة المصرية النظام الذي يتفق مع وحود الاحتلال فجاء وكتب تقريراً أشار فيه بالتاء دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ وانشأ هيئتين هما الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين تعين الحكومة قوماً غير قليل من اعضائهما ويكون رأيهما مع ذلك استشارياً **فانشئت** هاتان الهيئتان ورجعت مصر بذلك الى أسوأ مما كانت عليه حينما أنشئ مجلس شورى النواب في سنة ١٨٦٦ لان اعضاء هذا المجلس كانوا على الاقل متخفين . وخيل الى انجلترا أن الروح الوطنية ماتت بعد الاحتلال وأن مصر الضعيفة لن تستطيع حراً كما نحت ضغطها الشديد فخاب ظنها هذا وهبت مصر بعد قليل لا لتطلب الدستور وحده بل لتطلب الدستور والاستقلال . طلبتهما على لسان

مجلس الشورى والجمعية العمومية غير مرة ، وعلى لسان صحافتها دائما ، وعلى لسان
 احزابها السياسية جميعا ، فعدل نظام محالس المديرية في سنة ١٩٠٩ ثم أنشئت الجمعية
 التشريعية بدل مجلس الشورى والجمعية العمومية سعيا الى استرضاء ذلك الطلب .
 ولكن هذا لم يكن الاستقلال ولا الدستور فبقى الطلب على حاله وبقى غضب النفوس
 يزداد ويتجمع الى ان انفجر في سنة ١٩١٩ فكان ثورة لم تعرف مصر أعنف منها
 من قرون وقرون . واشتدت انجلترا الى البطش فاشتدت مصر في المقاومة الى ان
 انجلت الحركة في اول سنة ١٩٢٤ ، وبعد خمس سنوات من تضحيات لانحصى في
 الارواح والانس والاموال ، عن الدستور نظاما للحكم ، فلم تأخذ مصر به جديداً
 وانما استردت ما كان لها في سنة ١٨٨٢ وما طلبته فأوشكت أن تناله في سنة ١٨٧٩
 وعطلت انجلترا الحكم النيابي مرة أخرى في سنة ١٩٢٥ وسلطت على مصر
 كل قوى الارهاب والكيد عسى ان تصرفها عن الدستور ، فصبرت مصر للصالح
 علما ونصف عام ثم خرجت خاطرة بالدستور .

واليوم ها هو الدستور قد عطل مرة ثالثة في ١٩ يولييه سنة ١٩٢٨ فمن ظن انه
 مستطيع ان يحميه من قلب مصر أو أن مصر تصبر طويلا على تعطيله فهو متعام .
 ماضيا هذا الطويل في طلبه

عبد القادر حمزة

٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨



مقدمة للمؤلف

عن نشر الكتاب في سنة ١٩٠٧

مذ ان وضعت المقدمة الموجزة السالفة الذكر حدثت أمور نذل علي ما يظهر على أن الساعة التي تكلمت بها قد حانت أخيراً فأصبح من مصلحة الجمهور ويدون أى خطر يشأ عن عدم التحفظ حيال الافراد أن تعلن الحقيقة بنهاها أمام العالم .

وفي عام ١٩٠٤ روجعت مسودات الكتاب الاصلية مراجعة تامة وصيغ القسم الخاص منها بمصر من جديد وطرف نزيد كثير من أهميته التاريخية . وذلك ان صديقى القديم الشيخ محمد عبيد الذى ذكر اسمه كثيراً فى هذا القسم اتخذ له داراً خلوية بالقرب من ضيعتي المسبة « الشيخ عبيد » بالمطرية واذ ذاك رأيته مشتبكا بمحادثته فى كل يوم وهي فرصة نادرة لم أضيعها سدى . فهذا الفيلسوف العظيم الذى نجعنا الدهر بوفاته فى الاسكندرية فى ١٦ يولية سنة ١٩٠٥ وهو يوم الذى كرى الثالثة والعشرين لضرب هذه المدينة بالقتال — بعد أن عيس له الزمان طويلا بلع فى سنة ١٨٩٩ مرتبة رفيعة بان صار مفتياً للديار المصرية فخطر له وقد أصبح حاصل على ذلك التفود الكبير من مواطنيه أن يروى لهم قصة حقيقية عن الحوادث التي وقعت فى عصره ، تلك الحوادث التي أصبحوا يسيئون فهمها والتي أحاط بها من الحرافات والاباطيل ما يبعد عن الحقيقة بعد السماء عن الارض

ولطالما حادثني فى ذلك الصدد وأسف لعدم وجود فراغ من الوقت لاتمام ذلك العمل التاريخي . فلما أخبرته بمذكراتي ألغ علي فى نشرها وقال إذا لم يتيسر النشر بالانجليزية فلننشر على الأقل بالعربية بمساعدته . ثم تعهد بمراجعتها معي ليتأكد أن القسم الخاص بالحوادث التي يعرفها قد روى بدقة تامة . وقد لبثنا منذ أول زيارة لى مصر صديقين حميمين وحليين سياسيين ولما كانت حديثه ملاصقة لحديثي كلن من السهل أن تناول ذكرياتنا الزجال والحوادث التي عرفناها . وهذه الطريقة أحد تاريج الحقة التي تهتم كلاما شكله الختامى . وقد

أسعدنى المظ بأعلامه والموصول منه على الترخيص بطبعه قبل أن يقصي موته الفحائي على المنع الوحيد للمعلومات عن الحركة السياسية التي أدت الى ثورة سنة ١٨٨١ وعن الدساتير التي عاقبتها في السنة التالية

وقد كانت وفاته حسرة جسيمة بالنسبة الى أيضاً ، وأخرت الى أحل غير مسمي نشر هذا الكتاب باللغة العربية . لا بل ان ما وقع من المواقف الى هذا العام جعل الوقت غير ملائم من الوجهة السياسية لنشر الكتاب باللغة الانجليزية . بيد أن حوادث سنة ١٩٠٦ وانسحاب اللورد كرومر من المسرح المصري غيرا الموقف تغييراً كلياً حتى صرت أرى انه لا ينبغي لي التردد أكثر من ذلك . ان واحي نحو مواطني على الأقل يقضي بالمبادرة . ونحن معاشر الانجليز بمحدثنا اليوم — من حيث معاملتنا مع مصر — إزاء نفس المشكلة التي أخطأنا فيها وحلطنا فيها ذلك الخلط الفاحش منذ حيل ، فإذا كلن المسئولون عن تسيير دفة أمورنا العمومية يريدون — كما قلت في المقدمة الاولى — « أن يعيدوا النظر من جديد في مركزهم السياسي والادبي في وادي النيل » بأمانة ولقائفة المجموع فينبغي قبل كل شيء أن توضع أمامهم المواقف المناضية على حقيقتها لا كما صورتها لهم طول هذه المدة الوثائق الباطلة الواردة في الكتب الرسمية الزرقاء . ولا اظن اني مبالغ اذا قلت أن المواقف التي وقعت في مصر منذ خمسة وعشرين عاماً لا يعرفها بالدقة اللورد كرومر نفسه ولا السير ادوارد غراي بل ولا السير اللورد غورست خليفة اللورد كرومر . وهذا بالرغم من اعتراف اللورد كرومر اعترافاً متأخراً بأن حركة سنة ١٨٨١ كانت حركة اصلاح وبالرغم من ثنائه المتكرر على الشيخ محمد عبده كما هو مذكور في تقريره السنوي الاخير . ويجب أن نذكر هنا أن اللورد كرومر لم يكن في مصر في خلال أي دور من أدوار الثورة الميرانية وانه كلن الي عهد قريب يظن أن « الحقيقة الرسمية » هي وحدها الحقيقة الواقعة

فلهذا السبب عولت نهائياً علي نشر هذا الكتاب وأثمت فيه نصوص مذكرياتي بالصفة التي أتممتها بها في عام سنة ١٩٠٥ . وقد أقرها صديقي الاستاذ فيما عدا بضع فقرات موحزة يستحسن عدم نشرها لانها ملسة لشخصية أفراد

لا يزالون على قيد الحياة . وهي فقرات يمكن الاستغناء عنها دون أن تؤثر في قيمة الكتاب التاريخية . وبمكسي أن أقول باخلاص اني جعلت نصب عيني في كل ما كتبه هنا كشف الحقائق كما عرفها مبتغياً بذلك اصلاح الابطال التاريخية

وإذا كان ثمة سبب آخر يجعلني على الشر هو راجع الي وعد قديم أعطيته علناً في « مجلة القرن التاسع عشر » في عددها الصادر في سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتعدت فيه بأن أتمم يوماً ما دفاعي الشخصي عن الحوادث المعاصرة لي ، وذلك أني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ راعيت خاطر المسر علاستون وأملت أن يصلح حتى في تلك اللحظة التأخرة الخطأ الذي ارتكبه ضد الحرية في مصر . فأمسكت — في وجه مطاعن عديدة لا تظفر لها — عن تروث نفسي وإراحة الستار عن الامور الخفية التي كانت تترر أعمالي . لأنه لم يكن في الاستطاعة أن أبرئ نفسي تماماً دون أن أديم حقائق تعتبر سرية من الوجهة العية ولذلك آثرت السكوت .

يبد أن هالك حدوداً لواحب الصب الذي يلزمه الانسان خيال مسلك الحال الصوميين في الامور العمومية . واتي لوائح من ان احتجاجي نحو ربع قرن سيكون شعبي لدي المنصفين ادا هم رأوني الآن أما الى الطريقة الوحيدة الممكة في سبيل الدفاع عن نفسي وهي كشف الستار بالتفصيل عن رواية الدسيمة المالية والصعب السياسي كما مثلت أمامي وقتئذ مع تقريرها بالوثائق المعاصرة التي ما زالت في حيازي . فاذا مست نصري بآني هذه بعض ذوي الحيليات لجوابي هو أن عدم صراحتهم هو الذي جعلني على التكلم ، اذ في خلال هذه السنين الطويلة لم يتقدم للدفاع عني ولو بكلمة واحدة شخص ممن عرفوا الحقائق معرفة تامة



الفصل الاول

مصر في عهد اسماعيل

كانت زيارتي الاولى لمصر في شتاء سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ حيث قضيت بضعة أشهر متنقلاً في جهات النيل الادني . وقبل أن أشرح هواحي في هذه المرة الاولى التي تعرفت فيها بالمصريين بحسن ، خدمة لهم وخدمة للقراء الاحاب على وجه العموم ، أن أقول كلمتين عن حياتي السابقة من حيث علاقتها بالشؤون العامة . وبذلك يستطيعون أن يعرفوا موقفي بين أبناء وطني بالضبط فيساعدهم ذلك على أن يفهموا كيف اني بعد ان كنت مجرد مشاهد لما يحدث في بلادهم أصبحت تدريجاً أهم بلادهم سياسياً الى ان كل لي في النهاية صلح كبير في الثورة التي حدثت في مصر بعد مرور ستة أعوام على تلك الزيارة . ومع اتني وقت هذه الزيارة لم أكن أتجاوز الحقة والثلاثين ربيعاً فاني كنت قد رأيت الشيء الكثير سواء فيما يخص بالرجال أو بالشؤون العامة .

بدأت مبكراً في الحياة ، ونظراً لانتسابي لاحدى الاسر ذوات الصياع في جنوب إنجلترا وذوات التقاليد المحافظة الشديدة ، ثم نظراً لانني كنت على اتصال بزعماء المحافظين في ذلك العهد ، أدخلت في سن الثامنة عشرة في الخدمة السياسية أولاً بصفة ملحق بالوكالة الانجليزية في أثينا حيث كان « الملك أوتو » لا يزال على عرش اليونان وظللت فيما بعد — لمدة اثني عشر عاماً — متنقلاً بين الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها فتعلمت بعض الشيء مما يختص بهتمتي وقضيت الوقت في اللهو وأنحاء الاصدقاء . وهكذا أقف فيما بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٩ بصحة أسايح في الاستانة على عهد « السلطان عبد المجيد » ثم لبثت عامين في ألمانيا أيام كانت لا تزال مجموعة من ولايات متفرقة ثم عاماً في أسبانيا أثناء حكم « الملكة ايزابيل » و عاماً آخر في باريس أيام بلغ « الامبراطور نابليون الثالث »

خزوة المجد والعظمة كما أمنت ربحاً قصيراً من الرمن في سويسرا وفي أميركا الجنوبية وفي البرتغال . وقد كراتى السياسية عن هذه اللاد لذينة ولكن ليس لها أهمية خاصة فضلاً عن أنها حالة من كل أهمية سياسية

وفي السنوات التى أعقبت حرب القرم كانت سياستنا الإنجليزية التى أغصبت الليالين منا الى المحازقات الاجنبية على المعكس مما أصعت عليه بعد ذلك . فقد كلن قوامها السلام ونجى العدوان والترفع عن المكروالحنث اللدبر أحرر لها شهرة الدهاء والفطة على حساب الشرف والامانة . فالتحمس الرسمى لم يكن مرغوا فيه فى الخدمة العمومية فضلاً عن ان فصيحة أى سياسى حديث السن فى بطر وراة الخارجية كانت لأحتجاج الى أكثر من توحيه سؤال جديد بشكل يتطلب الجواب العلى . وقد أصمتنا وراة الخارجية ذلك بمن معاشر الملحقين وصفار السكرتيرى بصراحه تامة كما أنها حظرت علينا التدخل فى سياسة أى بلاط أرسلنا لتمثيل بلادنا فيه . بل لتدطلب اليا أن نجعل أنفسنا مرضياً عما من الوجهة الاجتماعية وأن قضى الوقت فى اللهو — باحتشام اذا أمكن — ولكن شكل غير جدى على كل حال . ولا أكون مبالغاً اذا قلت اننى فى طول الاثنى عشر عاماً التى سلختها فى الحياة السياسية لم يطلب الى مرة تأدية أى واجب دى قيمة سياسية ولو طفيفة . فهذا النظام المثبط للمزام زهدنى — أثناء وجودى فى الخدمة — فى السياسة ، فلم أشتغل بها ولم أهتم بها اهتماماً جدياً الا بعد ذلك بفترة طويلة وفى ظروف مختلفة جاءت كلها عن طريق الاتفاق . وكانت أعمالى بصفتى ملحقاً منحصرة فى اللهو والاختلاط الاحتماعى والادب . فنظمت قصائد وكتبت الرسائل وساعدت سياسياً فى احدى الروايت الجديدة التى حدثت فى أوربا وقتئذ ولكننى فعلت ذلك بصفتى مشاهداً لا بصفتى ممثلاً ، أى كرجل ممن لا يسبح لهم بالاطلاع على ما ورله الستار . وعند اقترائى فى سنة ١٨٦٩ الذى أعقبته وفاة شقيق الابره وصبرورنى الوارث الوحيد لاملاك الاسرة فى مقاطعة سسكس ، اعتزلت الخدمة العمومية غير آسف والتفت الى بعض المسائل الخصوصية التى كانت أهميتها عندى تفوق كل شيء آخر

ومع ذلك ظلت علاقتي المبكرة بوراة الخارجية — ولو انها لم تكن لتحدد مرة أخرى بصفة رسمية قائمة على أسس من الصداقة . وحسبك انها علاقة رحل اعزل الخدمة بشرف . وقد أفادني فيما بعد هذه العلاقة مضاعفا اليها تحاريبي في اللطاف الانجليزي والمواضع الاجنبية فائدة لا تقدر عد ما رأيت نفسي مرة أخرى مدفوعا بطريق الاتفاق في تيار الشؤون الدولية . فبواسطتها حصلت على معرفة أداة السياسة الخارجية معرفة دقيقة . وأصبحت على اتصال بالاشخاص الذين كانوا يدبرون هذه الاداة . وكان لي أصدقاء عديدين بين هؤلاء الاشخاص وبذلك رأيتني في مبدأ حياتي العامة تجمعني الصداقة الرسمية « بالورد كرى » الذي ظل عدة أعوام يدبر دفة السياسة في وراة الخارجية و « بالسير هنري درموند وولف » و « بالسير فرانك لاسل » و « بالسير ادوارد ماليت » و « بالورد دوفر » و « بالورد فيفان » و « بالسير ريفر ولسون » وكلهم كان لهم صلح في تكوير التاريخ المصري فيما بعد . و « بالورد ليتون » الذي صار حاكما عاما للهند في الصين التي سبقت أزمة سنة ١٨٨١ مباشرة . كما ارتبطت الصداقة بيني وبين بعض الساسة الاجانب ومنهم « المسيو بيلدوف » سفير روسيا في الاستانة و « البارون مبرلي » رئيس وزراء النمسا المتوفى « والمسيو دي ستال » سفير روسيا في لندن لمدة ٢٠ سنة . قبل زيلوتي الاولي لمصر بزمان طويل كانت صداقتي مع جميع هؤلاء الرجال صداقة متينة . فاذا تكلمت عنهم وحكمت عليهم فانما أتكلم عن دراية تامة بأخلاقهم الشخصية جميعا . ونظراً لانني كنت كأني أحد رجال الكهنوت لم يجز علي بسرعة الرياء والتفاق اللذان كانا من السلع التجارية المعتادة في سوق السياسة ولم انخدع في عمل من الاعمال فأحسبه سياسة عمومية وهو في أغلب الاحايين سياسة شخصية . ولا يخفى ان الاعتقاد السائد بين الذين ليس لهم تجارب فردية بأعمال السياسة (دبلوماسيكا) هو ان الحوادث العظام في تاريخ العالم نتيجة التنظيم السياسي المختن وليست ، ككلهم الواقع فعلا في كثير من الاحوال ، مرتبة على مصائدات غير متطرة وعلى شجاعة أو ضعف — وأحيانا على ميل شخصي —

لدي الاعوان الموطأ بهم القيام بعمل من الاعمال

في خلال السنوات الاولى التي أعقبت اغتزالى الخدمة شغلت نفسي
 في الدخايلة. ولم يكن الا عن طريق الاتفاق - كما قدمت ابي بدأت أهتم
 بالسيلة . واذ رأيت سبي في سنة ١٨٩٣ مهوك القوي ، وفراراً من تحمل
 فصل الربيع الذي بدأ متأخراً في انجلترا ، قررت ان أقوم أنا وقرينتي بأول
 سيلة مشتركة لنا في البلاد الشرقية . فذهبنا عن طريق بلغراد والدانوب الى
 لاسانة حيث وجدنا (السير هري اليوت) في السفارة . وهناك جددنا تعارفنا
 بالاصداق. الآخرين المتصايين بها ومن بينهم (الدكتور ديكسون) الذي سألتكم
 عنه فيما بعد بمسابقة مصرع السلطان عبد العزيز والذي عالمي بشقة تامة في نوبة
 شديدة من نوبات دات الرئة والذي أصبحت أشعر نحوه بميل كبير . وكانت
 الامبراطورية العثمانية تتمتع وقتئذ بفترة هدوء نسبي قبل العاصفة التي قدر أن تهب
 عليها بعد ذلك فلم أحفل كثيراً بتابعها الداخلية ولكن عواطفى كانت في ذلك الوقت ،
 ككل عواطف عالية الانجليز وقتئذ ، مع الانراك لامع المسيحيين العثمانيين . وبعد
 البغلي من المرض ابتعت ستة براذين في سوق الخيول باسلابول ثم عبرنا معها الى
 السكودار حيث قضينا ستة أسابيع لذيذة من فصل الصيف متقلين بين التلال وحقول
 الخشخاش الاناضولية بعبداً بقدر الامكان عن الطرق المطروقة . ورأينا في ذلك
 الوقت من حياة الزيف التركية بقدر ماسمح به حملنا التام بلغة البلاد . ولاحظنا
 - كما لاحظ جميع السياح - طيبة الاهالى وأمانتهم وسوء حكومتهم . والذي
 جعلنا نلاحظ ذلك سلوك رجال الضبطية الموكلين بحراستنا نحو الاهالي فانهم كانوا
 يعاملونهم كما لو كانوا جنوداً أجنبية أغارت على البلاد .

ومع ذلك تبينا ان تركيا الريفية كانت بالرغم من كل هذا الارهاق المالي
 تتمتع بفسط كبير من الحرية الشخصية كالحرية الموجودة في انجلترا المكتظة
 بشرطتها ومأموذجها . والحقيقة ان الشبكة الادارية ايما ذهبت في الشرق وجدتها
 واسعة الثقوب كثيرة الخروق بحيث نستطيع صفار الاسماك الافلات منها ولا يسمع
 الانسان في الاوقات العادية باصطهاد الفقراء والمعوذين . واني لاذكر حكاية
 قصصنا علي الفلاحين الذين حاولوا يشكون الى بواسطة الترجان الارمني مايجدون

من تشدد الحكومة في معاملتهم . فقد أجبرتهم ان ثمة بلاداً أسوأ حالاً من بلادهم بحيث اذا روى أحد الافراد في تلك البلاد ليلاني منخرج إحدى الطرق بجمع قليل من الاخطاب لطهي طعامه عرض نفسه لخطر الوقوف امام القاضي في اليوم التالي بل للدهاب الي السجن . واني لاذ كرحيداً ان سلمي أبوا أن يصدقوا وجود مثل هذا الاستبداد في أي بلد من بلاد العالم وكان الاستنتاج الذي وصلت اليه من هذا المادتين البسيط أول خاطر سياسي اتذكره بالنسبة للاشياء الشرقية

أما الشتاء التالي — أي الأشهر الأولى من سنة ١٨٢٤ — فقد قصيناه في بلاد الجزائر . وهنا اشتركنا في منظر آخر حولنا فرصة للتفكير ، وهو منظر استعبد شعب شرقي استعبداً عيماً بواسطة شعب غربي . فان الحرب السبعينية التي حرحت منها فرنسا أغقبتها ثورة عربية في بلاد الجزائر امتدت ألسنتها حتى بلغت أطراف العاصمة نفسها وعدت تبدأ الاهالي المملون بحروب عن وسائل القمع المسيحية . وقد ظهر هذا القمع باشع مظهره في اخفات التي امتدت الثورة اليها أي في المستعمرة ا قيقية حيث انتهزت الادارة الملكية فرصة اشتعال الثورة لمصادرة أملاك الاهالي والتجيز للمستعمرين الاحاب على حساب أصحاب البلاد . والزعم من حيي الشديد لفرنسا (وقد كنت مقباً في باريس خلال الحرب السبعينية وكنت شديد التحمس في الدفاع عنها أثناء الحصار) رأيت عواطي كلها في صف العرب . أما في الصحراء — فيا وراء حال الاطلس — حيث ساد الحكم العسكري فقد كانت الاحوال أحسن نوعاً لان الضباط الفرنسيين هناك كانوا على العموم أكثر تقديراً لصفات العرب النبيلة وأشد احتقاراً للحالة المختلطة الاوربية — الاسبانية والايطالية والمالطية والفرنسية — التي تتكون منها « الجالية » . كذلك كانت القسائل العسكرية في الصحراء في حالة رخاء مادي ومحفظة بقسط كبير من غفر الاستقلال القديم مما لم يبع القادة العسكريين سوى احترامه . وقد اختلسنا النظرات لأولئك الاعراب وهم في « جبل عمور » وأصرنا بطريقتهم القوية في الحياة فسرنا كل ما رأيناه منهم . ثم أصعنا الى أعانهم في امتداح بطلمم الراحل « عبد القادر » ، ومع أننا لم نعلمها نظراً لجهلنا لهم فقد أعجبناهم

وأشقتنا عليهم . ولم تقتنا ملاحظة المارق الكبير بين حياتهم الدينية
تصحبهم جهالهم وجيادهم ، وهي حياة تقاليد عالية مملوءة بدكرى أعمال البطولة
وبين الأعطال الاخلاقى الدينى ، للمستعمرين الفرنسيين وحاربهم ودور الحزبة .
كما أنار لنا ذلك المطر عاطفة الفص لصد التناقض بين هؤلاء الاخبرين
سادة البلاد وأولئك الذين يعتبرون خدامهم . وكان هذا بمثابة دروس سياسى
جديداً أثر فى أشد تأثير ولو أنى ظلت اعتبره أمراً لاعلاقة له بشخصى بحال
من الاحوال .

ذلك كل التدريب التحصيري فى حياتى السياسية وتلك كانت طروفة
الاساسية عند ما درست مصر أول مرة كما قلت فى شتاء سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ .
والمسألة الوحيدة الاخرى التى قد نستحق شيئاً من التفسير والايضاح وخصوصاً
ههنا غير الانجليز ، وهي مسألة ستقدروا أوربا قدوها ، هي أن قرينتى «اللادى آن
يلت » التى صحبتى فى سائر هذه الرحلات كانت حفيذة شاعرنا الوطنى الطائر
الصبت (القورد يرون) وبهذا ورثت عنه شيئاً من العطف على قضية الحرية فى
الشرق وهو عطف ترك أثره فى أعمالنا اللاحقة فقد بدا لنا فى أثناء وقوع حوادث
سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ . ان مؤازرة الحركة العراية يعتبر عملاً مجيداً كالذى مات
فى سبيله يرون فى سنة ١٨٢٧ . ولم يدرب بخلد أحد منا نحن الاثنين حتى الآن —
أى فى سنة ١٨٧٥ — ان زيارتنا لمصر ستكون شيئاً غير مجرد رحلة لذيذة أخرى
فى بلاد الشرق . وكانت خطتنا عند مفادرة انجلترا أن ندخل مصر من الجنوب
عن طريق سواكن وكسلا والنيل الادرق ثم نسافر شمالاً الى القاهرة فندخلها فى
الربيع . ولكن هذه الخطة لم تتحقق — نظراً لسير الحملة الحبشية الذى كان وقتئذ
لغير مصلحة مصر — ولم يتحقق سوى حزم واحد من الخطة الاصلية . فبدلاً من
النزول فى الاسكندرية كما كانت العادة المتبعة حينئذ دهننا من طريق القنال الى
السويس حيث وطئت أقدامنا الاراضى المصرية أول مرة

وكل ما أتذكره وقتذاك عن مصر هو اختراقنا لبحيرة المنزلة فى آخر يوم فى
سنة ١٨٧٥ — وكانت وقتئذ وطناً آمناً لطبوع لا حصر لها — وهو منظر عجيب حقيقة

للحياة الطبيعية المسرية في طريقنا إلى نقطة واقعة على القناة شمالى الاسماعيليه . فلهذا ما كان أنجح ذلك المنظر ! ان بحيرة المنزلة كانت وقتذاك ان تكون منطقة غدرا . وقد فاقت أسراب البشروش والبط والجمع وأي فردان التي غطتها كل ما يتصوره العقل عن كثرتها . بل ان المياه أيضا ، مياه البحيرات ومياه القناة نفسها ، كانت غاصة بالامماك ذوات الحجم الكبير حتي أن سفيتنا اصطدمت بالعكبر منها أثناء احتيازها البحيرة بينما كانت من جهة أخرى عرصة للبراة والاغربة التي كانت واقعة على العوامات والساربات تربصا بمرينها . وأحسب أن انسياب مياه البحر أول مرة على أراض لم تكن من قبل مغطاة بالماء مكن السمك من التمتع بترية ذات خصوبة شاذة وهذه مزية فلت أوانها منذ ذلك الحين ولكن الشيء الثابت هو أن السمك والطير أخذوا في التلاشي بعد ذلك بسرعة حتي أنه لا يمحتمل على ما يظهر أن يتمتع أعين السياح ثابته بالمنظر البديع الذي شهدناه في ذلك الشتاء .

ثم زلنا في السويس في الايام الاولى من عام ١٨٧٥ فكلنا أول ما قابلنا بنا الانهزام الشنيع الذي نزل بالجيش المصرى في بلاد الحبشة . ولم تكن تفاصيل الهزيمة قد عرفت بعد ولكن يظهر أن سبع اورط أو فرق من جنود الحديد قد أيدت على بكرة أبيها وتناقلت الاسن اشاعة فخواها أن ابن الحديد - الامير حيننا - وقع في الاسر وان العدو شوهه تشويها . وهذه اشاعة ظهر كذبها فيما بعد لان الامير ، وكان صيبا في ذلك الحين ، خطف فقط من ساحة القتال في جهة (قور) في طليعة النهار قبل الانهزام كما حدث لنضرب باشا قائد الجيش المصرى الذى كان الامير في عهده . وقد (لورنج باشا) القائد الامريكى حياته فعلا مع بضعة آلاف من الجنود . وبهذه الهزيمة انتهت أحلام الحديد واسماعيل في انشاء امبراطورية شاسعة الاطراف على ضفاف النيل . وأمرت هذه الهزيمة في خيلتنا الصغيرة فجعلت سفرنا بطريق كسلا ضربا من المستحيل علينا وقضت بان نساقر عن طريق آخر أقل خطورة ألا وهو طريق الوجه البحرى وكنا شديدى الرغبة في رؤية مصر باقل كلفة مما يراها به السائح العادى .

وظفر لأنه كانت لدينا الخيام اللزومة للرحلة الطويلة استأجرنا حاملاً في اسويس وقصدنا القاهرة عن طريق القوافل القديم . وليس من الضروري أن أقول شيئاً كبيراً عن رحلتنا في الصحراء . فالأيام الأربعة التي قضيناها فيها مع الجمالين الببدو كانت أول درس عملي لنا في اللغة العربية — لاننا في بلاد الحجاز كما نحت رحمة المرحوم — كما أنها وضعت أساس علاقتنا مع القبائل في صحراء بلاد العرب ، وهي علاقات أصبحت فيما بعد لذيذة وممتنة . ثم وصلنا إلى القاهرة في صبيحة اليوم الخامس

فندووصلنا إلى العباسية حينئذ رصاصات الخنود المصرية وهي في أثناء الفرس لاننا ضربنا الخيام في الظلام وبدون علم منا وراء أهدافهم مباشرة . وكانت رماية الجنود غير محكمة فلم تحدث إصابة . ولم يخطر ببالنا وقتئذ أننا قد نهم يوماً ما بأفعال أولئك الخنود بصفتهم جيشاً أو أن تتجه إليهم يوماً ما عواطفنا في حرب طاحنة ضد مواطنينا . وكنت وقتئذ ممن يؤمنون ولكن في غير تحمس بالعقيدة الانجليزية الشائعة ألا وهي أن لاجنجلترا في الشرق مهمة مساوية وأن حروبنا هناك لم تكن الا من أجل أعراض تزيهه صالحة . ولم يكن شيء أبعد عن ظني من أن نكون نحن معاصر الانجليز مجرمين مانهلك حرمة العدالة بالسلاح لمجرد أهوائنا ومصالحنا الانانية

كما لا ينبغي أن أقول شيئاً بالتفصيل عن القاهرة التي اجتازناها ذلك اليوم دون أن نمكث فيها غير بضع دقائق للسؤال عن بريدنا في دار القنصلية . وكلن غرضنا أن نري الجهات الريفية لا أن نضيع الوقت في مدينة هي أوروبية في طريقة حياتها . وقد ظننا أننا سنجد فيما وراء النيل مباشرة أوصافاً موازنة لضرب خيانتنا فيها ولذلك واصلنا المسير ولم نهم بوصول الجمالين إلينا كي نخط الرحال ونذهبهم وجهاً لم يعودون إلى بلادهم كما لم ندرك أننا كنا نسيء إليهم بمحملهم على تقص العادات المتبعة عند القبائل التي يحظر عليهم بصفهم من بدو الصحراء الشرقية تحطيتهم إلى الصحراء الغربية . وبالرغم من إلحاحهم واصلنا المسير عن طريق كوبرى قصر النيل ومن ثم

الى طريق الحيزة . وحينئذ لحنا الالهامات عن بعد فأمعنا نحوها بتلف واشتياق ولم يمنعنا من ادراكها الاختفاء الضياء الذى خيم علينا وقت غروب الشمس بالقرب من قرية « الطلية » الصغيرة التى ليس بينها وبين الالهامات الا قرية أخرى . وهناك حططنا الرحال أول مرة على تربة النيل السوداء . ولم تكن قد جفت بعد من فيضان الحريف . فتابلنا أعالي « الطلية » الاجواد بكل اكرام كما هي عادتهم . ومع أنهم يعيشون فى طريق السائحين إلى الالهامات وقد اعتادوا أن يعاملوا السائحين الفرنسيين كما لو كانوا فريسة لهم فان نزولنا فى قريتهم قضاء سواد الليل أعطانا صفة الضيوف . ولم يحدث قط أن وقف بمنزلهم شخص واحد من جميع الاوربيين الذين مروا بقرتهم طول السنين الحالية . ولذلك كانت علاقتنا معهم ودبة من بداية الامر . وقد خدمتنا هذه الصدقة فى تعريفنا إلى قرويين آخرين عند ما استأنفنا المسير من جديد بعد قضاء بضعة أيام من هؤلاء . ولم يكن أماننا فى ذلك الوقت إلا للملك حيث كنا لان الجمالين رفضوا بتاتا مراقبتنا خطوة أخرى فدفننا لهم أجودهم قفولوا راجعين إلى ديارهم تصحبهم جمالم فتعين علينا استئجار جمال أخرى . وعلى ذلك قضى القدر بأن أقضى الاسبوع الاول فى مصر باحثا متعبا عن الجمال فى أسواق القرى المجاورة ثم اشترت السروج والقربوساثر المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة

وكن الفلاحون فى ذلك الوقت فى أشد حالات الضنك . وكان هذا هو العام الاول من الثلاثة الاعوام الاخيرة المروعة فى حكم الخديو اسماعيل . وكان المنقش اسماعيل صديق المشهور لا يزال فى أوج عزه وحلة القراطيس الا جانب مجارون مطالبين بدفع الاتساط « الكوبون » والمجاعة على أبواب الفلاحين . وكان من الامور النادرة فى تلك الايام أن يرى الانسان شخصا فى الحقول وعلى رأسه حمة أو على ظهره شيء . أكثر من قيص . وحتى فى ضواحي القاهرة وبلا أكثر فى الفيوم التى يمسها بوجوها شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يمكنني أن أقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عبادة . وأينا ذهبا كانت

للأكل كذلك . وعصمت مدن الأرياف في أيام الأسواق بالنساء اللاتي أتى لبيع طلابهن وحلبهن النقضة للمرايين الأروام لان جامعي الضرائب كانوا في قراهن والكرباج مشهر في أيديهم . فابتعنا مصوعائهن الزهيدة وأضفينا الى قصصهن واخترطنا معهن في استئصال اللعنات علي الحكومة التي جعلتهن عرابا . ولم يكن هننا وقتئذ — أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم — ذلك الضغط المالي الآتي من أوروبا والذي كان السبب الحقيقي في هذا الضيق . وعلى ذلك حاربناهم في لقاء اللوم كله علي اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يحارمنا شك في أن الانجليز أيضاً يجع عليهم جانب من اللوم

وكان القرويون في متحي الصراحة . وكان الانجليز وقتئذ محبوبين في سائر البلاد الاسلامية لان الناس كانوا يظنونهم صديقين عن الدسائس السياسية المعروفة عن الفرنسيين وكانوا يعتبرونهم أكثر من هؤلاء أمانة وزاهة في معاملاتهم التجارية . وفي الواقع أن الانجليز كانوا في مصر علي النقيض مما كان المخاطرون من حثالة الام الواقعة علي شواطئ البحر الابيض المتوسط كسلفي القود الطليان والأروام والمالطيين الذين كانوا يمتصون دماء الحياة من الفلاحين المسلمين . وكانت ثمة إشاعة بلفت القرية عن احتمال تدخل من جهة أوربا وكانت فكرة التدخل غير مكروهة علي شرط أن تكون انجليز هي التي تفعلها . وكانت الحالة مما لا يمكن احتمالها ولذلك كان الأهالي الجائعون ينظرون بعين الانبهاج لاي تغيير أملاني أن يكون فيه خلاصهم . وقد ظهرت انجليز في نظر الفلاحين وهم في حالة تبول فعلي وبعد أن جردوا من أمتعتهم وضربوا حتى كادوا يموتون جوعاً بمظهر العناية المحنة والصدقة القنية البعيدة عن الاغراض المنصبة للمطلوبين والصدقة للفقيرين فكانت في نظرم صورة طبق الاصل مما كان عليه معظم السالحين الانجليز الذين كانوا يروحون ويفدون وقتئذ وأيديهم ووجوههم طالعة بعلامات العطف . وهكذا لم يحارمهم الشك في الاطاع التجارية الهائلة التي دفعتنا — كأمة الى اعلان العدوان علي الشعوب المستضعفة في سائر أنحاء العالم

وفي عام ١٨٧٦ كت أنا أيضاً كما قدمت — ممن يؤمنون بانجلترا كما

كنت أدبى بالعقيدة الدائنة وقتئذ عن حكمها في الشرق وكان جل ما أتعاه
 لمصر أن تشترك مع الهند - التي لم أكن رأيها بعد - في التمتع بجمايننا .
 وقد كتبت وقتئذ في مدكراتي مانصه : « إن المصريين شعب طيب أمين ككل
 شعب حر في العالم . نعم كل المصريين أي الذين لا يترهبون في الوظائف العالية
 لأنني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء . فكل المصريين القرويين لديهم كل الفضائل
 اللازمة لحمل الجماعة سعيدة ناعمة البال فهم عاملون مبنهون طائعون للقوانين ثم هم
 فوق كل شيء مستقيمون لا فيما يختص بالشروط والكحولية فقط بل في كل
 الملا التي تجمع إليها الطبيعة البشرية . فهم ليسوا مقامين ولا مشاغين ولا محبين
 للدعارة والتهتك . وهم يحبون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم . وهم آباء وأبناء صالحون
 كثيرو الثقة على العجاوات والزمي والتسولين والمعتوهين . وهم خلوا من كل
 نعصب جنسي وقد يكونون خلوا من التعصب الديني أيضاً . وغلظتهم الكبرى
 هي حب المال ولكنها غلظة يستطيع دهاقنة الاقتصاد السياسي التسامح فيها . وقد
 يصعب أن يعثر الإنسان في أي جهة على شعب أكثر استعداداً من المصريين
 لأدراك الغاية الاقتصادية لا كبر سعادة تشمل أكبر عدد . فكل مطالعهم هي أن
 يعيشوا وبدعوا غيرهم يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بنتائج أعمالهم وأن
 يبيعوا ويشترى بدون تدخل وأن يفلتوا من الضرائب . ولقد أسيتت معاملتهم
 وذاقوا الأمر من منذ قرون عديدة دون أن تتغير طبيعة قلوبهم . وهم ليسوا
 بالتحسين في الوطنية ولا بالتصميم ولا بالانسياخ إلى درجة الخيالات .
 ثم أنهم خالون من المعايير الشائنة فكل رجل منهم يعمل لنفسه أو لأمرته
 على الأكثر أما فكرة التضحية الشخصية للصالح العامة فغير مفهومة لديهم
 ولكنهم بريئون من الدسائس لاستعداد أقرانهم . وبالرغم من الاضطهاد
 الفطيع الذين هم ضحيته لم نسمع كلمة ثورية وليس ذلك ناشئاً عن أنهم
 يقدسون حكمهم تقليدياً خرافياً بل لأن الثورة ليست في طبائعهم أكثر
 مما هي في طبائع قطع من الفم . وأنهم يحبون ملكة احتلوا أو البابا أو ملك

التي بلهف منساو لو أن هؤلاء جاءهم نعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار
قرش في الحنية

تلك كانت خواطري الاولى عن مصر في بد. عام ١٨٧٦ وهي صحيحة في
مجموعها غير أنني كنت بعيداً عن نمو الافكار السياسية في المدن فلم أعرفه . كما
أتى لم أفهم تأثير المسألة الادوية في المشاق التي كلن الفلاحون يشكون منها . ومع
ذلك رأيت عند عودتنا الى القاهرة في شهر مارس شيئاً مما يجري وراء الستار .
لأن لجنة « المستركيف » كانت قد وصلت الى ايان قفينا وحطت رحالها في
لحد القصور الواقعة في شارع شبرا . وقد عرفت من أحد أعضائها « فيكتور
بكلي » الموظف بوزارة الخارجية والذي كان صديقاً قديماً لي ومن « الكولونيل
ستاونتون » قنصلنا العام شيئاً عن الشؤون المالية . وانضم الى أعضاء اللجنة المالية
فيها بعد صديق آخر هو « السير ريفرز ولسون » الذي قدر أن يلعب دوراً مهماً
في الشؤون المصرية . ولست بحاجة لأن أثبت هنا تفصيلاً التقرير الذي وضعوه عن
حالة مصر . وقد يساعد على فهم المسألة أن أذكر بالاجمال كيف تألفت هذه اللجنة
التي هي الاولى من نوعها

فقد بدأ حكم الخديو اسماعيل في وقت بلغ فيه رخاء مصر المادي درجة
عالية . وكان سلفه سعيد رجلاً متنبهاً قدم للفلاحين كل ضروب التشجيع
في المسائل الزراعية . وكان قد تنازل عن دعوي الخديو في أن يكون وحده
مالك الاراضي في وادي النيل واعترف بحقوق الملكية للأهالي وقضي بأن
تكون ضريبة الاراضي زهيدة أي ٤٠ قرشاً عن الفدان . فأدى ذلك الى رخاء
الاهالي بصفة عامة وأصبح الفلاحون في كل جهة بعد تحريرهم من حالة العبودية
القسدية التي وضعهم فيها باشوات البراكية يدغرون الاموال . أي أن مصر في
نهاية حكم سعيد لم تكن قط أسعد ولايات الامبراطورية العثمانية بل كانت من
الوجهة الزراعية في طليعة الام الناهضة في الشرق . وكان ابرادها كل أقل مما هو
الآن — لا يزيد على أربعة ملايين من الحيهات — وكان يجمع بمتهي السهولة

ثم كانت صفات الادارة زهيدة جداً وكان الدس الاهلي لا يتجاوز ثلاثة ملايين من الخبثات . ثم أن سعيداً في أواخر حكمه مسح امتيازات غير قليلة لبعض الأفاقيين الاحانب بشروط أصبحت تدريجاً حلاً ثقيلًا علي عاتق الدولة ولكن الرخاء العام في البلاد كان كبيراً الي حد أن هذه الشروط مما يحتمله نظام الضرائب الخفيف حتى أن الخديو كان لديه بعد دفع سائر الصفقات السنوية ما لا يقل عن نحو مليوني جنيه لمصروفاته الحرة . وفي الواقع لم تشهد مصر في جميع أطوارها مثل ذلك العصر الذي بلغ فيه الاهالي ذلك الحد من الرخاء المادي حتي أن الفلاحين أصبحوا يسونو « المصراع الذهبي » فكان اسماعيل عند توبته العرش في عام ١٨٦٠ أوسع الامراء المسلمين ثروة وحكماً في بلد يعتبر في مقدمة البلاد الاسلامية رخاء ويسراً

وكانت أخلاق اسماعيل قبل أن يتبوأ العرش أخلاق رجل واسع الثروة يتبع في ادارة ضياعه الشاسعة في الوجه القبلي أحدث الانظمة الزراعية . وكان موضع إعجاب السامعين الاحانب بسبب الآلات الزراعية التي أدخلها والمصروفات التي جعلها تعود بالفوائد . ومما لا ريب فيه أن اسماعيل له أكثر من النصيب العادي من الذكاء الطبيعي والاستعداد التجاري اللذين اشتهرت بهما أسرة محمد علي . وكان اعتلاؤه العرش موضع دهشة له لأنه لم يكن ولي العهد المباشر الي ما قبل وفاة سعيد بيضعة أشهر وكانت آماله آمال رجل من . وربما كانت نفحة القدر هذه نفحة غير متظرة في أول حكمه هي التي دفعت الي الاسراف . واذ كان مبالاً بطبيعته الي المضاربة وشديد الشره في جمع الاموال فقد حسب -- علي ما يظهر -- أن ميراثه هذا وتمتعه الفجائي بهذا السلطان المطلق ليس الا وسيلة لتكديس ثروته . وفي الوقت نفسه كان شديد العجب ولماً بالله فصاع صوابه بهذا المركز السامي وبالفرصة التي أصبحت سانحة له كي يظهر أمام العالم بمظهر الامير الواسع الثروة . وفي أال أحاط به الملقون على اختلاف أنواعهم من وطنين وأحانب فوعده أن يجعلوه من جهة أعبي المائيس ومن جهة أخرى أعظم الحكام الشرقيين شأنًا .

رحانه ذكاه ومهارته التجارية في اصفائه لهؤلاء الماصحين الذين جعلوه آله في
أبدتهم . وكلت قبل تبوئه العرش قد حنق مبه جمع الاموال بالطريقة التي كانت
الاموال تجمع بها وقتئذ في مصر ثم انه كان قد تربى تربية أوربية — وهي من
نوع التربية التي يحرزها الشرقيون في شوارع باريس — أي تربية سطحية فيما يخص
بالامور الحديثة فكانت هذه التربية كافية لاقتناعه بمقدرته على مقابلة أشرار البورصة
بنفس سلاحهم . ولكنه لسوء الحظ ضل البيل في كلا الماين .

وكانت مناورته الاولى بسيطة وناححة في آن واحد . وذلك أنه وجد الاراد
للتجمع من ضريبة الاراضى قليلا فرأى أن يزيده برفع الضريبة بين آن وآخر فرفعها
من ٤٠ قرشاً على الفدان — وهو المقدار الذي كان معمولاً به عند تبوئه العرش —
الى ١٦٠ قرشاً ولا تزال كذلك إلى الآن . وكانت البلاد في أوائل حكمه في
رخاء وانتعاش فاستطاعت في البداية أن تحمّل ذلك العبء الإضافي أي أن الناس
كلوا يدفعون هذه الزيادة من الاموال التي زادت عن حاجتهم وقد استمروا على
ذلك بضم سنين دون أن يشعروا بفضاضة ما . بيد أن رفع الضرائب لم يكن سوى
جزء من برنامج اسماعيل الخشع . وقد ذكره مملقوه الوطنيون بان الاراضى برمتها
كانت في عهد جده ملكاً خاصاً للوالي وأن محمد علي ظل الى عدة سنوات صاحب
الامتياز في تجارة مصر الخارجية فعول على احياء هذه الحقوق في شخصه .
ومع انه لم يجترأ — في مواجهة الاحاب — على مصادرة الاراضى مصادرة
علنية فانه أدرك غايته من طريق آخر وبسرعة مذهلة حتي أن خمس الاراضى
الزراعية في القطر المصرى أصبح ملكاً له ولما بمض على حكمه سوى بضع
سنوات . وكان طريقه في ذلك الارهاب والضغط الى أن تبسّج الاراضى
التي يريد اغتصابها عالة علي أصحابها ونضيق في وجوههم المسالك فيصطروا الى
التخلص منها بأيام زهيدة . وقد حصل بهذه الوسيلة كما قدمت على أراض
شاسعة وظن أنها ستكون مصدر ثروة عظيمة له . ولكن حشعه هذا كان سبباً
في افلاسه فقد ظهر من الوجهة العملية أن أطباء لما كان من صغار الملاك كانت

تدار ادارة حسنة وعادت عليه ربح كبير يعكس هذه الاملاك الواسعة التي فتحت عليه أبواب الحسارة من عدة طرق . فعبثاً أنفق الاموال الطائلة في شراء الآلات الزراعية . وعثاً فرض علي قرى وحواش بأسرها إمداده بعمال السحرة . وعثاً أنشأ المصانع في أراضيه وحلب لها المدبرين الاحانب بمرتبات فادحة . وقد منحه أعوانه في كل جهة الى حد أن المال الذي جمعه من هذه الاراضى كان أقل بكثير مما كان يحصيه منها من الصرية عند ما كانت ملكاً للأهالى . وكانت هذه ما كورة متاعبه المالية لأنها صادفت هبوط أسعار المحصولات وخصوصاً أسعار القطن لحادث ضيقاً علي اماله كما أنها كانت ما كورة افلاس الملاحين الذين أثقلهم بمختلف الضرائب عبر المنطقة لسد محرمه . وكان اسماعيل صديق المغنث المشهور ساعده الايمن في هذه السياسة الخرقاء.

ولم يمض غير قليل حتي اوقع اسماعيل نفسه في أيد أشد فتكاً ونوعاً في مشروعات أبعد خطر آمن مشروعاته السابقة . فانا اذا تركنا جانباً الاموال الهائلة التي بددها يميناً وشمالاً كأنها المياه علي ملاده الشخصية، وحقائق بناء القصور ، وطيشه مع النساء الاوريبات ، وخرقه في إقامة المنفلات الملوكية ، اذكر كما كل ذلك حاشاً فانه كانت نوحاً الى جانب مشروعات أخرى عظيمة تكفي لاستنزاف خزانة أية مملكة في العالم . فليس يعرف أحد بالدقة كم أنفق اسماعيل من الملايين في الاستانة للحصول علي لقب الخديوية ولتغيير نظام الورثة لمصلحة ولده ، ولكن يحتمل أن يكون قد دفع مبالغ طائلة . وهذا عدا الاموال الجسيمة الاخرى التي أنفقها في مصاريف خرقاء وفي تعهدات قطعها علي نفسه مع بعض الشركات الاجبية . وأخيراً كانت هناك حملة النيل الأعلى ومجاورته فتح مملكة الحشة . فلجأ بجهد الأموال الكافية لكل هذه المشروعات التجأ إلي الاقتراض أولاً بمقياس صغير من أصحاب المصارف المحلية أي من أروام الاسكندرية ثم فيما بعد ، بشكل أشد طيشاً ، من البورصات الاوروية وكان نوبار باشا صديق السوء في مشروعاته هذه . ونوبار هذا بمول أرمي — أصبح بفصل حبل طقة معينة من المصريين بالتاريخ يلقب « بالمصري الوطني » في حين أنه الوحيد الذي يتحمل بعد اسماعيل أكبر مسئولية عن خراب

مصر للمالي فقد أرسله سيده للبحث عن الأموال نأى سعر للاتفاق على حاجاته الباهظة . فقد له في أوروبا القرض تلو القرض بشروط جعلته لا يستلم أكثر من ٦٠ في المائة من المبالغ التي استدانها بينما استولي لوبار على عدة من ملايين الجنيهات باسم المسرة . فقد ثبت أن اسماعيل لم يستلم سوى ٥٤ مليون جنيه تقريباً من الدينون التي بلغت ٩٦ مليوناً

وفي الوقت الذي كنت أكتب فيه ذلك لم يكن اسماعيل قد عقد اتفاقاته الكثيرة بيد أن فوائد الدين بلغت أربعة ملايين من الجنيهات سواء بالاحصول على إيراد كلف لتسيير دفع الادارة وتحويل الحرب الخفية أصبحت أموال العلاحين تنهب منهم تحت ضغط الكرباج . فالذين يتكلمون الآن مخفة فيصفون اسماعيل بأنه لم يكن مجرمًا بل كل أميراً يستحق بعض الرحمة والعطف ليعه البلاد مالياً إلى الممولين الاحانب انما يحملون الحقائق ولا يدركون تمام الادراك مبلغ الخراب الذي آثرته حملاته وأتانيته برعيته العلاحين . فلقد ثبت بصفة قاطعة أن حكم اسماعيل كلف مصر نحو ٤٠٠ مليون جنيه . وعندى أنه ليس ثمة مبالغة في هذا التقدير لأنه يشمل كل ما ادخره الفلاحون في سني الرخاء العديدة وجميع دوابهم تقريباً وهذا عدا الدين العام . وفضلاً عن ذلك خلف اسماعيل الفلاحين مدينين شخصياً لمرابي الاروام وغيرهم بما يقرب من عشرين مليوناً من الجنيهات

تلك كانت أسباب تماعة مصر كما وقعت عليها في القاهرة في ربيع عام ١٨٧٦ أما فيما يختص باصل تدخلنا المالي فهو يرجع بلا نزاع الى حماقة اسماعيل في ذلك العهد لا الى أي دافع سيلبي — على ما أظن — من جهة إنجلترا . فقد طلب في خريف سنة ١٨٧٥ بواسطة « الكولونيل ستاوتون » أن تساعد الحكومة الانجليزية ماليا وبشكل لا مناص منه من أن تتخذ تلك المساعدة صفة سياسية . والسبب الذي دعاه الى تفضيل إنجلترا على فرنسا وأثباتها على سره هو أنها كانت أقدر من فرنسا على مساعدته ، لأن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال تتش من نفقات الحرب السبعينية فكانت عاجزة عن مساعدته بأية طريقة عملية . أضف الى ذلك —

كما قدمت — أن الصداقة الصديقة بين إنجلترا وتركيا واستيعاب الانجليز الى ذلك الحين عن الدلائل التجارية في مصر ربما أفعاه هو وغيره من مسلمي الشرق بأن إنجلترا دولة بعيدة عن المطامع والغايات فيما يختص بالامبراطورية العثمانية . وبما أن خطة الحكومة الفرنسية في مسألة قناة السويس وجه خاص كانت موضع الشك فقد كان من الطبيعي عند ما وُلد عزمه علي بيع حصته في أسهم القناة أن يعرض ذلك علي إنجلترا الاعلي فرنسا . وان لا ذكر جيداً الأثر الذي أحدثته هذه الصفقة في إنجلترا وقد كان فاتها لم تقابل بالرضا العام بل أن كثيرين لاموا « دزرائيلي » أشد اللوم على توريطه الحكومة في مسألة كان من المهم أن تكون لها نتائج سياسية . والامر غير المعروف في مصر — على ما أظن — هو أن قرار شراء حصّة الحديد بمبلغ أربعة ملايين جنيه لم يصدر بإجماع رجال الحكومة الانجليزية — لان « اللورد دربي » كان معارضاً فيه — وإنما صدر علي مسؤولية رئيس الوزراء . وحده وهو الذي اتفق — بدون استشارة أحد من زملائه المتعيينين عن لندن سوي اللورد دربي — مع بيت روثيلد علي تقديم هذا المبلغ . ولا أعرف ماذا كان يحول في خاطر « دزرائيلي » من الوجهة السياسية في صدد هذا الشراء . ولكن الامر الذي أعرفه تمام المعرفة هو أن « اللورد دربي » الذي كان وقتئذ وزيراً للخارجية لم يدر بخلفه أية فكرة سياسية عدوانية بصدد الصفقة . فقد كان رأى « اللورد دربي » من وجهة السياسة الخارجية عدم التدخل بتاتا كما أن « دزرائيلي » لم يكن قد نجح بعد في تلقيع حزبه بأرائه الاستعمارية . وعلي كل حال فقد كانت الصفقة بذر الشر بالنسبة لمصر وخصوصاً بسبب الدور الذي لعبه فيها بيت روثيلد . وسيظهر فيما بعد أن العلاقة المالية بين هذا البيت اليهودي الواسع النفوذ وبين مصر هي السبب الرئيسي في التدخل العسكري الانجليزي بعد مرور ست سنوات (١) وكانت لجنة « المستر كيب » التي ذهبت إلى مصر بعد صفقة الاسهم مباشرة

(١) ظهرت منذ كتابة ذلك معلومات رسمية جديدة فيما يتعلق بشراء أسهم قناة السويس تغير السياق المذكور ها بعض التغير . أما الحقائق الاساسية الخاصة بعلاقة بيت روثيلد ودرزائيلي فلا تزال كما أشتاهاها

من عمل اسماعيل بلا جدال . وكان الغرض الذى جال في خاطره عند طلبه هذه اللجنة أن يستمر استخدام المنجم الحديد الذى اكتشفه ، منحهم المساعدة السياسية الانجليزية ، لغد قروض أخرى . وتحقيقاً لهذه الفكرة أراد الحصول على شهادة رسمية ، فى شكل تقرير ينشر على الملأ ، بأن حالته المالية لا تزال بصحة عن اللاترك وأنه ما برح قادراً على تسديد ديونه لتفتح البورصات الاجنبية أبوابها له من جديد . فمن أجل هذا طلب اسماعيل للكونغرس ستاوتون ارسال لجنة تحقيق انجليزية

وقد أصابت ساورته فسطاً كبيراً من الجراح . وكان « المستر كيف » الذى عينه الحكومة الانجليزية لرئاسة اللجنة رجلاً مستقيماً ونزيهاً على ما اعتقد ولكنه نظراً لقلة خبرته بشؤون الشرق كان من السهل أن يخدع . ثم انه كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لمعالجة جميع الحقائق بالمرأة التى يتطلبها الموقف . وكلما سمع اسماعيل كاسر البذرين حريصاً على إخفاء بعض حساباته عند ماحاء دور الخوض فيها ، فبمساعدة اسماعيل صديق قدم للسركيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الأخير فى قبولها . وزاد على ذلك أن ذر فى عينه الرماد فيما يتعلق بحالة الضحك التى كان الفلاحون يروحون تحتها . وكان من خطئه أن يحيط كبار الزوار المالىين الذين يريد ابقائهم فى شراكه بمظهر الأثراء والبذخ . ولذلك قبلت اللجنة بكل حفاوة وطاف بها مندوبوه الى حيث وضعت المعدات اللازمة من قبل وحيل بكل الوسائل بينها وبين رؤية عراء الارض . وعلى ذلك كان تقرير كيف عند نشره بمثابة وصف لبعض الحقائق لحسب

وأظن انه كان فى استطاعة كيف لو ان خلقه كان أقوى مما هو أن ينشئ بل الحقيقة التى كانت فى قرار كل صعوبات مصر المالية ألا وهي ان ديون اسماعيل كانت شخصية لاعمومية فى عرف العدل بل فى عرف القانون وأنها يجب أن تحمل على هذا الاعتبار . وكان ضعف كيف فى هذه القطة بداية التدخل السياسى لمصلحة حملة الاسهم فكان تقريره حينئذ أداة لاعتبار ديون اسماعيل ديونا

عمومية . ومع أن السير ووردر ولس الذي تلاه كلن أقدر منه فقد كان مثله غير
مدرب ولا محجرب وكان اتحانه في ذلك الوقت راحعاً على ما أعتقد الى معرفته
اللغة الفرنسية . وقد عرفته حق المعرفة وعرفت كيف ولكن ليس الى هذا
الحمد . وبقيت المراسلات منصلة بيني وبين الاول عدة أعوام فوهمت على كل
أحصائه في مصر

وآخر ما أذكره من حوادث ذلك الشتاء في القاهرة مادة أدبها الخديو وكيف
وأعضاء لحته دعيت لها اتفاقاً . وقد أدبت في الكشك الخديوي القائم على سفع
الاهرام وكانت من المآدب الشائقة التي تعود اسماعيل أفندي يهر بها عيون
الاوربيين فلم يكن يعودها شيء مما يدل على البرد الشاسع بين غنى صاحبها وقهر
أولئك الذين أقيمت المآدبة في الحقيقة على حسابهم . ومد لنا السباط على مرأى
جبهود من العلاجين الذين يكلدون يموتون جوعاً والذين جاء المستر كيف لا تقاوم
من الخراب ، ومع ذلك لم يظهر على أحدنا انه تفضل الى هذا التناقص فأكلنا كما
شئنا وشربنا أنحر الشبانيا ومعي كل ما في وجهته . ولم أستطع الى الآن وبعد
الاحاطة بكل ما هنالك أن أدرك حقيقة الحال وما فيها من الشقاء



الفصل الثاني

لجنة السير دفرز ولسن

لما عادوا القاهرة في ربيع سنة ١٨٦٦ زونا حدود بلاد العرب أول مرة .
وكن السلاح الاوربيون يذهبون من مصر الى سوريا بطريق الصحراء اكثر
مما يفعلون الآب . ومن ثم عدنا الى الجبل وحيلة الخيام والبو الذي حرسونا
من السويس وعبرنا القناة وقنا بياحة طويلة في شبه جزيرة سيناء الى العقبة ومن
هذه الى القدس . ولما كا غرباء عن البلاد التي احترناها ولم تكن لنا معرفة باللغة
عربية ولم يكن معنا مترجم وقعت لنا حوادث خطيرة تسرنا الآن ذكرها
والى لم تسرنا يوم حذرنا . منها حادثة أحسب أنها تستحق الذكر وهي
حادثة غريبة تلخص في أننا كا نسير على شاطئ خليج العقبة المحلى في بعض
مواقع بصخور المرجان فوقنا تفحص ما هناك من الالوان المختلفة بين أرجوانى
ودهبى وقرمزى ونصب بهامى والاسلاك الصغيرة التى لا نحصى والتي تسكن تلك
الصخور . فبينما كنت واقفا على حافة البحر ممكاً يندقيتى الى لم تكن تقارقي
رأيت اضطراباً عظيماً فى الماء على كسب منى . وقبل أن أدرك سبب هذا الاضطراب
رأيت كلب بحر هائلاً يترك زملاءه ويأتى على غرة منى الى حيث وقعت فصار على
صع بلادات منى قبل أن أدرك أي نوع من السمك هو أو أظن الى انى أنا القصور
هجومه . ولم اكد أمسك من دفع بندقيتى حتى انقلب على جنبه — كدأب هذا النوع
من السمك — وأخرج نصفه من الماء ليمتص على . وكان قد صار قريباً منى قتله
الطلق الذى سدده نحوه ولم تبق حاجة لطلق آخر يجهز عليه . ثم استطينا
مساعدة حرارة أن نسجه الى الشاطئ . وكان طوله يبلغ عشرة أقدام تقريباً . ولا
نت عدى في انه كان يجري من الصخرة الى البحر لو أنى نهاوت في شأنه . وقد

ذكرني هذا الحادث بالخطر الذي طالما استهدف له فلاحو مصر من التماسيح في النيل الاعلى . وقد صرت شديد الخوف فيما يخص الاستحمام في البحر من ذلك الحين واتفقت لنا مصاعب أخرى مع بعض الاعراب في طريقنا لا لشيء غير جهلنا بأحوال الصحراء وعاداتها . فلما ضربنا الخيام في ظاهر العقبة زارنا ابن جاد شيخ العلوبين المعروف وهم فرع من عرب الحوايلت . وكان له حق حراسة السياح الى بطره قنادنا الجبل الى إيساته فكانت النتيجة أن قتنا بلا حرس ولا دليل وليس معنا من أهل هذه المنطقة الاعلامين عربيين تبعانا من جبل سيناء ولم يعرفا شيئاً عن المنطقة الشمالية . فمع هدير الغلامين حازفنا بالسفر شمالاً الى فلسطين ومن ثم نفذ منا الماء . وقد وجدنا الآبار التي هدانا إليها حسن الحظ جافة . وبعد معاناة أشد الصعوبات تحت شمس محرقة بلفنا حلة عربية وقد ساءت أحوالنا في احدي الليالى الى حد أن قررنا أن نترك أمتعتنا ونهيم على أحسن جهاتنا لننتد حياتنا بالوصول الى البقاع المأهولة اذا نحن لم نضئ على ماء حتى ظهر اليوم التالي . ولكن نبقى حيار أنيانا باننا على مقربة من حلة قبل الموعد المضروب ساعة واحدة . ثم بطرنا طفلًا عربيًا جاثيًا على كتيب من الرمل فقلنا منه بالاكراه والتهديد مكملن النبع الذي يستقون منه

وكان هذا النبع يجري بديكاً من ماء المطر يجري في تجميف الصخور . وهنا لبنا طويلاً فزونا غلماناً وملأنا قربنا . وكان عرب العززية أصحاب المكان بعيدين عنه لحسن الحظ والا فاني أشك كثيراً في أنهم كانوا يسمعون لنا بأن نأخذ ما شئنا من هذه « النعمة الالهية » لانهم كانوا أصحاب المكان وقد زرعوا الى جانب الماء حقلاً من الشعير كما يفعل البدو في أكثر الاحيان على حدود سوريا معتمدين على نزول المطر . أما هذا الماء فقد أعدوه للاستسقاء على أن ينضج شعيرهم . وقد غضبوا بحق حينما عادوا فاضطرونا أن نقضي اقل ساهرين نرقب خوف هجومهم علينا . ولكنهم لم يظهروا الا في الصباح وقد ظهروا صارحين مهددين . على أننا كنا قد حملنا الجمال وكنا مسلحين تسليحاً جيداً فخذنا السير ولم يحفل بهم ، بيد أنني بعد أن عرفت البدو حيراً مما كنت أعرضهم فلت

فك في أنه كان في استطاعتنا أن نجتنب التساكن معهم بقليل من التناغم وندفع **عن** اعتدائنا على حقوقهم ، إذن لاحسنوا استقبالكما ولم يحدث مكدر ، أما والحال كما كانت فقد كما على قيد أمة من شر جدى . ويجب أن يحمد الله على وصولنا **في اليوم** التالي الى الاراضى الخضراء الواقعة بين عبران وعزة حيث أحسن العرب **تلقاؤنا** هناك لقاء ، ما وحيث أنسنا صداقتهم الخطر الذى كان قد أوشك أن يحل **بنا** . وكان هذا آخر سيلحتنا في ذلك العام فمدنا في أوائل الصيف بطريق البحر الى إنجلترا .

على أننا لم نلبث أن عدنا للشرق في صيف سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ببرنامج **توسيع** فزرا حلب ثم لمحمدنا في الفرات الى بغداد وعقدنا علاقات المودة أثناء **عودتنا** مع القبائل العربية العظيمة البازلة في صحراء سوريا والعراق . وكنا قد بدأنا **تقريب** قليلا من اللغة العربية ونعمهم عادات العرب ولم نعد تقع في مثل الخطأ الذى **هو** آتيا . ويعود قط كبير من الفضل في هذا الى التصالح الحكيمة التى زودنا **بها** للسركين فنصل برطانيا في حلب يومئذ وقد كان واسع العلم بأساليب العرب **فهمنا** كيف تقرب اليهم من نواحيهم النيسية تاركين كل خوف من الركون اليهم **كلمة** . وقد وفقت زوجتي هذه السيلة المهمة الناجحة حقها من الوصف في كتابها **« قبائل البدو على الفرات »** وهو كتاب وضعناه معا ويمكن أن يرى فيه من يعنون **بلامر** آرائنا الاولى فيما يخص بحرية العرب . ولم يكن عطفي على العرب في حروبهم **الزمنة** مع الارك نتيجة أية فكرة اعتنقتها قبل ذلك ولا هو نتيجة أية خطة سياسية **ولكنه** كان نتيجة ما رأيت من سوء معاملة الموطفين الاتراك للعرب المقيمين في **كك** البقاع وما رأيت من دغاية القبائل المستقلة .

وكان ذلك الوقت وقت اضطرابات محلية وكانت الحرب الروسية التركية في **مرحلتها** الاخيرة في القرمس وبلغنا . ومع ان أفضل تمنياتنا كانت للجيش الاسلامي **وضد** الغزاة الروسين فان مطر نساء السورين والعراقيين اد بجنود وسباقون **في** الاغلال الى شاطي البحر آثار عصبتنا على الحكومة التركية وهو غضب قواه **ما** كل يظهره العرب كل يوم من نفص الاتراك . ولم يكن في طاقة أى انسان يقدر

الحريمة إلا أن يستنشر مثل هذا المصعب اد برى سوء حكم الاتراك لولاياتهم العربية
وهذا وصف المسنر بلنت أحوال الولايات العربية تحت الحكم العرفي ثم قال :
ولما عدت الى إنجلترا في مايو سنة ١٨٧٨ أخذنى اس عي « فيليب كلارى » الذى
كان سكرتير لورد سلسبرى الخاص وأحد كبار الموظفين دوى النفوذ فى وزارة
الخارجية الى اللورد سلسبرى ، وكان هذا قد نسل مقاليد ودارة الخارجية حديثا
وكان يوشك أن يوقع المعاهدة السرية التى عقدها مع سلطان تركيا (وهى الشهيرة
باسم معاهدة قبرص) ولم يكن لى علم شىء من هذا فى ذلك الحين . فأنارت سياحتي
فى قلب الولايات العربية اهتمام اللورد وأراد أن يعرف مئ شيئا عن حقيقتها . وقد
أنجبت على أسئلته فأدليت اليه بكل آرائي بصراحة تامة وأذكر الآن بصفة خاصة
ماقلته له عن احتمال استقلال سوريا ذات يوم وأنها قد تتحاب مع مصر ضد ظلم
الحكومة التركية . فلم يجب علي هذه الأقوال سوى قوله انه لا توجد رابطة سياسية
بين هاتين الولايتين التركيتين وأن لكل منهما أحوالا ونظاما خاصا . وقد ظهر عليه
التأثر بكلامي حين طلعت فى مشروع السكة الحديدية فى وادي المرات وكنت
أرى فى هذا المشروع خطرا جديدا على استقلال الولايات العربية . وقد علمت
فما بعد أنه اقتنع كثيرا بما أدليت به من الحجج فى هذا الصدد وأن ورائه لم
تؤيد ذلك المشروع بعد حديثي معه فلم ينفذ الى اليوم .

على أن حديثي مع اللورد سلسبرى فى هذه المرة أقتني من ناحية أخرى
بسعة اطلاعه فى الشؤون الشرقية . ومع أن آراءه لم تسكن تنق مع آرائي فى هذا
المبدد فاني كنت واقفا من كفاؤه الشخصية وقد توثقت بيني وبينه بعد ذلك
أواصر صداقة هي وان تسكن غير صميمية إلا أنها كانت ودية . وقد سمح لي أن
أكتب له فى هذه الشؤون الى النهاية ، ومع أنه لم يوافق علي آرائى الا نادرا فقد
كان دائما يرد علي خطائاني بلطف أكثر مما تقتضيه التقاليد الرسمية .

علي أن الحطة التى انتهجها اللورد سلسبرى صيغ ذلك العام من لين لم تلبث

أن يدب كل ما عقدته من الآمال علي اقاعه بأرأى فيما يختص بالعرب بعد أعلن
بمئذ أنه يصم للسلطان سلامة كل ممتلكاته الاسيوية . ولما كانت مداولات
مؤتمر رايس السرية قد أثرت في أحوال مصر تأثيراً عربياً مهما في الوقت نفسه فليس
أحد مدوحة من أن أروي حكايتها ها وقد عرفت حوادثها عقب وقوعها مباشرة
وبذكر القراء أن شاء سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٧ العظيم شهد آخر مراحل الحرب
بين روسيا وتركيا وان دبريع العام التالي رأى حيوش القيصر على أبواب الاسنانة . وقد
كلن هذا العهد عهد شقاء عظيم في مصر . وكانت لحة كيف التي شهدت وصولها
الي القاهرة قد تبعها لحان مآلية أقل منها نزاهة وطهارة دمة . وقد انتهى ذلك كله
بالاتفاق المعروف باتفاق « غوشن وجوير » الذي سويت علي مقتضاه ديون
الحديد ، وفي الحق أنها نسوية جبارة وضعت سبعة ملايين جبيه على عاتق الارادات
المصرية . ولم يكن الحصول علي هذا المبلغ الحسيم من العلاحين المغلين ممكناً الا
بأكرامهم تحت السكراماج على ادنهاف أراضيمهم للرئيس اليونانيين الذين كانوا
يراقضون حبة الصرائب في كل مكان أثناء مرورهم في القرى . وكان الفيضان في
السنين الاخيرة قد جاء شديداً أحداً وأصيبت البلاد بالقمح فيا بين البحر واسوان
وقد قصي كثير من أهل القرى رحالا وساء وأطفالا — جوعا — في شتاء ذلك
العام الذي لم يبر مثيل له من أول القرن .

وكن واضحاً والحالة هذه أنه إما أن يعلس الحديد أو يخفض فوائد ديونه بعد
اذ أهملت نسوة « غوشن وجوير » ، وقد كلن الحل الاول أعذل الماين وأفضلها لخير
البلاد ولكن أهمل كرامة لمصلحة حملة الاسهم الاجانب . وقام هؤلاء بمجهدها في
نجاح في هذه المرة لحل الدول العظمي على التدخل السياسي للوصول الي نسوة
أخرى بين اساميل ودائبه ، وكانت الفرصة ملائة فيا يخص انجلترا والاتفاق حدودها
في الوقت الذي عقد فيه الانجليز بينهم بارشاد دررائيلي على القيام بلعبة سياسية
حرية تمثل دوراً هاماً في شؤون الامبراطورية التركية ، وكن لورد دري قد تخلف
عن رئيسه بعد أن قطع معه وعلى الرغم منه شوطاً في سياسته الاستعمارية الجديدة
وقد استقال لورد دري فعلا من وزارة الخارجية وخلفه فيها لورد سلسرى كما مر

بك . وقد كان ذلك دليلاً على تقدم سياسي عام غير حال من التحدى والتهديد وقد أدخل الاسطول البريطاني الى بحر مرمرة فزع الحيش الروسي ومع من دخول الاستانة ووضعت الحرب أوزارها على عقد معاهدة بين السلطان واقتصر تحت ضغط هذه المطاهرة الانجليزية وهي معاهدة « سان استافو » أما من حيث مصر فقد الت في الوقت نفسه لجنة تحقيق دولية بالاسم وانجليزية في ايقبة وعين فيها صديق السبر رفرز ولسن ممثلاً لاجلجترا وأحس ان أمر تعيينه هو أول أمر وقع لورد سلسبري عند استلامه مقاليد وزارة الخارجية في دوسن سترت

ولا ينبغي عن الذكرة أيضاً انه لم يمض شهران على ذلك حتي عقدت معاهدة سرية في الاستانة ، عقدها السبر هري لايلرد وهو رجل عظيم الكفاية والدرابة بالشرق وكان قد أحرر رقة السلطان الشاب عد الحيد . وقصت هذه المعاهدة بتأجير جزيرة قبرص لاجلجترا وأعطى ضبان السلطان بسلامة ممتلكاته الاسيوية في مقابل وعده باصلاحات تدخل في آسيا الصغرى لوجود فواصل بريطانيين متقلبين وهم صباط يقدمون النصائح ويقدمون التقارير بالتقصيرات والشكوي .

وكانت فكرة معاهدة قبرص في اعتبار دررائيل وسلسبري اللذين وقعاها ولايارد الذي هو منشئها الحقيقي ترمي لتأسيس حماية بريطانية على آسيا الصغرى وهي وان تكن غير رسمية إلا أنها لا تقل في مفعولها عن الحماية الرسمية . وكان الوصول على قبرص في نظرهم أقل أجزاء الصفقة . وكانت هذه الجزيرة قليلة الاهمية في الحقيقة بالنسبة لبريطانيا . كركر عسكري . ولم يكن اختيار هذه الجزيرة يرجع الى صلاحيتها من الوجهة العسكرية بل الى لومة من لومات دررائيل أنالها تقرير دوري عن ثروتها أرسله اليه فحصل بريطاني ذو مصلحة في الجزيرة . وكان دررائيل قد وضع في سياسته قبل ذلك بضع سنوات رواية « فانكرد » التي عرض فيها مازحا فكرة انشاء امبراطورية اسيوية تحت الحكم البريطاني وعي مادماج قبرص فيها بصفة خاصة معيداً بهذه الحقيقة التاريخ فان الملك الانجليزي رتشارد قلب الاسد كان يوماً من الايام ملكاً على هذه الجزيرة . وقد كانت الدولة فكلغة سياسية ولكن دررائيل كان يحب أن يقلب فكلهاته سياسي الى حقائقي ويقع أنصاره

الانجليز الذين كان يحترم كيهودى بعداد أعماله الخرافية واحكامها . وكان غرض لايلرد الحقيقى من عقد المعاهدة هو التحكم فى آسيا الصغرى من الوجهة العسكرية وهو الغرض الذى ملن ادراكه سبلا بواسطة القناصل البريطانيين المتغلبين والواقع أن هذا الغرض يمكن عزوه الى لايلرد أكثر من عزوه الى سلسبرى الذى كان حديداً فى وزارة الخارجية والذى أكتسه نيجاربه فى العالم السابق فى الاستانة عطقاً على الأتراك . وكان على هؤلاء القناصل أن يشرفوا على الادارة المدنية فى الولايات ويتأكدوا من أن حياة الضرائب لا يجهون الفلاحين وأن مبادئ تدريب الحىوش التركية ليست مزدحجة بسبب سوء الادارة .

ومن ثم ملن بأن زحف روسيا على البحر الابيض قد يقف عند آسيا الصغرى كما وقف زحفها فى أوروبا عند سانبستافو .

وإذا نحن آمننا نظرتنا اليوم فى الموقف ولاسيا بعد العلم بما تلا ذلك من الحوادث والوقوف على طبائى السلطان عبدالحميدفليس فى وسعنا الا الدهش من أن يوقع السلطان عبد الحميد معاهدة كهذه لو نفذت لوضعت تركية آسيا فى الايدى العسكرية البريطانية كما هي حال مصر اليوم . كذلك يدعش المرء من توقع وزارة الخارجية البريطانية نجاح تلك المعاهدة ويروح له ان القلب الذى أطلقه عليها غلادستون « بأنها معاهدة مجنونة » كان فى محله . لى أنه لايجوز لنا أن نسى أن السلطان عبد الحميد لم يكن خيراً مع وجود الجيش الروسى على أبواب عاصمته فقد كان مضطراً لقبول التحالف البريطانى ولو كان معناه الوصاية وقد كانت احتلرا الى ذلك الحين أقامت الحق على أنها صديق نزيه يعتمد عليه . وكل لايلرد على ينة من قوة نفوذه فى القصر كما أنه كان يعرف ما لاسم بريطانيا من المية فى الولايات الاسيوية . وكان للقنصل البريطانى فى تلك الايام نفوذ تام على ولاية الأتراك وسائر القوطين منهم وكان له أن يعتقد أن نفوذه لن يكون له آخر .

والواقع أن الشرف البريطانى كان يومئذ عظيماً فى نظر الأتراك وكانت السياسة البريطانية مشعة بالعطف على المسلم حتى أنه لم يمتلح فى صدورهم أى شهة فى أن يحتلرا معاصداً أنانية . وكل لايلرد بعنه حسن الظن بالأتراك وربما كانت له

آمال في أن يلعب في قصر يلندز اللورد الذي لعبه لورد كرومر في عابدين . وعدى
أنهم المدهش أن يغامر البريطانيون في أحلام كده أو أن يتق المسلمون بزاهة بريطانيا
وأخيراً يجب أن نذكر أنه بعد توقيع المعاهدة السرية بشهر واحد اجتمع
المؤتمر الاوربي العظيم في برلين . وقد اجتمع بناء على رعة دررائلي وكن المفهوم
أن يكون أعظم اجتماع أوربي منذ مؤتمر باريس . وكان عرض هذا المؤتمر كغرض
سابقه تقرير مصير تركية أوربا ودرعاها المسبحين وتعديل معاهدة سان استفانو .
وقد علق دررائلي نجاحه كرجل سياسي علي نجاح المؤتمر في ذلك . فقد تدخلت
انجلترا بدافع سام كأفضل صديق لتركيا مرفوعة عن الغرض على قول دررائلي
وأصبح مقامه السياسي في انجلترا وفي الخارج معلقاً على مصادقة الدول على مزايحه
في هذا الصدد . وكان نجاح المؤتمر ضرورياً لدررائلي الى حد أن ذهب اليه بنفسه
كرئيس للمفوضية البريطانية وأخذ سلسبرى الذي كل الى ذلك الحين حديث
عهد بالسياسة بينما مثل روسيا « غورنشاكوف » ومثل فرنسا وادنجتون وإيطاليا
السكونت كورني وقولي البرنس سبارك رأسه هذه الهيئة الفخمة وقد وافق كورني
لورد سلسبرى كما وافق بروتون دررائلي .

ولا حاجة في لوصف اجراءات المؤتمر العامة فهي معروفة للجميع ولكن الذي
لم يذع قط من قبل هو هذا الحادث الهام الذي عرفته — كما سيأتي — بعد
حدوثه بزمن قصير .

اجتمع المؤتمر يوم ١٣ يونيو وكانت الامور المطروحة علي بساط البحث علي
أعظم جانب من الاهمية . ولم يكن ثمة بين المفوضين الا قليل من الشبه فيما يتعلق
بامكن تقسيم تركيا فاقترح بعضهم من أول الامر أن يعلم كل مفوض بادي ذي
بده أنه حضر الي المؤتمر غير مقيد بتعهدات سابقة فيما يخص بالمسائل المعروضة
للبحث . وقد فوجيء دررائلي وسلسبرى بهذا الاقتراح ولم يكونا على استعداد
للافصاء باعمالها السرية مع سلطان تركيا غير أنها لم يكن لهما من حضور التهن
ما يقويهما على رفضه قبله كغيرهما بصفة رسمية . وقد كان كلاهما حديثي عهد
بالسياسة كما أسلفنا . ومن هنا يمكننا أن نصور حساسة الدهش وفداحة العضيعة

الذين ثارا بعد بضعة أسابيع في برلين حين نشرت إحدى صحف الماء في لندن يوم ٩ يونيو نصوص المعاهدة السرية . وكان كوردي قد استخدم رجلا يدعى « مارفن » تمرد السياحة في الشرق وعرف لعنه في ترجمة النص التركي . ولم يكن مارفن هذا موظفاً في وزارة الخارجية فكل من وراء الطيش في استخدامه أن باع السر بمبلغ كبير الى حريدة « حلوب » فانقض نشر المعاهدة انقضاء الساعة على المفوضين البريطانيين في برلين ومع أن سلطات لندن نفت صحة النص المنشور فقد كان فوق الطاقة كتمان الحقيقة طويلا في برلين . وأصبح معوضونا في برلين أمام حقيقة لا يمكن تأويلها وهي أنهم حاثوا عهد زملائهم الاوربيين خيانة حسيمة وأنهموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم . وقد هدد ظهور السر مؤتمر برلين بالاخفاق بل بالامضاء العاجل . وقد أعلن الرئيس عورتشا كوف أنه أهين وشاركه في غضته وادخلتونه وتهدد كلاهما بالانحطاب من المؤتمر . وأخذوا دأبهم يحزم أمتعتهم استعداداً للفر من برلين . وكان الموقف حرجا ولم تقده الاحداث بمشارك المشوبة بالنهم . وكل قد أعجب بدرائيلي وعطف عليه لمشابهة بينهما في خلقي الهكم والحراة . واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين معوضي فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية :

١ - أن يسمح لفرنسا عند أول فرصة وبغير معارضة من جانب بريطانيا أن تحتل تونس كتعويض عن حصول بريطانيا على قبرص .

٢ - أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا في التسويات المالية التي تتم في مصر

٣ - أن تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم في أن لها حق حماية المسيحيين اللاتينيين في سوريا وعلي قاعدة تسليم دزرائيلي في هذه النقطة الثلاث . وقبلوا دأبهم القاء في برلين والاشتراك مع سائر المفوضين في تسوية مسائل البلقان التي نمت على قواعد الاقتراحات البريطانية قريبا - ومن الغريب أن الثمن الذي دفعه دزرائيلي الى فرنسا وهو ولاية من ولايات حليفه السلطان مكة من أن يعود بعد قليل الى لندن ويدعي الفور والانتصار مفجرا بأنه عاد يحمل « الشرف والسلام » وعدى أن هذا الحادث العجيب يجب أن يعتبر

مدأ بد بريطانيا تقالدها السياسة المحيدة في الشرق واتلها سياسة نهب وخيانة
والى دسيسة قبرص هذه برجع مباشرة أو غير مباشرة نصف الحرائم التى ارتكبت
ضد حرية الشرق وشمال أفريقيا وهى الحرائم التى شهدها جيلنا الماضى . وهى التى
أثقت فى روع النصارى فكرة ضم البوسنة فى الحال . وهى التى ساعدت على اخفاق
تسوية صحيحة فى مقدونيا . وهى التى وصعت تونس تحت أقدام فرنسا وبدأت
عهد تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية وما ينسج ذلك من شتى المخاوف والنكبات
التي حاقت بالوطنيين من يبرزتا الى بحيرة تشاد ومن الصومال الى الكونغو وفوق
هذا كله أثقلت بريطانيا سمعتها الى الابد فى الامر الطورية العثمانية وغيرت قلوب
المسلمين عليها فى عامى ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكانت عاملا مهما فى الحوادث العنيفة التي
حدثت فى مصر فى تلك الاوقات المضطربة كما سأتبين بعد . ثم انها هزمت نفس
الغرض الذى رمت اليه فى تركية آسيا ان كان ذلك الغرض المعاونة حقاً على
ادخال الاصلاح.

وقد لفت عمال المؤتمر بطر السلطان الى الخطر الذى يمكن فى المعاونة
البريطانية وغبروا قلبه فاتبع سياسة ماقصة للصالحات البريطانية وقد نجح فى سياسته
هذه نجاحا تاما ووقع دعاة الحرية والحكومة الذاتية بين رعاياه والى هذا السبب تعزى
المظالم التى نكب بها الاحرار فى الاسنانة وليس من المبالغة فى شئ أن نعزى له
النكبات التى حاقت بالارمن بعد ما أنار فيهم المفوضون البريطانيون فى برلين آمالا
كبيرا وأوهومهم بأنها تتحقق بمساعدة بريطانيا الادبية — تلك المساعدة التى لم
تكن أحوال السياسة البريطانية غير الادبية تسمح لبريطانيا بتقديمها .

أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت ارسل
تلغراف من برلين الى ولسن فى الاسكندرية يتضمن أمراً شديداً أخرنه وأدهشه
وهو أن يكون حظ فرنسا كحظ إنجلترا تماما فى جميع التعينات المالية ذات العلاقة
بتحقيقه الرسمي .

ومع أن ولسن لم يعرف الحقيقة فى ذلك الحين فقد كان هذا سبب المراقبة

الثانية (١) — الإنجليزية الفرنسية — التي وضعت على المسألة المصرية — بعد مرور عام على هذه الحوادث كانت الاحوال سائرة على هذا الموال حين وحدث نفسي في خريف السنة ذاتها — سنة ١٨٧٨ على طريقى للشرق . وكانت سياحتي في الشتاء السابق إلى بغداد . والساحل الذي أدركته كان في مسألة أهم لدى كثير من السياسة ، وهي شراء الخيول العربية التي كانت نواة اسطبل المعروف اليوم جيداً في « كرايت » — والذي أثار الفصول والتعجب في إنجلترا . ومن ثم قضيت الصيف في اعداد جريدة ارآني وتقديمها للطبعة .

وكنا علي كل حال قائمين بهذا وقد عقدنا اثنية على سياحة أشد مجازفة مما حاولنا في الماضي وقصدنا دمشق التي رسمنا الابتداء منها واختراق الصحراء العربية الوسطى وريادة نجد وطن الحياذ العربية

(١) رويت حكاية ماحدث مع وادنجتون كما سمعناها من لورد ليتون في سلا في مايو سنة ١٨٧٩ . وكانت التفصيلات مدونة في خطاب أطلعني عليه . وقد كتب اليه من برلين حين كان المؤتمر يعقد جلساته . أما الذي كنه له فزميل سياسي وقد تأكدت صحة هذه الحوادث من أكثر من مصدر وان لم تتفق جميع المصادر على تفصيلاتها بالدقة . أما فيما يختص بالنقطة الجوهرية في الاتفاق وهي الخاصة بتونس فقد وقفني على تفصيلاتها السكونت كورنى في سنة ١٨٨٤ وكلت ممثل ايطاليا في المؤتمر . ويؤخذ مما قاله لي أن دهش دزرائيل الناجم من نشر نص المعاهدة السرية كان من الشدة بحيث مرض وزم غرفته ولم يظهر في جلسات المؤتمر أربعة أيام متوالية تاركاً لورد سلسبرى يؤول المسألة علي أحسن ما يستطيع . وقال لي ان المفاوضات لم تقطع بصراحة بين دزرائيلي ووادنجتون وأن هذا عرض المسألة علي زملائه الفرنسيين الذين اتفقوا علي أن المسألة من المسائل التي لا يتنازع فيها علناً وقالوا « اما الحرب أو السكونت » وحرى الاتفاق شفوياً بين وادنجتون وسلسبرى ولكنه سجل في تلغراف كنية سفير فرنسا في لندن إلي لورد سلسبرى وذكره فيه بالمحادثات التي دارت في برلين وبذلك صحت الاعتراف بهذه المحادثات كسنة

وكانت سياحتنا البحرية من مرسيليا تمر باعلى الاسكندرية واتفق أن وجدت على طهر الناحرة في مرسيليا صديقى السير روبرت ولسن الذي عيّن حديثاً وريثاً للمالية المصرية وقصيت السياحة في صحبته . وقد استطلعت في خلال أيام السياحة الستة أن أقف مع علي كل ما حدث في القاهرة أثناء العامين الفارطين وكانت الحكاية التي رواها لي رهبة جداً . ومن بين الحوادث التي رواها حادثة وفاة اسماعيل صديق المفتش وما غرسته في القلوب من النفور

كل اسماعيل صديق حزانري المولد وقد جاء مصر في شبابه الاول وارفع بمواهبه وكفاءته في الخدمة المصرية . وكانت أول علاقة له بالبلاط على ما أعتقد في عهد عباس الأول كبير للركائب . وشغل في عهد عباس واسماعيل وظائف كثيرة حتى انتهى أمره كما رأينا بأن صار « شيطان اسماعيل » في انباز مال العالحين . وقد استطاع أن يحتفظ بحسن السمعة في القاهرة على الرغم مما ارتكبه من أعمال القسوة — وقد أظهر براعة لا تنصب في ابتكار طرق النهب — وكان يحوى ما سمعته في القاهرة أنه عربي متمتع بفضيلة تقليدية هي الكرم والسخاء في اصابق الثروة العظيمة التي جمعها . ومن ثم لم يكن مكروها في مصر وقد شغل منصب وريث المالية في السنوات الاخيرة من حياته فبرهن دائماً علي أنه خادم اسماعيل المخلص الأمين . ولكن انظر حاته قبل بضعة أشهر من الوقت الذي أكتب فيه عنه .

وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن ثم قال وقد خضت أنا ولسن في هذه الاحاديث يوما بعد يوم علي الباخرة ودارت بصفة خاصة حول مهمته الخطيرة فقد كان مزعماً أن يخلّف اسماعيل باشا المفتش في وزارة المالية . وكانت آماله في نجاح ادارته عظيمة في ذلك الحين وقد أعرب عن فهم تام للمهمة الخطيرة التي أخذها علي عاتقه وهي إعادة مالية مصر سيرتها الاولى من الرقاية واتقاد الفلاحين من اصمادهم المالية ولكنه كان كذلك على علم تام بما يواجهه من الصعوبات . وكل قد تعلم هم أخلاق الحدبو وأساليبه كما كان مستعداً لان يمد فيه خصما

هنا جريتنا ولكنه كان يعتمد علي براعته في التودد وسعة علمه بأمور الدنيا مؤملا
 أن يستطيع استنباط العلاقات الودية مع اسماعيل وأن يتجنب كل الاخطار الشخصية
 التي قد تعرض له . وكان يعتمد في تحقيق هذا الغرض علي تربته العرسية فقد
 كانت سكنائه في باريس الى الحد الذي جعله يثق بقدرته علي الاحتفاظ بسلامة
 القزولة الفرنسية الانجليزية التي كان عصوا فيها ثم انه كان يعتمد كثيراً علي نواب
 يثا ويشق به ثقة لا حد لها معتقداً انه سياسي شرقي مخلص للمصالح البريطانية .
 وكان يعتقد كذلك أن وزارة الخارجية البريطانية تؤيده كل التأييد بل وهناك تأييد
 آخر ربما كان أقوى في أوروبا من تأييد وزارة الخارجية وهو تأييد مصر وفرنسا .
 وكان يعرف انه يستطيع أن يعتمد علي هذا التأييد بعد نجاحه أثناء مروره
 بباريس في اقناع ولاء أمور ذلك المصرف باصدار قرض بقيمة ملايين جنيه بضمانة
 الممتلكات الخديوية وقد كان من شأن هذا القرض أن يكسب تأييد أصحاب
 المصرف لحلة الاسهم في مطالبهم بالتدخل الاوربي متى اقتضت الحال . وقد حيل
 لي — أنا الذي أعرف ولس حق المعرفة ومع اني عطفت أشد العطف علي آماله
 الانسانية وأمانيه الشخصية — أن في مركزه عناصر معينة من الشك ليس من
 شأنها أن تساعد علي نجاحه

وقد اقررنا في الاسكندرية ونحن نرحي أن نستقيم له الامور في مهمة تدور
 حول يأس حكومة مفسلة عملاً صدورنا بالشكوك . بيد أننا توقعنا أن يقوم في سبيله
 كثير من الصعوبات الشديدة . ومع اني كنت واثقاً من جرأة قلبه وحنه ذهنه
 قد خشيت عليه وحققت الايام اني كنت علي حق في التشاؤم وحدث هذا في
 وقت أقصر مما ظننا

وقد كان لاختناق السير وفرز ولسن في إدارته المالية الصغيرة عدة أسباب .
 منها شؤم ذلك القرض الباهظ الذي يشق علي المرء أن يدرك في أي غرض جدي
 استخدمت أمواله . ومنها حدوث اخطاء في الادارة أوقعت مطالب فادحة بالاهلين
 ومهدت السبيل — كما سنرى بعد — الى شيوع الاستياء والتدمير . علي أي لست
 بحاجة الي الدخول في تفاصيل هذه الاخطاء فهي مشهورة وفي طاقة كل انسان أن

يحتها في الكتب . أما عندو لن فيها فهو أنه اعتمد اعتماداً لا حد له على إرشادات
نوبار في جميع شؤون السياسة الداخلية وفي محاوره الدد في تقدير كفاية نوبار علي
تصريهها . ولو كان ولن سياسياً أكثر مما كان مالياً لما سقط سقطه في المصاعب
السياسية التي كان يسهل تجنبها لو كان خبيراً بأساليب الحكومة

ولم يكن نوبار الاتكأة مرضوعة ولم يكن يشق على داهية كلباعيل أن يشير
صده الشعور الاسلامي كسيحي وأجبي . واذ كان ولن يشكر في إيجاد التوازن
المالي فقد خفض مرتبات جماعة من الموظفين المصريين وهكذا خلق طبقة مستاة
أثاحت للحدود فرصة تحويل الاسنياء منه الي وزرائه المسيحيين . وسهل عليه الامر
انه لم يحصل تخصيص في مرتبات الموظفين الاحانب . وكان الاتفاق الذي عقد بين
فرنسا وانجلترا في برلين يحتم تعيين موطف فرنسي نظير كل موطف بريطاني ومن
ثم لم يجرؤ ولن على أن يمس أحداً من الموظفين الفرنسيين . وكان على ولن أن
يحمل كل ما أثار تصرفه من الغضب وفي يده معاتيخ الخزانة المصرية

ولم يدرك كذلك أقل نجاح — بوعم نيانه الحسنة — في تخفيف العبء عن
كواهل الفلاحين . وقد كان في برنامجه أن يبقى الحديو قادراً على الدفع ومعنى ذلك
أن تدفع فوائد الدين الحسيم في مواعيدها . وقد أوقعت التسعة الملايين التي اقترصت
من روتشلد في المطالب الهامة ولم تخفض الضرائب بل استمر حكم الكرياج بصرامة
أشد في القرى وجي . للموقف الزراعي بمامل مرعب جديد هو مسح الاراضي
الزراعية تحت الاشراف البريطاني وقد تم ذلك سققات فادحة وعلى أسوأ منوال
واعتبره الناس على وجه العموم مقدمة لمرض ضرائب جديدة وتم المشل أخيراً
بمسد ديوع الاقتراح الذي عزمه ولن وهو يقضي بمصادرة أراض تبلغ قيمتها
خمس عشرة مليوناً فقد أوقع هذا المشروع عقول أصحاب الاراضي في اضطراب
وجعلهم يعتقدون بقرب وقوع نكبات على يدي الوزير البريطاني أهدح من التي
زلت بهم في عهد أسلافه . وعندني وقد عرفت مصر الآن معرفة حقيقية انه
لا تكن هالك مدوحة من وقوع أى انسان له مثل دكا ، ولن وحسن مقاصده في
مثل هذه الاحطاء . وليس عدى شك في أن الحديو معه رسل الكثير منها ليورطه

ولم يطلع سوى سياسة ولسن ونوبل القمة حين أحذا يسرحان الجيش المصرى وفيه ٢٥٠٠ ضابط بغير أن يدفعا المرتبات المتأخرة فقد أوقع ذلك الورداء الاحاب في قبضة اسماعيل وهذه فرصة لم يتردد اسماعيل في انتهازها

ويجب أن أقص هنا تاريخ أزمة فبراير سنة ١٨٧٩ التى طاحت بورادة ولسن ونوبل كما حدثت اذ من الصعب أن يجد الانسان حقيقتها منشورة في كتاب آخر كلن الخديو كما ذكرنا نوافا لتحويل البفض العام الذي كلن يطر به اليه في مصر إلى وزرائه الخدد لرغبته في تخليص نفسه من وصايتهم . وكلن قد نزل بمقتور يسمي دكرينو سنة ١٨٧٨ عن إدارة المالية والادارة لهم ولما كلن قد تعود للحكم المطلق ١٨ سنة في مصر فقد عاظه فقدان هذه السلطة . وكلن قد وقع في كبري كبديل من الافلاس فلما نحا من الافلاس صم علي قفض عهده . واذ كلن داعية في البصر بالاخلاق تقطن حالا الى موضع الضعف في الوردارة وعرف كيف تقضي بجمال ولسن وزميله الفرنسى « بلنير » بالشؤون المصرية إلى اعتمادهما كل الاعتماد علي نوبار في الاهتداء إلى الخطة التى يسلكها كما عرف أيضاً عمر نوبار كسبحي عن حكم شعب اسلامي

وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعد نوبارا أفاقيا أرمنيا جمع ثروة كبيرة من مسرته لأصحاب الاموال المستعدين لاعطاء القروض علي حساب الجمهور . أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذى أنشأ المحاكم المحتلة التى يعجدها الاجانب ويحتها الفلاحون لاعتمادهم أياها وضعتهم في قبضة المراسين اليونانيين وفعلت مالم تله هيئة غيرها

وكانت هيئة هذه المحاكم في ذلك الحين تستدعي أى فلاح أمضى أية ورقة بملئة أمام قضاة أجانب وبعد اجراءات أجنبية لم يعودها بملئة أجنبية ؟ . بعضها ، وبغير أن تسج له فرصة الدفاع عن نفسه ان كلن فقيراً ، واقامة الحجة علي أن الارقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة فحكم عليه بما قد لا يقل عن مئتين من كل ما يمتلكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف بأى شيء هو في الحقيقة طالب . بهذا كلن يعرف نوبار ثم انه لم يكن له أنصار وطيوس ولا كلن مؤيداً بأى

رأى الا رأى التحار الاجانب في الاسكندرية ومن ثم رأى اسماعيل كيف يمكنه الهجوم على نظام الحكم الحديدي في شخص نوبار وكيف يمكنه حمله عاجراً . والواقع أنه لم يكن يقتضى لاسقاط هذا الحكم الا مطاهرة وطنية ضد المسيحي المقتوت وقد سهل تنفيذ هذه الخطوة بما حدث من غش ضباط الجيش المسرحين وحرمانهم من المرتبات المتأخرة وحقوق المعاش .

وكان عمال اسماعيل في احداث أزمة فبراير حاضرين باشا أحد موظفي البلاط وأخو روجة لطيف أفندي سليم الذي سهل له العمل مركزه كدير للمدرسة الحربية . وقد نظم هذان مطاهرة من تلاميذ المدرسة فسار هؤلاء في الوقت المعبى في شوارع القاهرة معلنين أنهم سيطالبون باسقاط الوزارة المقومة ثم انضم اليهم جمهور كبير يتقدمهم الصباط المسرحون وكل الاتفاق معقوداً على أن تصل المطاهرة الى ديوان الحكومة في الوقت الذى ينصرف فيه الوزراء . وقد وجد المتظاهرون نوبار باشا يركب مركبه فأهانوه واعتدوا عليه وحذبوا شواربه وضربوه بالكنوف ثم قامت في الحال مطاهرة شعبية وهنا طهرت في الميدان فرقة الحرس الحديدي الاولى بقيادة القائمقام على بك فهمي وكانت على قدم الاستعداد ثم ظهر الحديدي بالذات وأطلقت نضع طلقات في الهواء فوق رؤوس المتظاهرين ثم تفرق الجمهور حين أمره الحديدي بأن ينصرف كل الى بيته . وهكذا نجحت الخطوة التي اتفق عليها مع علي بك واستطاع الحديدي أن يفتح قنصلي فرنسا وأنجلترا بضرودة اقلية نوبار وبانه لولا تدخله القوى وسلطانة على الناس لحدثت أمور سيئة العقبي وعلي ذلك نصح القنصلان لنوبار بالاستقالة وحل محله موظف مسلم اختاره الحديدي يدعي راغب باشا . وقد عرف اسماعيل أن وجود رجله راغب في وزارة الداخلية يعجز ولنس وبلنير عن ادارة البلاد ويستتبع سقوطها عاجلاً

وبعد أن تم النجاح في التخلص من نوبار أصبح قيام ولنس بادارة المالية مستحيلاً كما توقع الحديدي ثم مجلت حوادث أخرى بقوطه . وكان قد وقع جماعين ولنس وقنصلنا في مصر حينذاك (المستر فيميان الذي صار بعد ذلك لورد فيفيان وعين سفيراً في رومة) سبب مشاحنة شخصية . فلما طرأت الصعوبات السياسية

وطلب ولس تأييده لم يقدمه له أو قدمه بغير اخلاص . ولكن فشل ولسن
التهاني لم يبطئ . بعد ذلك . فقد نطمت حادثة فبراير خلال شهر مارس
في الاسكندرية اذ آذاه الجمهور هو وزوجه فلما رفع شكواه لوزارة الخارجية صحت
عليه بالتأييد الكافي لنيل الرضبة . ثم نصح له كما نصح لنوبار بالاستقالة ولما لم يجد
منها استقلال وعاد إلى أوروبا

وقد كتب لي خطابا هاما في ذلك الحين : كتب إلى في ٣٠ ابريل سنة ١٨٠٩
يقول « أحسب أنك سمعت بما كاد لي الحديو . انه لم يقتلني كما قد نظن ولـسـكـي
هوجت في الطريق وأسيتت معاملتي وقد حصل الآن على غرضه ونخلص مي
فقد تركتني حكومة جلالة الملك تحت رحمة القضاء جريا لي عادتها من الاهتمام
بوكالاتها . . . ان ميمان هو العامل الرئيسي في سقوط التديرات التي كان عليه أن
يتولي حمايتها ورجع ذلك إلي غيرته مي وإلى قص في الذكاء وريادة في الحيلة .
فحمد انضم إلى الحديو . ومع أن سموه لم يجد أساليب الحكم أكثر من أجادته
التفريق بين الذين يعمل معهم فقد كان يتطلع إلى التفريق بيني وبين بلنير أو يسا
وبين نوبار . ولكنه لم يتوقع حتى ولا في الحلم أن يصير القنصل البريطاني أداة في
يده لاسقاط وزارة فرضها عليه حكومة بريطانية وأكرهته على قبولها . . . سنبحر
يوم ٦ ونصل لندن يوم ١٥ ، وأنا الآن مسرور لتخلصي من المسألة كلها وهي
سائرة إلى اللعمار والبلاد موبوءة بالفساد . ويروح لي أن حكومتي فرنسا وانجلترا
تحشيان العمل وقد ظني الحديو وهو يعمر البلاد لا يبرز آخر قرش . وليس في
الطاقة تأخير الحراب وفي هذه الاثناء لا يسيم الانسان إلا التجمع حين يفكر فيما
يجتث الآن من الشقاء والشر

الفصل الثالث

السياحة في بلاد العرب والهند

بينما كانت نجرى هذه الحوادث في مصر كنت بعيداً مع زوجتي في بلاد العرب الوسطى فلم يكن لي بها ولا بغيرها من حوادث العالم أقل علم وكنا قد مكثنا عدة أيام في قبرص ونحن في طريقنا إلى دمشق التي كنا معتزمين أن نبدأ منها سياحتنا . وكان قد دفعنا العنبر إلى مشاهدة هذه الجزيرة التي دفعت فيها المحملات ذلك الثمن الغالي أو ببساطة أخرى تلك الفضيحة الكبيرة . وقد وجدناها تتلقى دروسها الأولى في الإدارة المحلية على يدى السرحان ولسلى وكانت الجزيرة لا تزال في حر الصيف ولم تسكن قد سمعت أمطار بعد . وكذلك لم تبد لنا إلا أحسن قليلاً من فلاة تربة . وقد زرنا ولسلى في مقر الحكم بيقوسيا ووجدناه يحمل الوحشة على خير ما يستطيع في عزله . وقد أتى في حديثه معنا على هذه « الخوهره » الأخيرة التي ضمت للإمبراطورية غير انه كان واضحاً أن الحرية ليست لها قيمة في تقديره الفني وكانت أشبه الأشياء بتلك المناظر الكثيرة التي تقرأ في قصة « فيكار اوف واكفيلد » . انما أحصرت من السوق إلى المنزل . والواقع انه كان يشق علي المرء أن يستبين وجه الاستفادة منها أو طريقة الحصول علي نفقات ادارتها وكان الحصول عليها قد أدخل سمعة المحملات كما مر لك . وكان المسلمون السوريون يقولون ان المحملات أخذتها بقشيشاً من السلطان علي خدمتها له

وقد التقينا في دمشق بكثير من أفاضال الرجال منهم الامير عبدالمقادر الحارثي بطل الحرب بين الجزائر وفرنسا . ومنهم بطل آخر هو مدحت باشا أبو الدستور العثماني . ومع أي كنت ميالاً للعطف علي اصلاح المسلمين فاني لم أمل لهذا البطل الاحير . والواقع أن مطهره لم يكن موجياً لتأثير شخصيته . لم يكن ممتازاً بأي شيء في مطهره سوى انه كان غوراً محتالاً ولم أحد أنا . محادثتي معه في موضوع تحديد تركيا واصلاحها أي عمق في أفكاره بل وحديثها من ذلك الصرب الاوربي العادي

التي بحل عادة في الشرق محل البوغ الحقيقي والایمان الراسخ وكانت كل آرائه فيها يختص باصلاح الامبراطورية عامة وسوريا الذي كان قد عين والياً عليها خاصة مقصورة علي الساديت كانشاء الخطوط الحديدية والقنوات وحطوط الترام وكلها تشياد طيبة في بابها ولكن لم يمس في حديثه ما تعوزه الادارة من الاصلاح . ثم انه لم تكن لديه البتة أموال يستطيع أن ينفذ بها اصلاحاته السادية فكانت الاصلاحات والحالة هذه أوهاماً في أوهام . ولم يتكلم قط عن الامور السكيرة الاهمية كالاقتصاد والعدل وحماية الفقراء كما أنه لم يظهر أى عطف علي أهل الولاية التي عين والياً عليها .

والواقع انه كان أكثر من الاتراك احتقاراً لكل ما هو عربي ولم يكلف نفسه مشقة كتمان هذا الشعور ولم تكن طرق معاملته للبدو لاثمة بالاسانية . لهذا لم أمل اليه بطبيعة الحال . ومع ذلك أسفت علي عدم محاولتي اثاره عطف الرأى العام البريطاني عليه في أيام محنته ولو فعلت لكل أهله مسامى من الحرء القطيع الذي أمزله به السلطان . ولكني لم أعرف الحقائق كلها في ذلك الحين وفي سنة ١٨٨٤ عرفت من مصدر أثق به حقيقة ملجى في محاكمة مدحت في تهمة قتل كاذب القيت عليه قبل ذلك بثلاث سنوات وهذه مسألة هامة لا أجد داعياً للاعتذار عن ذكرها . وقد يذكر قرأني أنى كنت أصبت أثناء اقامتي في الاستانة بمصر خطير وعني بي طبيب يدعي دكسون كان في ذلك الحين طبيب السفارة البريطانية وكان قد وشجت بيني وبينه صلات المودة . وهذا الشيخ الفاضل قضى في الاستانة خمساً وثلاثين سنة فاستشرق تماماً وأصبح أدرى بالشؤون العثمانية من أى بريطانى آخر فيها أعلن — وكان فوق ذلك عطوفاً علي القوم الذين عاش بينهم هذا الأمد الطويل . وكان يخلج صدره الي جانب هذا العطف وقاء ونبل علي الطرار الانجليزى القديم . فكانت ميزانه نجده أجدر الناس بالثقة فيما يتعلق برواية الحوادث التي اتصل بها

لهذا يجب أن تعتبر شهادته حاسمة فيما يختص بالحوادث الواقعة في محيطها .

وقد كُتبت في الاستانة في سنة ١٨٨٤ محدثيها فظهرت لي من الصحة والاهمية للتاريخ بحيث دونتها في نفس اليوم الذي سمعتها فيه وهي كما يأتي بالحرف الواحد :
في ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ نذبت السفارة الانجليزية الدكتور دكون لثحقق ما أحاط بوفاة السلطان عبد العزيز فقدم تقريراً مفصلاً عن جميع ما رآه في القصر ذلك اليوم . وكانت لجنة الاطباء مؤلفة من يوناني يدعي ماركو باشا وشيخ انجليزى كان طبيب لورد بيرون الشاعر المشهور وعدة أطباء آخرين . وقد وجدوا الخثة في دار الحرم وخصوصاً حيداً . وكان السلطان في قميص حريري لا خطوط فيه . وكانت سراويله من الحرير القرنفلي . ولما انتزعت الثياب لم يوجد في الخثة خدش ولا رض « وكانت أيدع جسم في العالم » . هذا عدا حرجين في الحمة الانسية من الدراعين حيث الشرايين . وكان جرح الذراع اليسرى عميقاً بالغاً الى العظم وقد سبر الدكتور دكون غوره باصبعه أما جرح الذراع اليمنى فلم يكن محكماً فلم يؤذ الشريان وكان ظاهراً أن الحرجين سبب الوفاة . وقد قنع الاطباء الآخرون بهذا الفحص وانصرفوا ولكن دكون والطبيب الانجليزى الآخر أصرا علي سماع شهادة والده السلطان وقد شهدت بما يأتي :

حاول السلطان عبد العزيز أن يفتخر مرتين منذ أصيب بجرحه . فحاول مرة أن يرمي بنفسه في بئر . وحاول مرة أخرى رمي نفسه في البوسفور ولكنه منع في المرتين . وحذرت السلطنة من اعطائه أى اداة يستطيع أن يؤذى نفسه بها . فلما طلب اليها امرأة ومقصاً ليصلح لحية أعطته أصغر مقص لديها وظنت أنه لا يستطيع أن يؤذى نفسه به . وكانت تسكن غرفة مجاورة لغرفته وكان يقوم علي حراستة فتاة أو فتاتان في غيابهما . فحدث بعد ظهر ذلك اليوم أنه أمر الفتاتين بالخروج وارتج الباب قائلاً انه يريد أن يخلو بنفسه ولم يجرؤ الفتاتان علي المعارضة فلما انتفضي نصف ساعة أخبراها بما حدث فارتجعت في أول الامر ولكنها أمرتهما أن تنفيا بالباب وتتمتا . ففادتا اليها وقالتا انهما لم تسمعا شيئاً . وبعد ساعة ذهبت تتمتا وصائفها ودفعت الباب ففتحته فوجدت السلطان راقداً علي جنبه فوق متكأ وقد نوفي

وكان المتكأ والستائر من الحرير الاصفر ذى النقوش الحمراء . وحصى زميل الدكتور دكون المكمل فوجد جانب المتكأ الايسر مشعباً بالدم ووجد تحته فوق الارض كثيراً من الدم الكريه الرائحة . ووجد في وسط المتكأ بقعة دم صغيرة تطابق جرح الدراع البعي . ومع أنه فحص المكمل جيداً فإنه لم يضر على أثر الدم الاقبال الاصق المتكأ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث بضال أو اغتيال .

وكما قالت السلطانة « اذا كان قد قتل فلا بد أن أكون أنا القتيلة لأنى كنت فى الغرفة المجاورة لغرفته وما كان أحد غيرى يستطيع أن يقترب منه » .

وقد أحضروا فى محاكمة مدحت ومن معه قيصاً من الكتان لا من الحرير مشقوقاً من الخشب كأما قطعت طعنة سيف وسراويل صفراء وخضراء ورداء من الفرو . ولم يحضروا الثياب التى كانت على الختة . وأحضروا غطاء متكأ من الشيت وستائر شبيبة ملطحة بالدم ولم يحضروا تلك التى كانت فى الغرفة حيث وجدت الجثة . ومن ثم كسب الدكتور ولسن احتجاجاً قرر فيه ما يعرفه وأعطاه الى لورد دوفرين ورجاه أن يقدمه كشهادة لرئيس المحكمة . ولكن دوفرين أبى أن يتدخل بلا تعليمات وفى الوقت الذى أرسل فيه تلفرافاً أو زعم أنه أرسله حكم على مدحت . وقال دكون ان ماركو باشا لا بد أن يكون قد أغري على أداء الشهادة التى أداها . وكانت حكاية رؤية رجال ينساقون داخلاً وخارجاً حكاية مسخيفة قد كانت الغرفة مرتفعة ولم يكن بد من ان يكسر الواصلون منها سيقانهم . وهذا والدكتور دكون شيخ دقيق وهو من أولئك الشهود الذين يقتنع بشهادتهم أى محللين فى العالم . ولذلك أصدق شهادته كل التصديق معاً ظهر غريباً عند النظرة الاولى أن يكون السلطان قضى متحرراً لا مقتولاً . وقد مات مدحت وداماد جوعاً فى السلاسل والاغلال منذ بضعة أشهر . كذلك مات شيخ الاسلام الذى أفتى بخلع عبدالعزیز . وهذا الحادث الارهاقي هو الذى أعطي عبدالمجيد السلطة المطلقة التى يتمتع بها الآن . ومن الاشخاص ذوي الاهمية فى هذا التاريخ والذين قابلتهم بدمشق فى خريف سنة ١٨٧٨ السير ادوارد ماليت . وكان يومئذ سكرتيراً للسفارة الانجليزية فى الاستانة ثم كان يسبح فى سوريا لفترة من ناحية وجمع المعلومات من ناحية أخرى

وقد عملت تحت رئاسة والده الجليل مرتين أثناء خدمتي السياسية وكانت بيني وبين أسرته وبينه علاقة ود متينة منذ كنا ملحقين سياسيين معاً . ومن ثم أستطيع أن أتكلم عن علم فيما يختص بصفاته التي أسيء فهمها في مصر .

كل من ماليت رجلاً ذا مواهب متوسطة وقد رزق نصيباً وافرأ من المثابرة والحرص والتعقل ولما كان قد ولد في وسط سيلى ثم وضعه أبوه في الخدمة وهو في السادسة عشرة فقد كان ذا دراية فنية تامة فكان موظفاً عمومياً كفاً فيما يتعلق بتقاليد عمله وعاداته وكان في استطاعته أن يكتب بلاعاً بلفه واضحة . وكان يمكن أن يوثق من أنه لا يقول كلمة واحدة أكثر مما تجبزه تعليماته ، ولا يورط حكومته في شيء عمواً .

ولديه من المواهب ما هو أنفع وأحدى في أحوال الخدمة العادية التي كان يعمل فيها كالنصر والتحفظ في الكلام وانكسر القدرات وهي الصفات التي يبتارها وكلاء الدعاوى . ولا يخفى أن واجبات السياسي تمائل واجبات وكلاء الاشغال الا في أحوال خاصة نادرة . ولكن ماليت لم تكن له مواهب كسمة الخيال وقوة الابتكار وقوة التصرف تحت مسؤوليته في الفرص التي تستدعي عملاقاً وقراراً سريعاً . وكان آخر رجل يصلح لتدبير الدسائس والقبض على ناصية المواقف الحرجة كما كان لطيفاً غير جذاب وفيه طفولة كثيراً ما ظهرت في حياته الخاصة وكان كثير المثابرة حسن السلوك . وكانت استقامته ظاهرة بصفة خاصة لصغر سنه وكان يفضل عمله معها يكن قليل الاهمية علي أي ضرب من ضروب التنزه والاسترواح حتى لقد كان وهو في الاجازة يقضي بعد ظهر أكثر الايام في نسخ البيانات في مكتب والده بوزارة الخفائية فضلاً ذلك على عمله في البحث عن شيء يشغله في مكان آخر .

وقد عنيت بالدقة في وصفه لانه انهم في مصر بالطبع والدس والقلق وكل هذا مناقض لطبعه الهادي . فلما تسكن لديه روح مجازفة لا في عمله ولا في مسراته ولو كان كذلك لرافقنا الي بلاد العرب كما اقترحت عليه ولكنه لم يكن بالرجل الذي يعمل عن الطريق المطروق ومع اني أثرت اهتمامه على قدر طائفي بمشروعي الروائي فقد فضل السير في طريق السياحة العادية ومن ثم مضى بعد بضعة أيام الى القدس

أما سياحتنا فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . وقد اتفق لنا من الأمور الهامة والأحوال الشائعة أكثر مما توقعا . فشرت تفصيلاتها بالفرنسية والإنجليزية بصوان « حج الى نجد » : واني لا أرى بأساً في أن أذكرها هنا بأبجاذ في بضع كلمات — سافرنا بطريق الحج العمادي الى المزاريب ومن هناك الى جبل حوران حيث أعطانا زعيم درزي من أسرة الاطرش رقيقاً أو ان شئت دليلاً وهكذا انحدروا في وادي السرحان الى الجوف حيث كان لمحمد عروق بن شيخ قمر ، وقد كان مسافراً منافع قرابته . وبعد ان قضينا مع هؤلاء بضعة أيام في اجناز « غود » وهو معبر حط في الصحراء الرملية الكبرى يستغرق قطعه عشرة أيام وصلنا « حائل » حيث استقبلنا الامير محمد بن الرشيد الذي كان يومئذ سلطان نجد المستقلة بكل مطاهر التكرم علي الرغم من اننا لم نحمل اليه خطابات أو توصيات . وقد كانت جسيبتنا الانجليزية جواراً كافياً في نظره . وكان قد اتصلت به اشاعات عن زيارتنا في العام السابق لكثير من مشايخ عنزه وشر . وكما قد فعلنا الى ذلك الحين من القنة العربية ما يكفي للتحدث وقد وجدناه نبيلاً لطيفاً شديد الاهتمام بسماع كل ما لدينا من أنباء العالم العظيم المعزولة عن نجد عزلة تامة بما يحيط بها من الصحراوات . وكان نواقا لمعرفة آرائنا في كل الشؤون ذات العلاقة بجزيرة العرب ولا سيما فيما يخص شخصيات رعاء البدو من أعدائه أو نظرائه . أما السياسة الأوروبية فليس بها الا قليلا وكذلك الحال بالنسبة للاستانة ومصر . ومع أن نجداً كانت تعتبر في بغداد ولاية عناية فان أمراء الروهابيين لم يمتروا قط بسيادة السلطان عليهم ولم يكن بينهم وبينه أثناء القرن الماضي كله الا العداء . وكانت ذكرى غزوة محمد علي الكبير لنجد لا تزال حية . وكذلك كان استيلاء مدحت باشا على الحساء عند خليج المعجم وحملته المكروهة على الجوف يذكران بالقت في حائل وكان من دواعي رضائه عنا اننا قدمنا عليه بغير أن يكون ثمة دخل لاية سلطة عثمانية .

وكانت نتيجة هذه الزيارة الودية لعاصمة بلاد العرب المستقلة وما رأيته فيها من نظم الحكومة الحرة التي عاشت في قلب تلك الحريرة العجيبة قرونا عديدة أن

راد خمسي في عواطف الحب والاعجاب التي كست أصمها للحسن العربي . والواقع أن « حيي السياسي الاول » كان لذلك الحسن المجيد ولقد كل حياً ما روح يستحوذ علي يوماً بعد يوم حتي عقدت البية على أن أبذل من ناحيتي كل معونة أستطيعها لمساعدته على الاحتفاظ بفرزة الاستقلال التي شهدتها فيه . وقد تراءت لي حرية العرب أرضاً مقدسة واعتقدت أن لي فيها رسالة يجب أن أؤديها وعدى اني لم أبالع في تقدير الفضائل التقليدية التي رأيت القوم دائنين عليها هالك .

ان نظام الحكم الدوي لا يفصل إلا قليلا في عرف الشرقيين نظاما بوضع للسلب والهب . والواقع أنه ينحط الى ما يقرب من هذا الدرك على حدود البلدان المتمدينة . أما في قلب بلاد العرب ذاتها فليست الحال كذلك . فقد رأيت « الحرية والمساواة والاخاء » تعيش عيش الحقائق الحية في نجد ويتمتع بها هالك كل رجل حر ولم أرها كذلك في أية بلاد أخرى من البلاد التي ررتها في الشرق والغرب ولا في أوروبا التي نبأني فيها هاتيك العم وان كنا لا نملكها في الحقيقة بل ولا في فرنسا حيث نجدها معروضة للانظار — ككافة — في كل مكان . فني نجد تعيش هيئة اجتماعية طبقا للنظام الذي يحكم به دعاة المثل الاعلى في بلادنا فلا صرائب ولا بوليس ولا تجنيد ولا اكراه في أي شيء . ولا قانون لهذه الهيئة إلا الرأي العام ولا نظام الا ماعليه مبادئ البيل والشرف . وهنا كذلك أناس فقراء ، قانعون على فقرهم وعاشون في رخاء نظراً لقلة احتياجاتهم — أناس أحابوا على كل سؤال القيت عليهم (وباطالما القيت أسئلتني هذه بنصافي غير هذه البلاد) بقولهم « الحمد لله ، لنا كغيرنا من الأمم . ان لدينا هنا حكومة منا ونحن راضون قانون » وهذا هو الذي ملأني دهشا وسرورا . وهذا هو الذي حولني من رجل لا يعبأ بما يرى من الآم العالم الشرقي الي رجل يفيض بالغيرة علي سبط نعمة الحرية علي الأمم التي تزوج تحت الاغلال والقيود . وقد أيدت اعتيادي ودرست أمني سياحتي خلال الربع التالي في العراق وحوي ايران تلك البلاد الاكثر مدنية وأقل سعادة وهنا من نجد . والواقع أني نحدأ أنما هي تقيض أودية المرات الدنيا التي يسكنها شعب عربي أنزل به الحكم العثماني صنوف الفقر والانهطاط .

ونشئ من ذلك أهل عربستان الإيرانية . وقد فكرت فيما يمكن أن يعيد لهؤلاء .
 تقوم نلهم المفقود ورخاءهم واحترامهم لانفسهم وحيل لى لحطة أن الحماية البريطانية
 قد تكون وسيلة النجاة . وكانت هذه الافكار تتكون وتتجسد فى عقلى أثناء
 سيلحتنا البرية الصعبة من بغداد الى بوشير على الخليج الفارسى ثم بطريق البحر الى
 كراشى حتى وصلنا الهند حيث كانت تنتظرنى نجاوب من وراء آخر وحيث تلقيت
 درصاً جديداً فى الشؤون الشرقية .

وكان سبب ذهابنا الى الهند بعد سياحنا الصعبة انا وحدنا فى بوشير خطابات
 كتبها لنا لورد ليتون الذى كان صديقى الحميم منذ عدة سنوات وهو يدعونا فيها
 ليلونه بسيلا . وكان ليتون الذى لا أقول هنا شيئاً عن صفاته الشخصية الجذابة
 بعد الذى قت به قبل الآن من حقوق ذكراه المحبوبة موطناً سياسياً مثلى وقد
 خضعت معه فى لشبونه سنة ١٨٦٥ وقد قرضنا الشعر معاً وعشنا فى صداقة متينة
 استمرت إلى اليوم .

فالآن — فى سنة ١٨٧٩ - كان قد مضى عليه عامان حاكماً للهند وكاد يختم
 حملته الاولى على الافغان بنجاح وأسمى معاهدة « حداماك » خلال أول شهر
 قضيائه معه . ولكن ليتون ممن يؤمنون بالمخاطف ويعتقدون بالاوهام رغما من
 سلامة ايمانه الدينى قضى مدة الحرب وهو يرسل فى الهواء ساطيد صغيرة فاذا
 لوتفت بسرعة فى الهواء اعتقد أن جيوشه ظافرة والعكس بالعكس . وليس معنى
 ذلك أنه كان لصعود هذه المناطيد بسرعة أو ببطء تأثير فى قراراته فقد كان كاملا
 مجداً متقلا . ولكن سرعة المناطيد كانت تهدي أعصابه التى كانت أبداً متوترة
 لما كان يراه فيها من دلالة غير عادية حمل نفسه على الاعتقاد فيها . وقد قرن بين
 وصولى سلا وبين التحول الحسن الذى طرأ على القتال واعتقد أنى تأثيراً سعيدياً
 فى أحواله ما بقيت معه . وقد أسرى لى جميع أفكاره فعرفت منه أموراً هامة فى
 سياسة العليا لا حاجة لى الى تفصيلها هنا وإن كان سوف يوجد بعضها فى هذه
 المذكرات بعد . وقد أظهر لى عطفه على كرجل صاحب آراء عربية ورواى

وشاعر وأمر السير الفريد ليال الذي كان سكرتيره الشؤون الخارجية أن يعطيني كل المعلومات الممكنة .

ولم تكن حكومة الهند حينذاك غير راغبة في أن تخطو الى الامام خطوة في الخليج الفارسي . وكانت البحرية الهندية قد تعودت في بضعة الاعوام الاخيرة أن تشمل اللوائى العربية بنوع من الحماية مقصور علي منع القرصنة ومنع القبايل من القتال في البحر مع الاسماك عن التدخل معهم في البر . فكل هذا نوعاً من الحماية محموداً وقد رفضت حكومة كلكتا الاعتراف بمزاعم السيادة الهندية علي تلك اللوائى . وسكاتها . وكان السلطان عبد الحميد قد بدأ يزجج سلطاننا في الهند يث الدعوة للجامعة الاسلاميه . وقد ظنوا أن هذه الدعوة أخذت تؤثر في ولاء مسلمي الهند . وقد لذلك كانت فكرة الاستقلال العربى مستحثة من وجهة النظر الرسمية . وقد أحسن السير الفريد ليال الشهادة لي عند لورد ليتون حتي لقد اتفقنا على أن أعود في الشتاء القادم الى نجد وأحل رسالة ودية من حاكم الهند الى ابن الرشيد . على انني مسرور الآن بعد أن عرفت أساليب حكومة الهند لعدم تنفيذ ذلك المشروع ولو فعلت لكنك وقفت نفسى موقفاً كالذاً وأكون قد تبرعت غير متعمد بجعل نفسي أداة في يد سياسة ترمي الي استبعادهم مما حسنت نيتي وعظمت رغبتي في مساعدة العرب بخدمة قضية الحرية . فان من سينتج أساليب السياسة الاستعمارية البريطانية أنها لا تستطيع أن تتدخل بين قوم أحرار الا وتفتني بعمل سيء حتي ولو كانت قد بدأت عملها حسنة لثنية . ذلك ان هذه السياسة عمولة بالاغراض الانانية . وكثرة هذه الاغراض تقلب أحسن البدايات الي أسوأ الخواتم

ولكن هذه الاشياء لم تسكر . كل ما دار عليه البحث بيني وبين ليتون ومرتوسيه — وقد كلف وزيره المالي السير جون سترانشي من علمي أساليب المالية والاقتصاد الهندية وطرق مكلفاتها قسط وجباية ضرائب الاراضى والعسله وضرائب الملح وغير ذلك من المسائل الكبرى التي كانت مدار البحث يومئذ . وكان سترانشي رئيس المدافعين الرسميين عما كان يسمى في ذلك العهد سياسة الاقتصاد في النفقات

ومن دواعي الاسف أن نتيجة هذا التعليم لم تكن عزعة اعتقادي بامانة حكومة الهند باعتبارها وصية علي مصالح الوطنيين الهنود وسأورد هنا مقتطفات من الخطابات التي كنت أكتبها في هذا الحين . ومنها يظهر كيف كانت تؤثر في النظرات القصيرة التي كنت ألقها على الشؤون الهندية في مراكز الحكم الرئيسية وها هي المقتطفات : « لقد حاب أمني في الهند التي صرت أعتقد أنها سبنة الحكم كسائر البلاد الاسيوية مع فارق واحد هو أن النبات هنا حسنة وهناك سيئة . فالصرائب هنا فلدحة والبلاد في أيدي حكم أجانب ويرى الانسان هنا من الاسراف في الاموال العمومية ما يراه في تركيا فلننا نعتقد أن المسرفين هنا بلها . وليسوا لصوصاً . ومع ذلك فالنتيجة واحدة ولست أرى فرقاً بين أن يرغم الهنود الذين يتضورون جوعاً علي الاكتاب لانشاء كنيسة في كلكتا وبين ارفعهم البلغاريين علي دفع نفقات قصر يشيد علي شاطئ البسفور . ان الفقر يأكل هذه الامبراطورية السكيره في حكومتها المركزية ولا سبيل الي اسعادها الا بشقها وترك كل شئ يحكم نفسه . »

وكنت في خطاب آخر الي صديق آخر يدعي هاري براند وكان يومئذ عسواً في البرلمان وهو الآن لورد هامبدن : « ان الوطنيين — كما يسمونهم ها — ليسوا الا قبيلان من الرقيق فهم مروعون نصاء وقد هزلت أجسامهم . ومع اني محافظ وعضو في كلوتون كلوب أعترف بأنني قد ارتعت من القيود التي تغل الهنود وان تقني بالظلم البريطانية ونعمة الحكم البريطاني قد أصيبت بصربة شديدة . لقد درست ألقاز المالية البريطانية علي أحسن أسانئها — ورواء الحكومة وكبار موظفيها — فانتهيت الي الاعتقاد باننا لو تأثرنا علي « ترقية » البلاد بالسرعة التي فصل بها الآن فلا مفر لاهل البلاد من أن يلجأوا في آخر الامر الي أكل بعضهم البعض اذ لا يمكن أن تبق في البلاد عبر أحسادهم الآدمية . ولعمري لست أفهم لماذا تأخذ نحن الانجليز أموال هؤلاء الهنود الذين يتضورون جوعاً لمشيء لهم بها خطوطاً حديدية لا يريدونها وسحواً وملاحية للمجانين ومباني أثرية للسير ياتر فريز . كلا ! ولا أعرف لماذا نطمع من أروم البرد القليل حيوشاً من رجال البوليس

والحكام والمهندسين . انهم لا يجتاحون شيئاً من هذا ولكنهم في أشد حاجة للارز كما يظهر لكل من يرى صلوهم الباردة . أما الدس القادح الذي ألقي علي عاتقهم فالشرف يقضى بانكلره كدس على المد على الاقل ، وليس في طاقتي أن أرى الفضل الاذي الذي تدعيه الحكومات بفرصها صرائب على قوم لتسديد ديون لم يقرضوها بل اقترضتها الحكومات . ان جميع الديون العامة حتى في البلاد التي تحكم نفسها بنفسها قليل أو كثير من الغش اما في البلاد المستعبدة استعباداً أحدياً فهي لا تمدو أن تكون سرقة » .

وعلى العموم كلن لرياني القصيرة مراكر الحسكم في الهند تأثير كبير في تكوير آرائني فيما يختص بمائل السياسة الاستعمارية الكرى ونوجهها في الوجهة التي جرت فيها فيما بعد . على اني كنت لا أزال أعتقد قليلا أو أكثر أن المحن المقاصد وان لم أكن أعتقد بمحسن النتائج في حكمنا الشرقي وظننت أن في الطاقة تحسينه وأن الجمهور البريطاني لا بد أن يصر على ضرورة تحسينه اذا عرف حقيقة .

ومن آخر ذكريات الشهرس اللذين قضينهما مع ليتون في تروهوف كما كان يدعي قصر الحاكم يومئذ في سلا ، عشاء جلست فيه الي جانب كافاناري وكلن ذلك في الليلة التي بدأ في صباحها السفر في مهمته القاتلة الى كابول . وكلن هذا رحلا يبعث اهتمام المرء به وقد أخبرني انه حفيد تاجر من أهل فينيسيا كلن قد أقرض بوناپارت مالا كثيراً حين احتل جيش الجمهورية الفرنسية فينيسيا ولم يسترده قط . على ان الامبراطور كلفاه بان جعل ابنه وزيراً خاصاً له فصار هذا الابن من أشد المحلصين للأسرة الامبراطورية . وكلن لويس نابليون كافاناري الحفيد هو أيضاً بوناپارتيّاً مخلصاً وقد اعتقد انه — واسمه كما هو — لا بد أن يكون له رسالة هامة يؤديها . وكان ذا ثقة « بنجمه » وأشهد أن الاخفاق والخطر لم يخطرا له ببال في الحديث الطويل الذي دار بيننا في ذلك المساء .

ومع ذلك قد كان واجباً أن يكون له نذير من الانباء المحزنة التي تكلمنا فيها أيضاً وهي أنباء وفاة ولي العهد الامبراطوري في جنوبي أفريقيا . ولما اقرقنا كنا على موعد بان أذهب أنا وامرأتني في خريف العام القادم لزيرة كابول ، فقال لي

« لا تأت قبل الخريف على كل حال فاني لا أستطيع أن أجهز دار اقلتي قبل ذلك لاستقبال السيدات » ولم يشر أقل اشارة الى أي سبب أشد من هذا حطراً .

ومن الذين عرفهم في ذلك العهد والذين لهم صلة بتاريخ محزون « كولى » وكان يومئذ مسكر تير ليتون الحربى ومات بعد ذلك بعام على تل ماحوبا . وكلن ليتون يثق كل الثقة بمواهبه الحربية وقد اشتركاً معاً في توجيه الحملة على الافغان من سملأ . وأحسب ان خطأه كان في تجاوزه الحد في الثقة بنفسه وفي مطامعه . وقد احتل ماحوبا لانه لم يطق أن تنتهي الحملة بغير أن يكون أحرز نجاحاً شخصياً لنفسه . وكان من أصدقائنا في ذلك الزمن ملحنند (لورد متو الآن) ولول كلرو ، وبرابازون وكلهم من أركن حرب ليتون وكذلك لورد رالف كبر ، وبلودس وبان وروجاهما الجيملان . وقد عدنا من يومبای في صحبة ملحنند والماجور جاك نابر تاركين الحد في ١٢ يوليو فوصلنا السويس في ٢٥ منه ووصلنا في اليوم نفسه بالقطار الى الاسكندرية .

وأحسب أنها كانت « عدن » تلك الميناء التي عرفنا اذ مررنا بها أعظم أناء مصر في ذلك الحين وهو عزل الخديو اسماعيل . ولما وصلنا الى الاسكندرية عرفت من رميلي السابق في الخدمة السياسية وهو فرانك لاشيل الذى كان يومئذ قائماً بأعمال القنصل الجنرال في الوكالة البريطانية تفصيلات الدور الذى لعبه في هذا الشأن . وليس ثم خلاف يذكر بين ما أخبرنى به وبين التقارير الرسمية التي نشرت في هذا الصدد . لذلك لا أظن أنى في حاجة لذكره هنا ولكن الذى لم يظهر في التقارير الرسمية هو الدور الذى لعبه أصحاب مصرف روتشلد في هذا الصدد . وهو دور لم يعرفه لاشيل يومئذ وقد عرفته من ولسن بعد ذلك والواقع انه كان يحق لولسن أن يخبر به انه استطاع أن يفتنم لنفسه بواسطة هؤلاء . قال لى انه بعد عودته منبوداً من حكومته ذهب مباشرة الى بيت روتشلد في باريس وأنبأهم بالخطر الذى تستهدفه أموالهم بعد التحول الذى طرأ أخيراً على الاحوال في مصر والاسكندرية فالخديو يريد أن ينكر ديوبه ويحتفى وراء اعلان الحكومة الدستورية في مصر . هذا لم يجمعوا ذلك ففعلوا كل شيء . ومذلك نصح فى ادهاب آكل روتشلد وحملهم

علي استخدام نفوذهم السياسي الكبير في مصلحة التدخل العاجل . وقد بذلوا جهدهم
عشاً أول الامر في وراري خارجي لندن وباريس . بعد أن كانت الحكومة
البريطانية قد أقفلت عن ميلها للتدخل لاستعمالها ممتنع حوب أفريقيا وكذلك
لم يكن لحكومة باريس وغبغفيه .

علي أن يأمن آل روتشلد الساحم من شدة الخوف على اموالهم دفعهم إلى رفع
التماس إلى سرك و برلين . وكان هذا قد شمل بيت روتشلد العبراني بحجابه منذ
ايامه في فرانكفورت ولم يفعل ذلك عشاً . وهنا أهمهم المستشار الألماني ، وكان يومئذ
قويًا مرهوب الجانب ، حكومتى لندن وباريس بأههما إذا لم تستطيعا التدخل في
مصر لمصلحة حاة السدات فان الحكومة الألمانية سوف تحمل قضيتهم قضيتها
الخاصة . وكانت هذه الخطوة حاسمة فاتفقت فرنسا والمجترا على أن يكون التدخل
أقل ما يستطيع عملاً وذلك بأن طلبتا من السلطان أن يعزل تاييه المسرف . وقد أتي
اسماعيل إلى اللحظة الأخيرة أن يصدق بأن الباب العالي يتحلي عه بعد الملايين
التي حباه بها بسحا ، ومع بدرات الاموال التي كل لا يزال مستعداً لاعطائها له .
نقول بدرات الاموال لأن اسماعيل كانت لديه كنوز مجبوءة على الرعم من ظواهر
افلاسه . وكان الصفط الاوربي عليه شديداً حتى لقد قالولسن أنه قد رفضت اليه مسألة
اختيار خلف اسماعيل من اثنين أحدهما الامير حليم الذي كان يميل اليه السلطان
والثاني ولي العهد الامير توفيق وقد فصله ولسن لما يعرفه من مصه وصلاحيته
ليكون آلة في يد السياسة . ومهما يكن من الامر فقد تقل الي اسماعيل البيان
اسحق الحامل نياً سقوطه وصيرورة اماراة الخديوية الى ولده توفيق . وقد كل
لاشيل هو الذي قدر عليه أن ينقل هذا النبا الى اسماعيل . وهنا أحد اسماعيل كل
ما كان في المالية من القود وجمع كل ما استطاع جمعه من النقائس ومصى الي بخته
« المحروب » ومعه مالا يقل قيمته عن ثلاثة ملايين حيه .

الفصل الرابع

السياسة البريطانية سنة ١٨٨٠

كانت وفاة كافاناري الحرة في كاول — تلك الوفاة التي حدثت قبل أن ينتهي صيف سنة ١٨٧٩ والتي ورطت ليتون في حرب جديدة ومتاعب سياسية لا آخر لها — قد وضعت حداً لمشروع السياحة ذلك العام سواء أكلن في أفغانستان أم في بلاد العرب ومن ثم قضيت اثني عشر شهراً كاملة في انجلترا وهي من أملاً أياي بالعمل والمشاغل ومع أني كنت قد تلفت الاربعين من العمر فاني لم أكن الي ذلك الحين قد أدت أي عمل سياسي عام . ولا القيت خطبة على جماعة . ولا كتبت مقالا واحداً لانه مجلّة أو خطاباً لحزبه . وقد حلني الحياء الذي كنت أشعر به في شباني على الانكماش عن أي عمل في أي شكل كلب ولم يزدني تربيتي السياسية الا مقناً للظهور . ولا ينبغي أن السياسة تؤثر الحفية سواء أكلن لديها ما تخفيه أم لم يكن لديها . كما انها لا تنق بالاقوال التي تلقى علانية وتغار عيرة شديدة من قلة تبصر الصحف . ولكن الحال لم تلبث أن تغيرت . ومهما كانت الكيفية التي أفتعت بها نفسي بان لي مهمة أو ذمها في الشرق ، ثم مهما كانت هذه المهمة مهمة فقد بدأت أتكلم وأكتب وتغلبت على حيائي الي حد أني ظهرت مرتين على منبر . وكانت أول مرة تكلمت فيها علي هذا النحو في اجتماع عقدته الجمعية البريطانية في شيفلد يوم ٢٢ أغسطس وكنت قد دعيت له كسائح ممتاز ، كما دعي سربانتو ، وبرازا ، وكامبرون وكلهم ذور شهرة افرقية وفي هذا الاجتماع عارضت كامبرون في تحيذه مد خط حديدي في وادي العراق . وكنت أستطيع أن أتكلم في هذا الشأن مخبرة تزيد على خبرته فانه كان قد أحجم عن السير في الجانب الوعر من هذه المنطقة في العام السابق علي الرغم من انه بدأ سياحته بصحة كبيرة . وهذا الحز ، هو الواقع بين بغداد وبوشير . أما نحن فقد عرنا الطريق كله من البحر الي البحر . وقد استأفنت معارضتي في مقال نشرته مجلة « فورتيتلي ريفيو » وهو أول مقال كتته . وكل حو

مورلي بجزر المحلة جيداً وقد قدمت له توصية من ليتون واستطعت أن أثير اهتمامه
بأفكاري الشرقية . وقد عاد علي هذان المادنان — الخطابة والكتابة — بالثناء
الحم وشجعتان علي الاستمرار في نشر دعوتي وكنت مشغولاً كذلك بفرض
الشعر . ثم كان هناك أيضاً كتاب روحي عن السياحة « حج إلى نجد » لأبوبه
وأطبعه . فهذا العمل المضاعف شغلني حد الشغل في الشتاء كله .

علي أني لم أشغل نفسي بالسياسة الداخلية قط مع أن الوقت كان وقت أزمة
وكان غلادستون — والاتحادات قريبة منه — لايفك عن الوعظ والخطابة
وكان يبلي مع المحافظين فيما يختص بالحقول أما في المسائل الشرقية فقد كنت أعتبر
غلادستون متعصداً علي قلة حيي للأتراك في ذلك الزمن . وكان أصدقائي ماعداً
براند وهلمتون محافظين ثم أن حيي ليتون حجب عن عيني أسوأ آثارهم دررائلي
الاستعمارية . وقد تثبت في ذلك الحين فكرة ما لحا أن إنجلترا قد تصلح أداء
حيز في الشرق إذا أحسن تغيير معاهدة قبرص . وكنت لازال أرجح فيما يختص
بموقفها الاستعماري بين الرجا والخوف ولم استقر علي رأي حتى دوت أفكاري .
ومن شواغل ذلك الشتاء الكبيرة عثاني بتظيم اصطلي في كرايت . وست فيما
يختص به في رسالة مستمرة مع العالم الرياضي . ومن الغرابة بمكان أن آرائي
الخاصة بلحوم الخيل كانت أول فرصة مهدت لي الاتصال بغلادستون كتابة .

وكان عطفه المشهور علي يوان القديمة قد أثار فضوله لمعرفة آرائي في خيلها
وطريقة تربيتها فأرسل يستوضحني ثل ذلك بواسطة المستر تولز محرر مجلة « فورتينيلي
رفيو » فهذا وما حدث من تعيين صديقي إدوارد هاملتون سكرتيراً خصوصياً له
حين خلف دزرائيلي في رئاسة الوزارة في إبريل كونا الحلقات التي أدت بعد ذلك
إلى ترأسنا في الشؤون المصرية .

وتيسر معرفة الثورة الفكرية التي كنت أعيش فيها أثناء ذلك العام سواء أكان
في الآداب أم الاحتجاج أم السياسة باقتطاف مد من مذكرات كنت أخذت في
كتابتها في ذلك الحين وما أقصر هذه السذ علي ما كان خاصاً منها بالشرق .
والسدة الأولى يصف فيها لورد سرادفورد رادكليف الذي لبث سفيراً لبريطانيا

في الاستانة زمناً طويلاً والذي يعيش الآن وقد شاخ في عرلة مع ابنته علي حدود
كنت ومسكن :

مارس سنة ١٨٨٠ — زيارة لورد راذكليف في فرانت . أعطاني اللورد ورقة
عن الاصلاحات في تركيا . وهو يزمع ارسالها للتيمن وقد قرأتها في فراشي . وهي
عمل رجل مسن كلها ايهام وارتيك وليس فيها الاقليل من مصاء العزم . وقد كان
الواجب ألا يكتب الشيوخ الا الذكريات . وقد بلغ اللورد الرامة والتسعين
من عمره .

ولسكه مع ذلك شيخ عجيب قد ارتست على وجهه امارات التقوى فلو نه
مزيج من الابن وورق اللورد وعينه زرقاوان صافيتان وياض شعره كياض الثلج
ومم أن سمعه قد ضعف فهو لا يزال مجيد الكلام . وقد رددت عليه بمدكرة أدعنها
آرائي في تركية آسيانم كست أقضى معه الصباح مصفياً له كريمة القديعة فعد كان قائماً
بعمال السفارة البريطانية في الاستانة حين مر بها لورد بيرون في سياحته الموصوفة
في قصيدة « تشيلد هارولد » وقد لبث معه ستة أسابيع في رهة يومية . وكل بيرون
يومئذ لطيف المعاشرة ولم تكن أحاديثه قد امتلأت مكاته القاذعة . وكل الشيخ
راذكليف قد التقى به قبل ذلك سنة ١٨٠٥ في ملعب كرة اذ كانت تناري مدرستا
« آون وهارو » وكل من كل منهما يلعب مع فريق . قال الشيخ « وكل بيرون يلعب
الكرة (كركيت) على حبر ما يمكنه عرجه » قال وما ملت فقط لان أصدق انه كان
بين بيرون واللادي كاروتش لام أي خطأ حقيق ، وكل مافي الامر لم يتجاوز
الرحمة والرفة والخير وكلها أمور لا تنفق مع ما اشهر به بيرون . وقد كنت أفصل
جلوسي لاستماع هذه الذكريات القديعة على سماع حديث أبجل امرأة في لندن .

١٦ مارس — تناولت العطور مع رفرز ولسن ودارت مناقشات حول
شخصية الكولونيل غوردون . والعالم كله متفق على أنه رجل بارع . وقد حكم
السودان وحده رها . أربع سنين واجتث محارة الرقيق من حدودها . وقد عاد
اليوم إلى لندن فلم يكلفاً شئ . ولم يره لورد بيوكسفيلد (دررايلي) ولا عبره
من الوزراء . وقد أخطأ في أول الامر فيما يختص بعلاقاته معهم وقد مر ساريس في

عودته واحتمل لورد ليونز في السفارة البريطانية ورجاه في أن يسمي في تعيين خلف أوربي له في السودان . وهدد بأنه إذا لم تفعل الحكومة البريطانية ذلك يذهب إلى الحكومة الفرنسية . وبعد هذا دارت بين ليونز مراسلات كتب غوردون في خلالها خطاباً حاداً يقول في حاشيته « أن من دواعي ارتياحي ثقني بأنه بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً يتساوى الجميع . ففي صندوق أسود طوله ستة أقدام ونصف وعرضه ثلاثة أقدام تودع الرفات سواء أكانت ذات سفير أم وزير أم رفات خادمك الخاضع للطبع » فهذه الأقوال صيرته منحوناً في نظر الرجال الرسميين . وكان اليوم قد ترك أوروبا ونفض ثيابها عن حدائه قاصداً إلى زنجبار .

ولست أشك في أن هذا الحادث يمثل أخلاق غوردون كل التشبيل وهي منسجمة مع كثير من الرسائل التي بعث بها إلى السير ايفلين بارن (لورد كرور) بعد ذلك بأربع سنين . وقد كان موظفوها أبداً يكرهونه لتعوده خرق قواعد سياستهم والاخلال بمناهجهم الرسمية . وقد اعتقد بعضهم فيه الحسوس واعتقد آخرون أنه سكير وآخرون أنه متعصب ديني إذا عرضت له مشكلة استفتى فيها بحيلة أو اقترح عليها ناقمة قطعة من الصلة في الهواء . فلم يفهمه أحد ولا وثق به أحد . في الوقت الذي اكتب عنه — أوائل ربيع سنة ١٨٨٠ — كان غوردون مستاءاً جداً من الحكومة البريطانية بسبب اللور الذي لعبته في عزل اسماعيل . وكان غوردون لسبب ما يحب اسماعيل ويكره خلفه توفيق فحين علم في الخرطوم بما حدث عمل عن الحكم وساء علي وجه أخص أن خلفه فيه أحد الباشوات الأتراك ولم يخلعه أوربي كما كان يريد . وقد كان غوردون من أهل البوغ وله كثير من الصفات النبيلة ولكنه كان كذلك مجموعة مناقضات ويظهر أن للوطنين عنفاً في اعتقادهم أن عقله لم يكن سليماً في كل الأوقات وقد كان هذا هو الرأي الرسمي فيه — كما سيظهر بعد — حتى في الوقت الذي عهد إليه فيه بأموريته الأخيرة في الخرطوم .

وهناك نذرة أخرى تاريخها ١٦ مارس أيضاً - مرت بالكردينال ماينج وكان حديثاً في السياسة وقد سألي لمن أعطي صوتي في الانحياز ؟ قلت سأعطي صوتي للحمه خيملت . فقال يريد أن تقول بأنك لن تنتخب أبداً قلت لا أستطيع

فن أثير في نمى اهتماماً بمثل هذه الاشياء ، وأنظر الى المدية كأنها مقصي عليها
بالقضاء والى السياسة كأنها أداة لا تستطيع أن تقدم النهاية أو تؤخرها . فقال
الكردبيل هذا هو رأيي وان كنت أبيع على مسألة أخرى . في الغالب ان أوروبا
تروض المسيحية وتزعم معها التعاون الادبي . وقد نجد اليوم حكم القوة على نحو
ما كلن في أقدم الاحيان ، ولا يمكن أن يكون لذلك نتيجة غير سوء الدماء والحروب
وربما قام على انقاض الكمية نتي . آخر . ثم نكلنا عن أشياء . فقال ان « رالف
كير » أخبره أن اليهود يبرون خفة وطأة حكمنا هناك فى الخوف وأنهم يحترمون
الروسين لانهم يحكمون بالقوانين العرفية . فقلت ان الروسين أسويون وهم يحكمون
بالطرق الاسيوية -- وبالتدليس اذا أمكن -- اذا لم يكن بالقوة . وهذا هو ما ينهيه
الاسويون . فقال الكردبيل ان الروسين أسويون كما تقول وأريد على ذلك ان
تجهلت بوديون وليس المهليفيه من تلاح الغرب ولكنها محصول شرقي .

وقد ادارت انتخابات سنة ١٨٨٠ على مسائل الساسة الخارجية أكثر منها على
أي شيء آخر . وكان غلادستون قد هاجم بكل قوته مشروعات دررائيلي في
التوسع الاستعماري . ووصف بمقدان الركن الادبي نداحه في الاستانة وبرلين
منصلحة الأتراك كما أعجى بأشد اللامعة على استيلائه على قبرص وشرائه أسهم قناة
السويس واعتدائه على مصر -- كما حمل على حلتي الافغان وعلى حرب جنوب
أفريقيا التي كانت لازال ناشبة .

أما فيما يخص مصر فكان غلادستون قد أعلن آراءه كتابة قبل ذلك اد كتب
مقالا في عدد أغسطس سنة ١٨٨٢ من « مجلة القرن التاسع » بعنوان « الاعتداء
على مصر » وأعرب فيه بصراحة حلية قوية عن معارضة أحد المجلتراء على عاقبها أية
مسئولية على ضفاف النيل . وهذا المقال من الشهرة والترفع عن المساوى التي
أصابت مصر على يده بحيث يجب أن تقتطف شيئاً منه . وقد ذكر في هذا المقال
أنه يعارض في اعتدائه كذا لعدة أسباب . أولاً - لأنه يزيد في ثقل الحكم الشرقي
الموضوع على عاتق بريطانيا والذي أصبح ثله عضواً الى الآن ثانياً - لان
توسيع الحكم الاستعماري لا يمكن الا بوسائط شائعة . ثالثاً - لان زعم حامية طريق

الهدم واحتلال وادى النيل رعم كاذب لأن طريق رأس الرحاء الصالح هو طريق
المواصلات قديمى ورأساً لأن أى تدخل فى قناة السويس أو فى القاهرة لا بد
أن يؤدى الى مخاوف أخرى فى أفريقيا . قال « وسواء اشترينا وجودنا فى مصر
أم سرقمناه فلا شك فى أنه سيكون نواة امبراطورية فى شمالى افريقيا وهي امبراطورية
لا بد أن تنمو حتى تصل الى ما بين النهر الابيض وحتى تصل ابدىا منها — فوق
خط الاستواء الى ابدىنا الأخرى فى نائال وكاب تون دع عنك الترנסفال والبرتغال
فى الحبوب والخشخشة وريزبار اللتين تتلعان أثناء الباحة . وقد تنعم من حيث سعة
الاراضى امبراطورية فى كل ركن من الأركان الاربعة ولكسان يكون منها آمين . »
ثم كتب كذلك فى معيى المحافظة على الحكومة الذاتية الاسلامية فى القاهرة
فقال « ان الاحساسات التى قد يؤدها فى مصر سوف تكون مقفولة وعادله لأنها
مأهولة من قرون كثيرة شعب اسلامى وقد حكمت هذا الشعب سلطات اسلامية
وكان لمصر فى وقت من الاوقات سلاطين . وكانت مستقلة استقلالاً داخلياً أثناء
لسعية تركية وهذه حالة سعيدة فى أى بلاد كانت فلا يجوز لنا أن نغيرها . ثم ان
شكاوى الناس هناك جسيمة ولكن لا يوجد دليل على انها تستعصي على الشفاء .
فقد أظهرت التجارب أن الاسلام لا يستطيع أن يؤسس حكومة صالحة على الشعوب
المتعدية المسيحية ولكن أى دليل لدينا على أن المالة لا تكون كذلك . وانه يمكن
تحقق الاعراض السياسية اذا كانت الحكومة الاسلامية مسيطرة على شعب
اسلامى حيث لا يوجد مناقضات الدم او الدين أو العادات أو أساليب التعبير » ثم
تكهن بالمشكلة التى تنشأ بين بريطانيا وفرنسا على مصر فقال : « أعتقد أن اليوم
اى يشهد احتلالنا مصر يشهد كذلك توديعنا كل ما بيننا وبين فرنسا من
العلاقات السياسية الودية . نعم أنه قد لا يحدث عراك فى الحال ولا مطامرات
خارجية ولكن سيكون حقد ساكن متأصل كذلك الخندق الذى كانت تضربه
أمريكا أثناء الحرب الاهلية وهو الخندق الذى انطلقنا الآن . وعنى عن البيان أن
الامم قوية الذكرات » وقد حتم هذا المقال مدعوة حارة سأل الله فيها أن يبعد
دسائس الزورارات ويحقق بحري الشرق قال : « ان الارض لم تنم مثل هذا الاقار

من أحيال طوبية ولا يسعنا نحن الانجليز ألا أن نحزن ونألم لأننا لم نقدم شيئاً في هذا السبيل على أنه كيما حدث فأن أرحو أن لا تقع في شر من هذا القعود .
وأخبراً لنا الرجاء بعدم الوقوع في الخطأ العمد مصافاً إلى التحلي عن الواجب »

ولم يكن في طاقتي الا أن أعطى علي هذه التصريحات البيلة التي كررها غلادستون في خطبة أثناء الحملة الانتخابية في سنة ١٨٨٠ لو أنها كانت قيمت بلخلاص أو على قواعد السياسة التي اعتمزم الاحرار أن يسيروا عليها اذا هم تولوا الحكم . ولكن غلادستون لم يوح الي في ذلك الحين شيئاً من الثقة وخيل الى أن الفرق بين المحافظين والاحرار كمال طفيفا .

٢٠ مارس تشي معنى اليوم حون بولن سكرتير لورد ريبون الخاص .
وقد تكلمنا في الانتخابات وقلنا انه لا يوجد فرق يذكر بين المحافظين والاحرار ولن أعطي صوتي . ومع أن سياسة سلبري ليست خساسة كسياسة لورد راييل أو غلادستون بها اميل الى الالمانيين من أن نرصبي ولا شك في أن رول المانيا في الاستانة يكون أسوأ من أى شيء يستطيع الروسيون أن يفعلوه .

٦ ابريل — باريس . (كانت الانتخابات قد انتهت وأسمرت عن أعلية كبرى للاحرار) تناولت الفطور أنا وجود فرى وب تروز (ابن عمي فرنسيس جون كرى) ثم ذهبت إلى السفارة . شفيلا (سكرتير لورد ريبون الخاص) مبه بحكومة الاحرار الجديدة وبما قاله لمرنجنون وبما قاله غرنفيل له . ومع اني معتكف عن السياسة أظن ان نجاح غلادستون نكبة كبرى . والاحرار اقوياء جداً فلامناص من ان نرى لهم نجارب كثيرة على الدستور البريطاني . وستظل الآن كل قوانين الالهاب والاراضي . وكذلك سوف يطراً على سياستنا الاسيوية من التعديل والتعذيب ما ننوء به . ولا يعرف الاحرار شيئاً عن الشرق وسيجبنون عن عكس سياسة المحافظين كما يحافون تنفيذها كما هي الي النهاية . وسيعملون على اصلاح تركيا ومنى تعذر عليهم الاصلاح طاشت احلامهم واندفعوا الى الحرب . وقد ساء في هذا التنفير شخصياً اذ لا بد ان يستقيل ليتون مع الوزارة فتقوم اللوائح يساً وبين زيارة الهد من الشتاء القادم ، ولكن هذه كلها اشياء نافعة في سير التاريخ .

٩ أبريل — باريس . جاء في خطاب من آن مفعم السياسة . سيأخذ هارنجتون رئاسة الوزارة ويأخذ البحرية وعشرون والمالية غلادستون . ولن يتغير شيء في السياسة الخارجية فستحتفظ ببرص وتشارك روسيا وتدار ركبا من عاليولي ولا يعرف لورد ريبون محله أن كان سيكون للعمل . ولا رت اسمهم يصور مدام توفيكوف (١) بأنها نجمة غلادستون السعيدة ... تمسبت مع آدمز سكرتير السفارة الاول وقابلت هناك دفرر ولس الذي يذهب عدداً الى مصر مع دابسي وسوليمان وسيقوم ولسن بمهمة التصفية.

٢٦ أبريل — عدت الى إنجلترا حيث أصبح غلادستون موضوع حديث الناس وقد تقلد رئاسة الوزارة واحاط نفسه بجماعة معدومة الكفاءة مثل تشيلدور ورايت وعرافيل . وسيأخذ رانجتون الذي هو رجل من الطرار الثاني ووزارة الهند ويذهب إلى الهند وريبون ولا يزال هذا الترتيب الأخير سرّاً .

وعلى ذلك لم يضل غلادستون شيئاً حديثاً في سبيل تنفيذ السياسة الذي كان يعظ مها غير ارسال ريبون إلى الهند . فريبون هذا ليس بالرجل التابع ولكنه رجل جد واستقامة . وقد أخذ على عاتقه مهمة الاحتفاظ بالسلم على حدود الهندية والشروع في سياسة جديدة الغرض منها تنفيذ المنشور الملكي الخاص بالكم الداني بين الوطنيين . وقد أخذ معه غوردون كسكرتير حصوصي فائز ذهنة العالم الرسمي الذي كان يعد غوردون مجنوناً . وعندي أنه لم يكن يستطيع أن يرهن علي حسن نيته نحو الهندوشى . أكثر من هذا . علي أن غوردون لم يكن من طرد السكرتيرين المخصوصين حتي مع رئيس كريون فلم يكند يزل في بمباي حتي استقال . ولا أحب أن ديون كلن مخطئاً في اختياره بل أعتقد أن الاستقالة ترجع إلى ثورة غوردون على جميع القوانين والعادات . وسأصف حكم ريبون في الهند عدم ما أصل إلى سياحتي الهندية الثانية في سنة ١٨٨٤ . ويكي أن أقول هنا أنه اذا لم يكن أفاد كثيراً فذلك

(١) كانت مدام توفيكوف امرأة فتاة في خدمة الحكومة الروسية وكانت قد جاءت الى إنجلترا قبل هذا التاريخ قليل ورايت في كرات وقد مكثت معنا اسبوعاً ثم مضت ووقفت الى فتح سيلسي مع غلادستون .

يرجع إلي جن الحكومة الانجليزية لا اليه ، وقد مرق مروق السهم في الطريق التي
وسمت له في أول أمر ولكه — كالطفل الذي يسق اخواه فيضحكون منه
بالباطل والوقوف ليحد نفسه معرداً — وجد بهه اشده دهشه يجري منفرداً
وقد اخذ الوزراء يضحكون من منابته بعد أن عبروا آراءهم ولم يخبروه بذلك .
ولا بد أن يكون قد تألم كثيراً عند ما اضطر هو أيضاً إلي التسليم . وقد أعطيت
جيم الماسب العليا الاخرى إلي الاحرار فقلد لورد غرايفيل ووزارة الخارجية وهو
نييل حسن ، لطيف العشرة ، بحيد اللغة الفرنسية ولكنه أصم كسلان . وسياسة من
الطراز القديم — طراز التأجيل والتسوية الذي لا يعمل اليوم ما يستطيع أن يؤجله
لفقد . أو كما كان يقول سياسة التخطي وترك الاشياء تصلح نفسها ولم يكن ينتظر
من مثل هذا الوزير أن يأتي سياسة جديدة والواقع أنه لم يحاول حديداً في تركيا
أو مصر أو في مكان آخر . فلم ترص معاهدة قبرص ولا حوت إلى أي غرض
نافع وإذا استتبها الصغط المصيف الذي نسط على الباب العالي فيما يختص بمحدود
الجبل الاسود واليونان نستطيع القول بأن كل قديم بقي على قدمه .

وعاية ما حدث ان استدعى لا يارد واصم المعاهدة من الاستانة وعين غوشن
مكانه وهو نفس عوش الذي كان قبل ثلاث سنين من ذلك العهد اجري التسوية
الظالمة لحلة السندات وقومه — شركة عوشن وفريج — مهم والعمل الوحيد الذي
يدل على ان وزير الخارجية كان يذكر حلة غلادستون على الانراك ، وكل ما عمله
ليبرهن على ان غلادستون كان مصيباً كما كان دزرائيلي وسلبيري مخطئين هو انه
خلافاً لما تقضي به تقاليد وزارة الخارجية ولوائعها نشر تلغرافا سريرا كان لا يارد
قد ناقض فيه جميع ما عك في تلغرافاته غير السرية عن الحالة في الاستانة .

وقد اوضح في هذه الوثيقة المشثومة كل سوات عبد الحميد وضعفه ولا سيما
جنه الشخصي . وفصل ما لم يكن العالم الخارجي يعرف شيئاً عن حقيقته من نظام
الحاسوسية في حكومته . وكل شر هذا التلغراف حيانه كبرى للايارد ثم انه كان
عملا طائشاً لانزال سياسته في الاستانة تروح تحت اعبائه . وقد كلن لا يارد
صديق عبد الحميد الحميم وبال من جوارحه مالا يباله سعر اجبي فوق العادة . وقد

أظهر اسلطان صه الايلارد كما يظهر معه لصديق يستطيع الاعتماد عليه فلما اكتشف له ما اعتبره هو حياة من لايلارد فذبت الحفرة مودنه إلى الابد .
ومع ذلك وبلي الرعم من أن الموقف في وزارة الخارجية لم يكن مشجعاً صممت رغبة في انجذاب دعوتي أن أحصل على عطف رئيس الوزارة علي مشروعاتي وقد شجعتني على ذلك نصيب أحد أصدقائي المحبين سكرتيراً خاصاً له وهو ادوارد هاملتون « والآن المنزال السبر ادوارد هاملتون » الذي قال انه مهما يكن من قلب الاحوال الخارجية فان عطف غلادستون على الحرية الشرقية لم ينجح . ولم أحب عن هاملتون شيئاً من آرائي ومشروعاتي وقد ذكر لي انه لا يعورني لاقناع غلادستون بها الا أن انشرها ككلمة . وهناك رسائل أخرى اعتقدنا انه يمكن التأثير بها في غلادستون وهي مفصلة في مذكراتي .

١٢ يونيو — أخذتني هاملتون لزيارة السيدة ل . التي تسكن بيتاً كبيراً في ميدان م . وهي ارلندية ميمنة طيبة تبلغ الحسنة الكلام والتحرير وليس فيها أثر للحمال ولا لأي شيء آخر . وهي احدي مجوم غلادستون وكانت زيارتنا لها نصف سياسية حيث كلن قد بدا لي أن القحها ما رأني العربي والقح رئيس الوزارة بواسطتها . وهي عطوفة علي الدين رآهم من العرب ولها اهتمام كبير بالشرق . وقد قرأت لنا بحماس رواية كانت تصفها على هيرود وكليونترا وبولوس قيصر . وهي رواية كنيية وان كانت قد اكنت لنا ان غلادستون معجب بها كل الاعجاب . دعونا رولاند وجور ولن ولودنس اريفانت للشهلاء ، وهذا الاخير ذو شخصية جذابة وقد عاد نواً من الاستانة حيث كلن يجتهد في أخذ امتياز من السلطان باراض وراء الاردن ليستعمرها أبناء اسرائيل .

٢٢ يونيو — دعونا آل بلودن للعشاء ، وكذلك ادوارد هاملتون الذي هو الآن سكرتير غلادستون الخاص . وسيذهب بلودن عدداً الي بغداد كقيم سياسي وقد لقحته هو وهاملتون بأرائي في المسألة الشرقية .

٢٦ يونيو رارنا لورد كالتروب ورسني وندهام . وكنت ليفيت في كرايت وعرضا الجبل . وقال لي الاول انه اطلع كثيراً من أعضاء نادي ركاب الجبل على

خطابي الخاص بخيل الساق العربية وانه سيعرض المسألة في اجتماعات النادي خلال الشهر القادم وأنه حينئذ يحق لنا أن نقدر النجاح . وإذا استطعت أن أدخل أنجلترا أخيراً عربية أصيلة تتساو معها واستطعت أن أحرر بلاد العرب من حكم الأتراك أكون لم أعش عبثاً . ظهر في جريدة سيكيتور خطابي الرابع عن « السياسة في بلاد العرب الوسطى » وأعلنت . . . مجلة فورتنيل رفيو عن مقالتي « وارث السلطان في آسيا » . ذهبت بعد حين إلى وزارة الخارجية حيث أنني لورد نورثبروك علي خطاباتي (وهي أول خطابات أرسلتها إلى الصحف) وكان السير جارنت وليسي هناك وهو رجل قصير به نشاط ورعدة . ويشق علي المرء أن يتصور أنه قائد عظيم وقد ذكرته بزياراتنا لقرص فقال « أظن لأدنى أن نكتب كتاباً » فقلت نعم ولكننا لم نذكر فيه شيئاً عن قرص . فقال انكنا لم نكتب فيها وقتاً كلياً . فقلت لقد ظننا أنه لا يحسن بنا أن نذكر شيئاً عنها .

كانت مقالة « وارث السلطان في آسيا » قد قصدنا بها كما أسلفت لفت نظر غلادستون إلى آرائي وقد بحثت في ذلك بواسطة هاملتون الذي عرضها لنظره وإن كان لم يعجب فيها إلا أقل ما يمكن تنفيذه ، وما كان قليل الأهمية في نظري أن تصبح المقالات الأرمينية كولايات مستقلة في المستقبل . وكانت الفكرة التي شرحتها هي أنه إذا كان قد منح الاستقلال لحزب من تركية أوروبا فقد وجب أن نشجع الأتجار . الأسوية الأخرى على انحلال الامبراطورية على أن تؤلف من نفسها إيلات مستقلة وفقاً لجنسياتها .

وقد دعوت المستر غلادستون باسمه إلى أن يحقق كلامه التي ألقاها حديثاً وأكثر منها في مصلحة حرية الشرق وذلك بأن يستخدم الاداة التي صنعها أسلافه — معاهدة قبرص — لا في تحقيق مقاصد أنجلترا الانانية الاستعمارية بل في مصلحة شعوب الشرق . وكان من وراء شرح هذه المقالة في مجلة « فورتنيل رفيو » أن دعيت إلى ديوان الوزارة في « دونج اسنريت » حيث أعطيت فرصة سرد آرائي وتأييدها أمام رئيس الوزارة . ويتضح أن شخصيته لم تؤثر كثيراً في هذا اللقاء الأول ولكنني نشجعت على استيلاء أوجه الرأي ومن ذلك الحين كان

غلاستون يعتقد بعض الاعتماد الآراء التي كانت تصله مي بواسطة هاملتون .
٢٧ يونيو — مرتت على ١ . الذي وجدت معه كوينزبرى فاحذ في الحال
يشرح لنا آراءه الأدبية في حالة انفعال ونحس . قال ان هناك كائنا أعلى ، لا ألما
آدميا ، ووحدا يهدى المرء في بحثه عن الكمال . والقاعدة الرئيسية هي التئة
بالإنسانية . والواحد الرئيسي هو اللوع بالمسد والروح الى أوج الكمال . ثم يكن
الملايكز بالمتكلم الدرب اللسان فاقترح أن يتلو عليها شعراً بدلا من الشرح والبيان .
وهو شعر قرصه — وبينما كنا في انتظار التلاوة دخل فيليب كرى ومعه شيخ
قصير ذو أنف طويل وعيين سوداوين وهو ملككم حاش السفير الفارسي . وقد
جلسا بينما أخذ كويررى يتلو الشعر وهو شعر مهم وعظي متعدد يتندى بالمادة
وينتهي بالإنسانية فلما فرغ تكلم الشرقى .

قال « ربما كل بهمكم أن تسعوا حكاية دين أسس في فارس قبل هي عدة
سنين وقد كنت رعيه في يوم من الايام . وهذه الحكاية تريكم كيف نشأ الديانات
وأن مذهب الاسايه يصلح لآسيا كما يصلح لاوريا .

« وعندي ان أوريا عاجزة عن أن تنشئ دينا حقيقيا يستولى على أرواح
الرجال كما أن آسيا عاجزة عن أن تنشئ نظاما سياسيا . ان عقل آسيا حيالى كما أن
عقل أوريا على . اننا نتج في فارس كل يوم « مسيحا جديدا » وعندنا « أبناء الله »
في كل قرية ، وشهداء في سبيل الله في كل بلدة وقد رأيت نفسي مئات من البايين
يتحملون الموت والتعذيب من أجل ايمانهم برسول لا يختلف تعاليمه عن تعاليم المسيح
وقد صلب كما صلب المسيح . ان المسيحية لا تعدو أن تكون دينا من مئات الاديان
التي أظهرها بين الناس ايمان بعضهم بها . ولو أنها بقيت ايمانا أسيويا لزال من
الوجود منذ زمان طويل كزال مائة مثلها من التعاليم الادبية التي وجدت قبلها
وبسدها . وقد أنشأت في شيباني — كما أخبركم دينا ، كل له في وقت من
الافوات ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ . ولقد ولدت أومنيا مسيحيا ولكي نشأت بين المسلمين
وطريقة تفكيرى هي نفس طريقهم وكنت أخا في الرضاة للشاه . فلما ولي الملك
جعلنى رئيس وزارته . فلما بلغت العشرين كنت حاكما مطلقا على فارس . وقد

رأيت مساوي، الحكم وندهور الرفاهية المادية في البلاد فساورتني فكرة الاصلاح . فذهبت الى أوروبا ودرست فيها نظم الدين والاجتماع والسياسة المتبعة في الغرب وعرفت فيها زعات فرق المسيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئات الماسونية وألفت مشروعا يجمع بين حكمة أوروبا السياسية وحكمة آسيا الدينية .

وقد أدركت عبث الاحتماد في تنظيم فارس علي مثال أوروبا فصصمت علي الباس مشروعي الباس الذي يفهمه الناس هناك — لباس الدين . فلما عدت جمعت زعما طهران وأصدقائي ممن يري حاجة الاسلام الى الاصلاح موحجا توسلاتي الي نبلهم الادبي ومجتهدم . وفي فارس كلمتان يعبر بهما عن الرجل — الانسان من اللغة العربية وآدم التي هي اشتقاق فارسي . وتدل الكلمة الثانية علي الرجل العبقري — وهو نوع خاص من الحيوان أما الثانية فتدل علي كائن أدبي ممتاز فقلت لهم كلكم يفاخر بانه أكثر من مجرد « آدم » وانه لذلك « انسان » ولكي أمكنكم من أن ترووا في هذا الزعم أنصعكم بأن تفعلوا هذا وذلك . وقد وجدوا كلهم كلامي علي حق وفي وقت قصير كلني ٣٠٠٠٠ تابع وتحت ستر الاصلاح الديني نفذت ما استطعت من الاصلاحات المادية . فلصاخي يرجع الفضل في انشاء الثلغراف وتنظيم مصالح الادارة . ولكن كثيرا من هذه الاصلاحات التي حاولناها قد أدركه الفناء . ولم يكن لدي في أول الامر نية انشاء دين ولكن أتباعي أرغفوني علي أن أكون قديسا ونيبا فقد لقبوني « بالليف المقدس » ولقبوا الشاه « بمصلح الاسلام » فوضعت كتابا ، انجيلا يديني وأمر المتحمسون من أتباعي علي أني أجبي . بالمعجزات . وأخيرا راع الشاه مخوفاتي التي سارت في الحقيقة أعظم من قوته . فصمم رغم صداقتنا علي قتلي كما صمم أتباعي علي قتله . وعاش شهرين في خوف دائم من الاغتيال ثم تفاهنا . لقد كنت أحب الشاه وأحترمه فاستأذنته في السفر وقد دعني أتباعي باللموع وقبل الموارون أقدامي فذهبت الي الآستانة معتزما أن أحصل من السلطان علي اذن بالاقامة في بغداد وقد ذهبت اليها فعلا وصار لي فيها أتباع من الفارسيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ولكن الأتراك خدعوني واصطورت للرحيل قبل أن آتم علي . وقد طلب أتباعي في فارس أن أعود اليهم ولكنني لم أعد لعدة

أسباب . فأولا حشيت أن أموت وليس لا يؤمن به . وثانياً كانت صغى محرفة . وثالثاً كسب قد تزوجت فكتبت الى الشاه الذي رد باستعداده لتقليدى أى منصب فآثرت البقاء في الخارج وقبلت منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية .

وكان من المفارقة يمكن أن يسمع الانسان هذا الشيخ القصير دى الملابس الاوربية يتكلم بمجداً امرنسية الى أقصى حد راوياً حكاية حد شرقية . وقد ذهبت معه الى ممره فيما بعد (وكان يسكن على الجانب الآخر من هيدنارك) ووصل لي آراءه في الشرق والعرب اللذين يعرفها معرفة دمية فتركته معتقداً انه أعظم شخصية التفتت بها في حياتي ومؤمناً أكثر من كل وقت آخر تفوق العقل الشرقي في الدكا . . وأنى رحل في أوروبا كل يستطيع أن يجعل الانسان يشعر بأنه ملول ... !

وعد كان لهذه المعالجة العرضية في دار سيدة لطيفة في ملجرايا وفي قلب لندن أعمق تأثير في عسي وقد أحدثت ثورة في آرائى الى حد ما . والى هذه المقابلة وما أعرضها من الاحاديث مع هذه الشخصية المريدة يرجع الاعتقاد الذى عمرني بهد ذلك وهي ابي أخطأت في اختيار نقطة الانتداع في كل ما يخص بأرائى في تحرير الشرق واصلاحه وانه اذا لم يكن بد من أن أعمل عملاً صالحاً للعرب أو غيرهم من المسلمين الذين يحكمهم الاثراك فانه يجب علي بدى به . أن أعرف أمكولهم الدينية حق المعرفة . وكنت الى الآن قد حلت بينهم كعرب عن آرائهم الحديثة علي الزعم من عطلي عليهم وان لم تكن سلورتي فيهم آراء كالتى تعرض للمسيحيين لقد تعلمت أن أحترم الاسلام ولكنى لم أقدمه ولم أتناقش في تعاليمه مع أي عالم تشريعي أو حبير برأيه المصري . وقد رأيت في الحال ضعف موقفي لابل عبته وصممت قبل أن أسير في طريق علي أن أخصص الشتاء القادم للدرس فقط ذلك المديس الرئيسية علي الاقل من وجهة تأثيرها في السياسة . وعلى هذا رسمت مشروعات الشتاء . وكان رأيي أن أذهب الى جدة في وقت الحج وهناك أدرس على خير ما أستطيع ثم انهر المرمعة التي قد تعرض لى لاستئناف العمل . وقد أوفق الى احتراق بلاد العرب مرة أخرى من الحجار ان امكلى أو من اليمن الى نجد . وكنت أحسب اني قد أحد من الوهايين العلم الذي يلقي العقيدة العربية في الدين من حيث تعارضها مع

العقيدة التركية فيه ، واني قد أستطيع أن أقوم معه بحركة اصلاح أضع أنا عناصرها السياسية ويضع هو العناصر الدينية . ومع ظهور هذه الفكرة صدقت بها في ذلك الحين واعتراى بذلك يفسر لقرائي المصريين كيف اتفق ان سلكت الخطوة التي سلكتها في القاهرة بعد ذلك بعام .

وكنت متأثراً ككثلك في لندن خلال ذلك الحين شرقي علامة آخر يدعي صاونجي وكنت قد تعرفت به كأستاذ في العربية . وهو من أصل مسيحي مثل مالكام خان وقد أزعج مرة أن يكون قسياً واشتغل في نشر الدعوة في روما ولكنه صد عن السوح في آخر الامر وكان كالقنبر يعطف علي الدين الاسلامي أكثر من عطفه علي دينه . وكانت له شهرة عظيمة كالم عربي وله حبرة تامة بالمسائل التي نصعبها سياسي ونصفها ديني والتي كان المسلمون يتناقشون فيها في ذلك الحين . وقد قام بالعمل الرئيسي للرحوم الدكتور مادجر في القاموس العربي الانجليزية المسي باسم الدكتور وكان يصدر في لندن يومئذ جريدة عربية اسمها « النحلة » ويكتب فيها كل شهر عظة اسلامية للمسلمين على أساس الآراء العصرية الراقية أما تحويل تلك الجريدة الصغيرة فكان لقرأ وكذلك كانت أغراضه من اصداره وهي أغراض لم أسبر أعماقها قط . وتتلخص روايته لتلك الاغراض في انه وكيل عن سلطان زنجبار وهو حاكم مستنير حر العقل والتفكير . ولكني ما اقتضت قط بهذا التعبير . ولدى من الاسباب التي وقفت عليها بعدئذ ما يحتملي على الاعتقاد بان أموالها وبعض وجبها السياسي علي الأقل كل يأتي من الخديو اسماعيل . وكان اسماعيل في ذلك الحين غاضباً علي الباب العالي الذي غدر به أمام أوروبا . وكانت « النحلة » تحمل علي عبد الحميد حملات عنيفة وشتمه باعتصاب لقب « أمير المؤمنين » .

ولا أذكر الآن هل عرفت أول مرة تاريخ الخلافة وموقفها الحاسم من صاونجي أو من مالكام خان . ولكنها — وأنا علي ما أنا عليه من معارضة الحكم العثماني — أثرت في من وجهة أهيئها بالنسبة لنوع الاصلاح الذي كنت أشده الآن . وفي مذكري ما ثبت اني أرسلت مذكرة الي غلادستون في هذا الشأن . ولدى خطاب من هاملتون يبل علي أن الوزراء اهتموا بأرائي .

٣ يوليو — حفلة شاي في منزل أ. ومن المدعوين رولاند وذرافن واليفانت وقد خلوت بالاحيرس في احدى الغرف فكانت النتيجة أن اتفقنا على أن نعمل معاً في المسألة الشرقية لكي نؤثر على الرأي العام البريطاني . وصممنا على أن نقعد اجتماعاً عهدياً عند رولاند يوم الخميس

٨ — مررت ببرسي وندهام واقعته بمذهبي السيلسي . وتلقيت زيادة في الموضوع نفسه من المستر جيمس المعصومي مجلس النواب . وتعيشيت مع ذرافن واليفانت وانواي وبرسي وندهام وهيري براند وهونيكر محرر مجلة « اليفانت هرالد » في فندق الهر . والغرض من ذلك ان نضم خطة للعمل بقصد التأثير في الرأي البريطاني العام فيما يتعلق بآسيا . ولم نعمل شيئاً معيماً غير تأليف لجنة لتلقي الاخبار . ذهب بعد ذلك الى باريس حيث التقيت برجل يدعي روبرتسون سميت وكان حديثاً في الحجارة (وهو أستاذ معروف)

١٣ يوليو — دعينا الي حفلة عند قرية غلادستون . وقد بكرنا في الذهاب وقبل أن يأتي سائر المدعوين تحدثت مع الرجل العظيم عشرين دقيقة ففصلت له آرائي في احياء الشرق ، فلاح لي انه اهممها علي قدر ما يستطيع أن يهتم بها رجل يجهل المسئلة . وقد بدت لي ملاحظاته سطحية وكانت أسئلته مناقضة للمسئلة التي ألقاها علي سلسري منذ ثلاث سنين . وكانت النار قد أطلقت علي باخرة بريطانية في نهر الدجلة فقال لي انه يخشي أن تكون هذه المادئة دليلاً علي عداة لبريطانيا من ناحية العرب .

وقد اعتبر حالة الامبراطورية العثمانية « حرجة » وقال انه يرجع ان الشرق لم يمر به مثل هذا الوقت العصيب .

ولو ان معاهدة سان استفانو كانت نفذت لما تخرجت حال تركيا أكثر مما هي الآن . ومهما يكن من هذه الآراء . أظن اني نجحت في ارضائه بمفكرتين : الاولى هي أن بقاء الخلافة في بيت عثمان ليس ضروريا . والثانية هي أن مدحت باشا كان أبله . ولكن غلادستون لم يعقد البية علي أمر بل عول علي أن يسير علي مقتضي الظروف حتي تقع الواقعة .

١٥ يوليو — حضرت اجتماع عقده المشتغلون بالمسائل الاسبوية . وذهبت بعد الظهر الى الدماستون وهي حديقة أنيقة فيها مهبل عصرى منعب وكنت أظن السير هنرى لايلارد من أهل الدعاوى والحيلاء ، ولكني وجدته لطيفاً ومتواضعاً بالنسبة لمركزه ، وهو يحسن التكلم ولا سباً فيما يختص بسياساتنا ويفهم الشرق حق الفهم وقد ذكرني بسكين ورولان وكابا من السائحين في عهده القديم وعندي أن مذكرات لايلارد تبث من الاهتمام والقدرة ما لا تبعثه مذكرات رجل آخر من أبناء هذا الجيل ، ويتضمن ارتقاؤه من اتفاقي منجول بين الاكراد الى سفير بريطاني لدى الباب العالي كل ما في الحياة البشرية من عاصر الرواة .

١٧ يوليو — اجتمعت بالسير شارلس دايل وكيل ودارة الخارجية فشرحت له فكرتي في الذهاب الى محد خلال هذا الحريف مع عبد الله بن السعود ولشد ما دهشت حين خيل لي انه يوافق علي ذلك ، ومع ان محادثتنا لم تكن طويلة قد تركتني مفتتحة بان دايل رجل عظيم . وكانت أسئلته جلية وفي الموضوع . فلما فهم المسألة كتب مشروع تلغراف الى عوشن في الاسنانة . ثم كلفني أن أذهب الى تتردن (مدير الخارجية الدائم) لمعرفة التفاصيل . وكانت الفكرة التي استغرقني في ذلك الحين هي الذهاب الى بلاد العرب ورؤوس حركة يقصد بها إعادة استقلال العرب . ولم يكن مضى على السير دايل سنة ١٨٨٠ في ودارة الخارجية الا بضعة أشهر على انه قد قدر له أن يلعب دوراً هاماً في المسألة المصرية سنة ١٨٨٢ . وكان هو وصديقه السياسي شمبلين وبرايت يمثلون العصر المتطرف في الحكومة الجديدة . علي انهما لم يكونا من الطبقة التي يعين الوزراء البريطانيون منها عادة بل كانا من رجال الطبقة المتوسطة ولا زلت أذكر النفور الذي قوبل به تعيين ذلك في وزارة الخارجية حين أن الدعاوى الارستقراطية تقليدية بين الكنبه ولكن ذلك لم يلبث أن ظهر معدنه بالطريق التي قبض بها على عمله في يده وبما هو أحدى معهم من ذلك ألا وهو استخدام اصطلاحات فرنسية في حديثه كما هي مبرة موظفي وزارة الخارجية . لذلك لم يمض وقت قصير حتي وجد نفسه لا محتملاً فقط ولكن محبوباً أما عبد الله ابن السعود المشار اليه في مذكرتي فهو عبد الله ابن ذبيان بن سعود

من بيت الامارة في محمد . وكان قد وجد سبيلا الى الاستانة ولما فيها الى السفارة البريطانية طالبا المساعدة ليحصل أو يستعيد مركزا سياسيا فقدته في بلاده . وقد سمعت به من كركي ثم ربيت الى هذه النتيجة وهي انه قد يكون الفرصة التي أنشدها في بلاد العرب . ومن ثم طلبت الى وزارة الخارجية أن تفصل بيني وبينه وتوافق على سفرى الرسوم . ولكن المشروع لم ينته بآية نتيجة بالرغم من موافقة وزارة الخارجية كما مر بك وذلك لان لورد تتردن عارض في المسألة حين عرضت عليه قائلا أن المشروع اذا تم بموافقة وزارة الخارجية تعتبر المسألة كلها مهمة سرية ومثل هذه المهمات لا يتفق مع تقاليد وزارة الخارجية . وعلى ذلك انتهى المشروع . وكانت أبنا هزيمة الجيش البريطاني في فاندغار بواسطة الافغانين قد وصلت الى لندن في ذلك الحين وصاعقت حذر الوزارة في دونج سريت . وكانت الهزيمة ضربة حاسمة لليون ولسياسة المجازفة وراء الحدود الهندية وهي السياسة التي استعارها نفسه . وأظن انه لم يمر وقت طهر فيه حظ بريطانيا الاستعماري في مثل الهبوط الذي ظهر فيه في ذلك الحين .

ه أعطس — سافرا الى بورسموث لاستقبال ليتون وأمرته الذين جاءنا منهم تلغراف يبيى بوصولهم عددا أو بعد عدد وبورسموث هذه مدينة غربية على الطرر القديم ليس فيها فندق طيب الى الآن وزلنا في فندق «النجمة ورباط الساق» وفي المنزل المقابل لفندق تمثال نصفي للنسول ويستطيع الانسان أن يري من البافذة سان لنست وفكتوري ومها لمع من قلة مبالاة الانسان بوطه — والله يعلم انى لست كذلك — فلا يسمعه الا أن يتأثر بهذه الآثار الدالة على عظمة المخترع . ولم أكن حتى الآن قد أدركت تدهور حالها منذ ستين عاما الى الآن . وأنى صدمة كل يصاب بها نلسون وزملاؤه لو أنهم رأوا صحف اليوم غلأها المخترع في محاربة تركيا لغر معاونة خارجية وبالأمال الدنيئة في أن ترى فرسا طريقا للمساعدة على احتيार صعوبات في اشرق . بل هذه الامور كانت تشغل فكري فضلا عن اشتغاله بعودة ليتون — ليتون الذي ادا مبادات حال الهند — سوف يحل عليه التاريخ انه أول الخائنين من تراب الامراطورية في حكم الهند والمنشول عن صياعها

وعنى عن البيان ان هذه كلها أمور تورث الانسان حزناً لا يستطيع وضعه . ومع ذلك لم أكن واحداً من أولئك الذين أقاموا مناهج علي سياسة ليتون وطريقة تسعدها فقد كانت صرورية وبعدت شجاعة ومحاج . وقد طهر في تاريخ تدهور المحلثا لايشي . الا انه هو نفسه ظاهر . ولم يكن في استطاعته أن يصد تيار الحوادث ويدفع معها بمحاولا قيادتها على خير ما يستطيع ولكنه لم يستطع أن يعمل أكثر من ذلك . وعندى أن أسباب تدهور المحلثا أسباب واسعة لا يمكن القاء مسئوليتها على رجل فرد أو حرس واحد . اننا نقول لا ما لم يعد أمامه ولا عادلين ولا مهديين وحكومتنا « المامة » وليست هيئة ذات حصافة تؤيدها حصافة الامة . وما وصلنا الى المركز الذى نشغله فى العالم الا بالثائرة المعطية والحصافة القوية والليل العظيم فلما انقرصت هذه الوسائل هبطا الى مستواها الطبيعي . وقد صنعنا الخبز فى العالم خلال المائة عام الماضية ونصنع الشر فيه خلال المائة عام القادمة ثم لا يعود العالم يسمع بنا بعد ذلك

٦ — أغسطس بعد اذارات كلادة أعطيت اشارة بوصول الباخرة « هيلاليا » وقد التفتت لحسن الحظ بمجموعة صغيرة قادمة لتحية ليتون وركبا الزوارق لمقابلتها فى عرص البحر وصعدنا اليها قبيلة « وريور » وقد وقف ليتون على طهرها وجه لوجه الشمس وملابس رديئة عمرها أربع سنوات وفى فمها « السيجارة » التى كلفته حكم الهدى . وهي اتفه الاشياء التى يعتمد عليها فى النجاح بعض الاحيان !! ولو انه استطاع أن يكف عن التدخين فى الوقت الملائم ، وبذهب مع زوجته الى الكنية لعفر له الجمهور الانجليزى كل مساوئه ولو تجاوزت الحصر . أما والحال كما هي فقد كان خطأ هذا ملازماً له طول مدة حكمه وقد أثقلت موازينه حين أصابته المزعجة السياسية . على انه ما كان يستدعي من الهند لولا هذه . على انه لم يكن يعبأ بمثل هذه الشئون وقد وثق من انه بذل أقصى جهده وأجاد وهو على حق فى ذلك . وقد عبثته على هذا الشعور كما عبثته على نهمة ذهانه الى داره فى نيوبورت .

ولما أوصلنا البر وتناولنا معهم الشاى فى الفندق ودعاهم خبير وداع وقد سمعت لادى ليتون تصيح من أعماق قلبها « آه ! أحب منظر أولئك السكرى الاعراء الذين يسبرون فى الشوارع شدا ما أحهم » .

وكذلك اتفقت آراؤنا على أن آخرة الامبراطورية البريطانية قربت . فلما فيما يختص بي فما كنت أعبا وقد حان حينها وأما ليتون فكل أ كثر منى وطنية ...

٢٩ أكتوبر — كرايت . قصيت اليوم مع ليتون ... وقرأ لى دفاعه للمجلس اللوردات ولا شك لى فى أن الحق فى جانبه وستكون خطبه من أعظم خطب هذا العصر إذا صرح له بأن يرر جميع المستندات الموجودة لديه . وقد اطلعت على هذه المستندات فاذا بمراسلات روسية أخذت فى كاول بنص معاهدة سرية بين شير على والروسين . وقد أخبرني « شوفاروف » أنه مر بها حين كان ينهباً للذهاب الى الهند واقترح عليه قسمة أفغانستان بين روسيا وانجلترا .

هذا آخر ما قيدته فى مذكراتى يومئذ على وجه التقريب ويسوء فى آتى املت التيد فيها مدة عامين بعد ذلك أى بعد سنة ١٨٨٠ . ولم يصرح لليتون باز يشرح قضيته فى البرلمان شرحاً وافياً ولكن لخطبه وقم فآر فى مجلس اللوردات بعد أن سلبت أقوى قطعا . على أنى سأقتطف هنا نبذة من خطاب كبه انى فى ١٨ نوفمبر وبه يتم هذا الجزء من قصتى ولهذا النبذة قيمة خاصة من حيث انها تشرح حقيقة الحال السياسية يومئذ . قال ليتون « قرأت فى احدى الصحف أمس أن عبد المطلب ، شريف مكة الحديد ، الذى هو أداة بيد عبد الحيد يعمل بكل نشاط وطبقا للتعليمات التى ترد عليه من الاستانة لاثارة المسلمين علينا فى جميع أنحاء الارض وقد صارت الصبيحة الآن : الخليفة فى خطر . وعندى أن فرصة الاستفادة من العرب التى عرضت فى العام الماضى قد أعلنت غاماً . ولست أرى نتيجة لما فعله علاءستون سوى انه اعدم نفوذنا فى الاستانة وحوله الى المانيا بغير أن يدبر وسيلة غيره لحكم العالم الاسلامي . ويلوح لى أن خطبه التى انتظرها الناس بفضول كبير ليست الا اعترافا ضعيفاً بالفشل الساحق الذى أصاب سياسة الحكومة البريطانية فهم يطرحون اليونان وأرمينيا وكل شي آخر باعترافهم أن أصابعهم أخذت تتهرق بنار طرف العصا الذى قبضوا عليه منذ تسعة أشهر . ثم اهمم يتحبطون فى سياستهم الارلندية بما لا يبعد معه ان تكون هذه المسألة سبباً لسقوط الوزارة . والحقيقة هي ان الامة ترفض السياسة التى تريد الوزارة تميزها فى كل مكان وان الحكومة لا تجرؤ على تنفيذ

السياسة التي تريدها الامة لرغبتها في المحافظة علي وعودها وتعهداتها . وعلى هذا كانت النتيجة انه لا توجد سياسة معينة الآن . أما فيما يختص بي فأبقى ساكناً حتى يجتمع البرلمان وان كان قلبي يحترق في صدي «

ولم تكن الاسابيع الاخيرة التي قضيتها في انجلترا من ذلك الحريف مشغولة بالسياسة فقد شغلت بنشر جزء من ديوان شعري كان ليتون قد حرص على نشره وقد تركت له (البروفات) لتصحيحها . وهذا هو الجزء الذي لقي اقبالا كبيراً ونفدت منه عدة طبعات للآن . وقد وضعي هذا الديوان في مركز أدبي كان له تأثير في أعمالى السياسية التي اعقبت نشره :



الفصل الخامس

زعماء الإصلاح في الأزهر

أبحرت من إنجلترا في خريف سنة ١٨٨٠ يوم ٣ نوفمبر الى مصر ولم يكن لي قصد غير الذهاب منها الى جدة لتعلم والدرس استعداداً لما عسى أن يعرض في المستقبل من الفرص وقد خيل لي مؤقتاً أن مشروعائي الأشد تهوراً ليست عملية فصار أقصى هـي أن أحصل على المعلومات الكافية عن الدين الاسلامي وميوله الحاصرة لعلي أصلح للعمل متى سنحت الفرصة وكنت قبل رحيلي من إنجلترا اتفقت مع هاملتون على أن تستمر المراسلات بيننا مدة الشتاء وعلى أن أكتب له عن كل شيء. قد يستحق الاهتمام من حوادث سياحتي وهو ينقل منه الى غلادستون ما يرى محلاً لنقله وكان هاملتون قد أكد لي أن غلادستون لا يزال بهم بآرائي . وكانوا ينظرون الي في وزارة الخارجية كشيء خيالي أكثر منه حدياً يمكن أن يكون له تأثير يذكر في وجهة النظر الرسمية للمسألة الشرقية على الرغم من وجود رئيس وزارة متطرف. ولما نزلت في القاهرة أدركت بعد بضعة أيام أنها قد طرأ عليها تغيير كبير ولكنه تغيير حسن فيما لاح لي . فقد حل عهد المراقبة الانجليزية الفرنسية محل استبداد اسماعيل وفضلت المالية وأكثر فروع الادارة . وقد زدت بعض القرى التي عرفت يؤسها منذ خمس سنوات فوجدت انه قد وضع حد لما كانوا يألمون منه . ومع أن الفلاحين كانوا لا يزالون فقراء رازحون تحت عبء الضرائب الفاحشة فقد تبدد اليأس الذي حملهم على مكاشفتي بتاريخ شقايم حين التقيت بهم لأول مرة كرجل أجنبي يسطف عليهم . ولما ذهبت الى الوكالة البريطانية سرني ان وجدت فيها « مالت » فصلا جنرالاً . وقد قص علي تفصيلات الاصلاحات التي أدخلت والتي لا تزال متتواة مصبوغة بصبغة وردية وكان أكثر هذه الاصلاحات لم ينفذ بعد الا فيما يخص بالمالية . وقال مالت ان الامور تتحرك ببطء ولكن بثبات وفي طريق التحسين ، وان السحب التي لا يرى غيرها في الافق هي أولاً في السودان

الذي هو عبء باهظ على كلل المالية المصرية وثانياً في الجيش حيث ظهرت أخيراً شواهد التمرّد . وقد أكثر من امتداح الخديو الجديد توفيق وأخذني لزيارته في القصر ومع أنه لم يمت أعمى فقد وجدته يحسن التكلم الاحسان الخلق بالامراء وفي الطاقة أن يستبين المطلاع على الخطابات التي كتبها من مصر يومئذ صدى تفاؤل ماليت وقد كتبت الى هاملتون خطاباً أقطف منه النبتة الآتية :

نحسنت الامور كثيراً عما كانت عليه منذ خمس سنوات . ومما كانت تقائص حكومة إنجلترا السابقة فلها ان تقول انها نجحت في مصر . وقد سمعنا الناس هنا وظهرت عليهم امارات الرخاء . وقد سمعت الناس الذين كانوا يشكون بحرارة منذ خمس سنوات يشنون على الخديو الجديد ويطرون الادارة . ويلوح لي أن ولاية الامور هنا وقفوا في طريق العمل وقد اقتصروا على تغيير الاشخاص الذين كانوا مصدر الخطر ولم يغيروا في الاساليب الا قليلا . لقد كان التخلص من اسمعيل عملا سياسياً كبيراً ولا شك في أن الرجل الحاضر يستقيم على المادة مع قليل من التوجيه السديد . وعندي ان ثروة مصر وقلة نفقات حكومتها بضمان نظام ماليتها متى قصرت مطامعها على توفير الرخاء . على أنه توجد صخرة أو صخرتان في الطريق مثال ذلك حكم السودان الذي سوف يبق مصدرراً للاتفاق وسبباً للاحتفاظ بجيش . ولا أدري لماذا نهم مصر بحكم النيل فيها وراء الشلال الاول الذي هو حدها القديم . أما القضاء على تجارة الرقيق في افريقيا فبالا حابة لان يحصل عليها غير البلاد لفضية . ولا شك في أن سحب الرقابة والحماية التي تتمتع بها حكومة مصر يكون عملا سيئ الحظ والواجب أن يستمرأ بضع سنوات على الأقل حتى ينشأ جيل أكثر تعوداً على حسن النظام من الجيل القديم . ولشد ما تتوق نفسي لرؤية سوريا تتمتع بهذا النظام واذا نحن لم نصبا بالصحراء استطننا القول بأن سوريا قطر غني وفي الطاقة أن تنفق على نفسها . ولكنها سوف تكون في حاجة الى اعلان حماية اوروبية بحالة لا تحتمل الشك حتى يمكن أن تستغني عن الاحتفاظ بجيش . أما فيما يخص بحفظ الامن فتكفي لك قوة صغيرة . ولست أشك في أن القوم في إنجلترا يبالغون في صعوبة المحافظة على الامن في بلاد أهلها مزيج من المسلمين

والمسيحين فان الشقاء الذي بلوه جميعاً في خلال القرون الطويلة الماضية لم يبق آثراً
لما في صدورهم من المازازات .

وقد أسعدني الحظ من أول الامر فيما يختص بما أريد أن أنقله من شئون
الاسلام وكان روجرريك أحد المستشرقين الممتازين والذي عرفته قبل ذلك قنصلاً
في دمشق قد جاء الى مصر وعين فيوزارة المالية فعرفت منه اسم عالم شاب متصل
بالأزهر يدعي الشيخ محمد خليل ومن ذلك الحين أخذ هذا الشيخ يتردد علي يومياً
لأعطاني درساً في اللغة العربية وكثيراً مايتقى يتحدث معي طول بعد الظهر ومن ثم
ظهر لي انه أكثر من أن يكون مجرداستاد لتعليم لغة القرآن .

ولعل هذا الشيخ أعظم من عرفهم من المسلمين صراحة وإخلاصاً وتحملاً
وكان من طلاب تلك المدرسة الواسعة النقية التي كاناستاذها يومئذ استاذة الشيخ
محمد عبده . وكان الشيخ خليل يبلغ الثلاثين من عمره في ذلك الحين وهو رجل
ذكي طيب مجتهد لا أثر فيه للتصنع . وكان كذلك تقياً غوراً بدينه مجرداً من الرياء
والتعصب المذهبي والتحفظ الذي يمليه الصلف على بعض المسلمين في معاملتهم مع
قوم لا يدينون بدينهم . لقد كان على تقيض هذا كله . وكل سروره منذ اليوم
الأول في تحصيلي كل مايعرفه . وكان مذهبه في التفسير أوسع المذاهب . وقد اعتبر
جميع البيانات التي تنصر علي وحدانية الله صحيحة ولم تكن اليهودية والمسيحية
في نظره الا صورة مشوشة لتلك الدين الحقيقي دين ابراهيم ونوح ولذلك لم يسح
بسماع أى قدح في أصحاب هذين الدينين لقربهم في اعتقادهم من المسلمين . وعنده
ان المثالب والمزازات انما هي ميراث الحروب القديمة ويعتقد ان العالم سير في الى
حالة اجتماعية كاملة حيث تنزع الاسلحة ويتوثق الأخاء بين الامم والمذاهب .
ويمكن تصور سرورى العظيم اذ شرح لي هذه الآراء . وأبدها بذكر التقاليد
والقواعد معلناً انها تعاليم — الاسلام الحقيقية — أقول يمكن تصور سرورى اذ
وقفت علي هذه الآراء التي هي قريبة جداً من آرائي ولا سيما حين أكد لي أنها
من الآراء التي يعتقها الجيل الحاضر من الأدهريين وعبرهم من الطلبة في العالم

الإسلامي وحكي لي كيف نشأت هذه الآراء في الأزهر وكيف كان نشؤها في أول عهد بالتعليم في تلك الجامعة الكبرى.

ومن أغرب ما يروي أن الفضل في نشر هذا الإصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفندي وهو رجل لم تتجاوز تجاربه العالمية قبل حضوره إلى مصر دائرة آسيا الوسطى وهو أفغاني المولد وتلقى تربيته الدينية في بخارى . وفي ذلك المكان السحيق وبغير أن يتصل بأي أستاذ من الذين يعيشون في مراكز الأفكار الإسلامية الراقية . استنبط من درسه وتفكيره الآراء التي تعزى إليه اليوم . وكانت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي التي قد انحصرت إلى ما قبل ذلك في التمهيد القديم ولم تسر في طريق التطور . وقد جاء في الترتيب الأخيرين كثير من الواقعين القديس لم يزيدوا علي أن علة ضعف الإسلام راجعة إلى كفا منتهى عن السير على سنن السلف الصالح ووجد كذلك في مصر وتركيا مصلحون نظمو الإدارة على الأساليب الأوروبية لأغراضهم السياسية . ولكن هؤلاء أدخلوا إصلاحهم بالعنف وبالتشورات التي حصلوا عليها من العلماء بالأكرام . وبغير أن ينفوا بينها وبين قواعد القرآن وتعاليمه . وكانت الإصلاحات السياسية تأتي من الطبقة العليا ولم يزل حكم الرأي العام الرشيد قاسيا عليها . أما نبوع جمال الدين في اجتهد في حمل الممالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الإسلامي كله وأن تستبدل التمسك بالقديم بالتحرك إلى الامام حركات أدبية منسجمة مع العلم المعاصر . وقد مكنته هذه التام بالقرآن والسنة من إقامة الحججة على أهمها وأحسن تأويلها مما لكان الإسلام كفوا لأحداث تطور راق عظيم .

ولما أتم دروسه في سنة ١٨٧٠ وكان يومئذ يبلغ الثلاثين من العمر اخترق الهند إلى بومباي وانضم إلى الحج في مكة . وبعد أداء الفريضة حصر إلى القاهرة ثم ذهب منها إلى الاستانة . ولم يلبث في هذه الرحلة الأولى أكثر من أربعين يوما في مصر ولكنه وجد وقتا كافيا لتوثيق عرى الصداقة مع نفر من طلبة الأزهر ولوضع أساس التعاليم التي شادها بعد ذلك .

أما في الاستانة فما أسرع ما به ذكره بما أوتيه من الفصاحة والبحر في العلم . وقد عين في منصب ديني سام وأخذ يلقي المحاضرات في جميع الموضوعات لسة معارفه ووفرتها . وكان حاد الذكاء قوى الملاحظة حتي قيل أنه يستطيع أن يقرأ كتابا رمت في أى موضوع ثم لا يشرذ من ذهنه كلمة منه بعد ذلك وقد ابتدأ بتعليم النحو ثم علوم اللغة ومنها انتقل الى الفلسفة والدين وقال ان الاسلام السنى يوفق بين نفسه وبين أرقى ما تنصبو اليه النفس الانسانية وما يحتاجه الحياة العصرية وادكلن سببا صحيحا يحيط بالحوادث قد أصفي اليه الناس باحترام ثم لم يمض وقت قصير حتى صار له أتباع من صفار الطلبة . وكان يوحى الشجاعة بحجراته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب ابن حنيفة فيقبل الناس تقدمه بما لا يمكن أن يتيسر لرجل غيره وكان همه أن يطلق العقول من الاعلال التي قيدتها طول الاجيال الماضية ويقم الحججة علي ان الدين الاسلامي ليس شيئا ميتا ولكنه نظام يصلح للانسانية المتطورة في جميع العصور فهو لا يأتي التطور وكل هذا بمائل ما حدث من أحياء المسيحية واوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر علي ان التريب في شأن الاسلام التريب هو أن يعود الفضل في نشوء روح النقد بين أهله الى رجل تربي في بلاد رجمية كآسيا الوسطي وتعلم في جامعة سحيقة كجامعة بخارى .

وقد كانت الفترة التي قصاها الشيخ جمال الدين في الاستانة زاهرة ولكنها كانت قصيرة فقد كان رجلا غير مقيد وكان كأكثر الافقانيين لا يحفل بالتقاليد المتبعة في خطاب العظماء وهي التقاليد التي كان لها أعظم اعتبار في عقلية العقل التركي ومع انه كان محوطا برعاية علي باشا ووادباشا الذين رأيا في تعاليمه تأييدا لاصلاحهما السياسي ضد قدماء العلماء وقع سوء فهم بينه وبين السلطات الدينية العليا ولا سببا فيما يختص بمسلكه الشخصي نحو شيخ الاسلام فلم تجد هذه السلطات سبيلا لان تجدد في محاضراته محلا للواخذة ولم يمض وقت قصير حتى اقتبست من اقواله قرات اخذتها دليلا علي الكفر والزيغ . فلما أجاب علي ذلك بأنه مستعد لان يناقش المسألة علنا مع منهم الكبار فزعت الدوائر الرسمية ورعبت وكان هذا التحدى قد أحدث حركة كبيرة بين « السفهاء » فكان الشبان منهم في جانب جمال الدين

وظهر أن النزاع قد يؤدي الى عواقب وخيمة . ومن ثم اكره الساسة على ابداره بعلامة العودة الى مصر والبقاء المقدسة فعاد الى مصر في ظل هذا الاضطهاد الديني ولكن بعد أن بذر بذور النقد التي آثرت بعد عدة سنين اذ اجمع السعطاء على المطالبة بالاصلاح الديني . وهذا هو الحزب الديني في الحركة السياسية التي قدر أن تنتهي بالثورة التي قام بها مدحت باشا في سنة ١٨٧١ .

وقد قدمت شهرته الى الازهر حين عاد الى القاهرة ١٨٧١ وكانت مصر في عصر ديني مظلم لان فساد الحكم ولا سيما في عهد اسماعيل كان قد لوث جميع الطبقات واطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال في صدور العلماء ومع ذلك كان فضول الناس يزداد حول عمال الدين . وقد رجب به الاصدقاء القليلون الذين كل قد تركهم في مصر . رجبوا به سرأ أن لم يكن علنا ثم ما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديثه ان جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدن كاحداث في الاستانة . اما أم هؤلاء المريدن فهو الشيخ محمد عبده الذي قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً هاماً في الشؤون العامة والذي هو الآن مفتي الديار المصرية . والشيخ ابراهيم العجوي الصحفي المعروف . والى هذين استطاع الشيخ أن يقضي بكنوز علمه بلا تحفظ وأن يعرض فيها روح النقد التي طبع عليها وينفث فيها كثيراً من جرأته . والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لكل رجل يتكلم في مصر بصراحة . ولم يكن اسماعيل يسمح باقل معارضة وكان حكمه مطلقاً حتى قدمت الالفاظ المستقلة من أفواه الرجال . ولم يكن يجرؤ على الشكوى الا الفلاحون المهذبون في قرايم أو غيرهم ممن لا يعتد بهم من الوجهة السياسية أما السلطات الدينية العليا والموظفون الكبار فقد طال سكوتهم على الظلم وآثروا الموافقة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الاسلاب .

وعلى هذه الاحوال البينة ، إن عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين الخرينة كما يشرق الضوء الغرب وضمت له شجاعته مؤقتاً اصفاة الناس بغير تدخل من جانب الحكومة وقد يكون الفصل في ذلك الى أن المراك الذي أثاره جمال الدين في الاستانة قد برره في نظر اسماعيل أو يكون اسماعيل قد اعتبره أضال من أن يستدعي القمع أو ربما كان قد فكر — كما فكر على باشا وفؤاد باشا — في استخدام التعاليم

الجديدة في حرمة الطويلة مع القنصل الاوربيين . ومما تكن الحقيقة في ذلك فقد أتيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التي بقيت من حكم اسماعيل ولم يلق القبض عليه الا في عهد نوفيق وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنسية . وقد أرسل بلاحكمة الى الاسكندرية ونفي من القطر . ولكنه كان قد أدى رسالته واعتنق كل زكي نبيه في الازهر قواعد الاصلاح المر على الاسلمة الدينية . أما عبادة المصلح نفسه فقد ألتبت على خير عائق بمحملها بل لا أعالي اذا قلت أنها القيت على عائق أقوى من عائق صاحبها الاصيل وما كل معلمي اللغة العربية — الشيخ محمد حليل ولا يمكن أن يكمل من الاستماعة في وصف أستاذة الروحي — الشيخ محمد عبده — ووصف كفاً أنه العقلية وقد خلف هذا جمال الدين في زعامة حزب الاصلاح الحر في الازهر .

وقد وجدت بين أوراقي مفكرة يوحد فيها ان معلمي الفاضل أخذني لرؤية الأستاذ الشيخ محمد عبده في منزله الصغير بحي الازهر للمرة الاولى في ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ وهذا يوم يجب علي أن أميزه علي سائر الايام لانه فتح لي باب صداقة بقيت الآن نحو ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال المعظم . ويجب أن لا يتوهم أحد اني اذا استخدم هذه الالفاظ ألقى القول علي عواهنه أو أبالغ متقال درة ولكي أقولها معتمداً علي معرفتي باخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته في أول الامر معلماً ديقاً ثم قائداً لحركة الاصلاح الاجتماعي ثم زعيماً أدبياً للشورة السياسية ثم أسيراً في أيدي أعدائه ثم منفياً في أقطار أجنبية مختلفة ثم تحت مراقبة البوليس في القاهرة حين ألقي نفيه وأخيراً حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد اذا استأنف محاضراته في الازهر وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم عين في أواخر أيامه مفتياً للديار المصرية فغل في أسمى مقام ديني وقضائي في مصر .

وقد كان الشيخ محمد عبده حين رأيت لأول مرة في سنة ١٨٨١ في الخامسة والثلاثين ربيع القامة أسمى اللون نشيطاً يلوح ذكؤه السريع في عينين تنفذان الى الاعماق وهنه صريحة ودية توحى الثقة في الحال . أما في القياس والمظهر فشرقي بحث يلبس عمامة بيضاء وقطناناً كما يلبس شيوخ الازهر ولم يكن يعرف حينئذ لغة

لجنسية أو أية لغة أخرى غير لغته وقد بحثت معه بمساعدة محمد خليل الذي أعان
عزيت الضعيفة عربيتي في جميع الموضوعات التي بحثتها قبل ذلك مع محمد خليل
وحصلت بهذه الوساطة على آراء واسعة فيما يختص بتعاليم المسلمين الاحرار ومخاوفهم
للخضرة وآمالهم في المستقبل وقد دونت هذه الآراء في كتاب طبعته في آخر السنة
بسم « مستقبل الاسلام » وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ان الاسلام في حاجة
الى اصلاح الديني الحقيقي وليس فقط لهياة سياسية دينية . أما فيما يختص بالخلافة
فكان يشاطر كل المسلمين المستنيرين رأيهم فيوجوب اصلاحها وتحديد ها علي قواعد
روحية . وقد شرح لي كيف يؤدي حسن استخدام سلطتها على وجه شرعي الى
مساعدة حركة الرقي الادبي وكيف ان أصحاب هذه الخلافة أهملوا بحيث صاروا
غير أهل لامارة المؤمنين . والواقع ان الاسرة الضعيفة لم تحفل بالخلافة مثقال ذرة
خلال القرنين الماضيين ولم يبق لها حق ولا سلطان حق السيف وسلطانة . علي انهم
ما زالوا أقوى الامراء المسلمين ومن ثم يستطيعون القيام بالشطر الاكبر من العمل
لخير الجميع أما اذا لم يمكن حملهم على القيام بواجبهم فلا مناص من البحث عن أمير
آخر للمؤمنين ولم يكن ثمة شك في حاجة الاسلام الى أساسات سياسية . وكانت
آراؤه مشربة بروح الاعتدال وهي آراء زاد في اغماها انها عملية ورشيدة .

وفي أثناء الشتاء ذهبت وعقبلي لزيارة « جنة » حيث جمعت كثيراً من
المعلومات التي كنت في حاجة اليها عن نزعات الطوائف الاسلامية المختلفة وأحسب
ان تلك كانت خير بقعة للاوربي الباحث عن تلك المعلومات فقد تعرفت فيها بواسطة
الدعوى يوسف أفندي قديمي بعدد من الاشخاص المسلمين الذين تبهم معرفتهم .
وكان يوسف أفندي هذا متصلاً بالكنيسة الانجليكانية . وكان بين الدين تعرفت اليهم
الشيخ حسن جوهر وهو من خيرة علماء الصومال الاذكياء والشيخ عبدالرحمن محمود
من جهة جيسر ابلد بالهد والشيخ مشعث المكي وعدد من أعضاء أسرة بسام في
غيزرة بجند وهر شيخ بنوى متعلم راقياً من جنوبي مرا كس . ولم أقم في جنة
سوى بضعة أيام فقد أصبت بحمى الملايا المنتشرة جداً في تلك الجهات وحال هذا
المرض دون فكرة التعرق في داخلية البلاد . ولقد وجدت أن الوقت لم يكن ملائماً

أيضاً لتحقيق تلك الفكرة نظراً للعداوة الجديدة التي أبينها السلطات في مكة حبال
انجلترا . فان السلطان كان قد بدأ فعلاً في جعل كلمته مسموعة بصفته الزعيم الديني
للمسلمين وهو شيء لم يكن معروفاً منذ عدة أجيال لاسلافه العثمانيين بل أنه أصبح
شديد القوية على نفوذه في بلاد العرب بصفة خاصة بينما ان نزاعه مع حكومتنا جعله
أكثر ارتباطاً في النفوذ الانجليزى منه في أى نفوذ آخر . وقيل زيارتى لجنة بمكة
أشهر فقط أراد أن يظهر مقدار سلطته في مكة فممن لها شريفنا ذا نزعات رجعية
شديدة ضد الاجانب . فالشريف السابق حسين يدعون انه كان رجلاً ذا أفكار
حرة ومعروف بعلاقاته الودية مع القنصلية الانجليزية فاستحق لذلك غضب السلطان
ومات أشنع مئة . وليس من المستطاع الحزم اذا كان ذلك في الحقيقة بتدبير السلطان
أو بواسطة الوالي ولكن الناس في جدة عند ما كنت فيها كانوا على كل حال يعتقدون
بان للسلطان دخلاً في القتل .

وقد وقعت على تفاصيل مقتل الشريف حسين من وكيله في جدة اللئيم عمر
ناصر الذي عزا القتل للسلطان بلا مراء . وهذه الرواية هي أنه في آخر موسم الحج
ركب في صحبة الحجاج قاصداً جدة — كما كانت العادة — لتوديع الحجاج والدعاء
لهم . وقد كان سفره ليلاً . وفيما هو يوشك أن يدخل بصفة رسمية الى الميناء على
ظهر جواده بصحبة الحرم الذي كان بعضه عثمانيين وبعضه الآخر أعراب تقدم
اليه أحد الحجاج الافغانيين في ملابس رثة كما لو كان يطلب صدقة وطنه في بطنه
وبالرغم من هذا المرح فلن الشريف ظل راكباً الى أن دخل دار وكيله عمر ناصر
ومات في اليوم نفسه بسبب — كما سمعت — عدم تضبيب هذا المرح غير المبيت
تضبيداً كافياً وكانت هناك ظروف عديدة تفرق بين أن يكون الاعتداء حادثاً
مشوهاً للمعصب الديني أو حادث قتل عادي . ولم يكن القاتل من جماعة الشيعة كما
تبادر الى الذهن نادى دي بدى بل كان من متطرفي السنيين . وقد فاه بعد القبض
عليه بعبارات تدل على أنه كان يعتبر نفسه مكافئاً فعل ما قبل فاه قال عند ما سئل
عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجريمة . « يحكي انه كان يوجد فيل وهو أكبر
الحوانات الموحدة في الغابة . فجاءته علة وهي أصغر حيوان في هذا الموحود وهضته

«ولم تكن هناك أيضاً محاكمة علنية للجاني قد أعدم بعد اعتقاله بأربعة أيام كما تخفت الاجراءات المسكنة لاختفاء المسألة .

وكن الشريف عبد المطلب خلف الشريف حسين مر. يت آكل زيد وهي الاسرة المنافسة لاسرة الشريف حسين وكن أيضاً من أشد الرحيمين للمسلمين نظراً. وقد كن طاعناً في السن بحيث انه كن شريعاً لمكة عند ما كانت في أبدي الوهابيين الذين انضم الى مبادئهم ولو في الظاهر .

والآن وقد قدمت سنة اعيد الى ذلك المنصب بلقب أمير ليقوى حركة الجامعة الاسلامية التي كانت سائدة في الاستانة . وفي عهد الشريف حسين كن في استطاعة أى فرد انجليزى أن يجتاز الحجاز من أدناه الى أقصاه بدون أى اعتداء بل ان « درنى » والاستاذ « روبرت ميمث » حصل على مساعدته وحمايته والآن كن أى محاولة من هذا القبيل تعتبر خطرة جداً وفي الواقع ان السائح الفرنسي « هير » قد حياه لمحاولته اجتياز الحجاز في السنة نفسها . ثم عدنا الى السويس فيما بعد ومن ثم الى سوريا عن طريق الاسماعيلية .

وفي أثناء اجتيازنا الاراضي المصرية وصلني الخطابان التاليان من « هملتون » رداً على الخطابين الذين أرسلتهما اليه . وأهمية الخطابين هي في أن اتهام الحكومة بالمسائل الشرقية بدأ يتحول الى المشاكل الداخلية كالتي كانت في ايرلندا . ومن اللدش والمحرزن أن نلاحظ كيف ان الضرورة - كما سماها الاحرار وهم في الوزارة - في قمع الوطنية والضغط على الحرية في ايرلندا أحدثت رد فعل في الشعور الشريف الذي أبدلوه به - قبل دخولهم الوزارة - عطفاً على الحرية الوطنية في الشرق . ويظهر ان غلادستون - الذي كانت ميوله بلا ريب متجه نحو إعطاء هاتين الحمتين الحرية انتقاد لزملائه الاحرار في الوزارة الذين كانوا مصابين على المبر في الطريق التي لا تلام زعمته وكانت ايرلندا طول العالمين التاليين العقبة الكؤود في سياسته وسأين في موضعه ان قرار القمع الذي تقرر في سنة ١٨٨٢ لاستعماله في ايرلندا كان في نفس مجلس الوزراء الذي قرر أيضاً استعماله في مصر . فالاشترك في سوء الحظ بين هاتين البلادين كل مأساة كبيرة لا لمصر وارلندا وحدهما بل لشرق والمغرب

وما هو الخطاب الاول

رقم ١٠٠ دوتنج ستريت

لقد تجاسرت على عرض خطابك على عدد من الدين أعلم اهم يرغبون في قراءته ومنهم «الورد غرافيل» و«ريفرزولسون» و«بروك» و«هارى براند» وأظن أن الخطاب سر «ريفرزولسون» بصفة خاصة لأن «ريفرز» يظر بعين الانبهاج الى ماضيه في مصر . وقد زاده سروراً أن يسمع من مصدر مستقل بأن العمل الذى كلن له يدكبرى فيه قد أنتج هذه النتيجة الحسنة وانى أخشى من أنه يعتبر ان نصيبه في ادراك هذه النتيجة لم يقدر بعد حق قدره .

« وما برحت ايرلندا تحتكر كل وقت الحكومة ومجهودها وأخشى أن يكون من الصعب المبالغة في الحالة الخطيرة السائدة الآن في ذلك البلد البائس . وانى لاحد الله على اننا أصبحنا على مقربة من عودة اعتقاد البرلمان . وسيظهر اذا كانت الحكومة بالفت او لم تبلغ في التذرع بالصبر والتمسك بجمل الائمة وليس لى أن ابدى رأيا في هذا الصدد . على أن الحالة لى بلا جدال عار على هذه البلاد (اجلثرا) والحكومة ترى نفسها مضطرة الى العودة الى الخطة العتيقة خطة العنف والقمع . وقد بدأت أشعر — بالرغم منى — بأن ايرلندا ليست صالحة للحكومة الدستورية . واننا مهما سعينا لازالة المظالم المشروعة فليس من المستطاع استتباب السكينة فيها بدون العود الى ما يشبه سياسة كرومويل . وانه لعل تنظر له الاقضية . فاذا لم يحدث تغيير غير عادى فنصبح في هذه البلاد معرضين لسقوط وزارة نلو الاخرى وهكذا في خلال بضع السنوات القليلة المقبلة . وانى لشديد التشاؤم بالنسبة للمستقبل . وبودى لو استطعنا أن نطبق على ايرلندا شيئا من التطور فالتى رأيت في مصر ... أن ايرلندا البائسة هذه كلوت تقضي على الحكومة قبل الاذان من حيث السياسة الخارجية . ولا يزال يؤمل أن يستطيعوا ايجاد مكنن اليونان فلا يدعوا مسائلها تصبح نهائيا في زوايا القسيان والا اصبح من المحتم نشوب الحرب بين تركيا واليونان . ان اليونان لا تستطيع وحدها أن تكلنج تركيا وقد بضى دخول تركيا الحرب رفع لواء الثورة العامة في الروملى الشرقي وفي مقدونيّه . ولا ازال أوئل أن توحد نسوية

لسألة حدود المملكة اليونانية بتدخل الدول العظمى باعطائها قطعة أرض صغيرة في الشمال وربما أيضاً بتسليمها جزيرة كريد . ولا جدال في أنه يلزم إيجاد وسيلة من الوسائل لتقوية اليونان وتوسيعها ليس لحفظ السلام في الشرق مؤقتاً فقط بل لوضع الاساس لما عساه أن يكون قوة مصادرة للعناصر الاسلامية ... » .

وهناك نص الخطاب الثاني :

رقم ١٠ دوننج ستريت

نحريراً في ١١ فبراير سنة ١٨٨١

قد تناول الوزراء خطابك على آر وصوله . وقد تلوت بعض فقراته للمستر غلادستون وقد اتبع اللورد غرانفيل والمستر غوشن أن يقرأه بنفسها وباهتمام علي ما سمعت . أما اللورد غرانفيل فمرسل صورة من الملاحظة التي ختمت خطابك بها وهي الخاصة بشؤون الهند الي لورد هارنجتون وأرجو ان لا أكون خنت الثقة التي وضعها في باطلاع الدوائر الرسمية على معلوماتك المذكورة في الخطاب . وقد اطلمت هاري براند عليها أيضاً . ولقد قامت في وجه والده — رئيس مجلس العموم — مصائب لم يقم مثلها لاحد من أسلافه في كرسي الرئاسة . ولكنه خرج من هذا الضلال فائزاً . فاذا صرفنا النظر عن جلسات المجلس التي لا نظير لها والتي استمرت أياماً وليالي ووقف العدد العديد من الاعضاء المشاغين قد مررنا في دور برلماني مبهج . واني لشديد الامل باختفاء شبح العرقلة الناشي عن الشعب الخاص بالاراضي الارلندية . فاذا ما صادق البرلمان على الاجراءات القمعية او بالاحرى الاجراءات الواقية وصار المشروع العادل التام الجري . الخاص بالاراضي قانونا فلن نصبح مهددين بالكابوس الارلندي في القريب العاجل على كل حال .

وفي الوقت نفسه كلن اهتمام الجمهور في خلال الاشهر الماضية موجهاً طبعاً الى تلك للملكة القاحلة ولذا لم يمن الجمهور كثيراً بالشئون الخارجية . وعلى كل فالمسألة اليونانية لم تصبح نسبياً منسياً . فاللورد غرانفيل مازال يشد طرف الحبل بمهارة تامة وينجاح كبير على ما اعتقد والمقبة الكؤود طبعاً في سبيل التقدم بسجاح في هذه للسألة المعقدة هي الدور المحري الذي لعبته فرنسا التي بصد ان هددت وتوعدت

خفت صوتها وبردت حرارتها . وعلى كل من يملك قد عمل على أن يتولى الامر بنفسه وذلك بمرض اقترح جديد قد يؤدي الى نتائج حسنة . فأول شرط تتسك به الدول العظمى هو طبعاً الاحتفاظ بالسلام الاوربي فلولا ان نشوب الحرب بين تركيا واليونان يؤدي حتماً الى حدوث القلاقل والقتال في بلغاريا والرومالي الشرقي ولولا أن اليونان لا تستطيع وحدها مكافحة تركيا لكن التمهيد الطليعي لرفع اليونان نفسها الى صف الدول الاوربية هو الاتجاه الى السيف . فالرومانيون المحدثون ما كانوا لتكون لهم ملوكية متحدة لولا أنهم حاربوا في سبيلها ولا محل لان يشكو اليونان المحدثون اذا رأوا أنفسهم مضطربس لمواجهة أمثال تلك المصاعب والمخاطر . ولكن بصرف النظر عن الحرب التي يلزم أن يخوضها اليونان فان هذه قد أصبحت تحت كنف أوروبا فلها الحق في ألا تتفاضى أوروبا عنها الآن . فإذا لم يكن تنفيذ حكم برلين سلباً وهذا يظهر انه مسلم به نظراً لعمل فرنسا — فان المتخذ الوحيد هو إيجاد صفقة معادلة لليونان وأقصد بذلك إعطائها تعويضاً في جهة أخرى عما لم تأخذه مثل نسايا واييروس وهما الاقليتان اللذان قبل أخذهما والذان يمكن الدول فيما يبين مساعدتها على الحصول عليها وربما كان اقترح من هذا القبيل انحرافاً جديداً وأخشى من العلاج الذي تشير به — ولو انه أجمع وأكثر نجاحاً — هو من الشدة بحيث لا تستطيع أوروبا أن تقبله .

ولا اذ كر اتني كتبت في خطابي مايرر كل هذا الحديث الطويل عن اليونان التي لم تهمني بصفة خاصة في ذلك الوقت . وان عبارة الخطاب لتشبه لهجة المستر غلادستون نفسه الى حد اني أظن أنه لا بد أن يكون أملي هذا الخطاب والخطاب الذي سبقه . لهذا رأيت أن أثبتها بنصيحتهما ونظراً لاسبابه في شرح المصاعب المملوءة بها سياسة اليونان قد لاح لي أنه — اذا حدث عصيان على الحدود اليونانية ربما شجع في الوقت نفسه عصيان العرب في سوريا .

وكانت رحلتنا من الاسماعيلية سارة . فبعد أن عبرنا القناة تطوحننا الى جهة الشرق في طريق محيط بها الوهاد الرملية الى تل غير مشهور يدعي جبل هلال . وكان هذا الوادي يشه من بعض الوجوه حالة مجد من حيث الزراعة وترتيب

مواقع الرملة فتعرفنا بقبيلتي عبيده وطباها والى الشمال من ذلك بقليل بقيلة
مرايين وأيضاً قبيلة العزازبة وأيضاً كنا قاب قوسين أو أدنى من التصادم مع
صحة أعوام وكانت هذه القبائل كلها مستقلة عن تركيا وقتئذ تقيم في الأراضي
حتى لأصاحب لها التي تكون الحدود بين سورية ومصر . وقد كانت هذه القبائل
كأحياء المادة دائماً في جهات بلاد العرب المستقلة — في نشأته بعضها مع بعض
وكانت بينها ثارات الدم ولهذا استمرت الحرب بينها بعضها مع بعض مما سبب
كثيراً من الفلاقل حتى إلى قرب حدود عزة .

فلما نصع الحكومة العثمانية حداً لهذه الاضطرابات لحأت إلى إحدى وسائلها
المعروفة فأرسلت دعوة إلى زعميي القبيلتين المتنازعتين للاجتماع بمصرف عزة
لجلاً ودياً ثم أمرت بالقاء القبض عليهما غداً وخيانة وقد رجتها في سجن القدس
كزينة لحفظ السلام في الحدود . وفي ذلك الوقت كانت تقابل النفوذ الانجليزى
في تركيا في ادهان العرب فترتب على ذلك أن طلب إلى — نظراً لمعرفتي
بالزعميين المذكورين — أن أدخل مع الحكومة لأطلاق سراحهما . قبلت التدخل
وأقبحهما . ثم استصعبت مع الشيخ القائم بشؤون قبيلة طبهاها وهو علي بن عطية
والابن الصغير لشيخ قبيلة طرايين وقد ركبنا برقنا إلى القدس فسرنا بطريق
الليل إلى أن وصلنا القدس دون أن نخرج على مدينة أو قرية في أثناء رحلتنا
هذه . وفي القدس زرت قنصلنا مور في الحال فحصلت بواسطته على إذن من الباشا
بزيارة السجن وهناك وجدت الشيخين المطولين في طبقة سفلية تحت الأرض بالقرب
من جامع عمرو . وقد كانا في حالة يرثى لها إذ كانا يشكوان من الامراض والسجن
الطويل فوسلت لهما عند الحاكم على شرط أن يفرغ السلام بين القبائل . وقد
تمكنت من جعلهما يوقعان هذا التمهيد . ولكن التصرف أعلن أنه ليس في وسعه
اطلاق سراحهما وإحالي على رئيسه وإلى دمشق فهو الذي يستطيع أن يفعل
ذلك . فذهبنا إلى دمشق بصحبة علي بن عطية وبصحبة قافلة الجالسين عن طريق
وادي الأردن وسهل حوران وهي سياحة شقة ولديفة لأن الأرض نظراً لانتقطاع
الامطار كانت كجبة عدن غاصة بالازهار البهجة .

وفي حوران وجدنا الحرب ناشبة بين الجنود العثمانية والدروز ولكننا تمكنا من المرور بين الجيشين دون أن يمسنا الضرر ووصلنا الى دمشق حيث القينا عصا التسيار أمام باب منزل صغير يحتوى على حديقة مسلحتها فدان في حي باب توما كنت ابتعته منذ ثلاثة أعوام عند بدء رحلتنا الى نجد .

وكلن منزلنا في دمشق ملاصقا لمنزل سيده انجليزية مشهورة تدعى اللادي التيره أو المسز ديمجي كما تدعى الآن فبعد مخاطرات عربية في الشرق والغرب تزوجت وهي طاعنة في السن من شيخ يدعى من قبيلة عنيزة وأقامت في دمشق مع بعلمها محبول بعد ان أصبحت لا تحمل متاعب حياتها السابقة في الصحراء . وقد علمنا منها ومن بعلمها المجيد الذي كنا نعرفه جيد المعرفة ان خير وسيلة لاطلاق سراح المعتقلين هي الا نعرض قضيتنا على القنصل ولا على الوالي مباشرة بل بطريق غير مباشر على صديقهم الكبير السيد عبد القادر الذي عرفناه في عام ١٨٧٨ والذي كان له اكبر نفوذ في الحكومة في دمشق في كل ما يخص العرب . وكلن عبد القادر وقتئذ في سن الشيخوخة وكلن معتكفا على المادة وكلن موضع اجلال جميع سكان المدينة . وكلن له بين عرب مورية بصفة خاصة اتباع كثيرون لانه كثيرا ما أظهر انه حاميتهم وحامي مصالحهم . وقد أكد لي محبول أن المسألة هي مسألة تقود مع الوالي فاذا تعهد السيد بان يفتح باب المفاوضات ويده مبلغ كبير فان النجاح محقق . فذهبت معه ومع علي ابن عطية الي عبد القادر فوجدناه مع ولده الاكبر محمد وهو رجل مستقيم ولده من أم من الجزائر أثناء اقامته في تلك البلاد . فوقضاه علي مهمتنا قبل السيد بارتياح أن يتوسط لنا لدى الباشا وأن يصل الترتيب اللازم لاطلاق السجينين على الشرط المذكور وهو الاحتفاظ بالسلام العام بين القبائل . ثم أعطيتهم كيسا يحتوي علي ٤٠٠ جنيه فرنسي (بنتر) ذهبنا فاختبروني أن المبلغ كاف لتحقيق رغبتنا . وكانت الرشوة من الامور العادية بين الموظفين العثمانيين وقتئذ حتي انني لم اشعر لا أنا ولا السيد ولا أى شخص آخر يتناهاى بى تردد في تقديم النقود . وكلن المبلغ كبيرا ولكن عطفي كلن شديدا نحو السجينين المعتقلين وكنت مصمما على الا أرسل علي ابن عطية الى القدس الا مصحوبا بامر الافراج عنها . وعلى ذلك

قدمت على هذه التصحية ولكن المفاوضات اُحقت في ادراك القابة الطلونه . وبعد
بضعة أيام جاءني محمد اس عبد القادر ومعه الكيس دون أن يمس شئ ، وأخبرني
أن والده كاهه بأن يلقى نجات الوالى وأسهه على عدم استطاعته فعل هذا المعروف
لأنه خارج عن حدود وظيفته . فان المسألة قد أُلغيت الى الاستانة وهناك فقط
مكن تسويتها .

وان عاقبة هذا الحادث البسيط لمدهشة ولها علاقة مباشرة بما وقع في مصر
من احوادث في السنة التالية . فعند ان فشلت محاولاتي المحلية عملت بصيحة الوالى
كُتبت من قورى الى عوشن سفيرنا في الاستانة وعرضت عليه القصة بمخاطبة
ونكبا أريد اهتمامه بالمسألة اجبرته ان الحكومة الانجليزية قد تحتاج يوماً من الايام
الى حماية بضعة قضاة السويس الشرقية من المهاجرة اذا نشبت الحرب بين إنجلترا
ومصر احدى الدول الاخرى . فانخذ عوشن — على ما أتذكر — بعض الاحراءات
ولما حلفه اللورد دوفرين في منصب السفارة بعد بضعة أسابيع أوصاه عوشن بالاهتمام
بالامر . وفي النهاية أحيب طلبى بعد طول الانتظار وافرج عن الشيخين . على ان
اقتراحي بخصوص القبائل قد أتم فيما بعد ثمرة من نوع لم أكن أتوقعه أو أربح فيه
ذلك لانه لما تقرر في صيف عام ١٨٨٢ ارسال حملة ولسلى تذكر عوشن أو شخص
آخر له صلة بالحكومة اقتراحي السالف فتقرر ارسال مندوب سرى لاستعمال اسمي
في التائل التي تعرفت بها في جنوبي غزة عررها الى عقد محالف مع القوات الانجليزية
ضد الجيش الوطني المصري وكنت اذ ذاك كما قالوا « كالباحث عن حقي بظلمى »
وعندى في بعثة بالمر الشهيرة التي سأتكلم عنها ماسهباب في حينه .

وكانت سورية وحدود بلاد العرب وقتئذ في حالة تخمر سياسي . فقد كان
هناك تياران من الشعور بين المسلمين بخصوص الجامعة الاسلابية أحدهما شعور
بتمسك الدينى وهذا كلن مستمداً من السلطان نفسه والآخر شعور الرغبة في
الاصلاحات الحرة . وقد قيل لي في دمشق ان الشعور ضد السلطان ضد الادارة
الضاربة الفاسدة قد بلغ حداً يصح معه توقع الثورة في أى لحظة وقد حادثت محمد

ابن عبد القادر في ذلك الصدد فوجدته هو وأناه متشيعين لطريق الاحرار وانه —
كثيره من علماء العرب — من انصار فسكر الخلافة اذا كان في الامكن تحقيقها
وقد خطر لي وقتئذ ان ليس بين العرب من هو احق بهذا القرب من عبد القادر
نفسه . وعلى ذلك رحوت محمداً ان يستطلع رأى آية في ذلك الصدد ويسأله هل
يقبل أن يكون رعيه هذه الحركة اذا جد حدها

وقد فعل محمد ما أشرت به عليه وعاد الي بحمل رسالة من والده يقول فيها انه
برغم شيخوخته التي تحول دون الاشتراك فعلياً في أي حركة من هذا القبيل من
أولاده يقبلون ذلك وانه لا يمانع في ذكر اسمه كرشح للحلافة اذا طلب اليه هذا
الترشيح . وعلى كل فان الحركة لا يمكن أن تصادف بمحاذاة الامانة من الخارج
فان الحكومة الحماية قادرة حرياً على كبح جماح الثائمين بها وقد تم الاتفاق بيننا
على أن ابليج رده بصمة سرية الى الحكومة الانجليزية واستطلع ماذا تكون خطتها
اذا حدثت ثورة في سوريا . وهو ما فعلته بالفعل عن طريق الوسيط المعتاد بيني وبين
مستر غلادستون وهو سكرتيره الخاص هاملتون وقد سألت ما عن نوع المساعدة
التي يمكن أن يعتمد العرب عليها . وقد اقترحت عبد الاشارة الى خطاب هاملتون
الذي سبق نشره ان مثل هذه الحركة قد تنظر اليها حكومتنا بعين الارتياح خصوصاً
بمناسبة المصاعب التي بينها وبين الباب العالي محصوص اليونان . ولكن اهتمام
غلادستون بالشرق بل بالسياسة الخارجية على العموم كان قد خمد وقتئذ خورداً تماماً
ولذلك كان جواب هاملتون موحراً ومبسطاً للعرائف . فقد كتب يقول : انني أؤمل
أن يوجد ما يحول دون وقوع الحرب بين تركيا واليونان واذا ذلك فستفي عن
الاتحاد الى مشروعك في سوريا . وكلاماً أقوى هو انه يحتمل ان توجد حالة كهذه
واد ذلك يصبح من اللزم استعمال الوسائل التي تشير بها ولكن هذه الحالة لم توجد
بعد . ان هذا مهم وغامض ولكن أحشي ألا أستطيع ان أضيف الى ذلك شيئاً

آخره . فلم أحد مناصاً من الكوت على ذلك ولكي بادرت بإبلاغ النتيجة إلى السيد .

ولم يكن لبقية سياحتنا في ذلك الصيف أي غرض سياسي . وقد دررنا أصدقاؤنا من آل عبيدة مرة أخرى فوجدناهم ضارين خيامهم بالقرب من الميرا ولكن معاملتنا معهم اقتضت على شراء الخيول ولم تكن هذه القبيلة تعاضاً بالسياسة فيما يخرج عن دائرة الصحراء . وكذلك كانت عايتها بالمسائل الدينية قليلة . والواقع أن الإنسان لا يستطيع على وجه التقريب أن يسميهم مسلمين فإنهم لا يصومون ولا يصلون ولا يؤدون أي فرض من الفروض الدينية الإسلامية . وكل ما يربطهم بالإسلام هو أنهم لا يزالون متمسكين بتقاليد الصحراء . وهي التقاليد التي بدت عليها الشريعة ولكنهم لا يعرفون من عقائد الإسلام إلا التوحيد أما الرسل والأولياء . والقرآن فذلك ما لا يعرفونه وكذلك لا يعرفون شيئاً عن الدار الآخرة . وقد سمعنا منهم إلى أقصى حدود الشمال حتى وجدنا أنفسنا في حلب في أول حرارة الصيف ومها عدنا سريعاً إلى إنجلترا (١) .

(١) مما يخلق بالذكر بهذه المناسبة أننا تعرفنا في حلب بضابطين بريطانيين لعبا صد ذلك دوراً كبيراً في الشؤون المصرية وحرب السودان أحدهما الكولونيل سيوات الذي اشترك مع غوردون في الدفاع عن الخرطوم ضد حملات المهدي . والثاني الكولونيل السير شارل ولسن الذي قاد القوات البريطانية في الثامنة بعد واقعة أبو كيلة . وقد ساح سيوات بإيملازي في ذلك الصيف بين بدو عبيدة وشمرو ولكنه لم يستطع أن يتفاهم معهم وهذا راجع في الحقيقة إلى خلوه من العطف على الشرقيين . أما ولسن الذي كان أوسم منه رأياً فقد صحبنا في سياحة العودة حتى أزمير التي وصلناها وقت القبض على مدحت باشا . وكان كلاهما في ذلك الحين قسلاً منتقلاً لبريطانيا في تركية آسيا من النوع الذي نصت عليه معاهدة قبرص .

الفصل السادس

مقدمات الثورة المصرية

قضيت صيف سنة ١٨٨١ كله في « كرايت » أكتب الكتاب الذي كان ثمرة تجارب الشتاء وهو كتاب « مقتل الاسلام » وقد وضعته في مجلة وأحوال لانساعد على دقة الحكم فقد ازدحت علي الحوادث آثر الحوادث خلال كتابته حتى شق علي أن أضع نبوة هادئة عن مصير الاسلام يداني أعتبر هذا الكتاب مؤلفاً جدياً رغم ما فيه من نقائص واداً لم تكن له أهمية تاريخية فلا أقل من أنه تصور آمال المسلمين ومخاوفهم في الوقت الذي كتب فيه. وقد دافعت في هذا الكتاب بلا تحفظ عن قضية الاسلام باعتبارها قضية افضه الخير على شطر كبير من الارض وهي قضية يجب علي كل محب للانسانية أن بشجعها لا أن يضعها. وبنيت أصل الاسلام ومعاخره وذهوره الطاهري الشبه بالتدهور الذي خيل للناس أنه استولى علي المسيحية منذ أربعمائة عام والقى قد تلافاه الاسلام كما تلافاه المسيحية بالاصلاح الديني ونحرر أفكارها من قيود التقاليد الصيقة التي وقت تطورها وعرفت تقدمها. وقد شرحت الآراء كما تعلقها من الشيخ محمد عبد استاذ المدرسة الحديثة الحرة وتوسلت الى موالي بكل ما فهم من خير أن يعطقوا علي آمال أحرار المسلمين ويؤيدوم ضد الرجعيين ذوى المكائد والتعصب الأحمي والذين يلجأون في آخر الأمر الي حل مشكلاتهم الاصلاحية بمحذ السيوف. وقد خاطبت انجلترا بصفة خاصة اذ كنت أعرف ان صاحبة الهد لا بد أن تهتم كثيراً بمستقبل الاسلام طالبا أن تكون ذا سيادة نشطة مصادقة لافضل عناصر الافكار الشرقية في مكلفها أسوأ ما فيها من العناصر وألا تقتصر علي الاستفادة من حالة الاضطراب لتوسيم مناهجها المادية وقلت « ان النقطة الرئيسية هي أن تنجليت بحق الأمانة التي حملها » باعتبارها واداة الامبراطورية المفولية وبحق علاقتها القديمة بالشؤون العثمانية « وهي أمانة رقية عاصر الخير الشرقية لاهدمها ان

أنجلترا لا تستطيع أن تهزم الاسلام ولا أن تقاطع علاقتها به لذلك يجب عليها بحق حائق الكون أن تأخذ بيد الاسلام وتعينه على السير في طريق الفضيلة . هذه هي الخطة الحكيمة الخليفة بأنجلترا وهي لعمرى أشرف وأحكم من حرب صليبية تستغرق قرناً بتمامه .

وقد نشرت هذا الكتاب فصولاً شهيرة في مجلة « مورتيلي ريفيو » فأحدث تأثيراً كبيراً في إنجلترا وفرنسا قراء الانجليكية في الهند وترجمت أكثر الفصول الى العربية في مصر وكان طاهر آفي الوقت الذي كتبت فيه أن حوادث خطيرة توشك أن تحدث في الشرق بل أنها أخذت تحدث بالفعل . فقد بكرت الحكومة الفرنسية في مايو الى عودة تونس بغير تنبيه أو امدار تهيئاً للاتفاقية السرية التي عقدت قبل ذلك بثلاث سنوات بين وارميتون ووزارة الخارجية الانجليزية واحتلت نصف تونس الغربي بحجة حماية الباي من الخطر الذي يهدده به رعاياه — وهو خطر وهمي — وأعلنت الحماية الفرنسية . ولم تكن في حالة الخار الذي هجم عليه هكذا عدداً ما يبرر هذا الهجوم كسوء الحكم أو الخطر على الأوروبيين أو حتى الصيغ المالي . ولكن الباي نفسه رجلاً طيباً يحترم الشخصية ولم يأت بأي شيء يفقده حسن نية الشعب بمحوه فكلن اعتقاله بواسطة الجنرال « بربرت » واغتصاب سلطته بواسطة الجمهورية الفرنسية من الاعتداءات المصنومة النظير حتي بين ما حدث من الاعتداءات علي الامم الضعيفة في عصرنا الحاضر اذا استثنينا اعتداءات بونابارت علي مصر سنة ١٧٩٩ . وكان لهذا الاعتداء أسوأ وقع في إنجلترا حيث كان الناس في جبل باتاغية راين السرية . أما في العالم الاسلامي فقد أوقد نار الغضب والاشتمزاز الذي أخذ يصظم حين اقتضح السر .

ولم يكذب أهل تونس العربية يطلقون ناراً علي الفرنسيين لفرط ما لحقهم هؤلاء بالاعتداء واضطر الباي الى توقيع معاهدة قدمت له علي ذاباة السيف بواسطة الجنرال « بربرت » فكانت النتيجة أن فقدت تونس استقلالها قبل أن تعرف أن هي . ولكن أهل الشطر الشرقي من تونس نفروا الى أسلحتهم وقبل أن يتصعب الصيب عمت الثورة صحاوى اجزاء وطنى موج الغضب علي الصراينة

الى الشرق وبدأ يؤثر تأثيراً خطيراً في مصر كما سأيس بعد كما أنه حز المصلحين فيها الى الجدل في حركتهم وحمل جيشها على المطالبة بالحكومة الداتية .

ومما يخلق بالذكر لاثبات اشراك الحكومة الانجليزية في هذا الشأن الفاضح أن لورد جراڤيل سمح لنفسه أن يكتفي بوعده بسيط من الحكومة الفرنسية بأن الاحتلال مؤقت لاعادة النظام على الرغم من أن النظام لم يكن قط مهدداً وبأن الاحتلال لا يستمر يوماً واحداً مما يتلزمه توطيد حكومة الباي . وهذه خطة نزوير قلدها لورد جراڤيل بكل دقة بعد ذلك بنة واحدة حين انعكس موقفا فرنسا وانجلترا في مصر . كذلك يستحق الذكر أنه مع أن البرلمان البريطاني كان معقوداً لزم لورد سلسبري رعيم المعارضة حانب الصمت المطبق فيما يتعلق بتوس على الرغم من أن أتباعه الذين لم يعرفوا شيئاً من سر المألة أقاموا ضجه كبرى طالين الشرح والبيان . كذلك سكت بيلوك في برلين ولم تبد أي دولة من الدول التي كانت ممثلة في مؤتمر برلين أي اعتراض وان كل الشعب الايطالي قد استاء كثيراً من فعل الحكومة الفرنسية . أما السلطان فقد نشر احتجاجه إذ كانت تونس جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وقبلت أوروبا الحالة كمحققة واقعة .

وجب على أن أقص تاريخ الحركة التي عرفت في صيف سنة ١٨٨١ باسم النهضة الوطنية المصرية . ويرجع أصل هذه الحركة الى الحقيقة الى مجاهدة اسماعيل حين وقع الخلاف بينه وبين ولسن واجتهد اسماعيل أن يحتفظ بسلطه ضد الوصاية التصيلية التي أوقعه فيها سو ، تصرفه ودبوه . وقد أراد اسماعيل أن يترد مركزه الادبي الذي كل قد قدده ويستعيد حسن ظن رعاياه بدشر نداء عام يطلب فيه تأييدهم ومن ثم أعلن في ربيع سنة ١٨٧٩ عزمه على دعوة جمعية من الوجهاء . ولم يكن شك في أنه يريد أن يرفض جزءاً من الدين على الأقل مستتراً بالرأى المصرى العام . ومع أنه لم يعتقد فيه الاخلاص يومئذ الا بضعه من الاوربيين القبيين في مصر فان فكرة معالحة السينات التي كابدها الالهون بادخال نظم الحكم النيابي أخفنت نشع وتأنصلى القاهرة من ذلك الحين . وكلن الشيخ جمال الدين وتلاميذه قد حكموا بان اسناد أمراء المسلمين الآخذ في الزيادة مخالفت لتعاليم الاسلام الذي

هو في الحقيقة جمهورية الشكل مسلم فيها حق الخطاة في مجتمعاتها كما أن سلطة الحاكم فيها لا تعتمد الا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة وبيعة الناس وقد طعن علماء الازهر على اسماعيل فقالوا انه معتمد على القانون وعالم سياسي . وكثيراً ما تباحثوا سرّاً وبيع سنة ١٨٧٩ عن كيفية عزله والوسائل التي يمكن من ذلك أو حتي من التخلص منه بالاعتقال . وعدى أن شعور اسماعيل بالخطر المردوج الذي يهدده من الخارج وفي مصر ذاتها من ناحية آراء الازهريين هو الذي حمله على الطهور بالمظهر الدستوري . وهنا يجب أن نذكر أن الآراء الدستورية لم تكن سائدة في مصر فقط في ذلك الحين بل كانت سائدة كذلك في الاسكندرية وكان السلطان قد استدعى الجمعية قبل ذلك بخمسة أعوام لذلك لم يكن المصلحين مد من الموازنة على حركة اسماعيل معها تكن تقهّم به قلبية ومن ثم أخذوا يشرحون هذه الحركة على صفحات الصحف اللاتي اشترى في مصر تحت اسمهم . وكان الآراء بين الموظفين عدد غير قليل يميل الى الطام الدستوري ومن بينهم شريف باشا وعلى مبارك باشا ومحمود باشا . امي البارودي . ولم يقف الامر عند هذا الحد . فقد وقع وارث الخديوية محمد توفيق تحت نفوذ جمال الدين القوي وصار هذا صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم مرة بعد أخرى بأنه متى وصل الى العرش سوف لا يبعد شعرة عن حادة الحكم الدستوري . وقد كان توفيق وشريف الدستوريان عضوين في وراثة اسماعيل الاخيرة التي عمرت ثلاثة أشهر وكانت مقاليد الادارة في أيديهما حين عزل اسماعيل .

وعلى هذا ربح جمال الدين والمصلحون بلوقاً . توفيق منصف العرش واعتبروه دليلاً على حسن الطام . ومع أنهم أنفسهم لان المصريين أنفسهم لم يستطيعوا خلع سلطانهم فقد تطلّعوا الى العصر الجديد بثقة الرجال الذين خطوا خطوة في سبيل تحقيق أمانيهم . ولكن الخديو لم يلبث أن غير رأيه حين تسلّم مقاليد السلطة ، شأنه في ذلك شأن غيره من أولياء العهود ولم يمض شهر حتى نسي وعوده وغدر باصدقائه . وقد كان توفيق صديقاً . وكان قد ولدته لاسماعيل احدي سراريه فلم يعامله اسماعيل المعاملة الخلقية بولي العهد كما ان والدته كانت تتركه في خوف مستمر من صولة والده فلم تربطه بهذا الوالد رابطة الاخلاص والتقرب . وكانت نشأته بين سيدات الحرم

أكثر مما هي بين الرجال فتشاً ضعيفاً لا يسمه الا الادعان لاية ارادة أقوى من ارادته ولكنه يسعى بعد ذلك لتعبد ما يريد بالطرق الخفية . ومن ثم كان شديد العبوة محباً لحوادث الانتقام الصغيرة . أما فيما يختص بحياته المدنية فكان مستقيماً بالقياس الى أسلافه ولم يكن كذلك حلوأً من كثير من الفضائل الكريمة ، وكانت سلبية أخلاقه تجعله خطراً كبيراً على أولئك الذين قد لهم أن يتعاملوا معه . وكان همه الاول أن يخفي الحقيقة ويلقى على الغير نعمة الفضل الذي يكون قد حدث مخطئه . وكذلك لم يكن بفضه لشيء . يظهر رفضه اياد صراحة ولكن باصطناع الاقاويل والوقية والتفريق حيث يريد أن يسود ويتنعم وقد ذكر عنه أنه لم يخلص لشيء قط وانه لم يثق به أحد الا غدر به .

فلما ارتقى توفيق العرش ووجد نفسه بين فوتين متناقضتي الغرض - قوة أصدقائه المصلحين الذين أحضروا بحشوه على الوفاء بعهوده الدستورية وقوة القناصل التي منعه أن يفرز عن شيء من سلطته التي كانوا يريدون أن يستعملوها باسمه أذعن أولاً لاقتراح وزيره شريف بأن يصدر منشوراً يسمح به دستوراً ولكنه أتى بها على إشارة القناصل أن يوقع المنشور . وقد أفصى هذا الى استقالة شريف باشا فحل محله رياض باشا الذي رشحه القناصل لذلك والذي كانوا يعتمدون عليه في تنفيذ آرائهم الخاصة بالاصلاح الدستوري في الوقت الذي يتمتع فيه بالسلطة المطلقة طبقاً لمنشور سنة ١٨٧٨ ويتصرف في شؤون الادارة كيف يشاء باسم الحديو وبغير رقابة من أي مجلس أو جمعية .

وقد كان الضعف الذي أظهره توفيق في هذا الشأن وهو أول شأن مهم عرض له في حكمه سبب كل ما أصابه بعد ذلك من المتاعب . ولو أنه وفي عهده للمصلحين ولوزرائه واستدعى مجلس الاعيان لثق رعاياه موالين له ولما كان قد وجد محل للدسائس التي راجت سوقها في العالمين التاليين والتي مهلت السيل لثورة سنة ١٨٨٢ أما والحال كما هي فقد وجد نفسه بعد ما أطلع القناصل بمجرداً من السلطة وصار القناصل والوزراء يعاملونه كأنه دمية .

وقد احتلف الناس في الحكم على رياض . وقد كان الوطنيون شديدي الحكم

عليه حين زيرت مصر في خريف سنة ١٨٨١ وكانوا يحملونه تبعه احرآآت العنف التي اتخذت ولكي أعتقد الآن ان التبعة كلها لم تكن واقعة عليه وكان رياض باشا من رجال العهد القديم ولم يكن يثق الا بأشد أنواع الحكم اطلاقا وقد أدار الادارة بالطرق التي كانت متبعة في عهد اسماعيل أي بالباسوسية وقوة البوليس والاعتقال والنفي . على أنه لم يكن ظالماً أو واثياً بالطبع وعندى أنه كان محوطاً في كل أعماله بضرب من الشعور الوطني . وكانت فكرته في حكم مصر طوعاً لا مراً فتصلى فرنسا وإنجلترا وعلى دعم الشعب تنحصر كما أكد لي في دغبة انقاذ مصر من مصاعبها المالية ووقاها بالديون ومن ثم التخلص بأسرع ما يمكن من كل تداخل أجنبي . وليس هناك شك في انه بذل في السنة الاولى من حكمه جهداً عظيماً لتخليص الفلاحين من أثقالهم المالية . ولكن الوفاء بالديون عملية طويلة بطيئة وليس بم دليل على انه كان يمكنه أن ينجح في تحريرها من الوصاية التي ضرت عليها أوحى تخليص الناس من أقطع ما حاق بهم من سينات الادارة . والواقع أن المراقبة الشائنة التي خضعها رياض لم تمن إلا بالمسألة المالية طلوحه كل ما عداها في زاوية الاهمال . وقد كان الفلاحون لا يزالون يحكمون بالكرباج . وكانت الحكام يؤرأ للفساد والملاك المدنيين يحسرون يمتلكهم للدائنين وكانت سلاطين الأتراك والحركس لا تزالان تسودان البلاد .

ولم تتم الحكومة بأي تحسين أدبي ولا هي حسنت حتى نظم الادارة . وقد كان هذا موضع صعب الحكم الانجليزى الفرنسي وسبب فشله في ارضاء الناس . ومع ذلك يجوز أن نتساءل ألم يكن بد من أن تأتي الازمة بالسرعة التي جاءت بها لو ان الخديو كل مخلصاً لوزيره ممتعاً عن الدس له ، ولكن هكذا كان طبعه توفيق كما أسلفت - فهو يخضع ظاهراً للضغط ولكن يحاول تحقيق غرضه بوسائل أخرى لذلك أخذ يدس لرياض من أول الامر وكان غيوراً من سلطته ناقساً عليه القوة التي منحها له . هذا هو التاريخ الصحيح للسلسلة الاوقات التي مرت فيها مصر سنة ١٨٨١ بما فيها القلاقل العسكرية التي انتهت بسقوط رياض من دست الوزارة . ان تدخل الجيش في شتاء ١٨٨٠ - ١٨٨١ كقوة سياسية في مصر له أهمية

كبيرة تستدعى الحال شرحه شرحا وافيا . وقد كلف هذا الجيش عاملا من عوامل الاستياء منذ حلت به الهزيمة في الحشد وقضت على سمعة الخديو رد على ذلك ان الصعوبات المالية جعلت دفع المرتبات عسيرا وغير منتظم . وكان الخنود العائدون من الحرب قد استحقوا قوادم الدين برهنوا على قوة كفائهم واشترك معهم أكثر الضباط الصغار في عواطف الاستحقاق والاستياء . وقد ساعد على ذلك ان مناصب الجيش العليا كانت مفضرة على الحراكة الذين يتكلمون اللغة التركية فهذه الطبقة احتكرت السلطة . أما الخنود والضباط الي رتبة يورناشي فقد كانوا من الفلاحين . وقد اشتد الشعور بكرهه الطبقات حين حرم هؤلاء من مرتباتهم في الوقت الذي كان الروس الحراكة يستولون على مرتباتهم السكيرة غير منقومة . وعلي ذلك كل الخنود وصغار الضباط شاطرون الشعب استياءه في الثلاث سنوات الاخيرة في حكم اسمعيل وحدث كثير من المؤامرات التي لم تعلن أبداً بين صغار الضباط الذين وصلوا في وقت من الاوقات الى الشروع في استخدام القوة . وكان بين زعماء هذه الحركة منذ سنة ١٨٦٧ احمد بك عرابي الذي خولت رتبته - بكياشي - وهي رتبة قلنا شغلها مصري - نفوذاً قوياً استثنائياً على مواطنيه . وأحسب ان المسكن هنا يتسع لكثافة شئ . عن هذا الرجل الشهير .

ولد عرابي سنة ١٨٤٠ وهو ابن شيخ صغير في احدى القرى بملك غامية فداديس ونصف فدان في « هربة » القرية من الزقاريق حيث نشأت أسرته منذ زمن بعيد وكان لها احترام خاص شبه ديبى وقد زعم كثيره من الشيوخ ان دماء السادة « سلالة النبي » تجري في عروقه أما عدا ذلك فهو فلاح فقير ولكن هذه السيادة رفعت قدره علي حبرائه الفلاحين ولا أدري ما هو مبلغ الصحة في زعمه هذا وقد اختلف الناس فيه ولكنني أعرف انه حل الاسرة على العناية بالترية الدينية التي لا يمكن تحصيلها في قري الوجه البحرى ومن ثم أرسل عرابي في شبابه كما أرسل والداه الى مصر ومكث عامين يدرس في الازهر .

وقد اقترح في الرابعة عشر من عمره وأخذ حديدا ولما كان شاماً طويلاً القامة باكر النحو وكان سعيد باشا قد وضع مشروعا لتدريب أبناء مشايخ القرى ليكونوا

ضابطاً فقد مرق في الرتب الصغرى بسرعة وصار ملازماً في السابعة عشر ثم يوزباشياً في الثامنة عشر وصاعداً في التاسعة عشر وبكباشياً في العشرس. وقد حدث هذا الترقى السريع المدوم النظير بالنسبة لابناء الفلاحين تحت حماية القائد الفرنسى الذى كان يعمل تحت امرته وهو سليمان باشا الفرنساوى ولكن العصل الحقيقى فيه يرجع لرغبة سعيد باشا الذى اراد أن يكون مصرياً كرعاباه لافرداً من جماعة الأتراك ورغب كذلك فى أن يكون محاطاً بالضباط المصريين . وقد حظى عرابى الذى كان وسياً ووجيهاً برضائه حتى سمي أركان حرب له ورافق سعيد الى المدينة في السنة التى سبقت وفاته . وعندى ان عرابى كون آراء السياسة الاولى أثناء حديثه مع سيده في هذه السفرة التى كانا فيها متلازمين وتتحصر هذه الآراء في المساواة بين الطبقات وفي الاحترام الواجب للفلاح باعتبارهم الضعف الاساسى للمجدى الجيش المصرى . وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى ميز عرابى على مصلحي ذلك العصر . وغنى عن البيان ان حركة الاصلاح الازهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الاحناس . أما حركة عرابى فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر واقبال الناس عليها أقوى وأكثر .

وكانت وفاة سعيد الفجائية ضربة شديدة على آمال تابهه عرابى فقد زالت الخطوة عن الضباط الفلاحين في عهد اسمعيل وأعطى التفضيل كله للجراكة وقد وجد عرابى ان هؤلاء يعاملونه بازدراء ثم أعطيت له مهمات ثابوة في مصلحة النقل وفي المناصب المدنية فأدى هذا الى انضمامه للتذمرين والى تفانيه في الدفاع عن حقوق طبقته . ولكن عرابى فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التى يفهمها مواطنوه وبمحبوبتها . نعم أنها ليست لغة صحيحة ولكنها حافلة بالمجازات محلاة بالقتبسات من القرآن وكل قد استمادها من دروسه في الازهر . ومن ثم كان له نفوذ كبير عن الذين اتصل بهم .

وفي هذه الاثناء امتزج عرابى بكثير من الاوريين ولا سيما في الاسكندرية التى كان قد أرسل اليها بمأمورية رسمية غير عسكرية خاصة بدائرة الخديو وكانت علاقته بهؤلاء الاوريين ودية وقد ظل عرابى الى اللحظة الاحيرة مجرداً من كل

شائبة من التمسحيات يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروض الديانة كان كذلك من أحرار المسلمين ثم أنه كان محباً للاساية في آرائه الخاصة بأحوال الام وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابي في الحرب الحبشية ولكن في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطاً على ما حدث فيها من سوء التصرف . وإلى هذا يرجع نفره الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذي كان موجهاً بعد ذلك نحو الخديو . وقد راد هذا النفي حين اعتقل هو والضابط الفلاح على بك الزوى نهمة كاذبة هي ان لهما علاقة بالمهجوم على توبار وهي متاوره فلم يها أساعيل ليسر وراءه . دوره الداني . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط في مشروع لم ينجح وكان مؤداه خلع الخديو والراجح ان هذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتدخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاعتقال ونفي عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حرب المصلحين والفلاحين قد سرهم سقوط أساعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابي كان معادياً من أول الامر للحكم الجديد ولم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هذا نفوذاً ودياً صالحاً كما كان يرى في القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القديما . رد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الامكنة اليه أي في ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولت شيء من الحدق والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . ولكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولغيره الخديو توفيق من سلطة وزبره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القاتل على النحو الآتي : لما ألقت وزارة رياض باشا عين عثمان رفقي باشا وهو صابط مركي من الطراز القديم لورادة الحرب . وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كهيبة خاصة وتنظر الى الفلاحين كمبيدتها وخدمها فكان ملكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكتاً عدائياً من

شائنة من التعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروضه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم انه كان محبا للاساية في آرائه الخاصة باخاء الامم وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابي في الحرب الحبشية ولكن في خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كثر زملائه ساخطا على ما حدث فيها من سوء التصرف . وإلى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعامل غيظه الذي كان موجها بعد ذلك نحو الحديو . وقد زاد هذا التيقظ حين اعتقل هو والضابط الملاح على بك الروي نهمة كاذبة هي ان لها علاقة بالمهجوم على توبار وهي متاوره قام بها اساعيل ليسر وراه . دوره الذاتي . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط في مشروع لم ينجح وكل مؤذاه خلع الحديو والراجح ان هذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتدخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاعتقال وغني عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حرب المصلحين والفلاحين قد سرهم سقوط اساعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابي كان معاديا من أول الامر للحكم الحديو فلم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حرازة بل كان يرى على عكس هذا مفوذاً وديا صالحاً كما كان يرى في القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القديما . رد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام في أحب الامكنة اليه أي في ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولجت شيء من الحذق والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . لكنه أرغم على الدماع عن نفسه ولغيره الحديو توفيق من سلطة ودرره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقمت القلائل على النحو الآتي : لما ألغت وزارة رياض ماشا عين عثمان رفيق باشا وهو صابط تركي من الطراز القديم لورادة الحرب وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التي ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كضيعة حامية وتنظر الى الفلاحين كمبيداه وخدمها فكفلن ملكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكتا عنانيا من

أول الامر وقد أعطي التفضيل للحرا كسة لا للفلاحين في جميع التعيينات والترقيات التي حدثت في عهده . وساء الجنود أنهم كانوا يكفون ماداء مهمات غير واحباتهم الرسمية ثم أنهم كانوا معرضين لضروب شتى من الاشغال الشاقة كحفر الترع ومباشرة الاعمال الزراعية في أراضي الخديو ، وكانوا قد فقدوا بطبيعة الحال عادة الاشتغال بالزراعة .

فلما وقف عرابي في جانب رجاله وأن أن يسمح بتشغيلهم في حفر الترع التوفيقية غضب عليه وزير الحرب وكانت هناك مسألة مرتبات منعت فرجع عنها الضباط الفلاحون مذكرة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ وكان عرابي واحداً من هؤلاء الضباط . ولم يكن في المذكرة شيء سياسي وقد رفضت بالطريقة القابولية الي وزارة الحرب فدخل اتصالاً بجنرال فريسا وانفتحت لجنة التحقيق فأقرت اللجنة مطالب الضباط . وقد انتصر الميورنتج فنصل فرنسا في هذه المسألة للضباط واستمر على حياتهم من ذلك العهد الى حد ما خصوصاً اذ قد شجر بينه وبين رياض خلاف أثناء التحقيق . ومع ان عرابي كان يقوم في هذا كله بصيب كبير قد كان متبصراً معتدلاً وقد أرضي القناصل بذلك . وكان قد جدد الصداقة مع زعماء الاصلاح في الارمر منذ عاد الى القاهرة وقد قياة الكتبة الرابعة ثم انه كان متصلاً بواسطة زميله علي بك الروي بوربرين أحدهما علي باشا مبارك والثاني محمود بك سامي البارودي . وكان هذان علي رغم ما عرفا به من الميول الدستورية والتبعة لشريف قد احتفظا بوزارتيهما بعد سقوطه فكان الاول وزيراً للاشغال والثاني وزيراً للاوقاف .

وإذ بلغت الاحوال الى هذا المأزق رأى الخديو فيها فرصة سانحة للدرس ضد رياض فانصل بالصلب بواسطة أركان حربه على بك فهمي وهو صابط ملاح ولكنه اتصل بالقصر بواسطة زوجته الحركية الاصل وعين قائداً للكتيبة الحرس الاول . وكان هذا الضابط رجلاً فاضلاً . ومع انه لم يوقع المذكرة التي أرسلها الضباط الي وزارة الحرب ولم تكن له آراء سياسية قد كانت صله بعرابي واحوانه ودية ولم يجد صعوبة في اقناعهم بان الخديو هو أيضاً في حانهم وانه أرسله خصيصاً لانتذارهم بان رياضاً ورفقته يدبرون لهم تدبيرات سيئة وان الخطر سيطل محققاً بهم أو يستحيل هذان

الوزيران ، وقد سهل اقناع عرابي بذلك لان رياضاً كان الى ذلك الحين قد اعتقل كثيراً من المطالبين بالاصلاح الدستوري ومن بينهم كثير من أصدقائه . وكان الشيخ جمال الدين قد انتهى أمره بسرعة ونفي شاب من ذوي الاملاك في الشرقية يدعي حسن موسي العقاد منذ مدة قصيرة الى النيل الايض لا شيء . الا لانه طعن على قانون المقابلة الذي كان الحديو اسماعيل قد أصدره وكان طعنه هذا رداً على خطاب نشره رفرز ولسن ومن ثم اقترح على الضباط أن يسبقوا عثمان رفقي فيطلبوا رفته وان الحديو ينظر في مثل هذا الطلب بعين الرضا .

وقد انتهت المسألة الى أزمة في أواخر سنة ١٨٨٠ حين علم عرابي ذات مساء . وهو مع الضباط في منزل نجم الدين باشا أن الوزارة قررت حرمانه هو ورفيقه القائم عبد العال بك حلبي قائد الكتبة السودانية من مناصبهما ورفعهما من الخدمة . وقد عي اليه في الوقت نفسه أن على بك فهمي هذا في منزله ويريد أن يراه ، فذهب الي داره فوجد فيها علي بك في انتظاره ومعه عبد العال حلبي الذي أ كدله صحة ما بلغه من الأنباء . وبعد أن تشاور الثلاثة — لان علي فهمي كان قد قرر الاشتراك معهم — قرروا أن يذهبوا الي رئيس الوزارة ويطلبوا منه أن يضع حداً لما يصيبهم من اضطهاد عثمان رفقي بمنزله . وقد فعلوا هذا في اليوم الثاني .

وقد قص علي عرابي نفسه ما حدث في هذا اللقاء ولا شبهة عدى في صحته قال : ذهبنا بالعريضة الي وزارة الداخلية وطلبنا مقابلة رياض . أخذنا الي غرفة خارجية وانتظرنا ريثما يقرأ الوزير عريضتنا في حجرته . ثم خرج الوزير وقال لنا « ان عريضتكم مملوكة . فعي مسألة شتى . ماذا تريدون ؟ تريدون تغيير الوزارة . فهاذا نضعون في محلها . من الذين تطلبون أن يديروا الحكومة ؟ » قال عرابي فأجبه قائلاً : ولكن يا سعادة الباشا هل مصر امرأة لم تنجب الاثمانية أبناء . ثم ابتليت بالقسم . وقد أشرت بذلك اليه هو والسيمة الوزراء فغضب جداً من ذلك ولكنه قال في النهاية أنه سينظر في المسألة . وهكذا تركناه .

وقد لعب الحديو دوراً . غادروا في مجلس الوزراء الذي عقد بعد هذا الحادث مباشرة ضد اقترح اعتقال الضباط ومحاكمتهم رغبة منه في توريث الوزارة اذ كان يعلم

قن السيودي ورج القنصل الفرنسي سيتدخل لحماية الضباط . ولم يكن عثمان رقيق
وقضى هذا الاقتراح الذي يعنى الى محاكته هو أيضاً بطبيعة الحال كما أن رياضاً لم
يكن يريد أن تفتضح المسألة علناً وبذلك وقف في جانب الضباط . على انه قد أوعز
لرياض سرّاً أن موقفه قد بسا ، تأويله فتعتبر معارضته تقصاً في اخلاصه للحديدو
فحسب معارضته وافق في آخر الامر على أن يترك أمر الضباط لعثمان رقيق للتصرف
فيه بالطرق التي كانت متبعة في عهد اسماعيل . لذلك لم يعمل شيء ، علناً ضد الضباط
ولم يفعل مجلس الوزراء في شأنهم بقرار .

أما ما تلا ذلك فمعروف . فقد دعي أصحاب المريضة الثلاثة بعد بضعة أيام الى
قصر البيل ليتقوا مع وزير الحرب على الادوار التي تشعلها كتابتهم في الاحتفال
بتأهيل الاميرة جميلة . فها وصلوا هلك وجدا كثيراً من رؤسائهم الضباط المحراكة
مع عثمان رقيق ولم يبق على وصولهم لحظة حتى اعتقلوا وأهينوا . وقد تمك عرابي
الى آخر الامر بأن المراد كن وصعهم في باخرة نيلية رابطة بجوار القصر والصعود
بهم في النيل وانفراقهم وليس ثمة ما يحمل على الشك في صحة ذلك . فقد كان كل
غرض عثمان رقيق أن يتجنب محادثة قد تفضح ظله . ولو أنهم وضعوا في البخرة
وأقلعت بهم لاعلن حالاً أن هؤلاء الضباط رفقوا وأرسلوا الى بلادهم . ومهما يكن
من ذلك فقد أقدم جنود كتيبة على بك فهمي في الحال وقد زحفوا على القصر
وفتحوا بالقوة أبوابه بقيادة الصاغ محمد عبيد وهو رجل طيب مخلص قتل بعد ذلك
في معركة التل الكبير . وقد قهرت القوات المحراكة بعد ذلك وأرغم عثمان رقيق
على الفرار من نافذة الدور الارضي ثم سار الضباط الثلاثة في طليعة جنودهم
ووسط قرع الطبلات الى ثكناتهم . وهناك وضعوا خطاباً دونوا فيه ما حدث وقالوا
انهم فعلوا ما فعلوا دفاعاً عن أنفسهم ولم يرقعوا سلامة أى انسان في خطر ثم أرسلوا
الخطاب الى السيودي ورج طالين وسطه لدى الحديدو في عزل عثمان رقيق وتعيين
وزير آخر في محله وقد قبل الحديدو ذلك في الحال . ولا شك في أن السيودي رجع
والحديدو اجتهدا كذلك في حلع رياض باعتبار أن رئيس الوزارة هو أول مسئول
عما حدث من الاضطراب ولكن رياض كان مؤيداً من جانب المراقبين المائلين

ومن جانب القنصل الألماني بل من جانب ماليت على ما أظن وكان هذا كما أسلفت غير راض عن الضابط فلما رفعت المسألة إلى حكومتى باريس ولندن لم تحملا رغبة الخديو ولم يمض وقت قصير حتى استدعي السيودى رنيج إلى فرنسا يتعزى في أديال الخلية. وقد حدث هذا الاضطراب العسكرى في قصر النيل يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ وحدث بينما كنت لا أزال في مصر ولكي لم أكن في القاهرة وادكراني لم اسمع اسم عرابي قبل ذلك . ونكس على هذا أ كسه شهرة عامة واسعة وصار اسمه يذكر في الانواء كرحل استطاع أن يتعدي الحكومة بنجاح ويرغها على تغيير الوزراء . ولم يمض عدة أسابيع حتى صار عرابي قوة يعتد بها في البلاد وهطلت عليه من انحاء البلاد كلها عرائض المظلومين الذين يشكون اليه ما أصابهم ويطلبون معونته فيه والواقع ان ظهوره بظهر الدفء عن مصالح الفلاحين ضد طبقة الأتراك الحاكمة أ كسبه حب الناس خارج القاهرة فأقل كثير من الاعيان والمشايخ على الاتصال به . وكان عرابي يحسن الرد عليهم على قدر ما تسمح به قوته المحدودة . ومما يكن من شأن الناس الدس أقبلوا على الاجتماع به فقد كان يؤثر فيهم ابتسامته الحداية وبيانه العذب وورقه .

وقد كان منظر عرابي في ذلك الحين حسناً جداً لائقاً بالدور الذي قدر عليه أن يقوم به بالنيابة عن بني جنسه . فهو فلاح أصيل طويل القامة ثقيل الاطراف بطي . الحركة نوعاً كما هو يمثل تلك القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل في الوجه البحري .

ولم يكن في عرابي شئ من شموخ الجندي بل كل في اشاراته ذلك البطء الذي أعطاه مظاهر النبيل والذي يشاهده الانسان في مشايخ القرى ولم تكن ملاعبه نذل على شئ . من اليقظة وقت سكوته كما أن نظرائه كانت شاردة ولم يكن الانسان يتنظن الى ذكائه الكبير ولطفه إلا حين يبتسم ويتكلم حينئذ كان وجهه يستضيء كما يستضيء الوادي بأشعة الشمس .

والظاهر ان اباشوات الحراكة والأتراك ما كانوا يحملون مثل هيته وهي هيئة الفلاح الذي سادوه قروناً واستعبوه وأرغوه على العمل في حقولهم بغير أجر

ضوا أنه لا يصلح إلا أن يكون آله في أيديهم المأكرة . وقد كان رياض محترقاً من قول الأمر إلى آخره ولم يعتد به مصلحو الأزهر الأ قليلا . ولكن هذا الطواغر كانت أعظم شعاعته لدى الفلاحين فقد أدركوا أنه واحد منهم وقد تركت فيه حلال فصار باهرة بما تحلى به من قوة وبما تعلمه في الأزهر من العلم . وهنا يجب علينا أن نذكر أنه لم يتفق في خلال الثلاثة قرون الأخيرة أن صدأى فلاح مصري إلى ذروة الشهرة السياسية أو ظهر في لباس المصلحين أو وسوس بكلمة واحدة فيها حتى الثورة . على أي أشك في أن خصاله وحدها وقد كانت سلبية لا إيجابية ترمو له التي لم يكن برهن على شيء منها بعد كانت تضعه في الطليعة كزعيم وطني ولا الاضطهاد الطائفي الذي انصب عليه من رياض في الأشهر التي تلت حادثه قصر النيل والذي استطاع دائماً أن يرفضه أو يتخلص منه بواسطة دسائس خصوم الوزير .

وكن أم أولئك الخصوم وأقدم على تحدير عرابي من الخاطر التي تهدده طيبة موضعه محمود بك سامي الذي خلف عثمان رفقي في وزارة الحرب بتوصية السيدي رنج والدي كلن من أعضاء حزب شريف وكان دستورياً متحسناً . ومع أنه لم يكن قد تعرف إلى عرابي إلا الآن فقد كان يميل إليه ميلاً ودياً كما أنه كان صديقاً حميماً لبي بك الروبي الذي هو أحد الضباط الفلاحين فلما تقلد وزارة الحرب أصبح في استطاعته أن يساعدهما بالفعل ويطلعهما على ما يصل إلى علمه من الدسائس التي تدبر لها وقد استطاع أن يفعل ذلك بنجاح لا قتاله من الاجتماع بعرابي ولو أنه كان دائم الاتصال به بواسطة علي الروبي . وقد وعد الضباط وعداً صريحاً بأن يطلعهم حالاً على الحقيقة إذ انضم الحديوي للذين يعملون ضدهم فإذا لم يستطع التذامس استغل وكان عليهم أن يعدوا استقائه اندلوا لم .

أما محمود سامي البارودي فقد نال دوره في ذلك العام وهو سليل أسرة شركسية عاشت في مصر أجيالاً طويلة فكان على هذا من طبقة الحكم ولكنه كان كشراف باشا مصلحاً ووطنياً صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أعجب بكثير من عرابي بل كان من أعظم الناس علماً وتهذيباً في مصر فقد كان

متضلعا في آداب اللتين التركية والعربية كما انه حجة في تاريخ مصر وهذا كله فضلا عن مواهبه الشعرية العظيمة المتناثرة وقد وصمه الكتاب البريطانيون الذين اهدتوا أو بمباراة أصبح ضلوا عما في الكتب الرسمية الدوق اذ قالوا انه كلن بدس لورير يتسمى لحزب غير حزبه ولم يتطوع هو لحذته . وقد كلن محمود سامي في الوزارة حين تقلد رياض الرئاسة في سنة ١٨٧٩ . وكلن هناك تقام على أن يحتفظ هو وعلي باشا مبارك باستقلالها في كل ما يختص بورارتيهما . ولم يكن ثمة شك في أنهما كانا بدسان لرياض في ربيع سنة ١٨٨١ ولكن غرضهما من ذلك لم يكن إلا اعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة . ومن هذه الناحية يجب أن ينظر الانسان لاعمال محمود سامي ولست أشك ان تاريخ الورارات البريطانية حافل بهذا الصرب من الدساتر وقد كان الدور الذي قام به فيما عقب ذلك من الحوادث دور اخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية وقد دفع في ثباته ثمناً عاليا فانه كان رجلا عنيا ومن ثم كان معرضاً أكثر من غيره للخسارة .

أما الدور الذي لعبه الحديوي أثناء الشهور السعة التالية فلم يكن على شيء من مثل هذه الاستقامة والظاهر انه كان في حلال هذه المدة فريسة للتردد والتغيره والخاوف والمطامع . وقد كان خصوم رياض يوهونه أن هذا الوزير يدس له ويعمل لحله والحلول محله . ومع أن هذه فكرة لا يمكن تصورها فقد صدقها الحديوي في وقت من الاوقات . وفي أوقات أخرى أثارت شهرة عرابي غيرته فكان ينتقل من خوف الى خوف في الوقت الذي كان فيه يتوق لاستعادة السلطة التي كان يحكم بها والده وقد كانت المراقبة الانجليزية الفرنسية تثير ثائرته ثم انه كان يعرف ان السواد الأعظم يكرهه ويزدره . وكانت بطائته الحركية تصر أشد العدا للضباط الفلاحين ولا تقطع عن تحريضه على معاملتهم بأقصى الشدة وهذا بينما يستخدم شريف باشا واحوانه الدستوريين على أمل أن يعيدوا تمثيل الظاهرة التي كان يريد أن يتخلص بها من رياض ومن المراقبة الثانية معا . هذه هي الحالة التي كانت عليها البلاد في شهر اغسطس سنة ١٨٨١ حيث وقعت الازمة وحيث كلن للاختار الذي عرى العالم الاسلامي من جراء اعتداء فرنسا على تونس تأثير كبير .

الفصل السابع

اتصال الملحن

ليس من السهولة في شيء أن يحدد الانسان الثور الذي له الخديو توفيق في آخر فصول رواية الثورة وهو المظاهرة العسكرية التي جرت يوم ٩ سبتمبر في عايدس وقد ذكر نيت وغيره من الكتاب أنه كل هناك اتفاق تام بين توفيق في ذلك اليوم وبين الزعماء العسكريين ابتداء اسقاط رياض والتخلص من الوصاية المتصلة التي ضاق بها الخديو ولكن ليس هذا صحيحاً الا من الوجهة العامة وقد أكد لي عرابي أنه لم يكن له في سنة ١٨٨١ علاقة بالخديو خلاف العلاقة الرسمية التي كانت له بصفته قائد كتاب الحرس ولم يخاطبه عرابي شخصياً الا ثلاث مرات ولكن لم يرد ليلسة ذكر في واحدة منها ومع ذلك لا شك في أن توفيق ظل وحي على الصباط بواسطة أركان حربه على بك فمي فكرة المظاهرة العسكرية ذات الأغراض المحدودة ولكن هذا الصباط قد عاد الى خدمة الخديو علي الرغم من اشتراكه مع عرابي في حادث قصر النيل واعتقاله معه وكان الخديو يستخدمه حاسوساً على الضباط الفلاحين ووسيطاً لديهم في الوقت نفسه وكان توفيق يظن أن صلة على فمي بالباط بواسطة روجه ضمان لوفائه ولم يفض عليه توفيق ذلك الفضب الشديد الا حين انضم هاتياً الى عرابي بالرغم من علاقته بالقصر . وقد كان توفيق كما قلنا متقللاً فيما كان يعتمد على الجيش في التخلص من رياض كان ينحرف عنه بدافع الفبرة من شهرة عرابي الآخذة في الزيادة . وقد برزت شهرة عرابي خلال ذلك الصيف ومكنته من الاتصال بكثير من مشايخ القرى ووجهاء الاقاليم وكان هؤلاء قد فرحوا بفكرة تحرير الفلاح التي كان يلهم بها عرابي . وكلوا يسمونه في الارياض « الواحد » وعندى أنه كان جديراً بهذا الاسم فقد كان الفلاح الوحيد الذي استطاع أن يقيم بنجاح طبقات الحكم المركبة

وليس في الطاقة أن يتجاوز الانسان الحد معها في التأكد بان حركة سنة ١٨٨١ الوطنية كانت حركة فلاحية محمّة غرضها تحرير الفلاحين وأنها كانت موحدة

قبل كل شيء. آخر ضد حكومة الحراكة المدومة الكفاءة والتي حربت البلاد وأنها لم تنجح ضد المراقبة الثانية الا حين وقفت هذه في حاب الطلبة وأيدتهم . على انه قد امتزجت شؤون أخرى بالحركة بطبيعة الحال . واد أقل كثير من وجهاء البلاد وأعيانها على عرابي والثغوا حوله وصاروا قوة لا يستهان بها أخذ كثير من الدستوريين الذين كلن أكثرهم من الطبقة الحاكمة يعاملون عرابي كحليف على الرغم من انهم كانوا في الحقيقة خصوما لحرية الفلاحين كما كان رياض معه . وكانت فكرة الدستور في عقول هؤلاء الرجال تنحصر في تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها في يد طبقة الحكام الحراكة وهي الطبقة التي اعتبروها وحدها صالحة لحكم البلاد . وكلن رأس هؤلاء الدستوريين شريف باشا وقد وحد نفسه في خلال الصيف متصلا بعرابي من طريق المراسلة وباعتباره واسطة الحصول على دستور يهد لشريف باشا سبيل الوصول الي رئاسة الوزارة مرة أخرى .

ولما كان عرابي ميالا لمكرة الدستور قد أخذ في تأييدها وخصوصاً ان سلطان باشا الذي كلن أقوى وجهاء الفلاحين كلن كذلك دستوريا كبيرا وأكث واسطة الاتصال بين عرابي وشريف وقد اتفقوا فيما بينهم جميعاً على انه متى حانت فرصة ملائمة يلتقي عرابي بنفوذ الجيش في كفة أي ضغط يبذل لحل الخديو على الموازنة على طلب الدستور . على ان الخديو نفسه لم يكن يكره هذا الطلب لافصانه بطبيعة الحال الي إتالة رياض تلك الاقالة التي كانت عرضاً رئيسياً من أغراض الخديو . ولذلك أوعز الي عرابي بواسطة علي بك فهمي ببارات التشجيع وأكد له موافقته .

وتدل أول رسالة تلقاها عرابي من توفيق في هذا الصدد دلالة واضحة على طرق الدس التي كلن يسير عليها الخديو . فقد كلن يتحدث ذات يوم الي علي فهمي عن الجيش ونما . قوته كعامل سياسي فقال « أنتم الثلاثة عرابي وعبدالمال وأنت جنودي وأنتم أربعة بانضمامي اليكم » ثم أمره أن يبلغ هذه الرسالة الي عرابي . ثم تبعت هذه الماعلت أكثر وضوحاً حتى اقتنعوا بأن الخديو يؤيد سرّاً ان لم يكن علناً كل مظاهرة عسكرية يكون الغرض منها اسقاط رياض . وكلن يجب لاقاع القناصل أن يظهر بمظهر المضطر للاذعان بحكم القوة حين يقبل الوزارة .

واسكن الشك في مسلك الخديو لم يلبث أن عاد الى الاذهان حين دقت صلاحة العمل . وقد حدثت الازمة على الوجه الآتى : كان رياض باشا حتى شهر أغسطس قد احتقر حركة الفلاحين الى حد انه لم يحفل البتة بها ولكنه أوعج الآراء المرة الاولى . وكان يعتقد انه يستطيع أن يقمع الحركة العسكرية بوسيلة من تلك الوسائل الشاذة التي تعودت عليها حكومة الجراكزة وكان قد أحاط عرابي وزملاءه بلغوايس واجتهد أن يورطهم في مشاحرة شخصية بواسطة رجال البوليس أو في قبح اضطراب آخر يقع في الشارع فيقضوه ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . قد كل صديقهم محمود سامي وزير الحرب يتقدم بكل مشروع جدي يدبر لهم في الخفاء فكانوا أبدأ على قدم الخنزير وكل قد انفق بين عرابي ومحمود سامي على أن يتوقع الضباط الفلاحون شراً كبيراً اذا اضطرت محمود سامي للاستقالة من وزارة الحرب حتى ولو لم يسمع شي . من جانب محمود . فلما فرغ صبر رياض في أغسطس ووقع الخصام بينه وبين وزير الحرب وأعلى ان محمود سامي قد استقال اعتقد الضباط فيما يخصهم أن ساعة العمل أوشكت أن يحين . وكان رياض أراد ان يرغم وزير الحرب على ابعاد الصائطين الرئيسيين ورفقيهما من القاهرة ووافق الخديو على ذلك في نوبة من نوب غيرته من شهرة عرابي فلما عارض محمود سامي في ذلك أعلى بالرفق في الليل . وكان الخديو ورياض لا يزالان يومئذ في مصيفها باسكندرية فارسل رياض الى محمود سامي خطاباً يأمره فيه ترك القاهرة والسر الى عزبته ولذلك لم يسمع وقته بمحتلبيه أصدقائه الضباط . ولكن هؤلاء عرفوا حالاً ان عهد المتعاقب قد ابتدأ ولا سيما ان ذلك الذي خلف محمود سامي في وزارة الحرب لم يكن أقل ولا أكثر من داود باشا يكن زوج أخت الخديو وهو جنرال جرئ من شرار الرجعيين . وقد عاد الخديو الى مصر في أوائل سبتمبر وكان الضباط قد تشاوروا في الامر مع سلطان باشا وحلفائهم المالكين وقرروا أن يأخذوا حالاً في العمل . وقد صمموا على القيام للقاهرة العسكرية مها تكي خطة الخديو محمود وان بصروا على ضرورة استقالة الوزارة كضمان لازم لسلامتهم الشخصية . وكانوا قد رأوا اهم اذا سمحوا بان يستمدوا من مصر ويمرّفوا سهل حينئذ على رياض ان يضربهم واحداً فواحداً ولكن أبسر

ما يتوقعوه على يديه ولكن الغالب ان بعدد الى اعتقالهم ومحاكمتهم بتهمة العصيان على ماحدث منهم في فبراير . وكان في رناهم المطالبة بزيادة الحيش فمضوا هذا الطلب الى الدستور الذي اعتقد الجميع انه الصياع الوحيد ضد ظلم الحكومة .

وانتهت المسألة سريعاً الى أزمة في ٨ سبتمبر . فان داود باشا الذي كان كافراد طلقته يسرف في احتقار الصباط العالخين ولا يتوقع مقاومة من جانبهم أصدر أمره سفر أورطة عرابي الى الاسكندرية وأورطة عد العال الى دمياط . فلما وصل الامر الى الصابطين قررا أن يعملوا في الحال . ولا شك في أنهما اعتددا على اناة الخديو اذا لم يكن على عطفه وكانا على بينة من ضعفه الخلق وعرفا انه سينضم الى الحانف الأقوى مها كل الفرار الذي اتخذته قبل ذلك بتأثير رياض . وكانا يعتددا كذلك على صداقة علي فهمي وان لثافي شك من أمره . وكانت أورطة علي فهمي لا تزال معسكرة في ثكنة عابدين ولم يرد لها ذكر في أمر العمل الذي أصدره ويرب الحرب فادا كان الخديو حصاناً لها وكان علي فهمي مطعماً لها لثابتاً لا بد من وقوع القتال . والا فالراسخ اذا لم يحدث شيء من هذا أن تبقى مظاهرتهم سلبية وتنتهي سلام . ولأجل أن يتوقيا سوء الفهم أرسلوا مذكرة للخديو أطلعاه فيها على مشروعهما وقالا فيها أنهما لن يذهبا بمجنودهما الى قصر الاسماعيلية الذي هو قصره المخصوصي بل يذهبان الى عابدين الذي هو القصر الرسمي والخاص منه أن يقابلهما ويسمع شكواهما .

أما ماحدث بعد ذلك فاسمعه من فم عرابي نفسه . قال : كبت في صباح اليوم التالي خطاباً الى الخديو في قصر الاسماعيلية يتضمن مطالبنا وقلت اننا سنذهب الى قصر عابدين في وقت العصر لتلقى الحواب . أما سبب ذهابنا الى عابدين وليس الى الاسماعيلية هو أن عابدين مقره الرسمي وكنا أردنا أن تتجنب ارجاج سيدات بته . على اننا كنا قررنا الذهاب الى الاسماعيلية اذا امتنع الخديو من المصور الى ابدن . فلما وصل الخطاب الى الخديو استدعى رماض باشا وخيري باشا وستون شا الاربيكي ثم ذهبوا أولاً الى ثكنات عابدين حيث خاطب الخديو ورياض الخوود أمرا علي فهمي أن يحتل قصر عابدين بمجنوده . فوافق علي فهمي ووضع جنوده في

التعرف العليا بحيث لا يراهم أحد وبحيث يستطيعون أن يطلقوا علينا النار من التوافد. ولكي لا أعرف هل زدنا محطوش فيه رش أم لا. ثم ذهب الخديو والمحارلات إلى القلعة وحاطوا الحدود بالمعى معه وطلبوا من فوده بك أن يساعدهم الخديو عليا وقد أنه الخديو وهدده بأن يضعه في السجن ولكن الخديو حاف وترك القلعة ثم جاء إلى العاصية بنصيحة رياض ليتكلم معي. ولكني كنت سرت بمجنودي بطريق الحسبية إلى عابدين فسألوا عن المدفعية فقبل لهم أنها ذهبت هي الأخرى إلى عابدين. ولما عاد الخديو إلى عابدين وحدثنا معسكرين في الميدان وكانت المدفعية والجنود الراكبة واقفة أمام الباب الغربي وكنت واقفاً بمجنودي أمام الباب الكبير. وكنت قد أرسلت إلى علي فهمي القدي علمت بوجوده وتكلمت معه فحب جنوده من السراي ووقف هم معنا. وقد دخل الخديو من الباب الشرقي ثم قدم علينا بقواده وأرسل حربه ولكني لم أركض معه وإن لم يعد أنه كان هناك. ثم أمرني الخديو بالترحل فترجلت. وأمرني أن أرفع سفي فرصته ولكن دملائي الضباط تقدموا معي خوف الخيانة وكانوا نحو خمسين صابطا وقد وقف بعضهم بين الخديو وبين القصر فلما بلغت رسالي وذكرت الطلبات الثلاثة قال «أنا خديو البلد وأعمل زي ما أنا عاوز» فقلت «ومعنا لسا عبيد ولا مورت بعد اليوم» فلم يقل شيئا بعد ذلك ولكنه أدار ظهره وذهب إلى السراي وبعد ذلك أرسلوا لي كوكسن مع مترجم سألتني «لماذا أطلب البرلمان مع أبي جندى» فقلت «ليضع حداً لحكم الاستبداد وأشرت إلى جماهير الشعب التي احتشدت خلف الجلود لتأييدنا مهددي قائلاً «ولكننا سنحضر حيشاً بريطانياً. ثم دارت مناقشة طويلة بيننا. وقد عادت أو سبع مرات إلى القصر وعاد إلي مثلاً حتى قللي أخيراً أن الخديو وافق على كل شيء وأنه ذكر حيدر باشا كخلف رياض فلم أوافق على ذلك ولما سألتني أن أذكر خلفه ذكرت شريف باشا الذي كان أعلن عن ميله إلى مجلس النواب. وكنت قد تعرفت قليلاً بشريف لما كان يخدم في الجيش. وفي المساء نفسه أرسل الخديو يستدعيني إلى قصر الاسماعيليه فشكرته على إجابة مطالبنا ولكنه قال «يكفي». اذهب الآن واحتل عابدين ولا تستصحب الجنود موسيقاها في الشوارع.»

الى هنا تنتهي رواية عرابي وهي متفقة في كل شيء . مع المعلومات التي وقعت عليها من أوثق المصادر المصرية فيما يختص بحوادث ذلك اليوم بل هي متفقة على الصوم مع الكتب الرق . ولم يكن الدور الذي قام به الخديو فيها ينطوي على شيء من الطولة ولكها كانت في الحقيقة مسألة جبن مادي أكثر مما تربنا الروايات الانجليزية الرسمية . وكل الخديو يعرف أن لا خطر عليه من الخنود وهم لم يطلبوا اليه شيئاً لم يكن موافقاً عليه أو كان يتعذر عليه أن يعد قصاته . ولكنه كان يتردد بين الطرفين بنية الانضمام الي الفائز ولكن ملسكه هذا من القموض بحيث لم يمهه كلفن ولا كوكسن .

أما هذان الانجليزيان اللذان ذكرهما عرابي فأولهما السير شارلس كوكسن القصل البريطاني في الاسكندرية والقائم بأعمال الوكالة البريطانية أثناء غيبة ماليت باحارة في القاهرة - وثانيهما السير أوكلاند كلفن المراقب المالي البريطاني . ولكن تمثيل الهيئات افرسمية الاجنبية في مصر يكلا يكون محصوراً فيهما لان الوكيل الفرنسي الخديف المسيو دي سكوكر لم يكن قد وصل الى مصر بعد وكان المسيو دي بلينجير زميل السير كلفن في المراقبة عائناً أيضاً . لذلك كان عليها عبء النصيح للخديو وارسال التقارير للحكومة البريطانية . وكان كلفن يميل الى أخذ الامور بالثقة والعف لبين أحدهما انه كان قبل ذلك موظفاً في حكومة الهند ولم يكن يعرف من وسائل تدبير الامور الا التقاليد المريعة في تلك الحكومة وهي تقاليد العنف . وثانيهما انه كان يجهل شبه التفاهم الموجود بين الخديو والضباط . لذلك نصيح للخديو بأن يلجأ الى وسائل العنف التي كان يمكن أن يلجأ اليها محمد علي الكبير مع أشبال هؤلاء الضباط قبل ذلك بسنين عاماً ولكها لم تكن مما يلائم الظروف الحاضرة وكانت نصيحتة تنحصر في أن يطلق الخديو بيده مرساً على عرابي بعد محادثة قصيرة . أما كوكسن الذي كان أدرى منه بضعف توفيق فقد نصح مع جهله بسبق الاتفاق القائم بين الخديو والضباط بالاتفاق واقترح الحل الذي كان يريده الخديو منذ زمن بعيد وهو اقالة رياض باشا ونصين شريف . ولقد يستفيد الانسان من قراءة ما رواه عن هذه الاحوال في الكتب الرسمية الزرق كما يستفيد من قراءة

رواية كلف للحوادث ذاتها في حريدة « التيس » وفي « البال مال عاريت » التي كان هو مراسلها في مصر . وكانت نتيجة اعلان رأيهما أن أثبت عليهما الحكومة البريطانية وأعلنت على كل من مرتبة « سير » ووضعت في مركز سياسي لم يكن له قبل ذلك في مصر وعلى ذلك انتهت الحال . فان رياض الذي انتظ عما جرى لنوبار وعثمان رفق فلم يشترك في مناقشة الضباط بل بقي في القصر حتي أقبل في ذلك المساء من الوزارة وسافر الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا ليقضي حتي يأتيه العون من الدول الحامية وحل محله في رئاسة الوزارة شريف باشا بعد أن أظهر شيئاً من المعارضة والنفور . وقد استبقت مصر في صباح اليوم التالي لتعرف ان المسألة لم تكن مسألة عصيان فقط بل كانت ثورة أيضاً وأنه قد وضع حد للحكم الاستبدادي الذي طال عليه الزمن . وقد وعد الخديو أن يجمع الاعيان ويمنح الدستور وأن يحكم بلاد الفراعة والممالك والمشوات الترك من الآن فصاعداً على مقتضى قوانين الحق والعدل لا بواسطة الاحاب ولكن بواسطة نواب الشعب المصري أنفسهم .

وكانت الاشهر الثلاثة التي عمت هذه الحادثة الشهيرة من أسعد الاوقات التي مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرني أن حظيت بمشاهدتها بعيني رأسي . ولو اني كنت سمعت بها سمعاً لشككت فيها وعندي أنها لم يكن لها شبهة في الايام التي رأيتها في مصر وأخشى أن تكون مقطوعة النظر في الايام التي يمكن أن أراها فيها . فجميع الاحزاب الوطنية وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية وشاركهم الخديو في ذلك على ماظهر يومئذ للناس . وكان قد سر بهد اقتضاء الازمة بنجاح ديسنه ضد رياض والمراقة الثانية البغيضة . وقد وثق بان شريفاً لا بد أن يخلص عاجلاً أو آجلاً من عراي . ثم أن شريفاً وزملاءه من وحها، الاحراك لم يكونوا كذلك أقل سروراً بمودة السيطرة بهم بل ان الاتراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصاراً على أوروبا . ونجا المكرون من كابوس الخطر الذي طالما هددهم وارتاح المصلحون المديون للحرمات التي اعتقدوا اليوم أنهم لا بد حاصلون عليها . اما الذين شكوا وأسأوا الظن للنهاية . فقد اعترفوا

كذلك بأن انتاج قد روت الالتجاء للقوة وما كان لها من نصر لم نتمكن فيه نقطة دم . ونصاعدت من احماء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على حواش اسبل سد ثبات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كلن يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ويتعاقبون على غير تعارف سابق ويبتهجون معاً لعصر الحرية المدهش الذي بدا لم نجاة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل . وكانت الصحف قد أسرعت بنشر الاباء السارة وقد حررتها رقابة الشيع محمد عبده المستيرة من قيودها اسابقة واستطاع الناس أن يجتمعوا ويتكلموا بلا خوف أينما شاءوا في الاقاليم وبلاد وجل من تدخل السوليس والحواسيس . وقد سرت عدوى السرور الى كل الطبقات فالمسلمون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعاً وشاطروا السرور جماعة الاوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية . وقد اعترف القناصل الاجبيون أنفسهم بأن العصر الجديد خير من العصر القديم وان رياضاً قد أخطأ وان أعمال عراي إذا لم تكن كلها سديدة فليست كلها طلاً .

وكان الملك الذي سلكه عراي نحو الخديو والوزراء الحدد مسل كما صحيحاً نبلا وقد اجتمع عدة مرات للخديو فكانت حطته ودية كما أنه أظهر لشريف باشا ومحمود سامي الذي عاد مثقلد وزارة الحرب انه وقد تم عمله يريد أن يستعج حاكياً ويترك أمر ترقية واعماله لاصدقائه المدنيين وكل الخطب التي القاها في ذلك العهد — وبعضها مدون في الكتب الزرق — مشبعة بهذا المعنى الحكيم وتم علي تشعه هو نفسه باسمي الآراء الانسانية التي كانت من مقومات عمله السياسي . وليس في هذه الخطب الا العطف الواسع المدى على جميع المذاهب والطبقات ولا يمكن أن نجد فيها آراءً للخط على المراقبة المالية الاورية التي كان عراي في مقدمة المتعرفين بمواندها وكان المعنى السائد على خطبه هو أن الحكم التركي المطلق القديم قد انتهى واندأ عصر جديد من الحرية الاهلية والسلام وحسن الية المتبادل بين جميع الناس . ولم يمض أسبوعان اثنان على تقلد وزارة شريف أرملة الحكم حتي سار عراي — يوم ٢ أكتوبر — في طليعة فرقته الى رأس الوادي بين هتاف سكان العاصمة المتعرفين له بالجيل .

وأخيراً نكلمنا في علاقة مصر بكل من فرنسا وإنجلترا فاعترف عرابي بها بلخير الذي أصاته مصر اذ نحررت من اسماعيل وانتظمت ماليها ولكنه قال انه لا يجوز لماتين الدولتين أن تحولاً دون تجديد مصر الاهلي بتأييد حكم الخديو المطلق والباشوات الحرا كسة ضد المصريين وكان يتوقع عطف انجلترا علي جهاده للحرية أكثر مما يتوقع العطف من جانب فرنسا واكثر ما كان يتوقعه من العطف كان من ناحية المستر غلادستون الذي أظهر صداقته للحرية في كل مكان ، قال هداردا على الشرح الذي أبديته له على آراء غلادستون ولكنه كان يشاطر كل أهل القاهرة قلة الثقة في ماليت وقد بذلت كل جهدي لاربع حاطره من هذه الناحية ثم اقرتقا . وكان لهذا اللقاء الاول من حسن الاثر على رأيي في الضابط الفلاح ما حلني علي الذهاب في الحال لصديقي الشيخ محمد عبده لافضي اليه بحقيقة هذا التأثير ثم اقرحت وضع برنامج بما أخبرني عرابي به وأن أتولى ارساله الى غلادستون اذ لم يتخالي شك في عطفه علي الاماني الوطنية متى عرضها علي حقيقتها من مصدر موثوق به . وقد خاطبت ماليت في هذا الشأن فقال ان مثل هذا العمل قد يعود بشي من الفائدة ومن ثم وضعت أنا والشيخ محمد عبده وآخرون وصاحبونجي منشوراً يتضمن آراء الحزب الوطني بكل دقة . وقد أخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور الى محمود سامي الذي كان وزير الحرب وضمن موافقه عليه وكذلك أطلع عرابي علي المنشور ووافق عليه . ولما تم هذا قدمت المنشور بصلم ماليت وموافقته الى غلادستون شارحا له الموقف كله طالبا عطفه على حركة متفقة كل الاتفاق مع مبادئه المعروفة وختمت خطابي قائلاً : « لا أستطيع أن أفهم أن حكومة الاحرار البريطانية يمكن أن تأسف علي هذا الشعور أو تقضي على مثل هذه الاعمال . وفي الطاقة أن يحسن وجهها وأظن أن محي تقدم العرب لا يسهم الا أن يهتوا أنفسهم على شواهد الحياة السياسية الغربية وغير المتوقعة التي ظهرت في بلاد اعتبرت أقل مناطق الشرق الراكذ فكيراً وأذكر يلسيدي انك قلت لي مرة أب أم الشرق لا نستطيع أن نحبي معها الا بتجديد ارادتها الاهلية المعقودة فانظر الى هذه

الارادة الاهلية الناشئة في مصر والتي تسفل حبهها لتجد أقوالا تقع أورا
بوجودها .

وبينا أرسلت « بيرنامج الحرب الوطنى » هذا الى علاستون أرسلته في الوقت
نفسه الى حرية الشمس بناء على اشارة البر وليم جريجورى . واسكن ماليت لم
يوافق علي هذه الخطة لاعتقاده انها تفقد الامور في الاستانة . وهي فكرة رسحت
بقوة في عقله السياسي الرسمي ولكن جريجورى أصر على وجوب شره والا وضع
على الرف في « دونج ستريت » وعرض عنه النظر فوافقت على ذلك . وكان
جريجورى صديقا شخصيا لشئى رئيس تحرير التمس الذي حدم القصيدة الوطنية
المصرية في وقته أعظم الخدمات . وكان شئى رجلا واسع العقل اذ يفكر في
الشؤون الشرقية وكان على جانب عظيم من العلم باللغة العربية وقدرهم وشر قطعاً
شائعة من مقامات الجبرى ومن ثم كان واسم النظر في المسألة المصرية فلم يرها
كعبها من الصحين مسألة لا تعني غير بورصة لندن على الرغم من أنه كان هو
نفسه من حملة أسهم الدين المصرى . ومن ثم عني عناية كبيرة بنشر خطابات
جريجورى كما أنه نشر في خطابات كثيرة كتبها اليه في نضعة الأشهر التالية واستمر
يشترى كل ما أرسله في تأييد الحركة الوطنية حتى بعد أن وقعت الحرب . وقد
تجاوز شئى كل حد في الاتصال بالحركة المصرية حيث كتب أن عراي نفسه هو
الذى أرسل اليه البرنامج ولكن هذا التجاور مكن ماليت الذى كان واقفا على
الحقيقة من أن يعمل بواسطة شركة روتنر أن الوثيقة التي نشرتها التمس ليست
حقيقية .

وبحسن بي هنا أن أشرح الطريقة التي احتكرت بها الصحف البريطانية ولا
سبا شركة روتنر بصفة رسمية في القاهرة وجعلت خادمة للسان السياسة . لم يكن
للصحف البريطانية مراسلون معينون في القاهرة الا التمس والبال مال عازيت .
وكانت هاتان الجريدتان فيما يختص بالسياسة في يد السر أوكلند كلفن المراقب
البريطاني المالي . وهو موظف هندي داهية مشيع الغفل بالسياسة الهدية .
وله تحارب صحفية مد كان متصلا بجريدة « يوبير » وهي جريدة انكليزية هدية

شديدة في استعارتها ، وكان السير كلفن مراسلها في مصر . وكان أيضاً مراسل مورلى رئيس محرر المال مال عاريت وكان واثقاً من اصفاة الحكومة اليه من هذه الناحية . وستظهر قيمة هذه العلاقة غير العلنية فيما صد حين يأتي الكلام على المجهود الذي بذله لتحقيق التدخل الانجليزى . وكل ذلك أخيراً يوحى الى التيسر بأدائه واسطة مراسلها سكوت الذي كان يعتمد عليه في استقاء المعلومات أما وكالتا روبرت وهامس فكانتا واقعتين تماماً تحت نفوذ المراقبة الثابتة التي كانت تعطى كلاهما البجنبه في العام من الميراثية المصرية الفقيرة . وكانت وكالة روبرت بصمة خاصة لسان الوكالة الانجليزية وحادثتها وكانت التلغرافات التي ترسلها الى لندن لأرسل الا بعد مراقبة ماليت .

ويجب أن أشير الى أن احتكار مصادرة الانباء العامة لمصلحة السياسة البريطانية لم يكن مقصوداً على القاهرة ولكنه كان موجوداً في جميع العواصم التي لها فيها وكلاء سياسيون وأن هذا أسلوب قوي من أساليب تضليل الرأى البريطانى العام . ولا تقوم السيطرة على تلك المصادرة عادة بدفع مبالغ معينة ولكن باعطاء المعلومات السرية النجاسة والامتيارات الاجتماعية الواسعة وكانت السيطرة على الصحف البريطانية تامة في السر الا في الاوقات التي كانت تحول فيها كثرة المراسلين وامكان السيطرة عليهم جميعاً ولكن هذا لم يحدث ا في الاوقات الخطيرة . أما في الاحوال العادية فقد كانت لموظفيا السيطرة العامة على الاخبار التي يجوز أو لا يجوز ارسالها الى لندن والاحرار التي تنشر أو لا تنشر في مصر من أخبار لندن . ويجب على المؤرخين أن يدركوا دائماً هذه الحقيقة حين يرجعون الى أثير الصحف ليستقوا منها معلومات عن حوادث تلك السنين .

واذا استتبنا هذا الخلاف البسيط مع ماليت أمكن القول بأن علاقتي به بقيت الى آخر سنة ١٨٨١ . ودية وقد أسر الى شكوكه ومتابعه وقلقه فيما يختص بالسير على مناصره وزارة الخارجية من الخطط وخوفه من أن يأتي في أبان أزمة يصل إلى تجاوز الموازنة الرسمية . وقد قرر لي أنه يعطى كل العطف على الامانى الاهلية وأطه كلنى الحقيقة كذلك واعتمد علي كرجل فادر في كل حال على وقايتة من كل صعوبة

عيفة حتى يأتيه قرار دوسج سريت بالسياسة التي ينبغيها . وقد دوت في مذكراتي انه هو والسير اوكلند كلهم الذي كست قد صادفته والذي لم يكن أقل عطفاً على الوطنيين من ماليت طلما مي يوم ١٩ ديسمبر أن أساعدهما في حل صعوبة ربط ميزانية الجيش .

كان الوقت وقت ربط الميزانية وقد طلب محمود سامي وزير الحرب لورارته مبلغ ٠٠٠ ر ٦٠٠ جيه . ولست أذكر الآن مقدار الزيادة في هذا المبلغ عن المبلغ الذي ربط فوزاة الحرب سنة ١٨٨١ .

ولم يكن على أفق السياسة المصرية في ذلك الحين الا عيمة واحدة هي مايجتسل من عدا سلطان تركيا لفكرة الدستور وكل عد الحيد بعد أن دأب هذه الفكرة وقتاً في الاستانة قد مرهن على انه ألد عدو للدستور ، اذ كان في ذلك الصيف بالداب قد أمر بتشيل مهلة محاكمة مدحت والحكم عليه وقد كان مدحت أعظم أنصار الدستور في تلك البلاد . ومن ثم قلق السام حين حصرت في أوائل أكتوبر الى القاهرة حنة خاصة من قبل السلطان لتحقيق ما حدث في مصر ولاسيا مع مبادرة عراي بالذهاب الي رأس الوادي وتمجيل عد المال بالذهاب الى دمياط . علي أن زيارة اللجنة انتهت سلام واستطلاع الوزراء أن يقتنعوا بأن الحركة الالهية التي لم يبق شك في أنها حركة وطنية لا تطوى على شيء من قلة الولاء للسلطان .

وكان مصير تونس قد اتى في روع المصريين أن توثق الرابطة بينهم وبين الامبراطورية العثمانية هو عصمتهم الوحيدة من عدوان أوروبا وقد اعتقدوا ان الفرض من الثورة لم يكن الا منع المراقبة الشائبة من الاعتداء على استقلالهم . ومن ثم حسنت ية الجميع وساد الرضا والقنوع . واستطاع على نظامي باشا رئيس اللجنة أن يحمل معه تقريراً طلياً عن الحالة وقد أبدى في ذلك العضو الذي يليه في اللجنة — احمد باشا راتب . وكان هذا قد تحادث مع عراي شخصياً في رأس الوادي وهو ذاهب الي السويس في طريقه الى مكة .

وقد حدث هذا اللقاء الذي كان له فيما بعد أهمية بالنسبة للحالة السياسية في القطر بين الزقاريق والتل الكبير وقد أكد لي عراي أنه حدث اتفاقا حين كان

عائداً الى رأس الوادى بعد زيارة صديقه احمد افدى الشمسي وسليمان باشا أمانه
في الزقازيق . قال : « كنت عائداً بقطار رأس الوادى فاتفق ان احمد راتب باشا كان
في هذا القطار ذاهباً الى السويس حيث كان قاصداً الى مكة لاداء فريضة الحج .
وقد وجدت ضفي في المركبة التي كان فيها وتبادلنا التحية كغريبين وذكرته له
اسمي وذكر لي اسمه وانتواءه الحج ومسائل أخرى . ولكنه لم يخبرني عن اللحنة
ولا سألته عنها . علي أفي أخبرته بأني موال للسلطان باعتباره رئيساً الديني ثم ذكرت
له كل ما حدث فقال لي « لقد أحسنت صنعاً » ثم تركه في رأس الوادى . وقد
أرسل لي مصحفاً شريفاً من جدة ولما عاد الى الاستانة كتب الى مانه أحسن
الشهادة في حق للسلطان ثم تناولت بعد ذلك الخطاب الذي أملاه السلطان على
الشيخ محمد طاهر والذي يحتوي على الامور التي تعرضها « وعلي هذا انقضت مهمة
اللحة العثمانية نفي أن تحدث اضطراباً أو متاعب . وقد اتفق أن وصل معها الى
مساء الاسكندرية مدفعتين بحريتان احدهما قريبة والثانية بريطانية وكانت
حكومتا انجلترا وفرنسا أرسلتهما حين اتصل بهن نياً المظاهرة العسكرية في عابدين .
ثم أبحرت المدفعتان في نفس اليوم الذي سافرت فيه اللحنة من شهر اكتوبر . وكان
ماليت قد عاد في هذه الاثناء الى مقر وطيفته وكذلك كان ستوكر المعتمد الفرنسي
قد حصر واتفق الاثنان على أن الحالة ليست في حاجة الى تدخل من قبلها . وقد
أحسن ماليت الشهادة أمام حكومته يومئذ في حق الوزراء الحدد وعراى الذي بدأ
ماليت يعتقد الآن أمانته وصدق وطنيته .

وقد عدت الى القاهرة في أوائل نوفمبر حين كانت الحال كما وصفت ولم تكن
قد وصلت الي أنباء جديدة من أصحابي الازهرين ولم أعرف ما حدث في أنباء .
ذلك الصنف غير ما كان يعرفه الناس جميعاً ولا كنت أقصد الى أكثر من حور
قناة السويس في طريقى الى بلاد العرب حيث كنت قررت الذهاب اليها في الشتاء .
وكان اهتمامي قد اشتد بالازمة التي أخذ العالم الاسلامي يتعاملها كما كنت على أمل
من أن أقوم أنا بنفسي بدور في الحوادث المهمة — التي كنت أوقعها وإن لم أكن
أعرف ماهيتها فيما عدا أنها سوف تساعد على تحرير العرب والاسلام . وكنت لما

ثارت احرائق بسبب عنده، فرسا على تونس كنتت الى صاحبي السيد محمد عبد قادر في دمشق أطلب منه خطانا يقدمى فيه لزعم الثورة « أنى بامة » ولكنه لم يستطع ذلك . ثم دعت عناء كل اليهود التي بدلتها لمعرفة معر السيد جمال الدين الافغانى في أمريكا حيث قيل لى انه ذهب اليها بعد أن قضى عامين متحولا في الهند وانحمت أفكلرى الآن الى جزيرة العرب التي بدأت أنظر اليها كأرض مقدسة واعتبرها مهد الحرية الشرقية ومهبط الدين الصحيح . ومن الغريب انى لم انتبه الى ان هدف أهمائى بالاسلام مائل بجانبى في الثورة المصرية . واني لم أعقد النية على القيام بأى دور فيها — ولو كان دور المشاهدة — إلا بتأثير حادث عرصى .

ولعل السبب في عدم أهمائى يرجع الى أن الصحف البريطانية صغى ما وقع في مصر من الحوادث أثناء الصيف بصفة سكرية فلم يدرك أحد مغرى تلك الحوادث حتى ولا وزارة الخارجية وقد كنت اشاطر أنصار الحرية ومحبيها قلة الثقة برحال العسكريين واعتقد انهم لا يتصرفون الا للظلم فلم استطع أن أصدق حتى ولا كما صدق ماليت أن عراي أمين القصد فيما فعل . ثم أي كنت أعلم أن الشيخ محمد عده وغيره من اصدقائي الازهرين الذين لا يميلون الى استخدام القوة وأن تنفيذ الاصلاحات يستغرق فيما يعتقدون وقتاً طويلا وقد ظننت أنه من المستحيل أن تنجح حوادث ذلك الصيف وحدها في تحقيق تلك الاصلاحات أما عن الدستور الموعود فقد ذكرت الصحف البريطانية انه كلام في كلام لا يبدو أن يكون دعوى كتلك التي استخدمها اسمعيل ضد رفرفز ولسن . وقلن أن ماليت أعلن بان هذا الدستور سيقتي مجرد وعدلاز السلطان الذي اجتمع به في الاستانة أثناء عودته الى مصر لا يمكن أن يسمح بتحقيقه .

وعما زاد في ارتياي وجود لجنة التحقيق العليا في مصر لاية عراي بزيادة قوة الجيش ليكون ١٨٠٠٠٠ وهذه هي الآراء التي كانت شائعة يومئذ في لندن ولم تكن لدى أنباء خاصة تصحيحها . واذكر آني حين مررت قبل مبارحة لندن بوقت قصير بابن عمي فيليب كرى في وزارة الخارجية دهشت حين قال ربما كان في الحركة الوطنية المصرية أكثر مما تدل عليه الظواهر وقد قال لي حينئذ أن ماليت

تصبح ميلا الى اعتقاد ذلك . ثم أظهر نصيحة من عدم دهابي الى مصر وقال لي انى
وحدثت في بلاد العرب الآن الرجل الذى ابحت عنه . وكليل يعرف طبيعة
الرجال لآرائى التي لم يأخذها قط اصفة جدية ولم يعتقد انها أكثر من خيالات روائية .
وقد قال لي ما قال بلهجة مزاح فضحكنا ولم تتناقش في المسألة . ولكى ذكرت
بعد ذلك أقواله وحدثت من قلة تأثرى بها ولكن الحقيقة هي أن أفكارى كانت
موجبة الى ناحية أخرى .

وعما يستحق الذكر أنى دعوت في عشية يوم سفرى الى عدا . في نادي السباح
كلمة من أصدقائى الحميمين هم جون مورلي الذى كل قد عين حديثاً رئيساً لتحرير
« البال مال عاريت » فصلا عن قيامه برئاسة تحرير « المود تيبل ديفو » والسير
« ألفريد لابل فتملنا في جد . وزهراب .

وقد تكلمت مع هؤلاء طويلا في الشؤون الشرفية واتفقت مع مورلي على أن
أخبره اذا عثرت على بطل الاصلاح الشرقى الذى أبحث عنه وأن يتولي هو عرض
قضيته نحس ما يستطيع على رأى العام البريطانى . ولم يكن مورلي قد دخل بعد
في البرلمان ولكنه كان ذا نفوذ كبير في الحكومة لعلاقاته بشميرن وكانت
جريدة « البال مال عاريت » من الصحف القليلة التى يقرأها علا دستون بل الصحفية
الوحيدة التى يعتقد أن فى آرائها شيئا من السداد وبولها شيئا من ثقته .

وقد كلز عشاء ساراً وكنا متحمسين فى عطفنا على العرض الذى يمكن أن
نعرض للإسلام أما فيما يختص بمصر فن سو . الحظ أن مورلي كان واقفا تحت تأثير
نفوذ غير نفوذى وقد كلن مراسله « لبال مال عاريت » السير أوكلند كلفن عضو
المراقبة الثانية عن بريطانيا فلما وقعت الأزمة فى الريح ظهر مورلي على غير ما كان
ينتظر منه لو أن كلفن لم يكن مراسلا له . أما والحال كما كانت فقد كان فى
جانب الرأى البريطانى الرسمي ومن أقوى القائلين بحوب استخدام أشد وسائل
الصف لقمع الحرية .

وقد اتفقت لى أثناء عودتى الى مصر لحادثه سأعود الى ذكرها حين يأتى
السياق الذى تظهر فيه أهميتها . فقد وجدت فى محطة « شارخ كروس » بلندن

المستر ديلك وسكرتيره أوسن لي مسافرس مثلي الى « درس قصصيت البياحة كلها معها . وكل ديلك مشرح الصدر طرونا فان صديقه الحبيب « عمنا » كان قد حلف في ١٥ نوفمبر السيو سانت هيلير في رئاسة الوزارة الفرنسية وكان ديلك عائداً الى باريس ليستأنف مفاوضة الحكومة الفرنسية في تجديد المعاهدة التجارية المفعودة بينها وبين حكومة بريطانيا بعد أن أصدر عليه السجاح في السنة الأشهر السابقة أما وقد تقلد عمنا رئاسة الوزارة فقد كان ديلك واثقاً من السجاح . وكان نصفا مشروع حاص يستلزم أن يستعيد فيه ديلك الذي كان وكيلاً لوزارة الخارجية البريطانية . وكان سانت هيلير قد أحدث ارتساكاً كبيراً في عزوة تونس وترك لخله شمالي أفريقيا يضطرم ماراً . وكل عميتا قد تقلد رئاسة الوزارة مصعباً على استخدام أشدة والقبض على ماضية الحال وكان مملوياً بالخوف من ثورة إسلامية ثم انه لم ير في الحركة الوطنية المصرية إلا مطهرأ من مطاهر التعصب الإسلامي وكان أصله الاسرائيلي قد جعله مرتبطاً بالمصالح المالية في مصر . وقد عقد النية على أن يصيف الى اعتداء سانت هيلير على تونس التدخل بالقوة في مصر .

وقد أراد أن تنصم له الحكومة البريطانية في ذلك وتقوم الحكومتان بحرب صليبية باسم التقدم وأن يبدأ في ذلك بتقوية المراقبة الاوربية في مصر . وقد حدثني ديلك طويلاً عن مسائل المعاهدة التجارية ومصر باعتبار الأولى مصلحة انجليزية والثانية مصلحة فرنسية . وكانت المسألة الأولى تتعلق بشرف حكومة الأحرار الحزبي فقد أرادت أن تقيم الحجة على أنها إذا كانت تملك بحرية التجارة فلها أن تحمل الحكومات الاجنبية على معاملتها بالمثل .

وقد عرف ديلك أن نجاحه في هذه المهمة وحله الحكومة الفرنسية على تجديد الامتيازات التجارية بعد غرقاً عظيماً له . وكل ديلك متحمساً الى حد أني لم يسعني عند الفراق إلا أن أحاطب نفسي بصوت مسموع قائلاً : « ان هذا الرجل يريد أن يبيع مصر لفرنسا بالمعاهدة التجارية » وقد أثبتت الحوادث أن الحقيقة لم تكن إلا كذلك . وسيظهر فيما بعد كيف ان حرية مصر كلها كانت مرهونة بتخفيض الجبل في الضرائب التي نجحها فرنسا على الصادرات الانجليزية . نعم يمت حرية

مصر وفكرة الإصلاح في العالم الاسلامي كله وصحتها حكومة الاحرار الانجليزية بهذا الثمن الزهيد . ولكن الكلام على هذا لم يحن بعد

وقد أسلفت ان ذهاني الى القاهرة في ذلك الشتاء كل انفاقا وأخرى في أن أقول بأنه كان بتدبير العناية الالهية لولا اني أخشى أن أعبر ما فعلته في مصر معني عظيم السمو وأهميته كبيرة . وقد شحطت الماخرة التي حصر عليها خدي وادوات معسكري في قاة السويس بعد أن كادت تفرق في خليج سكلى فاضطرت الى الذهاب الي السويس ثم برحت هذه الى القاهرة حيث اعزمت قضاء بضعة ايام . وكان قد شاع في إنجلترا أن مصلحي الازهر نبذوا فكرة الإصلاح وانصموا الي السلطان في آرائه الرجعية . واذا خالفتي هذا الشك أرسلت أولى رسائلي الى أول أصدقائي من رجال تلك الجامعة وهو الشيخ محمد خليل وهنا حدث حادث عريب فبدلا من أن يأتي الي الشيخ محمد خليل في فندق النيل الذي زلت فيه ورجوت منه أن يحضر لزيارتي جاءني شيخ آخر بالاسم نفسه . جاءني الشيخ محمد خليل المحجسي وحياني تحية الغريب للغريب اذا كان احد منهما لم يرى الآخر من قبل . وكان هذا القادم الجديد قد استلم رسائلي فظن انها من ناصر اوربي بينه وبينه معاملة ترجع الى قريه في الشرقية وجاء معه الخادم الذي حمل الرسالة . ومع أن هذا الشيخ كان أقل قيمة ذاتية من صاحبي الا انه كان ذا مركز هام في الازهر .

ثم ظهر لي انه قد يكون أخرى باهتامي من صاحبي في ذلك الحين لتوثيق الصلة بينه وبين الخرب العسكري في القاهرة ولعلاقته الشخصية بعرايي ولو لم يكن للشيخ محمد خليل صاحبي ولا رئيسه الشيخ محمد عبده صلة من هذا القبيل ولا كانا يستطيعان أن يفيداني أقل فائدة من هذه الحاجة بعد ان لم يوافقا على تدخل جماعة العسكريين في الشؤون السياسية في سبتمبر وكانا لا يزالان هما وسائر مصلحي الازهر مبتعدين عن العسكريين على الرغم من فرحهم بنتيجة عملهم فلما أفاق المحجسي من الذهول الذي استولى عليه حين وجدني انجليزية وعرف أني لست بصاحبه التاجر لم يأنف مع ذلك ان يتحدث معي عن عرايي واعماله ولما افضيت اليه بارآئي الخاصة بالإصلاح الاسلامي على قاعدة عربية أسر الى آراءه التي لم تكن تختلف كثيراً عن

أراني . وقد أخبرني انه أحد شيوخ السادة الشافعية وان له علاقة متينة بجماعة
 الإصلاح الاحرار بمكة . وكان هؤلاء يجهرون بمعارضتهم لاسلطان عبد الحميد ويتطلعون
 الى خلافة عربية . وكانت هذه نقطة اتفاق بيننا فلم يمض وقت قصير حتى تبادلنا
 كل ما لدينا من الآراء . وعدى انه ليس أدل على حرية الرأي والقول التي
 سادت يومئذ في مصر من ان الشيخ الذي لاشك في انه كان يكتم هذه الآراء في
 صدره حتى عن أصدقائه قبل عام واحد قد احاسى بكل صدق وصراحة على أسئلتي
 وأفضى الي ناشد امامه حطراً على حين اني أوري وغريب عنه . ولا شك ان بعض
 هذه الصراحة راجع الى أن أستاذي العلامة صابوني الذي كان معي وكنت قد
 احضرته معي من لندن ليساعد ضعي في اللغة العربية .

من المحرسي علمت أول مرة ما حصل في مصر اثنا الصيف ومنه عرفت
 موقف العسكريين الحقيقي تجاه الحرب الوطني وهي حقائق ايدت صحفها عدة مصادر
 كما ايدها صاحبي الشيخ محمد حليل .

أما صابوني الذي كانت له براعة خاصة في هذا الصرب من الاعمال فقد
 أحد بطوف في القاهرة من أدناها الي أعصاها ليجمع لي الاخبار حتى انه لم يمض
 بضعة أيام الا كما قد عرفنا كل شي . تقريباً من مجريات الحال . كذلك لم يمض
 وقت قصير حتى تعرفنا الى بعض الصراط الملاحين الذين اشتركوا مع عراي في
 المظاهرة وخصوصاً عيد ديلب وعلى مهمي الذين كان معرفتي بها وقع حسن في
 نفسي وكانت الامور التي يدور عليها البحث في ذلك الحين خلق الخديو وهل بني
 لو لا يبي بوعده . لقد وعد بالدستور ولكن هل يكون هذا نزولاً حقيقياً عن السلطة
 هذرا مسئولين أمام مجلس المنليس أو المسألة لن تخرج عن دعوة جماعة من الاعيان
 يكون لهم رأي استشاري ولم يكن الناس يتفوقون توفيق في هذه النقطة بل كانوا
 يهتمون أن ما ليت يفريه بأن يمثث بالوعد . وكان هذا قد عاد حديثاً من الاستانة
 وأعلن أن السلطان لا يوافق على دستور حقيقي .

ثم انما كانت الطبقات المستبعدة قد غضبت من الاسرة العلوية ولا سيما فرعها الذي
 ينبغي له توفيق وكانوا يذكرون ما اعاسهم في عهد اسماعيل وحده ابراهيم من

الظلم التي قضت عليهم أدياً وخربتهم مالياً وجلبت عليهم نكدة التدخل الأجنبي. وقد بدأت الصحافة بعد أن تحررت من قيودها توجه المعلنين تلويحاً على لجان نظام الضرائب الذي وضعت المراقبة الأوروبية دافعت الأوربيين وألقت طبعاً على كل أهل الوطنيين كما أنها أنحت بأشد اللامعة على كثرة تعيين الفرنسيين والإنجليز في الوظائف التي لا لزوم لها والتي تدفع فيها مرتبات ماحظة كما أنحت على سيطرة هؤلاء الأجانب على مصلحة السكك الحديدية والأراضي التي يقوم على احتلالها مندوبو بنك روتشيلد وعلى فضيحة التسعة آلاف جنيه التي كانت تدفع لحكومة البلاويرا الأجنبية على الرعم من فقر البلاد.

وكانت جريدة «الطيب» التي كان يحررها رجل حاد نابغ هو «عبدالله النديم» تحمل حملة شديدة على الترحيص بإدارة المواعير والحانات والمراقص والمغاني التي هجعت على القاهرة تحت حماية الامتيازات الأجنبية فاستاء منها كل مسلم تقى وكان في مصر مدى لاعتداء فرنسا على تونس واشتد العود مما اتصل بالمصريين من سيطرة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء. ومع ذلك كانت العلاقة بين مسلمي مصر وقبطيها ودية للغاية. وكان الاقنات على العموم في جانب الوزارة وكانت العلاقات بين البطريرك والوزارة التي كان بطرس عالي أحد كبار أعصائها ودية جداً وكذلك كان اليهود والوطنيون بزعمارة الزباني يطالبون الحكم الدستوري. وكان أهم ما يعنى به الضباط يومئذ مسألة زيادة الجيش التي قالوا بأنها حاجة الآن بعد اعتداء فرنسا على تونس حيث لم يكن الباي على استعداد عسكري كاف للدفاع عن بلاده وكانت الفرمانات تقول مصر أن تؤلف جيشاً من ١٨,٠٠٠ جندي وقد طلب الضباط أن تكون القوة كاملة.

وقد حدث أول تدخل فعلي من جانبي مع الوطنيين على الوجه الآتي: أخبرني الشيخ محمد المجرمي أن بين طلبة مذهبي الشافعي والمالكي هياجاً براد به التخلص من شيخ الاسلام أو ببشارة أخرى شيخ الجامع الشيخ محمد العباسي الذي كان حقيقياً. وقيل لي أن السبب في ذلك عائد إلى قلة الثقة في أن يقبض هذا الشيخ فتوى في مصلحة النظام الدستوري. فعدا لم يمت وجري في ذلك على رغبة الخديوي الذي

عنه استطاع الحديوي ان يجد عنراً للبحث بوعده . وقد كان المذهب الحسبي المذهب الرسمي في مصر وكذلك كان مذهب الولاة الترك من عهد السلطان سليم وكانت الحكومة تختار شيخاً حنفياً لرئاسة الجامع الازهر ولكن الغالية العظمى من الطلبة الذي كان يبلغ عددهم ١٥٠٠٠ كانت دائماً من اتباع المذاهب الاخرين وقد اراد الطلبة الآن اتباعاً لتقاليد ثورة اليوم أن يعودوا الى طريق تمييز الرئيس الديني الاعلى القديمة وهي طريقة الانتخاب . وقال لي المجرسي انه حاء ليسنثري في الموضوع لانهم يعتقدون ان ما لیت يؤيد الحديوي في تأييد الشيخ محمد العاصي وفي سعي الحديوي للتخلص من وعده بالدمستور وقد طل اب في استطاعني أن أربل الصعوبات اذا استحدثت هودي عند ما لیت . وقد وافقت على ذلك في الحال فانضح لي ان ما لیت يحمل كل الجمل المألة كلها وانه لا يريد فحلا في مصلحة أى طرف من طرفي هذا النزاع الذي . وفي ٥ ديسمبر حلع العاصي من وطيفته بقرار أغلبية الطلبة وعين الشيخ الامباي خلفاً له . ولم يكن الشيخ الامباي أشهر المشايخ وأجهم لدى الطلبة الذين كانوا يميلون في الحقيقة الى الشيخ عليش المالكي وهو رجل ذو شجاعة كبيرة ونفوذ ديني عظيم وقد لعب دوراً هاماً في الحرب التي وقعت بعد ذلك ومات في السجن خلال أشهر الاحتلال الاوربي . والمعروف انه مات مسموماً كما انضج من الشهادات الصريحة التي أقيمت في محاكمة عرابي . وكان اختيار الاباي نتيجة رفض الحديوي تعيين الشيخ عليش . وقد صوت أربعة آلاف من طلبة الازهر في هذه الفرصة فكانت عدة الذين لم ينتخوا الشيخ عليش منهم خمسة وعشرين . وكان من شأن الخدمة الصغيرة التي أدینها لهم أن وثق الشيوخ الوطنيون بحسن نيتي نحوهم وقد رفني على مساعدتهم ومن ثم طلبوا الى أن أوحل سفری أو أنتظر ربنا أرام يخلصون من مصاعبهم فأجبت طلبهم في الحال وقد رأيت أن العمل الذي يطلبونه مني هو نفس العمل الذي أسمي اليه وأرغب فيه فضلاً عن استطاعني أن أؤدي خدمة حقيقية فيه بالاعراب عن مطالهم لحقة المشروعة الى ما لیت هنا وعلا دستون في إنجلترا .

وكت أحتج بما لیت يومياً تقريباً خلال بضعة الاسابيع التالية وصار لي نفوذ

كبير لديه . وقد وحده قليل العلم بحقيقة أغراضهم على الرغم من أنه لم يكن مجرداً من العطف عليهم . ولم يكن يعرف شخصياً من زعماء المصلحين غير شريف باشا فكان يعتمد في توجيه الخالة إلى ما ينصب كل من شريف والحديوي أن يجفرا به . أما من حيث الحوادث اليومية فلم يكن يعتمد في العلم بها إلا على مترجحه اليوناني لورانجي الذي كان يلتقط الانباء من قهوات الاحياء الادريه . ومن ثم لم يكن لديه الا قليل من الوسائل التي يستطيع أن يعرف بها حقيقة الموقف ، ولم يكن زميله القنصل الفرنسي الجديد « سنكوكز » أفضل منه من حيث وسائل الاستخبار . ولكن ماليت كذلك في حيرة من أمر مقاصد الحكومة البريطانية الحقيقية . ولكن لورد غرايفيل قد أرسل إليه حديثاً لتقراؤه المشهور في ٤ نوفمبر وهو التفراف الذي ذكر فيه باهمام وعروض عطف حكومة جلالة الملكة على الاصلاحات في مصر .

ولكن هذا التفراف كان واسع مدى التأويل ولم يكن فيه شيء خاص يرشد ماليت إلى الوجهة التي يتجه إليها إذا قام شجار جديد بين الحديوي والمصلحين أو بينهم جميعاً وبين المراقبين السالين . ولكن كذلك في شك من رأى المستر غلادستون في مسألة الدستور . لذلك كان من دواعي ارتياحه أن يجد رجلاً مثلي ذا سياسة معينة وقد كانت سياسته واضحة في وجوب مساعدة الوطنيين .

وقد استطعت أن أؤكد له بأن غلادستون نفسه سيكون في جانب الدستور متى وقف على الحقيقة . وقد أهدى في ذلك عند ماليت أصدقاء بريطانيون كانوا يسبحون حينئذ في مصر واستطعت أن أقنعهم بأرائي .

كلن أشهر هؤلاء الاصدقاء عضوا برلمان سابقان أحدهما لورد هاوتون الذي كان في أوائل أيامه مدافعاً متحمساً عن حرية الشرق والسير وليام جرميهورى أحد أتباع غلادستون القدماء وعضو من الاحرار المروفين ولم ينتصف شهر ديسمبر حتى كنت قد استطعت أن أضغ إلى رأيي أكثر البريطانيين الموجودين في مصر حتى إن السير أوكلانك كلفن المراقب البريطاني الذي كان قد نصح للحديوي قبل ذلك بثلاثة أشهر بأن يطلق النار بيده على عرابي اعترف بأنه تحول عن رأيه إلى رأيي وأصبح ميالاً للعقد الصالح مع الثورة .

الفصل الثامن

(سياسة غيبنا - للذكرى للشركة)

كان عرابي قد احتفظ منزله في رأس الوادي وهي نقطة عسكرية قريبة من التل الكبير الى ذلك الحين ولكنه حصر الى القاهرة في ٦ ديسمبر ورأيته شخصياً أول مرة في ١٢ منه . وقد استأجر منزلاً بحساب منزل صديقه على ضحي الذي كان معه الآن قلباً وقالياً . وكان هذا المنزل قريباً من ثكنات عابدين . وقد ذهب الى مع عبد دياب وصابو يحيى بعد أن اتفقت معه على المراقبة بواسطة أصدقائنا المشتركين . وكان عرابي يومئذ في قمة شهرته إذ كانوا يطلقون عليه في طول مصر وعرضها لقب « الواحد » وكان الناس ينساقون من جميع أنحاء القاهرة ليشوه شكواهم . وكانت غرفته الخارجيه بل كان الشارع الموصل الى المنزل يمتلئ . كل يوم بمجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطى على الحركة ورغبته في مساعدة الفلاح فاستقبلني باسمي مظاهر المودة لهذا السبب وللصلة التي تربط أسرتي باللورد ييرون الذي قد كان عرابي وإن لم يعرف شيئاً من شمره بمجده للدفاع عن حرية اليونانيين . وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلائلها على عطف عرابي على الاساية كلها وعدم تفرقه في ذلك بين الاخناس والأديين وقد كان عرابي مجرداً من التعصب اذا كان معنى التعصب الكراهية الدينية ولكن أبدأ مستعداً لعقد المحاصر مع المسيحيين واليهود وحتى مع المشركين والكفرة للدفاع عن الحرية وإن لم يؤخر استعداداه هذا متقال ذرة في تقواه .

وقد تحدثت معه بصراحة تامة وبغير تحفظ في كل مسائل اليوم فوجدته صريحاً الى أبعد حدود الصراحة . وقد أعرب عن الولا . للحدديو « فبقى محافظاً علي وعوده ولم يحاول أن يحول بين المصريين وبين حريتهم الموعودة » على انه كان ظاهراً أنه لم يكن يثق بالحدديو وأنه كان يعتقد أن واجبه يقضى عليه بمراقبته دقيقة لتلا ينحرف عن الجادة . وقد قلت في خطاب كتبه للسفير غلادستون في ٢٠ ديسمبر

بعد أن كان قد كثر اجتماعي برابي ومباحثتي معه « إن الآراء التي يعرب عنها عراقي ليست مجرد تردد لل عبارات التي تستعملها أوروبا الحديثة ولكنها آراء تعتمد على العلم بالتاريخ وعلى تقاليد الأفكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الاسلام . أنه يفهم الاسلام الواسع الذي وجد قبل محمد يفهم رابطة عبادة إله واحد التي تربط دينه بالاسرائيلية والمسيحية وليس لمرابي مطامع شخصية ولا شك في أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الاخلاص ... أما عن مركزه الخاص فيتكم بتواضع شديد . فهو يقول أنه يمثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ولكن الجيش نفسه هو الذي مثل الأمة وهو حاميا ومرشدا حتى نستغني عن إرشاده . ويقول ان الجيش هو القوة الواقعة الآن بين مصر وحكومتها الاثراك الذين لا يجمعون عن تجديده مظالم السليمان في أي وقت إذا لاحت لهم فرصة ويقول أن المراقبة الاوربية تحول بصفة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين يتقضى أجل المراقبة . وهذا هو الذي يجب عليه أن ينظر فيه ويعني به . ويقول لقد كتبنا للناس حق التكلم في مجلس الاعيان ونحن نؤيدهم حتي لا يضدعوا أو يزعموا من ثم بالقوة . ولنا نعمل في هذا لأنفسنا بل لأنبائنا ولأولئك الذين وشقوا بنا . إننا نحن الجود وقف اليوم في مثل موقف ذلك الاعرابي الذي رد علي عمر في أواخر أيام حكمه إذ كان يسأل هل الناس راضون عن حكمه وهل جرى في كل أعماله في مجرى العدل فقال لذلك الاعرابي لو رأينا يا ابن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسيفونا

ويقول عراقي اننا نحن المصريين لا نحب الدماء ولا نود أن يسفك شيء منها ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهي مهمتنا نحن الحنود ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ولا نبالي بممن ألق بقيمة الثمن الذي تقتضيه هذه الحراسة أو الذي يجب أن ندفعه في مقابل حراسة الشعب للذين يحاولون اسكتل صوته » .

وقد تأثرت كثير أ بهذه اللهجة البعيدة عن التهجات التي يتكلم بها ساسة الشرق للاوربيين ولم يعني أن أوازن بين عراقي وبطل الحرية الآخر الذي قابلته في

دمشق وهو مدحت باشا وشد ما كانت النتيجة في مصلحة عراقي . لم يحلط عراقي في أقواله فليس فيها سلك حديدية ولا نزع ولا ترمويات يمكن أن مرد للشرق حرته بل فيها كلمات تنفذ الى حدود الأشياء وأصولها وتضع مسئولة الحكومة الصالحة على العواقب التي تستطیع حلها وقد شعرت أن مثل هذه الأقوال قد نسمع اذا قيلت في مجلس النواب البريطاني على الرغم من امتلاء جوه بالشؤون الناحية والمهارة . وكان رأى عراقي حلياً فيما يتعلق بالسلطان وعلاقة مصر بتركيا . وقد ذكر لي أنه لا يصمر حباً للأتراك وقد أساءوا حكم مصر قروناً وأنه لا يقبل أى تدخل من جانب الاستانة في شؤون مصر الداخلية ولكنه فرق بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان الذي قال عراقي بأن طاعته واجبة عليه باعتباره أمير المؤمنين ما دام يحكم بالانصاف والعدل . وان مثل تونس التي فصلها فرنسا أولاً من الامبراطورية العثمانية ثم ضمها بعد ذلك الى أملاكها لتحمل المصريين على التثبث بالعلاقة التي تربطهم برئيس العالم الاسلامي . وقال عراقي « كلنا أبناء السلطان ويجب علينا أن نعيش كأُسرة في منزل . وكان أعضاء الأسرة الواحدة يكون لكل منهم غرفة ينظمها حسب ما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستريح حرمتها فكذلك لكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوى . وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وسنبذل كل جهدنا في المحافظة على ذلك الاستقلال ولكننا نخطي اذا طلبنا أكثر من ذلك ولا يبعد أن نقفد حريتنا في مثل هذه المجازفة (١) » .

وقد سأله هل يته وبين الأستانة مخاطبات كما كن قد شاع يومئذ فأبدي لي أنه يلزم جانب التحفظ في هذه النقطة وراغ من السؤال . ولا شك عندي في أن ذكرى حديث مع أحمد راتب باشا عرضت لفته وقتئذ ولكن ذلك سبب ترده ولكنه لم يشر الى شيء من ذلك في كل حال وقد كنت في ذلك جاهلاً أمر هذه المعادة التي رويت حكايته فيها سبق .

(١) نشر السير وليام جرمجوري في التيمس أقوالاً كهذه لعراقي وكان قد سمعها منه في نحو الوقت الذي سمعت فيه هذه الأقوال منه .

وقال محمود سامي أنه طلب هذه الزيادة نظراً لوعد الخديو برفع قوة الجيش الى
 مئتين الألف الذي تسمح به القرارات أي الى ١٨٠.٠٠٠ وبرر الورد أصراره
 بقوله ان رفض الزيادة قد يؤدي الى مطاردة عسكريه جديدة وقد كلفت أن أعرف
 المبلغ الذي يرضي الجيش على وجه التحقيق وحولني كلن سلطة الاتفاق على مبلغ
 لا يتجاوز ٥٢٢.٠٠٠ جنيه وأن أخبر عرابي وزملاءه الضابط مانه لا يمكن إعطاؤهم
 أكثر من من هذا من الوجهة المالية. وقال لي كلن أنه لا يمانع في زيادة الجيش
 بشرط ألا يزيد المربوط وأنه يظن أن المبلغ كاف لجيش عدده ١٥٠.٠٠٠ وعلى ذلك
 ذهبت الى عرابي وناقشته هو وزملاءه الضابط في المسألة وتمكنت من حلهم على
 «كف عن المعارضة مؤكداً لهم أن في استطاعتهم أن يعتمدوا على كلمة كلن
 قالوا أنهم قبلون مبلغ ٥٢٢.٠٠٠ جنيه وسيريدون الجيش الى أقصى حد يسمع
 به هذا المبلغ. وقالوا أنهم سيقنعون في وجوه يعرفونها ويلفون الجيش أقصى
 قوته. وقد وعدوني في هذه الفرصة أن يصبروا ولا يقوموا بمظاهرات مسلحة
 أخرى ثم وفوا بهذا الوعد الى اللحظة الأخيرة. وكانت آخر عبارة سمعتها من عرابي
 يومئذ « من صبر ظفر » وقد أرسلت في اليوم مه مذكرة الى كلن أخبرته فيها
 بالنتيجة ثم شكرني ما ليت على اخراجي لها من الصعوبة التي كانا يقاسيها. على
 أن ما ليت لم يلبث أن أدهشني بعد ذلك بأسبوع واحد حين أطلعني وأنا ألاعبه
 كرة التنس في دار الوكالة البريطانية بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر علي صورة تلفراف
 أرسله لوزارة الخارجية وقد ذكر فيه زيارتي لمصر والتشجيع الذي قدمته لوطنيين.
 ولم يذكر في هذا التلفراف شيئاً عن المساعدة التي قدمتها له ولكنه شكاً من ارسالي
 البرنامج الى جريدة التيمس على الرغم من معارضة في ارساله. ولما كنا قد علمنا
 الى ذلك الحين باتفاق وولاء تام ولم يحدث مكدر أكثر من نشر البرنامج فقد أنبته
 على سوء نيته في اخفاء الخدمات التي أدینها لسياسة وأصررت على أن يرسل تلفرافاً
 يلني به تلفرافه الاول فلم يسمه الا أن يفضل ذلك امامي وأرسل تلفرافاً آخر أصلح
 به بعض الحيف الذي أنزله بي. ولم أستطع قط أن أقسم غرض ما لبت من هذه
 المناورة. وقد حملتها في ذلك الحين على محل الصغيرة المعارضة وكرامته ان تعرف

وزارة الخارجية انه كان لي شأن في تحس الصلات بينه وبين الوطنيين . ولكني بعد انعام النظر جعلت هذه المناورة علي حذره الطبيعي الذي أوحى اليه أن يحاط ليدراً عن نفسه كل مسؤولية امام الرأي العام فيما يخص رأبي في الوطنيين المصريين اذا بدأ للوزارة الانجليزية أن تظعن على هذا الرأي . ولعل هذا هو السبب الحقيقي والذي يؤدي ذلك أن ذمته لم ترتج الا حين كاشفي باجرا . انه الرسمية هذه . ومع انه ندم على غدره قد كان لي من عمله هذا محذراً لم أنسه فيما بعد فكنت أشعر بشيء من توقع القدر علي يديه في بصة الاسابيع التي كنت أذهب فيها الي الوكالة البريطانية بعد ذلك . علي اني كنت مستعداً لمساعدته ولم يمض وقت قصير متى اضطرته الاحوال القاهرة الناشئة من عزله السياسية في القاهرة الى الاتجاء الى حذمانى . فأرسلني حين طلى عليه الموج كرسل السلام الى عرابي وأخوانه الضباط . وقد سار كل شيء علي ما يرام الى آخر ذلك العام وفي خلال الاسبوع الاول من سنة ١٨٨٢ كان الاتفاق قد ساد بين جميع الاحزاب المصرية وهذا الخش واعتمدت لمجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدي الجميع ، وأخذ الوزراء الوطنيون وقد اطأوا ولم يعد أحد يهددهم يضعون مشروع القانون الاساسي الذي يمنح البلاد حرياتها وفي ٢٦ ديسمبر اجتمع مجلس النواب للدولة في نصوص الدستور بالقاهرة وفتح بمخطة تدعو الى الثقة من الحديوي بالذات . وكان هذا قد أحسن السلوك نحو الحركة الوطنية الى حد أن كتب مالت عنه الي لورد غرانفيل يقول « وجدت سموه منشراً لأول مرة منذ عودتي في سبتمبر وقد صار الآن كبير الامل من تحسن الاحوال . ولم يستطع الانسان الا أن يرى هذا التغير الكبير فيه والظاهر أنه راض بالحالة كما هي » وكان عرابي قد كف عن شغل نفسه بشكاوى الناس . واتفق معتمدا فرنسا وانجلترا على أن ينظم عرابي مركزه بقبول المسؤولية المترتبة على نفوذه السياسي وذلك بأن يتقلد وزارة الحرب . وقد قصدا بذلك التوقي من خطره ووضعه الى جانب المحافظة على النظام .

ولم يبق محل للشك الا سلوك النواب حيال نصوص الدستور الذي اجتمعوا لمناقشتها . على ان اغلبيتهم بدت كاسدقائي الارهرين ميالة للاعتدال . وقال الشيخ

محمد عبده « لقد لبثنا عدة قرون في انتظار حريتنا فلا يشق علينا أن نتنظر الآن بضعة أشهر » ولست أشك في أن ماليت وكافن وستوكوكز كانوا في ذلك الحين يصفون على طلب الوطنيين لبرلمان عطفاً حقيقياً . وقد بدأوا يرون أن هذا هو المطلب الوطني العام وأن البرلمان يقي من شر الأفكار الأشد تطرفاً . ولو أن حكومتى فرنسا وإنجلترا أعلنتا في ذلك الحين حسن النية حيال الأمان الوطنية لكن في الطاقة أن يوضع نظام حسن العمل بين المراقبة الثنائية والحكومة الوطنية ولو تم هذا لفمن مصلحة حملة الاسم كما ضمن حرية مصر . وقد حسبنا يومئذ أن الحكومتين لا يتبثان في إعلان كذا .

وقد نشر البرنامج الذي أرسلته إلى التيمس في عددها الذي صدر في أول يوم من أيام سنة ١٨٨٢ مصحوباً بمقال افتتاحي يتضمن الموافقة والاستحسان : وقد أحسنت أوروبا تلقي هذا المنشور على الرغم من تطير ماليت بالسوء . ولم يكن له في الاستانة وقع سيئ . وكان هذا البرنامج من اعتدال الأهجة والمراعاة واستقامة المنطق بحيث خيل اليها أنه لا يمكن أن يسيء أحد فهم حقيقة الموقف في مصر بعد الاطلاع عليه . وكذلك لم يتصور أحد أن تسيء إنجلترا استقباله مع وجود أغلبية حرة في مجلس النواب ومع وجود المستر غلادستون في رئاسة حكومة حرة . نعم لم تتصور ذلك نحن الذين كنا نتنظر رد غلادستون ولم يخطر على بال أحد منا أن وزارة الخارجية البريطانية كانت في ذلك الحين تعد عدة التحدى والتدخل المسلح . ولكن من سوء الحظ أن هذه الوزارة كانت قد قررت مناهضة أمانى المصريين وأن لم يعرف أحد ما ذلك ولا ماليت فيه . والظاهر أن البرنامج وصل إلى غلادستون بعد الوقت الملائم بأسبوعين . وبينما كنا نتنظر رسالة سلمية إذا بمذكرة ٦ يناير المشتركة تقع علينا وقع الصاعقة . وقد قضت هذه المذكرة كل آمالنا وضيقت حسابنا وقدمت مصر : حومة بحر لحي من المتاعب .

وهنا يجب على أن أقص الحقيقة في كيفية تكون فكرة هذه المذكرة المشنومة التي يرجع إليها كل ما حدث من المتاعب في خلال ذلك العام ، والتي أقدمت مصر حريتها كما أقدمت غلادستون شرفه وأقدمت فرنسا نفوذها على جاني النيل . وقد

يمكن ان عرف الانسان شيئاً عنها من الوثائق الرسمية التي نشرت انجليزية كانت
أوفرنسية ولكن الذي يمكن معرفته من هذه الوثائق ليس الا بعض الحقيقة ثم
لا يمكن معرفته الا بطريقة غير مباشرة . وربما كنت أنا الشخص الوحيد الذي
يستطيع ان يقص قصتها كاملة اذا استثنينا الذين وضعوها وكانت لهم علاقة رسمية بها
وقد اعتقد المصريون بطبيعة الحال ونظراً لاستخدام المذكرة في مصلحة الاعتداء
البريطاني انها من وضع وزارة الخارجية البريطانية وقد وضعتها لاستخدامها في قضاء
اغراضها الخاصة ولكن الحقيقة ليست كذلك فلم توضع المذكرة في خارجية بريطانيا
بل في خارجية فرنسا ولخدمة المطامع الفرنسية التي لم تكن سياسية فقط بل كانت
مالية أيضاً .

وقد ذكرت كيف سافرت مع السير شارلس ديلك من لندن الى باريس
وسردت الحوادث التي دارت بينا في الطريق والتأثير الذي تركته في نفسي من
حيث اعتزازه ببيع حرية مصر بالمعاهدة التجارية وهذا هو نفس ما حدث تماماً

في ١٥ نوفمبر استقال سانت هيلير وخلفه غبنا الذي وجد امامه ثورة اسلامية
على الحكومة الفرنسية في تونس والجزائر . وقد ازعجته صبغتها الاسلامية وعزاها
الى نشر الدعوة الذي يقوم به السلطان عبد الحميد وقد ظن أن الحركة المصرية قائمة
على الاساس ذاته وكذلك كان بعدد دسائس اسماعيل وحليم وغيرها . وكانت
فرنسا معادية من أول الامر للمقوق التي يدعيها الباب العالي في شمالي افريقيا وقد
تقلد غبنا الوزارة مصمماً على مقاومة تلك المقوق بالقوة والصرامة . واذا كان غبنا
يهودياً فقد كان متصلاً بالمصالح المالية في بورصة باريس وكان كذلك ذا صلة متينة
ببيت روتشلد وغيره من أصحاب الاموال الذين اشترى بملايينهم سندات الدين
المصري . وكان نوبار باشا ورفرز ولسن يعيشان يومئذ في باريس فكانا اخص
من ينصح بارائهم في المسألة المصرية وقد كونا رأيه في الموقف بناء على المعلومات
التي كان يستمدحها منها .

فلم يمض عليه بضعة أيام في الوزارة حتى اخذ بفاوض وزارة الخارجية البريطانية
ابتغاء حل انجليترا على الاشراف مع فرنسا في القيام بعمل عيف ضد الحركة الوطنية

ولم يكن ذلك بمثابة حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدينة وتنظيم مائة
مصر . وكانت وزارة الخارجية البريطانية تريد ان تجدد المعاهدة التجارية المفقودة بين فرنسا
والمجترات التي أوشكت أن يجبرها فأسرع ما يمكن . وقد ارادت الحكومة
البريطانية أن تنهز فرصة الصداقة الموثقة بين رئيس الحكومة الفرنسية الجديد
والسير ديك وكبل خارجية بريطانيا لاستكمال المفاوضات في هذا المهدد . وكانت
قد ألقت لجنة لهذا الغرض في باريس منذ شهر مايو وقد مثل فيها ديك وولسن
فاجلوا ولكمها لم تصل الى نتيجة . وقد استقر الرأي على أن يعود ديك الى
باريس لمفاوض في مسائل مصر والمعاهدة التجارية ولم يمض أكثر من اسبوع على
قد عثا برئاسة الوزارة . وإذا راجعا الصحف التي كانت تصدر في نوفمبر سنة
١٨٨١ نجد المفاوضات بين الدولتين كانت قد وصلت الى نقطة حرجية حتى قد
تشجع أكثر من مرة انها قطعت . ولكن عودة ديك أحييت المفاوضات أو على
الأقل حالت دون انقطاعها . ولث ديك روح ويفدو بين فرنسا والمجترات من
٢٢ نوفمبر الي ١٥ ديسمبر وقد جاء في الكتاب الازرق الذي صدر في سنة ١٨٨٢
برقم ٥ ان عثا أرسل الى لورد ليونس السفير البريطاني في باريس يوم ١٥ ديسمبر
مشروعا يقضي بالتدخل المشترك في مصر . وقد ذكر في مشروعه انه يرى التدخل
ضروريا لتقوية سيطرة الخديو توفيق . وقال « انه يجب بذل كل جهد لعله على الثقة
بتأييد فرنسا والمجترات وحضه على الحزم والثبات وانه يجب اقناع أنصار اسمعيل باشا
وحلم باشا كما يجب اقناع المصريين عموما بأنه ليس في استطاعتهم أن يخلعوا توفيق
وانه مما يرغب فيه ان يوضع حد حاسم للمساكن الاستثنائية الخ . » وقد بلغ لورد
ليونس هذه العبارات الى وزارة الخارجية البريطانية وفي ١٩ ديسمبر . « وافق
لورد غرنفيل على انه قد حان الوقت لشطر الحكومتان فيما يجب احرازه » وبعد
هذا التشجيع أنهز عثا في يوم ٢٤ ديسمبر فرصة التمام لمجلس الاعيان المصري
ليقوم « بمظاهرة جلية على اتحاد المجترات وفرنسا في تقوية مركز توفيق باشا واضعاف
العاملين على الاخلال بالنظام » وقد التأم المجلس المصري يوم ٢٦ وذكرت التيسر
لن ديك الذي عاد الي باريس يوم ٢٧ اجتمع بغامبيا يوم ٢٨ وحادثه طويلا بشأن

المعاهدة التجارية فيما أعلن لورد غرنفيل في اليوم نفسه موافقته على « أن يعطي توفيق باشا تأكيدها بطل المحلها ومرسا تأييدها له وأن يشجع سموه على الاحتفاظ بسلطه وأظهارها صلا » .

وغى عن البيان أن اتفاق التاريخين كاف وحده لاثبات العلاقة بين المسألتين . وأنه بين المحطة التي حدث فيها الاتفاق الخطر وإن البرنامج الذي أرسلته الى غلادستون في ٢٠ ديسمبر وصل متأخراً عن الوقت الذي كان يمكن أن يحول فيه دون وقوع الكبة . وكان وصول الخطابات الى لندن يستغرق في ذلك الحين أسبوعاً وكان غلادستون متعباً عنها بلحارة عيد الميلاد فلم يتسع الوقت لان يرسله الى وزارة الخارجية معها كمن ميله الى ذلك .

وعلى هذا المنوال توطلت حكومتنا في سياسة غمبتا ومن ثم تقدم هذا في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨١ الى لورد ليوس مشروع المذكرة المشتركة (راجع الكتاب الاررق رقم ٥ لسنة ١٨٨٢) مكتوباً بخط يده ليرسل المذكرة الى مصر تأييداً لرسالته المؤرخة ٢٤ ديسمبر وهذا يجب علينا أن نذكر أنه أعلن في اليوم نفسه أن للمفاوضات الخاصة بالمعاهدة التجارية استؤنفت رسمياً .

وفي أول يناير أرسل مراسل التيس في باريس الى جريدته مخوي المذكرة الثانية قائلاً انه يقدمها الآن اتباعاً لتعليقات غمبتا الذي قال له أن لا يذيعها الا في الوقت الملائم » . وقد دل هذا على أن ذلك صحيح في مهنته التجارية وقد عاد في اليوم التالي ، ٢ يناير ، الى لندن وأنى لأجد تأثير الخطاب الذي أرسلته الى غلادستون في تأخير خمسة الايام التي مضت قبل أن يوقع غرنفيل المذكرة على كراهية للتوقيع وفي تحفظه الذي ذكر فيه « أن حكومة جلالة الملك لا تعتبر نفسها مقيدة بهذا التوقيع بالعمل بآلة خاصة » . وهو تحفظ خليك بغرنفيل دال على تناقض الآراء في ذهنه وقد ظهر هذا التناقض بعد ذلك بين غلادستون وبين وزارة الخارجية ومن ورائها السير ديلاك .

هذه هي الشواهد التي أمكن استخراجها من الوثائق التي نشرت يومئذ على أن عدى خطاباً من رفرر ولسن جادى بعد ذلك بعدة أيام - في ١٣ يناير - ردأ

على خطاب لي . وحطاب ولسن هذا يوضح المسألة في نضع كلمات . قال في هذا الخطاب « يسرى اهتمامك بالشؤون المصرية وانت تؤيد ما اعتقد أنه الحقيقة في حطين على الأقل وهما أن الصباط يعربون عن الرأي المصرى العام وإن الحديوي توفيق يعمل بالاشتراك مع السلطان . وعندى أنه لا محل للدهش في هذه النقطة الأخيرة فقد قال عينا منذ ستة أسابيع « أن الحديوي حجر السلطان » والسبب في هذا ظاهر فتوفيق ضعيف مجرد من الشجاعة ، والحيش قائم صده والحريم يكرهه فلا يجد من المعونة التي يتطلع لها منهم بطبيعة الحال فلم يجد بداً من أن يلتفت الى ناحية يمكن أن يأبى منها الحلفور معاهدات منها المعونة المادية أيضاً وهي ناحية حكومتى إنجلترا وفرنسا وأنه لمعالجة هذه الحالة فكرت الحكومتان في نشر الدكرة الثنائية معها كانت الاسباب التي تتحلل لاصدارها الآن . وسيكون أسى عظيم إذا أخفقت المذكرة في استحداث هذه النتيجة ولم تلق فيدوع الصباط والعلاء والاعيان ان تجديد الاضطراب لا يكون له بعد الآن معنى الا تدخل أوروبا الملح . وقد لانحب حكومتنا مثل هذا التدخل ولكنها أصبحت مقيدة فرنسا بصفتها رسمية ولم يعد معها الانسحاب . ومتى ذكرنا المنصب الرسمي الذي كان يشغله دمرر ولسن في باريس وأضفا اليه اتصاله التام بديك وغبتا عرفنا ان هذا الخطاب وثيقة تاريخية مهمة وقد رأينا كيف انه وضع على الحكومة الفرنسية بصعة قاطعة مسئولية اقتراح التدخل المراد وهذه مسألة تؤيدها الكتب الصفر ذاتها دعماً عن عدم وضوحها . وقد سمعت حينئذ وأصدق الآن أن كيفية التدخل التي اقترحتها غبتنا هي أن تقوم إنجلترا بمظاهرة بحرية وأن تترك فرنسا جنوداً في مصر . ولو حدث لما كان هناك شك في أن التفوذ الفرنسي كان يسود مصر اليوم . وقد كان هذا هو الذي يكون لولا ان حال دوه سقوط غبتنا اذ صوت مجلس النواب ضد حكومته في مسألة داخلية على غير انتظار في آخر شهر يناير لان غلادستون كلّف في ذلك الوقت أسد عن الميل الى استخدام وسائل العنف من أن يرسل اسطولاً بريطانيا مع جيش فرنسي فلم يكن بد حينئذ من أن تتوسع فرنسا في حركتها البرية .

وفي الطاقة أن يستخرج الانسان أكثر من نتيجة واحدة من هذه القصة التاريخية. ودعا كل من ام هذه النتائج أن الوزيرين أخفق كل منهما في تنفيذ غرضه على الرغم من اشتهار كل منهما بالبراعة السياسية في دائرته وعلى أسلوبه الخاص . ولا شك في أن غبنا وغرنفيل تباها في الاسابيع الاولى من شهر يناير بفوزهما في تحقيق غرض مهم وتقويتها العلاقات الودية بين حكومتيهما عما حدث من الاتفاق وقد فاز غبنا بالذكر كما فاز غرنفيل بالمعاهدة التجارية . ولكن الحقيقة هي انه لم يستطع أحد من هذين الشلطين أن يجلب السلب الى بلاده فقد عجز غبنا مع كل مهارته عن حل أعلىية مجلس النواب الفرنسي على المواضة على المعاهدة التجارية فسقطت المعاهدة وسقط معها ما زعمه حرب الاحرار البريطانيين من أن حرية التجارة لا تحمل أعباء في عثرة . ومن ناحية أخرى وحده غبنا انه لم يجد — اذ نجح في اكرام غرنفيل على توقيع المذكرة التي اعتقد أنه سوف يستخدمها لاعلاء شأن فرنسا — ان صافح سلاحا لا يستطيع هو نفسه أن يحسن استخدامه . وهو سلاح لم يمس عليه ستة أشهر حتى تحول الى يد مزاحمه في الوقت الذي ظهر فيه ان الاتفاقية الودية قد هدمت بمجرد حدودها كل الشهور الودي الذي كان متبادلا بين الاثنين اثنا، حيل كامل . وفي استطاعتي أن أفرق بين اخفاق السياسين وبين تنافس مصالح أمتيها أما المأساة الحقيقية فهي ان أملا وطنيا قد خاب واصلاحا دينيا قد تأجل سنين عديدة كرامة لمطامع دينية وشهوات أدفا متها .

كان نغدى غبنا للحزب الوطني خطراً على السلام في القاهرة . وقد كنت مع ماليت بعد وصول المذكرة اليه بوقت قصير فأعطانيها لاقراها ثم سألتني رأيي فيها فقلت « سيعتبرونها اعلان حرب » قال « ليس المقصود بها غرضاً عدائياً » . ثم شرحت لي كيف يمكن تفسيرها بما يوافق الاماني الوطنية . وقد طلب مني أن اذهب الى ثكنة قصر النيل وأطلب الى عرابي الذي كان قد عين حديثاً وكيلا لوزارة الحرب أن يقبلها بهذا المعنى ثم خولني أن أقول له « ان معنى المذكرة كما تفهمه الحكومة البريطانية هي أنها لا تسمح بان يتدخل السلطان في مصر ولا تسمح للخديون أن يبحث بعده . ويؤذى البرلمان » : وأخبرني أنه يرجى أن ينال إذناً بنشر تفسير

مكتوب للذكره بالمعنى المتقدم ولكنه لم يخولني سلطة قول ذلك لعراي ، وأعرف أنه أرسل أكثر من تفراف طالباً مثل هذا الاذن وأنه كتب ينتقد المذكرة بشدة ويقول انها خطيرة مجردة من السياسة ولكنك لا تجد شيئاً من هذه الطلبات والاحتجاجات في الكتب الزرق وان كانت تلك الكتب تظهر اهتمام لورد غرنيل بها الى حد اظهار رغبته في نشر تفسير المذكرة ولكن غلبنا منه من ذلك ، واطاهر ان سكويكر طلب هو أيضاً من حكومته أن تأذن له بتفسير المذكرة ولكنه منع من ذلك ، وكذلك أنهي السير أوكلند كلن على المذكرة اثنا حديثه معي بأشد اللامعة كما فعل ماليت .

وقد ذهبت الى مكتبة قصر النيل في ظهر يوم ٩ (وكانت المذكرة قد وصلت يوم ٨) فوجد عراي وحده في مكتبه . وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي رأيته فيها عاضياً . وكان وجهه كحافة الرعد . وكان في عيه برق خاص . وقد رأى من المذكرة وان كلن لم يفشر بعد وقد سأله كيف فهمها فقال « اخبرني كيف فهمها أنت » وحينئذ أدبت رسالتي فقال « لاشك في ان السير أدوارد ماليت يحسب اطفالا لا يفهم معنى الكلمات . هذه لغة محمد وتهديد وليس في هذه الادارة كاتب يستخدم مثل هذه الالفاظ لغير هذا المعنى » ثم أشار الى الفقرة الاولى التي ذكر فيها الاعيان وقال « هذا نحد لخرماتنا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معني الا ان انجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس » ثم قال « دعهم يأتون فكل رجل وطفل في مصر سيفاتلهم . ليس من مبادئنا ان نضرب الضربة الاولى ولكننا سنعرف كيف نردها » ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق « ان السلطان هو الذي يحافظ على عرش توفيق فليس هو في حاجة الى ضمان أجنبي وذلك لن نخبرني بما نشاء . ولكنني أعرف معنى الكلمات أحسن مما يعرف ماليت » والواقع ان تفسير ماليت كلن هراء في هراء . وقد شعرت لما صرت امام عراي بخلفي وخجلت من حملي اليه مثل هذا الهراء . ولكنني أكدت له اني أدبت الرسالة كما أتقما الى السير أدوارد ثم قلت وهو يرجوك ان تصدقها وأنا كذلك » ولم يد عليه شيء . من آثار المرة الا حين استأذنت في الذهاب فتناول ذراعي ورافقني الى

الباب ودعاني لزيارة منزله كما كنت أصل قبل ذلك. فقلت « ساحي، عند ماتكون لدى أبناء أفضل من هذه » وقد أملت بهذا الى التفسير الذي أستأذن ماليت في نشره. علي ان الاذن لم يأت. كما اني لم أعراني في الاسابيع الثلاثة التالية ولكي رأيته بعد ذلك حين وصل الى خطاب من السنر غلادستون ففسره بما أملأه على التناؤل وكان هذا الخطاب سبب سرورنا.

وقد عدت الى الوكالة البريطانية وسألني ماليت كيف أدبت الرسالة فقلت « لقد نفروا وأصبحت مصالحهم مستحيلة وقد قذفت المذكرة بهم في أحضان السلطان » والواقع ان هذه كانت الحقيقة ليس فيما يتعلق بالحرب الوطنية وحده بل فيما يتعلق بجميع الاحزاب والطبقات. ولقد مثل غمنا وباء بالحياة اذا كان قد أراد تقوية يدي توفيق بذكرته الحقاء هذه فقد رعب الخديوى أما الوطنيون فقد هاحوا ولم يخافوا. وهنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة.

وانضم الشيخ محمد عبده والادريون المعتدلون الى الحزب المتطرف بكل قوتهم وحق كل الناس ومن بينهم الحراكسة من النهديد الاجنبي ورأى اعداء الترك كصديق المجرسي ان عرابي كان بعيد النظر محققاً ان اعتمد سرّاً الى السلطان وبهذا كسب عرابي شهرة عظيمة واحتراماً رهيباً ومضت عدت أيام لم أسمع خلالها من أصحابي المصريين الا كلاماً في الرابطة الاسلامية ولكن كل من ألقاه يقول هذه سياسة روستاويه (١) وقد بذلت جهدي في النهدة حتى يصل التفسير الذي وعدنا به ماليت ولكن جهدي ذهب عبثاً. وكانت هذه الاسابيع الثلاثة مزيجاً للجحيم وهي الاسابيع التي أفضت منذ أرسل غمنا مذكرته حتي سقط وكان يأتي في هذه الاثناء أبناء بان قوة فرنسية تحشد في طولون استعداداً للانحار. وقد كان هذا شكل التدخل الذي نوقمه الجميع. وعندى ان سقوط غمنا أفتد مصر من مصيبة ربما كانت أكبر من مصيبتها الحاضرة — مصيبة غزوة فرسيه موجة علناً صد الاسلام وفي مصلحة المصالح الاوروبية وحدها.

(١) نسبة الى روستان الذي أعد مشروع المحكوم على تونس

الفصل التاسع

(استقالة شريف)

ولم يتصف شهر حني ظهر في القاهرة أن الازمة السياسية تقترب بسرعة والواقع انه لم يبق ريب فيها. وقد اتفق أن نشرت المذكرة الثانية والقانون الاساسي في وقت واحد . وكان المراقبون الماليون قد ألحوا على الوزارة في أن لاتعس سلطتهم في وضع الميزانية على مقتضى اعتقادهم في الحاجات الاقتصادية وان لا يتعرض المجلس الجديد لها بحث أو اقتراح موافق شريف ناشأ على ذلك ووضع المشروع بغير أن يجعل للمجلس أى حق في المسائل المالية . ولم يكن غير طيبى ان تستاء أكثرية النواب من ذلك وقد قالوا أن المراقبة المالية الاجنبية ليس لها شأن الا الاشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الايراد فقد وجب أن تكون الامة حرة في التصرف بالنصف الثانى.

ومع ذلك فليس ثم عمل لان نعتقد بان النواب كانوا يصرون على المعارضة لاسيما أن سلطان باشا الذى انتخب لرئاسة المجلس كان متفقاً مع شريف في أن الفطنة تقضي بالاذعان . ولكن الاحوال تغيرت في آخر الشهر عما كانت عليه في أوله . وقد رأينا كيف سهل الاثنان بين وزارة الحرب والمراقبين الماليين على ميزانية هذه الوزارة. ولكن الاعيان صاروا الآن — أي تحت تأثير المذكرة — بعيدين عن فكرة المسألة فقابلوا مشروع شريف بمشروع وضعوه بأنفسهم وضمنوه عدة مواد توسع سلطتهم البرلمانية ونضع نصف الايراد الذى ليس للديون به شأن تحت تصرفهم . ومن ثم وقع الخلاف الفعلي بينهم وبين المراقبين وقد تولى بلنجير القيادة وجركلفن وراءه. وقد أعلن المراقبون انه لا ماص من بقاء الميزانية كلها تحت تصرفهم المطلق وقالوا أن المشروع الذى قدمه النواب ليس مشروع لائحة برلمانية بل مشروع « معاهدة » ولا شك أن هذه العبارة مقتبسة من اصطلاحات الثورة الفرنسية وأن بلنجير هو الذى وضعها فتلقيها منه كلفن وارعم ماليت على ازديادها وكان الخلاف جدياً وربما أفضى الى الشر الذى كان يحشاء ماليت ويعطى للحكومة

الفرنسية فرصة التدخل التي تنشدها . ومن ناحية أخرى كان شريف قد ربط نفسه بوجهة نظر المراقبين وكان هذان يلحان عليه في الثبات أما موقف الحدبوى فكان مشكوكا فيه . وكانت فرصة وقوع الخلاف بين الحدبوى والوالب على الميزانية المرتطة بالديون الأوروبية هي نفس الفرصة التي تنظر الحكومة الفرنسية أن تنتهزها بعمل السوء . وكان غمنا لا يزال في رئاسة الوزارة .

ففي هذه الشدة العصبية طلب منا ماليت وكلفن الذي كل يود أن ينفذ رأيه كمراتب مالى وان لم يكن برضى عن تدخل فرنسا ان أساعدهما مرة أخرى بان أذلل حمداً جديداً لحل التطرفين من الاعيان على النزول عن بعض ما يطلبون . وبعد ان تداولت مع الشيخ محمد عمده الذي كان كذاباً من الميل الى التبصر والمسالمة اتفقنا على أن التقى في منزله وفد مهم لناقشهم في المسائل وأرهمم النتائج المحتملة للمقاومة أي التدخل المسلح ومن ثم قدمت وجهة نظر المراقبين المالين مع كلفن ووصعت مع ماليت قواعد المناقشة التي عولت على استخدامها وكلها مدونة لدى في مذكرة عنوانها « مذكرة بالامور التي سأقولها لاعضاء البرلمان المصرى في ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ »

ويؤخذ من هذه المذكرة أن تعلياني كانت تنحصر في أن أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الخاضعة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان أن يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيتين . وكان على أت أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأرهمم مذكرة خاصة وصفا ماليت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارقتها بالمشور الذي نص على انشاء المراقبة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم أن يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية وليست كذلك . وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم وقد اعترفوا بان المسائل الدولية يجب أن لا تمس . ومسألة الميزانية مسألة دولية وعلى ذلك يجب أن لا تمسوها . وقد خولى كلفن أن أقول بانه هو شخصياً لا يمانع في تعديل الاجراءات الخاضعة تعديلاً طاعياً بحيث يعطى للمجلس حقاً استشارياً قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراح . فاذا قبلوا ذلك عرض

ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع أن يطمئن علي قبولها من جانب إنجلترا أو فرنسا . أما سائر حلافانهم مع شريف فعليهم أن يسووها معه بانفسهم . الخ . الخ .

على هذه القاعدة وبمساعدة صابو محبي والاستاذ الشيخ محمد عبده ناقشهم طويلا في المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بأنهم لا يذعنون نعم ائهم واثقوا على تعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وأدجروا التعديلات التي اقترحها عليهم فيما يختص بها في اللامحة التي شرت ولكهم نشبوا برائهم في مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاستاذ محمد عبده لي ولم يقبلوا أن يغيروا سطرأ من المادة الخاصة بها وعدت مطاطي الرأس لأبلغ ماليت حكاية فشلي ولم أتوسط بعد ذلك بينه وبين الوطنيين . فقد بذلت أقصى جهدي لاساعده علي حل مصاعبه حلا سليا ولكن شقة الخلاف بين وجهتي نظريا اتسعت منذ ذلك الحين حتي لم يبق محل لتعاري معه . ومع أني بذلت كل جهدي لاجل الاعيان على الاذعان تحت تأثير اعتقادي بانهم يريدون بالتدخل الارربي لم يسعي مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق في طلبهم السلطة على نصف الميرانية اذا كان الحكم البرلاني سيكون حقيقة لأموميها . وتدل تلغرافات ماليت في ذلك الحين على ان الاعيان كانوا بدأ واحدة في هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذي كان بطبعه رجلا ضعيفا بسهل ارهابه أعلن بصريح العبارة أن دستور شريف باشا « كالمطلة » تحدث صوتا عاليا ولكنها فارغة .

وقد حملتي كراحتي للأتراك على الانضمام للوطنيين في النضال الذي نشب بعد ذلك بينهم وبين شريف باشا . وكنت قد زرت شريف قبل ذلك بناء علي رغبة ماليت وبحث معه في المسألة وخرجت من البحث غير راض .

كان شريف تركيا متفريحا طيب المنصر والاخلاق ولكنه لم يخل من شيء من الفطرسواحتقار الفلاحين وهما الوصفان اللذان كانا من مميزات طبقة في القاهرة . وكان ماليت يقدره قدراً كبيراً لاجادته معرفة اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه لاسيا في الشؤون السياسية العادية ولكن تفرسه هذا لم يكن يروقي كلما وازت

بينه وبين الرجال المصلحين ذوي الفكر السامية الذين كانوا رواة الحركة الوطنية الحقيقية والذين لم يكن يعتبرهم شريف الا بمثل الاحتقار الذي قد يستشعره رجل فرنسي نحوهم وقد كان شريف واثقاً من كفاءته لحكمهم وقلة كفاءتهم . وقد قال لي « ان المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الاطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخليق بهم فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه . ابي اما الذي أنشأت الحزب الوطني وسيجدون انهم لا يستطيعون العمل بدونه . ولا شك في أن هؤلاء الفلاحين في حاجة للإرشاد » ومن ثم لم يشق علي أن أختار الحبيب الذي أوليه عطفي حين نشب بينه وبينهم النضال العلمي بعد ذلك بزم قصير .

ولم أكن في القاهرة عند ما بلغتني أنباء استقالة شريف في ٢ فبراير وكان فشلي في معارضة الاعيان قد نكدي وشمرت أن قياي بمعارضتهم قد أصدى مودة أصدقائي الاوربيين وانهم ربما يسيثون في الظن لمحاولتي اقناعهم بخطة لا تتفق مع الحطة التي عقدوا عليها عزائمهم فبعت عن النضال الذي لم تبق لي عليه سلطة ولا عدت قادراً على أن أقوم فيه بمخدمة غرض طيب ومع اني كنت مقبلاً اثناء الشتاء في فندق النيل . فقد كن لي خارج المدينة خيام وجمال وخدم من العرب وكنت أدور هذه الخيام أحياناً ولكني الآن قعبت فيها . وكانت الخيام مضروبة في الصحراء بين قصر القبة والمطرية في نقطة اسمها الزيتون وكانت هذه المنطقة كلها لا تزال صحراء قاحلة في ذلك الحين والخيام قائمة الى جانب بقايا شادوف وهي الأثر الوحيد الذي يدل على انه كان في هذا المكان سكان . وقد كنا منفردين في هذا المكان لولا معسكر الامير أحمد الذي كان خارج دائرة المطرية ولم يكن يوجد أي نوع من أنواع المواصلات العامة بيننا وبين القاهرة فكنا اذا أردنا الذهاب الى القاهرة نركب جملانا الى مكل بين الفجالة والعباسية حيث نستطيع أن نكسرى الحير . ولم يكن يوجد ولا منزل واحد في الرمل بعد العباسية من الناحية الشمالية الشرقية . وعلى هذا استطعت أن أنسى الياسة لحظه وأن أتمتع بالعيش في الهواء الطلق وهو ما كنت ولا أزال أفضله على كل شيء على اني كنت قد فمت لاصحابي بمخدمة أخيرة اذ كتبت في التيمس دفاعاً حاراً عن الوطنيين . وقد حضى على ذلك السير جرمجوري الذي

ترسل أكثر من خطاب قوي بالمعنى ذاته الى التيمس التي كانت تعد في ذلك الحين
تقوى صحيفة في أوروبا بلا نزاع.

وليس في الطاقة أن أبالغ في أهمية أي خطاب ينشر في التيمس في تلك الايام
كأنه لاشك في اهتمام الساسة الذين لم علاقة بالخطاب المنشور بالاطلاع عليه والعناية
بأمره . كذلك ليس من المبالغة القول بأن خطاباتي وخطابات السير جربجورى بصفة
خاصة كان فيها وقاية لمصر من كثير من الاخطار التي كانت تهددها . وقد وثق
نا أصدقاؤنا المصريين لما وصلت التيمس تحمل هذه الخطابات وترجمت الى اللغة
العربية ونجدد اعتيادهم علينا . ولكن هذا صابق مألوف . فقد كان مثله كمثل كل
رجال السياسة في بعض العالامية وقد حقق منا نحن الذين كنا موظفين في خدمة
الحكومة اذ نجاورناه هو ووزارة الخارجية ولجأنا الى الصحافة . وكل من يعرف كيف
يتصرف مع مراسلي الصحف ولكنه لم يعرف كيف يفعل معنا نحن الكتاب
للاحرار ولا استطاع أن يراقب آراءنا أقل مراقبة . ومن ثم انتهى عهد الصداقة
التي كانت بيني وبين الوكالة الى ذلك الحين رغم ما حدث من الخلافات الصغيرة
وكن هذا من سوء الحظ الذي قدف بماليت — الذي كان دائما في حاجة الى الاعتماد
على من هم أقوى منه — في أحصان قوم أقل ميلا منا الى المسالمة والصلح .

وفي مذكرياتي أجده في ذهبت في يوم ٣١ يناير وهو اليوم الذي سقطت فيه
وزلعة غشنا الى القاهرة وقابلت كلن ونحدثت معه حديثاً خطيراً . وقد استعدت
لحوادث التي جاءت بعد ذلك لهذا الحديث أهمية تاريخية لمحيث في تاريخ على مدى
سبعة أيام من الوقت الذي غير فيه المراقب البريطاني مسلكه ففرت معه سياستنا
نحو الوطنية المصرية كما أنه يضع على كاهل كلن مسؤولية القطيعة التي جلبها بأعماله .
قد ذكرت فيما سبق طرفا من أخلاق السير أوكلاند كلن فهو نموذج الموظفين في
خدمة المند قوي الاعناد على نفسه وصار معتاداً على الاساليب المتبعة منذ زمن طويل
في المند ولكنها تعتبر مع هذا جديدة بالنسبة للسياسة الاوربية ولا يميل الى الشرق
لا الميل الذي يجعله يستحدمه للاغراض البريطانية بغير ان يحبه وهو فوق هذا
بارد الطبع غير جذاب . وكنت قبل ذلك التاريخ قد أخذت الاستاذ الشيخ

محمد عبده لزيارته انشاء التقريب بينها وكذلك فعلت مع الصباط ولكن أخلاقه
عمرت الشيخ منه وكل الصباط أشد حياء من أن يذهبوا اليه معي . وكان كل من في
بعض الاحيان مدعياً في صراحته ولا زلت أذكر قوله لي ذات يوم اذ كان يتحدث
عن الاعمال الخفية التي اشهر بها الشريون . انه محطى من بطن انت الشريين
يفوقونا في ذلك . قال ان استطاعة أي المجلبي يعرف اللعبة ان يفلهم بأسلحتهم
وهم أطفال في الفس متى قام بيننا وبينهم النضال .

وقد كان في الفرصة الماخضة أشد صراحة منه في أي وقت آخر . وكان الخلاف
بين الاعيان وشريف في أشد أطواره فسألته عن رأيه في الموقف فقال انه يعتبره
خطيراً . فقد ظهر أن الوطنيين عقدوا النية على اسقاط شريف فادا بمحوها قطع كل من
علاقته بهم . وقال لي انه غير فكره تماماً بالنسبة اليهم . فقد كان يطلمهم معقولين
ولكنه وحدهم خياليين وسينزل كل جهده في هدمهم اذا تقلدوا أزمة السلطة .
فسألته كيف يفعل ذلك وكيف يقف حركة وافق عليها حديثاً وان كان قيادها
حرج الآن من طوق كل انسان . كيف يعقل ذلك بغير ذلك التدخل الذي اجتهدنا
جميعاً أن نحول دونه . فقال انه غير فكره فيها يختص بهذا التدخل أيضاً وانه يعتقد
انه صار الآن ضرورياً ولا مفر منه وانه لا يضمن يبدل جهده بتحقيقه . فجادلته في ذلك
وقلت ان التداحل معناه الحرب والحرب معناها الضم . فقال انه يفهم بهذا المعنى
وانه شهد هذه المسألة تكررت مرة بعد أخرى في الهدم . وليس في الطاقة أن ترفع
انجلترا القدم التي وضعتها في مصر ولا فائدة البتة من التحدث عن حقوق المصريين
أو اخطائهم النظرية . فليس ثم محل لاعتبار مثل هذه الشؤون . وقد كرر مقالته عن
تدمير الحزب الوطني وقال انه أعلن عزمه هذا ولم يبق سراً وسيعمل للتدخل والضم
اذا لزم الحال .

هذا وأنا واثق من اني لم أحرف شيئاً من العناصر الرئيسية في هذا الحديث
هل تكن المسألة مسألة كلمات قليلة تبودلت على عجل ولكها كانت ماقشة استغرقت
نصف ساعة وقد بلغ من تأثرى بها ان قررت تحذير أصدقائي المصريين الذين
كنت قد أكدت لهم فيما سبق حسن شعور كل من نقوم وقد وجب الآن أن

يتوقعوا أسوأ الشر من جانبه . وقد أحابوني بأنهم يعرفون ذلك وانهم قد وصلت اليهم أنباء كذبه عنه .

وقد فتح هذا الحديث عيني لخطر جديد . وكلت قد وصل الى قبل ذلك يومين خطابان أحدهما من مصكر المحافظين في إنجلترا وكلاهما يحصل مثل هذا الاذكار . فقد كتب الى جون موربي رداً علي خطاب طلبت فيه مساعدته للقضية الوطنية المصرية يقول فيه « اني أشك الآن في أن تصيب مشروعاتك أي نجاح . فصر لسوء حظ أهلها ميدان المناقصات الأوردية وستحول مصلحة فرسادون حل مألها حلا يتفق مع مصلحة أهلها . ولست أجد مهرباً من هذا . انها لعنة الدنيا تلك العظمة السياسية التي سوف تفسد كل شيء » .

أما الخطاب الثاني فن يتون وقد جاء فيه ما يأتي « ان الجمهور الصغير الذي يعني بمسائل السياسة الخارجية في قلق من جراء المركز الكاذب الذي سوق أنفنا اليه في مصر وهو يخشي أن يرفع صوته ويتكلم في المسألة . ويلوح لي أن آراءهم مع ذلك ليست واضحة . وعندى ان هذه هي أولي ثمرات سياسية مبنية علي خطأ وقد أفتدنا معونة ألمانيا والنمسا ووضعنا تحت رحمة فرنسا التي لا يمكن أن يكون بيننا وبينها أي تحالف حقيقى في أى يوم » وقد كتب الخطابان قبل سقوط غيبنا ويخيل لى الآن انى أسمع صدى ما فيهما من الكلمات ولا سيما كلمات مورلي عن العظمة السياسية من رجل في استطاعته أن يفسد حلا عادلا لارضاء مصلحة فرنسا وكذلك مصلحة بريطانيا . والحق انه قد استولى على الخوف وندمت على أن صدرت مني الكلمات التي قلتها لسكفن في هذه الفرصة . فقد قلت له « انى أتحداك لتتحقق ما تزعمه من التداخل أو الضم البريطاني » وكان ندى راجعاً الى أن هذه الكلمات حركته من ناحية شخصية فضلاً عن الناحية السياسية لتنفيذ ماعمله بعد ذلك فقد صارت المسألة مسألة ملوأة يفتنا .

ولما وجد شريف باشا بعد يومين أى في يوم ٢ فبراير انه لا يستطيع أن يطوى النواب الوطنيين لارادته قدم استقالته متأراً بتهدد سكفن بالتداخل فيما اعتقد خلفه

محمود باشا سامي البارودي الذي اختاره النواب وعين عراقي وربراً للحرب فكانت الوزارة مريخاً وطنياً انتهجت به البلاد (١)

وقد جاءني الالباء في عزلي بالصحراء فقابلتها بشعور من مزيج الفرح والقلق ولم يخف قلقي الا في ٢٧ فبراير حين وصل الى رد المنبر علاءستون علي الخطاب الذي كنت أرسلته له منذ ستة أسابيع وأرسلت معه البرنامج الوطني . ولا شك في أن التأخر في الرد راجع الي الحيرة التي ودرسته فيها ارتباطات عمر نيل مع غبنا . ولكن سقوط غبنا اطلق الحرية لحكومتنا فأدجمت في خطاب الملكة عند افتتاح البرلمان فقرة تضمن العطف علي الاماني الوطنية المصرية . وهنا ارسل الي المنبر علاءستون رده وختمه بالعارة الآتية « انا واثق من استطاعتنا حل المسألة علي وجه مرض اذا لم يقع من أحد الطرفين أو كليهما أو علي الأصح من الجميع خطأ كبير . أما رأيي في المسألة المصرية فقد أعربت عنه في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أقبل الوزارة بوقت قصير ولست علي يقنة من أن هناك ما يستوجب تغييره الي الآن »

وكانت اشارته الي مقالته هذا الذي عوانه « الاعتداء علي مصر » علي جانب كبير من الاهمية لان المقالة كانت حكماً صارماً علي سياسة التدخل والضم التي أعلنتها

(١) كان في الوزارة نقطة ضعف أو قطبان أهمهما ما يختص باختيار وزير الخارجية . ولم يكن محمود سامي أو عراقي أو غيرهما من الضباط المصريين يعرف لغة أجنبية . ولما كانت معرفة الفرنسية ضرورية للتفاهم مع القناصل فقد اختاروا رجلاً يعرفها ولكنه ليس من حزبهم ولا يرتأي مثل آرائهم . وكان هذا الرجل مصطفى باشا فهمي من طبقة المحاكم وأحد أتباع شريف وأركان حرب اسمعيل في سنة ١٨٧٨ والذي اشترك في مأساة اسمعيل باشا المقتل . وكان فرعه من تلك الحادثة هو سبب تحوله الي المبادئ الدستورية . ولكنه كان مثل شريف يحترق زملاءه الفلاحين وقد أصابهم بصرر بليغ بعد ذلك بشهرين اذ كان يصور قصصهم في مراسلاته نصوراً سيئاً . ولم يستطيعوا أن يدركوا هذه الحقيقة لهمهم الفرنسية الا مد فوات الاوان .

الى كلفن فلما حصلت على هذا البرهان الدامغ على حسن نية علاستون عدت بسرور الى القاهرة واستطعت ان اخبر عرابي انى لمؤكد له عطى عبثاً . وقد وحده في وزارة الحرب بحيط به اسدقاؤه وهو البطريرك القبطي وبعض المشاركة والاوروبيين الذين قدموا لتحية الشمس المشرقة . وكان عرابي يتحرك بمظاهر السيادة والنبل في هذا المحيط وشده ما كانت تخيل عليه تلك المظاهر . ولم يكن الآن مجرد قائد فرقة بل كان رجلاً اكسبته المسؤولية الحديده التي أقيمت على عاتقه كثيراً من الرصانة . وكان لا يزال مع ذلك فلاحاً ووطياً وان اكنسى مظاهر الرجل السياسي . وقد اتفرد في فاطمته على خطب علاستون وانتهجنا به معاً كبشارة صعيدة .

على اننا لم تنتظر طويلاً أولى ثمرات عداوة كلفن . ولست أدري مصدر الكذبة بالضبط ولكي اوضح ان يكون الحديوي هو الذي حملته غيرته السيئة من سلطه الوزراء . على اذاعتها . فقد أرسلت شركة روتر تلفرافا قالت فيه ان استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكري . ثم قصت التيمس قصة طويلة مفادها ان سلطاناً باشا رئيس المجلس لم يدع الا تحت تأثير التهديد الشعبي وان عرابي استل سيفه امامه وهدد بتقيم أطفاله وقد كانت هذه قصة طائشة فان سلطاناً باشا لم يكن له أبناء فلم يسع كل من عرف هذه الحقيقه في مصر الا ان يضحك من هذه القصة ولا سيما أولئك الذين عرفوا متانة العلاقة بين عرابي وسلطان باشا ولكن هذه القصة كانت كافية مع ذلك ليتخذ منها كلفن سلاحاً « لتدمير الوطنيين » فرت بسهولة من رقابة الوكالة البريطانية وذكروا ماليت في بلاغانه اليومية في حكاية أخرى مفادها ان الحديوي قبل استقالة شريف تحت تأثير تهديد كهذا .

ومها يكن من سخافة القصة فقد استاء منها سلطان باشا وطلب مني بعد ان كان النواب قد عرفوا صدقتي لم ان اكتبها تكدياً باتاً لدى ماليت . وقد ذهبت الى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة ككرة من النواب وكثيرين من ذوى الخيالات والمكانة في مصر وهم الشيخ العباسي وعبد السلام باشا الموليحي

واحمد بك السيوفى وهام افندى محادى وشديد بطر من احد كبار النواب الاقباط وغيرهم .

وقد أسكر هؤلاء جميعاً هم وسلطان باشا أنهم علوا تحت تأثير أى تهديد وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة . مستكراً القصة التى اخترعت عنه وقال « ان احمد عرابي انما هو بمثابة ابن لى وهو يعرف حقى وواجبه فكانه في ورارة الحرب ومكافى في البرلمان . وهو ينتصح لرايى وليس يعتدى على حقوقى . أما من حيث استلامه السيف أمانى هو لا يفضل ذلك الا اذا رأى أعداء يهاجمون . وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهى حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة . ولك أن تتق بأن أصغر نائب هنا يمثل الناس بحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم حندى . ونحن نحترم أحمد عرابي لاننا نعرف انه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لانه جندى » وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لى أثبتتها فيها يومئذ . وقد انجى الشيخ على مالىة لتشره مختلف الاباطيل وطلب منى أن أقبل اليه الحقائق وأن أبلغها لفلادستون وأتشرها في الصحف وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل الي التيس ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستفيضاً ضمه رأيى في الموقف كله .

وقد ذهبت في الحال من منزل سلطان باشا الى مالىة وجادته في المسألة بحدة . ولكنه أصر على أن حكايتى هي الحقيقة وانه استقاه من سلطان باشا بالذات فلما علم أي قادم من منزل سلطان عاد فتمل انه استقاه « من ثقة » فلما شددت عليه التكبير وسأته . « هذا « الثقة » حنة » وقال انى لا حق لى في استجوابه . ولكن ذلك آخر حديث لى معه في السياسة . وقد فهمت من مسلك مالىة هذا انه مثل كل من انضم الى مصر العدو وانه لم يبق محل للركون اليه . وقد ظهر لى خطر الموقف ملوساً لال الصحف ووزارة الخارجية كاتبا بين أيديهم وقد شعرت بضعف مركزى في مناضلتها على الرغم من اصفا . رئيس الوزارة لى وعدم ضن التيس بنشر آرايى . لذلك قررت أن لا أؤخر عودتي الى المحقرة حيث أستطيع

أن أحدم المصريين أكثر مما أستطيع ذلك في القاهرة وذلك لخطاة والتسكك مباشرة مع غلاستون . وقد تحدثت مع كار البواب وأصدقائي الأزهرين قسلاً سمرى والصلحهم على مشروعي وعاين فوافقوا عليها وانفتحت مع السبر وليم جرمجورى علي أن يتولى في غيبي الدفاع عن القضية المصرية التي كان متحمساً لها مثلي في التيسر والخطابات يرسلها إلى أصدقائه في المحلثا . وكنت أحسب أنني سأعود إلى مصر في ظرف بضعة أسابيع وأن أشارك في التطورات التي قد تقع .

وردت عرابي آخر مرة يوم ٢٧ فبراير وهو اليوم الذي سافرت فيه إلى المحلثا . وكان قد مضى علي أكثر من ثلاثة أشهر في مصر وقد بدت لي كأنها عمر بما أثارته في من بواعث الاهتمام . وقد نظرت إلى مصر كأنها وطن لي ثاب واعتزمت علي أن أقف إلى جانب المصريين كأهم هم مواطي . وقد شعرت بالبعد عن مواطي في اليوم ما عدا السير جرمجورى الذي كانت تتألف منه الحامية البريطانية في مصر .

وقد اتقاد الجميع لآراء كلفن كما تقاد الغنم وصاروا جميعاً يقولون بالتدخل . ولم يكن التدخل الذي يتكلمون عنه تدخلا فرنسياً بل تدخلا امحلثيا وقد تحول فصار الآن واجباً بعد أن كان محض اعتداء كما كان معهوداً أنه سيكون من جانب فرنسا . ثم كان التدخل بفضاً وكان اعتداءاً محضاً لما هدد به عمبتا ولكنه صار عادلاً ومرغوباً فيه بل صار واجباً وطنياً لما نادى به غرنفيل وكذلك حدث مع الحامية الفرنسية في مصر فقد صارت في جانب المسألة لما تغير رئيس الوزارة الفرنسية وحلفه المسو فرسينيه وعكس سياسة سلعه . ولم يشد عن هذه القاعدة من الجالية كلها الا المسيو بلنجير وغيره من المرنسين ذرى الوظائف الرسمية الذين خافوا الضغط في العهد الجديد .

وقد حد كلفن وبلنجير في بث الرعب بين أصحاب الوظائف وكان من دواعي الدهش أن عبر الشاعر لورد هاوتون موقف العطف الذي كان قد انخذه حيال القضية الوطنية حين أخبره زوج ابنته فخرج جرداً أن عيشه اليوم أصبح مهدداً . وكان معهوداً أن البرناج الوطنى يقضي بالاقصاء في المرات عبر الصرورية وعدم السماح بأن يشغل رجل واحد وظيفتين ويتناول مرتين . ولم يمز كلفن هذه الخطة

لديها الحقيق وهو الاقتصاد المشروع ولكنه عزاه الى « التعصب » وهذا لفظ يلائم الاعراض الجديدة . وقد بدأوا يكثرون من استخدامه في وصف الحركة الوطنية . أما الذي استندوا الى الحكم عليه فقد كان ماسماه جماعة الموظفين البريطانيين « قرار مجلس النواب المصرى الفطيع » اذا هو تمكن من السيطرة على الميزانية علي قطع الام الخبيثه التي كانت تعطي لشركة روتر . وكان يحجل لم انه اذا قطعت هذه الاعانة استحال عليهم أن يعرفوا تفصيلات ما يجري في سباق القوارب بين جامعتي كبردج واكسفورد !! أو تفصيلات الحصول على جائزة سباق دربي ... وكانوا كذلك يقولون أن المجلس سوف لا يبق التسعة الآلاف التي تعطي للادبرا وشد ما كان فخر الجدي . ويعد في هذه القصة ويؤكد انها نتيجة التعصب الفطيع . وكانت هذه الترهات وأمثالها من التافهات قد اعتبرت جرائم هائلة ضد المجلس ضد الوزارة التي كان يقال لها متفقة مع المجلس في وجهة النظر . وقد تعودت أن أسمع قصة هذه الشكايل من جرمجورى الذى كان الصق بالجالية الانجليزية الآس مي . وقد بدا لي أن أظهر ثقتي في نجاح القضية الوطنية — بعد أن أخذ أثر التهديد بالتدخل يظهر في انخفاض أسعار أسهم الدين المصرى والأراضي المصرية — فاشترت جينة الشيخ عبيد وهي أروع فداننا بين المريج والمطرية ونويت أن أقيم فيها في المستقبل

وقد يعنى القراء المصريون أن يعرفوا سعر أراضي تلك المنطقة في ذلك الحين . ولم يكن قد بى ولا منزل واحد كما أسلفت في شقة الصحراء بين العباسية وكفر الحاموس وكانت الحكومة رغبة في بيع الصحراء لكل من يقبل أن يدفع في الفدان بضعة قروش . وقد فكرت ذات يوم أن أنشي نفسي مقرأ في المكان الذى ضربت فيه الحيام وتمحريت من صديق روجرز بك الذى كان في مصلحة الأراضي بوزارة المالية عن الأسعار وقدمت طلباً لشترى مائة فدان في الزيتون على أن أدفع في الفدان خمسة عشر قرشاً . وهذه الاراضى يساوى الفدان منها الآن ، في سنة ١٩٠٤ مائتي جنيه . ولكن حدث أن حين كنت أساوم فيها علمت أن جينة الشيخ عبيد معروضة للبيع فاشترتها بالمراد من لجنة اللومين بأب وخمسة جنيه . وقد كانت

حينئذ أحسن حديقة للمأكبة في مصر يحيط بها سور وتروى من ماء بئر وكلت
فيها شجرة من شجر المأكبة في أحسن حال .

ولهذه الحديقة تاريخ لا بأس بمراده . فهي قطعة أرض حصّة على حافة
الصحراء ، وكان يملكها في أوائل القرن التاسع عشر أمام جيش إبراهيم باشا الذي
عزاه بلاد العرب . ولكن الامام وقع في أزمة فاشترها منه إبراهيم باشا وسور
منها ثلاثة وثلاثين فدانا واحترق السواقي وطمعها كما هي الآن . وقد حدث هذا
كله من الثلاثين سنة الاولى من القرن الماضي . وقد حلب بعض الشجر المغروس
فيها من الطائف في الحجار وبعضه من سوريا . وكان إبراهيم باشا قد عي نارت
بجعلها أحسن حديقة من نوعها وكان اراد بيع ما كنها في عصره وعصر ابن أخته
مصطفى الذي ورث الحديقة ببلغ ١٠٠٠ نجيه . أما العمل فيها فكان سحرة على الملايين
المخاورين وكان رماها من كبر الحجم بحيث شاعت بين السانيين قصة فخواها ان
لحل لا يحمل أكثر من ثلاثين رمانة من رماها وانه كانت ترسل كل عام هدية
من هذا الزمان للسلطان . والذي أعرفه هو أنه في زمن توفيق حميد إبراهيم وفي
لوقت الذي كتب توفيق فيه يعيش في عزلة أثناء حياة أبيه اسماعيل بقصر القبة
كان سيدات الحرم يذهبن الى هذه الحديقة يوماً في الاسبوع للرياضة في فصل الربيع .
لما خلع اسمعيل في سنة ١٨٧٩ وقعت هذه الحديقة في أيدي المصنفين وكانت من
المناطق الصغيرة التي استقر رأبهم على بيعها وهذا هو الطريق الذي وحلت منه الى
السوق . وكما في العام السابق قد ضربنا خياماً خارج أسوارها ونحس في الطريق
الى سوريا وقد شاقنا ما فيها من جهال ولا سيما شجر الشمس الذي كان يومئذ في
إبان ازهاره لذلك ما أسرع ما أنقبت عليها ونبتت كل مشروعات الشراء الاخرى
حين علمت أن في الطاقة الحصول عليها وهأنا أكتب الآت في ظل احدى
مجالها الظليلة .

والآن أعود لزيارة الوداع التي زرتها لعراي . ففي هذه الزيارة تناقشنا في كل
الموضوعات التي كانت محل الكلام يومئذ في الدوائر الوطنية بما فيها من مشروعات
للاصلاح وأمان ومخاوف في الداخل والخارج . وكانت بصحة الاسابيع التي قضاهما

عراقي في مركزه الجديد - ورر الحرب - قد أصبحت وقوته فاقشي في كل الموضوعات رصانة واعتدال عظيمين سواء في التمكير او في الالهجة . وقد أكد لي انه هو وزملاؤه الورراء يرغبون كثيراً في أن يصلوا الى نظام ودي مع الحكومة البريطانية في كل المسائل التي يحتلمون فيها مع الوكالة البريطانية في القاهرة وطلب الي ان ابلغ رساك هذه بصفة رسمية الى علادستون وقد شكاشكوى مرة من كلفن وماليت الدين ظهر مسلكها العدائي من الحطة التي حريا عليها فيما يختص بنشويه سمعة الوطنيين في الصحف البريطانية . وقال لي « ان السلام لا يمكن أن يوطد في القاهرة ما بقي هذان وما بقيت علاقتنا مقصورة عليهما فاننا نعرف انهما يصلان لابدائنا سرأ ان لم يكن علماً . وسنفعل عملر عليهما جميعاً . ولكسا لا نريد أن يختلف مع انجلترا كرامة لهما . دع المسر علادستون يرسل لنا أيا كان خلاصهما لنظام معونهم ننتقله بأذرع مفتوحة » وقد أطلب كذلك في تفصيل مشروعات الاصلاح التي ينوبها محمود سامي وزملاؤه الورراء . وقد بعد كثير من تلك الاصلاحات بعد ان عرى للموطنين البريطانيين في عهد الاحتلال وادعى لورد كرومر انه مستكر كثير منها . فس ذلك الغاء السخرة التي كان يصرفها الباشوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان وحماية الفلاحين من المرائين اليونانيين الذين أنشوا فيهم الاظفار بسبب فقدان العدل في المحاكم المختلطة . ومن هذه الاصلاحات أيضا انشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة . وهذا هو البنك الذي يأمى به كثيراً المرحوم اللورد كرومر .

كذلك تناقشنا في الاصلاحات القضائية وكانت درائر القضاء يصبها الفساد كذلك تكلمنا في نظم تربية الذكور والاناث وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق . وقد أطلع عراقي الكلام في هذه المسألة الاخيرة وكان الموظفون الاحانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد في المرتبات مرا كرم ومن ثم كانوا يزعمون أن احياء الاسلام معناه احياء الاسرقاق . وقد أظهر لي عراقي ضعف هذا الزعم وما فيه من الاقتراء . وبين لي انه ليس في مصر من يود أن يكون لمعيد غير أمراء البيت الحديدي والباشوات الاتراك الذين نعدودوا استعباد الفلاحين

وانت الاصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس معها اختلفوا في
 الخس والثون والدير وليس مع هذا الاصلاح محل الاسرقة أما فيما يختص
 بضرورة الاستعداد للحرب محتملة - ذلك الاستعداد الذي يجب أن يشغل ذهن
 وزير الحرب فقد تكلم عنه صراحة وقوة فقال ان الحكومة الوطنية لا تبرع سلاحها
 ولا تخفصه حتى يوطد الحكم الدستوري ونعترف أوروبا به . وكان يرحو ألا يتجاوز
 مربوط وزارة الحرب الذي اتفق عليه مع كلفن والا يضطر الى زيادة عدد رجال
 الجيش عن ١٨,٠٠٠ . أما اذا استمر التهديد بالتدخل فلا مناص لمن اتباع الطريقة
 البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من انشاء احتياطي كبير . وقد سألت
 عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة اني عما علمته من احتداد كلفن في
 احداث التداحل وبما آراه من المياع الذي شه في الصحف اعتبر أن الخطر حقيق
 واني داهب الى انجلترا لا لشيء الا لأضع حداً للحجة الكذب التي ثارت في
 الصحف . وستكون مهني هالك نشر الدعوة للسلام وحسن الية . وفي الوقت نفسه
 لم أستطع أن أنصح له الا بالثبات والحزم في موقفه وبأن أفضل وسيلة لصيان السلم
 انما هي الاستعداد للدفاع . وقلت ان شر أعداء مصر ليس الحكومات الاوربية
 بل المالين الاوربيين وان هؤلاء لا بد أن يفكروا طويلا قبل أن يعرضوا مصالحهم
 للخطر بالخض على اثاره حرب طويلة ذات نفقات طائلة . وقل أن يسي أحد الى
 أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها . واذكر اني اقتبست له من شعر لورد بيرون
 قوله « لاتأمن الفرنج على الحرب » فوافق عرابي على ذلك وكانت هذه فيما أظن آخر
 كلمتنا . وقد وعدته بأن أعود وأنضم الى الوطنيين اذا شاء القضاء . ووقع السوء .

الفصل العاشر

توسلي في « دوتنج سنريت »

هذه قصة الدور الذي قمت به في مصر أثناء ذلك الشتاء قد رويتها تفصيلا وبكل أمانة ودقة . وقد اعتمدت في مراجعة حوادثه المهمة وضعتها على الخطابات والمذكرات الموحزة التي وجدتها بين أوراقى ولكن أكثر اعتمادي كان على قصصها الذي وصعته خلال حرب سنة ١٨٨٢ ونشرته في عدد سبتمبر في مجلة « القرن التاسع عشر في ذلك العام » والواقع ان قصتي الحاضرة ليست الا تفصيلا لتلك القصة .

أما قصصى الآتى فسيكون جديداً لاني اذا كنت قد كتبت قطعاً منه ونشرتها في أوقات مختلفة فاني لم أجدها بعد فراعلا استكمال ما كتبت منه واعتمادي في تقرير ما سوف أذكره من التواريخ والحوادث سيكون علي مذكراتى اليومية التي استأمت تدوينها منذ عدت الآن الي إنجلترا وعلى الخطابات الكثيرة التي نشرت أو لم تنشر ولا تزال عددى وهي الخطابات التي تبادلها مع كبار الساسة الذين وحدثت بصبي متصلاً بهم في الأربعة الأشهر التي انقضت بين وصولي الي إنجلترا وصرب الاسكندرية والتي تبودلت بيني وبين الدس كانوا يقولون بمحاكمة عراي بعد موقعة التل الكبير . فهذه شهادات سوف أثبت بها منى اقتضت الحال سواء في القصة بأنها أو في ملحقتها . وسيظهر أن هذه الحسابات وحدها تنقص القصة بذاتها منى جبك بعضها الى بعض بالشرح الضروري وسرد علي القراء أسباب الحرب

وقد كان الموقف السياسي الذي وجدته في لندن عند وصولي إليها في ٦ مارس يناقص الموقف الذي تركته ورأيتي في القاهرة مد اسبوع مافضة غريبة . كان قد مضى عامان على تقلد غلاستون رئاسة الوزارة وكل نحمسه للقوميات الشرقية والحربة الشرقية ذلك التحمس الذي رفعه في انتخابات سنة ١٨٨٠ الى فرصة السلطة قد قتر في كل مكان ثم حلفته في الدوائر الرسمية آراء العنف الاستعماري ولا سيما مع الوطنيين الارلسدين فلم يكن في ذلك قال طيب لمصر . وكان مجلس الورداء قد

اشتر شطرين فكلن كبلو زعماء الاحرار المتسيطرين على مصالح الحكومة المهمة
وم هارنختون وورث بروك وتشيلدر يميلون الى استخدام وسائل العنف والشدّة.
وكلن علاستون وهار كورت وبرايت وخدمهم تقريباً يميلون الى المسألة أما الشعور
العالم في البلاد فكلن قويا ضد « العصيان ومحالفة القانون » في كل مكان وكان
قانون « القاء القبض » Habeas Corpus قد علق في ايرلندا والقي القبض على
بلرل ومعه عشرون من أعضاء البرلمان الوطنيين والقوا بغير محاكمة في سجن
« كيلماهام » وكلن سائر أعضاء البرلمان الارلنديين قد أخذوا يسطرون العمل في
مجلس النواب وصارت كل « قومية » قدي في أيمن حرب الاحرار . ومن ثم لم
يكن حو « وستفندر » وغيره من الورايات صالحا لقيامي بنشر الدعوة لمصلحة
« قومية المصرية » . وكلن الاشخاص القليلون الذين يهتمون بمصر حقاً هم حملة سندات
الدين وهؤلاء أقصم كلن الذي كان قد احتكر الصحف على مارنك بان عراقي
والحرب الوطني اعماهم عصبه من الميحيين المتعصبين الذين لا يحجبون عن احراق
بورصة لندن اذا وجدوا لذلك سبيلا والذين نجحوا فعلا في تخفيض قيم الصنان
وجعلوا القطع صعباً وخطراً .

أما في وزارة الخارجية فكلن الموقف فيما يختص بمصر كما يأتي : كلن عر انفيل ،
الهرم الاسم المكشال ، حين وحد نفسه قد خفص من كابوس سياسة غمبتا الجريئة
قد استسلم الى غرخته التي من شأنها فعل لا شيء وترك الشؤون نسوى نفسها بالهدوء
التي تسبح به الاحوال . فلم يكن راغباً في التدخل ولا كلن يريد أن يقوم بأي
عمل عدائي نحو الوطنيين ولا بأي عمل على الاطلاق في الحقيقة . ولم يكلف نفسه
مشقة قراءة البلاغات ولكنه ترك الى سكرتاريه الخصوصيين مهمة العلم بما يجري
حوه وكلن جل اعتماده على وكيله السير ديلاك الذي كان في استطاعته أن يفحص له
الاباء . ويعرض له ما يختاره من الحقائق ويلائمه من الآراء . وكلن ديلاك الذي
شاطر غمبتا مسؤولة المذكورة للشركة المؤرخة ٦ يناير قد أصبح عاملا رئيسيا في سياسة
التدخل بعد اخفاها عبتا من قيادة الشؤون المصرية وكلن يعمل بالانفاق مع كلن
والمالين على دفع الامور الى مآرق لا يسم رئيسه المتخرج منه الا أن يتدخل . ومع

أن ذلك نفسه لم يكن وزيراً فقد كان يعتمد في هذا الصدد على تأييد قوى من وزارة شمبرلين وهو صديق شخصي له وحليف ليس في طاقته أن يفهم الشؤون الخارجية . وكانت سمعته هو وزميله هدا هي أهمها أشد عناصر الوراثة نظراً ولذلك كان لهما نفوذ على قسم من حزب الأحرار يميل إلى المحازقات الخارجية وكان سواد المتطرفين في البرلمان لا يعرف شيئاً من حقيقة الحال ولا يبالى بالمسائل المختلف عليها ما دامت على بعد شاسع .

يسد أنى وجدت في استطاعتي امت كثير من الانظار وكان قد كثر اطلاع المظلمين على خطاباتي التي نشرتها التيس ثم كان الناس يقبلون بشوق لسماع كلامي وقد استطعت أنا والسير حريجورى أن ملف عرائى في مهجة البطولة التي كان خليقاً بها بصفته مدافعاً عن حقوق الفلاحين وكنت أستطيع أن أحد من يسمعون لي من هذه الناحية دائماً . وكانت الاشاعات المختلفة لانفتاح تدور حوله وكذلك الحكايات المضحكة التي تصوره كفرنسى أو أسباني في أهلب مصرى أو كأجور من مأجورى الخديو اسماعيل أو الدعي حلبم أو السلطان أو أي شيء آخر الا الشيء الحقيقي . أما أنا الذى رأى عرابي رأى العين فقد كان في استطاعتي أن أشرح الحقيقة على انه لم يكن أحد يهتم بالمسألة اهتماماً جدياً ولكن كانت مسألة فضول وكنت أجد من الناس أصفاءاً .

وكانت أول زيارتي بعد وصولي إلى لندن لديوان رئيس الوزارة ومع أنى لم أقابل المستر غلادستون شخصياً فقد قابلت صديق هاملتون سكرتيره الخاص وتحدثت معه حديثاً طويلاً مرصياً . وكنت بعد اختلافى مع ماليت في شك من الطريقة التي يستقبلوني بها ولكنه أسرع فأخبرنى أن تدخلي في سياسة ماليت لم يفض رئييه ولكن المستر غلادستون بعكس ذلك ممنون من خطاباتي ومن الخطة التي سلكتها في مصر . وكانت المسألة الأارلندية تكشف كل ما عداها في ذهن غلادستون ولكنى مع ذلك أستطيع أن اطمئن نفسي من ناحية المخاطر التي يلو . لي أنها توشك أن تحل بالقاهرة فهذه المخاطر لا يمكن أن تقضى الى متاعب حديثع ومما كانت آراء وراة الخارجية فسبحول المستر غلادستون دون تنفيذها . وإن

التدخل المسلح « مستحيل » ما بقي غلادستون في رئاسة الوزارة . ولا ريب في أن الفكرة في دأها مصححة . وسنألف الكلام في ذلك بعد كما نرى سوف أقابل المستر غلادستون . وفي هذه الأثناء سيجي هاملتون بان يقف لورد غريميل على ما حضوري . وأخيراً تركت هاملتون وقتي كبيرة .

في صباح اليوم نفسه زرت ان عمي الحنون بورك وكل يوم منذ معروفا من أصدقائه باسم « باتون » (١) وكل مقدورا أن يكون دوره في المألة المصرية في ذلك العام دورا مهما ومن ثم كثر ما تكرر اسمه في مذكراتي وكان موقفه في الحياة الاجتماعية موقف شاب على الطرار الأخير وثيق الاتصال بالعالم الرسمي فانه كان الابن الاصغر للورد مايو الذي حكم الهند وكان ابن أخي النائب روبرت بورك (الذي صار بعد ذلك لورد كونيوارا) الذي كان وكيل لدارة الخارجية وكان اليوم أي في سنة ١٨٨٢ دعم معارضة المحافظين في مجلس العموم في مسائل السياسة الخارجية وكان باتون أبصراً له مركز في تحرير التيمس لا كحرد ولكن كوسيط بين شبري رئيس التحرير ورجال السياسة . واد كان ابن نبيل من ذوي الرتب كان يستطيع ان يدخل ابها، المحليين . وكان يعرف كل انسان هناك وكل ما يجري من الشؤون ثم كان ذا صلة متينة رجال اللاط وبأصحاب الاموال وبجميع القاضين على أزمة الشؤون المهمة في الدولة . وكانت صداقتنا متينة وكان احلص نصحا في واكبر ثقاتي في بضعة الاشهر العصية التالية بما كان له من حكمة ذبوبة لا أستطيع أن أروي في مثلها وما كان في ذهنه من خصب وسعة حيلة بمجب بها . واليه يرجع ثلاثة لرباع الفضل في ذبوع كتاباتي في الصحف وفي المعونة التي بذلت في البرلمان . ولما التقيت به رويته له كل ما حدث في مصر خلال الشتاء كما أفضيت اليه بمشروعاتي التي أعدهتها للمستقبل . وكان رأيه في المعارضة يختلف كل الاختلاف عن رأي هاملتون لأن معرفته بالروتند صبرته علي بيته من اقبال المالية التي يشدوها لتحقيق فكرة التدخل . ثم كان قليل الثقة بقدرة غلادستون على فهم المسائل السياسية

الخارجية او التصرف في مسألة فيها من المصالح المالية احدثت كل هذا التأثير على أسعار بورصات اوربا . ومع ذلك كل ينصح لي بالمحافظة على المركز الذي نلته في رئاسة الوزارة وان استعهم تفوضى كأحسن ما استطيع فادا أخفق الاعناد على علاستون استطعت أن أعتد على المعارضة في مجلس النواب وقد أكد لي حصولي عليها متى اقتضت الحال . فلم يبق لي في تلك اللحظة إلا أن أأحدث كل من أعرفهم من أعضاء المجالس في هذا العدد والا ان استمر على مراسلة التيس وقد أخذت بهذه النصيحة الحكيمة ونفذتها بلا بطء .

وفي مذكراتي إحدى ذهبت يوم ٩ مارس لزيارة جورج هوارد (والان لورد كلرليل) وعييته ونجحت في حملها ولا سيما السيدة على الانصام لآرائه . وكانت يومئذ كما هي الآن سياسية قوية وكانت عظمة الثقة في علاستون وقد بصحت لي بأن أضع كل ثقتي فيه وانه لاشك في انه سيحول دور وقوع أى أذى بالمرية . وكان . أما روجها فكان أقل ثقة ولكنه ماهر الى الموازنة على اخذ مجلس العموم الذي كان عصواً فيه ليقدمنى بعد ظهر ذلك اليوم الي زملائه أعضاء حزب الاحرار الذين يعتقد أنهم أقدر على مساعدتي . ومن ثم ذهبنا معا وتعرفت الى دوائر برائس وغيره من الأعضاء ذوي النفوذ ولا سيما الذين كانوا منهم يعنون بمأثي لطفاريا وأرمينيا حين عقد مؤتمر برلين . وقد وعدني كل هؤلاء بالمساعدة كما وعدني بمساعدته ذلك الرجل الفاضل تشون الذي تحدثت طويلا معه ومع ستانلي زوج أخت هوارد في غرفة الشاي . وكل من تشون ذا قوة سياسية كبيرة على الرغم من أنه لم يكن عضواً في البرلمان وذلك انه كان يخترق السياسة اذ كان سكرتيراً لمحمية « حامية اهل البلاد الاصلاح » وكان يثير هياجاً كلما اعتدت أوربا على قوم غير أوروبيين وقد دلت الحوادث على عظم قيمة المساعدة التي قدمها لي في أوربا من ابتداء الامر الى آخره فقد كان دائم الاتصال اليومي بجميع أعضاء البرلمان المتطرفين . وقد نصح لي هوارد بالا أضع القضية في أيدي جماعة « المحترفين بمقاومة التدخل » وان أقوم بنشر دعوتي على أساس مستقل . وكنت في ذلك الحين حديد غير متمرس باحوال السياسة الانجليزية .

ولقد كنت قليل النرس الى حد ان هذه كانت أول مرة دخلت فيها الى حجر مجلس العموم مع اني كنت في سن الحادية والاربعين . ومنذ ذلك اليوم أصبحت كثير التردد على ذلك المجلس .

وفي اليوم نفسه حادثت فيليب كرى ملياً في وراوة الخارجية وتناقشنا طويلا في المسألة المصرية . وقد لمحت نادى دي بده انهمستا ، مما عملته في القاهرة — بسبب شكوى ماليت مي — ظاناً اني ألعب « لعبة كرى عملية على حساب وزارة الخارجية » ولكن ماليت أن تلاحظي هذا الزعم لاني مأسرع ماأقعت محطورة المسألة وباهامي بها بصفة جدية وباني مصيب في آرائي فأشار علي بمقابلة ديلك وغرانفيل في اليوم التالي .

ثم اني أجدى أيضا في اليوم نفسه حادثت اللورد ملتون أحد لوردات ايرلندا مما يظهر الصلة القوية بين مصر و ايرلندا في الافكار السياسية وقتئذ . وهلك ما كتبه عن محادثته « ان قصته — أي قصة ملتون — عن شؤون ايرلندا تشبه كل الشبه القصة التي يرويها الموظفون الاحانب عن مصر . فهو يرى أن المصاعب الموجودة في ايرلندا ليست الا من عمل المشايخين وان الفلاحين الايرلنديين لا يميلون بتاتا الى الحزب الوطني وان التدخل بقوة السلاح كفيلا بأن يعيد الامور الى مجاريها الطبيعية » .

وفي يوم ١٠ قابلت ديلك في وزارة الخارجية بعد ان زرته في داره في سلون ستريت . وقد كان في حالة غضب . فدلا من أن يصح لاقوالي شرع بشكوى الي من الوزارة المصرية الجديدة قائلا ان وزارة عرابي مد تربيها في دست الحكم أنفقت على الجيش ما ينيف على نصف « مليون جنيه » ولها أنت أعمالا صيبانية أخرى . وكنت أعلم أن تلك الحسابات لا يمكن أن تكون صحيحة لان الوطنيين لم يجر عليهم في كرسي الحكم سوى ستة أسابيع فقط . فذهبت الى ساندسون وكان وقتئذ السكرتير الخاص للورد غريميل (وهو الان سير توماس ساندرسون رئيس وزارة الخارجية) وطلبت اليه أن يحقق حرافة النصف مليون الحسه فوجدنا بعد مراجعة الرسالة الخاصة بها أن المبلغ المذكور لم يتفق كما أخبرني ديلك في « الستة الاسابيع »

انما فيه بل في «الاستة» الماصية على ان هذا الشوية الغريب من حمة ديلك — الذي قرر ما قرره كانوا كل حقيقة لا نقل الحدل — ربما كان مجرد غلطة شيعية ولكن الصحف رددت تلك الحرافة في ذلك اليوم مع أن عددًا عبر قليل من تلك الصحف كان يستمد الوعي من ديلك مباشرة . وهو مثل للطريقة التي كان يبشر بها الاخبار الصارة بسعة الوطنيين المصريين بقطع الطر عن سحابة هذه الاخبار .

وكان مورلي هو السوق الرئيسي لديلك . كما ان البال مال عاريت (وهي الحريدة الوحيدة التي كان علاستون يقرأها بالمراسل) أصبحت طول الربيع وأوائل صيف ١٨٨٢ بسبب تأثير ديلك وكلهم معرض الاكاذيب المغاضعة والقائلة بوجوب التدخل . فقد حل مورلي نفسه — على ما اعتقد — على تصديق ما اطلع اليه فراح يعمل بسلامة بيته ولكن الشيء الاكيد بالرغم من ذلك كله هو ان مورلي يقع على رأسه أكثر من أي حي آخر مسؤولة حل علاستون على الالتجاء الى القوة في مصر وهي أكبر خطبة في تاريخ حياة علاستون العمومية . ولم يكن موقف مورلي وقتئذ موقفاً مستقلاً كما انه لم يكن هو صاحب الآراء المنشورة المعزوة اليه ولم يكن قد دخل البرلمان وقتئذ بل كان ينتظر فراع كرسي . فكل آماله في الحياة السياسية كانت قائمة على مساندة أصدقائه السياسيين مثل ديلك وتشملرن .

لم يكن له والحالة هكذا ماصر — اذا لم يشأ العدول عن مطامعه الشخصية — في أعلى الخطبة التي رسمها له ديلك في الشؤون المصرية . ولكم كل أسفه شديداً فيها بعد على ما فعل حتى انه على ما أعلن — ما كان يجب أن يتذكر الدور الذي لعبه وقتئذ . ولكن لا ريب في أن مسئولية عن اشغال نار الحرب كانت عظيمة . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن مورلي في كتابه المسمى «حياة علاستون» قد أخفى حقيقة الرواية المصرية ولا كتب بتلخيصها تلخيصاً مشوهاً في بضع صفحات . ولكن التاريخ تاريخ ولا مفر من إثبات سلطته .

بعد تسوية هذه المسألة مع سادرسن أحدى كري لرؤية لورد غرانفيل ولم أكن عرفته قبل الآن وهناك حدثت مناقشة أخرى .

وكان لورد غرانفيل على جانب عظيم من التهذيب وقد أخذ بسأل عن خطبي

العربية وبطريبي من أهلها ثم تحول الى موضوع المسألة المصرية وأخبرني « ان لديه معلومات موثوق بها تدل على أن عرابي اعلم هو صيغة اسماعيل وأن المسألة كلها مسألة دسيسة يراد بها رجع اسماعيل » وكانت هذه أيضا حكاية من الحكايات عبر للعقولة التي دست لورارة الخارجية وللجمهور لجل الرأي العام على سوء الظن بالمسألة المصرية . وقد تمت الى وزارة الخارجية فيما أعلم من تلعراف أو خطاب خصوصي أرسله اليها السير أوغسطس باحث سفيرنا في بروم الذي قال له اسماعيل مباهيا على ما يظهر « ان عرابي في جيبه ».

وليس ضروريا ان يبحث هنا الاساس التي حدث اسماعيل الى ذلك فان كلمته هذه لم يكن لها أى قيمة ولا شك في أن ملك عرابي من أوله الى آخره يدل على عكس ذلك تماما . بل أن ملك عرابي في ذلك الحين كل أدل منه في أى وقت آخر على عدائه للشاوشات الحراكية ، انصار اسماعيل الذين كانوا يدسون السماتس لتوفيق . ولم يكن يخفى على كل حال ان لاسماعيل اعراضا في اظهار الحركة المصرية كأنما حدثت من احله . وكان دائم التشبث بفكرة ما ألما ان الدول الأوروبية سوف تقدم دات يوم على حلعه وان ترجع ايه باعتباره الحاكم الوحيد القادر على حكم بلاد اضطربت امورها على أثر عيابه . على اني لم اكن اعرف في ذلك الحين مصدر الحكاية كما انه لم يكن في استطاعتي تقصها باكثر من التأكيد بان الزعيم المصري أشد الناس معارضة لاسماعيل (١) فقلت ذلك فابلقت الرسالة التي كتفتي عرابي ابلاغها الى غلادستون فلم يزد في الجواب على أن قال « هل ينزلون عن حق المجلس في الاقتراع علي الميزانية ؟ » قلت له اني أخشي ان لا يكون تمت أمل في

(١) وجدت بين مذكراتي بعد أعداد هذا للطبع مذكرة تاريخها سنة ١٨٨٤ تؤيد وتصحح عادة باحث وهذا نصها . فينا في ٢٠ سبتمبر . تغذيت في السفارة . وكان السير باحث أنيسا . وتكلم عن مصر ولا يزال يذكر مترجم نوبار . وقد سألتني رأيي في عرابي فسأله هل حقا أخره اسماعيل بان عرابي أخره فقال انه لم يخطب اسماعيل بشأن عرابي قط ولكنه ذكر ان اسماعيل قال (لقد كلفني هذا الصبي مالا كثيرا)

ذلك نظر ألاتفاق جميع النواب عليه . فقال « اذن اعتبر انه لا أمل في مآلهم ولا بد أن تنتهي حملهم على الاذعان بالقوة » فقلت له اني لا أستطيع التصديق بأن الحكومة البريطانية تدخل في هذا الشأن حقاً وأن تصادر الحرية على مثل هذا الاساس . ولكنه احتفظ برأيه وتركه غير راض مصمماً على الا اصبغ وقتاً آخر في اقتناع وزارة الخارجية وانما يجب على ان ابدل كل جهدى في الضغط عليها من الخارج وانه « لا بد لي من مقابلة غلادستون » .

وقابلت في اليوم نفسه موزلى في مكتب تحريره محاولاً أن أشل معمول الاقتراءات التي كانت نهال عليه من كل جانب ولكن عشا حاولت . فقد كل شديد الثقة بكلمن الذي كان مراسله المعلن في مصر . وكان تحت عود آخر يعمل تحت تأثيره وقد شق علي ان أقاوم ذلك النفوذ .

وفي الحادى عشر تفديت مع « باتون » الذى دعا جماعة لمقابلتي خصيصاً . وكان هؤلاء السير فرنسيس نولي سكرتير ولى العهد ورد جنالك بریت (والآن لورد ايشر) الذى كان يومئذ سكرتير لورد هارنجتون وكليغورد احد كبار كتاب التيمس والجنرال السير جون آيد الذى كان من اصدقاء ولسلي وحدم تحت امرته ذلك العام في الحملة المصرية وقد بقى مع ذلك عاطفاً على المصريين في كل ما حدث خدمة للانسانية كما سيتضح بعد حادث التل الكبير . وقد قضينا ليلة سارة وأظهر السكل اهتماماً بآرائي المصرية وبحثت أحدثت مع بعضهم الى الساعة الاولى بعد منتصف الليل ولقد أعرف ان نولي تأثر بأقوالى اما بریت الذى كان متصلاً بأكل روتشيلد وغيرهم من الذين كانوا يلحون بوحوب التداخل فقد ظهر بعد ذلك انه من أعدى أعداء القضية المصرية . وكان يعمل يومئذ لموزلى في « البال مال غازيت » وأوحى اليه انه لم يكن كتب منه بعض المقالات التي آمرت كثيراً على غلادستون .

وفي ١٣ قابلت غوشن . وكان قد أرسلني اليه هاملتون باقتراح غلادستون باعتباراه رجلاً تثق به الحكومة وقد خضت معه في تفصيلات القضية المصرية أكثر مما فعلت مع ديلك وعرفيل وقد أظهر كثيراً من العطف على آرائى . أظهر أكثر

مما شعر في الحقيقة . باقتناعي بأنه لا ينظر الى المسألة من وجهة مالية . ولا شك في أن ذلك يرجع الى أنه كان في الماضي ناثباً عن مدايبي اسماعيل . وقد وجدته لطيف للسكك ذا صوت جذاب وبقيت معه ساعتين وقال لي « لك أن تطعن الى شيء واحد علي الأقل وهو ان الحكومة لا تعمل الا وفقاً للبادئ . السياسة العامة العامة ولا تعمل وفقاً لمصالح اصحاب الديون وكان هذا القول مرضياً وخيل الى انه متفق كل الاتفاق مع حالة الموقف الراهن قد كانت الصحف نشرت في ذلك الصباح انا . استقالة بلنجير من منصبه كقريب مالي فرنسي في مصر . واستبدل الناس في لندن من هذا الحادث على أن هناك خلافا بين الحكومة الفرنسية وحكومة القاهرة الوطنية ولكي عرفت ان الحقيقة لم تكن كذلك فقد كان بلنجير أسقى من كلفن نفسه في العمل للتدخل ففهم من استقالته ان حكومته قد تخلت عنه وهذا هو المعنى الصحيح . ولو كان كلفن قد استقال ذلك الحين ، ولم يكن ذلك صيداً فيما اعتقدت فقد كان في الطاقة تجنب كل المتاعب التي حدثت فيما بعد . ولكن كلفن كان مؤيداً من ذلك الى حد جعل ذلك عبيراً .

وقد تركت غوشن وذهبت لا تغذى مع باتون فوجدته مع لورد ده لاوار وهو نيل من المحافظين ، وأحد جيرانى في سيسلى . وكان قد ذهب في العام السابق الى تونس وتشرب شيء من العطف على العرب اثناء الفزوة الفرنسية . وقد علمنا ما بعد ذلك كثيراً في المسألة المصرية وبرهن على عظيم قيمة مساعدته حين تخرجت الامور وانتهت الى أزمة يوليو . وكنت في ذلك الحين أحض على تأليف لجنة تحقيق تذهب الى مصر وكان يظهر أنه لا يبعد أن يرأس هو هذه اللجنة .

وقابلت هاملتون بعد ظهر ذلك اليوم في « دوننج اسكريت » وكان قد ظهرت في ذلك الصباح مقالة شديدة في « البال مال » عنوانها ايقاد النار في مصر ولم يكن أكثر ولا أقل من تكرار الحكايات السيئة مضافا اليها حكايات أخرى ترمي الى غرس سوء الظن في الوطنيين .

وقد أشار هاملتون الى هذه الحكايات باعتبارها أدلة مقنعة لظهورها في « البال مال » وان لا بد أن أكون مخطئاً والا لما كل مورلى يسمح بملوك هذا السلك

المنافض الحرية وهو لا يقل عني انتصاراً لها وقد شرحت له موقف كلنف بالنسبة لمورلى وأنا أكن شرحته له من قبل وطلت منه بالخاح أن أجمع برئيسه . وكنت قد أمسكت الى ذلك الحين عن شكوى الاصدقاء الذين كنت أعمل معهم في المرحلات الاولى رعيًا لصداقتهم ولكن وحدث الآن سكونى لا ينتج الا الضرر وصمت على اخبار علاءستون بكل ما أعرفه عنهم . وكان مورلى قد أذرنى في اليوم السابق لهذه المقابلة باعتبار انى لا يمكننى أن أوافق عليها وطلب منى أن أورد عليها . ولكنى كنت أكثر غضباً من أن أورد الا بذكر قصيرة اعقبها في اليوم التالي بزيارة الى شارع نورغبرلاند حيث وبجته على نشر مثل هذا الهراء المؤذى ولكن السوء كان متوقفاً فقد سبق النشر طلب قدمه السير جودح كامل واستخدم لهذه الحكايات الشائنة وقد شهدت مناقشة هذا الطلب الذى تكلم فيها عوش باسم الحكومة بلهجة المسألة وان كان لم يذكر الوطنية المصرية مخبر ورعاً كان حديثى معه في الصباح قد أقتدنا من شر ذلك وعلى كل حال لم يوضع قرارى مصلحة الحرية .

وقد جاء في مذكرة اليومية في ١٤ مارس حديث جرى بينى وبين مير هنرى رولسون السفير البريطانى في طرس وهو من مؤرخى الشرق المشهورين وآراءه من طراز الآراء التى تسمع عادة من الانجليز القيسين في الهند . فقد قال ان المصريين كانوا في الماضي عبيداً وسيبقون كذلك في المستقبل وستنخل بلادهم ضمن أملاك انجلترا أو روسيا مع سائر بلاد آسيا . وقال ان معرفته بالاسيويين تجعله يدرك انهم لا يستمرئون الحكم الذاتى .

وقد تحدثت أيضاً مع والتر صاحب جريدة التيمس الذى اقترح على باتون أن أقباه . فأخذ يتكلم في أشياء لا قيمة لها ثم وعدنى في النهاية بان يرسل مكالبة خاصة للقاهرة لكي يبعث اليه بالاخبار (ولما كنت لم يفضل ذلك لان ما كيونالد مدير الادارة عارض محتجاً بعدم ضرورة صرف هذه المصاريف)

وفي الخامس عشر من هذا الشهر ذهبت الى سير جلونيت ولسلي وتحدثت معه حديثاً حديراً بان أذكره هنا بعد ما تكلمنا عن قبرص انتقلنا الى موضوع مصر وامكان مقاومة الوطنيين في حالة التنخل وسألني رأيي عن ذلك . فقلت له انهم

بالطع سيقاتلون واقتتل ان يقتصر على الخنود لارب الامة سندم بهم وربما استعملوا طرقا أخرى بعد ذلك وقد أنى أن يصدقني في قولي بان اخنود ستقاتل . ولكن ثبت على رأيي وقلت له انه اذا كلف بان يذهب لفزو مصر عليه أن يأخذ معه على أقل تقدير ستين ألف جندي .

وقد بالقت بلا شك في هذا التقدير لاني كنت أرمي الى حمل هذه المهمة شاقة في نظرم حتى لا تقدم عليها الحكومة الا بعد تردد ومراجعة . « وقد تطوع لي باحدى مانه قد استشير مرتين أو ثلاثا مدة الشتاء ، بعد العارة على مصر والاحتلال وقد أكد لي أن ليس هنا من يود التدخل وان احتلال مصر سيكون مكروها عند الخنود وأنه هو نفسه يكون آسفاً جداً اذا اضطر الى الذهاب الى مصر . ومن رايه أنه يجب على المصريين أن سرحوا جيشهم وبقوا بحماية أوروبا . ولكني أخبرته بأنه ليس من المستطاع لي أن أصبح لهم بذلك وارث الامة التي تسوى القتال بدية صادقة قل أن هاجما عدو . فقال لي انه ليس هناك شيء يدعى الشرف في الحروب واذا كانت المسألة مسألة حرب فلا يجب عليهم أن يتقوا بنا ولا بأي دولة أخرى . ثم أخذ في الكلام عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة فذكر بونابرت وطريقه على الشط الابسر بين فرع النيل وطريق الصحراء بين قناة السويس والدلتا حتى شعر بأنه اذا ذهبت الحيوش فستتخذ هذه الطريق ولكني اخبرته من أن أعطيه أي معلومات فتيده أقل فائدة واكتفيت بالضحك عند ما سألتني عما اذا كنت فواقه لأدله على الطريق عند ما ترسل الحلة . وكان الأثر الذي تركه ولسلي في ذهني هو : « انه جندي لبق من الارلنديين الذين يعرفون من لهجة كلامهم . ولكني لم أشعر انه من العبقريين الذين كان يصف نابليون أحدهم بقوله « قائد عشرة آلاف »

ومن الحديث بالذكر أني عند ما كتبت لشيخ محمد عبده بواسطة سكرتيري صابونجي أشرت الى الخطر الذي يمكن أن يقع فيه الوطنيون من عارته من جهة الاسماعيلية وأظن أن هذه الإشارة هي التي جعلت عرابي يشرع في تحصين القل الكبير .

وفي اليوم نفسه رأيت لبال على وشك أن يسافر الى الهند لأنه كان قد عين
حاكماً لحدى الولايات الشمالية الغربية .

وقد وجدته أقل الموظفين الأنجليز في الهند ارتباطاً في الحركة الوطنية المصرية
وفي المساء تعشيت مع هاملتون وجودلى وهما سكرتيرا مسنر غلادستون وعرضت
عليها مسودة الخطاب الذي أرسلته لورد جرايميل وفي هذا الخطاب أثبتت بصفة
رسمية تحيات عرابي ونياته الحسنة نحو الحكومة البريطانية وشكواه من كلفن
وماليت التي لم أذكرها له مع ما ذكرته من الأسباب عند ما كنت في وزارة الخارجية .

وقد وافق السكرتيران على هذه المسودة وكانت الموافقة أكثر من جودلى
وقد جعلني أمحو جملة كنت اعتذرت بها عن تدخل في مسألة مهمة كهذه . فقد قللت
مؤكدًا : « تدخلك ليس في حاجة الى الاعتذار »

لقد كان جودلى رجلاً عالى المهمة وكل من يمثل أحسن ما في أخلاق غلادستون
من الحسنة والعطف لما هو طيب في هذا العالم والاحتقار لكل ردى . وكل من
يخالف كل الموظفين الذين يهدم الإنسان عادة في الوظائف العمومية إلا من حيث
القدرة على الأعمال الرسمية وكان طول الازمة المصرية يعطف على ويساعدنى . أما
هاملتون فقد كان يعطف ايضاً ولكن عطفه كان يرمى الى صداقته لا الى حماة
الطبيعية للتفضية التي كنت أدافع عنها وقد كان ختام خطاى ما قدمته من الطلب
للحكومة بأن ترسل بصفة للبحث والتحرى عن المائتات الراحنة في مصر
وتفحص المسائل بروح الود والصداقة للمصريين . وأهمية الخطاب تبرر اثباته هنا
برمته :-

لندن في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٢

ان ما أظهرتموه من التكرم في سماعكم ماقلته لفخاتكم عن بعض تفاصيل
المالة في مصر يشجعنى على أن أقدم الاقتراحات التالية لتكون محل الاعتبار .
وأنى اذا كنت قد فهمت ما فهمتم به فخاتكم فالى اعتقد ان حكومة جلالة الملك
تنوى ان تتعجل في الموضوع اذ هي تميل الى قبول حل سلمى — اذا تيسر هنا
هذا الحل للخلاف بين المراقبة وبين الحكومة المصرية . وانها لا تلجأ الى القوة الا

في اللحظة الأخيرة عندما تهمر عن جميع الوسائل للمحافظة على المصالح الانجليزية والتعهدات الدولية من أن يصيها الوطنيون بسوء .

هذا وإن واقف على آراء الحزب الوطني أو على الأقل على آراء زعمائه المظاهرين فيه ويمكن أن أقول وأؤكد أنه ليس هناك شيء أحب إليهم من التناغم مع حكومة جلالة الملكة . بل الواقع أن عراقي بك قد كلفني بلف أؤكد لفخامتكم أنه إذا خوطب بلهجة الصداقة فإنه يستعمل كل نفوذ حزبه — وهو نفوذ خطير — لأن يخفف من مرارة الشعور الذي نشأ بين المصريين والانجليز وسائر الموظفين الاجانب وأنه مستعد لأن يسير الى نصف الطريق اذا فتحت المفاوضات للوصول الى تسوية سلمية .

وقد رجأ إلى مع ذلك أن أضع أمام فخامتكم مصاعب المسألة اذ قد أعلن للراقب العام الانجليزي عداً شخصياً نحوه كما فعل ذلك أيضاً الوكيل السياسي المفوض بجلالة الملك .

وفخامتكم تعلمون ان سير أوكلايد كولفين قد كان ذا أثر كبير في تغيير الوزارات وفيما يمكن أن يسمى « ثورة » أي تلك الحوادث التي حدثت في مصر في السنة الأشهر الماضية ففي ٩ سبتمبر كان هو نفسه الذي أوعز الى الخديو بأن يقبض على عراقي ويضربه بالرصاص . وعراقي الآن هو وزير الحرية . ثم هو لم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذه الحقيقة لأنه على ما أفهم أبلغ الصحف الانجليزية هذه التفاصيل

ثم من المشهور عند المصريين انه على صلة بالصحف وأنه يكتب عن الحزب الوطني خصوصاً الجيش بلهجة عدائية وأنه عندما استقال شريف باشا صرح دون أن يتحفظ أنه ينوى تبديد شمل الحزب الوطني وأنه سيستعمل كل الوسائل المؤدية الى هذا الغرض في امكان التداخل . ولو كانت هذه الاشياء لا يعرفها سوى عراقي لأنها لم يسلط عليها أهمية كما قال لي ولكن لسوء الحظ قد صارت هذه الاشياء معروفة مشهورة بين الناس بحيث صار من المحال ان يظهر عراقي علاقة ودية بينه وبين هذا الرجل .

وقد قال عن سير ادوارد ماليت مثل هذا أيضاً بدرجة أخف . فقد كان من

سوء نخت سير ادوارد ان انتفت ريارته للاستانة مع نقشى الاشاعة عن تدخل الانراك الذى ذكرته الصحف الانجليزية في الحريف الماضي . واني متنع بان الحكومة الفرنسية هي صاحبة المسئولية في نقشى هذه الاشاعة التى لا يمكن استنصاها الآن من أذهان سكان القاهرة وهي أن سير مالبى قد اقترح مرارا مختلفة التدخل العسكري . واني أعرف أن هذا زعم باطل وان سير مالبى قد استنكر هذا الحال . ولكن هناك بعض حقائق تسوغ هذا الزعم . مثال ذلك انه رفض ان يعتبر طلب المصريين الدستور من الشئون الحدية الى وقت انعقاد مجلس النواب المصرى . ثم انه قد انضم الى سير أوكلاند كوفلين في اعياره الى شريف باشا وقت النزاع بينه وبين أعضاء المجلس . وقد استاء كثيرون منه لتصريحه بانه يعتقد صحة الرواية المكذوبة التى لا أساس لها وهي ان عرابى قد أهان سلطان باشا رئيس المجلس وسبه . ومهما يكن من قيمة هذه المرائم فان الواقع الزاهر ان سير أوكلاند كوفلين وسير ادوارد مالبى قد قاطعتهما الحكومة المصرية او كادت . فها لهذا السبب محرومان الآن من معرفة الحقائق والوقوف عليها من مصادرها وقد صار الميدان واسعا للدسائين من الدول الاخرى الذين ليس لهم مصاحبة ما في اعتدال الوطنين أو في تجنب انقطاع المنازعات انقطاعا نهائيا .

فاذا كنتم تخلصكم نرون ما قلته حقا فاني أستاذن غفلكم في تقديم الاقتراحات التالية :

ان الوزراء الوطنيين يشغلون الآن في اعداد جملة من الشكاوى عن النظام الذي وضعت فرنسا واجتتروا وصدقت عليه المراقبة . وبعض هذه الشكاوى حقيقى . وهم يرغبون في فتح باب البحث فيها بروح الاعتدال والصدقة . ولكنهم اذا رأوا من المراقبة والدول عدا . فمن الحق أنهم سينظرون فيها بروح العداة أيضا . فان المسائل المختلف عليها هي حقائق زاهنة في الاكثر فاداروعى الحق والعدل وكان غرض حكومة جلالة الملكة ان تكسب منزلة أدبية لاشك فيها فيجب ان تنفص هذه المسائل بروح النزاهة وان يعتد ببيانات المصريين كما يعتد ببيانات الاوربيين واني أقرر لغفلكم انه من المحال على ممثلى جلالة الملكة أن يحصلوا على هذه

التي كانت سواء أكانوا مالين أو سياسيين وان المصريين سيظرون اليهم بعين الانتباه والريبة . أفليس إذن من الأفضل أن يرسل الى مصر في مدة السنة الأشهر التي ستمر قبل استناد البرلمان المصري مندوبين لبحث الحال الراية وفهم المسائل التي يشكون منها بروح الصداقة التي لا يمكن أن تتلافى الكثرة بدونها ؟

ولنرجع الآن إلى المذكرات فأقول إني أجدني قد كتبت بواسطة صابونجي سكرتيري خطاباً مطولاً إلى عرابي أخبرته فيه بأني قد اقترحت على الحكومة تعيين مندوبين وان آمالي كبيرة ولكنني قد رجوت أن يكون على حذر كما رجوت ذلك أيضاً من جرمجوري الذي كل لا يزال مقبياً في القاهرة . أما الحالة في مصر في ذلك الوقت فتتلخص في أن مجلس النواب قد ألح في اثبات حقه بأن نصف الميزانية لم يكن مقبياً بشرط اللذين وان له الحق في التصويت فيه . وأن الحديو قد أصدر لائحة موقعة باسمه بمنح الدستور على الطرق الاووية . وأن الوزراء قد عرضوا على المجلس جدولاً يتضمن عدة اصلاحات عملية كانت البلاد في حاجة شديد اليها منذ سنتين وقد نفذ بعضها الآن .

فلما انتهى ذلك أحل استناد المجلس إلى الخريف القادم . وفي غضون هذه السنة شملت البلاد السكينة التامة ولم يكن من سبب الخلاف مع أوروبا سوى مسألة التصويت عن المالية وهي مسألة ان تبلغ درجة الحدة إلا بعد ستة أشهر عد ما يتم ترتيب الميزانية الجديدة . وليس هناك ظلم من الشك في أنه لو كان كولفن قد اقتنع بضرورة انسحابه من البلاد مثل ما فعل زميله الفرنسي مسيو بلانجير ولو كان اقتراحي بشأن ارسال مندوبين قد قبل لكانت الحال في مصر قد عادت إلى الهدوء ولم يكن ثمة حاجة الى التدخل العسكري . فان الوزراء المصريين لم يكونوا يرغبون في أكثر من أن يعيشوا في سلام مع جميع العالم وأن يتفاهموا مع حكومتى المراقبة الثانية عن جميع المسائل المتنازع عليها .

وفي ٢٠ مارس تناولت القداء مع باتون لكي أقابل عمه روبرت بورك الذي كان قد نوى أن يضع المسألة المصرية في البرلمان في الاسبوع التالي ويعرضها للنقاش . وكان بصحبة عضو آخر من المحافظين كان يهتم بمسألة تونس . وكان

هدان من الاسهم التي احتفظت بها في كسانى إذا خذلتى غلادستون . ثم ذهبت إلى الجمعية الاسيوية وحضرت اجتماعاً فيها وقد كنت انتحبت عضواً فيها . وفي المساء تناولت العشاء مع رفرز ويلسون . ومع ويلسون هذا « قد تشاحرت مشاجرة عنيفة بشأن مصر » وقد قال بأنه قد ساعد في اعداد مذكرة جديدة على وشك أن ترسل الى ماليت من وزارة الخارجية للاصلاح عليه بأن يتقاضى الحكومة المصرية تأدية جميع التبعات الدولية . وكان القصد من هذه المذكرة أن تكون بمثابة الوعيد للحزب الوطنى ولكنى أظن أنها لم ترسل مطلقاً أو انها قد ألغيت إذ لم أجدها في الكتاب الازرق . وربما كان خطابى الى حرافيل هو سبب الغائبا . وقد كان ويلسون يؤكد بأن جميع الحركة الوطنية هي من اختراع اسماعيل وأنه اذا فوضا وذهب الحديوى اللقي الى مصر ونزل في الاسكندرية لآتى اليه جميع المصريين وجثوا له على ركبهم . وبعد هذا العشاء قمت الى دار القيدى كنتارى حيث رأيت القيدى سالزيرى وقد انتحبت في ناحية وأخذت نسألى بلهجة العطف عن القصة المصرية وقد عرضت عليها ذلك بأحسن ما استطعت علماً منى بأن ما أقوله لها سيعاد على مسامح زوجها اللورد سالزيرى . ويبدعي أنه لا يوجد عطف حقيقى بين المحافظين على آرائى بصدد الحركة المصرية ولكن كل من مصلحتهم بصفتهم الحزب المعارض أن يتخذوني سبيلاً الى حد ما في الخط من كرامة الحكومة والتيل منها : وكل من سالزيرى من القائلين بالتدخل الملحقين فيه . وقد توجهت الى دارى بصحبة هاملتون وأخبرته في الطريق عن فخر ويلسون بالمذكرة الجديدة ورجوته أن يتوصل لى في مقابلة رئيسه وقد حتى على ارسال خطابى الى جرافيل وارسل صورة أخرى منه الى غلادستون . وقد فعلت ذلك في الصباح التالى وكلفت هاملتون بإيصال الصورة . وكان قد هيا لى في ٢١ مارس مقابلة رئيسه في اليوم التالى . وفي المساء تمثيت مع روبرت بورك والجنرال تيل ومراقب حزب المحافظين والقيدى لى وعدد آخر من المحافظين

مارس ٢٢ — كان هذا اليوم من أهم الايام فقد مضى عليّ الآن أسبوعان وأنا بانجلترا ومع انى لم أتهاون أو أهمل في شىء فاني لم أحصل الى الآن على مقابلة

فيس الوزارة . ولكنى قد نلت حق اليوم . فاني ذهبت الى شارع دونج قبل
 بعد المضروب قليل حتى أتمكن من مقابلة هاملتون والتحدث معه قليلا . وقد
 لي هاملتون ان الرئيس قد قرأ خطابي وبعده ما كانت الساعة ١١ والدقيقة ٢٠
 استقبلني الرئيس . وقد لاحظت ان مسر غلادستون قد تحسنت صحته فهو يجلس
 الى أنه أصغر وأصح عافية مما كان منذ سنتين . فقد رأيته في ذلك الوقت وشعرت
 كأنه في المبوط أما الآن فهو نشيط الجسم متعته الدهش . وقد استقبلني بكل نشأة
 وود . وكان خطابي الذي أرسلته للورد حراويل أمامه على المنضدة . وكان على
 ما يظهر لي مشتاقا لسامع ما ألقه عليه . وقد سألتني أن ألقى اليه بجميع ما عندي
 وأخذ يستمع لي دون أن يتكلم . وكل اصفاؤه لي بما فيه من العطف والتشجيع
 يمتثل لي على أن أتكم بسهولة بل فصاحة لم أعدها قبلا . وكنت أرى دلائل
 الاهتمام بادية عليه في كل كلمة أقوم بها . وقد تركني نحو ربع ساعة لا يقاطفني
 الا بنحو هذه العبارة : « لا تخبرني عن هذا فاني أعرفه » وذلك عند ما كنت
 أريد أن يؤمن بحقيقة الشعور الوطني في مصر . وقد ظهر لي منه أنه كان قلبا وقالبا
 مع الوطنيين .

ثم سألتني عن موقف الجيش والسبب في ظهوره في المسائل الوطنية فانه توجس
 من هذا الظهور . فأوضحت له تلويح الحركة وأكدت له ان ما قيل عن تدخل الجنود
 قد بولغ فيه وان تلك الرواية القتالة بان الجنود كانوا يتوعدون النواب وبرهونهم
 من الروايات المختلفة وقلت له أيضا ان الاستعدادات الحربية الحاضرة ليس لها
 من غرض سوى الخوف من الاعتداء والتدخل . وأوضحت له موقف الحزب نحو
 الحديو توفيق والحديو المعزول اسماعيل والامير حليم . فسألني عما اذا كنت قد
 أنضيت بكل هذه الاخبار الى الورد جرانفيل . قلت له : « ان الورد جرانفيل
 منعتني من اخباره بهذه التفاصيل بقوله في ابتداء حديثه ان اسمعيل قد اشترى عراقي .
 فاذا كان يمكنني أن أقول له ؟ »

وفي هذه اللحظة دخل الينا شخص يقول ان الورد حراويل في المنزل فحشيت
 جداً أن يأذن له مسر غلادستون في الدخول علينا لان دخوله كان بمنعني من تميم

قصتي . ولكن المستر غلادستون خرج بمنعاً ومرح لورد جرانفيل وعاد الى وهو بفرك يديه فعل من مخلص من ثقل . فكانت اشارته هذه تشجيعاً آخر لى فأخذت فى الحديث فذكرت وقدمت اليه جميع رسائل عرابي عن الأبحار الرقيق ومشروعات الاصلاح الأخرى ثم جعلت أشرح له مركز ماليت وكولفن فقال لى بلهجة التأثر : « ما ذا نستطيع أن نفعل ؟ انهما موظفان محترمان وقد نالا الأوسمة لخدمتهما فى مصر » وأخذ يلع ويكرر ذكر لفظة الأوسمة . ثم سألنى أن أخبره شيئاً عن زعماء الحزب الوطنى من غير الحنود فشرحت له أحوال بعضهم مثل الشيخ محمد عبده واحمد محمود وسعد الله حلي وحسن شريفي وآخرين من النواب وكان آخر من ذكرت له عبد الله بديم الصحفي الخطيب . وكان وصوى لهذا الاخير بأنه « صحفي خطيب » قد لفت نظر مستر غلادستون فكتب اسمه على ورقة صغيرة امامه . ومضياً فى الحديث حتى كانت الساعة الثانية عشرة حيث كان عليه أن يقابل بعض الزائرين . فأكون قد قضيت معه أربعين دقيقة . فما كان أسرع هذه الدقائق . وعند ما خرجت التفت اليه وسأته لحظاً خطر لى عما اذا كان يأخذ لى بأن أرسل لعرابي خطاباً أجيبه فيه عن لسانه عن الرسائل التى أرسلها اليه . ففكر قليلاً ثم قال : « كلا » ثم قال فى تدبر وروية : « ولكنك تستطيع أن تخبره عما فهمت من احاسى نحوه » ثم غير لمجته وقال كأنه يخاطب مجلس العموم فكلز كلامه عندئذ مخالفاً لهجته الشخصية التى كان يخاطبني بها : « اذا أراد (الوطنيون) أن يحكموا على موقفا فليهم أن يقرأوا ما قوله فى البرلمان وبخامة ما أقوله أنا لاني أعنى تمام العناية بما أقول فى البرلمان . ونحن فى رسالتنا الرسمية مقيدون برأى أوروبا ولذلك لا نكون هذه الرسائل مطابقة للآراء الحرة فى مصر . فليهم أن يقرأوا خطباً » ثم التفت الى المضددة وأخذ ورقة قد كتبت عليها رسالة موقفة فنظر فيها ملياً وشعرت كأنه يريد فى أن يرينها ولكنه ألقاها على المنضدة . وقد شعرت أيضاً ان هذه الرسالة مما لى أعبرنى ولون انه قد هيات ليرسل الى مصر . ثم عاد الى بشاشت وشكر لى ارسالى الخطابات اليه ورجا الى ان أرسل ما يتجدد من الاخبار . وعند ما سلم

على وأيت في وجهه وانفذه من العطب ما كاد يجعلني أسنمبر فخرجت وأنا أحس
أن كنت في حصرة رجل طيب وعظيم معاً وصرت أنعجب كيف يصل مثل هذا
الرجل الطيب الى مركز رئاسة الوزارة . وصرت أقول « الحمد لله ، الحمد لله ، نصر
من الله وفتح قريب » .

هذا هو غلادستون الذي رأيته في ذلك اليوم : رجل به طف عطفاً كبيراً على
كل ما هو طيب ومن يراه يقسم انه لا يجيد قيد شمة عن محبة الحق . ولكن
كل من في شخصه غلادستون آخر هو السياسي الوصولي الذي يفتم الفرس والذي
قد كتب على أن أراه « يلعب الأعيب هوجاء ، تجمل لللائكة التي في السماء
لا على تيكى » .

واليك وصف ما عرفته عنه مدة العشر السنوات التالية :

كل غلادستون ذا شخصيتين . فكل من جابه الانسان بسر الناظرين ويجذب
اليه قلوبهم وكان كبير العطف اذا أحب شيئاً أسرف في صرف حماسته عليه . وكان
مع ذلك متواضعاً حتى مع أولئك الذين كانوا أقل منه مكانة فكانوا بذلك يجيرون
على حبه والولاء له . وكان في خلقه أشياء من الضعف لم تذكر في التراجم التي ألقت
عنه وكانت هذه الاشياء تجعل الناس يحبه أيضاً . وكان الشباب أكثر الطوائف
نطقاً به وكان الناس يحبه أيضاً لهذا السبب .

أما حياته العمومية فكانت زوراً وغشاً كما هي حياة جميع العظماء من رجال
البرلمان فان الخدع البرلمانية كانت قد انطبعت فيه . وكان قد شرع في تعلمها أيام
كل طالب في المدرسة فلما بلغ من الثلاثين صار مقياس الحق والباطل في نظره
أصوات البرلمان . وكانت مراعاته لهذه الاصوات تضطره الى أن يهمل ميوله
الشخصية حتى اذا بلغ آخر سني حياته صارت ميوله هذه أشبه شيء . بأذواق منها
بمبادئ . فكل من يشعر نحوها كما يشعر نحو الموسيقى أو الصني أو سائر التحف ،
يميل اليها ولكنه يقيد احساسه نحوها بما يشعر انه واجب الاكثرية البرلمانية .
وقد كان هذا السبب الاخير في جميع أعماله بل ضميره الحق الذي كان يضعه له
جمع أمانه العليا . ثم أن حياته العمومية الطويلة قد ولت فيه نوعان الخدع اللذان

الذى يتولد عند المثالين . لانه لما كان مصطراً الى التثليل والظهور بغير المظهر الذى بهواه أتى عليه وقت صار يستطيع فيه أن يتخلق بأى خلق شاء .

فلما اتفق أن وجد نفسه مصطراً الى السير على خطة جديدة لا تتفق عمد الى نفسه فأغراها باعتقاد أن هذه الخطة ليس فيها ما يضره . وأخذ نفسه بذلك حتى يؤمن بما يقوم ويؤلف فى سبيل ذلك جملة أو عبارة يكسب بها رضا نفسه . ومن هنا كان عدم شعوره بالمناطات . فكان مثله كمثل الطفل فى احدي قصص دكنز اذا أراد أن يمثل دور عطليل دهن جلده بالسواد . هذا وأغلى فيها قلته لم أشط فى تقدير غلادستون . والحق ان أعماله فى هذه السنة وخيائنه للقضية المصرية يشتان كل ما قلته وهنا يمكن اختصار ما حدث قبل عيد القيامة فى لندن . فاني ذهبت لقضاء عدة ايام فى كرايت لاشغال خاصة بي ولكن هذا لم يمنعنى من مراسلة أصدقائي مثل عرايى ومحمد عبده وتديم وكنت أحرهم عن نجاحى مع غلادستون وأتوصل اليهم لكي ينصروا فى المواقب . وفى ٢٦ منه تسلمت خطا من باتون وفى الخطاب رقعة من أحد ذوى المناصب العليا . وقد وجدت هذه الرقعة لاتزال بين أوراقى وهى قصيرة وكيرة الدلالة فلذلك أرى من المفيد أنبأها هنا :

« ٢٢ منه . اتى فى أشد الاشتياق لكي يذهب مستر بلنتون وخابل فاني روتشيلد الذى لا يحتاج أحد الى ايصاح مصالحه فى مصر . فانه يكثر من الذهاب الى وزارة الخارجية والى مستر حرافيل . وهو فى هذا العمل » بموت كل يوم « كما قيل عن القديس بولس . وانه ليقدم الجميع خدمة عظمي اذا هو استطاع ان يوفق بينهم . وقد رغب إلى أن أسأل عما اذا كان مستر بلنت يمكنه ان يتشدى فى نيوكورت يوم الجمعة الآتى الساعة الاولى بعد الظهر فليقبل اذا استطاع . فان هذه المقابلة تكون مفيدة من عدة وجوه » .

فهنا يجد القارىء لب الموضوع فان فرض روتشيلد كان يبلغ تسعة ملايين جنيه وكان لاسرة روتشيلد وحدها نصف هذا المبلغ وكان المعتقد أن هذا المبلغ قد أصبح فى خطر الضياع فى مصر . وبناء على هذا ذهبت الى لندن فى ٢٧ منه وهو اليوم المتفق عايه ومهي باتون . ولكن لسوء الحظ وجدت ان فاني روتشيلد قد سافر

خرج انجلترا هذا اليوم لان أحد ذوى قرباه كان مريضاً . فلم نجده ولكنني وجدته قد ترك لي رقعة برحوني فيها أن أكتب له آرائي . ولقد أسفت على هذه المصادفة التي منعت التقائي به لان مثل هذا الالتقاء كان يكون لذيذاً وان لم يكن يؤثر على آرائي . ولقد أخذت بعد ذلك أنصعب من معنى « أن يوفق بينهم » وماذا كان يقصد من هذا التوفيق . وقد خاضرتني الشكوك بان الغرض الحقيقي كان ارشاد عرابي بعدد من الاسم حتى يتخون ملاده . ويظهر انه قد عرض على عرابي مثل هذا الغرض بعد ذلك بشهرين عن سبيل أخرى . ولم ينتج عن هذه الزيارة سوى أني كتبت مذكرة مطولة لا يمكن اثباتها هنا لطولها قلت فيها ان المساعمين يخسرون بالحرب مع مصر أكثر مما يكسبون وان مصالحهم هي في قبول الثورة كما هي فليسكنوا اليها . وقد علمت بعد ذلك ان روثيلد بعد أن كاد يقتله المم أيام ضرب الاسكندرية وهو يعتقد وقتئذ ان أمواله قد ذهبت عاد لما استردها باكليها ذكري بالسوء . ويقول اني نبي كاذب . ولكن هذا لم يكن ليهمني . فان مذكرتي إنما كتبت في مصلحة للدينين المصريين لا في مصلحة الدائنين .

وقد كتبت في ٢٨ منه في مذكراتي شيئاً على عقيلة كتاب جريدة التيمس . فقد ذهبت الي ادارة هذه الجريدة أول مرة في حياتي وكان باتون أيضاً دليلي . فرأينا هناك مكدونالد مدير الجريدة وخطابه بشأن ارسال مكاتب الجريدة في القاهرة برسل اليها آراءه مستقلاً عن أي تأثير وفكرنا في مكثري وولاس متقدين انه يستطيع ان يقوم بهذه المهمة . ولكن مكدونالد كان اسكتلندياً يعرف قبة اللال فلم يوافق على هذه المغامرة المالية . وقال لنا انه راض كل الرضا عن الاخبار التي تصل اليه من سكوت المكاتب في الاسكندرية . ثم قال ان للانجليز مصلحتين في مصر هما قناة السويس وحصة الاسهم وآراء سكوت من هذه الوجهة لاغبار عليها فاعدا هذا لم يكن يستحق اهتمام التيمس . ومع ذلك قد شكر لي ما كتبت اليه من الخطابات وهي خطابات لم آخذ عليها أجراً ولقدك هم بشكروتي كل الشكر عليها وسينشرون لي كل ما أسأله اليهم . ولكن ليس هناك حاجة لارسال مكاتب خاص .

ولكنى الى ذلك الوقت لم تكن قد داخلتى الشكوك فكنت الى امدقائى
فى القاهرة مسياً لم فى الاخبار السارة . اذ ما كنا نحشى وعلا دستون قد انضم الى
صفوفنا . وكل ما سألتهم أن يربثوا حتى تعمل الهمم اللجنة التى طلبت ارسالها
وهناك ما يدل على أن لورد جرافيل لم يكن صادق البية فى تنفيذ الاقتراح
أو أن من قاموه فى وزارة الخارجية مثل ذلك لا غير . فقد كتب الى فى الرابع
والعشرين من الشهر بألتى أن أتناول الغداء معاً لكى تحدثت معه بشأن اللجنة
ولكن لسوء الحظ — وربما لم تكن المسألة قاصرة على الحظ — لم تصلنى الدعوة
الا بعد ان فات ميعادها .

وهذه مناورة تكرر حدوثها فى الاسبوع التالى . هذا والكتب الزرق تذكر
خير مفاوضات لم تنجح مع فرنسا . وكان الغرض منها بحثاً جديداً للحالة . ولكن
المفاوضات وقفت وعاد لورد جرانفيل الى طريقته المألوفة فى عدم الركون الى
الحل والعزم . ولم تمض عدة أسابيع حتى كانت العجاس قد انتهت بالفاية المقصودة
منها فى القاهرة فى احداث القلاقل الجديدة وصارت مصاعب التوفيق أشد مما كانت
وكنت أكثف فى هذا الوقت أين سكرتير جمعية منع النجاسة . وهو رجل
ذو جدارة وإن يكن محدود الآراء . فقد انتقدي سير وليم مورفى جريدة التيس
لأنى قلت فى أحد خطابانى أن برنامج الحزب الوطنى فى مصر يتضمن محوماً بقى
من تجارة الرقيق فأخذ يبرهن بواسطة مقتبسات من القرآن على أن الرق من
العادات التى كانت ولا تزال ضفة دينية فى الاسلام . وقد وجدت أن أين قد
غضب غضباً شديداً لقولى بأن عرابى يطلب الفاء الرقيق الذى كان أين يعتبره
من الاعمال الخاصة بجمعية منع الرقيق وحدها . فكلن غضبه أشبه شىء بغضب
صاحب كلاب الصيد التى قد وبضت على صيد الثعالب عند ما يجد أحد المزارعين
يقتل ثعلباً بنفسه . فإن من آرائه أن محو الرقيق شىء لا يخص المسلمين إذ ماذا
تكون فائدة الجمعية اذا فعلوا ذلك ؟ وعلى أى حال هنا هو الأثر الذى تركه فى
ذهنى مناقشتى معه .

وقد وجدت أيضا ملاحظة في أول إبريل بشأن مقابلة ولي العهد الذي رغب
 أن أتحدث معه . وكان رب البيت في تلك الليلة هو إرد فسنت ولي العهد
 الحليم . ولكنني لم أتمكن من الذهاب إلى هذا المشاء الذي كان يمكن أن يكون
 ذا أهمية لي . وسبب ذلك أنني كنت على ميماد مع الاميرة لوزاف لورن في ذلك
 المساء فلم أرغب في إحلاف وعدى لها . ومع ذلك فقد ذهبت إلى منزل فسنت
 والتفتت بولي العهد بعد ذلك وتحدثنا معاً عن شؤون مصر ولكن الحديث لم يتناول
 للوضوعات التي تهني أهمية خاصة .

والى هنا يمكن أن أعتبر أن حلتي الأولى في سبيل مصر قد انتهت . فقد
 سار كل شيء على الرغم من العقبات الكثيرة . نحو شر دعوتي . وتقبل الجميع
 دعوتي عن الوطنية المصرية تقلاً حساً في كل مكان وحفقت أصوات القائلين
 بالتدخل . وكان رجائي في بعض الأحيان عظيماً جداً لأن باتون كان يؤكد لي أن
 اللجنة التي اقترحت إرسالها لمصر قد تقرر إرسالها بالفعل وذكر اسم الشخص الذي
 انتدب لذلك ولكن وأسماءه . كان هذا الخبر إشاعة ليس غير . ثم جاءت أحارة
 العهد ففادر الناس لندن وبما أن عادوا حتى فأحاناً المؤامرة الشركية . فكانت
 بداية النهاية المشؤومة

الفصل الحادي عشر

المؤامرة الشركية

يمكن القول . أن يحكم على الحال الحسنة في مصر في الأسبوع الأول من
 شهر إبريل على الرغم من اشاعات القلق التي فشت في أوروبا بمخططين كنهها لي
 عراقي وبخطاب آخر أرسله إلى الشيخ محمد عبده . هذا وإن الخلق العظيم الذي
 يمتاز به الشيخ محمد عبده لزومه الحقائق ثم هذا المركز السامي الذي يملأه الآن في
 مصر وهو منصب الافتاء الشرعي كل هذا — يجعل لشهادته قيمة تاريخية
 لا يبالغ الإنسان معها قال في مدحها . وهذه الشهادة يصح وصعها بحجاب الكتب

الورق لادحاض أكاديسها المختلفة . وكان في ذلك الوقت رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية ومديراً أقلم المراقبة الصحفية وكل من مركزه . هذا يجعله على علم بما يدور في الوزارة الوطنية . بحيث لم يكن ماليت أو كولس أو أى أوردون آخر ليدعى مثل معرفته بهذه الشئون . فلهذا الاسباب ألفت نظر المؤرخين الى هذه الوثائق :

القاهرة في أول أبريل سنة ١٨٨٢

الى الصديق المحترم المخلص الجليل السيد ماسر وفرد بلنت نصح الله مساعيه
بعد حمد الله غالب الاقوياء وناصر الحق أخبرك بان خطابك رقم ١٠ مارس
قد وصلني وسرني غاية السرور ولا شك في ان كل رجل حر الصير يفرح برؤية
من هم مثلك من الصادقين في القول والعمل الذين عقدوا نيتهم على انقاذ مشرعناهم
التي يرمون بها الى منفعة النوع البشري عامة ومنفعة بلادهم خاصة

هذا وان محتويات خطابكم تدل على اسمكم قد شفقتكم بحرية النوع النشري
واسمكم تفعلون جهدكم لخدمة مصالح أممكم الانجليزية وذلك لطعامكم بأن هذه المصالح
وبخاصة تلك التي في مصر لا تكون مضمونة بأمانة الا اذا كان المصريون أحراراً
فيكسبون بذلك ودهم . ومن الواجب على الانجليز الاحرار ان يساعدوا اولئك
الذين يجهدون في سبيل الحصول على استقلالهم وعلى الاصلاح وعلى إيجاد حكومة
عادلة وحمودك الحديرة بالشكر ستكسبك بلا شك اسما شريفا بين أبناء وطنك
عندما يعرفون السكينة التي كشفت بها القناع عن المفترقات التي أذاعها أناس
ذوو أغراض .

واما بخصوصنا فنحن نشكر الخدمات الجلى التي أدتها مصر وانجلترا معاً .
ونحن نرجو لانجلترا أن تكون أقوى الامداد لمساعدتنا في إيجاد نظام حسن على
أساس الحرية ففسر عندئذ على عرار الامم المتعددة الحرية . ونحمد الله فاننا سنرى
تقريباً نجاحك في حمودك ولهذا نقدر وصولك سالماً لبلادك فألا حساً لنجاح المتظر
أما بخصوص النصيحة التي زودتنا بها فنحن نشكر ونفخر باننا لا نقصر في
حفظ النظام والهدوء لاننا نقدر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك ان كل شيء هنا
هادئ . فالهدوء والسلام بسودان البلاد ونحن واخوانا الوطنيون مدافعاً مانعاً

ما يمكننا عن حقوق جميع السكان بصرف الطار عن الامة التي ينتمون اليها . ونحن
نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لاحد بمساسها ما دامت
قودنا نحفظ ونرعى علاقاتنا الودية معنا .

اما عن تهديدات الممالين واصحاب المصارف في أوروبا فاننا نتقبلها بالعزيمة
والثبات . واعتقادنا ان هذه التهديدات تعود عليهم وحدهم بالاذى وتقر الدول
الى تسخدد بأقوالهم .

وغايتنا الوحيدة هي تخليص البلاد من الصودية والطلم والحمل وان نرفع السكان
الى مركز لا يمكن فيه الاستبداد ان يعود كما كان في الازمنة الماضية يشر الحراب
والدمار في مصر .

ان هذا الذي اكتبه اليك هو ما يخطر في كل مصري عاقل يجب حرية بلاده
ولرجو ان اقدم نسلياني لروحك الطيبة واجل نحيات صديقك المحللص «

احمد عرابي

القاهرة في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز مستر وفرد بلنت

بعد حمد الله لما أنالنا من الحرية والاصلاحات التي أنعم بها علينا أخبرك اني
قطعت خطابك الثاني بعد ان أرسلت لك جوابي على خطابك الاول . وأنا استهز
هذه الفرصة لكي أكرر لك نشكراي الخاصة لمساعدكم الحسنة . واني أعتبر من
واجباتي كما هو من واجب جميع الناس ذوي الضائر النقية أن أشكرك لما أدتيه
من الخدمات العظمى . وفي الاعتراف بالصنيعة توثيق الصداقة بين الافراد وكذلك
بين الامم . فمن ميلون أشد الميل الى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدول
المرتبطة بنا وليس للدول ذوات المصالح في بلادنا من سبيل للاتفاف بمقودم
ومساعدتهم الا اذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة . فاذا قطعت هذه الصداقة
فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبنحاسة انجلترا وليس هناك
سيليبي كبير الادراك الا ويفهم قيمة المنافع التي تعود على انجلترا من صداقتها لنا
وموئتها ايانا في كفاحنا .

أما عن المراقبة فيجب ان تطشوا وتعرفوا أنها لن تجد منا ما يطلها عن تأدية واحباتها حسب الحقوق التي خولتها إياها المعاهدات الدولية . هذا ولم تكن قط مقاصدا أو مقاصد أي اسان في هذه البلاد ان نغس المراقبة وقلل حقوقها أو نعتدى على المراقبة الدولية .

فإذا كان يمثل الدول في بلادنا يؤدون واجبهم كما ينبغي لهم وبراعوا مصالح بلادهم فاحسن ما يفعلونه أن يعاونونا على تحقيق أمانتنا فيثبتون بالعمل ما يمدونا به بالقول اننا قد برينا نية صادقة على ان يكون لامتنا مركز بين الأمم المتعدية بنشر المعارف في البلاد والمحافظة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين ولا يمكن لشيء في العالم ان ردنا عن قصدنا قيد شعرة . فلن نحشي الوعيد أو التهديد ولن نخضع الاحكام الصداقة التي قدرها ونكبرها .

أما عن المدعو في مصر فنخبرك انه ليس هنا أي قلق . ونحن الآن نحاول ان نحمو الآثار البينة التي ركنها لنا الحكومة السالفة .

اما عن الاستلة التي وجهتها البنا فقد أرسلنا بواسطة الشيخ محمد عبد بالتفراف . والحق ان جميع الاشاعات المنتشرة في أوروبا بخصوص الاستعدادات الحرية العظيمة لا أساس لها البتة . فان المصروفات على الجيش لم تزد بارة ولم تنقص درهما عما كانت عليه سابقا . فهي الآن طبق ما كان قد تقرر في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ في عهد شريف باشا . فيجب ان نطمئن ونعرف ان هذه الاشاعات مقررات بروجيا أناس لا ضمير لهم ، وانه لما يؤسف له ان نجد للاكاذيب مجالاً واسعاً في صفت أوروبا المتعدية .

ونحن ندعو الله ان يرشد ساسة أوروبا المفكرين الى مواطن الحق حتى يعرفوا حق المعرفة حالة بلادنا . وبذلك يخدمون بلادهم وبلادنا معاً لان في علمهم هنا توثيقاً للروابط الحسة . ونبتهل في الختام الى الله ان يمتعنا ببركات السلام وحسن الاخاء .
احمد عرابي

وكان هذان الخطابان ردين أرسلهما لي عرابي عند ما بعثت اليه أخبره عما لاقته من شعور غلاستون نحو الحركة الوطنية في مصر . وقد أرسلت ترجمة هذين

الذين عد وصولها الى مستر علاستون . وكنت أظن أن مستر علاستون لو كان قد اطلع على هدى الدين لكان صرف اليها انتباهه . ولكنه كان في ذلك الوقت بعيداً عن لندن وقد شغلته أشياء أهم مما كان فيه — أعني أشياء تهدد كيان الحكومة — وهي الثورة في أيرلندا . ثم لم تسنح لي الفرصة لرؤيته أو رؤية هاملتون حتى انتهت احارة العيد حوالي آخر الشهر . وفي أثناء ذلك دخلت المسألة المصرية في طور خطير وذلك بسبب المؤامرة الشركسية التي وصلت أخبارها الى لندن في الاسبوع الثالث من شهر ابريل . ولم أعن العناية الكبيرة بهذه المسألة عند أول ظهور أخبارها معتقداً بأنها إحدى المفتريات التي تنشر عن مصر . ولكن الاحوال أثبتت أنها خطيرة تستدعي الانتباه . ولم تكن خطورتها متوقعة على حدوثها من حيث هي بل من حيث أنها كانت فرصة لحكومتنا لتقربها لكي توقع الخلاف بين الخديو ووزرائه . وكان مايلت قد خضع تمام الخضوع لكونلن في هذا الوقت وصار ينتصح بنصحه ويسير على هواه .

وأصل هذه المؤامرة هو بلا شك الخديو اسماعيل . وأنا أعرف هذا من جهة مصادر أحدها إبراهيم بك المولى بى سكرتيره . فان اسماعيل كان وهو في نابولي يدبر حركة عصابته في القاهرة وكان يرسل بواسطة هذه العصاية نصائحه الى ابنه . وكان وكيله رجلاً يدعى راتب باشا الذي كنت قد سمعت عنه في الحريف الماضي بأنه عدو الوطنيين الأتراك . وكان هو واسطة المؤامرة . وكان التدبير ينطوى على ايجاد حركة رجعية بين الضباط الأتراك في الجيش لمقاومة الفلاحين . فغرابي وسائر الضباط الفلاحين بحكم عليهم بالاعدام . فيؤدى هذا الحكم الى ايجاد حركة أخرى بين الضباط الفلاحين وبحصل التصادم فإذا جرى كل ذلك وأدى الى خلط هرج ومرج ووجد اسماعيل ثغرة يدخل منها الى مصر ويمود على عرشه . ولقد كنت أنا مقتنعا تمام الاقتناع بأنه لا أمل لاسماعيل في تحقيق هذا المشروع ولكن القارىء يذكر أن ريجرز ويلسون كان يعتقد امكانه بل هو صار يفكر في وجوبه باعتباره شيئاً مرغوباً فيه للتخلص من ضعف توفيق الذي لم يقدر على حمانه المراقبة وكان توفيق متردداً بين سبيلين فلما أن يسير مع الوزارة الدستورية وعراقي

الذى صار الآن يغار منه أشد الغيرة واما أن ينضم إلى الرجعيين الاتراك ولو كان في هذا امكلى رجوع والده . وكل شريف وماليت يشتغلان معاً وصار منزل شريف مركزاً للدسائس التى كان يوحىها اليهما كوفى لاسقاط الوزارة . ولست أقول ان كوفى أو ماليت أو شريفاً نفسه كانوا يعرفون المؤامرة ولكن كان من المعروف المشهور أنهم كانوا يرمون الى وجود أى حزب برى الى قلب الوزارة وكان هذا مما زاد ثقة المتآمرين . ومع ذلك قد وصل خبر المؤامرة الى عرابى قبل ما يتحقق . فقد حاول المتآمرون أن يقتلوا عبد المال بك قبض عليهم فى الحال وحبسوا . والقارىء يجد فى الخطاب التالى الذى أرسله الى الشيخ محمد عبده فى ٢٥ ابريل تفاصيل هذه المؤامرة وأخباراً أخرى مفيدة :

« أما عن ترقية الموظفين التى تلغى فيها الصحف الأوروبية فاسمحوا لى بأن أوضح الحقائق . فأقول أولاً أن هذه التريقات لم تعمل بنا . على أمر عرابى باشا وحده ولم تكن بمثابة الرشوة لضباط لا كتاب عظمهم نحو عرابى . كلا . فالواقع أن هذه التريقات عملت بنا . على القانون الحربى الجديد الذى يأمر بإحالة الضباط الذين يلقون سنامعية أو يمرضون ويصابون بعاقة على المعاش . وقد نفذ هذا القانون فى عهد شريف باشا وأحيل على المعاش ٥٥٨ ضابط . ثم أرسل ٩٦ ضابطاً الى حدود الحبشة وزيلع وأما كن أخرى . بينما قد أخرج من الجيش نحو مائة ضابط توظفوا فى الوظائف المدنية . فعدد جميع هؤلاء ٧٥٤ ضابطاً . فكان اذن من الطبيعى أن تحصل تريقات لمل . الوظائف الحالية . ولا يزال فى الجيش خمسون وظيفة قد حفظت للحزبى المدرسة الحربية .

« والآن أريد أن ازيل من العقول هذا الوم السائد فى ادعاء البعض أن عرابى أو الحزب الحربى أو الحزب الوطنى آفة فى يد الاتراك . فإن كل مصرى سواء أكل من العلماء أو من الفلاحين أو الصناع أو التجار أو الجنود أو الموظفين أو السياسيين أو غير السياسيين يكره الاتراك ويقت ذكراهم . ولا يستطيع مصرى ان يفكر فى زول الاتراك فى بلادنا بدون ان يشعر بعاطفة قوية تدفعه الى امتشاق سيفه والمجرم به على هذا المعتدى .

ان الأتراك ظلة وقد تركوا في بلادنا من آثار السوء، ما لا تزال قلوبنا تضرب منه ضربان الحرج . فلنا نريد رحمتهم ولنا نريد ان تعود الى معرفتهم . وكفى الأتراك ما لهم من حقوق الغرمانات . صلبهم أن يقموا عند هذا الحد ولا يتعدوه . ولكنا إذا علمنا بأنهم يحاولون دخول بلادنا فاننا نتلقى هذا الخبر بشيء لا يخلو من الترحيب . ولقد شعرنا نحن بشيء من هذه النية عند الأتراك ولكن هذا الشعور سبب استهدادنا . فاننا نستفهم هذه الفرصة لكي نحقق استقلالنا التام . هذا وساسة البلاد وقادتها يترصدون الحركات الأتراك في مصر وسيفوتونها إذا رأوا انها قد عدت طورها . ولست أنكر ان في مصر أنراكا وشراكة كسبة يدفعون عن الباب العالي ولكنهم قليلون في جانب أولئك الذين يحبون بلادهم

« هذا وبخصوص المؤامرة التركبة لاغتيال عرائس أحبركم انها ليست ذات خطر فان الخديوي اسماعيل قد مصت عليه مدة طويلة وهو يصمم الاقام لكي يدمر حكومتها وهو يعتقد ان هذا العمل يرجعه الى مصر . ولكن الله القدير قد دد آماله في الهواء . لان كل مصري يدرك ان رجوع اسماعيل لا يعنى سوى خراب مصر . فهذا الفرعون قد أرسل الى مصر أحد المغيين وهو راتب باشا الذي حصل علي إذن بدخوله مصر بوساطة سرية في عهد شريف حيث اتصل بأخيه محمود افندي طلعت البكباشي ثم استخدم ايضاً يوسف بك نجاشي ومحمود بك فؤاد ساحت خسرو باشا وعثمان باشا وفقى « وكل من هؤلاء شراكة » وهؤلاء أخذوا في نشر دعوتهم وهي قتل الوزراء . الحاليين ثم قتل كبار الضباط في الجيش . ولكن هذا الحزب . الاخير قد اضطروا الي تأجيله حتى يجدوا من الاعالييل ما يبررون بها عمله . ثم حدث ان تسعة من الضباط «شراكة رفضوا الذهاب الى السودان . فأخذت عصابة راتب باشا في انغراء هؤلاء الضباط واقترحت عليهم أن يرفضوا الذهاب الا بترقية

« وكانت الوزارة تعرف منذ زمن شيئاً عن هذه الحركات . فهد مجي . راتب باشا الى مصر كان محمود سامي رئيس الوزراء . الآن ودرراً للحرية يطلب من شريف باشا أن يبعه الى خارج القطر . وانكى شريف على الزعم من تحدير محمود سامي

رفض أن يأمر بعبه وسب ذلك أن رانا دوج أمة شريف باشا والعض يطن أن
الاثنتين متواطئان علي وجوع اسماعيل

« وحدث أن عصاة راتب دعت ضابطاً شركياً يدعى راشد أنور أفندي
لسكي ينضم فإني أن تكون له بهم أبة علاقة . فلما ترك المتأمرين قام
نوراً وذهب إلى عرابي وكشف له المؤامرة . فألقى القبض عليهم وقدموا
للمحاكمة العسكرية

« وقد أحدثت هذه الحادثة قليلاً من التهج بين العامة . والجميع يعرفون
أن حياة عرابي مثل حياة أي إنسان آخر . وليس بين الناس أحد معها كان عطياً
يستطيع أن يجذب إليه قلوب الجميع دون أن يكون بينهم من يريده سوء .
ولكننا جميعاً نضحك إذا قيل لنا أن المجترة على وشك الفوضى لأن أحد المجانين
قد حاول قتل الملكة

« أن عدد الشراكسة في الجيش لا يزيد عن ٨١ صابطاً ولا يمكن عاقلاً أن
يتصور أن مثل هذا العدد قادر على قلب الحكومة

« أما عن تجارة الرقيق فنبلشكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بحمد في إلغائها .
والدين الاسلامي لا يعارض في هذا الالغاء بل بالعكس يرى أن أوامر الدين غنم
اتخاذ الرقيق الا من الكفار الذين يقاتلون المسلمين . فالعبد هو في الواقع أسير قد
أخذ في حرب مشروعة أو هو أحد أفراد أمة ليست على صفاء في علاقاتها بأمراء
المسلمين وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفات تحميها . رد على ذلك أن
الكافر الذي ينتمي الى أمة متحالفة مع أمير مسلم لا يمكن أن يؤخذ في الرق . ومن
هذا يتبين لكم أن الدين الاسلامي لا يعارض في إلغاء الرقيق ، كما هو الحادث في
هذه الأيام بل هو لا يوافق علي استمراره . وأولئك العلماء الذين لا يوافقون علي
هذا الرأي في المجترة أو غيرها عليهم أن تأتوا بنا ويعلموا نحن شيوع الأزهر
أصول إيماناً فإن مثل هذا العمل يصير من المناظر المدهشة . فإن العالم الاسلامي
بأجمعه سيصعق ويعقد لسانه عند ما يعلم أن مسيحياً قد أخذ علي نفسه تعليم علمه
أكبر حامية اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن

« هذا واستصدر فتوي من شيخ الاسلام اعلاناً بأن الفاء الرقيق يوافق روح القرآن والسنة .

« وستنجد الحكومة المصرية في ازالة جميع العوائق في سبيل هذا الالغاء .
ولي يهدأ بالماحى نحمى هذه التجارة من جميع الاراضي المصرية »
« محمد عبده »

وهكذا فشلت مؤامرة ٢٥ ابريل ولم تكن لتستتبع أى ارتبا كالت أخرى لولا تدخل مالت . فبدلاً من أن يصير الوزارة التي كانت هدف هذه المؤامرة مال لكل عواطف نحو المتأمرين قد حوكم هؤلاء المتأمرين أمام محكمة عسكرية وحكم عليهم بالنفى الى البحر الايصر . وليس هذا بالضربة الماثلة وكثيراً ما حكم بمنالها في عهد المراقبة الثانية . فكتبت مالت خطابات الى لندن يقول فيها ان الضربة لا تقل عن الحكم بالاعدام . وأخذ مكاتب التيمس يفسر قصة مقتراة في جريدته مؤداها ان عراي ذهب الى السجن وعذب أمامه المتهمون . وليس لهذه القصة أساس مطلقاً ومع ذلك قد ألبسها مالت رسالته شيئاً من الوجاهة لانه ذكر ان هذه القصة من الاشاعات الخارية على اللسان وانه سمع صراح من السجن في الليل . والحقيقة ان مالت جعل هذه القصة من الاعايل التي تقدم بها للتحذير للسعاية بين وبين الوزارة لكي يقل قضية المؤامرة من يدم الى يد التحذير بنية تخفيف الحكم الى بني سيطر مع أن هذا العمل طبقاً لقواعد الدستور الجديد لم يكن من حقوق التحذير

ولنعد الآن الي مذكراتي فأقول اني اجدد في ٢٨ ابريل اني ذهبت الى منزل رئيس الوزارة وأنا في أشد الحلق لانه لم يعمل شيء الى هذا الوقت لمصلحة مصر . ولكن هاملتون نصح بالصبر وقال لي ان هناك فكرة ترمى الى ارسال بعثة لمصر تدرس احوالها الآن . وفي اليوم التالي أيضاً هنائي باتون « وقال لي أن هناك ازمة شديدة عن مصر وأن من رأى الباب العالي ارسال الجيوش وخلع توفيق وتولية الامبراطور مكانه واعدام عراي . ولكن الحكومة الانجليزية والحكومة الفرنسية قد معنا ذلك وان عراي سيعاود وسترسل البعثة » وفي يوم الثلاثاء سيكون موعد القاء تصريح من الحكومة في مجلس القوردة خاص بمألة مصر . وحبر نحلل الباب

العالي هو بلا شك أرملة قد أوجدها رتشيلد بمعاونه سيارك . ضد تونزت العلانق
بين الاستانة واخرت الوطني في مصر في الاسابيع الاحيرة وذلك لطروف عديدة
يليق في تفصيلها هنا الآن مع اثبات المكتبات القرية التي دارت بين السلطان
وعراي وهذه المكتبات عظيمة الاعمية لانها تثبت سلطة عراي ونفوذه وظهورها
على سلطة سائر الوزراء.

والقاري، يذكر انه عند ما زارت بشة السلطان مصر في خريف سنة ١٨٨١
لقى أحمد باشا راتب (وهو غير راتب باشا وكيل امبايل) باور السلطان عراي في
القطار عند سفره الى السويس لكي يذهب منها الى مكة . وقد تبادلوا الافكار
والآراء في هذه السمرة وتصادفوا وان باور السلطان هذا قد وعد بان يذكر عراي
بالخير لدى السلطان ويبين له انه مسلم محصل يدين بالولاة للحليفة. وجرت مكاتبات
بينهما على أثر ذلك وعدى من هذه المكتبات أصل الوثيقتين التاليتين. وقد وقعتا
في يدي في وقت محاكمة عراي وقد كتب هذان الخطابان في الاسابيع الثلاثة التي
تلت ودارة محمود سامي في فبراير سنة ١٨٨٢ وكان عراي وزير الحرية في هذه
الحكومة . والخطاب الاول من أحمد راتب والثاني من الشيخ محمد ظافر وهو من
كبار رجال الدين في الاستانة وكل في ذلك الوقت مكلفاً بملاحظة مكاتبات السلطان
السرية . وقد كتب الخطابان بناء على أمر السلطان الشخصي !

« الى وزير الحرية المصرية احمد عراي باشا

« لقد قصصت على جلالة السلطان الحديث الذي جرى بيننا في القطار بين
محطة الزقاريق والمهدية بعد رجوعي الى الاستانة فامرني بان ابلغكم نحياته الشاهانية.
وقصصت على جلالاته ما لقيته من حسن رعايتكم لي ولطف آدابكم في القاهرة وقد
سر جلالتيه غاية السرور لذلك خضعت بذلك رضاء عليكم . وقد سبق ان بعض
الناس أوهموه ولا أدري بأي كيفية ياتكم لا تسبرون على الحق حتى جعلوه يسيء
الطن بكم . اما الآن وقد عرضت عليه حقيقة الحال فاني أقسم لكم ان جلالتيه قد
أسف أشد الاسف لما سبق ان اعتقده خطأ بكم . واثباتاً لذلك أمرني ان اكتب
لكم هذا الخطاب وان أخبركم بما يأتي :

« لا بهم جلالة شخص الحديو . واما على حاكم مصر أن يكون اذكاره
ومياته وسلوكه موجه نحو المحافظة على مستقبل مصر وسيادة الخليفة وعليه أن يحافظ
على ديانة البلاد وحقوقها

« وهذه الواجبات المذكورة يجب على الخالس على عرش مصر . أن يؤديها
وقد عهد اسماعيل باشا ومن سبقه من الولاة الى ارشاد على باشا وفؤاد باشا ومدحت
باشا وسائر من يمثلونهم لدى الباب العالي من الخوة فأخعوا الحقائق ، وأحد ولاية
مصر في البنى والعلم وأصلوا كواهل المصريين بما طلبوه منهم ثم هم فصلوا عن ذلك
قد اقرضوا أموالا جسيمة ووضعوا البلاد تحت يديهم قهرا وان حالة المصريين
الآن لما تدعو الى الاسف والتحسر ولكن المسألة في غاية الدقة وهي تدعو الى
الصراح السريع الواقي . فذلك يجب عليكم قبل كل شيء ان تتقوا كل ما من شأنه
أن يجلب على البلاد اندحار الاخني والاحتجاء عن بحجة الصواب والحق وألا
تسمعوا أقوال الخوة ولكن عليكم أن تحذروا جميع الوسائل بالعناية التامة لمنع
الاحزاب من احداث الفتنة . هذا هو الكبر ما يريه السلطان

« واما اننا سنكتب نحن الانبي في المستقبل يجب عليك ان نحتاج حتى
لا تقع خطايانا في أيدي غريبة . وأسهل طريقة لذلك ان نسلم حطائنا لك لهذا الشخص
الذي يحمل اليك هذا الخطاب وخطاب الشيخ محمد طاهر

« هذا وأزيد على ما تقدم أنه يجب عليك ان ترسل الى اعتبار حلالة السلطان
خفية دون ان يعلم أحد ضابطا من الواقفين على الحقائق في مصر ومن ثمة بهم لكي
يخبر جلالة عن حقائق الاحوال بتفاصيلها

« وأرجوك ان ترسل الرد عن يد حامل هذا الخطاب احمد راتب

« ٤ ربيع الثاني — ٢٢ فبراير ١٨٨٢ »
ياور السلطان

•••

الى صاحب السعادة وزير الحرية المصرية

« لقد قدمت كلا خطايكم الى جلالة السلطان وقد علم من مضمونهما عواطفكم
الوطنية ومقتضيتكم وبخاصة ما ذكرتموه من السعي في رعاية مصالح حلالة وقد طلب

الى حالته لهذا السبب ان أعر لكم عن مروره وان اكتب اليكم ما يلي :

بما ان المحافظة على سلامة الخلافة واجب على كل رجل ذي شرف يحس على المصريين ان يعملوا لتوثيق عرى الاتحاد بين مصر والدولة وان يمنعوا السبل التي تؤدي الى خروج بلادهم من الدولة الى ايدى الاحاب الطامعين فيها كما حصل في تونس . وحالاته بضع ثقته في شخصك وبطلان البك أن تستعمل كل نفوذك لمنع وقوع هذا عليك ان تحترس والا تففل عن هذه القطة وان لا تهمل في اتخاذ جميع الاحتياطات التي يتطلبها رماها الحاضر واصفاً نصب عييك في كل وقت الدفاع عن دينك وبلادك . عليك أيضاً أن تحافظ على الثقة التي أحررها عندنا وأن ترعى الروابط التي تربطك بنا

« ان مصر ذات أهمية كبرى لسكان فرنسا واحتلتها وبخاصة لاحتلتها . وقد حدثت هنا دسائس من رجال هابيس الدولتين يرجون بها تحقيق أغراضهم المعبية السائلة وقد رأوا أن يمدوا شاك هذه الدسائس الى مصر . لحالاته رعب اليكم أن تتيقظوا وتحذروا هؤلاء الناس . هذا ويرى من تلعزافات الخديو توفيق باشا أحد أفراد هذا الحزب انه صعب يتطوحو ورا ، أهوائه . وبلاحظ أيضاً ان تلعزافته متناقضة . وزيادة على ذلك تخبرك ان على نظامي باشا وعلى مؤاد بك قد حلتا حالاته بشأنك وامتدحاك لديه . وقد ذكر احد راتب باشا لحالاته الحديث التي جرى بينكما في القطار بين الزقازيق والمهدية وحالاته يشق كثيراً بأحد ماشا ولهنه المناسبة قد أمرني أن أخبرك بثقته فيك وأن أكرر عليك ضرورة الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يكون سبباً في تدخل الاحاب بأي وجه .

« اما الأوامر التي سيتلقاها راتب باشا في هذا الصدد فنرسل اليك على حدة وقد كتب هذا الخطاب والخطاب المرسل من احمد راتب باشا احد سكرتيرة حلاله ووضع كل منا ختمه عليه كما وضع ايضاً ختم على كل ظرف

« ثم أخبرك بصفة مربية خاصة ان جلالة السلطان لا يثق باسحبيل او بحليم او بتوفيق ولكن الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر ودية العلاقات التي تربطها بالخلافة والذي يحترم حلاله ويراعي الفرمانات والذي يؤكد استقلاله في الاسطة

وعبرها والذي لا يدع الرشي للموطنين . والذي لا ينحرف قيد شعرة عن واجبه
وأي يعرف أساليب الدسائس الأورويغوييخاط لها ويحافظ على اللادامشروورها
مثل هذا الرجل بسر جلالته ويحبد قلبه قبولاً

« ثم أرحوك الا تؤاخذني اذا كنت قد احتضرت القول في هذا الخطاب من
احمد راتب باشا قد وصل الي هنا منذ ثلاثة أيام وأخير جلالته عن ولائكم حتي
وثق بكم جلالته تمام الثقة . وهذه التعليمات المذكورة ها قد نسلتها امس فقط .
وابي آمل أن أرسل لك في بريد الاسوع الآتي خطاباً أكبر تمصلا من هذا .
وعلى كل حال يجب ان تحدد لثلايق أحد الخطابات في أيد عربية وليكن لك
رسول خاص . ويحس أن نرسل الرد بواسطة حامل هذا الخطاب

خادمك — محمد طاهر

« ٤ ربيع الثاني

٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ »

هذان الخطابان عطيا الأهمية التاريخية واداد لى أن أطلع مذكراتي فاني
أصعب صورهما القنوعرافية ارا . رجتها . هما يوصحان ماحدث بعد ذلك في يونيه
وقت بعثة الدراويش . واذا كل عراقي قد انحد لعمه في ذلك الوقت وفي مدة
الحرب سلطة المستبد المستأثر فانه انما فعل ذلك وعنده من الوجهة انشريعة ما يبرر
عمله وكذلك عنده من أوامر الخليفة ما يبرر مركزه ايضاً اذ قد مدبه الخليفة للدفاع
عن البلاد وحياتها من اعتداء التصرائية .

وكان الذي دعا الى تغيير هذه الخطة موقف هاريجتون فانه اعتبر مسألة
قتل أخيه كأنها ظلامة شخصية له يجب ان تتأر ومن ذلك الوقت صار أعدي أعداء
الوطنية الارلندية

وهذه الخطابات توضح ايضاً السبب في كراهية السلطان عبد الحميد لان يعلن
في شهر اغسطس أن عراقي ثائر خارج على الدولة كما تبين ايضاً سحافة هذه التهمة
لي قد قمت ضده في وقت المهاكة

ومع ذلك يجب الا يعتقد القارى . ان عراقي قد رضى بان يكون آلة في يدا السلطان
في أى شيء . مما له علاقة باستقلال اللاد الادارى . فقد كل موقفه من هذه الناحية

موقف ثابت فقد كان يكره الأتراك ومن المحقق انه كان يقاوم بقوة السلاح أي محاولة منهم في دخول القطر المصري . وحطاب الشيخ محمد عدد بشهد بذلك . وهو يتفق وما قاله عراي منه لي . فكل من كره في بلاط السلطان مقلدا غير ثابت علي حال واحدة لهذا السبب . فقد كان له صديقان في الاستانة هما أحمد راتب ومحمد ظافر ولكن كان له مجانمهما اعداء عديدون . وكان احمد هؤلاء ثابت باشا السكرتير التركي للحديوي فانه لم يكن يهمل في أخبار السلطان كل ما يوغر صدره على عراي . ولا بد انه عند ما حدثت المؤامرة الثركية وقبض على عدد من وجهاء الأتراك وكان بينهم عثمان باشا رفيق اغتاط السلطان واستاء كثيرا . ولكن بطهران هذا الاسيا . لم يدوم طويلا لانه بعد ما صارت المسألة تنحصر في مقاومة أوروبا عاد عراي فحسب رضى السلطان وبال حظوته . ولم يكن عبد السلطان أي تردد في أيهما يجب أن يختص بهطه . توفيق العونة فرنسا وانجلترا أو عراي الذي ينود الدول المسيحية عن بلاد اسلامية

وأظن انه مما يؤسف له ان رغبة السلطان في خلع الحديوي وتولية حليم مكانه لم تعد لانه وان لم يكن لعراي أي صلة بحزب حليم في مصر فانه لم يكن ليعارض في توليته مادام قد رأى الحديوي توفيق قد أتى بمعه في احضان السياسة الانجليزية . وكانت هذه التولية تقابل بالاستحسان والموافقة عدد عظيم من سراة مصر الذين كانوا يعرفون ان حليم أكثر ذكاء وأسى آراء في اسياة من الحديوي . ولو تدخل السلطان على هذا الوجه وبهذا القصد لعد تدخله سلبيا ولما كان في حاجة الى تدخل حربي . وربما كان هذا على وجه العموم أمثل حل للمسألة . ولكن فرنسا كانت ترغب أشد الرغبة في تدخل السلطان وكان ممثلو حكومتنا في القاهرة يكثرون من التعهدات لتوفيق . وكانت نهاية هذه المساعي أي فكرة ارسال بعثة انجليزية وهو ما كست اقترحه انا وفكرة تدخل السلطان ان اقترح مسيو فريسييه ارسال بعثة مؤامره من قائد فرنسي وآخر انجليزي وآخر تركي « لاعادة النظام في الجيش المصري »

وكان اللورد ليونر هو الذي أشار على مسيو فريسييه بهذا الاقتراح ولكن

هذا اللورد ميل الى الاخذ بأرا، مايت . لان هذا الاخير كل سكرتيره الخصوصي
مدة طويلة فكانت الثقة فيه لهذا السبب كبيرة

ولم يعمل شيء مما كنت قد وعدت به من الوراثة الانجليزية ولا تلك الكلمات
التي كانت حادثة في مصر قد اتفق وقوعها في وقت الامة الارلندية . فقد جرب
فورستر في أرنلدا نظاماً من الحكم يحصر في التهديد والصفاط . فقد قبض على
اعضاء من البرلمان وجسوا دون أن يحاكموا ونمادى رجال الولىس في اتخاذ أساليب
صارمة لم تؤد الى تهدئة البلاد . وكان غلادستون قد أقنع وزارته بضرورة تغيير
هذه الخطة بخطة المصالحة والمسالمة . وجرى اتفاق سري مع بارتل رعيم الارلنديين
وهو في السجن ومع صديقه ديون وهذا الاتفاق يعرف بمعاهدة كلمنهام أخرج
بمقتضاها عنها . وكانت نتيجة ذلك أن استقال فورستر في ٢ مايو وحل على الحكومة
لصعها في مجلس العموم . وكان هذا اليوم هو أي ٢ مايو قد عين لان يكون اليوم
لذي تنوه فيه الحكومة بتصريح عن مصر وكان مقترح هذا التصريح اللورد دلاوار
وقد وجدت في مذكراتي مايلي :

٢ مايو — تقيت اللورد دلاوار في مجلس اللوردة . فأخذي الى الداخل وكنت
أنتظر ان أسمع شيئاً عن التصريح الخاص بمصر . ولكني بدلا من ذلك سمعت
تصريح اللورد حرافيل عن استقالة فورستر من ولاية أرنلدا . وحدث على أثر ذلك
هياج عظيم في المجلس وكان يبدو على لور جرافيل خيرة وارنباك . فقد وقف اللورد
سالزبرى مرة أو مرتين وسمعت روزبرى يقول نضع كلمات بيئية مؤثرة متلة وقاراً .
أما المسائل المصرية فقد أوججت باعتبارها غير مهمة .

فقد أنسنا أرنلدا جميع المسائل المصرية وبلغت هذه الحال حداً ان ذهبت
مرة الى مورلي في السادس من الشهر لكي ينشر لي في جريدته خطابا جاءني من
الشيخ محمد عبده يوضح فيه المؤامرة الشركية فرفض مورلي نشر الخطاب معتدراً
لي بطوله وقال لي « ليس هنا من بهتم بمصر الآن » .

وكان هذا أول فصول المناقشة القادمة . ففي السابع من الشهر اغتالت عصاة

أرلندية في دبلين كلفديش شقيق الثور هارمجتون وأحد أصدقاء غلادستون
الحميمين وكان قد عيى والياً على أرلندا بدلاً من فورستر وفقاً لخطة المسألة الجديدة
وقتل معه أيضاً مستر بورك. ولم يكن لهذه العصاة علاقة بحرب بارنل ولكن الجمهور
لم يميز بين الاثنين وكانت النتيجة ان الامة قامت بصوت واحد تطلب اتخاذ تدابير
شديدة ضد الثورة في أرلندا. وصار غلادستون يقاوم هذا التيار وعرض على ذلك
أحد الاحرار الذين كانوا مثل مستر تشبرلن على ولا. مع حزب بارنل أن يعين
والياً على أرلندا ويستمر في اتخاذ خطة المسألة. ولكن ذلك لم يرقه هذا المنصب
المهفوف بالاحطار ورفضه. وبات من الصعب أن يوجد من يملأ هذا المنصب

فكأن امام غلادستون طريقان : إما الاستقالة وإما النزول عن سياسته. وقد
وجد الاكثرية في الوراة تحالفه فاختار الطريق الثاني وزل عن سياسته. فأرسل
الى دبلين عاصمة ارلندا ترصليان وانقذت النيات علي اتخاذ خطة حزم وشدة في
أرلندا. وحدث مثل ذلك في مصر. فان غلادستون كان الى هذا الوقت باعتباره
صاحب الصوت الاعلى في الوراة بمنح شحصه أى تدخل حربي على الرعم من
خطة المناورة والمحاصرة التي العزمها ودارة الخارجية. أما الآن فقد وجد أ اكثرية
الوزارة قد تبحث عنه فألقى بمصر الى الذئاب. فكأن لآن حال زملائه في الوراة
يقول : انظر ماذا فعلت سياسة المسألة في ارلندا وما جئنا بها »

وإذا كان ما قيل لي صحيحاً فإن القرار بشأن سياسة الحزم والشدة في ارلندا
والقرار بشأن التدخل في مصر قد اتخذ في جلسة واحدة في الاسبوع التالي من
شهر مايو. وإليك بعض مختارات من مذكراتي عن تلك الأيام.

« ٨ مايو — كانت نتيجة الاحار البينة عن مصر اني أرسلت « بلاغاً
أخيراً » الى غلادستون أرجوه فيه أن يخلصني من الحيرة التي وقعت فيها بسبب
صمت الحكومة. فقد قلت اني سأقول الحق إذا لم يفكك الثور غرافيل. والناس
في كل مكان في هياج عن ارلندا فقد جاءت أخبار امس تبني. باغتيال الثور
كلفديش ومستر بورك وشعر الناس لأول وهلة كأن الحكومة ستوشك ان
تستقيل ولكن بارنل قد كتب اليوم بكر أى صلة أو علاقة بهذه الجريمة وسيقوى

هذا الانكسر مركز غلادستون . وفي يوم الجمعة كنت بمجلس العموم في إحدى أروقه وكان الى جايي ارنز برايدس رئيس المجلس فأشار بيده الى «الثلاثة الارلنديين المتأمرين» وهم يتحدثون فأمليت باربل . وهو رجل طويل حسن الوجه يبلغ عمره نحو اثنين وثلاثين سنة . وليس في سمته ما يدل على أنه من القلة السماحين . اما ديون فطويل القامة شاحب جداً أسمر اللون تقريباً . ولو ألبسه الانسان عباءة وأمسكه خنجرأ لصار مثل جاي فوكس . وكان مطرها يثير عن سائر من حولها كما يثير الرجل المهذب من بين أوباش بحيطون .»

« ١٠ مايو — جاءت اخبار سيئة من مصر . فان الحديبورفص ان يوقع على احكم في قضية المؤامرة الشريكية فطلب عرائ احكام مجلس النواب . وهم الآن يتحدثون عن خلع توفيق . وقد ذهبت الى منزل رئيس الوزارة ورأيت جودلي فألححت بضرورة حصولي على جواب من غلادستون على اسئلتى الماضية . فقال ان غلادستون غير موجود لانه ذهب لتشييع جارة اللورد كلفديش واتفقت مع جودلي على أن أعود في اليوم التالي لكي أحصل على اجابة . ورأى جودلي شدة قلقي فوعدني بهذه الاجابة قائلاً ان الوقت الحاضر فرصة سيئة .»

هذا ما كنته في مذكري واني أتذكر الآن أن جودلي كان يعطف على أشد العطف في هذه المسألة . فقد كنت متأثراً غاية التأثير . فقد تراءى لي عدد انه من المحزن أن يتوقف حفظ امة بأسرها واحسن الآمال لاصلاح ديانة وكنائسها — الامة والديانة — ذات مكانة في التاريخ علي الحصول على مقابلة رجل مسن والتحدث اليه مقدار نصف ساعة لاني كنت أشعر آني قادر على إقناعه . ولم أكن أعرف احدا في مجلس الوزراء ولكن لا بد ان جودلي كان يعرف كل شيء . واني أعرف انه كان على الدوام يعارض خطة الوزارة الخارجية نحو مصر وأطش أنه شعر بمجبانية مسنر غلادستون في اشتراكه في الخطة عندما وقف يدافع عن التدخل وإعلان الحرب على حرية الشرقيين لمصلحة المالين . ولم يمض زمن طويل على تغيير خطة غلادستون حتى تركه جودلي وعين في وظيفة أخرى وكنت أشعر على الدوام أنه فعل ذلك احتجاجاً على مسنر غلادستون . وإليك المذكرات .

» ١٢ مايو — لقد صرح فريسييه بأن الأتراك لن يسمح لهم بالتدخل . وقد ذهبت الى منزل هوارد الذي وافق على ما رسمته وهو أن أنشر جميع الحقائق وعدي جميعها . وسنشرها التمس . ويظهر أن روتشيلد قد اشتغل بمجد لكي يجعل الحكومة الفرنسية توافق على عزل الخديو ووضع الامبر حليم على عرش مصر . هذا وقد أمر أحد الأساطيل بأن يكون على قدم الاستعداد بعد خمسة عشر يوماً في بليموث . . . وقد قابلت ادى هاملتون وهو يعدى بالاجابة هذه البسلة . هذا وقد أحدث رفض ذلك لولاية ارنلدا غضب هوارد . وقال عنه : « انه سيفقد مكانته الاجتماعية بهذا العمل » فهم ينظرون الى ذلك في امتناعه عن قبول هذا المنصب كأنه قد أحجم عن خطر ولكن ربما كان الصحيح ان ذلك أثر البقاء في وزارة الخارجية ليشراف منها على جميع مسائل أوروبا ولو أنه قبل هذا المنصب لكان في قبوله خير لمصر .

» ١٣ مايو — جاء جواب غلادستون عن أسكتلي وهو لا يستطيع إعطاء التعليقات ولكن القورد جرافيل سيخطب يوم الاثنين وهو يرجو أن أنتظر الى هذا اليوم وكل ما يعد به أن خطة الاحرار ستكون طبق مذاهب الاحرار . وهذا ما يرضي . وقد كتبت الي غلادستون أقترح أن أذهب وأتوسط لفرض الخلاف بين الخديو وعراي وارسلت التفراف التالى الى عراي . « أوجوك الصبر . ولو فعل شيئاً طائشاً أو بدون رأى البرلمان . وأجل ما تنوي أن تعمله مع الخديو وأنا أشتغل بمجد لمصلحتك ولكني في حاجة الى الوقت . ان الخطر حقيقى » وجاءلى خطاب فى الساعة الخامسة من غلادستون يقول فيه أنه بظن ان خطابي الاخير قد كتب قبل أن تصل الاخبار الاخيرة من مصر .

ولا أدري ماذا يقصد بهذا القول لانه ليس فى جرائد المساء شئ من الاخبار عن مصر وفى المساء جاء رد جوابي : » ١٢ مايو — أشكر لك نصائحك وقد عرض الخلاف على النواب المندوب شامل . ليس هناك أقل خوف على الاوربيين . احمد عراي » وكنت فى ذلك الوقت فى كرايت وكلن معي فان بينجنسن القاضى المولدى المعروف وأحد المؤلفين وهو مؤلف كتاب « قاض محتلط » وهو من أحسن

ككتب التي ألقت عن مصر في عهد المراقبة الثانية . وقد وجدت فيه رجلا شديد
اصطف على الوطنيين المصريين .

واليوم التالي أي في ١٥ منه كلن اليوم المعين لكي تنفوه فيه الحكومة بتصريح
عن مصر في البرلمان . وذهبت الى لندن وكلني رجاء عن الحالة وقد قويت بالتلغراف
التي أرسله الى الشيخ محمد عبده . ولكن خيبة الامل كانت قد قدرت لي . فقد
حدثت مناقشة في مجلس الاوردات عن مصر ولم يه الاورد جرافيل باكثر من
تصريح بما يشبه الوعيد باعادة مذكرة عاميتا وبقوله الذي اعتقد انه لم يكن صادقا
فيه ان المجلس وجميع الامة في صف الخديو ضد الوزارة . فهد اذن هي « خطة
الاحرار » التي وعدني بها هاملتون . فشعرت عندئذ باق غير مقيد بهذا الصمت
التي التزمته نحو غلاستون التي ظهر لي كأنه قد لعب بي وخذعني . فتركت
مجلس الاوردة عندما انتهى الاورد جرافيل من القاء خطبته وأنا في أشد الضيق
وعزوت من ذلك الوقت على الأرمي الحكومة . وأخذت افكر في المسألة طول
الليل لكي أقرر لنفي خطة وأخبر أقر رأيي على شيء واحد وهو مقاومة الدساتير
التي كانت تعمل والعمل لاقتلاعها .

« ١٤ مايو - قرأت في الإيزرفر أن سلطانا باشا قد ذهب أمس الى الخديو
لكي يمضي الصلح بين الخديو وبين عرابي . واستنتج من ذلك أن تلغراف قد
أرسل في حينه ووقته اللاتم . وتقول الصحف أنه هو والمجلس قد انضيا الى الخديو
ضد عرابي . ولكني لن أصدق هذا حتى تصل الى الاخبار . والارجح أن
سلطانا باشا بعد غضب لاجتماع المجلس اجتماعا غير قانوني وفي وقت غير ملائم . ولا
بد أن الجيش لتفوزه الكبير في الوزارة قد أوجد لنفسه اعداء . وربما كانت هناك
غيرة ولكني لن أصدق أكثر من ذلك . وكل ذلك طبعاً هو من عمل كولفن
ومايت وقد تشجع الشر كس لامل تدخل الاتراك وقد أمرت بعض البوارج بالانحار
الى الاسكندرية وسيكون من تأثير هذا العمل اتحاد الجميع ضد الاورويين

« وفي المساء جاء تلغراف من الشيخ محمد عبده لا أكاد أخضه يقول فيه .
« ليس هناك خلاف بين سلطان باشا والبرلمان والكتب (يعني الخديو المتحلو

اسماعيل) الذي ذكرت لكم اعتقادي اشتراكه في المؤامرة الشركسية قد ثبت الآن انه مشترك فيها . ومائل الخلاف المهمة قد عرضت على الاعضاء . وليس هناك ما يحشئ منه على الامن العام « وحقيقة هذه الامة التي حدثت في النصف الاول من شهر مايو في القاهرة كما علمت بعد ذلك كانت كما يلي :

وحد الخديو نفسه في الثاني من هذا الشهر أمام الحاخ عرابي وزير الحرية مضطراً الى التوقيع على أحكام التي على المتآمرين الشركس . وكان من بين هؤلاء المتآمرين أصدقاؤه لهم عليه دالة الصداقة . فاستدعى مالميت لكي يستشيرهم فصح له بأن يمنع عن التوقيع ووعده بمطاهرة السياسة الانجليزية له . ويجب أن يعتبر هذا الوقت أول فرصة عقد فيها الخديو نيته على أن يترامى في أحضان الحكومة الانجليزية ويطلب حمايتها من وزرائه . وكتب مالميت على أثر ذلك رسالة مهمة طبعته بعد ذلك في الكتب الزرق تمدح فيها باخلاق الخديو وعده جديراً بثقة حكومة حلالة الملكة . وبما على هذا رفض الخديو التوقيع مع أنه ليس له حسب قواعد الدستور حق الامتناع عن التوقيع على أحكام المحكمة العسكرية

وكان هذا الامتناع الذي عرف وذاع في الحال داعياً الى حقن الوزراء الوطنيين وكان علم الوزراء أنه أت عن فصل أجنبي مما يزيد حقهم . وكتب محمود سامي رئيس الوزراء خطاباً الى أعضاء البرلمان يستدعيهم للحضور الى القاهرة لاعتقاد البرلمان . وكان هذا العمل غير قانوني لان استدعاء البرلمان من اختصاصات الخديو . ثم أن الوقت لم يكن ملائماً لانعقاد البرلمان من حيث الفصل فاستاء بعض الاعضاء لهذه الدعوة . ومع كل ذلك قد حضر عدد كبير من الاعضاء ولو أنهم لم يجمعوا اجتماعاً رسمياً إلا أنهم في اجتماعهم في منزل سلطان باشا قرروا مؤازرة الوزارة . وقرروا أيضاً باكتربة ٤٥ ضد ٣٠ صوتاً انه اذا استمر الخديو على دسائله مع القنصلين الفرنسي والانجليزي لم يكن ثم مناص من محاكته وخلمه . وكان مالميت في هذا الوقت قد تسلم تفرافاً من وزارة الخارجية تفيد فيه حتى خطبه . وكان مالميت قد وجد من الخديو تردداً فذهب اليه وأخبره بأن الاسطولين الفرنسي والانجليزي قد أمرا بالبحار الى الاسكندرية لحماة الاجانب . فارسل الخديو أو

سلطان باشا ورئيس المجلس وعرض الموقف عليه وألقى في روعه وصار يلعب على العرة التي كانت بينه وبين عرابي حتى أمراه بالانضمام اليه والثقة بمعاونة أوروبا بدلا من المقامرة بالحرب . فلما اجتمع أعضاء المجلس اجتمعهم غير الرسمي في المرة التالية صرح سلطان بأنه في جانب الخديو وانه يعارض خطة الوزارة وانضم اليه ستة من الأعضاء في هذا الرأي . أما القانون فقد ثبتوا على ولائهم للوزارة . وكان هذا هو الوقت الذي تسلم فيه عرابي تلغراف في القاهرة ، يظهر أنه كلن له بعض التأثير على سلطان الذي لا بد أنه قد اطلع عليه . ولكن الصحف الانجليزية نشرت في ١٣ منه أن المجلس قد انضم الى الخديو ونشرت في ١٥ منه أن محمود سامي قد استقال . وما يلي مأخوذ من مذكراتي .

وما هو الا أن جاء وقت فتح مكاتب التلغرافات في الصباح حتى أوصلت التلغراف التالي الى القاهرة وذلك في ١٦ مايو :

« الى عرابي باشا وزير الحريسة : قال لورد جرانفيل في البرلمان ان سلطاننا باشا والنواب قد انضموا الى الخديو ضدك . فاذا كلن هذا القول غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الي تكذيباً . واذا اتحدتم فلا تخشوا شيئاً ، ألا يمكنكم أن تؤلفوا وزارة يكون سلطان باشا رئيساً لها ؟ وعلى كل حال عليكم بالثبات » وأرسلت أيضاً هذا التلغراف التالي :

« الى سلطان باشا رئيس مجلس النواب : أعتقد أن جميع أولئك الذين يحبون مصر يجب أن يتحدوا . فلا تتشاجر مع عرابي . ان الخطر عظيم » وأرسلت الى كل من بطرس باشا و « أبو يوسف » ومحمد باشا الفلكي هذا التلغراف :

« هل الحزب الوطني مع عرابي الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعي أنه ليس كذلك اذا ذهب اتحادكم ضمتكم أوروبا الي أملاكها »

وأرسلت هذا التلغراف نفسه الى الاستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ المصري وعد الله تديم الخطيب . وجميع هذه التلغرافات كانت موقعة باسمي وكنت أعرف أني في ارسال هذه التلغرافات سأعرض لفضب وزارة الخارجية ان لم يكن لفضب

مستر غلادستون «سه . لانه لم يكن من المقبول أن الوكالة البريطانية في القاهرة سيجعلها لأن تلتفاتات شركة التلغراف الشرقي كانت تداع في الغالب عد وصولها . ولكنني كنت قد عقدت البية على المخاطرة وكل شي وارتيابي ينحصر ان فيما اذا كنت قد أوصحت الخطر لثواب . واعتقدت ان عبارة « اذا ذهب اتحادكم ضمتكم اوروما الى املاكها » تؤدي غرضي . وذلك لانه وان لم تكن نية لملجنا او فرنسا في ذلك الوقت ضم مصر الى املاكها فان النهاية كانت نحو هذه الغاية وكانت كلمات كولفن ترن في أدبي . واعتقدت أن الحوادث قد بررت اعتقادي . فلما أن دमित سهي ذهبت الى كرايت لاسترح وأتطر مانجي به الايام . نجاء الجواب على تلغرافاتي بأسرع مما كنت أظن . ففى ذلك المساء . وأنا أتناول العشاء تسلمت تلغرافاً من سلطان باشا يقول فيه :

« لقد رال الخلاف الذى كان بين الوزارة وبين الخديو ولم يبق له أثر . وكلنا متفق على المحافظة على الامن والسلام وعلى ماصرة الوزارة الحاضرة . سلطان »
ولشدة سرورى أرسلت هذا التلغراف الى مستر غلادستون كما أرسلته أيضاً الى التيمس لكي تنشره .

وعدت الى لندن في السابع عشر من شهر مايو وأنا في أشد القبطق في طريق تسلمت التلغرافات الآتية .

« من الشيخ الامباني شيخ الاسلام . قد سوي الخلاف بين الوزارة والخديو والحزب الوطني راض به رأى . والامة والجيش متحدان » .
ثم أيضاً هذا التلغراف التالي وهو بلا إمضاء ولا شك انه من أحد الاعضاء :
« جميع البلاد تظاهر عرابي والورير سامي . والفلاحون والبندو والعلماء متحدون . وليس بيننا سوى واحد يقاوم الحرية المصرية ويجتهد في افساد الرأى العام » .

وجاءني تلغراف ثالث من حمد عبيد في هذا المعنى .
ثم جاءت صحف الصباح فأيدت هذه الاخبار السارة وذكرت أن الخديو عباسي سلطان باشا قد صفع عن الوزارة . فظنر لى من ذلك اني قد ملت فوزاً

سياسياً هماً . فذهبت وأنا ملتح هذه التلغرافات الى شارع دوسج حيث منزل رئيس الوزراء فوجدت هاملتون وجودلي فأريتها التلغرافات . هباني على فوري . وأجبرتني ان هذه التلغرافات قد كلفتني عشرين جنيهاً فقال هاملتون انه يجب أن يدفع لي هذا المبلغ من محصلات العققات السرية . هذا وقد قال هذا القول طبعاً على سبيل المزاح ولكنه يدل على ان فوري على وزارة الخارجية قد قوبل بالارتياح وقد نصح لي كل من هاملتون وجودلي بأن أكتب الى منر غلادستون — بما اني لم أراه — خطاباً رسمياً أحل فيه على وزارة الخارجية لتعمدها الكذب . وقد قبلت أن أفعل ذلك وقطعت القيل في كتابة هذا الخطاب . وقد اتفقت مع باتون على انه اذا طرأت الحاجة تنشر الخطاب في جريدة التيمس . وفي اثناء ذلك أرسلت الى سلطان باشا تلغرافاً رجوته فيه أن يهني الخديو .

ولكن جاء الصباح فتوضعت آمالي واقلب فوزى هزيمة . فقد نزلت في منرلي في لندن في شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت في طلب الجرائد فوجدت فهن جميعن تلغرافاً لشركة روتر وفي نص تلغرافي الى الاعضاء الذي قلت فيه ان أوروبا ستضم مصر الى أملاكها . وفيه ان شيخ الاسلام قد تبرأ من الرد الذي جاءني باسمه .

ووجدت في «ذي ستاندارد» تلغرافاً من مكائنها في القاهرة يقول فيه انه قد صرح له من سلطان باشا بان يكذب التلغراف الذي أرسله لي ونشر في التيمس . وان تلغراف سلطان انما كتب وهو تحت تأثير الارهاب الحربي . فكتبت الى غلادستون خطاباً ثانياً وأرسلت اليه الخطابين مع رسول قبل الظهر . وكذلك أرسلت الى هاملتون مع نفس هذا الرسول أخبره بوجوب نشر الخطابين . ووجدت باتون في المنزل ووعدني بأن الخطابين سينشران في التيمس . وقد سر كثيراً منهما وقال لي انهما سيحدثان ضجة بين القراء .

ومع ذلك ومع انه قد صفت حروفها فانها لم ينشرا . وقد ذكرت سبب ذلك في مذكراتي . وفي الساعة السادسة وجدت رقعة من ادى هاملتون يقول فيها انه سيكون بالمنزل في أصيل اليوم التالي فذهبت اليه . فقال لي اني لم أكن أحسن صنأاً في ارسال تلغرافي الى شيخ الاسلام وانه لا يجسن بي ان أنشره .

« فسأله عن الضمان الذي يستطيع أن يقدمه لي عن أنه لا يقصد سوءاً بالاسكندرية فقال ان ذهب الاسطول لا يقصد منسوى تأمين أرواح الرعايا البريطانيين . ولم يكن يعتقد أن من المرجح أن يطلب نسرج الجيش المصرى أو ايزال جنود فى الاسكندرية . وأكده لي أيضاً أن اللجنة التى أشرت لها سترسل الى مصر . وقد سررت بهذا وأرسلت دافيد (خادمى) الى التيمس لكي يقف بشر خطاباتى » ولست أشك أن هذه التأكيدات التى سمعتها في منزل رئيس الوزارة كانت صادقة . ولكن أعمال وزارة الخارجية كذبتها . وسكوني عن الرد على التلغرافات وضعت في موضع غير حسن لدى الجمهور . فقد قالت عبي سانت جيمس عازيت اني محرض أبش العين من مراقدها . ورات المرائد الاخرى اني لزممت الصمت فاتبعتها في سى . وكان لهذه الاقوال رد فعل عند الحكومة وأيضاً عند مستر غلادستون ولو انه كان يعرف الحقائق التي كان يجهلها الجمهور . وواصلت زيارتي لمنزل رئيس الوزارة ولكن هذه الزيارات صارت تفقد بالتدريج الالفة السابعة . ولهذا السبب آسف الآن على أنى قد رضيت بالا تنشر خطاباتي في التيمس . ولو ظهرت هذه الخطابات لما كان هناك مجال لان يصدر البلاع الاخير في ٢٥ مايو

الفصل الثاني عشر

القياسات ومكافئتها

ان تاريخ السنة الاسابيع التالية في مصر من بدء وصول الاسطولين الفرنسي والانجليزي الى ضرب الاسكندرية بالقنايل هو تاريخ محاولة السياسة الانجليزية في أن تستعيد مركزها الذي فقدته . فلما لم تنجح في ذلك لجأت الى احداث مصادمة . ومحاولة وزارة الخارجية أيضاً ان تدفع غلادستون الى أن يلجأ الى العنف . وفي كل هذه الاعمال كل المدار علي احقاد شخصية اكثر مما كان على السياسة او على النفوذ للماني فلم تكن ورايات اورما او « الدورسات » ملحة الحاحا يجعل التسوية السلمية مستحبة فقد تراحت فرنسا في وراية روسيه عن خطة عامتها الاعتدائية . وكانت راسية

محل الموجودة بالقاهرة بينما كانت النمسا والمانيا الثتان يمثلها روتشيلد وبعض الممالين
 لصيتين بالانتجا الى العلاج الناح الذي استعمل في سنة ١٨٧٩ بدخول السلطان
 والمسألة ونولية حليم مكلن توفيق . وقد كلن هذا حلا سهلا للزعين توفيق والوراثة
 وقد كانت جميع الاحزاب في مصر تقبله لحسم النزاع وان لم تكن تعتبره مثل
 دخول . اما سائر الامم الاوربية فكانت تعطف على الوطنيين وكن أشدها عطفاً
 سويسرا وبلجيكا . وبلغت الحاسة في ايطاليا على الرغم من أن الحكومة كانت
 تعضد السياسة الانجليزية ان عاريبالدى كان يهيئ فيلقاً للذهاب الى مصر ومعاونة
 عراي . ولم يكن الرأى العام منهيحاً وبطلب اتخاذ خطة شبيطة الا في اجلتر حيث
 دأبت الصحف التي اغترهن وراثة الخارجية على التأثير فيه . أما الاتحاد الشخصية
 للمسألة فتتلخص فيما يلى :

فقد تورط مالميت وكولفن عند تشكيل الوراثة في مقاومتها من البداية . فكلن
 كل حل يقضى بوجود هذه الوزارة واستقرارها يعنى في الواقع خزيها وانهازمها
 فقد كان محتوماً على كولفن ان يقال من الخدمة عندئذ ويضل مثلما فعل زميله الفرنسي
 دوبلانجير : أما مالميت فانه كلن يرسل الى وظيفة صفرى لا تكون لاغلاطه فيها هذا
 الخطر . ثم كانت وزارة الخارجية مضطرة أيضاً الى المحافظة على كرامتها . فكان
 ذلك رجلا ذا الطامع وآمال ولم يكن يرضى بالمزمنة . وكلت جرانفيل هذا الشبح
 المسن على الرغم من حبه لراحة مغرمأ بان تكون خطبه جيدة . وعلى هذا مجد من
 نصف مايو الى ١١ يوليو وهو تاريخ ضرب الاسكندرية عدة مساورات لا تبررها
 الضرورة بل تخالف ايضاً مبادئ غلادستون وليس فيها أدنى مراعاة للضير والذمة
 بحيث اني لا أعتقد ان في وزارة الخارجية ما يماثلها من هذه الوجهة

ومن الجانب الآخر نجد الحزب الوطنى في الوقت الذي انزل فيه مصر حق
 الحكومة الذاتية وحصل فيه على حق الحرية المدنية والشخصية وهي حقوق لم يسبق
 في التاريخ ان حصلت عليها مصر . وبعد ان اجتمع برلمانها واقضى الفصل الاول
 من اجتماعاته . وعند ما كلن النواب يشغلون بالاصلاح ورغبة الجميع الهدوء والسلام
 في هذا الوقت وجد الحزب الوطنى نفسه مهدداً بالخطر في الخارج وبالحياة التي

تؤاثرها الدسائس الاحمية من الداخل . وقد جاء في ثلاثة خطابات . الاول والثاني من عرابي والثالث من حون بنيه وهو الوحيد بين العاطفين على الوطنيين الذي بقي في مصر واشترك مع الجيش . وهذه الخطابات تبين القارئ شعور الوطنيين في الاسابيع الاولى :

القاهرة في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز المخلص المستر بلنت

بعد حمد الله . نخبرك ان خطابك المؤرخ في ٢٠ ابريل قد وصلنا . وقد قرأناه ونحن في غاية السرور . ونرجو ان نحبي قريباً بما مساعيك . والحقيقة ان كل من نعتق الحرية يشهد بفضلك ويحمد لك مساعيك . وقد تصاعف سروري عند ما علمت ان خطاي قد وصلك في الوقت المناسب . والله برحمته يهدينا دائماً بحسن الحال ويرشدنا الى ما فيه صلاح البلاد .

اما عن نشر الخطابين اللذين أرسلتهما لك فقد كان قصدي أن أسفه الاعداء الذين يحملون على ويتهمونني بأنني أركب الشطط وأطمح الى الاستبداد والاستئثار بالسلطة . وانت تعرف ان هذا سبب ليس غير وأحب أن أذكرك بصفتي ودرجتي الحرة فأنا مسئول عن وزارتي كما ان كل وزير آخر مسئول عن وزارته . وليس في الوزارة سوى صوت واحد وأنا أتبع رأي رئيس الوزارة والخطة التي يشير بها على كما يظهر ذلك من الخطاب الذي أرسله الى الخديو عند ما ألف الوزارة . وبمكنت أن تتق بأننا جميعاً نغورون على مصلحة بلادنا مجتهدون في أن نسير على أصول الحق . وقد عرفنا بمعونة الله ان نتغلب على جميع الصعوبات . فاذا كن في أوروبا أمة نميل الى الخير ونحب نشر الحضارة نود أن نضع يدها في يدنا لكي نعينها على التقدم فنحن نسكون لها من الشاكرين . واذا لم يكن هذا فنحن نشكر الله وحده الذي أعاننا في البداية.

أما عن حالة البلاد فالهدوء شامل . والخيرة الوحيدة التي نعانها هي في تلك الاكاذيب التي تنشرها الصحف الاوربية . فان هذا عداء لا مبرر له . ولكي عسي عشاوة الاعرار تزول عن أعينهم

احمد عرابي

القاهرة في ٢١ مايو سنة ١٨٨٢

بعد تقديم أحسن التحيات والتسليمات تقدم لكم شكراتنا على مساعيكم
وهمامكم بمصالح بلادنا وسؤالكم عما بالنفراوات والخطابات بعد الموائد التي
حدثت هنا . وقد أجبناكم الى ما طلبتم منا كما أجب أيضاً جميع الذين سألهم
يشرحنا الاحوال بالصدق والامانة . واليكم الآن بعض التفاصيل .

ان جميع الاهالي في حزن لمحي البوارج الانجليزية والفرنسية وهم يرون في
هذا العمل بيات منطوية على سوء البلاد كما أنهم يرون فيه أيضاً اعتداء لاضرورة
ولا مبرراً . وقد قرر المصريون على ألا يسلموا للدولة التي تتدخل في شؤونهم
وفي إدارة البلاد الداخلية . وهم أيضاً مصممون على الاحتفاظ باستقلالهم التي
تحتها المعاهدات . ولن يسمحوا لأحد بانتقاص هذه الامتيازات أو منها مادام
فيهم رمق . ثم هم أيضاً سيجدون في المحافظة على مصالح الاوروبيين وحياتهم
وممتلكاتهم ومقاهم مادام هؤلاء لا يعتمدون الحدود التي رسمتها لهم القوانين .

ونحن جميعاً نجهد في تأدية واجباتنا وتوكل على الله في الدفاع عن حقوقنا
ويعونه سنال غابتنا . وعانيتنا تحصر في سعادة الوطن ونشر السلام والأمن بين
سكانه . ونحن نأمل في عدالة اوروبا ألا تتعدى الدول علينا بل بالعكس نتنظر
منهم أن يحسوا السلوك معنا . لأن هذا في مصلحتهم ويؤدي الى تحقيق رغائبهم
ويحسن بانجلترا ألا تثق بولايتها هنا لأن هؤلاء الناس لم يأرب خفية شخصية
يردون نقيتها . ونحن نفلن أن نجاحهم في تحقيق ما ربههم هذه سيعود بالضرر
علي بلادهم . وعلي حكومتهم .

في هذا ما يكفي وسيأتيك القد بما نجهده الآن .

وقد أرسلت الى هذا خطاباً أرجوكم أن ترسله الى سير ولهم جرمجوري .
وفي الختام أرجوكم تقديم تحياتي لصابونجي والبدى انى بلكت . والله برعاكم
بصايتة .
احمد عرابي

أما خطاب نيتة فذو قيمة خاصة من حيث التاريخ لأنه كتب في ١٩ مايو وهو
آخر أيام الحكومة الذاتية في مصر . فهو يقول :

« إن قلبي وهو قلب وطني سويسري ينتظر الآن على هذا الظلم الصارح الذي ارتكبه الدول في مصر . فالأمة بأجمعها قد اتحدت وانصبت الى زعيمها الشريف الذي أبنته مياه النيل وتكون من غرزة مثل سائر الفلاحين . وقد قبلت الامة المصرية علي نفسها أن تدفع الديون التي استدانها حاكم مستبد لا ضمير له . — هذا الحاكم الذي أنفق وبعثر في ستة عشر عاما نحو ثلثمائة مليون جنيه لكي يملأ جيوبه وجيوب الساسة كباراً وصغاراً وجيوب المرايين النصارى واليهود ... ثم حرث ثورة سلبية بارادة الأمة . ولم يحدث مدة هذا الانقلاب عمل واحد لا يليق بحكومة تراعي النعمة والشرف . ولكن أوروبا التي تهتم بالبورصات والاسهم أكثر مما تهتم بأمانى الشعوب ترسل أساطيلها . ولماذا ؟ لان مجلس النواب قد وحد من المناسب أن يناقش الحكومة عن الميزانية . فان الحياة هنا ؟ هب أن وزيراً من وزرائكم اختلف مع الملكة فهل ترسل الامة الكاثوليكية اساطيلها الى ارلندا لتهدئتها ؟ ومع ذلك في المشابهة فارق . فان مصر هادئة . ولم يشك فيها أحد من الاوربيين أو المسيحيين . ألا نخرج هذه الحالة الصدور ؟

ومع ذلك فعراي رحل هادئ . عاقل ينتظر القد بحكمة فلاسفة العصور القديمة . فالجيش والامة والمدن معه . وقنصل فرنسا كان الي الآن صامتاً . أما سير مالايت فقد كان الي الآن يطلب الصدام ولا يرغب في صلح او اتفاق يسند في القاهرة . وبند الخوف بدلا من أن يفرس الثقة والطمأنينة في قلوب الأهالي . ولا تكاد ياسيدى تعرف مبلغ المفتربات التي تنشر في النيس والأستانة والدليل نيوزبرواسطة الشركات التلغرافية . ومع كل ذلك لا تسمع كلمة لوم ولا نجد من الاهالي ما يسي . أحداً . فقد كنا وما زلنا في هدوء . شبه هدوء المجتمعين في بستان ريجنت في يوم أحد . هذا وينتظر وصول الاساطيل غداً » .

وتم خطابات أخرى تبين الحالة في تطورها بعد ذلك . وكان هذا الظلم الفادح والمهجوم على البلاد أدعي الى تقيظ الأهالي وحنقهم بحيث تعدوا طودهم لان هذه الدولة المهاجة عليهم كانت الي هذا الوقت تعد في نظرم صاحبة الأثر الحسن في حب الحرية والمذاهب الانسانية التي كان رجالها يدعون اليها بحماسة الرسل . فـ

يكن اذن من المدعى أن يتلوح العقلاء ويتأثروا بمخاطر هوساء وهم قد رأوا أنفسهم مهددين ساعة بالمحوم من جانب انجليترا وساعة أخرى بالمحوم من حاسب تركيا بفعل المسائل الانجليزية . فلم يكن لهم من يتقون به وكانوا يخشون الحياة في كل ممكن . ثم ليس أيضاً من الغريب أن يرتكب الزعماء بعض الاغلاط وهم في مثل هذه الظروف المتغيرة المتقلبة الشاقة . وكما دقق الانسان النظر في هذه الاغلاط شهد لهؤلاء الزعماء بالفضل . فانه عند ما فشلت دسائس وكلائنا واحدة بعد أخرى وقطعت في أيديهم أسبل الحياة التي لجأوا اليها ووجدوا أنفسهم بعد حملتهم حيل هزيمة محزنة — عند ذلك لجأوا الى المدافع والاساطيل لكي تحمل عقدة لم يستطيعوا تحملها . وعندئذ قطع نصير المصريون عن موقف المهدوء الذي لزموه الى الان . واستطاعت عندئذ وزارة الخارجية الانجليزية أن تدعي الظفر .

وإثبات هذه الاقوال لا يحتاج الى ان نسب الى عرابي او الى الزعماء الآخرين صفات من الطراز الاول . إذ لم يكونوا من حيث الادارة او السياسة او العسكرية يبلغون مبلغ خصوصهم وكلما كثرهم قليل الخبرة بأساليب الحكم وبقائهم السياسة الدولية . وأظن أن أحسن صفات عرابي هو تشبهه بفرضه الأصلي وهو استعداد يصادف جميع العالم مع استعداده أيضاً للدفاع عن البلاد وحمايتها من جميع من يهاجمها من الأعداء . وقد أدى من هذه الوجهة عدة خدمات لابناء وطنه مدة هذه الاسابيع القليلة يجب تذكيرهم بها الآن .

فليس هناك شك في أنه لو كان عرابي أقل عناداً أو ثباتاً مما كان في عدم مغادرته مصر خوفاً من التهديدات أو رغبة في الرشي ولو أنه لم يحارب لبقى الفلاحون عبيداً لسيادهم الاتراك كما صاروا عبيداً أيضاً للأوربيين . إذ ماذا كان ينتج عن خضوع عرابي ؟ هل كانت تستمر الحكومة الذاتية ؟ هل كان الحكم الأجنبي يكون أقل شدة مما هو الآن ؟ كلاهما كلا . انما كان يحدث شيء من نوع النظام الذي أعقب الحرب . أي استبداد الشرطة والجاسوسية والعصابات السرية . يضاف الى ذلك وقوف أوروبا عن الاهتمام بالمسائل المصرية وجمود صيرها الأدبي من هذه الناحية . ومن الممكن أنه كان يؤذن بوجود مجلس من الاعيان مجتمع « شكلاً » بضعة أسابيع

ويكون بمثابة هيئة استشارية ولكنه يكون عندئذ حلوا من النفوذ وساقطاً من حيث الدعوة الوطنية . وكلن حكم طبقة الأتراك والشراكسة يعود الى ما كان عليه من القوة وكانت المراقبة المالية بعد أن تكون قد رادت سلطتها التي تستعملها لمصلحة السالين الاوربيين تقف موقف الجود فلا نبالي بتحرير الفلاحين من ساداتهم الأتراك الذين هم أيضاً عبيد أوربا وكانت قصة الوطنية التي ذاعت عن الفلاحين نزول زوالا مغزيا لان الأمة التي لا تمسح على القتال دفاعا عن كيانها جديرة بأن تمسح . وكانت الصحف الوطنية تنزل الى الحد الذي بلغته صحف تونس لا يكون للحرية الشخصية أو المدنية وجود كما أن حقوق الوطنيين تكون عندئذ لا قيمة لها ولم يعتد بها أحد . بل تكون مصر عندئذ كما كانت في سنة ١٨٨٣ حيث لم يكن يستطيع أى إنسان أن يتكلم بصوت عال أو ياتمس حاره على أن لا يؤذيه . فأقل ما فعل عرابي أنه نجى بلاده من هذه الحال . وإذا كلت قد أخفق باعتباره حنديا فانه لم يخفوا باعتباره وطنياً وبلاده مدينة له بذلك . فقد حال دون الاحكام عن الحرب في وقت كانت فيه الحرب لازمة لانها كانت الفرصة التي أسداها التاريخ للمصريين ليصمدوا ويدافعوا عن حريتهم .

أما وقد قلت هذا فلا أراحح إلى قصتي . فأقول أن تاريخ التعرف الذي أرسل الي من القاهرة كما يأتي :

كانت الحال قد بلغت حداً خطيراً وذلك للموقف الذي اتخذته بعض الاعضاء ضفاف القلوب وبعض الزعماء من غير رجال الجيش . فإن هذا الموقف كان يدمج الى الزيبة . وكلت ماليت قد أغرى الحديو بالشجار مع وزرائه وكان الحديو قد أغرى أيضاً سلطان باشا لكي ينحاز اليه وقد توصل الى ذلك بالقبرة التي كانت هي سلطان وعرابي . وذلك أن سلطانا كان يؤمل أن يكون عضوا في وزارة محمود سامي قفا لم يحقق أمله شعر بالحقية . زد على هذا أن الحديو أخبره بان الأسطويح الفرنسي والانجليزى كانا على وشك الوصول الى الاسكندرية فانضم اليه سلطو . وأغرى ثلاثين عضوا بالانحياز الى الحديو فبقى مع الوزارة ٤٥ عضوا . واستطاع ماليت أن يرسل الى وزارة الخارجية تلغرافا يقول فيه أن مجلس النواب يصـ

حسب علي عرابي . ولكن تلغرافاتي أعادت الى التردد بين ثقتهم وحملت سلطانا
ذهب الى الحديو الذي كان يشتغل وقتئذ في تأليف وزارة برئاسة مصطفى باشا
مسي وربر الخارجية ولم يكن ذا حطة سياسية معينة . فتمسك سلطان من إيجاد صليح
بين محمود سامي والحديو . فاعتبر كل أحد أن الأمانة الوردية قد انقضت . ولكن
كاد يتم هذا الترتيب حتى عاد فانتكث منه ما اعتقد . فان ماليت سمع بتلغرافاتي
فأرسل في الحال في طلب سلطان ثم أحدث في وعده ساعة ووعده أخرى بالأسطول
حتى أغراه بأن ينحاز الى المراقبة الأوروبية .

وكان سلطان الذي كثيراً ما ندم بعد ذلك على عدم تأديته واجبه نحو القضية
لوطنية يقول أن ماليت قد وعده بشرفه في ذلك الوقت العصيب بأن نراعي حقوق
برلمان . وقد قال لي أصدقائه أن سلطاناً مات وهو يوح نفسه لأنه صدق ما قاله له
ماليت . ومع ذلك فإنه لم يشق بعد ذلك أحد عن القضية الوطنية خلاف سلطان .
وكان جميع الذين فصلهم تلغرافاتي بمدقوتي أكثر مما يصدقون ماليت وتقوى
ساعد عرابي بذلك عند ما جاءت الأمانة الكبرى بعد هذه الحوادث بعشرة أيام
فان لعبة ماليت من حيث إرسال الأسطول فشلت فشلاً تاماً . فقد كان غرض
لورد حرافيل من إرسال الأسطول أن يكون حجة ضير طعن لبال غرضه دون
أن يلجأ إلى العنف ولكن يؤمن بهذه الطريقة . وقد زاده إيماناً بها أنه حربها في
العالم المنصرم في مسألة الحدود اليونانية في دلسينيو . وكان من الحكم التي تروى
عنه قوله « التهديد يفعل فعل الصرب » وكان ماليت الذي يعرف عقلية لورد
جرايفيل يعتمد على الحصول على انتصار لا تراق فيه دماء . وكان طول الوقت يسي
تقدير العاطفة الوطنية . ولم يلجأ الى العنف والقوة الا عند ما هجز عن تحقيق غرضه
بالوسائل السياسية فعد الى رأى كولفن فاتبه . وهذا هو تاريخ هذا التطور .

في ١٧ مايو انضم سلطان باشا الى ماليت . وطلب من الوزارة أن تستقيل .
في ٢٥ مايو أصدر ماليت وسيكس بلاغاً أخيراً قال فيه ان سلطاناً قد
اقترح عليها إصداره وطلبا استقالة الوزارة ومفاداة عرابي لمصر .
في ٢٧ مايو استقالت وزارة محمود سامي

في ٢٨ مايو هاج أهالي القاهرة وطلبوا رد عرابي الى مركزه وزياراً وأعيد عرابي وصار له شيء شبيه بالقوة الكتابية وكانت الأحوال في إنجلترا في هذا الوقت على أسوأ ما تكون وقد رادها سوءاً تحلى سير وليم جريجوري عبي وأنا في أشد الاحتياج اليه . فان جريجوري قد انحاز مثلي الى الوطنيين منذ ظهور الحركة وقد كتب عدة خطابات قوية في التمس بفتح فيها عرابي ويدافع عنه . ولكن نفوذه أكبر جداً من نفوذي في المراكز الرسمية وكانت له مكانة عند تشري رئيس تحرير التمس . فلما رأى أن دهاب الأسطول قد يؤدي الى وقوع القتال أخذ الخوف والعزع وصار يكتب في التمس خطابات يصل فيها ارتيابه ويشترط لأقواله السابقة شروطاً . ولكن منذ أن ترك مصر في ابريل يسبح ويتجول في أوروبا وكنت أؤمل كل يوم أن يصل الى لندن لكي أدم به دفاعي عن مصر لدى الحكومة . بيداً من ذلك وجدت ما أحرزني لأنه وان لم يكن يقاومنا الا أنه لم يكن معنا . وكما قد نواعدا على أن مذهب معاً الى اجتماع لمقاومة القائلين بالتدخل . ولكنه رفض الذهاب .

واليك مذكراتي :

« ١٩ مايو - لقد خذنا جريجوري فانه تشي أمس مع تشري الذي أتى في قلبه الرعب وهو يرفض الآن أن يذهب الى الاجتماع . وقد ذهبت أنا وألقيت خطبة وأجبت على عدة أسئلة وأوضحت حقيقة مسألة التلغرافات . وقد طلب دولين من المجتمعين أن يصرحوا بأن سلكت مسلماً وطنياً »
« ٢٠ مايو - قيل لي ان لورد جرانفيل يسخط علي لاني قد شرحت مسألة التلغرافات »

وفي يوم الاحد ٢١ مايو - بعد ان دونت هاتين المذكرتين التفت بجرايفيل وكانت مقابلتنا بعد يومين من لقاء الخطبة عن التلغرافات مما ضاقتني بعض المضايقة فقد دعينا أنا وزوجتي الى قصا . يومين عند لورد بورتسموث وهو ابن عم زوجتي في قصره في بورتسموث وكان لورد جرايفيل وآخرون قد دعوا أيضاً . وأظن ان جرايفيل قد قصد مقابلتي « صدقة » كما هي العادة المألوفة بين السياسيين . ولكن

كانت قد حدثت حوادث خطيرة فلم أكن أحب مقابله ولم أكن أعرف انه مدعو.
فترجعي حضوره يينا . وافق سو . الخط انا أحصرنا معا جريدة الازرغر التي
روت الحفل الذي مال رجال الاسطول بعد ذهابهم الى الاسكندرية . وهالك
لقد كرات : « وصلنا مع لوريل سفير أميركا فلم نجد أحداً بالقصر لانهم كانوا قد
ذهبوا جميعاً للكعبة . وعند رجوعهم نظرت هزعت عند رؤية لورد جرانفيل
وزوجته قادمين مع سائر الضيوف . ولكن سارت الاحوال علي ما أشتهي لان الجميع
كأوا في صني وخصوصاً عند ما اطلعوا على الخبر القاتل بان عراي عند رؤيته الاسطول
في مياه الاسكندرية طلب في الحال نعتة احيش . وان أربعة آلاف من الرديف قد
تطوعوا لقتال . والقلق ظاهر على اللورد جرانفيل ولذلك فان حنجي قوية ودفاعي
عن الوطنيين لا يرد . وقد تحدثت معه عن كل شأن في العالم الا مصر . وهو رجل
تطيب للانسان محبته فانه يحدث من الطرار التقدم اذا أورد قصة أيقن ايرادها
وقصصه وان لم تناسب المقام كل المناسبة هي على الدوام جيدة . أما مع سائر الضيوف
فقد كنت أحدث عن مصر وأرى العطف والسرور ياديين علي بحيا كل من كنت
أحدثهم . فقد كان هنري كوبر حذاباً وكان لوريل وستوارت راندل يعطفان أشد
العطف . وكان ثابها لا يبدى عطفه الا بعد ما يفتي عن لورد جرايفيل وكان اليوم
جيبلاً فأخذنا نتش في البستان والحداثق . وكان هنري كوبر يقص علينا القصص
المستلمة . وقد روى لنا قصة عن دررائيلي بخصوص المسألة الشرقية . فقد سمع
دراثيلي يقول عن نانكرد وهو قصة قد ألفها عن المسألة الشرقية انه كثيراً ما يراجع
هذا الكتاب للقائدة لا للقضية ... »

وكان لوريل كما قلت يؤمن أشد الايمان بالحزب الوطني وكان طول العيف
عند ما يجتمع يوافق علي جميع ما أقوله .

وبما هو جدير بالذكر وله علاقة بهذه الزيارة أن لورد جرانفيل أرسل بعد
يومين أي في ٢٣ مايو تلفرافاً الى ماليت يفوض له فيه أن يعمل بما يناسب وكانت
نتيجة ذلك ارسال البلاغ الأخير في ٢٥ مايو

وكانت الأحوال كما كان براها مورلي في جريدة البال مال كما يلي :

« لا تزال الأحوال في طور خطر . فعراي مستمر في اتخاذ حطة التحدي . وهو الآن يلعب بأحسن ماعسده من الورق . وقد أحصرت حدود الاحتياطي ابي القاهرة في السلاسل والخنود ترسل بسرعة الى الساحل لمقاومة زول العارة الى البر . وقد أرسلت فرق المدفعية الى الاسكندرية والمدافع تحيط الآن بالبورج . وربما كان كل هذا في الأرجح نهوياً . يقصده عراي الحصول علي شروط اصلح مما ينتظر »

وقال مورلي في الحريدة أيضاً : « ان تجربة الاحتجاج الشديد بواسطة البوارج قد تمت وقد فشلت تماماً وهالك المذكرات :

٢٢ مايو — عدت الى لندن . وقابلت هاري براند الذي قال لي ان ذلك قد أخبره بأن المسألة لن تنتهي الا بالتدخل وقد أرسل هوتون يطلب مني أن يستشيرني عن مصر وقد قابلته في بهو مجلس اللوردة ونحادثنا ملياً . وقد نصحت له بأنه اذا كان سيدفع الحكومة الى ارسال جيوش الي مصر أن يرسل الى ابنته في الحال ليستدعيها الى مصر

٢٣ مايو — سئل اللورد حراغيل في مجلس اللوردة عن شؤون مصر فأجاب اجابات فكاهية

٢٦ مايو — تكلم غلادستون عن مصر فشاء بعبارات طويلة كلها خبط بلا معنى ولكن أهم ما فيها انه أعلن ثقته بان المسألة ستوى تسوية سلمية . وقد أرسل القناصل بلاغا أخيراً طلبوا فيه أن تعاد الى الحدبو سلطته وأن ينش عراي

« ٢٧ مايو — أنكر سلطان باشا أنه هو الذي اقترح كتابة البلاغ الأخير . رفض البلاغ الأخير . قابلت جرمجورى . وكلانا يعتقد أن المصريين لا بد أن يحاربوا وأنهم يجب علي أن أذهب الى مصر لكي أنضم اليهم . في تفراف في صحف المساء خبر استقالة وزارة عراي .

« ٢٨ مايو — كنت في كرايت يوم الأحد . جميع الأحوال تبدل علي أن الأمور تسير نحو الحراب في مصر . وأظن أن سلطة الحديوستعاد اليه الآن تحت المراقبة . واذا غادر عراي البلاد وسرح الجيش أو أعيد اليه ضباطه الشرا كه فان

مصر ستودع الحرية الزداع الأخير وسيكون نصيبها نصيب تونس . لقد اتصرت يا كولفن .

» ٢٩ مايو - لم أستطع اليوم فلما كانت الساعة الثالثة فت أمتشي . لقد آلمى وعذبي اني لم اذهب الى مصر عند ما ألقى حرا فيل خطته . وربما كنت أقدر علي نسوية . الآن عاد النور . قد حدث انقلاب مدهش في الجرائد فانها أعلنت أن جمهور القاهرة قد هاج وطلب إعادة وزارة عرابي وقد حصع الحديو لهذا الطلب . وهذه الاخبار لا تكاد تصدق لأنها لم تكن تنتظر . ولا يمكن الشك في صحتها لأن غضب الجرائد يدل على صحتها .

« فقد عدنا الآن الى الحال السابق بل نحن في حال تفصلها وليس ثم ما يخشي من سوى الباب العالي . وقد استقر رأيي على أن أسافر في الحال الى مصر . . . ذهبت الى لندن وزرت حرمجوري وتناولت القاء . عند هوارد وكتبت خطابا الى هاملتون أخبره فيه عن نيتي . »

وهذا هو خطابي الذي كتته الى هاملتون وأما متأثر بالحو الفلاستوني :

عزيزي هاملتون .

انه وان يكن مستر علاستون لم يسره اوسال تفرافاني الى مصر منذ أسبوعين فاني لا استصوب الاقدام علي عمل ما في مسألة مصر دون أن اكون على علم به . وأنا مقتنع بأنه سوف يقرر لي ما فعلته ويستصوب ما أنوى فعله الآن . وأنا واثق تمام الثقة بأنه سينحو في مسألة مصر ذلك النحو الذي تخيله عليه خطة الاحرار وذلك عند ما يقف على الحقائق .

وهأنذا أخبرك بالصبط عما سأقوله لزعماء الوطنيين . فاني سأحضرهم بادي يده علي أن يزيلوا من بينهم أسباب الخلاف الصغرى وهم الآن حيال خطر عظيم . وسأحضرهم أيضاً كما سبق أن فعلت في الماضي علي أن لا يشتبكوا مع الحديو في شجار . واذا منحت لي الفرصة بمقابلة الحديو فاني سأحبه أيضاً علي أن لا يتقاد الي القناصل الذين يفرونه بالامة وسأحضر عرابي علي البقاء في وزارة الحرية حتي تكون قيادة الجيش في يده ولكنني سأنصح له بأن يترك جميع المناصب الاخرى لكي يملأها

رجال من غير الجيش وخاصة من أعضاء مجلس النواب . وسأحدث المصريين على أن يحتفظوا سقاء أحسن العلاقات الودية مع السلطان الا فيما يختص بدخول الجيش التركي للبلاد كما عليهم أيضاً أن يحتفظوا مثل هذه العلاقات مع الدول الاوربية إلا فيما يختص بحقوقهم الدستورية .

وأيضاً سأوضح لهم بأن يسلموا ببعض ما تطلبه منهم المراقبة كما سبق أن نصحت لهم بمثل ذلك في يناير الماضي . قتال المراقبة بذلك ما يدعيه شأن الميزانية وسأطلب الى النواب تأجيل النظر في حقوقهم الى العام الآتي . وسأشرح لهم الحالة بمقدار ما يتيسر لي فهمها فأخبرهم بأن الحكومة الانجليزية وان تكن ترعب في بقاء استقلالهم فهي مع ذلك مرتبطة بروابط قد عقد عقدها الوزراء السابقون . وسأخبرهم أيضاً عن مرامي الحكومة الفرنسية التي تجري على المآثور من خطتها وهي خطة التوسع في البحر المتوسط وأن الماليين يدفعونها الآن الى الحري على هذه القطة . وسأخبرهم عن مرامي الحكومة الالمانية وانها تنوى تحويل اتجاه السياسة الفرنسية من المسائل الداخلية الى المسائل الخارجية والى حل التحالف الانجليزي . ثم أخبرهم أخيراً عن مطامع السلطان واحلامه في الخلافة وهذه مسألة يهتمونها على الاقل بمقدار ما أفهمها أنا .

ولست أقصد الى الاشتراك معهم في المسائل الحربية اذا نشب القتال إلا عند الضرورة القصوى اذا كان الأتراك هم المعتدين عليهم لاني لا أعرف شيئاً عن الحرب ونفسي تشتمز منها وتستفظمها .

ولكني سأحض المصريين على أن يقاوموا الفرو من أي الجهات أتاهم . وفي حالة الهزيمة عليهم أن لا يدفعوا الضرائب التي لم تفرها القوانين . أما إذا لم يمتد عليهم أحد فاني أطلب اليهم أن يقوموا بداد جسيم ما عليهم من الديون الى آخر فلس . ولست في حاجة لأن أتمد فيهم روح التعصب لاهم ليسوا متعصبين ولكني سأخبرهم صوتي الي صوت عربي في تفسير قوانين الحرب بما يلائم قواعد المروءة . ثم اني أرغب أن أكون قريباً من الوطنيين حتى أستطيع حماية الاوربيين في بدء القتال .

وأظن أني لست مخفكاً في اخبارك بهذه الأشياء . فالحظة التي أرسها في ذهني لكي يجري عليها الوطنيون هي أن يتخذوا قاعدة يسرون عليها تقارب ما يجري عليه سائر الشرفين معبرة تامة . فاني أطلب اليهم أن يقولوا الصديق حتى لأعدائهم . وأن يكون في حودهم من المروءة أكثر مما عند أندادم من الخنود الأوروبيين . وأن يكونوا من حيث القيمة أشرف من دائيتهم . لأنهم بهذا فقط يمكنهم أن يحققوا الإصلاح الذي ينشده رجال الدين عندما واني المخلص لك

و - ص بلنت

وقد ذكرت الابل مال في هذا التاريخ أقوالا جديرة بالاثبات هنا . لأنها تظهر كيف أن وزارة الخارجية بواسطة كولفن وبيك وأمثالها كانت تصور الحالة تصويراً كاذباً . فان رسائل ماليت قد حطت هذه الوزارة تعتقد أنه ليس ودا . عراى سد من الأمة وأن الحديدو محبوب عند جميع أفراد شعبه . وانه لم تكن الأحوال تستدعي سوى شيء من التظاهر بالمساعدة الخارجية من ناحية الاستانة حتى يتضح الولاء للحديدو . وإذا كانت هذه المساعدة الخارجية لا تحمل الحيش بخضع فاتها ستحدث حرباً أهلية تتطلب التدخل .

وهناك ما أقول الابل مال في ٢٦ مايو :

« ان البلاغ الأخير الذي أرسلته فرنسا وإنجلترا للوزارة المصرية سيقبل أو يرفض في ظرف ٢٤ ساعة . وعلى ذلك ستحل الأزمة هذا المساء . وسيرسل الى الاستانة في طلب « الجنديومه » لكي تعيد الى الحديدو سلطته تحت مراقبة إنجلترا وفرنسا . »

وتقول أيضاً في ٢٧ مايو . « ان الحالة في مصر سيفصل فيها في بضع ساعات وسنرى ما اذا كانت الأزمة ستفرج في سلم وأمان أو تنتهي بحرب أهلية وتدخل أجنبي . لقد استقالت الوزارة وقبلت الى الآن شروط البلاغ الأخير الذي أرسلته فرنسا وإنجلترا . لكن علينا أن نحسب لما سيفعله عراى حساباً فقد يلقي القناع عنه ويصارع رئيسه بالعداء . »

أما هذه الحرب الالهية التي تقول عنها البال مال ووضحتها في اليوم التالي أي في ٢٨ مايو اذ قالت :

« قضي الخديو ليلة أمس في قصره بالاسماعيلية يحيط به اثني عشر الف بدوى من المحلصين لسموه . ووجود أطفال الصحراء هؤلاء في عاصمة مصر سيكون حائلا دون ظهور عرابي وانتصاره . ولا شك أن وقوع قتال بين البدو والحيش المصرى سيكون من الأشياء المزعجة الحيفة . ولكن حدوث هذا القتال سيحل الازمة حلا سليا ... فان مركز عرابي لم يعد كما كان قلا . فانه ليس يتفرد الآن وحده بقوة السيف . لأنه اذا كان الخديو لا يستطيع اخضاع عرابي بمونة البدو والى طهره البوارح الانجليزية والفرنسية ومعه مجلس الأعيان فان الحالة يجب أن تكون عندئذ أكثر مما قدرها الناس الى الآن » .

فما أعجب هذه الأقوال : أجل أليس من العجب أن يقال أن اثني عشر الف بدوى قد أحاطوا بقصر الخديو بالاسماعيلية ؟ وان أعضاء مجلس النواب علي ولا . تام للخديو وان عرابي قد وقف مفرداً يهدد الجميع ويلقي الروع في قلوبهم ؟ ومع ذلك فان هذه المقتريات التي كان يذيعها جون مودلي « الشريف » هي التي أغرت غلادستون بأن يعاقب الوطنيين المصريين الذين لا يخضعون بأن يرسل اليهم الاتراك حتى تفصل بهم جنودهم ما كان يفعله الباشبوزق في الفظائع البلقارية بل كان يود لو يرسل اليهم « رجل الخطية » عبد الحيد نفسه . ولكن هذا الزم الذي أذاعته هذه الصحف عن الخديو وانه محبوب عند شعبه لم يش يومين اثنين . لأننا بعد ذلك قرأ في البال مال جاريت في ٣٠ مايو ما يلي :

« لقد آن الأوان لأن تقوم بعمل عاجل في مصر . فان الخديو قد سجن في سرايه . أما الاثني عشر الف بدوى فقد ذهبوا في الهواء كأن لم يكونوا .. » الخ وكنت في هذه الأثناء أنتظر خطاباً من دار رئيس الوزراء رداً على خطابي السابق وكنت أيضاً أتتبع المسير الي مصر في أقرب وقت . وكان مستر غلادستون خارج لندن يقضي بضعة أيام مع لورد روبرى في دوردان . وكان وجوده خارج

سدى ذلك الوقت نذير شؤم لى : قد كنت أعرف آراء روزبري عن المسألة
نصرية لاني كنت قد قابلته في دار رئيس الوزراء قبل ذلك وخرجامعاً يصحبها
هاملتون وميرنا مدة في الحديقة الصغيرة القريبة من باب مترو سان جيمس . فألتفه
وعن في الطريق عن رأيه في مصر فأجابني جواباً مختصراً بقوله : « ليس لى آراء
مطلقاً عن مصر . فان رأيتي هو رأى المساهمين » .

فقد كان ينهم بالوجهة المالية في الموضوع وذلك لان زوجته كانت من أسرة
رونشيلد ولذلك اعتبرت زبارة غلادستون له في هذا الوقت نذير شؤم . ولم يكن
روزبري بعد عضواً في الحكومة ولكنه كان ذا نفوذ عند غلادستون وقد عرفت
من باتون ان رونشيلد كان يدفعه الى تحقيق غاية السياسة . واستمرت الحال على ذلك
سنوات وقد كانت المهمة التي سافر من أجلها الى برلين في سنة ١٨٨٥ يعزى بحاجتها
الى مساعي رونشيلد . وبعد ذلك كلت برالى خدمة أسرة رونشيلد في وزارة
الخارجية ولو اني قد سمعت انه باع أسهمه في الدين المصري قبل أن يعين
في الحكومة

واليك شيئاً من المذكرات :

« ٣٠ مايو — لم يصلني الى الآن رد من هاملتون . ومستر غلادستون ليس
في دوردان الآن . ولكن كل شيء يسير سيراً حسناً في مصر . فالمعترف به الان
أن عرابي قد امتلك ناحية الحال . وقد وصلتني رقعة امس من هاتون يطلب فيها
ان براني ثانياً . وقد ذهبت اليه في منزله في مايفير وأخبرته بعزمي علي السفر الى
مصر . وقد شعرت من أسلوبه أن لورد جرايفيل قد دسه لكي يعجم عودي .
وقد أخبرت ادارة المصرف الذي أحفظ به أموالى ان يعد لي ألف جنيه ذهباً فرنسوا
لكي اقضها على مصاريف الحرب . واني أكره هذا السفر الآن ولكنني سعيد لاني
أؤدى حقاً . وسيسافر معي أيضاً صابونجي

« ٣١ مايو — بكرت في الصباح وذهبت الى لندن فوجدت رقعة أخرى من
هاتون يؤكد على فيها بصد السفر : وانا متأكد الآن ان مقاله انما قد أوحى اليه
به من مقام رسمي . وفي رقعة هاتون ما يستحق الذكر . فهو يقول : « عزيزى

لست . تؤكد عليك بأن لا تذهب الى مصر في هذه الاوقات . فان ما ستفعله أو تفعله هناك سيء ، وسيبره ويحمل على حمل لم يقصد اليه . وقد تحالف الحرب العسكري و الباب العالي وهذا التحالف لا يوافق آراءك . وأرحوك أن تخبرني عما يصلك من الاخبار . هذا وابنتي لا تزال في الاسكندرية ولكن قلني بخصوص قترحيرالد الذي يكرهه الجيش الآن لاقتصاده الحربي — واقبل صداقة المحلص لك — هارتون . حاشية . اذا ذهبت فاحضر معك صديقك عرابي ونعال معه اليها هنا لتناول العشاء معاً »

« وجاءني أيضاً تلغراف من هاملتون يقول فيه : « وصلنا خطاكم . أرحوك أشد الرحا ، ان لا تفعل شيئاً قبل أن تراني . وسأعود هذا المساء » وكان قد ذهب الى سالري وفي الساعة الخامسة والنصف وجدت هاملتون في منزل رئيس الوزارة فرحاني كثيراً أن لا أذهب الى مصر لان مركري هناك وعلاقتي بمنزلة دستون سيا ، فهمها ومحدثان حلبة وضجة ها . ثم وعدني بان الجيوش لن ترسل الى مصر ولن يحدث تدخل ما . أما انا فقد سأله الا يصدقتني مشولاً عن حوادث قد يمكن وقوعها وكان وجودي هناك يمنع وقوعها هذا . قال أنهم لن يلقوا على هذه المسئولية . »

« وصلتني رقعة كبيرة من القيدى جراحيل تدعوني فيها لحضور احتفال سيعقد بوزارة الخارجية في الثالث من الشهر تذكراً ليوم ميلاد الملكة . وسأحفظ هذه الرقعة باعتبارها جواباً على التهمة التي ينهني بها هاري براند بأنني أخون بلادى والان أنا في غاية الرضا وسأذهب صابونجي بدلاً مني وسيقوم بجميع ما أريه . وقد أرسل الى عرابي تلغرافاً عني جواباً على خطابه لي . وهذا نص التلغراف :

« وصل خطاكم . لا تخش الوارج لن يحدث التدخل . ورج منشورات في جميع أنحاء البلاد بخصوص سلامة الاجانب »

وكان هذا التلغراف قد أرسل بناء على اقتراح هاملتون

« أول يونيو » تسير الاحوال كما أشتئى . فمرابي مالك لتأصية الحال و مصر . . . ويعلم باتون ان التيسر ستدفع لي من التلغرافات اذا أرسلها اليها صابونجي

وهذا ما أحب . وقد اتفقت مع صابو نجى على أن أدفع له مرتباً قدره ثلاثون جنيهاً شهرياً غير مصاريفه . . . ذهبت الى مجلس العموم مع نيجل كـحـكـوت وهو القيم على خيول ولي العهد . فدخلنا في قاعة الرئيس . فأعلن غلادستون أنه سيعقد مؤتمر في الاستانة . ولن نبأ الجيوش في الهند ولن نرسل جيوش الى مصر . لأن هذا الفصل يجعل حياة الأوربيين في خطر . وقد سألت مكوان رئيس تحرير جريدة الليفانت هيرالد السابق عما اذا كنت سأسافر الى مصر لكي أدبر فتنة هناك . فأجاب ذلك بأنه يعتقد أنى قد تحولت عن هذه النية .

« ثم صرح غلادستون بهذه الصلابة العجيبة وهى : (ان عرابي قد ألقى عه القناع) وهدد الخديو بالقطع ووضع حلجم مكانه على عرش مصر . وهذا القول خفيف ومن واجبي ان اتقصه وهو أيضاً برهان على ملخ الحيل الذي تتورط فيه وزاراتنا الخارجية . ولا شك ان غلادستون سيفصب من ماليت لأنه قد قاده الى هذه الورطة . وقد صاحني فرائك لاسل في الطريق وأخبرني أنه رأى تلفراف ماليت الخاص بتصریح غلادستون . وكل مائة التلفراف ان الخديو أخبر ماليت بذلك وأنه لا يضمن صحته فيمثل هذه الاخبار تتعلق سياستنا »

وتلفراف ماليت كما ظهر بعد ذلك في الكتب الزرق يصرح بأقل من هذا وهذا نصه : « ارسل الخديو اليوم في طلبنا انا ومسيو سينكفـكـز وأخبرنا أنه علم أن الحزب العسكري ينوى خلعـه مساء اليوم واعلان حلجم باشا حديوياً لمصر . . . وقال لنا الخديو انه لا يكاد يصدق هذا الخبر » ومع ذلك فان مستر غلادستون يتعلق بهذه الاشاعة الواهية مع انه سبق أن صرح لي بأنه لا يلقى القول جزافاً في البرلمان وقد أشار علي أن أنتظر مايقوله في مجلس العموم وان للعـرـيـن سيرون في أقواله بشرى سعيدة بللادم . أقول انه مع كل هذا يفوه بهذه الكذبة بعد مدة طويلة لم يقل فيها كلمة عن مصر . وان هذه العبرة يندرك منها هذه الطرق التي يتبعها الوزراء والاسباب التي يتعلق بها عقل غلادستون وكان الأثر الذي أحدثته خطبة غلادستون في ذهني زوال الشك والأمل في مسألة مصر من ناحية وزارتنا فلم نطاولنى نفسي بعد ذلك على أن أثق في مستر غلادستون أقل ثقة . حتى انه عندما

فلم يدافع عن الحكومة الذاتية في اولندا وجعل من نفسه زعماء لهذه الحركة لم انخدع به بل اعتبرته رجلاً برلمانياً لا أقل ولا أكثر . واست اقول اني عند ما قابلته في ٢٢ مارس وحاطبني وكله مروءة وحماة عن الوطنية المصرية لم يكن مخلصاً فيما قال ولكي اقول ان عطفه على الحق لم يكن العامل الأكبر في سياسته التي كانت عليها عليه بواعث النجاح واشهر الفرص . ومن ذلك الوقت زال عني ما كنت أتوهمه فيه ولم يعد الى رأيي السابق فيه .

وابيك المذكرات : « ٢ يونيه . كان بمنزلي لورد دلاوار وحرمجورى ورايد وباتون . وكلهم متقاتلون عن الحالة إلا براند ولا يزال هارى يقول اني خائن وان عرابي قد أنرى إثراء عظيماً وانه يجب طرده من مصر . ثم اتفق باتون مع صابونجي على رموز لكي يستعملها باتون في ارسال التلغرافات اليه . وقد اعطيته مائة جنيه لمصاريفه سيقدم لي عنها حساباً . وسنرسل الى التلغرافات طاحولها أنا بواسطة باتون على التيسر . وقد اعطيت التعليقات اللازمة لصابونجي وأنها أن يخبر عرابي بان يتصلح مع الحديرو وأن لا يذهب الى الاستانة معها كانت الاسباب . وقد رزمناله أمتعته وودعاه وليس عندنا من قلق بشأنه سوى الخوف من أنه ربما يحجز في الاسكندرية . ويقول لي باتون اني لو كنت الحجت على الذهاب الى مصر لكانت الحكومة أصدرت الأوامر لسير سيمور بمنحي من النزول في الاسكندرية .. وأنا الآن مطمئن » .

ولو كنت سمعت خطبة غلادستون قبل أن أعد هاملتون بعدم السفر الى مصر لما رجعت عن نيتي في الذهاب . ولكي لا أعلن أنه كلن ينتظر من هذا السفر شيئاً من الفائدة كما دلت علي ذلك الحوادث الثانية . ولو كان قد سمح لي بالنزول في الاسكندرية لما كان لي من النفوذ لدى عرابي أكثر مما كلن لصابونجي . لان صابونجي كان قد آ في تأدية مثل هذه المهام ولا أعتقد اني كنت أحصل على خير منه لو لم يتم هو بها . فقد كلن رئيساً لتحرير صحيفة تدعي النحلة . وسواء اكانت هذه الصحيفة تحصل على اعانة من اسماعيل أم لم تحصل فانها كانت تدافع عن الابرار . سائرة في سبل التقدم واصلاح الاسلام . فكلن لصابونجي مركز عظيم عند رجال

لازهر ثم هو كن مع الحركة الوطنية قلباً وقالاً ولكن يقابل بالترحاب عدد جميع لوطنيين باعتباره نائباً وكانت الثقة فيه عطية حداثاً وهو أيضاً كن جديراً بهذه الثقة. فان الخطابات التي ائتمسته على ارسالها الى رجال الحركة قد وصلت اليهم وقد تخفي جميع ما قالوه له. وهذه الخطابات شاهد عدل بل الشاهد الوحيد على مجرى الاحوال في تلك الاوقات. وفي نهاية هذا المجلد يرى القاري خلاصة هذه الخطابات وقد وصل صابونجي الى الاسكندرية في ٧ يويسه وبقى فيها الى قبيل يوم ضررها بتنايل البوارج.

« وقد بقي صابونجي في خدمتي الى آخر سنة ١٨٨٣. ثم تركني وسافر الى الهند حيث كن له اقارب. وتقلب به الاحوال حتى انتهت به الى ما ينتهي اليه جميع رجال الثورة الشرقيين. أي سراي يلدر. فقد عين هناك مترجماً ينقل للسلطان ما يريد معرفته من الحرائد الاوربية. وأعلن أنه لا يزال هناك الى هذا الوقت أي سنة ١٩٠٧ »

الفصل الثالث عشر

« بثة درويش »

لقد وصلت الآن الى نقطة في تاريخ هذه الدسائس لو لم يكن لدي مواد مطبوعة شبيهة بالرحمة اعتمد عليها لعد القراء ما أروبه لم قصصاً خيالية لا أصل لها. فان الانسان لا يكاد يصدق أن حكومة حرة على رأسها هذا العظيم الطيب القلب غلادستون تقدم علي عمل يخالف الآداب سواء كن هذا لاسباب سياسية أم مالية أم لضرورة خاصة. وقد وضع جون موزلي ترجمة غلادستون فاغضي عن تاريخ هذه الاقتحامات التي اندفع فيها غلادستون في مسألة مصر. فلم يذكر عن هذه المسألة في ترجمته هذه سوى خمس عشرة صفحة مع أن الترجمة تحتوي على الف وخمسمائة صفحة كلها تقريباً. وله الحق في ذلك لانه لو أراد الاسهاب والتفصيل لما وجد ما يبرر خطة المترجم له. ومع كل ذلك يجب أن يكون لدى المؤرخين الذين

لا يصطرون الى مراعاة التكم هذه التفاصيل . لان الثاريج الذى بهل هذه الاشياء عن احتلال مصر ان يساوى قيمة الورق الذى يطعم عليه .
فانه عندما جاء أول يوبه تيبس أن حطة الارهاب وانتحوف التي اقتضت محي . الاسطول للاسكندرية قد فشلت فشلا تاماً . نعم ان ودرة محمود ساقى قد استقالت ولكن هذا النجاح الابتدائي قد أعقه جيوط عظيم .

وكان البلاغ يطلب من عراي مكل وصوح أن يخرج من مصر . فلم يقابل عراي هذا البلاغ بالعصيان فقط بل ان الحديو نفسه قد اضطر بقوة الرأى العام أن يرده الى مركز وراة الحرية ثانياً بعد أن رادى سلطته ووجاهة مقامه . فوجدت وراة الخادحة نفسها بين أمرس . اما أن تكظم غيظها وترضى بهذه الهزيمة العلنية واما أن تبرر ارسالها هذا البلاغ وتقم لكلمانه وزناى وقت كانت قد بدأت فيه أوروبا تنظر الى عراي باعتباره بطلا من أبطال الوطنية .

وكانت فرنسا شريكة المجلترا فى هذه المسألة قد أخذت منذ وقت طويل تحمر مرغها فى الخروج من هذا المأزق . وككلت حكومة ستر غلادستون تكون الوحيدة فى الاستمرار على هذه الحطة . وكانت هذه الحطة من أغرب ما يمكن حكومة مسدية أن تتبعه وكان وجود ستر غلادستون على رأس الحكومة الانجليزية مما يزيد هذه الحطة غرابة . فقد كانت تلخص هذه الحطة فى الرغبة الى الباب العالى أن يتدخل ويخلص مصر من عراي . ولم يكن هذا التدخل قائماً على استعمال الباب العالى سلطته باعتباره صاحب السيادة على مصر ولا كان أيضاً بارسائه « الجندرمه » التى سبق أن ذكرنا الأشاعة التى راجت فى وقت ما عنها . كلا . قائماً ككن هذا التدخل قائماً على تلك الأساليب التركية القديمة المنطوية على الحياء والفدر . وهي أساليب كثيرأما استعمالها الباب العالى فى اخذ حركات التأثير المسيحيين وغير المسيحيين من رعاياه عندما كان يشتم منهم بارة النجاح فى نورأهم وأول ما يلزم الى هذه التدبيرات ما ذكرته البال مال غازيت فى احدى مقالاتها الموحى اليها بها وذلك فى ١٥ مايو حيث ذكر مودلى بعد ان أوضح رضى الحكومة عن الحالة « ان عراي قبل مضي زمن طويل ستخلص البلاد منه بطريقة سليمة

حادثة « وهذه التدابير لم يمش بالطع سرها في الكتب الزرق . ولكنها ظهرت صد ذلك في البال مال حيث صرحت ناشيا . صراحة - اذحة كأن كانتها لم يشعر أقل نحو بدد اتيقة بما روى . وحلاصة هذه التدابير أن يرسل السلطان الي مصر سحوثا حريا من طرار الحدود اللدس مارسوا الخدمة مدة طويلة وفيهم من النشاط والاستعداد للدوس علي الضمير ما يمكن ان يخيف بها المصريين ومجولهم عن المقاومة . أما عن عراي فان النية كانت في ان يغريه بالزول في احدي اسمن حتى اذا استقبلها انحررت به الي الاسانة . وادا لم يصح هذا التدبير كن علي هذا المبعوث ان يدع عراي الي اجتماع ثم يقتله بنفسه . وكان هذا المقترح يوافق ما كان قد اقترحه كواهن منذ نمة أشهر علي الحديوي وكا كواهن يقتدر بذلك فلم يكن اخذ هذا التدبير بعيد الاحمال . وعلى ذلك أرسل السلطان رجلا يدعى درويش باشا وكان من حيث الخلق والسوابق يوافق هذه المهمة التي انتدب لها في القاهرة

وقد قال مورلي في مقال يفتح سرور آ لا رسال هذا المبعوث العيا مايلى :
« لقد وصلت الازمة المصرية أقصى حدودها . ولكن يظهر ان في القاهرة الآن رجلا يستطيع ان يملك ناصية الاحوال . فان في وحاجة درويش باشا الهادئة الرصينة شيئا من التأثير . فهو بلا شك رجل الساعة . فانه مما يريح البال ويزيل القلق انه بعد عدة قلبات ومراولت مارسها السياسيون الذين يمثلون الآن هذه الدراسة المصرية تمجد رجلا بجمل الآخرس يخضعون لارادته بقوة شخصيته الكبيرة . فليس هناك شي . أكبر آرا من اثباته لسلطته ولا أبرع من اشارته اشارة عرضية الي مذبة الممالك . ان درويشاً رجل من حديد وحق عراي ان يرتجف أمامه . فما هو ان ينطق بكلمة خرقا . حتى يرى رأه . ه تندرج أمامه علي السجاد . أحل ان درويشاً قادر علي ان يعالج عراي بالطريقة الشرقية لا بالطريقة الغربية . ومن المرجح ان الثورة المصرية قد وجدت سيداً لها في هذا التركي القوي العزيمة »

ثم هناك ما يقوله أيضاً في ١٥ يونيو « ان تلويح درويش الماضي حافل بالحوادث التي تزيد هذا الأمر الذي تركه في القاهرة من حيث نشاطه وقوته . فهو أشط اتمواد في الجيش العياي وأقلهم احتفالا بالضير والذمة . وهو مع انه في السبعين من عمره

فان ارادته لا تزال كما كانت قديماً من حديد . وقد مارس الحروب أولاً في الجبل الاسود وكان الجبلون يرون فيه أخطر القواد الذين يقاتلونهم . وفي آخر قتال حدث بين الباب العالي والجبل الاسود (في سنة ١٨٥٦) سار درويش الى جراكوفو وهي أبعد بلاد الولاية الشمالية . وسبع بعض الاهالي من التفتقر الى الجنوب فلبأوا الى مغارة واختبأوا فيها . وهذه عادتهم اذا داهمهم عار . لان هذا الكهف الذي كانوا يأوون اليه كان يتمتع على الغزاة احرأهم منه لان الطريقة المألوفة في مثل هذه الحالات وهي التدخين على باب الكهف لم تكن ناجعة في هذه الحالة . وحاول الأتراك النفوذ الى المغارة ولكنهم ردوا عنها بسهولة . فصد درويش الى المفاوضات واتفق على التسليم بشرط أن يحترم حياة المحصورين وأموالهم وحريرتهم . وكانت النتيجة ان الأتراك بقيادة درويش حافظوا على شروط هذا الاتفاق بأن قتلوا جميع المحصورين . وكيفية ذلك اهم سيعوا الى مطبق في القاعة ثم وضعوا في الاغلال كل اثنس منهم معاً طيراً طاهر ثم قتلوا . وذلك بأن يقتل أحد الاثنين فيحملة الثاني الى حيث يدفته وبعض الناس لا يعرف الطريقة التي سلكها درويش في الحرب الالبانية . فقد ذهب الى البانيا لكي ينفذ قانون التجنيد ففشل فشلاً تاماً . وقد أشاع أساطير عن معارك لم يكن لها أصل لأنه لم يلق مقاومة تذكر . ولكنه نجح في طريقة أخرى وذلك بأنه كان يرسل في ضياع الييكوليت الاغنياء وكان يعتصرم حتى يخرج منهم آخر رلس . فاذا انتهى من أحدم ذهب الى غيره . وكل يرسل الى الاساتنة . بالنقود ولكنه لم يرسل اليها مجتدين . فاذا كنا نبنّي قنبولنا بصدد البعثة درويش في مصر على أعماله السابقة في البانيا والجبل الاسود فالتأثرى به سينجح في مصر . فان المصريين أقل ميلاً لقول من الجبلين والالبانيين ولكن عتدة المسألة المصرية يحتاج أيضاً الى السيف لقطها »

فهذه أقوال عجبية وجدير بحون موزلى اذا تذكرها الآن ان يعرفه الحرى والجبل لانه قد اتخذ بما قاله له أصدقاؤه في وزارة الخارجية حتى وقف من ضه في ذلك الصيف محامياً ينفوذ عن جرائمهم . فلامجب بعد ذلك ان لا يذكر المسألة المصرية الا في عدة صفحات في تاريخه . وهذه أعمال عجبية أيضاً من رجل مثل

غلاستون اذ ماذا يقول فيها لو أنه دعى الى ايصاحها امام صميره الرسمي او غير الرسمي . حقا ان طيف درانيلى ليصحتك من هذه الاعمال والاقوال ا

الا ان مئة الساطن لم تكن كما توهمت ودارتنا الخارجية مهزلة من الانتم ساذجة فان امير المؤمنين لم تكن له رغبة في أن يكون آلة مسخرة في يد الغرب يفعل لهم أفاعيلهم ويحترم جرائعهم . فقد كان راصيا مالتدخل ولكن على هدى . وكان يجهل الحالة في مصر وكان يريد ان يستعد لجميع الطوارئ . وكان لمرأى أصدقاء في البلاط يمثلونه باعتباره مداعما عن الدين ولم يكن السلطان يثق مطلقا بتوفيق . ولكن يرغب أن يصح حليما في مكانه . فانع السلطان طريقته المعبودة في تعيين وكيلين متعارضين في الخطة . فانه الى جانب درويش عين شخصا آخر يدعى الشيخ احمد اسعد وكان من مشايخ طرق المدينة وكان يقيم بالآستانة ويستخدمة السلطان في المهمات السرية الخاصة بالمائل العربية . وكان يستشير في جميع المسائل الخاصة بالعرب وبالدعوة الى الجامعة الاسلامية . وكان هذا الشيخ مواليا لعراي

فلما وصلت البعثة الى الاسكندرية تبين الامران لها صفتين . أحدهما في شخص درويش وتطوى على تهديد عراي . والاخرى في شخص الشيخ احمد اسعد وتطوي على المصالحة والمسالمة . ولكن من المهمات التي عهدت الى هذا الشيخ خاصة ان يبلغ السلطان عن الشعور العام وعن رأى علماء الازهر وكان يخاطب السلطان بأرقام قد اتفق الاثنان عليها قبلا وكان درويش لا يعرف هذه الارقام . وكان عراي وأخصاؤه قد علموا بذلك قبل وصول البعثة فقابلوها بشيء من الترحاب . فكان منظر استقبالها غريبا . فمن جهة كان الشراكة والأتراك يرحبون بدرريش بينما كان المصريون يرحبون بشيخ المدينة

وقد أرسل كل من الحديو وعراي مندوبين لاستقبال البعثة في الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الحديو وكان يعقوب سامي باشا ينوب عن عراي وكان عراي قد سبق فأرسل عبد الله نديم الخطيب لكي يهيء الجمهور حتى يحسن استقبال البعثة ويحتج أيضا على البلاغ الأخير الذي أرسله مالييت وزملاؤه الفرنسيون للحكومة

وعلى هذا استقبل الجمهور المبعوثين وكان كل مهبا في مركته ومعه مندوب .
فكان الجمهور يصيح « الله يصر السلطان » ثم بلى ذلك : « اللاحمة مرفوضة .
مرفوضة » يريدون بذلك رفض البلاغ الاخير . وأيضا « ردوا الاساطيل » .
وكان لهذا المئات آراء عدد درويش فانه احتاط لنفسه من ذلك الوقت . وقد
ذهب الى البعثة وهي في الاسكندرية والقاهرة مدعوبون من الاعيان والتجار والموظفين
وكان درويش يجههم على السواء . إجابة عامة . وهي ان السلطان سيجري العدل وانه
هو قد أتى لكي يرد للسلطان سلطته وبعيد النظام . ولم يصرح الا للأتراك بأن
عراي سيرسل الى الاستانة . اما للمصريين فانه كل يصرح أن الاساطيل ستفادر
الميناء في أقرب وقت بينما كان الشيخ اسعد يطمس عراي ويخبره بان السلطان لا
ينوي محوه الا باليات الحسة .

أما الصفات التي اعتقدت وراثة الخارجية الانجليزية ومورلي وجودها في
درويش كما تدل على تلك القطعة التي نشرها مورلي واقتبسناها فلم يكن لها تلك
المسحة القاسية التي توقها مورلي . فقد كان درويش رجلا منا وكانت عاقبته أن
يعلأ جيبوه لا أن يشتبك في نزاع مع رعي الملاحين . وقد تمكن توفيق من أن يدفع
له خمسين ألف حبه وقدم له من هبات الخلى ما يقدر بمئة خمسة وعشرين ألف حبه
ولكن درويشا مع ذلك لم يحاول أن يصر ب عراي صرة قاضية . فقد حاول مرة
ان يهدد المواطنين ولكنه نعلم من هذه ألا يعود الى مثلها بعد ذلك . وفي يوم الجمعة
التالي لقدومه زار بعض المساجد وعبر عن استيائه من العلماء لأنه عندما خرج من
الأزهر نحر أواعلى أن يقدموا له عريضة ثم لم يكتفوا بذلك بل رادوا جرائهم وذهبوا
اليه بعد الظهر وزاروه وعبروا عن أفكارهم بحرية لم يألفها .

وكان جميع هؤلاء العلماء باستثناء العباسي شيخ الاسلام السابق والبحراني والاياري
والسادات في صف عراي . أما هؤلاء الاربعة فكانوا في صف الحديوي . وقد طلب
العلماء منه أن يرفض البلاغ وبخاصة تلك الفقرة التي تشترط بي عراي . فأمرهم درويش عند
ذلك أن يلزموا الصمت وقال انه اتما أتى لكي يلقى الاوامر لا لكي يسمع النصيحة
وطردهم وفي نفس الوقت أنهم بالسام العثماني على شيخ الاسلام وسائر المنشقين .

ولكن الرأي العام تحلى في الحال بصورة لا تترك مجالاً للشك . فقد عاد هؤلاء
للتأنيب من لدنه وهم في أشد الغيظ وأخبروا كل واحد بانجاء التيسار حسب مارأوه
من لهجة درويش وفي نفس هذا المساء أرسل الوطيطون رسلكم الى المديرية في قطارات
للساء لكي يدبروا الاحتجاجات . وعقدت عدة اجتماعات تلك الليلة في القاهرة
تخطط فيها المجتمعون على البعث . وفي اليوم التالي عقد اجتماع كبير من الطلبة في الازهر
واحتجوا على الاهانة التي نالت مشايخهم وفي هذا الاجتماع دعى عبد الله نديم الى
الخطابة فخطبهم خطبة بليغة .

فلما بلغ درويشا هذه الحوادث اهتز لها ففقد ثقته ولم تمض ساعات حتى أرسل
الى عرابي الذي كان الى ذلك الوقت يرفض مقابلته ودعا أيضا محمود سامي وخطبهما
بواسطة مترجم وبلهجة المصالحة . وكان الشيخ أسعد مع المترجم يساعده في إيضاح ما يريد
وعلى الرغم من أن درويشا لم يقدم لهم القهوة أو السجائر — وهو ملاحظه
عرايى ورفيقه — فان لهجته كانت غيل الى المصالحة . فقد جعلها يجلسان الى جانبه
وأخذ في فحص الحالة فحسا عليه مسحة الصراحة . فقال : « اتنا هنا جميعا اخوان لانا
أبناء السلطان . ويمكننا أن تطرا الي والى هذه اللحية البيضاء باعتباري أنا لكاء .
ثم أن قصدنا جميعا واحد وهو مقاومة الاجاس ومبارحة الاسطول الذي يهدد سلامة
القطر المصري ويجلب العار بوجوده ها على السلطان . فالواجب علينا أن ننظر الى هذا
القاية وأن نظهر غيرتنا لمولانا . كل هذا يمكن عمله بان (وهنا وجه الخطاب الى عرابي)
نزل عن سلطتك لي ولو في الظاهر وتساقر أنت الى الاستانة لكي ترضى السلطان »
فأجاب عرابي بأنه مستعد لان يستقيل . ولكن بما ان الحالة خطيرة والمسئولية
عظيمة فهو لا يرضى بأن يؤدي نصف العمل . فاذا استقال فيجب أن تكون استقالته
بالفعل والقول . ولكنه لن يستقيل الا اذا تسلّم خطانا تدون فيه اقالته . ثم انه لن
يكون مسؤولا عن الاشياء التي تعزى اليه والتي يعتبر نفسه بريئا منها . فقد سبق ان
اتهم بارتكاب اللطام وانتهاب أموال الحكومة وما الى ذلك فهو لن يترك منصبه
الا اذا حصل على اقالة مكتوبة تتضمن تبرئته بما عزى اليه . ثم انه يؤجل سفره
للاستانة الى وقت تكون قد هدأت فيه الحالة . وعندئذ يذهب باعتباره أحد أفراد

المسلمين ليقدم فروع الطاعة للحليفة . ولم يكن دورش مستعداً لقبول هذا الجواب فلم يستمره وتغيرت هيئته . ولكنه قال : « فليعتبر أن المسألة قد سويت » ثم أشار الى الميخاض الذى رآه فى الاسكندرية وقال : « ارسل نلقرافاً لعمر باشا اطلقى (المحافظ) . وقائد الحامية فى الاسكندرية . وقل لها انك قد زلت عن وظيفتك لى وانك تعمل الآن باعتبارك وكلي . ويوم الاحد سيجتمع القاصل بالخير وسعطيك الاقالة التى تطلبها » .

فرفض عرابى أن يفعل ذلك قائلاً انه لن يستقبل حتى يسلم خطاب الاقالة . ثم اقترق قادن أن يحدث بينها تفاهم .

هذا هو بيان ما جرى فى هذه المحادثة كما رواها نبيه وغيره ممن وقفوا عليها . وكانت هذه المقاتلة فى طهر يوم ١٠ يونيو . وهي ذات أهمية من عدة وجوه وخاصة لما كلف لها من العلاقة بما حدث فى اليوم التالى من الشعب الذى كان فى الأصل مشجرة بسيطة بين مالطى ومكلوى مصرى . فقد اندثرت هذه للمشاجرة فى الساعة الأولى بعد الظهر وانتهت فى الساعة الخامسة وكانت نتيجتها ان مائتى شخص قتلوا وكل بينهم صابط من البارجة « سيورب » وقتل أيضاً مائتا اوردونى زيادة على ذلك . وحدث لكوكسون القنصل البريطانى عدة اصابات خطيرة وأصيب أيضاً قنصل ايطاليا وقنصل اليونان بعض اصابات . ولم يهدأ الاضطراب حتى وصلت الحنود النظامية فأخذته . وكان هذا الاضطراب أول ما حدث من نوعه بعد عام من الثورة فى مصر . وقد أحدث خبر هذا الاضطراب الذى ارسل الى اوربوا بالتلغراف ضجة كبيرة وخاصة فى انجلترا .

وبما أن تبعه هذا الاضطراب الذى عاد شؤمه على القضية المصرية قد اقيمت على كاهل رجل هو أكبر من اودى منه — اعني به عرابى — وبما أن هذا الاضطراب قد أخذت وزارة الخارجية الانجليزية تمتفه لمصلحتها ونظمت به لضرب الاسكندرية لأنها اعتبرت مصر — فى حالة من الفوضى لا يمكن اسكرها — فانه يحسن أن تقف هنا قليلاً لكي تقرر مكل هذه التبعة وما لحقها من الحرام . فاني عند ما سمعت عن هذا الاضطراب فى لندن شعرت لأول وهلة أنه نتيجة

سيرة التي دبرها رجال وزارة الخارجية بواسطة درويش لايقاع عراقي في الشراك
سى نصب له والفدر به . ولكي لم أحصل على المستندات الخاصة بهذا الاضطراب
لا عد الحرب . فلم يكن في مقدوري الدفاع عن الوطنيين وتبرئهم من ارتكاب
هذه الجناية الا بعد حصولي على هذه المستندات .

فاننا نعرف الآن جميعاً أن هذا الاضطراب وان كان في الأصل قد حدث
دون تدبير سابق فان حزب الحديرو كان ييوى أحداث مثل هذا الشعب لكي يثبت
نعم أهلية عراقي لحفظ النظام في البلاد .
أما الحالة في الاسكندرية فكانت كما يلي :

كانت الاسكندرية أكثر من كل بلدة أخرى في مصر تحتوي على عدد كبير
من الأجانب فكان فيها الى جانب المسلمين عدد كبير من اليونان والاطاليين
والمالطيين . وجميعهم يشتغلون بالتجارة وأكثرهم يشتغل بالربا . ولم يكن بين
طبقتي الأجانب والوطنيين ود كبير . ثم أن مجيء الأسطول الى الاسكندرية
كل الفرض الظاهر منه حماية الأجانب باعثاً على إيفار الصدور . فقد كن محافظ
للدينة يحتاج الى صفات الثبات والولا . والرفق لكي يحافظ على النظام كما كان رجال
الأسطول أيضاً محتاجين الى الرزاة ولكن كن المحافظ لسوء الحظ وهو عمر باشا
لطني بكره الوطنيين . فانه كن شركسياً وأحد أفراد الماشية وكن موالياً لاسماعيل
وقد خدم توفيقاً وقت المؤامرة الشركية بأن فاوز الدو في الجهات الغربية بأن
يكونوا في صف الحديرو . فهو لهذا السبب كن يشجع العناصر الوطنية على الشعب .
أما اليونان فقد كانوا مسلحين من قبل بواسطة رئيس طاقمهم امبراوز سينادينو وهو
رجل منر وكن أيضاً وكلا ليت روتشيلد في مصر . وقد نلح المالطيون أيضاً
واغضى عنهم القنصل الانجليزى كوكسون . فكانت جميع الأحوال سيئة لأحداث
شغب منذ الأسبوع الأخير من شهر مايو توقفاً للحرب الأهلية التي يذكر القارىء
أن البال مال غازيت قد تنبأت عن حدوثها واعتبرتها حلاً لا بأس به اذا رفضت
الوزارة الوطنية أن تستجبل .

وليس هناك من شك في أن الساسة الانجليز في القاهرة كانوا ينتظرون هذا

الاضطراب ليعتبروه حجة على الفوضى بل انه كان في نظرهم لا ينافي خطتهم . ومن السهل أيضاً أن نثبت أن عمر لطفي كان يرغب في ازالة عراي من مسرح السياسة . وقد ورد في التلغرافات انه عد ما كان البلاغ الأخير بوشك أن يرسل للحكومة المصرية كانت قد هيات قائمة بأسماء أعضاء الوزارة الشريكية الخديوية المرشحين بعد استقالة وزارة محمود سامي . وقد رشح لورارة الحرية بدل عراي محافظ الاسكندرية هذا عمر لطفي . ولم يكن هذا الخبر غير مؤسس على حقيقة لأننا نعرف انه بعد ذلك بأيام دعا الخديو عمر لطفي الى قصر الاسماعيلية وعرض عليه هذا المنصب .

ح. في المال مل عاريت في ٢٨ مايو ما يأتي : « القاهرة في ٢٧ منه — اجتمع في سراي الاسماعيلية ظهر اليوم عمر باشا لطفي وشريف باشا وسليمان رئيس مجلس الأعيان وراغب باشا ... وستكون رئاسة مجلس الوزراء لشريف باشا أو لعمر باشا لطفي ... وسيكون عمر باشا لطفي وزير الحرية » .

وقد سلم البلاغ الأخير في أول يونيو واستقالت الوزارة في ٦ يونيو وانتظر الوزراء يوماً لأن الخديو أخبرهم بأنه سيرسل تلغرافاً يسّير فيه الاستانة ولكن عند ما حاه الوزراء في الصباح أخبرهم بأنه قد قرر أن يقبل البلاغ ولو أنه لم ينسحب من الاستانة جواباً على تلعرافه . فلما كان اليوم الثالث من يونيو ورأى الخديو انه مضطر الي إعادة عراي بضغط الرأي العام عليه ومظاهرات الجمهور وماصرة القصر الألماني والقصر النمساوي لعراي لأنها كانا بريان فيه أ كفاً رجل لحفظ السلام في مصر كانت خيبة آمال عمر لطفي كبيرة . وكان يرى في حية آماله هذه ما يهدده الي تنفيذ رأى هذين القنصلين باقامة برهان على . وهناك زيادة على ذلك شخص آخر يقوى ثقلنا في انهام عمر لطفي . وذلك أن الخديو الذي كانت خيبته لا تحب عن خيبة عمر لطفي أرسل في ٦ يونيو تلغرافاً قال فيه :

« لقد تعهد عراي بحفظ النظام وأعلن ذلك في الحرائد وقبل على نومه المنوي أمام القناصل . فاذا يمح في هذا التعهد فان الدول يتقرب به وعندئذ تضع اعتبارات ثم أن أساطيل الدول في مياه الاسكندرية فعقول الناس متهيجة بالمشاعر ليست

مبة الحدوث بين الاوروبيين وغيرهم . فالآن : اختر لنفسك اذا كنت تنوي
حجة عرابي وساعده على تمهله أو تنوي حدمها .

وكان في هذا التلجج ما يجعل عمر لطفي يتحد اجراءاته . وكان ماغتياره محافظا
حق الأمر على المستحفظين وهم يؤلفون بوليس الاسكندرية الشبيه بالحربي
. بواسطة هؤلاء أمر أن نحمم النابيت في أمان الأقسام لكي توزع في الوقت المعين
: عدد الاعدادات اللازمة الاخرى لاحداث الاضطراب المقصود .

وهناك أدلة قوية في الكتب الزرق ثبت اشتراك البوليس في الاضطراب .
وأن هناك احتلاطا في التمييز بين رجال البوليس هؤلاء وبين الحود وذلك لأن
مضة عسكرى تدل في مصر على الاثنين . فإن الحود النظامية كانت بقيادة المحافظ
حربي ولم تشترك في الاضطراب الا بعد ما دُعيت في الساعة الأخيرة بناء على
طلب عمر لطفي عند ما رأى ان الاضطراب قد عدا طوره وأنه لا يستطيع امتلاك
باصيته . ومما يلاحظ أن دريس المستحفظين سيد قنديل وكان من المتصيرين لعرابي
وهو رجل ضعيف القلب رفض أن يشترك في أعمال ذلك اليوم واعتذر الى
المحافظ بالمرض .

فالاضطراب كان قد دبر عند وصول درويش ورفيقه الى الاسكندرية في ٨
يونيو . والأرجح أن القصد كان أحداثه في نفس الوقت الذي يقبض فيه على عرابي
ودلك لاقامة البرهان أمام مبعوث السلطان بان عرابي غير قادر على حفظ النظام .
ولست مقتنعا بأن درويش كان يجهل ما سيحصل وأظن أن الأرجح أنه كان يعرف
كل شيء قبل حديثه مع عرابي . وأنه لو كان قد نجح في جعل عرابي يستقيل لكان
ألمى تدبير هذا الاضطراب . وهناك ما يدل على ان الاضطراب وقع قبل الوقت
الذي كانت النية مقودة على أحداثه فيه . لان من المحقق ان حادثة المشاجرة بين
المكسرى والمالطي كانت حادثة عرضية ولكن المرجح أنه لم تصدر أوامر الى البوليس
بوقف المشاجرة فاستمرت وفقا لبرنامج الموضوع للاضطراب . ولكن ما لا شك
فيه ان الحدوي في القاهرة وعمر لطفي في الاسكندرية كانا يحتكران المواصلات
التلغرافية بين هاتين المدينتين . وان عمر لطفي كان يؤجل وهو يتعلل بعدة أعذار

طلب الحدود الذين لم يكن لهم الحق في العمل الاثامه باعتباره المحافظ الملكي للمدينة. ثم ان هذا الاضطراب كان مدعاة الى اعلان المرح يس رحال بلاط الخديو بيهامو كان مدعاة الى الاسف عند عراي والوطنيين الذين أخذوا أيضاً في التصغير من شأنه ثم ان اللجنة التي عليها الخديو لتحقيق هذه الحادثة كانت مؤلفة من أعضاء من حزبه ولكيلا يجعل تحقيقها قيمة جعل عمر لطفي رئيساً لها . وصلة الخديو بعمر لطفي زداد وضوحاً عند ما يعرف انه لما اشتدت شبهة القناصل في عمر لطفي مسحه الخديو احارة . فلما حضرت الاسكندرية ظهر ثانياً ونال ما كان يطعم فيه وهو وزارة الحرية . وقد بقي هذا المنصب في يده الى شهر مايو سنة ١٨٨٣ عند ما أنهى لورد راندولف نشرشل في البرلمان هو والخديو . فاستقال عندئذ . وفي ملحق الكتاب براهين أخرى تؤيد اشتراكهما في احداث هذا الاضطراب .

ولكن هناك نقطة في هذه المسألة المشؤمة لا تزال عندى موضع الاشكال . وهذه النقطة هي تقدير المسؤولية التي تحملها وكلاؤنا في القاهرة والاسكندرية من هـ . الحوادث . فان في رسائل ماليت ما يفهم منه الانسان انه كان ينتظر خلاصاً لعصائب السياسة التي كانت تواجهه وذلك في وقت الذي كان يدبر فيه هـ الاضطراب . ثم ليس من يشك في ان جميع ما كان محتج به على الوطنيين ان اذا ستؤدى الى الموضى . ثم من المحقق أيضاً ان كوكون الفصل الانجليزى باسكندرية قد تفاضى عن تسليم الماطلين . ومع ذلك فهناك فرق شاسع بين هذه الامور وبين التواطؤ على احداث هذا الاضطراب . وكل ما أعرفه عن اخلاق مـ . وسلوكه في المستقبل يدعوني الى تبرئته من هذا الاضطراب .

وكان ماليت يثق في توفيق ويعتبره حديراً بالثقفة وكان يصدق جميع ما يقصه عليه وقد علمت ان وقوفه على حقيقة توفيق بعد الحرب قد ألكه أشد . وهذا القول يصدق أيضاً عن كوفن . فانه كان يجهل تدبيرات الاضطراب . كان يجهل أعمال الخديو منذ عام ولو انه من الصعب ان يعتقد الانسان انه يعرف الحقيقة بعد ذلك بوقت قريب . فانهما كانا متحالين مع عصابة

والاضطراب وعدم ما حدث الاضطراب سارعا الى مصديق الخديو لاهما رأيا في تصديقه ما صادف هواهما فلم يبحثا عن الحقيقة .

وكان لاهما يطر الى الاضطراب . عشائه اذاعة تشتعل بتعبد مأرهما وكما يحتاج به على الوطنيين وان ادارتهم ستؤدي الى الحراب والتدخل الاحي . فهذه صفة التي لها بالاضطراب هي كل ما اتقى عليهما من المسؤولية .

ويمكن تلخيص ما حدث بعد ذلك في اضطراب قليله قلما أعود بالقارى . الى مذكراتي . فأقول : أن نتيجة الاضطراب لم تكن كما توقعها الخديو وأصحابه بالضغط فقد خرج الاضطراب عن الطور الذي عين له قليلا في رمايحهم حتى دعت الحالة الى ادخال الحدود النظامية لاعادة السكينة . وبدلا من أن تسقط كرامة عراي به حدث من الزعب بين الاجانب وهم طائفة ترتعد لاقبل حادث ما حطهم بطورون الى عراي باعتباره المنجي الوحيد لهم . حتى أن القاصل باستثناء القصل الانجليزى وافقوه على رأيه . ثم ان الطام الذي أهدنه وجود الحدود النظامية في الاسكندرية راد مقام عراي في أعينهم . وهذا أقول انه لو كان عراي رجل أعمال بدلا من أن يكون رجل أحلام وأمان أي لو كان فيه صفات الحاكم القوي التي كانت لسوا . اضطت عموره كثيرا لاستطاع في ذلك الوقت أن يكسب المعركة السياسية من حصومه الذين كانوا لا براعون الذمة او الشرف فيما كانوا يفعلون . فلو كان عراي حاكما قويا لكل من الضروري أن ينهم المرتكبين لجرائم الاضطراب ومحاكمهم وكان عندئذ يثبت للجميع انه ليس من يد أقوى من يده وان العقاب سريع النزول بمن يحدث أي خلل بالامن العام . فكان يمكنه أن ينادي بالسلطان بكلمات عليها طابع الحاكم القوي بحيث لم يكن من الممكن عدم المبالاة بها . وفي هذه الحالة لم يكن للحكومتنا أن تشذعن الجميع وتناوئه .

ولكن عراي لسوء حظ الحرب لم يكن رجلا قويا واما كل دا أمانيا انسانية وكان في خلقه شيء من العناد والتشعث لأرائه والرعة في تحقيقها . فكان يجهل أوروبا جهلا تاما وكان يجهل أيضا الطرق والاساليب السياسية الغربية . فضاقت منه الفرصة السانحة وكلت ماليته وكوثر من قد عرسا الخوف في قلوب القاصل

وفي الوقت الذي كنا يكلفاه فيه بالمحافظة على النظام في الاسكندرية كانا يهينان ضربها بالاسطول . ومن ذلك الوقت رال الامل في تسوية المسألة بالوسائل السلمية .
حدث بين عرابي وبين سير بوشامب سيمور قائد الاسطول مشاجرة تشبه ما يقع بين الدئب والحل . وكان الدافع اليها ان خادم سير سيمور وهو رجل يدعى مسنراكت . قتل في الاضطراب . فاراد سير سيمور ان ينتقم من الاسكندريين لقتل خادمه بصرب الاسكندرية ولو كان في الميدان رجل أقوى من عرابي لاستطاع الخروج من هذه الأزمة . ولكن عرابي لم يكن يزيد عن أن يكون فلاحا متفوقا له عدة أسكار قليلة حلية فكلن يصيبه المثل . ولكنه مع ذلك لا يستحق اللوم الذي اتاه عليه من وطنه . فانه لم يستظم أحد منهم أن يفعل شيئا يفضله به (١) ولترجم الي المذكرات :

« ٣ ريو — كنت بورادة الخارجية ضيفاً عند ليدي حرافيل وكان جميع السياسيين هناك . وكان جميع المتصلين بالوزارة برحون ويشون . وقد تكلمت عن الحالة مع ولسلي ورولتون والسفير الايركي « لوبل » وغيرهم . وتحدثت أيضاً مع سير الكسندر واليدى مالت على الرغم من الشجار الناشب بيني وبين انهما . فكانا يحدثاني ببشاشة ولطف . ويظهر على الجميع أنهم قد تفسوا الصعداء . لتأجيل الازمة المصرية . ولكن ولسلي يقول لي ان السلطان رفض أن يشترك في مؤتمر . وكان ابن عم الحديو وهو رجل صميم يدعى عثمان باشا احد الضيوف .

(١) المرجع ان الذي منع عرابي من محاكمة عمر لطفي هو أولاً اضطرابه الى وقوفه الى صفه باعتباره مسلماً مثله في شجار مع غير مسلمين . والثاني انه كان هناك شبيهة بتواطؤ الحديو معه . وكان لا يرغب أن يدخل في شجار مع توفيق في ذلك الوقت لانه مضي وقت طويل على تصالاه معه . ولكن قد اقم منذ أيام قليلة أن يحافظ على حياته كما يحافظ على نفسه . ففضل أن يلقي اللوم على كوكسون وسينادينو وهما بلا شك يستحقان اللوم . وهذا ظاهر من خطابات صابونجي ووثائق أخرى ملحقه بهذا الكتاب .

كل حاضر أيضاً ولي العهد وأسرار آخرون وما أدهشني تلك المناشة التي وحدثها في هنري ستانلي . فقد قال انه يحب شديد الإعجاب بمرابي لأنه يبصر الإيمان بأنه يستحق الترقية وان ييسق هو وتوفيق في القاهرة . وبما انه يمثل في أقواله هذه آراء الاستانة فقد اطمانت من هذه الساجبة . فاداً لم نظراً حوادث جديدة « لنوز لنا » .

وهذه الاشارة الاخيرة عن لورد ستانلي ذات أهمية . فانه كان مصديقاً حقيقياً لقديمنا . ولكننا كنا نختلف في الرأي عن المسألة المصرية وسبب الاختلاف هو هذا :-

فقد كان مزمدة طويلة ملحقاً بسفارتنا في الاستانة وهناك نشبع بحسب الانراك وكان حب الانراك في ذلك الوقت نزعاً فاشية بين الانجليز . وفي سنة ١٨٩٠ كان قد سافر الى الهند الشرقية فآمن بالاسلام . وقد عرفته بطريقة غريبة في ذلك الوقت فقد كنت مسافراً الى انجلترا عن طريق اثينا والاستانة ونزلت في نهر الدانوب في إحدى البواخر . فلما وصلنا الى إحدى مواني رومانيا نزل الى الباخرة عائلة أمير مر . اسراء الفلاح وبصحبها انجليز شاد الهيئة سادج القباس ظننته أولاً مر في الصبيان أو سكرتير رب العائلة . ودامت سياحسا عدة ايام فصادفت هذا السائح وقد لذي وقتند معرفته الواسعة بالشرق ولكنه لم يخبرني عن اسمه . وعدد ماوصلنا الى فينا اقترح على أن يذهب معي الى دار السفارة .

وهناك تحققت من شخصيته وسافرنانا من هناك الى مونيخ حيث كان أخوه ليولف ستانلي يتعلم اللامبية . ومن ذلك الوقت عرفته حق المعرفة وانهمز هذه الفرصة الآن لكي أقول انه على الرغم من اطواره الغريبة كان رجلاً شريفاً بعيداً عن الانانية .

وكان باعتباره مسلماً شديد الحاسة والعطف علي آرائي ولكنك لم يكن يوافقني على تفضيل العرب علي الترك الذين كان يرى فيهم قادة الاسلام . وكان وهو في لندن على اتصال دائم بالسفارة العثمانية . ولذلك فرباه عن علاقة

السلطان مرابي في الوقت الذي كانت تروج فيه اشاعة ارسال بعثة درويش له قيمة تاريخية عظيمة .

واليك ما كتبتنه في مذكراتي بهذا الصدد :

« ٤ يونيو — في كرايت يوم الاحد . وهو اول يوم لم نضكر فيه بمصر بعد اسابيع عديدة كثر فيها اشتغالي بهذا الموضوع . واطن ان المسألة قد سويت الآن وقد لعبت التمس بعد الظهر وانا فرح . ولكن الحسو مديعاً وزارنا وتودث ونزل وفرانك لاسل وهنرى وكور ومولوني وآخرون .

« ٥ يونيو — عدت الى لندن . . تقول ليدي جريجورى انهم الآن غير مرتاحين الى سلوك كولفن ويقولون انه غير موافق لمركزه في مصر . وقائل هذا هو اللورد نورثوك . ولكن لورد جرانفيل قد ارسل الى سير ويليام جريجورى يستشير في موضوع مصر » .

ومما يلاحظ ان ليدي جريجورى قد بقيت على عهدها الاول موالية للقضية الوطنية بخلاف زوجها . وقد خدم كلاهما عرابي بعد ذلك وبخاصة في وقت المحاكمة وكانت صحف لندن قد بدأن يهتم بمصر ويكتبن عنها بشيء من المعرفة وأرسل أكثرهن مكانين خصوصيين في القاهرة والاسكندرية . ولكن من بين هؤلاء مكاتب الديلي تلغراف الذي انتصر لمرابي بشدة .

« ٦ يونيو — جريدة الديلي نيوز نهى، نفسها منذ الآن لأن تدعو الى العودة الى الحالة التي كانت قبل ارسال البلاغ الاخير . والارجح ان اكثر الجرائد سيسير وراءها في القول بهذه الخطة بل جميع الجرائد ما عدا التيمس والبل مال التين قد وعظا عن الحق فأبنا أن تعظا . وليس لأرى العام الانجليزى قيمة الآن تحدثت مع لاسل بمحادثة طويلة وأرجو أن أكون قد جعلته في صف مصر . وفي المساء كنت راكبا مع برترام كراي وقد تطوع ان يراهن على انه لن نخسر خمسة عشر يوما حتى يكون قد انتهى عرابي واهرم .

« ملاحظة : برترام هو شقيق فيليب كرى احد اصحاب المصارف وهو أيضاً من انصار غلادستون المتصلين به . ورأيه هو بلا شك رأى رئيس الوزارة »

٧ يونيو — زارتني ليدى جريجورى وأنصت الى بحصة أخبار . فأخبرتني .
لورد جرانفيل قد قال لزوجها ان آمالم معلقة على بعثة درويش . ومما قاله لورد
جرانفيل ان درويشاً عديم الذمة والشرف ويستخلص من عراي بطريقة ما وأظن
هذه الطريقة هي الرشوة (١) ويظهر ان لورد جرانفيل قد ألمع الى غير ذلك فقد
يكون طريقة التخلص بواسطة فتجان قهوة ولكني لست أخشي هذا . لان غرض
سلطان لا يري الى قتل عراي بل الى حفظه بالاستئانة رهينة . ومع ذلك فأنا في
ند الاثنياق لان يصل صابونجي . ولا يزال يساورني الشك بأنهم لمعرفتهم بصلته بي
سيمون نزله الى الاسكندرية . وقد كتب الى رقة وهو في القطار زاد فيها بعض
علامات يستعملها في الاصطلاحات التلغرافية التي اتفقنا عليها وهي علامات
مصحكة . ثم قابلت جريجورى وقد أعاد على جميع ما قالته لي روجه . وهو يظن
نه يجب استدعاء كولفن وماليت .

وقد كتب مبروك الى برلين يقول له أن حق وزارة الخارجية على لاحد له .
ولكن هذا لا يهمني . . . التفت باوسنين لي في النادي فسألني عن آخر ما وصل
من الانباء من مصر ولى هذا هو سكرتير ذلك . فقلت له انه بلغني انكم سترسلون
الى مصر عدلا من الملح لتعلقوه في ذنب عراي . فأجبتني علي الفور قائلا : كلا .
فان الملح يستعمل في تعليقه . وقد ركبت في المساء مع سيريل فلور وقد تزوج من
أسرة روتشيد فنصحت له بأن يبيع اسمه المصرية . وتناولت العشاء مع برترام
فكلن أرق من قبل . فهو يؤمن ببلادستون ويعتقد ان أولندا ستحصل على الاستقلال
الداني . ومما قاله ابن غلادستون يتقدم الزمن الحاضر بجمل فبعد مضي عشرين
سنة سنؤمن بقيمة الالهام بمائتنا .

(١) اجد في المذكرات عن سنة ١٨٨٨ مايلي :

« القاهرة في ٢٢ ديسمبر — تناولت الغداء مع زير ماشا وقال انه حضر
محادثة بينه وبين درويش باشا فعرض عليه درويش ان يذهب الى الاستانة بمرتبة
شهرى قدره ٢٥٠ جنيه . فأجابه عراي بأنه لو رضي هو نفسه لوقف بينه وبين السفينة
عشرة آلاف شخص لمنعه من السفر »

« وقد كتب فريدريك هاريسون يخرج على تدخلنا في مصر . ولكن مقاله شديد الاهجة وقد نشر في البال مال تحت عنوان : المال . أيها السادة . المال » وقد توالى الخطابات على أثر هذا المقال . وقد أسست كثيراً على عدم معرفتي بالكتاب قبل الآن فهو أعقل وأشجع من يكتب في المسائل الخارجية في حزب الاحرار وأقوي المؤلفين الذين ينشرون الرسائل السياسية ولو كنت قد لقينته منذ شهر أو شهرين لما حصلت الحرب لانه وان لم يكن في البرلمان قد كان ذا نفوذ عظيم بين الاحرار . ومما يزيد سوء المظاهرة لم يكن في الحزب أحد ذو مكانة ذهنية في هذا الصنف باستثناء فريدريك هاريسون . لان الجميع كانوا متقيدس بالوظائف ...

« ذهبت الى ليدى سولزرى مدعوا في سهرة . وتحدثت مع ملتون وكان الاستياء باديا عليه بشأن أعمال في المسألة المصرية وذكر تلغرافاني فلم يتكلم عنها بآداب . وتحدثت أيضاً مع ستراتير فقال لي انه يود ان يذهب بمشرة آلاف جدي لكي يشق عراقي . وجرى بيني وبين عثمان باشا وكلمل باشا أبي عم الخديو حديث في غير السياسة ... وقد وصلت بعثة السلطان الى مصر »

« ٨ يونيو — وصل تلغراف من صابونجي يقول فيه انه قد صرح له بالمرول في الاسكندرية وبذلك زال غنى هي . وهو يقول ان البعثة التركية قد سافرت الى القاهرة ... ويرفض هاري براند أن يزورنا في كرايت حتى يرى ما تنتهي اليه الحال في القاهرة . وأخشى ضياع امواله في مصر فان جل ما يملكه فيها

« ٩ يونيو — كتب فريدريك هاريسون خطاباً آخر في البال مال . وقد كتبت اليه اقترح عليه أن أطلعه على مكاتباني مع ستر غلاستون . وزرت جريجوري . وقد قوبلت البعثة بالترحيب والتهيل في القاهرة وظلني أغلب الناس هناك يتناولون باجساد نسوية . وكتب الى صابونجي يخبرني بالتلغراف أن عرابي قد أعلن انه سيقول له الجنود التركية اذا انزلت في سواحل مصر . وهو لا يزال في الاسكندرية وهذا يقلقني لانه ينبغي أن يكون في القاهرة الان . وتناولت العشاء في منزل وتورث لكي اقابل سير مارتل فربور وهو رجل حلوا اللسان دكي الفؤاد »

« ١٠ يونيو — تناولت العشاء مع ستر جرين وزوجته وهما يعطلمان على مصر

كثيراً - والاحظ هنا ان متر جرس هذا هو المؤرخ المعروف . وكانت سحنت قد تضمنت في ذلك الوقت واني أذكر الآن عطفه على وعلى القضية التي كنت اذافع عنها . وكانت وفاته حسارة كبرى لجميع الدين يدركون قيمة سياسة البيرة .

« لقد اتدأ القلق يضربني هذه الايام عن الحالة بسد مضي اسبوعين وأنا مرتاح البال . وتقول صحف المساء أن درويشاً قد نجح وذلك بأن « اشترى » جزءاً كبيراً من الجيش وأنه يطالب عرابي بأن يذعن له . فإذا لم يصد له عرابي فإن كل شيء يذهب سدي . وبعد تفكير طويل قرأني على أن ارسل هذا التلغراف الي صابونجي . الساعة ٧ مساءً . « اقبضوا على البيعة . لا تخشوا أحداً الا الله » وبعض هذا التلغراف أرسل بالارقام . ولكني أخشى أن لا يكون قد ذهب صابونجي الي القاهرة . والا فلماذا لا يرسلني . هل حدث له ما يمنعه ؟ ... تناولنا العشاء عند ليولف ستانلي وكلن معنا آخرون منهم رابط . وكان كلامه عن مصر كله مروءة وقد افضيت اليه بعض الحديث وأظنه كلن مناسباً . وصرحت له بجملة ما عندي والمسألة الآن تتوقف على مقدار الحرامة التي عند أعضاء الحزب الوطني . وأظن أن أواخر درويش كلن القصد منها سبر عور الحزب من هذه الناحية فإذا وجد منهم مراساً شديداً عضدتم . وهو لو استطاع لسحقهم على أيدي الشراكسة ولكني أرجو أن يسحقوه أو على الأقل يخيفوه . فان السلطان لا يجرؤ على اتحاد الحركة بالعنف .

١١ يونيو - سافرت في قطار الصباح الي كرايت وقد كنت قلقاً لثلاث أجد في الجرائد خبراً عن حدوث انقلاب . ولكن الازرفر تقول انه لم يحدث شيء . وتذكر الجرائد بعض الحكايات عن كبرياء درويش وتطرسه نحو العلماء . ولكن لا أهمية لهذا . . . في الساعة الثانية جاء الينا الامير عثمان والامير كامل وابن عمهما - وفيهم عارف بك ودليلهما الانجليزي وهو رجل يدعى بليرير لكي يروا خيولنا وبينما كنا نريهم الخيول جاءني تلغراف من صابونجي هذا نصه :

« القاهرة في ١٠ يونيو الساعة ١٢ - تحدثت مع عرابي . البرلمان والازهر

والجيش يعضدونه الاسطانا ماشا وشيخ الاسلام والامة قد قرأها على خلع
الحديو . والباب العالي لا يميل الى مقترحات أوربا . وعراى يلج على انه لن يتم
السلام حتى يخرج كولس وماليت وهو سيقاوم هجوم الاراك ولن يسافر الى
الاستانة . غير الشيخ عليش شيخاً للادهر . قرر الباب العالي خلع الحديو . ماليت
يلج على البعثة بان تقبل مقترحات أوربا . خطب عبدالله بديم في عشرة آلاف نس
فدم هذه المقترحات وطس في الحديو « ولو كان ابناعم الحديو قد قرأ هذا
التلغراف لما استطاع أن يتفديا . وقد ناقشا في الموضوع ووسرسل لهم تلغرافاً
تنصح لهم فيه ماعلان الجمهورية في حالة خلع الحديو . وقد رال عى المهم الآن
لوجود صابونجي بينهم »

واني فيما قلته هنا عن الأميرين عثمان وكامل لم أقل كل الحق . فانها لم يكن
يحان توفيقاً وكان أبوهما مصطفي قد طرد من مصر وأخذ اسماعيل أكثر أملاكه
وكانا هما على شيء كبير من الوطنية . وقد برها على ذلك مدة الحرب اذ
ينتصران لعراى . وقد قدمت أختها الأميرة نارلى مساعدة كبرى لعراى وقت
محاربه . وكان عاروف بك رجلاً ذا كفاءة وكان كرديا فيه شيء من الدم العرب
وكان حاصله على تربية راقية وله مزايا عليا وقد صار بعد ذلك سكرتير مختار باش
في القاهرة وكان يحرر مجلة أدبية ولكنه انغمس بعد ذلك في الدسائس واختفى
أما الشخص الرابع فكان تركياً متفرنجاً من رجال ملاط السلطان ولم أر اسمه في
المذكرات . وقد أخذنا في الحديث عن السياسة الشرقية وقت الفداء وان لم نذكر
عن مصر . وكان كلامنا عن الجامعة الاسلامية والأمل في طرد انجليترا وفرانس
شمالياً أفريقياً .

وبحسن بي ها أن أثبت خطأنا أرسلته الى صابونجي في التاسع من الشهر
وخطاباً آخر أرسله هو إلى يوم ١١ يونيه .

« شارع جيمس رقم ١٠ »

٩ يونيو سنة ١٨٨٢

« ان تلمزكم الذي تخربوني فيه عن وصولكم للقطر المصري قد أراح بالي
 س. وأرحو أن تكون قد سافرت الي القاهرة والتقيت بأصحابنا وأطى أن
 من ما يصوبه الآن أن بحسب علاقتهم مع رجال البعثة . ولكن بحسب علمهم
 بأنتموا حاسبهم لاني أعرف أن أعداء مصر يعلقون آمالاً عظيماً على درويش
 شلوه رجلاً عديم الذمة والشرف في كيفية معاملته للثأرين . فأنهم سيحاولون
 بكل قوتهم أن يفلوا عرابي الى الاستانة . ولكن بحسب الا يفعل ذلك . وسيفرونه
 يحاولون ارشاده ويقولون له ان الغاية من سفره صلاح البلاد . فلا يفترون بهذه
 الأقوال . ومن الممكن أنهم يحاولون القرض عليه أو دس السم له وان كنت
 ترجح هذا . ولكمهم اذ ادأوا انه ثابت لا يتزعزع أمامهم وان الأمة من ورائه
 صره فأنهم لن يتشاوروا معه ويصيحني الوحيدة له هي أن يخضع لتوفيق باعتباره
 في السلطان على شريطة أن يبقى وديراً للحرية . فاذا قبل ذلك لم يعد لدى
 حكومة الفرنسية أو الانجليزية مجال للشك في حبه وادا اجتمع المؤتمرون الاوربي فانه
 يشر بالتدخل . وأنا متأكد بأن حكومتنا لن تلج على تنفيذ شروط البلاع
 الأخير بخصوص عرابي من البلاد . ولكن الحكومتين الانجليزية والفرنسية
 مصطرتان الي تعضيد توفيق باعتباره حاكم مصر الاسمي . فعلى عرابي أن يحتفظ
 مركزه بحيث يصير الحاكم الحقيقي للبلاد . والناس هنا ساحطون على ولكني
 لا أعيا بذلك ما دامت مصر تنال حريتها » .

وهناك خطاباً أرسله لي صابونجي من القاهرة يوم حدوث الاضطراب في
 الاسكندرية ولكن قبل أن يعلم به :

القاهرة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

عند وصولي ذهبت الى عرابي ومحمود سامي وغيرهما من أعضاء الحزب . وقد
 قابلوني بحفاوة وسألوني عنكم . وقال لي محمد عبده انه قد بلغه أن بعضهم قد نصح
 لك بأن لا تنجي الى مصر . وقد غرني عرابي بالسروور والطرب عند ما رأيته .
 وقبل وصولي لأسبوع خطب في اجتماع وقرأ خطاباً مني أصبح له فيه بالاتحاد ...
 أما الحالة فهي كما يلي :

قد أخبرتك في تلغرافاتي عن جميع ما حدث من قبيل استكشاف المؤامرة الشريكية الى هذا اليوم . وقد أصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها بما أن الحديو قد حاول أن يبيع البلاد للأحباب وأطاع اشارات قناصل أورده ، فإنه لم يعد يصلح لأن يكون والياً على المسلمين المصريين ويجب لذلك خلعهم . وقد قبل جميع علماء الأزهر هذه الفتوى وركوها لأنها صادرة من رجل هو زعيمهم الروحاني . وقد ذهب الشيخ محمد خضبر ومعه ٢٢ من الاعيان الى درويش باشا وقدموا له عريضة وقع عليها عشرة آلاف نفس طلبوا بها منه أن يرضى طلبات الدول ويخلع الحديو . وفي مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مدبرين يكرهون عرابي . أما الفلاحون أقباطاً ومسلمين فجميعهم في صف عرابي ينصرون ويؤيدونه . أما الامبايبي شيخ الاسلام فإنه قد وقف على الحياد وذلك لحوفه من الحديو ومن الحرب الوطني ولا يتدخل في السياسة متعللاً بسوء صحته . وقد أخبر عرابي بأنه لن يخضع لأوربا أو لتركيا وقال لي : « فليسوا لنا حيوشاً أوروية » . هندية أو تركية فاني ما دمت وبني رفق فاني سأدافع عن بلادى وعند ما تموت جميعهم يمكنهم أن يمتلكوا البلاد وهي خراب وحسبنا خير الدفاع عن الوطن . وليس هذا فقط فان حرباً دينية تنفست في أثر الحرب السياسية وتبعتها ذلك تقع على الذين يثيرون الحرب الآن .

هو مصمم على المقاومة ولن يذهب الى الاستانة واكثرية الامة تؤيده . فليس بين الأعضاء من يعارضه سوى تسعة فقط . وقد تركه سلطان باشا وانضم اليه الحديو لأنه خاف من ماليت ومن الاسطول . وجميع المصريين ينظرون اليه ولم الحديو كأنها خائنان . وحال من المديريات مندوبيون يطلبون خلع الحديو ولا يتكلمون . أن يقال أن عرابي قد أجبرهم على ذلك . وقد وقع تسعون الفاً العرائض يطلبون من درويش رفض طلبات أوربا وإبقاء عرابي في منصبه .

وجميع علماء الأزهر الا الامبايبي (امانة ؟) والقبائلي والسادات يؤيدون عرابي وكذلك عبد الرحمن البحرأوى وقد عقد اجتماع من عشرة آلاف من في الاسكندرية لخطبهم نديم وطلب رفض طلبات أوربا وعدم كفاية الحديو

من يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية لكي يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه . وخطب عرابي أيضاً خطبة حماسية مدد بإطالم الأسرة المالكة من عهد محمد علي الى توفيق . وقد تكلمت مع عبده بدم وأخبر عن وحب كتابة خطابات ترسل لكم بوقعها الاعيان والعلماء والملاحون والتجار لكي يشعروا بذلك حقيقة وجود الحركة الوطنية . وقد أتمنوا معي على أن يعدوا هذه الوثائق في طرف عشرة أيام وسأرسلها لكم .

وقد ظهر لي أنا كنا محطتين في تقدير محمود باشا سامي . فاني تحدثت معه كثيراً وسألت عنه حتى من أعدائه فعلمت أنه كان من مديري الحركة الوطنية من عهد اسماعيل . وقد كاند كثيراً من المشاق لاجل آرائه ولكنه لم يتزعزع وكثيرون من الحرب الوطني مثل مدم وعبده بل عرابي نفسه يعرفون بأهم مديريه له مساعدته لهم وولائه . وقد أعراه اسماعيل على أن يترك الحزب وعرض عليه المال ولكنه رفض . وهو يصرف جميع ابراده الآن علي الحرب ومبرله أشبه شيء بقافلة قد حطت رحلتها في الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف فلا يصرف على نفسه شيئاً وهو قانع راض بما يأتي له من الحظ . وهو ليس رجلاً جاهلاً فانه متصلع في الآداب العربية ويعرفها أكثر من عرابي وكون الأتراك يكرهونه دليل على وطنيته . وسيكتب خطاباً الى اللورد جرايفيل لكي يثبت له فيه حقيقة وجود الشعور الوطني في مصر ويصرح فيه بصداقة الوطنيين لاجلتمرا اذ هي بصيرة الحرية وكثيراً ما مدت يدها لاسعاف الامم الناهضة الطامحة الى اعرية . وقد اقترحت عليهم بأن يكتب عرابي والشيخ الامباي خطابات أخرى مماثلة لمسنر غلادستون واللورد جرايفيل وتطوعت بترجيئها ولرسلها .

وعند ما أشيع بأن السلطان يسوي ارسال درويش لكي يحض عرابي علي قبول بلاغ الدول الأخير سافر بدم الى الاسكندرية وخطب مدة ساعتين في عشرة آلاف نفس متندداً بالبلاغ وحث كل فرد من الموجودين على أن يحتج عليه . وقد قوبل مقترح بدم بالانتهاج . وعند ما ذهب الناس الى منازلهم أخذوا في تعليم زوجاتهم وأطفالهم هذا الاحتجاج وعند ما نزل درويش في الاسكندرية كان الاولاد

يصيحبون « اللايحه . اللايحه » قرد النساء قائلات : « مرفوضة . مرفوضة » وقد اعتبر درويش بهذه العبرة ونحول عن موقفه السابق .

أما الشيخ الاماني فانه بعد أن تظاهر بالعداء للحزب الوطني لأنه أعلن رصاه عن خلع الحديو عاد الآن وعقد الصلح بينه وبين الاعضاء . ولكن سلطان باشا قد خيب رجاء الجميع . فانه ينصر الحديو علي غير هدي وذلك خوفاً من التدخل الاجنبي ولأنه قد أكد له ماليت بأن عرابي لن يبق في منصبه . وهكذا وقع سلطان في الشرك الذي نصب قبلا لشريف . وهو الآن غير محبوب ولم يعد انقلابه هذا أدى فائدة .

وحدثت أس حادثة عرية فانه عند ما طلب درويش العلماء واستشارهم في أحسن الوسائل للحصول علي صلح شريف وجد الجميع كانوا في صف الحزب الوطني ولم يجد في صف الحديو سوى اثنين .

فاغتاط درويش من ذلك وفص الاجتماع وقلد بالأسنة الاثنين المشفقين وهما البحر اوى والايارى . فلما علمت النتيجة وذكرتها الخرائد حدث في الازهر حركة شبيهة بالثورة . وقد حصرت عدة اجتماعات للعلماء ولقبرهم وكان الغضب في جميع شديداً . وكان المتكلمون يكثر من ذكر القرآن والحديث ويثبتون منها ان توفيقاً لا يصلح أب يكون والياً علي أمة اسلامية . ولم يكتفوا بمقد الاجتماعات الخاصة بل قرروا أماني أن يعقدوا اجتماعاً عاماً في الازهر احتجاجاً علي الاهانة التي لحقت بهم . وعقد الاجتماع بالفعل في الازهر حيث تقام الصلاة وطلب من نديم أن يخطب الحاضرين وكانوا يزيدون علي أربعة آلاف نفس . وليس عندي من الوقت ما يسمح لي بوصف التأثير الذي أحدثته خطبة نديم . فقد سمعت أنت نديم وتعرف كيف بشناق الناس الي سماعه وإلى أي حد يتأثرون من فصاحته

صابونجي

الفصل الرابع عشر

توسلاتي الى غلادستون

هكذا كان شعور الوطنيين في دوائرهم الخاصة في القاهرة عند ما حدث اضطراب
 .سكندرية . وفي اليوم التالي فت الى لندن وأنا مبتهج ومي تلفراف صابونجي
 .سي أرسله في العاشر من الشهر . وكنت أنوي أن أريه هاملتون . وأنا في هذه
 حال وإذا بالمرائد تطالغني بأخبار الاضطراب .
 وهالك المذكرات .

١٢ يونيو رعب جديد اضطراب في الاسكندرية جرح فيه كوكون
 .قتل ضابط البارجة سيورب وخسون أوستون أوري . وقد أحدث هذا الاضطراب
 هياجاً عظيماً . ولست على يقين فيما اذا كل هذا الاضطراب في مصلحة عراي أم لا .
 .هـ سيثبت ان عراي علك ناصية الاحوال . هذا اذا لم يكن دسيمة من درويش
 يقصد منها ان يسافر عراي الى الاسكندرية فيقبض عليه هناك . ذهبت الي هاملتون
 وأخبرته بان تحت يدي مستندات تدل على ان عراي يحكم البلاد وان توفيقاً
 معرض لخطر الخلع بالنسبة لشعور الجمهور بحبه واحم اذا لم يكونوا يرون ان يلجأوا
 الى العنف في حل المسألة فطليهم أن يسارعوا الى الاتفاق معه . فوعدني بان يقول
 لغلادستون جميع ما أخبرته به . وظهر لي الآن اهم مستعدون لان يتولوا أي
 نسوة مادام توفيق يتي جالساً على العرش .

« ذهبت الى مجلس العموم . وذهب هاري براند الي آيه رئيس المجلس
 وقال له ان « الثائر بلس » يطلب تذكرة لكي يدخل احدى شرف المجلس . فقال
 أبوه « انه لا يستحق » ولكنه أعطاه واحدة . ولكن ذلك يجيب عن أسئلة متنوعة
 عن مصر وهو يوم ان درويشاً والحديو لايجدان الآن ما يعارهما . وقد أرغمني
 هذا الكلام . وهناك اشاعة بان عراي ودرويشاً قد سافرا الى الاسكندرية (وقد
 ظهر ان الاشاعة كاذبة) وأخشى الحياة الآن . وقد أرسل لي صابونجي التلفراف
 التالي : « ردت عراي وسلته رسالتك . والهدوء شامل . خطب عبد الله بديم في

أربعة آلاف في الازهر يحمل على العثة انتر كيو الخديو . وقد صحبت العثة مقترحات أوروبا واني أوصل قرب السلام الآن . وشرأكة يدسون الفسائس . وعاد شيخ الاسلام الى الحرب الوطني اما سلطان باشا فلم يفعل ذلك الى الآن . الاصطراب لا أهمية له .

وقد وضعت رداً على هذا التلغراف وأنا بالقطار وأرسلته من بُري بدرجس وهذا نصه « درويش يريد سوءاً . فهو يريد ان يرشي عراي أو يفثاله . اعتقدوا اجتماعاً كبيراً برئاسة ديم وعبيده وعلماء الازهر يكون فيه نحو مائة ألف نفس والطلوبا خروج درويش من القطر فاداً لم يخضع لهذا فاقصوا عليه بالوليس وابعده . وانفقوا مع الخديو ولا تمأكروا انفصال . وليكن نديم المستدى هذا العمل اما عراي والجيش فيجب ان يحيا على الخياد .

« قبل أن أرحل لندن التقيت بقرديك هاريسون ونحدثت معه عن مصر وكان قد كتب مقالاً آخر في البال مال عن هذا الموضوع . عرضت عليه خطاباتي لمصر علاستون وستكون معونه لنا ذات قيمة . وعد ما كنا على وشك مبارحة شارع فليت اندفعت اليها ليدى ماليت وأحدثت تسألني عن حقيقة ما فعلت في مصر . فأجبتها بكل شيء تقريباً . فقالت ان شرفي عرصة للحظر اذا لم أرى مصري من جهة الدس لوطي والسكيد له . ثم نوسلت الى ان أهدى الخالة هناك وقد وعدتها بأنني سأرسل لعراي خطاباً أطلب فيه منه ان لا يمس شعرة من رأس ابها . وسأكتب وفي البريد المسافر غداً اما اليوم فلنالتلغراف يعني . ولا اعتقد ان هناك أقل حذر على ابها مسكية ليدى ماليت ابي لاشفق عليها . فقد أخبرني ان الناس يقولون بأنني أنا ومستر علاستون نتآمر على احباط سياسة ابها في مصر . فأكدت لها ان علاستون غير مسئول عن تلغرافاتي وأنا وحدي متحمل هذه المسؤولية . وقد جعلتني أعدها بان أرورها ولكنها تنظر الى كما تنظر الى القتلة » .

« ١٣ يونيو — كنت قلقاً طول الليل انتظر خبر القرض على عراي أو اغتياله ولكن الصحف تقول ان كل شيء الآن في قبضة يده . والخديو يشكل الآن

ورارة سيكون فيها عراقي ودير حرية كما هو الآن . وليس عليهم إلا أن يبعدوا
درويشاً وكل شيء ، عندئذ يسير سيراً حسناً .

هذا ما كانت قوله جرائد لندن ولم يكن يخالفها في ذلك سوى البلب مال التي
كانت تعتقد أن المسألة لم تسو بعد . وهي تكتب بإعزاز من ورارة الخارجية التي
لابرزي موغلوها بأي تسوية تترك مقابلد الأمور في يد احرب الوطني . وهذا
ما يقوله مورلي . « من الصعب أن يخطئ الاسان هذا الخطأ الذي وقع فيه محرر
التيمنس هذا الصباح عند ما يعتقد أن التسوية المؤقتة التي تمت بين الحدود ودرويش
وعراقي والقاصل هي تسوية نهائية للمسألة المصرية . فالهياج في مصر قد بلغ
من الشدة درجة صار فيها لا يؤمن على حياة الاوروبيين وليس في البلاد قوة تستطيع
صط الرعاع سوى الجيش . وهذا الجيش في مد عراقي ، فالخاجة تصطرنا الآن
الى استخدام عراقي لمع المدائح . ولكن كون درويش تلقى مسئولية النظام على
رأس عراقي فهذا لا يبعه من التصميم على اقرار الحال الرايه كما ان اتفاق فرنسا
واحتلراع عراقي انما كان اساسه الاحكام عليه بان يستعمل جوده في احكام
الاضطراب في الاسكندرية . »

ولسكا حذعنا نحن في احتلراع كما خدع عراقي في القاهرة هذا الاتفاق الذي
عقده ماليت وكولفن وكانت يتبعها القدر والحياة . فتعهد عراقي لتوفيق وأقسم له
شرفه أن يحمي كما يحمي نفسه معها حدث . واستعمل الحدود هذا التعهد لمصلحته
مع انه كان لا يبصر في قلبه سوى القدر لعراقي .

وهالك ما أجده في مذكراتي عن ذلك اليوم : « أخبرني باتون اس ان
رونشيلد قد عرض على عراقي ان يدفع له اربعة آلاف جنيه في العام اذا رضى
بأن يخرج من القطر المصري (١) . . . وعند ما ذهبت الي لندن تسلمت
هذا التفراف :

(١) أخبرني عراقي بعد ذلك بعدة سين انه لم يسمع بأن رونشيلد قد
عرض معاشاً لكي يعطيه له اذا خرج من مصر . ولكنه قال لي انه بعد ارسال
البلاغ الاخير داره القصل الرسمي وسأله عن قيمة مرتبه الشهري ثم أخبره بأنه

« القاهرة في ١٢ يونيو — كنت في زيارة عراي وهو يرسل لك نسلجانه ويطلب ان مقترحات اوربا لم يعد لها أهمية وان الصلح قد تم . وقد سافر درويش . وروح الخديو اقاهرة الى الاسكندرية وكان عراي بشيعة بدراعه . والحرب الوطني في انتصار وقد اشتغلت بمجد ولكي يحث » وقد كادت دموعي تسقط من الفرح عند قراءة هذا التلغراف فأخذته وذهبت به نواً الى منزل رئيس الوزارة وأخبرت هامبتون وسيمور بما حدث . وتبين لي انهما يظنان ان غلادستون في هذه الساعة الاخيرة سيري غلطة ويصالح عراي . واثقون بظن ان هذا ممكن أيضاً . ولكن وزارة الخارجية ستتصلب . تهيئت في المنزل ثم ذهبت الى حملة ساهرة في وزارة البحرية فوجدت هناك حربي بحوري وسير جولده سمث فتحدثت مع اللورد نورثوك عن مصر . وقد صرحت له بكل شيء . تقريبا . وقلت له : « انت كل شيء . يتوقف عليك الآن . فأنت صاحب الامر والكلمة فيما اذا كانت ستفك دماء في مصر ام لا » .

« ١٤ يونيو — لقد نعت جدا . التقيت عزيز هواردي في البستان فقالت لي اني قد تغيرت والحقيقة ان مصر تساوري مد الازمة سواء كنت نائما أم مستيقظا قضيت الصباح وتناولت طعام الفطور مع جولده سمث الذي سيصافر هذه الليلة الى الاستانة في مهمة خاصة وقد رودنه ناراني وعرضت عليه جميع مكاتباتي مع مستر غلادستون .

مستعد ان يدفع له ضعي هذا المرتب أي خمسمائة جنيه في الشهر اذا خرج من مصر وأقام في باريس فتعامله الحكومة الفرنسية كما تعامل الامير عبد القادر . فأني ورفض أن يتكلم في الموضوع قائلا ان الواجب يقضي عليه أن يقاتل ويموت من أجل بلاده لا ان يتركها . وقد وجدت عندي هذه المحادثة ولكنها غير مؤرخة . وفي ١٨ مايو قالت جريدة البال مال :

« يقال ان عراي يفكر في زيارة اوربا لان صحته ليست على ما يجب . وهذا قصد حسن ولن يحدث ضرر ما اذا منح مبلغاً كبيراً لمصاريفه على شرط أن لا يعود لبلاده »

(ملاحظة - هذا الخبرال حولد سمد عين بعد ذلك رئيساً لمكتب الاحبار
سريعة في جيش واسلى . وهو رجل ناعم اللسان كنت عرفته منذ عام في القاهرة)
« تنفيذت مع لاسل وهو حسب ما يظهر منه يوافقى على آرائى عن مصر »
(وقد فكر بعضهم في ودارة الخارجية في ارسال لاسل هذا الى القاهرة بدل
- بيت لانه كان قد سبق له معرفة مصر . ولو انه عهدت اليه مهمة الاتفاق والصلح
تتم بها أحسن قيام . ولكن لسوء الحظ لم يقرر هذا التعيين)

« في الديلي لتفراف اليوم ما يشت أفعال صابونجي أما الحرائد الأخرى
تعتبران سفر درويش والتخديو الى الاسكندرية يقصد منه رد النظام الى صباه . ويقال
ان درويش جمع ١٢٠٠٠ حدى وسزحف بهم على عرايى الذى ليس له نصير الآن
في القاهرة . وأرسلت الى عرايى هذا التفراف : « احمدا الله على هذا النصر »

« وكان هذا آخر أدوار الكماح الذى كنت أكايف فيه كوفن لكي تختب
الحرب وكنت الى الآن متصراً أما بعد هذا فلم أوفق لانتصار . وكان الذى جعل
علاستون ينتهى الى قرار وخطة معينة هو احتجاج بعض البلدان الصناعية في شمالى
انجلترا على توائيه في معالجة المسألة المصرية وان هذا التوائى عاد بالصرر على مصالح
هذه البلدان التجارية . وكان هذا الاحتجاج يستعمله تشمران للضغط والتأثير على
علاستون وكان ذلك يحرصه من وراء ذلك »

« ١٥ يونيو - أتى قلق على الحالة في الاسكندرية ولكى أظن ان عرايى
يثق برجاله هناك . فلت الهجرة اليها متواصلة وكذلك الحال في القاهرة . ربما
يرجع بالى أن ماليت غادر القاهرة ودرويش لا يزال بالاسكندرية وهو والتخديو
يقمان في قصر رأس التين تحت حماية مدافع الاسطول . وحا . لتفراف آخر من
صابونجي يقول فيه : « كثرت الوسوس حول سفر التخديو . هاج . نشاط في
الاستعدادات الحربية . ونديم وعرايى وعبدو يتحدثون الباب العالى علناً . وعرايى
ساهر يقظ يتكلم باعتدال . حدثت مؤامرة لقتل نديم . وهناك خوف من حدوث
اضطراب بين الاجانب . ودرويش لا يريد السفر حتى يتسحب الاسطول . يستحلفكم

بأنه ان استدعوا ماليت فالحجج بسحطون عليه وسيقتلوه اذا استمر » وقد ذهبت الى هامبتون ورجوته ان يطلب من ماليت أن يستقل احدى الوارج. فأجاب ملطي ثم أرسلت الى هامبتون خطاً حدث فيه الحكومة من الارتكال على الحيوش التركية. ثم بعثت بهذا الرد الى صابونجي : « مدوب تركيا بطلب من الدولة ارسال حيوش لافطر المصري . وليس من المرجح ان ترسل . ولكن استعدوا . واحفظوا النظام مهما حدث . فان اضطررنا آخر سيقضى على كل شئ . وسيفادر ماليت مصر قريباً . فاصبروا قليلاً » وبعد ذلك ذهبت الى لورد دلاور وتناولت المشاء هناك . وعند رجوعي الى البيت علمت ان مواصلة خط تلغراف القاهرة قطعت وسب ذلك فيما أظن هروب كتبة التلغراف وهذا يلقى بعض القلق »

« ١٦ يونيو — ذهبت الى باتون فوجدته كله رجا . ولكن ايمانى في غلادستون قد رال وأظن ان الحكومة الانجليزية اضطوت على افشر الآن . وقد أعطيت كيجان بول أمس مكاتباتي مع غلادستون لكي يطبعها حتى تكون مهيئة في حالة حدوث أسوأ ما أنتظره . وقد وصل تلغرافي على الرعم من كل شئ . »

وجاء هذا التلغراف أيضا من صابونجي : « وصل الى ها مندوب حديد بتعليمات عبر معروفة . والأمة والخييش يتشاوران كل يوم في تدير وسائل الدفاع ولا يتفان بالبعثة المردوجة . أحترني عن حطة مستر غلادستون ولورد جرافيل . وعراي ثابت . عطلت جميع الحرائد فلا يصدر سوى الوطن والجريدة الرسمية . العرب مستحوذ على الاجانب وقد شكر الخديو عراي لحفاظته على الأمن . الهدوء شامل . منع نديم من عقد الاجتماعات »

قابلت هامبتون أمس فأخبرني بأنه يحسن أن لا أزوره في منزل رئيس الوزراء . لانه قد قدمت له ملاحظات عن ذلك واذا كان هناك ما يحسم من الاخبار فيحسم ان أرسل له كتابا عنها . وقد كتبت اليه خطابا أسأله فيه بيان خطة غلادستون الحقيقية . فخافني الرد وهو عبر مرض . وفي سانت جيمس غازت جبر بصدد الامر بإرسال جنود لمصر . ذهبت الى كراست وأما في توتر عصبي شديد . وقد انعقد مجلس الوزراء أمس في عرفة مستر غلادستون الخاصة انعقاداً عاجلاً . فهل كان

تعدد من اسفاده ارسال الجنود لمصر ؟ اني لا اتأكد من الظن بأنهم يريدون تدخل السريع . ولكن يظهر ان الفرنسيين قد تصالحوا مع عراقي .

وأقول هنا أن جميع الدول وليس فرنسا فقط كن راضيات بالاتفاق مع عراقي وصحية توفيق حفظاً للنظام والامن . وهناك ما قوله الباشا مال في ١٦ يونيو : « المظنون أن دولتي الوسط رعيان في الاتفاق مع عراقي على أساس تبادل توفيق ونولية ابنه القاصر مع وجود وصي . وهناك فوائد لا تنكر لهذا الاتفاق وان كانت فرنسا وانجلترا مضطرتين الى مظاهرة توفيق الذي أطاع تصانعهما وبخاصة تصانع المثل الانجليزى . ومن المقول ان خبة توفيق العملية وهى شخصية وسياسية مما قد أوهمت الدول بضرورة استبدال آخر به » .

وهذه رسالة ماليت المؤرخة في ١٤ يونيو : « ارسل وكيلنا النمسا والمجر والمانيا الى حكومتها أن نتيجة التدخل الحربى الاجنبى مالم يكن مصحوباً بمجيوش تركية سيجعل حياة الاوربيين في خطر . وهما بمتران المسألة السياسية ثانوية بالنسبة الى حياة رعاياهما . وهما فذلك يؤيدان الرأى القائل بوجوب ترك المسألة في يد الباب العالي وحده ويستندان ان أصلح الطرق لتحب أهول المصائب أن أخرج أمان البلاد وأن يبرحها كذلك الاسطول »

وقد سمعت أن ماليت كان يقول لاصدقائه أن حياته السياسية قد قصى عليها . فكان نجاحه هو وكولفن يتوقف على ايجاد الحرب .

« ١٧ يونيو — قضيت ليلة كلها قلق وأرق . ولكن ليس في جرائد اليوم ما يثبت ارسال الجنود . والسبب صاحبة وفلك عاد الى انتعاشي . وظاهر أن السلطان لا يجرؤ على ارسال الجنود . وقد اتفق الفرنسيون مع عراقي وهناك السماع الى أن النمسا والمانيا ستمتقان منه أيضاً . فلا أهمية لما تفعله انجلترا بعد ذلك .

كان عندنا في كرايت ارنجبتون . لمجنحتون . فاركار . هامتون . دالاس . كنجزكوت . بورك . ولتر سيمور . وقد كذب خبر ارسال الجنود . وكل شيء كانهوى وقد اتفقنا على أن لا نقول شيئاً عن مصر ولكسنا لا نستطيع ذلك » . « ١٨ يونيو — الاحد وهو عيد وأنزلو . ولم تظهر انجلترا بمظهر السخف

والحدود كما تظهر اليوم . وفي وقت الافطار سلمت تلقرافاً لابن راعاً وعراقي
أما وراة ترضي عنها الدولتان الخرمائتان وبركيا مسح الآس في طرب شكر الله
وبحسب بي هـ أن أنثى ثلاثة خطابات أرسلها الى صابوحي في تلك الايام
الاخيرة وهي توضح حالة الوطنيين وما كان يجري في أذهانهم .

القاهرة في ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢

ذرت اليوم عراقي باشا بعد وصول تلقرافك اليه بدقائق قليلة . وقد تحدثنا
نحو ساعة ونصف . وسأله عن سبب هذا الرعب المنتشر في البلاد اذا كان قد
اتفق مع الخديو فقال لي : (أما عني أنا فاني أعتقد ان الخديو محصل مادام
يكون بعيداً عن السير ماليت . فانه قد اقتنع الآن بأن ليس في الحكومة رجل
يستطيع حفظ النظام سوى هذا الرجل الذي يحتقره رجال السياسة الاوربيون احدى
عراقي . وقد تصالحت أنا والخديو وعهد إلى أمام سنة من عملي الدول الاوربية
وأمام درويش باشا أن أحافظ على الأمن العام . وقد قلت ذلك وأقسمت أن
أحافظ على حياته وحياته جميع من يسكن مصر من أي ملة أو أي أمة . وسأقودها
بعد مدامت لي السلطة . ولكن اذا كان هذا الصلاح مبنياً على النفس والخذاع .
فهذا من شؤون الخديو وحده . أما أنا فاني مخلص مع كل من يخلص لي . فالدس
يعاملوني بالسكر والنفس أعاملهم بالمثل . فقد علمنا الدهر واسماعيل كيف نفهم
مكر الانراك ، وكما نستعمل مدافع الترك وأسلحتهم ودحانهم كذلك نستعمل
مكرهم عندما يضطروننا الى ذلك . فلن نعدي على أحد . ولكننا سنقاوم كل من
يحاول الاعتداء علينا . فان أمنا نعرف الاخلاص ونشكر لكل من يأخذ بيدها
ويساعدها على اصلاح البلاد . فلما نرغب في شيء سوى الإصلاح (وهما أكد
هذه اللفظة) .

قال عراقي : « أما الذين يمدعونا فانهم يجدوننا أشد خداعاً منهم فأوردوا ،
وخاصة المحلثا تنظر اليها كما تنظر الى متوحشين وهم يقولون أنهم يقدرون على سحق
في أربع وعشرين ساعة فليحرروا ذلك اذا أرادوا ولكهم سيفقدون دين الحكومة

٨٠ مليون جنيه ودرس الاهالى اى ٢٠ مليون جنيه . فان أول رصاصة أطلق ستحررنا من قبود هذين الدينين . والامة فى هذه الحالة لا ترغب فى شىء اصل من الحرب . وقد سمعت هذا الكلام من عدة أناس . والاستعدادات تجري على سابق وقدم . وقد وجدت ذخائر كثيرة وبنادق عديدة كان قد حياها اسماعيل عندما كان يوى أن يستقل عن الباب العالى . وهم يقولون ان هذه الذخائر سندهم فى الحرب وقد أخبرتهم بأني أؤمل أن لا نحصل هذه الحرب وهم يقولون أنهم يستطيعون المقاومة سنوات لان الله قد بارك لهم فى حاصلات هذا العام حتى بلغت ضعف ما كانوا يحنونه فى السنوات الاعتيادية .

وقد عثمت عود عرابي عن حليم فوجدته يفصل حليماً على توفيق ولكنه يقول انه اذا كان توفيق لا يسير وراء مائت ولا يصحبى لاقواله ونصائحه فان الاحوال تستوى ولا يعود هناك مجال للشكاية منه . ورايه أن كולם أضل مائت وأضر بلاده ضرراً طليماً كما أضر مصر بشرة الاخيار الكاذبة عنها .

فى ١٧ يونيو - ذهبت مساءً أمس الى منزل شريف باشا حيث كان هناك عرابي ومحمود سامي وعبد العال وعلى صهي ونديم وهجرسي وكانوا جلوساً يتناولون العشاء . فبعد العشاء أخذنا ندخن وتحدثت عن السياسة واذا بصابط قد دخل علينا ومعه خطاب من سيدة انجليزية تطلب حمايتها لان بعضهم نصح لها بمغادرة القاهرة . وقد صار عرابي فى نظر السيدات الاوربيات طغلاً وقد ممتحن يدعنه لحمايته لمن . وعندما يكون في مركبة تتسارع السيدات لرؤيته من النوافذ والشرف . وكلما قابلت أوربياً دعونه الى مناصرة عرابي .

فى ١٨ يونيو - فى ظهر أمس عندما أعلن بالتلفراف خبر تعيين راغب باشا رئيساً للوزارة ذهبت الى عرابي فقرأ لى تلفرافاً بعث به اليه الخديو بطلب منه فيه ان يتعاون مع راغب باشا باعتباره (أى عرابي) وزيراً للحرية . وعندما شربا القهوة كتب رداً يشكر فيه الخديو . وكان الرد غاية فى الادب من حيث العبارة . ثم قال لى بعد دقائق . « فلنركب عربة ولنسرق شوارع المدينة لكي نبعث الثقة فى صدور الناس » فركب هو وعلى صهي فى عربة وركبت أنا ونديم فى أخرى وسرنا فى

المعجالة تقدمنا جنود و نزلنا عند منزل الشيخ الامامي شيخ الاسلام . وقال لي عراي
« نعال معنا لا عرفك بطركنا » فنزلت معه وعند ما دخلنا وجدنا الشيخ حائلاً
على ديوان قصير فوقه وتقدم عدة خطوات فلم عراي عليه وقبل يده . أما أنا
فحييته بهريده فقط . ودعانا الى المجلس فجلسا . وكان معه كثير من علماء
الازهر وكان ابن الشيخ العروسي أحدهم . وبدأوا بالكلام عن الوزارة الجديدة
ثم أخذوا في الحديث عن علاقة الشيخ الامامي بالتحديوي في الحوادث الاخيرة .
وقد استطعت أن أعرف من هذا الحديث أن ما أنشيع عن وجود فتور بين عراي
والامامي لا أصل له . وعندما كنا نتناول القهوة قدمني عراي اليه وبين له اني
صديق المستر بلانت فأوضح لي الامامي مسألة التفراق فقال لي انه كتب الرد
بيده وانه لم يعتذر للتحديوي عنه . وهو يعتقد ان ماليت سمع عنه من سلطان باشاؤ من
احد أنصار التحديوي .

ثم عرض عراي على الشيخ مشوراً بصدد حماية ارواح سكان مصر وأهلها
مهما كانت ديانتهم أو قوميتهم ورجاه ان يكتب هو مشوراً مشابهاً له يقول فيه
باعتباره شيخ الاسلام ان الاسلام لا يمنع المسلم من أدى اليهودي أو النصراني فقط
بل يفرض عليه حمايته لانه في ذمته . فوافق الشيخ الامامي على ذلك ثم قام في
حضورى وحضور المشايخ الاربعة الآخرين وصلى لله كي يلهيه طريق الصواب في
اصلاح البلاد ووعد أيضاً بان يساعد عراي لتقوية روح السلام بين المسلمين وغير
المسلمين اذ هم في الحقيقة اخوان وان اختلفوا في الايمان

ومن هناك بمننا منزل أرتين بك غيانا وبالغ في التحية ثم سرنا في شارع كاوت
بك ثم الموسكي وسائر شوارع المدينة وكان الناس يقفون على الجانبين صائحين
بقولهم : « الله ينصرك »

وفي نهاية هذه الحولة أخبرني عراي بانه دعى الى منزل السيد حسن مومسي المقاد
لتناول العشاء فاحدني معه وكان بصحبته باشوات وضباط ومشايخ وعلماء . وكان
مرسل هذا السيد على سعته مكتظاً بالضيوف . فكان بينهم عراي ومحمود سامي
واحد باشا وعدده ونديم وانا وكما جميعاً في الفرقة الكبرى . وكنا نشد الاشعار

في المذائح والالهامي وكما ندلى بهو راعب ناشأ . فطمع عرايى مقطعة ونظم
سعد شتتين أما نديم فطمع أرساوا كتنى سامي ناشين . وعند العشاء حلت الى
حب عرايى . وقدم لنا ثلاثون لونا تقريباً وهذا غير العطايا والخلوى الاوربية
والشرقية والفواكه .

وبعد العشاء أحدثنا في الحديث عن السياسة وعن أنواع الحكومات وأسايلها .
كان النوع الجمهورى هو المفضل في الحديث . وأخذ محمود سامي وهو ذو دكا .
ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد المحكمة الجمهورية للبلاد مثل مصر . وبما قاله :
« لقد كنا نرى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا وعدند
كانت تنضم البنا سوريا وبينها الحجار . وكما وحدنا العلماء لم يستعدوا هذه الدعوة
لهم كانوا متأخرين عن مهمهم ، ومع ذلك سنجهد في جعل مصر جمهورية قبل
ثلاثين نوت » .

في ١٩ يونيو — كما أنا وعبد ونداء سامي تتكلم أمس عن الوسائل السلية
تجى يمكن اتحادها لكي نغمر بها مصر أزمها الحاضرة . فقال عبده انه اجمع رأيه على
أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التي لديه أو التي يستطيع حيازلها ويذهب بها الى
بلجيترا لكي يعرضها بنعه على مستر غلادستون والبرلمان الانجليزى . وسيأخذ معه
أحد وجهاء التجار وأحد الاحرار من يوتون عن الملاحين . فوافق محمود سامي
على هذا الرأى وقال انه هو أيضاً يود أن يذهب الى اوربا لهذه الغاية . وعبد
يستعد الآن للسفر . وكان نديم والسيد حسن موسى العقاد يريان ذلك أيضاً . وهذا
الاخير من أعنياء التجار في القاهرة وهو وطنى ذو ثروة عظيمة ونفوذ كبير .

وقد صار راغب رئيساً للوزارة ولكن بما أن خطته تركية فليس من برضى عنه
سوى الشراكسة . والباقى يتوحسون من نعيمه ويحشون أن تكون هناك دسيمة
تركية . وأنا أهدتهم .

وقد كانت الحوادث الاخيرة باعثاً بين الوطنيين على كراهة الأتراك والشراكسة
والسلطان نفسه . وقد سمعت سامي وعبد وندباً يلحسون السلاطين والامم التركية
من عهد حبيب خان وهو لاكو الى عبد الحميد . وقد الف حرب كبير يستعد لاعلان

الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الامرالك في مصر بدخلا حربيا . ولكن التركي الماكر قد أدرك الخطر وامتنع عن التدخل . وقد قال بدم ومحن واجعون من شرنا انهم سيهدم عرش السلطان قبل ان يموت .

ويجب أن أحرك بأى الآلى الآن من الحماوة والاحترام ما لم أكن أعلم به . فجميع الباشوات والضباط والمشايخ والتجار يلاقونى بالباشا والود والشكر . وقد اتفقت مع نديم على ايلام ولجنة اكرامالك وشكراً على ما أسديته من المعونة للوطنيين في هذا الكفاح .

القاهرة في ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢

ذهبت الى منزل محمود سامي حيث قابلت جميع أصدقائنا واخطأنا بالباشوات وسائر الرعا . وكان حديثنا طول الليل عن السياسة وقد أخبرتهم بفعوى خطابك الذي وصل الى اليوم عن طريق برنديزي ولخصت لهم أيضا أقوال الخرائد التي ارسلها أنت وليدى آن الى . وبعد ذلك قدمت لمحمود سامي عريضة وقعها الوطنيون يطلبون فيها من مستر غلادستون أن يرسل اليهم معتمداً يهتم بأحوال بلادهم . وقد وافق سامي على العريضة وقال أنهم سيوقعونها عند ما يحجي ، عراني الى القاهرة وستقدم العريضة بواسطة الى مستر غلادستون . وفي آخر الشهر قبل لي أن ماليت حرض توفيقا وطلب اليه أربع مرات أن يقبض على عبده ونديم ومحمود سامي وعلي " انا أيضا " .

في ٢٣ يونيو — عند ما صدق الحديو على تعيين راعب باشا استدعاني أنا وديما الى الاسكندرية . وفي ليلة الاثنين جاءتني في الصدق عربة وفيها رجل يدعوي زيلة حسن باشا القرملي . فذهبت أنا ونديم لاني خشيت أن أذهب وحدي . فمب وصلنا قوطا بحماوة ثم أخبرني أن راعب باشا عهد اليه بتبليغي رعيته في رؤيته في الديوان في الاسكندرية فقلت « لا بأس » وقال بدم انه سيذهب معي أصا . وخرجنا من المنزل وقد عقدنا بيتنا على أن لا نكون لنا علاقة راعب

وهكذا تعرف انه في الوقت الذي أرسلت اليك تافرازا أدعوك فيه الى أن
تسعى مآليت لتلا يقته المتعصرون كان هو يشير بالقصص على . وقد كنت على
الدوام عند ما يتكلم شهاب المصريين المتحمسين عن اغتيال مآليت أس لهم حطام
وانه ليس هناك أقل منفعة للقضية الوطنية من هذا العمل

في ٢٤ يونيو - كان محمود باشا الملكي قد ترك الوطنيين لانه لم يقبل وزارة
في عهد رئاسة محمود سامي وقد نرضاه عراي باعطائه منصب وزير الاشغال
(وأخذ صابونجي هنا في وصف الامة التي سبقت استقالة وزارة محمود سامي
وتوسلات عراي الى السلطان وبعثة درويش ثم بعثة عثمان بك وكيف أن الوطنيين
كانوا يتسلمون السلطان باعلان الاحلاص والولاء له)
وهناك ما يقوله صابونجي بعد ذلك :

أما عن عقيدتهم الحقيقية فهم لا يسمون بعبد الحيد أكثر ما يعنون بسكان
القرى فهم يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لاعلان
الجمهورية المستقلة وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ولكنهم تبصروا في
العواقب فرأوا أن يسيروا سيراً وثيداً في هذا الموضوع فتدبم بوجهه جهوده نحو
هذه الغاية بنذر بنذرها في أدهان الحيل الحديد ومنذ وصولي الى هنا وأنا وديم
لا نتفرق . والمشايخ والعلماء والاعيان والتجار والصباط يقابلوننا بأذرع مبدولة
ونحن نحدثهم عن مساعيك وعن الخدمات التي أدتها القضية الوطنية وكلهم مشتاق
الى رؤيتك يسدونك بحبائهم وتسليماهم . والحقيقة أن هؤلاء الناس الطيبين
يستحقون كل عطف ومعونة
صابونجي

ولست أذكر بالذقة ذلك الوقت الذي قر فيه رأي غلادستون على أن ييث
فتنة في المصريين ويعول على التدخل الحربي بعد أن أغرى به وأعواها بأن هذا
التدخل الحربي ليس في الحقيقة حرباً . ولكني أظن ان قراره هذا قد انتهى اليه
بين ٢٠ يونيو وآخر يونيو . وكانت الاعتبارات التي أخأته اليه مبدية على
الخطط البرلمانية ، فان الاحرار من حزبه كانوا على وشك الانتفاض عليه وكان
تشمبرلن يقص عليه القصص عن القلق المنتشر في احماء البلاد وكانت هزيمة وزارة

الخارجية واضحة لا يمكن احماؤها فكان حراميل يلجأ الى خطته في التأجيل ويقول ان التهديد بالحرب يساوى الحرب نفسها فاستعمل هاتين الخطتين وكانت النتيجة أن انجلترا صارت أضحوكة العالم في معاملتها للسألة المصرية . وكانت أحوال البورصة غير عادية والتجارة تعاني أزمة دامت زمنا طويلا ، وقد استعملت وزارة الخارجية جميع « وسائل الحضارة » في حل المشكلة وهي تلخص في الكذب والحيلة والفش فذهبت كلها هباء . أما عسادر الوطيين فقد أشرت انجلترا على جلالة قدرها وعظم نفوذها عرايى بأن يقادر اللاد فرفض أمرها ، بل حدث عكس ذلك اذ رادت قبضة عرايى فى عين العالم الاسلامى وكانت هذه الزيادة على حساب انجلترا ، فقد ظن كثيرون فى ذلك الوقت أن دعاة الحاممة الاسلامية فى الهند سيقومون بهتة ، وكانت انجلترا فى يوم عيد واترلو أسحق ما كانت فى تاريخها كما سبق لى قول هذا ، فقد فرغ أكثر الموظفين واستيقظت فى المحافظين عاطفة القتال التى أخذت منذ هزيمة دزرائيلى فى سنة ١٨٨٢ وهبت تدعو الى الدم ، فقام مستر غلادستون وأخذ صيره ولست أظن انه عد الى أخذ السألة فى يديه بأمر وينهى فيها وإنما أظن انه اقتصر على السكوت وترك (المصالح) تعمل مارتاه واجبا ، ومعنى ذلك أن السألة صارت فى أيدي رجال وزارة الخارجية ووزارة الحرية وسيرسيمور وكولمن لان (ماليت كلن قد سحب) لكي يحلوا السألة بأنفسهم . فقد كسنا نحن القصة من الوجهة السياسية وهرمنا وزارة الخارجية هزيمة تامة فكان لانجلترا أن نهزمنا من الوجهة الحربية

واليك المذكرات :

١٩ يونيو — فى بورصة لندن فرغ سبب اشاعة استقالة برابط ونشميرلن (وكان هذا الفرغ يدل على جهل الجمهور بحقيقة نشميرلن اذ قروا اسمه الى اسم برابط)

٢٠ يونيو — كتبت القليل نيور مقالا معقولا ، وينصح لى فريدريك هاريسون بان اكتب لمستر غلادستون خطابا مفتوحا وأطعمه ، وهو يضمن حسن تأثيره فى انحاء البلاد ، وقد بدأت فى تحرير هذا الخطاب

٢١٥ يونيو - انتهيت من خطابي وذهبت الى هوارد لاستشارته فطلب مني أن أفتح بعض المباحث حتي لا يقع غلادستون شخصياً تحت المسؤولية . وكان ذلك هناك . ثم اتفقت مع باتو على نشره في الهند أو يوم الجمعة على الأكثر ثم أرسلته الى غلادستون .

٢٢ يونيو - بكرت في الصباح وذهبت الى باتون وكلانا يظن أن البية بمصر سيئة وقد كتب هاري برايد يقول انه اذا وافقت فرنسا على المدكرة فن الحكومة تعد الى العمل في مصر ولو رفضت المانيا الاشتراك . وأنا أشك في ما اذا كانت فرنسا مستعدة لذلك وسألخى خطابي لمستر غلادستون بخطابات أخرى اذا دعت الضرورة وأنا متأكد أنه اذا أتزت انجلترا جيوشاً في أي مكان في مصر فان السلطان يعلن الجهاد وتحدث فتنة بين مسلمي الهند ونحن الآن في مأزق عجيب .

وقد ظهر خطابي في التيمس في ٢٣ يونيو وهو اليوم الذي انقعد فيه مؤتمر الاستانة . وقد أحدث رجة في الرأي العام وهذا نصه :

سيدى

ان خطورة الخلال الحاضرة في مصر ومصالح الامة الانجليزية وكرامتها المتعلتين بهذه الحال الآن تدعوني الى مخاطبتكم عن الامور السياسية التي قادتنا الى المأزق الحاضر والى تدوين بعض الحقائق التي يجب ألا ننحني عن أعضاء المؤتمر القادم اذا كان ينوى أن يقرر خطة جديدة

فأنت تعرف أنني في الشتاء الماضي توسلت بين سير ادوارد ماليت وسير اولكلاند كولفن من جانب وبين زعماء الحزب الوطني المصري من جانب آخر وقت بمفاوضات بينهما هي ان تكن غير رسمية الا انها كانت ذات أهمية وكان شرفي فيها رهيناً بنولاً . لوكيلي حكومة جلالة الملكة . ثم انى منذ مجيئى الى انجلترا وانا على اتصال دائم مع هؤلاء الزعماء . فلذلك أجدني الآن في مركز يجبرنى الى الكلام عن مسلك هؤلاء الوطنيين وأنراضهم . وتعرف أيضاً أنني حضرت رجال حكومة جلالة الملكة عدة مرار من الخطر الذي كانوا يتعرضون للوقوع فيه لعدم ادراكهم الحقائق واهي

حشنتهم على ان يسارعوا الى التسليم مع اولئك الذين يقودون الحركة في مصر
وتعرف أيضاً ابنى مراعاة للحق والعدل اصحت المصريين في الارمة الاحيرة
ان يسبوا الخلاف الذي شأ بينهم وبين الخديو وحشنتهم على ذلك بكل ما في يده
وقد حصلت بالفعل هذه التسوية الآن . وقد تحملت في على هذا مسئولية عطى
ولكنني أعتقد ان الحوادث برزت على .

وأهم الحوادث الماضية التي أريد اثباتها هنا هي :

أولاً - في شهر ديسمبر الماضي عاينت رجال الحزب في شربناج يلحسون
فيه آراءهم وكانت آراء عادلة صحيحة وقد راعوها مراعاة تامة . وفي ذلك الوقت ثم
بعد ذلك الى ٨ يناير حين أرسلت المذكرة الثانية لم يكن بين المصريين وبين إنجلترا
او الانجليز ما يدعو الى الخصام او الشجار . ولم يكن بينهم وبين الخديو أو المرافقة
الثانية اى خصام بل كانوا يتقنون هاتين الهيئتين ويعتمدن عليها لمعاونتهم
في السير نحو السبل البرلمانية والحكومة الذاتية الدستورية . وكان غرضهم ولا يزال
ان تعود مصر دولة تتمتع دينها وتصلح قضاها . وكانوا كما هم الآن يتقنون الجيش
لكي يديلمهم هذه الحقوق والبرلمان لكي يصل بهم الى غايتهم . وكانوا مستعدين
لان يتدرجوا في تقدمهم لا يجحدون عن الاعتدال

ثانياً - ان المذكرة الثانية التي أعدها مسيو غامبتا كانت غاية منها ان يورط
إنجلترا في سياسته العدائية نحو الاسلام وقد فهم المصريون انها أول خطوة
خطتها إنجلترا نحو السياسة التي تتبعها فرنسا في تونس فصارت ثقتهم من ذلك
الوقت في إنجلترا توجسا عميقاً . وبدلاً من ان تخفيهم هذه المذكرة الجائهم الى السرعة
في عملهم . ففى التي جعلتهم يلحون في طلب استقالة شريف باشا ، الذي كانوا
ينهمونه بالحياة ، وبطلبون من الخديو تأليف وزارة وطنية . وهذا الالاحاح الذي تقول
الصحف الانجليزية انه صدر من الجيش هو في الواقع صادر من الأمة المثلثة في
بواها . ويمكنني ان أقدم عدة شواهد على هذا .

ثالثاً - ان سقوط مسيو غامبتا الذي لم يكن ينتظر منع تنفيذ الوعيد الذي
حا في المذكرة الثانية بالتدخل الحربي . ولكن فكرة التدخل وان تكن عبر

صاشرة قد بقيت . قال المراقب الانجليزى والمراسى احتجاً على الدستور الذى منحه الخديو في ٦ فبراير وامتنعت الحكومتان الانجليزية والمصرية عن اعلان رضاها به واعتبرت المادة التى تسمح للبرلمان بمناقشة نصف الميراثية التى لم يكن مقبداً . الخديو بمخالفة للاتفاقات الدولية ، وكان المصريون ينكرون حقهما التى أسساها على بعض فرمانات الباب العالي وديكرتات الخديو .

راجاً — ان الوكيلين الانجليزين نبأ لا واسر حكومتهم (كما هو المفروض) نصبا من نفسيهما في الثلاثة الاشهر الماضية خصمين بغيان احداث ثورة لقلب النظام الذى أوحده ارادة الأمة والحرية التى منحها ابائهم الى البلاد . ولم يشجع المراقب العالم الانجليزى ، مع انه موظف فى الحكومة المصرية ، عن أن يشترك فى هذا العمل . ولم يرض وكيل انجلترا بأى نصب فى المداخلة بين الخديو وورثته توصلاً لهذه القاية . وامتنع المراقب من حضور جلسات مجلس الوزراء معتمداً على أن الوزارة الجديدة لعدم مراتها شحطى . ويقف هو من بعيد بحصى عليها اخطاها . وكل مكاتبو الصحف الانجليزية مقيدون قلاىي شر آرائهم فما هو ان ظهرت الوزارة المصرية الجديدة حتى أذن لهم فى نشر الاخبار التى تؤذيها مع علمهم بكذبها . وانى أجروا على ذكر بعض الاحبار المزعجة التى نشرها هؤلاء المكاتبون ولم يكن لها أصل ، فن ذلك خبر انتشار قطاع الطرق فى افوحة البحرى ، وخبر ثورة البدو ، وخبر ثورة السودان ، وخبر عرب الحبشة ، وخبر الفقات الحربية الهائلة ، وخبر امتناع الناس عن دفع الضرائب ، وخبر استقالة مديرى المديرىات ، وخبر اهمال أعمال الرى ، وخبر الخطر الموشك ان يقع بقصة السويس ، والاخبار القائلة بان عرابى صار مأجوراً لاسماعيل ثم لحليم ثم للسلطان . سم انه قد يكون هناك أساس واه لبعض هذه الاخبار ولكن ليس لاكثرها أصل التة ،

وقد خاطبت فى ٢٠ مارس لورد جرانفيل فى هذا الموضوع بما ، على طلب عرابى وأوضحت له الخطر الحائق بالسلام من مسلك وكلاء انجلترا وألححت فى طلب ارسال بثة لىكى تبثت شكايات المصريين

وفى شهر ابريل كشفت مؤامرة لاغتيال الوزراء الوطنيين الذين عرفوا ان يد

اسماعيل هي التي حركت هؤلاء المتآمرين . فأخذ قنصلا انجلترا وفرنسا في استغلال هذا الحادث لمصلحتهما وصاروا يحسان الخديو على مناوة ودرائه . وكان المهتمون بهذه المؤامرة قد حكم عليهم بالنفي وكانوا من ذوي المقامات العالية يشتركون مع الخديو في القومية والجنسية لانهم من الأتراك والشركس ولهذا السبب رفض الخديو التصديق على الحكم وقل إشارة الذين أغروه بالامتناع عن التصديق وأدى هذا الى القطيعة ما بين الخديو ووزرائه . ثم أرسل محمود سامي باشا في طلب النواب لكي يفصلوا في الخلاف بين الوزارة وبينه . وجاء النواب ولكن سلطان باشا رفض أن يعقد اجتماعاً رسمياً برياسته وذلك للحسد الذي كان عالماً على عواطفه . وأخذ القنصلان في استغلال هذا الحادث الثاني فصاروا يجرضان جميع المعارضين للحزب الوطني بالاتفاق حول الخديو . وخشي بعض سراًة المصريين حدوث اضطرابات فانضموا الى الشراكية . وانخدع القنصلان بهذه الحركة فأعدا صهيماً لضربة نهائية وأرسلوا السلاح الاخير الذي طلبوا فيه استقالة الوزارة وابعاد عرابي عن التطر المصري . وراى الناس كأن البلاغ نجاح لأن الوزارة استغلت بالفعل ولكن ظهر في الحال ان القنصلين أساءا فهم الشعور الوطني ورجع عرابي في اليوم التالي الى منصبه بقوة ارادة الامة الواضحة

ولست أستطيع أن أقنع ان ملك وكلياً في هذه المسألة يمكن تبريره او القول بأنه موافق لمبادئ الاحرار وعلى كل حال انه لم يصب نجاحاً

خامساً — عندما أرسل الاسطول الى الاسكندرية حاولت ان أحذر ولاية الامور وكان تحذيري مبنياً على ماعرفته مدة اقامتي من شعور الوطنيين وقد قلت ان وجود الاسطول في مياه الاسكندرية ونجاحه اذا نزل بعض البحارة الى المدينة قد يحدثان في الاغلب اضطراباً واقترحت ان اذهب الى مصر لكي اعمل جهدي في تخفيف بعض التآغ التي كنت اشخى وقوعها

سادساً — في نفس هذا الوقت رضيت الحكومة الانجليزية بارسال مبعوث مركي الى مصر وكان المفروض ان يفود السلطان في مصر عظيم للدرجة ان الالهى سيحضرون لأي إشارة تصدر من مندوبه او ان المقاومة لما يشير به ستكون ضعيفة

لا يؤبه لما . وسمح الباب العالي بان يسلك المسلك الذى برغنه فأرسل درويش باشا .
وعما يؤسف له ان وزارة الخارجية كانت تعتمد فى حل المسألة على ما كان يشاع
عن هذا الرجل من انه كان حلواً من الصمير والقيمة فى معاملته للثائرين . وعندى
ما يداني على ان ما كان ينتظر منه هو ان يدعو عرابى الى الامتانة فاذا لم ينجح
فى هذا فانه يلجأ الى الرشوة فاذا خاب هذا المسعى الثانى أيضا يقتله بنفسه باعتباره
ثائراً على السلطان . ولست أناقش الآن فيما اذا كانت هذه تعليمات أمر بها درويش
او هي من ابتكاراته . ويظهر لى ان الباب العالي مثل حكومة حلالة الملكية لم يكن
يقدر مبلغ الشعور الوطنى وان اتحاد الأمة المصرية وشجاعتها هما اللذان أقنعا السلطان
بأن الوسائل التى استعملت فى البابا مع الثائرين لن تجدى شيئاً فى مصر . وعادت
النصائح المعقولة الى مكان هذه الأقوال ونصح لكل من الحديو وشعبه بالصلح .

فهذا ياسيدي هو باختصار تاريخ سياسة إنجلترا فى مصر فى الستة الأشهر
الماضية . وهو مما يؤسف له لصدوره من وزارة خارجيتنا . ومع ذلك فإن
المستقبل لا يزال فى يدينا وان كان المؤتمر عند ما ينقذ لن يحسب لإنجلترا سوى
صوت واحد . وليس لى الحق فى ان اقترح ما يجب ان يقال فى هذا المؤتمر ولكنى
اجرؤ على القول بأنه اذا كان وكيل حكومة حلالة الملكية يتقدم الى المؤتمر ويعترف
بأخطائه ويعلم عطف إنجلترا على مصر فاننا عندئذ نكسب ما خسرناه . لانه
على الرغم من غضب المصريين للحيل والألاعيب التى استعملتها معهم وزارة
خارجيتنا فانهم يعتقدون ان هناك عطفا عليهم من جانب الأمة الانجليزية يدعو
أعمال هذه الوزارة وان هذا العطف لا يسمح باستعادهم لأوهام عن المصالح المالية
وعن قناة السويس . وقد أكدوا الى المرة بعد المرة ان غايتهم هى السلام والاستقلال
والاقتصاد وقناة السويس تكون فى أمن وحى جميع الدول وان الجبل يرجع
الى إنجلترا اذا صارت مصر دولة عزيزة الجانب مثل سائر الدول . فحسبكم ان غدوا
الى المصريين يد الصداقة لئلا نلوا منهم الشكر والحمد

« ولفر دسكاون بلنت »

هذا وانى خادمكم المطيع

الفصل الخامس عشر

ضرب الاسكندرية

نأتي الآن على ذكر ضرب الاسكندرية وهو قتال دبره الاميرال سيمور بالاتفاق مع كوفن لان خروج ماليت آل الى وضع القوة السياسية كلها في يد كوفن ولم يأخذ لاسل كما كنت أؤمل مكن ماليت بل عين في مركزه كاتب صغير يدعي كارترت وكان لهله وعجزه آلة في يد المراقب يفصل به كيفاشاء . وليس عندي ما أزيد على مدكراتي في وصف الاسابيع الثلاثة التي تلت ما تقدم في القاهرة والاسكندرية . وقد حلب على خطائي المتوح الى مسير غلاستون عاصفة من السباب من أصدقاء ماليت وكوفن ومن الراعيين في الحرب ومن المعاصر المالية في الصحافة والبرلمان واليك المذكرات :

« ٢٤ يونيو — في جريدة التيمس اليوم خطاب شديد من هنري ماليت (شقيق ادوارد ماليت الاكبر) . وقد أعلن لورد لامنجنون انه سيسأل الحكومة يوم الاثنين عن « معاضاتي عبر الرسمية » . كلما كثرت المناقشة كان هذا في مصلحتنا . كلن عندنا يوم الاحد في كرايت جماعة كبيرة من الزوار بينهم لاسل

« ٢٥ يونيو — كتبت رداً لتيمس على خطاب هنري ماليت وأرسلته . وقد لطفتم لهجت تهدة للغواطر . لم تكن لي رغبة في الشجار مع أصدقائي وكنت قد قررت ان لا أضرب الا عند الاضطراب

« ٢٦ يونيو — ورد خطاب تاويل من سابونجي (هو الذي دوتته في الفصل السابق) فهم في القاهرة يولون ولية رسمية اكراما لي . التقيت بلورد دولوار ولورد لامنجنون (وكانا متصاهرين) في مجلس اللوردات وقد جعلت اولهما يسأل عن رسالة ماليت التي ارسلها في ٢٦ من شهر ديسمبر (وكلن ماليت قد قال انه انفاها) وكلن لورد لامنجنون ينوي ان يبنى خطبته على رسالة ماليت ولكني اوضحت له

حجة هذا العمل . ومع كل قد التي حطبة شديدة على وكانت لهجته عابة في الحدة
مصر فميت وجه لورد حراسل وان عليه القلق ولكنه صرح بأن قد حاولت
مئة الجيش في احدى المرات وهذا نصريح بعيدا . وقد اسكر هيرى مايت
م (ثم قال انه لا يتذكر رسالة ٢٦ يونيو ولكنه سيبحث عنها »

(ان سب فاني الحكومة وارنا كما عدم ما سئلت الوزارة عن « مفارصاني
م الرسمية » هو انها كانت قد نورط منذ عام في معارضا غير رسمية مع الينا
في يد مستر ارنحتون تصدد موقف الكهنة الارلدين »

« تناولت العشاء مع هيرى مدلتون في النادي وذهبت معه الى اجتماع عقدته
مذعة عدم التدخل في شارع فارنحتون . وكان سير ولعدر لوسون رئيساً للاجتماع
م تحتكم فاحسن وهو آلف من سمعت . قرأ فريدريك هاريسون خطبة لخص فيها
سألة المصرية تلخيصاً معتدلاً » لاحظ هنا أن هيرى مدلتون كان يعرف مصر
م قد أقام فيها مدة طويلة وكان يعرف الطوائف القبطية . وقد كتب اليه بطريرك
لاقاط خطاباً مدة الحرب وقد نشر هذا الخطاب . وهذا الخطاب ذو أهمية من
حيث انه يظهر كيف أن الاقاط كانوا جميعاً مع عرابي في ذلك الوقت .

« ٢٧ يونيو — تناولت العشاء عند بيمروك . وكنت جيم أعضاء نادي
مويلتون هناك وهم يقربون من الاربعين وبعد العشاء ، ساقيا بعضنا نحن بعض .
م وبعيت الي الخطابة . وشعرت اني في وسط لا ينظر الى سين الرضا لأن اكثر
المحتمين كانوا من الراغبين في الحرب . ولكن هاملتون وقف وشرب نخبني منوها
م بخدماني العمومية . فلما وقفت للرد قلت ان بعض الناس يخدمون بلادهم بطريقة معينة
م وبعضهم يخدمها بطريقة أخرى ولكن ما دام الانسان يخدم ويؤدي واجبه فلا أهمية
للطريقة التي يتبعها » .

(وهذه الخطب لم تكن بالطبع خطيرة الشأن لأن الاجتماع كان مقصوداً به
الهدوء وكان الحاضرون من اصداق لورد بيمروك الخواص وكانوا يأتون لزيارته مرتين
أو ثلاثة في العام لهذا الغرض)

« ٢٨ يونيو — ذهبت الي جورج هوارد وعرضت عليه خطاب صابوحي

ومكانياتي مع غلادستون . وصابونجي يقول ان الرعاء الوطنيين في مصر يفكرون في المجيء الى إنجلترا لكي يعرضوا قصيهم على مستر غلادستون - وقد سألت هوارد أن يتوسط لي في مقابلة رابط فاني اعتقد أن رابط يفاد الى الحق اكثر من سواء وربما كل في معرفته فائدة . وليس هناك شك في أن الاستعدادات الحربية قائمة على سابق وقدم لفرص ما . ولست أعتقد الا أن القصد من هذه الاستعدادات هو تقوية يد دوفرين في المؤتمر ليس غير . وقد أرسلت تلفراغا الى صابونجي أخبره فيه بأنه لم يقرر بعد شيء . بصدد ارسال الخنود وأسأله أيضاً أن ينصح بالصبر .

« ٢٩ يونيو - زرت رابط في منزله في بيكاديلي . وكان يتكلم بلهجة الصداقة ولكن عطفه ومعرفته كانا أقل مما رأيته من مستر غلادستون . ولكن النتيجة كانت مع ذلك مرضية . فهو يؤكد لي أنه لم تتخذ الى الآن احراءات حرية وهو لا يطمح أنها ستتحقق وهو يعتبر قناة السويس قليلة الفائدة الحربية لنا من حيث تدبير الخطط . وهو يوافق غلادستون على تفضيل طريق الكلب للمواصلات مع الهند . وقد أوصحت له رأيي عن الاصلاح الاسلامي وبينت له الاختلاف بين الحركة الموجودة بمصر وبين افكار السلاطنة النازعة نحو التعصب . وأظن أن زيارتي هذه ستقوى حزب السلام في الوزارة »

(ألاحظ هنا أن رابط قد استهجن مسألة التدخل واحتمال نشوب القتال في الاسكندرية أكثر مما توهم القارئ . هذه المذكرة . وقد أشار على بأن اطمئن من هذه الوجهة . وأما علي يقين بأنه كان يقول ما اعتقد . ولكن هذا المسكين الذي كانت مبادئه تنافي الحرب والقتال كان يجهل ما كلن يجرى في وزارة البحرية ووزارة الحربية وقد أخبرني بعد ذلك أنه قيل له أنه في حالة التهديد بضرب الاسكندرية سيقبض هذا التهديد حبراً على ورق . وكانت النظرية التي وضعها وزارة الحربية أمام مجلس الوزراء أن الامة بأكملها في صف الخديو وليست مع عرابي وانه عند اطلاق أول قنطرة من الاسطول يتسارع الناس ويقبضون على عرابي الذي سيفرد وحده بالمقاومة فيضعونه عند اقدام مولا الخديو ولما عرف برابط كيف أنه قد احتل عليه حتى رضي بصرب الاسكندرية الذي انتهى باحراقها وجعل الحرب

« ما من منها اغتباط أشد الغيظ واستقال من الحكومة ولم يفر لفلادستون اشتراكه
و المكر به أو تخليه عن مبادئه » .

« زرت ليدى جرجورى التي كنت مقالا عن مراقبة مصر وهو مقال
جلي القارى، بعض التسلية وتناولت المشا، عدد هواود وكانت زوجته متحمسة
شأن ترسباني »

« ٣٠ يونيو — يكذب كولفن بواسطة مكاتب التيس انه هو أو مايت قد
وسطاني في أي عمل أو استحدثاني لأي شيء . وهذا التكذيب سبيلسكني
ماصته بعد التصريح الذى اتاه اللورد حراميل هذا المصدد يوم الاثنين الماضى .
ان هذا التكذيب الصريح لأشياء، ليس من المعقول أن يكون كولفن قد نسبها
لا يحتاج الى وصف منى . ولم يقل من مسؤوليته ما كتبه لي في خطاب خاص في ٦
بريو بمجده فيه ما قيل في تلغراف مكاتب التيس . وقد قلت يانه في ذلك الوقت
واعتبرته محلصاً فيه ولكنى عند ما طلبت منه أن يجحد ما قيل في التلغراف علماً
رفض احانة طلي وكن رفضه بمائة الاصرار على الكذب .

تناولت المفطور مع دلاوار لكي أقابل برودلى مكاتب التيس في تونس

(برودلى هذا هو نفسه الذى عهدت اليه بعد ذلك الدفاع عن عرابى وذلك
باء على نصيحة دلاوار . فانه كان محامياً يمارس صناعة المحاماة في المحاكم القسولية
في تونس وكان يكاتب التيس أيضاً . وكل رجل ذا كفايات وقد خدم دلاوار
في عدة مهام فكان يقدم له المعلومات التي يحتاج اليها عن المسائل الشرقية التي تشغف
دلاوار بالبحث فيها . وكان يحرص له خطبه التي يلقيها في مجلس اللوردة وذلك عند
ما يكون مقبياً في إنجلترا . وعند ما غزت فرنسا تونس أخذ هو يدافع عن التونسيين
في التيس ويبرر ثورتهم والى بعد ذلك كتاباً في هذا الموضوع سماه : « الحرب
القرطاجينية الأخيرة »

« وهو يقول انهم في تونس وطرابلس ينتظرون مجيى، السلطان . والا فان
السوسى يقود المسلمين الى مهمة جديدة ... كنت خطاباً للتيس رداً على كولفن
وفيه ما يكفي لسمعه . تنذيت عند جرجورى »

« كتب إلى هاملتون يقول ان غلادستون لن يرجع عن خطة العطف التي اتواها نحو مصر واستقلالها اذا كان ما أخبرته به صحيحاً . وأظن ان الذي جعل غلادستون يقول هذا هو رابط . »

هذا الخطاب المشار اليه ها هو ذو أهمية بالغة الى النسبة التي حوت بعد ذلك بمسدد مكرر مصر . ثم أبصاً وعد لورد دفريس الذي تعهد فيه بالمحافظة على استقلال مصر ومعاهدها الحرة . وكان هذا الوعد موعزاً اليه به من غلادستون . ولولا اني كنت قاضياً على غلادستون من هذه الوجهة لما كان عدى شك في ان مصر بعد معركة التل الكبير كانت تضم الى الامبراطورية البريطانية . فان جميع الاحرار في الوزارة كانوا يقصدون الى ذلك »

« ٢ يوليو كتبت في بروكث وهي قعة ريفية لم أر مثلها قط سوى ويلتون . فجميع ما فيها لم يتغير بل هو باق كما كان منذ خمسين أو ستين عاماً في عهد كلروين لام اولون ملبورن وقد مات ها لورد بالمرستون وهي الآن من املاك هيرى كوبر وهو بطف علي كثيراً . وكنا جماعة مؤلفة من هيرى برايد وزوجته والسفير الاميركي ولورد هاتون ولبنجتون ولويسون حاور شقيق لورد جراسيل وسكرتيره وقد ناقشنا كثيراً عن مصر وكانت الالهة حية حتى لميسون به لم يقصص اما السفير في صي . وبعد ان لعبا التنس أنا ولويسون نحادثنا . وكان يتكلم بلهجة القناط من مستقبل الامبراطورية وقال ان انحلترا بمكسها ان تعيش اذا لم تحدث فيها ثورة . ومثل هذا الكلام في بروكث يشير الاشجان . . . في الانزومر حلة هوجاء أخرى على . »

« ٣ يونيو — كتبت في بروكث . أظن أنه اذا قر القرار على التدخل فستكون ايطاليا هي القوة التي تستغل ذلك بعد إشارة المؤتمر . وليس هذا مما يرغب فيه قال الايطاليين بمطافرن الآن على المصريين ولكنهم اذا اتقوا باهمهم وغامروا بالفتح فانهم سيلجأون الي طرق التوحش . ثم ان الايطاليين لا يمكن تقديم في مجالهم النياية كما هو الحال هنا وفي فرنسا . »

(ألاحظ هنا ان الحكومة الايطالية ستلت لكي تشترك معنا في التدخل وفصت

.. وصلت لو حدث سخطاً من الاحرار حيث كان غربالدى أحد رعايتهم الشيرين
سي. نجدة لمونة عرايى » .

« ذهبت الى كيبورث وتفتيت هناك . وقد حطط لينون طريقاً الى المنزل .
هناك . ونكلسا معاً عن الامبراطورية البريطانية وكان يعادلي في قوطه . ويطن
الصحاح كان مقدراً لمساعى في مصر أو لمساعى أى واحد عبرى ما دمنا لا نرتكن
في الصدقة . وهو ينهأ بوقوع ثورة في الهند بين المسلمين مها كانت الحوادث ...
وفي الليل ذهبت الى براند .

« ٤ يوليو - في لندن . وجدت تلفرافاً يقول ان عرايى لن يذهب الى
الاستانة وخطاباً من صابونجي مزيجاً . إذ يظهر انه فتح في إدارة البريد وما فيه
و أذيع يؤدى الوطنيين في الاستانة . وفي الصحف تلفرافات عن تجدد الشجار
بشأن استحكامات الاسكندرية ما وقد سمعت ليدى جرمجورى من سيرارسكين
ماي ان سير سيمور قد امر بضرب الاسكندرية في القند .

(سيرارسكين ماي هذا كلن على ما أعتقد كبير الموظفين الدائمين في وزارة
البحرية . وأول إشارة الى ضرب الاسكندرية في الكتب الزرق مؤرخة في ٢٦ يوليو
حيث أرسلت وزارة البحرية الى سير سيمور التلفراف التالي : « اذا كانت الحيوش
المصرية تستعد للهاجة حابر أمير البحر الفرنسي واستعد القتال » وهذا التلفراف
يظهر التحلل الذى كنا نتعلل به لكي نهاجم المصريين . وهو أشبه شيء بقصة الدثب
والحلل . ونحن نعرف من جريدة بالر التي سنشير اليها بعد ان سيمور قد عقد نية
على ضرب الاسكندرية منذ ٤ يوليو . ومما جعل الوراثة وعلا دستون يقرر ان
القرار النهائي ما أذيع من فرية مذبحة بنها التي لم يكن لها أصل مطلقاً وكان الفرض
منها تبيسج الرأي العام الانجليزى على عرايى »

وقول ليدى جرمجورى أيضاً انها سمعت ان كولفى قد استقال وان استقائه
قد قبلت .

ولست أعرف اذا كان هناك أصل لهذه الاشاعة ولكن استقائه في هذه الساعة
جاءت متأخرة فلا تأثير له الآن على سيرالحوادث والارجح ان الاشاعة كانت كاذبة .

اني في أشد الفلق مخصوص التهديد بصرب الاسكندرية وفي الساعة الثانية عشرة ذهبت الى مجلس العموم وسمعت ذلك يقول ان « الاسطول قد أمر بالانسحاب سلكاً معيماً اذا حدثت ظروف معينة ».

وقد تقديت مع سير وفرد لوسون وهو رجل لطيف وقد قرأت له خطابات صابونجي بشأن مقابلاته لوطنيين . وقال لي انه هو وآخرون سيفعلون جهدهم ولكن ليس هناك ما يمكن عمله الآن . وقد طبعت خطاباني التي كنت أرسلها الى غلادستون ولكي لن أشرها حتى أعرف خطة الباب العالي . تعشيت عند ليدي رورا موت كرسي وكل بول هناك وقد قال ان صرب الاسكندرية سيشرع فيه في الغد وفوست في صبي . واني أخشى الآن أن يحاطر الوطيون بما عدمهم علي مارلة الاسطول لأنهم حما سينهزمون فتؤدي هزيمتهم الى تثبيت عرائضهم وأظن أنه يلزمهم أن نتركوا الاسكندرية ثم يحفروا الخنادق ويسكروا بعيداً عن مدى إطلاق المدافع من الاسطول . ولكي لا أجسر الآن على أن أنصح لهم بشيء ما » .

(قال لي ناتون حوالي هذا الوقت أن الخطة التي ستبناها ودارة البحرية هي ازالة الحود وقت ضرب الاسكندرية والغاية من ذلك قطع الطريق على عرابي اذا أراد أن يتعمق وكان لهذا الخبر تأثير على تلفراي في اليوم التالي وخطاباني الذي أرسلته في السابع من الشهر) .

٥ يوليو - أرسل أمير البحر سيمور بلاعاً أخيراً . وقد أرسلت الى صابونجي التفاراف التالي : « يجب ألا تعاكسوا الاسطول . أرسلوا عبده الى غلادستون » . ولا أعرف اذا كنت قد ألهمت السداد في هذا العمل ولكن انصبر ليس في كل الأحوال ثم أن عرابي سيظهر في الحالة دون النظر الى رأيي وهو لم يحيطي . للآن . وقد أرسلت نسخاً من مكاتباتي الى الكلرديال ماسج والي تونس والي لورد دفرس . وبعد الغدا ، ذهبت الي هل رئيس تحرير جريدة الديلي نيوز . وهو الآن بعد فوات الفرصة قد انضم الى حاسا . وقد وعدنا بأن يكتب ما يمكنه . في المساء نلت خطاباً من صابونجي يقول فيه ان الهدوء شامل فظني أن الصعوبة

قد ارجئت ... كنت اليوم الى هاملتون أعده مرض خطابات صابو يحي عليه (وهي التي نشرها) وهذا علاج المستنفس ولكن هذا هو حكم الظروف .

٧ يوليو - ذهبت لزيارة ستايلي والدري وحضضته على ريادة موسورس لكي يجمع حدوث أي شقاق بين عراقي وبين السلطان . وقد عرست عليه حقائق الحالة على وجه التفريب ولكني فهمته ان الوقت الحاضر ليس من الاوقات المناسبة لوجود شقاق بين المسلمين . ويمكن الأتراك والمصريين تسوية ما بينهما من الخلافات في المستقبل . وبظهر لي أنه يوافقني ... ثم كتبت خطابا الى صابو يحي أسأله فيه أن يصح بعدم الشجار مع الاسطول وانما عليهم أن يسكروا في خنادق بعيدة عن مدى اطلاق مدافع الاسطول . ولا زلت أعتقد انه لن ترسل حملة انجليز الى مصر وان المصريين سيضطرون الى مقاتله الايطاليين أو الأتراك ... والصحف تشير الى تسوية سلمية بين الاسطول وعراقي . فاذا كانت هذه التسوية قد تمت في هذا ما يرضي .

٨ يوليو - في كرات - وفي البريد الثاني وجدت خطابا من هاملتون بهم منه ان غلادستون لا يزال قابلا للشاشقة والافتناع وهذا أكثر مما كنت أنتظر . (ان ما كتبه هاملتون في خطابه هو : « اظن أنه من السليم ان اب ردة الحكومة هي الوصول الى الحقيقة ولكن يظهر ان هذا ليس سهلا » وبناء على هذا أخذت أكتب ملخصا لخطابات صابو يحي . وفي المساء حضر لاسل وآخرون .

٩ يوليو - الاحد - استشرت لاسل في مسألة ارسال خطابات صابو يحي الى غلادستون فقال لي انه يظن أن الوقت قد فات . اذ أن هارنجتون أخبره أنهم يريدون احتلال مصر ووضعها جبراً على مبدأ مكهاون القتال : « ان هنا ولن أخرج » وقد قال نشامبرلن : « لقد أخرجنا مركز الرجل (غلادستون) فليس له مناص الآن من الحرب » ولذلك سأنتظر الحوادث . وحريدة الأبرزور تتوقع نهديداً آخر أو ملاحا أخيراً . وعناية الله الآن هي الموكلة على ما يحدث . (ان مادكرمه هنا عما أخبرني به لاسل ذو أهمية تاريخية . فقد كان في مركز

كما قاوم جيوش واسلي . ولم تكن كل هذه الاقوال سوى تسمية الاكاديب الرسمية التي اعنتها وزارة الخارجية لكي تعتد بها عن تصميمها على التدخل لمصلحة المايلين ويمكن أن يراها الانسان في خطبة لورد دوفرين في افتتاحه مؤتمر الاستانة وهي بليغة في الاكاديب العجبة . فان الامير الانجليزى يقول قبل ضرب الاسكندرية ان حالة مصر حالة الفوضى حيث لا تؤمن الارواح أو الاموال وحيث تقع المذابح بواسطة عرابي وجيشه وضابطه الآخرين المتمردين . وكلن كل ذلك يمنع الحكومة من ان تعمل لاستئيب الامس أو بلوع حالة الثبات المالى . وقد أوصحت فيما سبق مبلغ المبالغة في وصف حالة مصر بهذه الاقوال ومبلغ المغتربات والاكاديب التي فيها . وما تحتاج اليه الآن هو تقرير المسؤولية التي تقع على عاتق عرابي في ضرب الاسكندرية (١)

فليس هناك ريب في أن عرابي كان يقول بالاستعداد الحربي بعد ارسال

(١) قال لورد دوفرين : « ليس من المبالغة ان نقول انه منذ بضعة أشهر قليلة كانت الفوضى التامة منتشرة في مصر . فقد رأينا عصابة حربية ترتكب الجرائم دون ان تتستر بشئ ، ما كما هودأب العصابات التي من هذا النوع حتى صار العصيان تمرداً والتمرد ثورة والثورة استلاباً للسلطة العليا . وكانت النتيجة أن ادارة البلاد وقعت في الازماتك . »

«وقفت حركة التجارة ولم يعد الفلاحون قادرين على دفع الضرائب لأنه ليس هناك من يشتري علاتهم . ونزلت ايرادات الحكومة لهذا السبب . وقد أدت هذه الحال الى الاضرار بمصالح التجارة التي يشتغل فيها دعايا الدول العظمى . وليس هذا فقط بل أن الارتباطات التي اربطت بها مصر لفرنسا وانجليترا قد جمدها وقد فصل الموظفون الذين عينوا لكي يراقبوا تنفيذ شروط هذه الارتباطات من وظائفهم وهدم النظام الذي ابتدأ أن يظهر أثره في مسعة الفلاحين . ولم يخسر الدائشون حسائر جمّة فقط بل أن حياة الاوربيين لم تعد في أمن كما نكث على ذلك مذبح الاسكندرية التي قتل فيها الرعاع عدداً كبيراً من أبرياء الاوربيين »

المدركة المشتركة في ٦ يناير ولكنه كلن طول هذا الوقت يطلب السلام لا الحرب فقال المقاومة لا بالحرب ولم يكن منفرداً بهذا الرأي ثم ان وصول الاسطول لمياه الاسكندرية قوى مركزه وضم الى رأيه رأى الجمهور . ذلك انه كان أمام الجمهور مثال تونس فكأن من المحال أن لا يرى المصريون ماذا كان شيئاً لم على أيدي الدول الاوربية . فانهم كانوا يفهمون معنى ايجاد حالة كاذبة من الغرضي والفتنة تبرز بها الدول التدخل لحماية ارواح الاوربيين وأملأكم ثم القبض عنوة أو اعراء على حاكم البلاد مدعى حمايته هو أيضاً من رعاياه الثائرين ثم اجاره على قبول الحماية الحربية . فقد فعل الفرنسيون ذلك في تونس ومجحوا فكانت الية اعادة هذا العمل في مصر على يد الانجليز . فلم يكن من الصعب أن يفهم الوطنيون وهم يرون هذه النتيجة المتوقعة ان المقاومة أشرف من التسليم .

وكان صوت عرابي ذا أهمية كبرى في رفض طلبات أمير البحر سيود و ١٠ يوليو ولكنه لم يكن في حاجة الى الالتاح في هذا الطلب أو التهديد لتعيينه . فان المجلس العام الذي عقد لقرار على الرد لم يتردد في الحكم بأنه ليس من حق الخديو أن يتزل عن شيء من أرض مصر طاعة لاوامر دولة أجنبية دون أن يحصل على رضى من السلطان بهذا العمل . ولم يكن الخديو نفسه مخالفاً لهذا الرأي . وكان في هذا المجلس عدد من الممثلين من غير اعضاء الحكومة وكانوا جميعاً يلحون في الدفاع عن الحصون وكان الخديو يشاركهم في هذه الالتهجة الوطنية يعاونه في ذلك ممثل السلطان درويش باشا . ولم يجرؤ أحد من المسلمين الحاصرين في هذا المجلس حتى سلطان باشا الذي انضم نهائياً الى الانجليز أن يعلن بأنه يمكن قبول طلبات سيوده . وكانت النتيجة أنهم قرروا بالاجماع تعيين عرابي وزيراً للحرية والبحرية وان يستعد للدفاع عن الحصون وان يقاتل الانجليز اذا أطلقوا النار على الحصون ووافق الخديو على كل هذا . وأرسلت أوامر مستعجلة لوكيل الحرية في العاشر من الشهر بأن يعلن في انحاء القطر بأن الحكومة قد عقدت بينها على الحرب وانها تدعو الرديف وتنوى تأليف فرق جديدة من المجندين . وقد يقال ان الخديو لم يكن مخلصاً في موقفه عند ما وافق المجلس على الحرب . وليس من يشك في ذلك . فان

جميع أعمال توفيق العمومية كانت على الدوام تدل على عدم اخلاصه . والارجح انه هو وسلطان باشا قد اتفقا قبلا على أن يتظاهرا بالوطنية حتى يحميا بالرأى العام في حالة ما اذا ثبتت المحصون ولم تنهر امام الاسطول الانجليزي . ثم يجب ألا ننسى ان معوثى السلطان كانا حاضرين في المجلس وكانت خطة الحكومة الانجليزية في ذلك الوقت وهي الخطة التي كانت نطمنها على الملأ اسها لا ترغب سوى أن يتدخل السلطان في البراع وكل توفيق كعادته يلعب دوراً مردوجا وعائته أن ينضم الى الفريق المنتصر .

وفي الكتب الزرق رسالة عربية تظهر لقاري مقالته الخديوي لمتشاريه الانجليزي . فقد أبلغ في السادس من الشهر عن عزم سيمور على ضرب الاسكندرية وطلب منه كما يظهر ان يذهب الى احدى البوارج الانجليزية لكي يكون بعيداً عن الاذى ولكن هذا الاقتراح لم يتفق ومخاوفه التي تكن يحجب حسابها في المستقبل . فأرسل الى كولمن يخبره عن خطته في المحافظة على نفسه وقت إطلاق النار على المدينة . وهو يقول في رسالته هذه انه ليس له مناص من البقاء في مصر . فانه لا يستطيع أب يتخلى عن أولئك الذين وقفوا في صفه مدة هذه الازمة . وانه لا يستطيع ترك مصر عند هجوم دولة أجنبية لانه يقال عندئذ انه لم يراع سوى سلامته الشخصية . فهو لذلك سيذهب الى قصره على ترعة المحمودية ويبقى هناك مع درويش باشا . وقد لاحظ أيضا في رسالته هذه انه اذا انتهت هذه المسألة بسرعة كان ذلك أسلم عاقبة له . وكان هذا هو البرنامج الذي اتبعه ولكنه بدلا من أن ينزل في قصر المحمودية نزل في قصره بالرميل وهو يبعد نحو ثمانية أميال عن الاسكندرية وكان آمن من قصره السابق الذكر لبعده عن مدافع سيمور .

وبعد الحرب بمدة قصيرة قابلت سيرنشارلس ريسفورد . وكان مدة الضرب يقود البارجة كرم دور وعين بعد ذلك أمينا على الاسرى في الاسكندرية قتال الى أقوالا تدل على تردد توفيق باشا اذ صرح له أحد الايام بالسبب الذي دعاه الى البقاء في الاسكندرية مدة الحرب وهو عدم تيقنه من معرفة الفريق الغالب . فقد كان المعتقد في مصر ان الدوايح سيفترق وقد قضى يوما كاملا في قصره بالرميل

وهو في أشد القلق والارتباب فكان يصعد من وقت الى آخر الى سطح القصر ويصدر الى الاسطول لكي يطمئن على سلامته ولم يقر رأيه على أن ينضم نهائيا الى سيور الا عند ما جاء المساء ورأى البوارج كاملة لم تنقص بينا الحصون قد أسكت وارى هنا من اللازم ان أوضح القارى ان اقامة بريسفورد القصيرة في الاسكندرية قد جعلته يحترق توفيقا أشد الاحترار كما جعلته يعطف بعض العطف على عرابي والملاحين الذين حاربوا على الرعم من تحلف أميرهم وعدم قيامه بواجبه.

ولكن سواء أصبح هذا الذي ذكرناه أم لم يصبح فان رضى توفيق باعطاء اسمه لقرار المجلس بصدد الدفاع عن البلاد الى النهاية قد صنع الحرب صبغة شرعية بحيث لم يعد لاوامر الحديو التي أصدرها بعد ذلك مخالفة لهذا القرار - وذلك عند ما انضم الى جانب الاعداء ضد بلاده - قيمة شرعية . وعليها يحس ان يذكر ذلك اذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين وقت المحاكمة وموقفهم بعد ذلك عند ما تجلى لهم غدور الحديو . فان الرأي الاسلامي عن الحرب سهل واضح - فهو يقول بأنه متى نشبت الحرب فعلى الوالى والامة ان يستمرا فيها حتى يحققا النصر أو تتزل بهما الهزيمة . واذا أمر الوالى فليس له حق اعطاء الاوامر . وليس للوالى الحق من باب أولى هذا الحق أيضا . وكان المصريون ينظرون الى توفيق بهذا الروح حتى رده الانجليز الى مركزه وقلوب الامة نائية عنه وليس في التواريخ الانجليزية شيء مما ذكرناه هنا بل ترى بعكس ذلك مديحا لتوفيق لولائه لانجلترا وكيفية ثباته على خدمتها دون خجل الى النهاية . وسأعود الى هذا الموضوع .

وهناك نقطة أخرى وهي تحديد المسؤولية بصدد حفظ النظام وتنفيذ القانون وقت الحرب وتدمير الخطط في هذه الحرب ومبلغ اشتراك عرابي وسائر الوطنيين فيها مدة هذين الشهرين الحافلين بالحوادث . فهذه هي الحقائق التي استطعت أن أتحقق منها .

لست حين انه لا يمكن الامة أن تنظر الى الحديو باعتباره رئيسا للحكومة بزوال حقه في إصدار الاوامر ألف مجلس عمومي ودعى أعضاؤه للتعطيل فيما يجب عمله . وكان الداعون الى تأليب هذا المجلس من رجال الدين وسائر طبقات الامة أكثر

كثيراً من الداعين اليه من رجال الجيش . ولم يحضر عرابي اجتماع المجلس العمومي لانه كان عائباً مع جيشه في كفر الدوار ولم يزر القاهرة مدة الحرب أو يتدخل في إدارة الشؤون هناك . وكان المجلس حاوياً لمدد كبير من الاعضاء . وكان فيه العلماء ورؤساء القضاة التركي والمفتي وشيخ الاسلام ورؤساء المذاهب الأربعة وكان كباراً . نواب المسلمين هناك وبينهم أربعة من أسرة الخديو آخدون مذهب الوطنيين . ودعى اليه أيضاً عدد كبير من مدبري الاقاليم وعدد كبير آخر من الاعيان وكان هناك أيضاً من غير المسلمين بطريق الاقليات وحاخام اليهود .

فكانت قرارات هذا المجلس صحيحة من حيث أنه كل مؤلفاً من أعضاء يتوبون عن جميع الطبقات والطوائف . وكان أكبر الزعماء فيه ينتمون الى أصل شركسي ولكمهم كانوا باعتبارهم مسلمين محلصين يرون ان المسألة قد انتهت الى مأزق يضطر الأمة الى مقاتلة دولة أوربية عارية وان هذه الحالة تقتضي أن لا يرضى بمحادثات أية كانت في سبيل الدود عن البلاد بصرف النظر عن الخلافات الخيرية .

وقد قرر هذا المجلس بالاجماع ان الخديو لم يعد في مركز يسمح له بقيادة الامه وان أوامره ما دام في أيدي الانجليز لا قيمة شرعية لها . وكان أول ما عمله توفيق في موقفه الجديد انه فصل عرابي من وظيفته وهي وزير وزارة الحرية . فقرر المجلس إبقاء عرابي في وظيفته وأمره بأن يستمر في الدفاع عن البلاد . وتألف مجلس دائم لكي يعاونه في اتخاذ سبل الدفاع وكان هذا المجلس برئاسة يعقوب باشا سامي وهو رجل قدير فكلن وكيلاً لوزارة الحرية . وأخذ في نهضة أسباب التجنيد مدة الحرب ومد الجيش بالمؤن والذخائر . أما من جهة إدارة البلاد فانه بالنسبة لغياب راغب باشا في الاسكندرية ومعه سائر الوزراء الذين حجزهم الخديو وحرصه الانجليزي تقرر أن تدير الوزارات على ما ألفت من الاعمال . وسار العمل على هذه الطريقة دون أن يحدث أقل اهمال لأن وزارة راغب كانت في الحقيقة وزارة اسمية فلم يؤثر غياب الوزراء في سير الاعمال أقل تأثير . والحقيقة ان صلاحية الحكومة في ذلك الوقت لأداء واجباتها كلن ظاهرة أكل الظهور حتى ليصح أن تقول ان مصر لم تر حكومة أصلياً من الحكومة التي أدارت شؤونها وقت الحرب . فكانت وزارة

إدخاله يدبرها إبراهيم بك فوردى الوكيل وكل يدبر الوائس اسماعيل أفندي حودت وكلا الرجلين من أهل الكماية والدراية وقد جمعوا الأمن في ذلك الوقت المضطرب في جميع أنحاء البلاد . وقد حاول اثنا أو ثلاثة من المدبرين الشراكسة أن يقتلوا عمر لطفي محافظ الاسكندرية في أحداث الفلاقل في المديرية خدمة لتوفيق فقبض عليهم واعتقلوا إلى نهاية الحرب . ولم يحدث بعد هذا أي اضطراب . وقد حوفظ على الأوروبيين الذين ظلوا في القاهرة بناية تامة وكان أولئك الذين برعوا في مغادرة البلاد يخفون إلى يوسعيد .

وليس هالك أكذب من قول لورد دفرن في مؤخر الاستانة ان المسيحيين ينفخون كل يوم في مصر . وهكذا كانت الحال أيضاً في سائر المصالح والادارات . فلم يتعطل حي الصرانب ولم يتعطل الصرف على المرافق العامة . ولما انتهت الحرب كانت خزانة الحكومة في حالة التوازن الواضح فلم يظهر أي عجز عند ما سلمت إلى موظفي الحديو بعد معركة التل الكبير ولم يسرق منها أي شيء . ولم يظهر في دفاتها أي تلاعب وكانت الحاكم تسير سيرها الطبيعي ولم تكن هالك أي علامة تدل على ان البلاد تعيش في أوقات شاذة . وعند ما انتهت الحرب كل في مخارن الحرية من المؤن ما يكفي الجيش أربعة أشهر استولى عليها جميعها الخنزير واللسلي .

وبقي مركز عراقي ذا صبغة سياسية فقط فكان يدبر شؤون وزارة الحرية ويدبر شؤون القوات إلى أن وصل لسللي إلى التل الكبير فاضطر عندئذ أن يأخذ القيادة على عاتقه . وكان مقامه بين العلماء والفلاحين في الوجه البحري من أكبر البواعث على بث الحماة في صدور الأهالي وكانت الامدادات تدفق لهذا السبب على وزارة الحرية مجانياً . وكل المتطوعون يتوافدون لهذا السبب أيضاً . وكان عراقي بهذه المثابة ذا فائدة كبرى للأمة وقد أحسن صنفاً في عدم أخذه القيادة على عاتقه في ميادين القتال . وقد عزا أعداؤه ذلك إلى جبنه ومن الصعب أن يكذب الانسان هذه الدعوى أو ينفي هذه التهمة . فان عراقي كان فلاحاً لا شائبة فيه فلم تكن فيه تلك الغرائز الحربية التي توحدهد بعض الشعوب ولكنها غير موجودة عند الفلاحين فقد كانت شجاعته من نوع آخر ولم تكن من النوع العسكري ثم هو لم يشاهد

معركة حرية قبلا . والارجح انه كان يعرف هذا النقص في نفسه كما كان يعرف أيضاً جهله بالمعارف العلمية التي كانت تتطلبها الحروب . فهو لم يحظ بترية حربية حديثة ولم يكن له من التجارب سوى ما عرفه من الفارين العسكرية التي تدرب عليها في الثكنات وأطن انه لو دعى الى عمل مناورة بقصد العرض لما استطاع ذلك

ولكنني أظن مع ذلك أن السب الحقيقي في عدم حمله عب القيادة في ميادين القتال انه كان في ذلك الوقت رئيساً للحكومة وانه بهذه المثابة لم يكن ينتظر منه أن يقود الحيوش بنفسه . ومع ذلك هذا لا يبرئه في نظري راءة تامة ولم يبرئه بنو وطنه كذلك مهم يلومونه بحق لأن سيفه لم يصطلق بسيف العدو ولا في أواخر أيام القتال .

ولست أدعى معرفة تفاصيل سير القتال مدة الحرب ومع ذلك سأحاول أن أدونها هنا حسب ما علمته من المصريين لا من الانجليز . ولسوء الحظ هرب صابو بيجي قبل ضرب الاسكندرية مع سائر المارين . وبقيت بلا أخبار حتى نهاية الحرب . وليس في أوراق التحقيق في محاكمة عرابي ما ينير القارىء في هذا الموضوع . وجميع ما جمعت من هذه التفاصيل أخذته من الافواه بعد الحرب من أناس شاهدوها أو اشركوا فيها ومثل هذه المعلومات تكون بالطبع غير دقيقة من حيث ضبط التواريخ والأرقام .

وكان الاوربي الوحيد الذي اشترك مع الجيش المصرى في الحرب هو الرجل السويسرى صديق الوطنية المصرية جون تينيه

وكان جون هذا في مركز يسبح له بأن يعرف شيئاً كثيراً مما كان يجري لأنه قضى الشهر الأول من الحرب في كفر الدوار مع عرابي وكان يعاونه في مكاتباته مع الاجانب وقد تحدثت عدة أحاديث الى تينيه هذا . ولكن بما يحل روايته أنه شديد التحمس للعرايين وقد وضع كتابا في سنة ١٨٨٤ وهو ظاهر الاهمال كثير الاستسلام للجدليات بحيث أنه لا يمكن القارىء أن يثق به كل الثقة . زد على ذلك أن تينيه لم يكن مع الجيش عند ما شرع الانجليز في حملتهم الحقيقية فانه بقى في كفر

الدوار حين كل الجيش في التل الكبير . وما علمت من الحرب يمكنني أن أقوله هنا باختصار .

لما ضربت الاسكندرية ثبتت المدفعية المصرية للاسطول عدة ساعات أكثر مما كان ينتظره سير سيمور أو أحد من ضباطه . وكان المصريون يعانون شدة عظيمة لقدم القلاع التي كانوا يدافعون عنها . وكانت هذه الحصون من عهد محمد علي وكانت واجهاتها مبنية من الاحجار كما كانت العادة وقتئذ . ولكن الاحجار تعود بالضرر على المدافعين لانها تنفقت شظايا وتزيد قوة انفجار القنابل المعادة . ولم يدرك هذا النقص أحد حتى محمود همي بهه وهو مهندس كبير في الجيش فكثرت الاصابات بين المدافعين . وتقول الكتب الزرق أن حامية الاسكندرية كانت بين ٨٥٠٠ و ٩٥٠٠ جندي وهذا العدد يوافق على وجه التقريب ما ذكره الوطيلون . وبلغت الاصابات نحو الم بين قتيل وجريح . فاذا كانت هذه الارقام صحيحة فالنسبة في الاصابات عظيمة . وعلى كل حال فان شرف الحامية موهور وكان ثباتهم أول ما دعا الى رد الفعل في الرأي العام في إنجلترا وقد طهرت هذه الحالة بوصوح في الاسابيع التالية . وكان عمل عراي في الدفاع عن الاسكندرية كسائر عمله في الحوادث التالية غير مهم . فقد بقي مدة الضرب في دار البحرية وهي ليست بعيدة عن رأس التين فلم يكن بعيداً عن قنابل الاسطول ولكنه لم يذهب للتفتيش على الحصون الا بعد ما كف الاسطول عن الصرب . وكان قد اكتفى بأن يصدر الاوامر ويتلقى الاخبار . وفي المساء ذهب الى الرمل لكي يخبر الحديو بالنتيجة وكان توفيق هناك في قصره فاخترع لكي يخبره مشجرة صحيفة لان عراي لم يكتب له تقريراً عن حوادث اليوم .

ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف أن عراي لم يدرك المهمة التي كان يتجه اليها ميل الحديو والارجح انه كان يعرف ذلك فانه في صبيحة اليوم التالي أرسل الحديو حرساً قوياً لحمايته في الظاهر والحقيقة أنه كان يريد مراقبته وأرسل اليه أيضاً رسالة يقول له فيها أنه بما أن سيمور يهدد بتجديد الضرب فانه يدعو الى أن يتراجع الى حيث لا تصل اليه مدافع الاسطول وأشار عليه بالفرار الى القاهرة . وكان يجب على عراي

أن يذهب نفسه الى توفيق ويجبره على قبول دعوته ويرفض جميع تطلانه ويحمله معه سجيناً لآب مثل ماى تونس كان أمامه ثم هو لم يكن يحل مكر الحديو وانه لا يمكن الثقة بشرفه . وكان خطأ عرابي هنا قاضياً عليه والظاهر أنه كان مشغولاً ذلك اليوم بمألة جلاء الجنود عن الحصون فلم يكن عنده من الوقت متسع لزيارة الحديو مرة أخرى . وفي أصيل ذلك اليوم تمكن الحديو بارشاء العمال من السفر الى الاسكندرية في القطار الذى كان قد أعد لثقه الى القاهرة فصار بذلك فى حماية سيمور الظاهرة . وقد حل معه على القطار أعضاء وزارته ودرويش باشا فكان هؤلاء بذلك شركاء في الخيانة . فلما صار الجميع في رأس التين تحمسهم قوة من البحارة الانجليز تبليغ سيمور رجلا صار الجميع في الواقع أسرى حرب . ويمكن درويش الذى كان له يمت خاص وكان قد حاشته أوامر مستعجلة من الاسكندرية بالفر اليها من أن يخرج من هذا الاسر المهيمن وسافر على الزعم من الاسطول الذى حاول رحاله أن يمتعه من السمر . أما راغب وزملاؤه الوراء فأنهم بعد أن وقعوا في الشباك رضوا بالخالة ويقوا في رأس التين خدماً للحديو الى أن أنشئت شبه حكومة شرعية تولوا ادارتها الى حين جاءتهم الوزارة الانجليزية المحصنة قفقت على سلطتهم . وكان عرابي يحل طول هذا الوقت أنه خدع وكان أيضاً مشغول البال بنقل القوات الى خط الدفاع الآخر في كفر الدوار .

وأعلن أن اختيار هذا الموقع الحسن يعزى الى فطنة محمود فهي المهدم فان كفر الدوار على محطة السكة الحديدية الموصلة الى القاهرة وعلى جانبيه أراض مستنقعة . ولم يكن هناك أنفع من هذه البقعة لكي نكون معسكراً حديداً للجنود فقد كانت بعيدة عن مدافع سيمور ولم يكن في وسع جيش معاد أن يقترب منها الا على طريق السكة الحديدية الضيق فكانت بذلك حصينة من جهة الاسكندرية بينما هي مفتوحة السبل من جهة الدلتا وما فيها من كنوز الدخائر والامداد . وكانت الطريق بينها وبين القاهرة واصله . وتكن الجيش المصرى هنا من مقاومة الانجليز حصة أسابيع يرد هجومهم ويطاردهم الى أبواب الاسكندرية قريباً . ولو لم يكن هناك باب آخر للدخول الى مصر لتجح الوطنيون وكسوا الحرب

أما عن احراق الاسكندرية فاني لم أستقر على رأى في مقدار نصيب الجيش المصرى فيه . فقد أنكر عرابى كل الاسكندر أنه أمر بهذا الاحراق . واعتقادي أن مثل هذا العمل يحتاج من النشاط العظيم أكثر مما يأتلف ما درج عليه عرابى من التهاون واللين بحيث أرى من الانصاف أن رفض هذا الرأى . ومن الواضح أنه قد اعتبر هذا الحريق طرفاً ملائماً لأنه لولا له لكان هناك شك كبير في استطاعته الخلا . بمجوده الى كسر الدوار لان حيشه كان مهروما . نعم لم تكن قوته المعنوية قد ذهبت تماماً ولكنها كانت قد ذهب لو نزل الحدود الانجليز ووقفوا على السكة الحديدية لمنع التقهقر . وقد كللت الانجليز يدبرون الوسائل لايقاع عرابى وحيشه في الشرك في الاسكندرية وربما كان سبب امتناع سيود عن ازالة المخود للبر هو مكيدة رفع الراية البيضاء وشعاعة المخود التي لم تكن متطرة . وقد مكن حريق الاسكندرية عرابى من التقهقر الى كسر الدوار وأعطاه من الوقت ما استطاع به أن يرد الى جيشه قوته المعنوية .

وقد كان تبنيه باسكندرية مدة ضربها وهو يعزو الحريق إلى قتابل الاسطول والارجح أن هذه هي الحقيقة . لأنه لو لم يكن الاسطول سبب ذلك لما ذعر الناس وتركوا مسارهم في اليوم الثاني عشر من الشهر . ثم لو كان الضرب مقصوراً على القلاع كما كان يدعى البحارة لما هجر الناس مسارهم اذ لم يكن ثمما يدعوهم الى ذلك . وسواء أكان الضرب حدث قصداً أم اتفاقاً فالتبنيه يعزو الحريق اليه . ومن المحقق أيضاً أن الحريق قد مد عمداً الى الحي الاوربى وأن مؤخرة الجيش هي التي فعلت ذلك وكانت قد هجرت الاسكندرية في حال غير منتظمة فأخذت في التهب الذي كان قد شرع فيه بدو المدينة قبل هذا الوقت .

من المؤكد أيضاً أن عرابى لم يسأل سليمان باشا قائد المؤخرة ولم يحقق معه عن هذا التهب . ولست أعتبر هذه المسألة ذات قيمة أدبية لأن مثل هذا العمل يعد من الاحتياطات التي يجوز لأي قائد أن يتخذها لكي يؤمن طريق تقهقره ويمنع العدو من ازالة المخود الى البر . ولكنه مهم من الوجهة التاريخية لذلك أقول أن عند وزن البيانات أجد الجيش قد اشترك في تقهقره في الاحراق . ولم يكن اشتراكه بتبعية

الفوضى والارتباك الشائنين عن التفهيم . ولما كانت الريح هب بشدة في ذلك الوقت امتدت النار وما جا . نصف الليل حتى كانت المدينة لهيباً يحترق . ولكن كل ذلك لا يقلل مبلغ النعمة الملقاة على حكومتنا في تدمير المدينة لانه لو لا سو . نطر وكلاننا في تقدير المواقف لكان يمكن التنبؤ بكل ما وقع والاحتراز منه ولما أرسخ الجيش أقدامه في كفر الدوار في ١٣ منه وقف ينتظر الحوادث . فانخذ عرابي مركزاً له إلى شرق الجيش من ناحية القاهرة ورسم محمود فهمي خطوط الدفاع وعادت بذلك الطائفة والثقة إلى القلوب .

أما الفارون من الاسكندرية فقد أرسلوا بالتدرج إلى داخل البلاد فاحتدوا قلائق عديدة لأنهم كانوا في حال شديدة من العصب فكانوا على الدوام يرغبون في الثأر عما لحقهم ممن يقابلونهم من الاوربيين أو المسيحيين الوطنيين . وكان في طنطا مدير شر كسي يدعى ابراهيم آدم وكل يعرف أن الخديو وبلاطه ينظران بعين الرضى الى ما يحدث من التلاقل بين المسيحيين والمسلمين فعمل على إحداث ما أشبه أن يكون مذبحه . ولولا تدخل أحد الوطنيين ، وهو أيضاً صديق عرابي أعني به أحمد مشاوي بك الذي أخذ هذه الفئة باتباعه من الفلاحين على الرغم من المدير لامتدت هذه المذابح إلى البلاد الاخرى . ثم قبض على المدير وأرسل إلى القاهرة فاعتقل هو واثنا عشر آحراً لم يكن يوثق بها إلى نهاية الحرب . ثم لم يحدث قلائق بعد ذلك .

وفي مساء ١٤ منه وصلت الى عرابي رسالة من الخديو ذكرها تبينه ولكنها لم تذكر في الكتب الزرق . وهي وثيقة خطيرة لانه يظهر ان الذي أسلاها على الخديو هو كولفن أو أحد مستشاريه الانجليز لأنها تدل على وجه النظر الانجليزية في ذلك الوقت . فهي تبثدي . بذكر سبب القتال وانه نتج عن عدم مواظبة عرابي على طلب الاسطول الانجليزى بمخصوص تجريد الحصون من السلاح وان أميرال الاسطول لم يكن يرغب في الحرب مع مصر وانه يرغب الآن في إعادة العلاقات الودية مع البلاد المصرية . وانه مستعد لان يسلم المدينة لجيش نظامي مطيع وفي حالة عدم محبي . هذا الجيش فانه يسلمها للجيش العثماني . ولكي تنقل ادارة المدينة من هذه

حال الى الحال الجديدة فان الحديو يدعو وزير الحرية لأن يحضر اليه ورأس النين لكي يتفاوض مع راعب باشا وسائر الوزراء في هذا الشأن . ثم تقب الاعمال لحرية اذ لم تعد منها فائدة .

ونحن نعرف من الكتب الزرق أن هذه الدعوة انما كانت شركا براد إيقاع عرابي فيه لكي يصير في أسر الانجليز . وذلك لاننا نرى في رسالة تليفرافية من كرزييت الى لورد جرانفيل ارسلت اليه في ١٥ منه ما يأتي : « طلب الحديو من عرابي أن يحضر الى هنا فاذا أتى سيقبض عليه واذا لم يأت يعتبر عاصياً خارجاً على القانون »

وهذه الحادثة تدل القاري على مبلغ استسلام توفيق للانجليز حتى صار اللسان ناطق عن خطتهم وكيف ان الحكومة الانجليزية ابعت طرق الحكومة العثمانية في بعد بالخارجين عليها . وكلن جواب عرابي للحديو ان سموه هو ودرويش باشا هما القذان حضاه على رفض طلبات سيمور وطلبا منه أن يباذله القتال اذا هو اتع تهديداته بالعمل الحربي . وأن الواقع الراهن ان الحرب موحدة وانه لا يمكن الجيش أن يرجع الى الاسكندرية الا اذا خرج الاسطول من المياه . وأعقب ذلك أن الحديو نشر منشورات مطبوعة لكي ترسل الى المديرين واحباء البلاد يقول فيها : بما أن عرابي قد رفض أن يسافر الى الاسكندرية لكي يتفاوض مع الوزراء . قد فصله الحديو من وزارة الحرية . وكلن طبع هذه المنشورات هو الذي دعا الى عقد مجلس عمومي بالقاهرة أقر عرابي على البقاء في مركزه كما ذكرنا آنفاً .

كلن الشهر الذي تلا هذه الحوادث حافلا بالآمال في مطر جميع المصريين ولما تخلص الأهالي من ربة ولانهم للحديو بانضمامه الى الانجليز أخذوا يظهرون وطنيتهم دون أن يستروها وقد تيقنوا في ذلك الوقت أنهم بحاربون من أجل حريتهم وكان الفلاحون قد استغرقهم الديون التي للذائنين اليونانيين عليهم فكان هذا من أسباب حماسهم لانهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال وظهر سد ذلك ما يام أن انحاذ كفر الدوار مركزاً للجيش جاء موقفاً لوطنيين لان الجنرال اليسون حاول أن يهاجم الجيش

لعدة آلاف أنزلنا إلى البر فارتد مهزوماً وهكذا تعلقت الآمال باطالة الحرب عدة طويلة بهذه الطريقة وكان عراي لا يزال وزيراً للحربية ولكنه كان أهم عصب في الحكومة وكان يتوكل عليه أعيان البلاد والعلماء والتجار وكان يقم في سراقق عظيم كان يملكه سعيد باشا أهدنه زوجته إلى عراي عندما كان ياور زوجها وكانت نازلي هام وبعض الأمراء يظهرون إعجابهم ببطولة عراي مهدايا عديدة يهدونها إليه .

وقد وجدت ما يلي في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧

« زرت اليوم الأثيرة نازلي وهي ماهرة بمقدار ما هي جميلة وحديثها بارع ولو وجدت في أي وسط لزاتته وقد أخبرتنا عن أشياء كثيرة خاصة بعراي وهي تعجب به وتأسف لمزجه ولا تل من الكلام عن نزاهة أغراضه ومما قالته أنه لم يكن جديداً حقاً لأن قلبه كان أطيب من أن يساعد على ذلك . ولو كان رجلاً بسيطاً ويصف مثل محمد علي لأخذ توفيقاً مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميراً على البلاد ولو استطاع أن يجعل الخديو يسلك معه مسلك الشرف لمحله ملكاً على البلاد . وكان عراي في رأينا أول وزير وطني جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وكان المسلمون في وقته يرفعون رؤوسهم ولا يمكنوا الأوربيين أن يحالفوا القوانين . قالت وقد أخبرت توفيقاً بكل هذا فإن المصريين الآن يخضعون للقوانين بينما الأوربيون لا يكثرثون لها . »

ولا أنكر أن التعلق قد أضر عراي وأنه أثار الحسد الذي كان سيء العاقبة . عند ما جاءت الأزمات فإن الفروض وقتئذ كان انه اذا نجح عراي في صد الانجليز فانه سيكون رئيس البلاد وشعر الضباط الذين كانوا حاصلين على ترقية أعلى من رتبته والذين كانوا يعرفون انه فلاح ساذج وأنه سيتفوق عليهم فأغضبهم هذا الخاطر . وكان عراي يستشعر هذا الشعور فحضر في أحلامه تحليل ان الاقدار قد حابته وهيات له مستقبل عظيم وجعله في مركز التخلص لأمته . وكان يحيط نفسه برجال الدين لأنه كان مسلماً ورعاً وكانت الاوقات التي يحب عليه أن يقصها في تنظيم وسائل الدفاع بصرفها في الأدعية والصلوات ويظهر انه لم يقطع عن هذه الاعمال إلى النهاية . ومن الصعب أن يعرف الانسان ما كل هياء من التدابير الحربية . ويقول تسيه انه كل

يعتقد انه اذا طاللت الحرب فان اوربا ستضطر الى الاتفاق معه . وكان المؤتمر معتقدا في الاستانة وكان اعضاءه يحضرون السلطان على التدخل وكان أكبر ما يخشاه السلطان من دخول الحدود التركية ان تتأخر مع الحدود المصرية عند التقاء الجيشين . وكان عرابي يعرف أن مسلمي العالم ينظرون اليه باعتباره رعيي الاسلام وبصيره وذلك لأن حجاج الذين عادوا من الحجارة أخبروه بذلك فكان يرى انه من الصعب على سلطان أن ينضم الى المحلثين وبجاره . ثم كان أيضا لا يزال عنده بقية من الثقة في غلادستون وكان يعتقد ان الانجليز يحسون الحرية وأنهم سينصرونها اذا عرفوا الحقيقة وادركوا ان المصريين ثابتون على وطنيتهم وقد كانت كل هذه أحلاما يهدر عليها لأن غيره كان يعتقد صحبها ولنجاحه بعد حوادث السنة الاشر السابعة .

ولما أنزل ولسلي بعض جوده لابر ووجد خطوط كمر الدوار حصينة وعاد عنها وحده الوطنيون في القاهرة اهم بحسب عليهم محصين مصر الشرقية من ناحية قنال السويس . فعبا على مهني جيشا في القاهرة وسار به حتى احتل القناة ورسمت خطوط الدفاع في التل الكبير

ولم تكن الى ذلك الوقت قد عمل منها شي . على الرغم من التحذير الذي سبق ان ارسلته لمحمد عبده . ثم طهر أيضا وجوب سد القناة من الجهة الشمالية خوفا من أن يسارع الانجليز الى احتلالها بيوارهم فيزلوا جودهم في الاسماعيلية . وكان الرأي المتفق عليه بالاجماع بين الضباط وجوب هذا العمل ولو كان بالرغم مع شركة القناة . ولكن عرابي — وهذه هي غلطته الثابتة — بقي مترددا في هذا الشأن . وكان تردده ناشئا عن التأثير الفرنسي فان مسيو دلبس كان قد وصل الى الاسكندرية في اواخر يوليو ولما علم بنية الانجليز في استعمال القناة خاف وفزع من ذلك وسافر الى بور سعيد وجعل ينادي عرابي بشرفه أن يمنع وصول الحرب الى القناة . وكان دلبس رجلا كثير الثقة بنفسه وكان يعتقد أن وجوده وحده يكفي لتخويف حكومتنا وكان يقول أن القناة أرض محايدة يجب ألا يجزها أحد المتحاربين . وبعد الحرب عند ما كنت مشتغلا بالدفاع عن عرابي كنت اليه أسأله أن يرسل الي ما يمكنه أن يكون في مصلحة عرابي مما يشهد هو به قايما بواجبه لتقديم والانسانية ، فارسل الي

صوراً من خطابات أرسلها اليه عراقي في ذلك الحين ولكنه لم يرسل الى النسخ الاصلية (وقد نشرها في ملحق الكتاب) ومن هذه الخطابات يبين للقارى . أن عراقي قد ضل به .

وبعد مكاتبات أولية نجد عراقي يوضح رأيه في هذا الشأن . فقد كان في القاعة عدة بوارح بين الاسماعيلية والسويس بقيادة الاميرال هيوث وكتب دلبس يشكو من أنهم يشرون منشورات بين سكان شاطلي . القاعة .

وقد رد عراقي على دلبس في هذا الشأن فأذكر حق الاميرال هيوث في اداعة هذه المنشورات وقال انه أرسل هذا الرد بناء على اشارة المجلس وأنه موافق على رغبة دلبس في حيدة القاعة « وخاصة لأنها من الاعمال العظمى التي سيعيش اسم سعادتك في التاريخ لانكم قتم بانعامها . ولي الشرف أن أجبركم بأن الحكومة المصرية لن تنهك حرمة هذه الحيدة الا في الحالة القصوى وفي حالة ارتكاب الانجليز أعمالاً عداوية في الاسماعيلية أو بور سعيد أو أي نقطة أخرى من القاعة . » والمبدأ هنا واضح ولكن نقطة الضعف تحصر في انتظار عراقي لان يتندي الاعداء بارتكاب الاعتداء بدلا من ان يتقدم هو ويقطع عليهم طريق الاعتداء . ومع كل ذلك فان تبينه يؤكد ان الاستعدادات كانت قد تمت سراً لسد القاعة في نقطة معينة بين الاسماعيلية وبور سعيد . وقد أثبت في هذا الخبر آخرون . ولم تذهب هذه الفرصة سدى وبفضل المشروع الا لان عراقي كل يكره جداً أن يمضى على هذا الامر مع رغبة جميع اعضاء المجلس فيه . وعند ما وصل الاسطول الانجليزي الى بورسعيد يحمل ولسلي وجيشه أرسل دلبس الى عراقي خطافاً كله ادعاء . وقد ذكر تبينه نصه كما يلي :

« لانحاول أى محاولة في سد قناتي . فاني هنا . فلا نخش شيئاً من هذه الناحية . فاهم لن يستطيعوا ازال جندى الانجليزى حتى يكون الى جانبه خندي فرنسي آخر . وانا مشغول عن كل شيء . »

وكان هذا الخطاف سبباً في عقد مجلس آخر في كمر الدوار اجتمع جميع الاعضاء . فيه سوى عراقي وحده على عدم اعتبار رسالة دلبس ووجوب سد القاعة

ولكن عراقي كان الى هذا الوقت منخدعاً بكلام دلبس عن ارسال حود فرنسية. ومع انه أعطيت أوامر في مساء تلك الليلة بحرب القاة تخريباً « مؤثراً » فان الوقت الذي صرف في المناقشة عن هذا الموضوع كان قد أضاع الفرصة وتمكر ولسلى من الدخول الى القناة بوارجه . وضعف عراقي في هذه المسألة هو أكبر لطحة على شهرته الحربية كما انه أبصاً بسبه بطابع المحز السياسي . وقد قال ولسلى بعد ذلك عد ما كان البرلمان يناقش في مسألة حفر قناة بين إنجلترا وفرنسا : « لو ان عراقي سد القناة كما كل يوى ذلك لكننا الآن لا نزال في البحر محاصرين مصر . فان تأخر عراقي ٢٤ ساعة نجاتنا »

وكان احتلال ولسلى للاسماعيلية في ٢٦ اغسطس ومن هذا الوقت صار الدفاع عن مصر أمراً مينوساً من الوجهة العملية ولو ان القتال لم يكن نزهة للتحجير كما ادعى مصهم ذلك . وكان الجيش الإنجليزي يربى على ثلاثين ألف جندى ربما لم يكونوا دوى قيمة كبرى اذا أصبح لهم أن يقفوا في وجه جيش أوروبى مطم ولستهم كانوا يكونون لمرة حيوش عراقي القليله فان كافة الحود في كمر الدوار لم يكونوا يريدون على ثمانية آلاف جندى نظامي ولم تكن مدافعهم تزيد على ثمانين مدفعا من مدافع كروب . ولم يكن الجيش المصرى بأجمعه يزيد عن ١٣٠٠٠ رجل أما المجاهدون المحدد فلم يكونوا الاثنتين للخدمة العسكرية فلم ينتفع بهم الجيش الا في الاعمال اليدوية في الخنادق . فلم يحد ولسلى عناء كبيراً أمامه عند ما أنزل جنوده الى البر وليس بينه وبين القاهرة سوى خطوط التل الكبير التي لم تكن قد تمت بعد. ولكن المكتسب السرى للجيش الإنجليزي أراد ان يزيد تأكده وطأ بيته فانخذ الاحتياطات السرية التي الفت استعمالها الحيوش المتحاربة في الحروب الحديثة وان كانت تسكرها على الدوام . ومن العدل ان أدون ما فعله الجيش الإنجليزي فقد وقعت في بدى تفصيلات أهم حادثة من هذا النوع . أنكر كتابنا الانجليز ان تقدم ولسلى كل بمرى الى حد كبير لمثل هذه الشؤون فهلك الآن ما ثبته .

كانت وزارة الحربية ووزارة البحرية في إنجلترا قد عقدتا النية منذ أوائل السنة أن يكون المحوم على مصر من ناحية قناة السويس وتعرف في أواسط يونيو

أن تمهد السبل لذلك بالرشوة بين مدو الشرق . وكان الفصل في اقتراح هذه الخطة يعود الى لورد نورثروك الذي كان يفتخر بنجاحه في هذا الصدوقه . كان من اكبر أسباب افتخاره أنه بنى خطه على ملحوظة فلتت مي ولم اكن أدري وقتئذ ان أحدًا استغل حديثي لمحاربة أصدقائي . فقد كنت في ربيع سنة ١٨٨١ في الصحراء الشرقية للقناة وكنت قد عرفت بعض مشايخ الطياحة والبراين وكانوا يفاوضون ذل الامر في بيت المقدس ولكي أغري سفارتنا في الاستانة بالسعي في فك أسرهم قلت اب هؤلاء المشايخ قد يؤدون لنا بعض الخدمات اذا كانوا على صفاء مع اخلائنا . وعرف لورد نورثروك بهذه القصة فتذكرها في هذه الازمة المصرية واستغل اسمي بعد أن أضاف اليه الذهب في استخدام هؤلاء البدو ضد عرابي

ولم يكن في امحائرا في ذلك الوقت من يعرف العربية وكان من الصعب وحود من يمكن ارساله للقيام بهذه المهمة . فاستدعي لورد نورثروك أستاذ اللغات الشرقية في كامبردج وهو ادوارد المار وكان عارفاً باللغة العربية ممتازاً فيها وكان يعرف أيضاً القعة التي يعيش فيها أولئك البدو لانه كان فيما سبق عضوا في بعثة استكشاف فلسطين . وكان في ذلك الوقت يعيش في لندن في حالة اطلاق يستعين بالصحافة على شؤون العيش وقد زاد عمره زواجه الحديث . فلما كلف يوم ٢٤ يونيو حادثة دعوى الى المكتب السري لكي يزور لورد نورثروك ويتناول معه طعام الفطور وهناك عرض عليه أن يقوم برشو هؤلاء البدو فلم يتألك من القبول فوراً اذ عرض عليه ٥٠٠ جنيه للمصاريف الابتدائية ووعدته بالمسكافاة في حالة النجاح . وقبل سفره أي في ٢٦ منه جاء وراي وقال لي أنه مسافر الى الاسكندرية لكي يكون مكاتباً لصحيفة ذي ستاندارد وطلب مني أن اكتب له خطابات التقدمة اليهم لكي يتعرف بهم وانه يعطف على الحركة وسيبصرها في رسائله على الدوام . وكان قوله هذا بمثابة الغطاء بخفي به عمله الحقيقي الذي كان مسافراً لأحده فاجبت طلبه وأنا متوجس منه لأنني شعرت بان لمحتة لم تكن صادقة فكنت له بعض خطابات مقدمة لصايوحى وغيره ولكنني أعتقد اني لم اعطه خطابات لراي وكان البرناج الذي وضعته وزارة البحرية للمار هو ان يذهب أولاً الى

الاسكندرية لكي يتفاوض مع الاميرال سيمور ثم يذهب من هناك توا الى يافا
ساحل فلسطين الشرقي ويذهب الى الصحراء الواقعة في الحوض العربي من غزة ثم
الى خيلتي الطياحة والتمارين اللتين كانت أذاع عنها منذ ١٨ شهراً وأنا
صغير . وقد كنت هو مدكراته وطبع بعضها وهي كبيرة الفائدة لنا من حيث
- تخنا عن الوسائل التي توسل بها للوصول الى غرضه . فهو يشير فيها الى
تصحيحات الخاصة بالاتفاق بينه وبين لورد نورثبروك . ثم يصف بعد ذلك نزوله
بمجت الاميرال سيمور في الاسكندرية حيث أمر هناك بأن يسافر الى الحال الى
صحراء لكي يشرع في عمله . وقد أعطاه الاميرال « مدماً وندقية وعدة
حربوشات » ويرى ان الاميرال هناك « ينتظر الحرب في اقرب فرصة وقد تقع
عداً » ثم يقول :

« اني مسرور لأن الحرب ستقع . فاني وان كنت سأبقى مدة بعيداً عن
بلادي سأستفيد منها فائدة كبيرة وسأكون عاملاً من عوامل الانتصار لبلادي ..
وقد قال لي أمير البحر انه يهني الوطن لأنه اهتدى الى رجل قادر مثلي لكي يقوم
بهذه المهمة الشاقة »

ويقول بالمر انه رأى سير اوكلاند الوكيل السياسي ثم يقول بعد ذلك في
مذكراته ان أمير البحر أخبره بأنه سيصرب الاسكندرية قريباً . ثم يذهب بعد ذلك
وهو في أشد الطرب والزهو الى يافا على إحدى سفن أمير البحر يخفق فوق رأسه
العلم البريطاني ومعه بحاران « لكي يحملوا البندقية والمسدس »

فإذا وصل الي يافا نزل عند القنصل البريطاني شايرا اليهودي . والقنصل
يرسل انه معه الى غزة لكي يهيئ له رحلته في الصحراء . ويجد هنا بدوياً يسافر معه .
ويشترى عندئذ لباساً عربياً وسائر ما يحتاج اليه . ثم يشكو من الحر ومشاق الرحلة
ولكنه يمزى نفسه وبمنها بالكفاة الجسيمة في المستقبل . وفي الخامس عشر قبيل
قيامه بالرحلة يسمع سراً عن ضرب الاسكندرية . فيقرر الذهاب الى السويس
ويكتب في طلب زورق لكي يأخذه الى مكان مأمن .

وفي السادس عشر يلتقي بعض افراد من قبيلة الترابين هناك مايقول : « كانوا

يظهرون فضولا كبيراً يريدون معرفتي ومقاصدي . فقال لهم البدوي الذي معي إني ضابط سوري مسافر الى مصر . وكنت بالطبع مرتديا ملابس العرب المتحضرين وقد علمت عنهم كثيراً عرفوا عني . وأما الآن أعرف مشايخ الصحراء وأما كنهم وقد اتفقت مع الطياحة وهم أكثر الدوشجاعة وأقوام على أن يؤدوا الى كل ما أطلبه منهم . وعسى ما أعود سيكون في استطاعتي أن أضم الى منهم أربعين ألف رجل . وقد كل من حسن حظي اني عرفت هذه القبيلة . ومعنى الآن نسير سيرا حسنا وأنا في أشد الاثنيان لتسلم الاوامر من السويس والمعركة ما اذا كانت جنودنا قد نزلت الى البر . ولم أكن أنتظر كل ما وحدته هنا . وأظن اننا قد أصابنا الحظ ولما الثروة » ثم يقول في الثامن عشر :

« كابدت اليوم أمراً عظيماً . فقد التقيت بكبير شيوخ العرب . ولكي جعلته يقلل آرائي »

ثم يقول في ١٩ يوليو : « إني أتعجب من محاسني . فقد ضمنت الي رحلانا حاول عراقي عبثاً أن يستميلهم الى صفه . وعد ما تتطلب الحاجة سينضم الى لوائي جميع البدو من عرة الى السويس ... ولست أعرف بالطبع ما حدث في مصر منذ مغادرتي لها سوى ان الاسكندرية قد صرحت كما أخبرني أمير البحر بأن هذا الامر سيقع حالا . ولكن العرب يقولون لي ان الحزب العسكري لا يزال مسلحاً . وعلى هذا أظن ان جنودنا قد نزلت الى البر »

ويقول في العشرين : « هذا الشبح هو شقيق سليمان وهو الذي يضمن عدم اعتداء العرب على دكة الحج الذي يسافر من مصر الى مكة . فهو اذن خير من اعتمد عليه . فقد أقسم لي قسماً عربياً رهيباً أنه يستطيع اذا أردت أن يضمن سلامة القنطرة ضد عراقي نفسه وهو يقول لي إني اذا قادت على تخليص ثلاثة من المشايخ من السجن فهو يضمن انصاف جميع العرب لنا . وأما أوئل ان أخلص هؤلاء الثلاثة بواسطة سفيرنا في الاستانة »

ويقول في ٢١ منه : « أنا في اثنيان للذهاب الى السويس لاني قد انتهت من الاعمال الابتدائية . فاداً تسلمت الاوامر فاني أتفق مع العرب في أسبوعين أو

« وأنتهى من كل شيء . أما البدو الآن فيسيقون في سكة ولما ينضموا الى
 . في ولكنهم سيتطورون كمتى لكي يعملوا ما أشير عليهم به . وهم يعتبرون
 سادات افندي (كما يسمونني) رجلاً عظيماً »

وفي ٢٢ يقول : قال لي بدوي جاء حديثاً من مصر ان عرابي قد أحضر الى
 قنا ٢٠٠٠ حبال من بدو النيل . ولديهم سيرجون عند ما يصلون الى السويس
 . دالمة نجد الوسائل السلمية فاني سأرسل لهم عشرة آلاف من الطيحة والبرايين لكي
 طردوهم . وقد انضم الى بدوي آخر وهو الذي يمد ركب الحج بالجمال ووعدت
 كبير المشايخ بمخيماته حنيه هو لذلك لا يحجم عن عمل اي شيء آخر لاجلي . أنا في
 عند السرور لان الحرب قد وقعت بالفعل . وصار على الآن أن أقوم بواجبي
 عظيم وأنا متأكد من النجاح . وسأعرف قريباً ما يجب أن أفعله . وقد قال لي
 ورد نورثبروك أن يعطيني ٥٠٠ جنها عند السفر وأما عن المفاوضات فيستقون معي
 تماماً آخر . وسأقتصد هذا الشهر على الأقل ٢٨٠ جنهاً وهو ربح لا بأس به من
 عمل شهر واحد . ولا أظنهم يعطونني أقل من ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه تقسيم
 المهمة بأكلها . . . »

ثم يقول في ٢٦ منه : « وجدت انه من الممكن أن نحصل على السمن من السويس
 وسأسافر غداً وأرجو أن أكون على ظهر سفينة بعد أربعة أو خمسة أيام . لقد
 نجحت نجاحاً يورني ان أطلب من الحكومة مبلغاً آخر وسأقول اني صرفت كل
 ما معي في الهدايا . وبضعة مئات من الجنيهات ليست شيئاً يذكر في نظر الحكومة
 ولديها ذات قيمة كبرى مثلي . وسأرسل الى روجني نحو مائة جنيه عد اول
 وصولي للسويس . لقد دفعت كثيراً ولكن لا يزال معي ٣٠٠ جنيه بعد
 نفقات سفرى الى السويس . وهذا أفضل من الشغل في الصحافة بمرتبة ٣٠٠
 جنيه في الشهر أكلت اليوم الخبر والملح مع العرب الى حافة كل مناسا
 الآخر الى الموت »

وفي ٢٨ منه يقول : « انضم الى مشايخ الحويطات . وقد نجحت نجاحاً باهراً
 وقد قبلت في القصر أنشد الشعر العربي لهؤلاء البدو حتى تعلقوا بي »

وفي أول أغسطس يصل بالمر الى السويس فيقول : «أنا الآن على ظهر إحدى سفن شركات الملاحة الانجليزية . وقد نسملت خطاطك (من زوجته) . أما كيفية وصولي الى السفينة فاني سرت مبدأً عن السويس في الليل ثم نزلت الى السفينة في نصف الليل . وقد كلفني هذا العمل عشرة جنيهات ولكي نهبوت من الحرم المصري . وستأتي الجيوش يوم الخميس أى بعد غد . . . كنت عند أمير البحر منذ وقت قصير . وقد سر بنتيجة عملي وارسل تلغرافاً الى لورد نورثوك . وكان قد أمر بأن تخصص ثلاث سفن لمراقبة الشاطئ من أجلي . ولكنني وصلت الى السفينة وحدي »

وفي ٢ أغسطس يقول : « ذهبت الى الصحراء ثانياً وسأبقى فيها يومين اذ كلفت بأن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تقطع المواصلات بين عرابي وتركيا . وصل الكابتن جل اس الى بورسعيد وسيميل الينا هذا الصباح . كان اس يوماً مشهوداً . زرت جميع ربابة البوارج وكانوا يرحبون بي ويستقبلوني أحسن استقبال وكانوا يلحون علي في أن أشرب معهم الشبانيا الثلجة وفي المساء أولم أمير البحر ولية تكريماً لي ! وكانت الوليمة فخمة ولم أعد الى سفيني الا في الساعة الاولى صباحاً »

وفي ٤ أغسطس يقول «أمرت يوم الاثنين بأن أرافق ضابط القوة للاستيلاء على السويس فزلتنا ومعنا خمسمائة رجل وثلاثة مدافع . وفرت الجنود المصرية فلم نقاتل . وكنت في أول الزوارق التي وصلت الى الشاطئ . ثم أمرنا المحافظ بأن يسلمنا المدينة وخمسين الف جنيه كانت لديه ففعل . . . أمس الأول اربسل لورد نورثوك رسالة لأمير البحر بهتني فيها بسلامة وصولي ويقول اني قد عينت رئيساً للترجمة في جيوش جلالة الملك في مصر . وضرت بذلك في هيئة أركان الحرب التي يرأسها أمير البحر . وانا هنا (في السويس) في الفندق أعيش على حساب الحكومة معيشة فخمة ولا أتناول الطعام الا مع أمير البحر . وبعد غد سأذهب الى الاسماعيليه في زورق مجهز بالمدافع وقد قال لي أمير البحر في السويس « لا تدع الاميرال هناك يحجزك عنده لانك انت هنا مفيد اسمك بين رجال باراجتي . ويستغل الآن تحتدياسني

محو أربعين شخصا . وقال لي أمير البحر مند إيلام أنه متأكد من أني سأمنح
رياس الشجاعة ونجم الهند . وهم لا يرجعون في ذهابي إلى الصحراء الآن لأنهم
يرون أن ابني معهم وأنا الآن أحد ضباط الحلة ولذلك أراي مرهوا زهوا
كيرا وسيسل غدا الأثلاي ٧٢ وسأبحث لرجاله عن جمال . أما الأجرة فستكون
حسب قرارى ولكني لم أقررها للآن »

ثم بعد ذلك ربي هذه الحلة العجيبه وهي لب هذه المذكرات : « وضع الكائن
حل في يدى عشرين الف حنيه لاوزعها بين العرب »

واما ما بقي من هذه المذكرات فاحلام وأمان في ٦ أغسطس يقول : « في
السويس . . . سأقوم غدا إلى الصحراء لشترى الجمل . وسيدهب معي الكاين جل
وملازم أمير البحر ولن نخشى أى خطر كأي الآن في حلم . وقال لي أمير
بحر بما اني أفضل أن تقرر الحكومة مرتي فيمكنني قبل قرارها هذا أن أسحب
ما أريد من الأموال لتفتاني الشحصية وعلى هذا سأرسل اليك (لزوجته) خمسمائة
حنينه عند رجوعي . ويمكنني أن أفضل ذلك الآن ولكني لا أريد أن يظهر على
عصر . فقد بقي لي بعد جميع نفقائي ٢٦٠ جنيتها واليوم دفع لي عشرون الف حنيه
ولي أن أنصرف بهذا المبلغ كيما شئت . وأنا الذي أعطي الخوازات للحرص . وإذا
رأيت اثنتي عشر فرسا فاني اشترىها دون مساومة . وأمس رأيت ثلاثين جملا
فأعطي صاحبها ٣٦٠ جنيه مما لها بمجرد ان كتبت هذا المبلغ على قطعة ورق .
واليلة أرجم أقوال المحافظ الذي كان يتناول العشاء مع أمير البحر . وعدى الآن
خدم وكتبه وترجعون يطبعون أوامري والخلاصة أي في مركز لم اكن أحلم به .
ونحن هنا آمنون في خنادقنا والعدو على بعد ثمانين ميلا منا وغدا ستأتينا الجيوش
الهندية . وبدهي أنا في حرب ولكني بما أني في هيئة أركان الحرب فاني لست
أخشى أى خطر . وأمير البحر رجل ظريف وقد قيل لي أنه لا يسى صباطه وبحب
على الدوام أن يرقبهم وقد قال لي اي استحق وسام نجم الهند »

وهذا آخر ما كتبه بالر في هذه المذكرات التي تثير الاحساس . فقد خرج في
اليوم التالي بصحبة جل وشارنجنون إلى الخيل في الصحراء الشرقية وكان الغرض

من خروجهم قطع التلغراف الواصل بين مصر وسوريا وقد أخدمهم لهذا الغرض صدوقاً مملوءاً بالديناريت وكانت مهمة بالمر الطاهرة شراً، الجلال وكل الجميع مرتدين ملابس عربية . ولكن كانت مع كل منهم كسوة حريرة لكي يلبسوها عندما يكونون بين القبائل الموالية لهم تكبراً لشأنهم . وكان المبلغ الذي أخذوه معهم من العشرين الألف جنيه التي أعطيت لبالمر يتراوح تقديره بين ٣٠٠٠ و ٨٠٠٠ جنيه وكان جل قد صرح بعدم موافقته على خروجهم في هذه المهمة فإنه طلب أن يأخذ المبلغ كله ليورعه بين العرب كما كان الاتفاق بينهم وبين بالمر ولكن أمير البحر عارض في ذلك .

وكل الفشل مقدراً لهم . فإن الحرس للؤلؤ من البدو الذين ساروا معهم عرفوا وجود المال معهم . وكان هؤلاء العرب من قبيلتي الحوابات والحويطات وكان المال مخصصاً للطياحة . فرعب الحرس في المال ويظهر أنهم كانوا متواطئين مع حاكم النحل (وهي بلدة واقعة بين السويس والقمة) على أخذ المال وقتلهم مما هو أن ساروا بضعة أميال حتى هوجوا وأوثقوا وسلبوا ما معهم ثم ضربوا بالرصاص على حافة وهدنة في وادي صدر . وهكذا انتهت آمال بالمر المسكين . وكانت الكثرة من العداوة بحيث سئلت عنها أسئلة في البرلمان ووقف ذلك الرجل سبر هنري كليل بارلمان وكان وقتئذ وكيل وزارة فكلت بحجب على الاسئلة ويسكر المهمة السرية التي كانت موكولة الى بالمر ورفقائه ويقول أنهم لم يخرجوا الا بنية شراء الجلال .

ولست مذكرات بالمر بالينة الوحيدة . فان الكابتن جل قدرتك أيضاً ذكر انه وهي تثبت هذه الحقائق . فان مهمته في غربي القناة كانت لا تختلف عن مهمة بالمر في شرقيها . وتبتدى هذه المذكرات في الاسكندرية وهو يقول فيها أنه ذهب لمقابلة سير فريدريك جولسيد وأنه يأمل أن يكون بين البدو في غرب القناة بعد قليل من الوقت . ثم يقول أنه أخذ من الخديو قائمة مكتوبة بخط يده عن أشهر المشايخ بين القناة والارض المزروعة ويذكر منهم اثنين وهما سعود الطحاوي في الصالحية ومحمد البغلي (البقلي ؟) في وادي طوميلات . وكان يستقد أن البدو ينظرون للانضمام الى الجانب الذي يوافق مصالحهم . وفي بورسعيد يقابل المحافظ المعزول

يجبره هذا بأنه يمكن شراء البدو مجنبيين أو بثلاثة جنيهات الواحد . وفي ٤ منه
تمل أنه قرأ تقرير بالمر لسير سيمور . ثم يقول : « لو أني كنت عرفت أن التقرير
سيرسل رأساً الى سير سيمور لكنت سألت هو سكرن عما اذا كانت لديه النقود
اللازمة بالمر » ثم يقول :

« يقول بالمر أنه يستطيع أن يشتري خمسين ألف بدو بخمسة وعشرين الفجنيه
وسألمح في اعطائه هذا المبلغ »

ثم يذكر تقريراً له يقول فيه أنه لا يمكن سد القضاة الا من نقطة معينة يذكرها
وذلك لقلة وحود الاحجار في الاماكن الأخرى وصعوبة اغراق السفن بدونها ثم
ذكر دلس فيقول أنه يستطيع الحاق الاذى بالقناة لأن جميع الكراكات والزوارق
تجي تحت تصرف الشركة هي والحققة تحت تصرفه . وفي ٥ أغسطس يذهب حل
الى القناة ويصل الى السويس ومعه ضابط آخر ومعها عشرون ألف جنيه ذهباً
لكي يعطيها بالمر . وعندما يكون في الاسماعيلية يقابل مستر بيكلرد فيناقشه في
أحسن الوسائل لتدمير التلغرافات . ثم يذكر ان أحسن الطرق ثلاث . وهي : (١)
تدميرها قريباً من الشاطي . في العرش وكلاهما يعتقد أن هذه طريقة حطرة .
و (٢) تدميرها عند جسر القنطرة ولكن يعترض على هذا العمل بأنه يخالف جيدة
القناة . و (٣) من السويس وهذه ميسورة . ويظهر أنه لا يثق ببيكلرد فيقرر أنه
يذهب الى السويس ليقطع خطوط التلغراف بنفسه .

وفي ٦ أغسطس يذكر سرورده لأنه تخلص من مبلغ العشرين ألف جنيه اذ
سلمها بالمر . ثم يذكر أنه سيذهب مع بالمر لمقابلة المشايخ في النحل ثم يقول أنه بعد
أن يذهب معه سيرى مبلغ آسأل بالمر التي عقدها على هؤلاء البدو وهل حالة البدو
تبرر هذه الآمال .

فهاتان الوثيقتان أى مذكرات جل ومذكرات بالمر تثبتان كل الاثبات استعمال
الرشوة قبيل معركة التل الكبير .

وقد كنت متصلاً بهذه المسائل صيد حدوثها . وذلك لأن عائلتي بالمر وجل
ملبنا الى أن أطالب الحكومة بالاعتراف بخدمتها القتل ومكافأة عائلتيها . وبعد

أن أنكرت الحكومة المواقف التي أدت إلى قتلها جعلت مهري لورد وتورث مطالب الحكومة بإيضاح هذه المسألة . وكانت مطالته هذه سبباً في تقييد اللورد من حرب الحكومة ووقف لورد حرا فيل ولورد بوديوك ينكر أن أشد الانكار أن الحكومة حاولت أن ترشو البدو . ومن المصعب أنني ذهبت إلى لورد سالزبرى وطلبت إليه أن يساعدني في الاعتراف بخدمة هؤلاء القتلى ومكافأة عائلاتهم فقال لي أنه يوافق على أن ينكر اللورد . جميع ما عمل في المصالح السرية . ولكنه مع ذلك أمكن لورد وتورث من شرح المسألة بيننا غيره كان يملأ في ذلك .

ولكن مع كل ذلك لم تكن أعمال الممر وجل ذات قيمة كبرى لولسلي فلما المساعدة الحقيقية للجيش الإنجليزي جاءت على يد الحديو . فانه أعزى سعودا الطحاوي من مشايخ العربان بخيانة عرابي وكان هو الوحيد الذي نجح في خيانه أو ثمت على الحياة . وكان سعود قد أخذ مكافأة على هذه الحياة مبلغ خمسة آلاف كرون نموي . وكان دائماً على الحياة منذ انتقال الجيش من كفر الدوار إلى التل الكبير . وكان سعود من سادة العرب وكان على شيء من الذكاء . ولكن اختلاطه مد ليس والفرنسيين الذين كانوا في القنطرة على بعد يوم من خيامه أتلفه كما هو المعتاد إذا اختلط العربي بالفرنجي وحاول أن يمثل دور الجستمان . فكان يخاطبهم ويصيد الغزلان معهم . وعدى ما يشبه أن يكون أقراراً منه بأنه كان جاسوساً للإنجليز في جيش عرابي فاني مرتت بالصالحية في سنة ١٨٨٧ فنزلت في خيمه . فلما عرف أي إنجليزي وكان بالطبع يجهل ميولى السياسة أخذت بتكلم عن أعماله في الحرب فلم يترك عندي مجالاً للشك . فقد كان يشتغل عند عرابي ويقوم لجيشه بالاستطلاع فكان رجاله بروحون وبفسدون من نجيم إلى آخر . ولم يكن في عمله ما يتغير منه لأن البدوي ينظر إلى المصري والتركي والفرنجي باعتراهم جميعاً أجنب ليس لأحدم عليه ولا . وإنما هو يخدم الجميع بمقدار ما يستفيد منهم . وليس للبدو النازلين في شرقي النيل إلا القليل من الاحساس الديني بحيث لا يتمتعون لذلك من خدمة الكفار إذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . زد على ذلك أنه لم يكن قط حب بين الملايين والبدو .

ولكن أكبر ما عاد بالأذى على عرابي وعجل انتصار ولسلي هو ما فعله بعض
العوتين للتخفين في القاهرة والتل الكبير من ارشاء ضباطه بالمال والوعود بالترقية
حيث خلع هؤلاء الضباط ولاهم له .

ولم يفعل ذلك ولسلي أو أحد من رجال المصلحة السرية الانجليزية وانما الذي
صلى ذلك هو الخديو لانه كان يعرف من يمكنه أن يعول عليهم أكثر من الانجليز
جميعا كان الانجليز هم الذين قدموا للخديو المال اللازم . وكان أنشط وأذكي الذين
وكل الجسم هذا العمل ياوره عثمان بك رفعت الذي كان يعرف عوامل الغيرة بين
الضباط وميول كل منهم . وكان يوضح للضباط الذين هم من أصل شركسي عدم
مصلحة انضمامهم للعرابين وعدم فائدة المقاومة لان الخديو سيفوز في النهاية ويكفي
من ينضم اليه من الآن ويعاقب من يعمل خلاف ذلك

وكان الانجليز وولسلي يخدعون الخديو وكان السلطان الذي أعلن ان عرابي
ثامر وكان على وشك ارسال الجنود يفعل فعلهم . وكانت أقوال عثمان رفعت ذات
وزن واعتبار في نظر الضباط الشراكية أما السفلة من الضباط المصريين فان الاموال
أغوتهم . وكان عرابي على الرغم من ان الجنود والضباط كانوا يحبونه قد ألحق الفيرة
والخس في قلوب بعض كبار الضباط الذين كانوا يرون أنهم يفضلونه في قيادة الجيش
ومما زاد استياءهم تلك كونه في مسألة سد القناة . فان ثقتهم فيه زالت من وقت أن
نزل الانجليز من القناة ولم يردم الفرنسيون الذين كان عرابي يعتمد على وعودهم
في رد دم فلم يعد العدة للاقتحام عند شاطئ القناة . اما مع رعياء الوطنيين من غير
الجنود فقد كان للخديو وكيل آخر هو سلطان باشا الذي كان زعيم الفلاحين
قبلا ثم اقلب عليهم وانضم الى الانجليز ولم يعد ينجح من بذر بذور الشقاق بين
الوطنيين الذين كانوا لا يزالون متعلقين بوطنهم وقد يصعب الحيل الجديد من
المصريين ويتبادل عن السب الذي جعل رجلا شريفا يتحدى الحياة بالوطنية الحارة
ثم ينتهي بالمحبوط الى ذلك الدرك . وتفسير ذلك هو ما يلي :

كان سلطان باشا رجلا ذا كبرياء له ثروة واسعة وجاء عريض وكان له

صدر الممكن في أى اجماع يقد وكان يسمى ملك الوحه القبلى بين كبار الملاك وكل من يرى أن من حقه لهذا السب وعامة الفلاحين .

وكان ينظر الى عراي نظرة الرعاية التى يتعطف بها الكبير على الصغير وكان يرى فيه أداة لتحقيق أراضه ولكنه لم يكن يتوقع ان عراي سيأخذ مكانه بين الجمهور . ولما ألفت وزارة سنة ١٨٨١ ولم يكن وزيراً بها اغتاظ من ذلك ولكن كانت له بعض التعزية اذ عين رئيساً للبرلمان الجديد . واغتاظ أيضاً عما ألفت الوزارة الثانية في سنة ١٨٨٢ ولم يكن عضواً فيها فشر ان الوطنيين لا يعطونه حقه من الاحترام فانحد الى الجانب الآخر . ثم جاء الاسطول الى الاسكندرية فأخذ مالت في إغرائه ثم في تخويمه حتى صرح بأنه يرضى بأحاطة مطالب الانجليز ثم انصم نهائياً الى حزب الخديو فليس في انحدار سلطان كما انه ليس في انحدار الخديو شئ . يستصمى على الفهم فقد صارت المسألة في نظره عاداً بعد ان كانت طموحا الى منصب ثم مما خفف عن نفسه خزي الصغير ما وعده من أن تدخل الانجليز لا يقصد به سوى إعادة الحالة على ما كانت عليه قبل وزارة محمود سامي وأن مصر ستبقى دستورية كما هي . وبناء على ذلك أرسل لجميع أصدقائه العديدين خطابات يقول لهم فيها ان التحالف الموجود بين الخديو والانجليز هو تحالف مؤقت وستخرج الانجليز من مصر عند ما ترجع الخديو سلطته وان عراي قد فقد ثقة السultan وان الاستمرار على المقاومة في القاهرة لم يعد مجدياً والمسلمون يستنكرونه . وقد كان لهذه الخطابات التي وزعت بعناية أثر كبير وكان للاموال أيضاً أثر آخر . ويظهر ان سلطان وكان يقدم هذه الاموال من جيبه الخاص لا من اموال الحكومة المصرية التي قررت بعد الحرب منحه سلطان مبلغ عشرة آلاف جنيه بحجة انها توفيت لما تاله من الخسائر مدة الحرب ومنع أيضاً لقب سير من الحكومة الانجليزية . والاغلب على الظن ان ما صرفه سلطان لهذه الاغراض لم يكن كبيراً لانه كان بعد الوعود لبعض الضباط « ولم يف بها بعد ذلك » ولهذا كان هذا المبلغ اكبر مما صرفه ومما كان كل ذلك فالتنا بمكنتنا ان تقول ان الخديو قد مهد طريق النصر لولسلى (١)

(١) لجند هذا في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧ « ١٣ فبراير - زارني عبدالسلام

وكان الجيش يستطيع على الرغم من هذه الدساتر أن يبطل مدة الدفاع لولا
 سو، المخط الذي لازمه مدة الحرب . فانه عند ما عرف ان الانجليز سيهجمون من
 شرق ذهب محمود فهمي المهندس القدير وكان من أكر أعوان عرابي الى التل
 الكبير وأخذ يرسم خطوط الدفاع التي لم يكن له من الوقت ما يكفي لانماها . وذلك
 انه عند ما كان يشتغل في تخطيطها وقع في أسر الانجليز في يد جماعة من حرس
 الجيش الانجليزي . وكيفية ذلك ان محمود فهمي كان قد خرج عند الماء ومعه ياوره
 فقط وكان قد خلع ملابسه الحربية لحر الشدد وصعد على ربوة لكي يستطلع
 الصحراء الواقعة بينه وبين الاسماعيليه . فانقضت عليه جماعة الحرس الانجليزي
 هذا وأسرت في الجانب الآخر من وادي الطميلات . ولما لم يكن في ملابسه
 حربية احتار الملازم تالبوت في كيفية معاملته وكاد يقل أقواله من انه افندى
 بملك بعض الارض في تلك الجهة وكاد يطلق سيله لهذا السب ولكنه أمسكه
 وأخذه الى مضارب الجيش الانجليزي حيث عرفت أهميته . والواقع ان أسره هذا
 كان ذا أهمية عظمى وكان نكبة لا يمكن تقديرها على الجيش المصري في التل
 الكبير (١)

وكانت النكبة الاخرى ما أصاب قائدس من أحسن قواد عرابي في القصاصين

المويلحي فقال انه كان صديقاً حميماً لسلطان وانه كان من حزبه وقد تشاجر مع عرابي
 ولكنهم أسفون على انشقاقهم عنه الآن وقال انه لم يوافق على سلوك سلطان مدة
 الحرب . وان سلطاناً قد خدعه مالبت ووعده ببقاء البرلمان بعد الحرب . وأراد
 سلطان ان يحصل على وعد كتابي من مالبت بذلك ولكن الخديو طلب اليه ان
 يكتفي بالوعد الشفهي ولما عرف سلطان هذه الخديعة بعد الحرب أسف كل الاسف
 ومات وهو يتحسر ويطلب ان يغفر له عرابي فعلته والا يذكره الناس بخيانة الوطن.
 وكان سب مشاجرته مع عرابي حسده له لانه صار وزيراً أدونه »

(١) ان ما حكته هنا عن محمود فهمي قد قاله هو في نفسه . وقد روى غيري
 روايات أخرى عن كيفية أسره وقال بعضهم انه انضم الى الجيش الانجليزي ولكن
 من يعرف محمود فهمي لا يصدق هذا

وهما على فهمي صديق عرابي المحرب وراشد باشا وكان كلاهما جسدًا محرمًا وكانا من الشجعان الذين قد جربا الحرب قبلاً . وهما أول من قام بالمحموم على حبش ولسلي في القصاصين . وكان ما أصابهما شر ما نزل بالحيش المصري في جهوده وفي صد الانجليز .

ويقول الرواة المصريون ان العدو كان قد فوجئ وبقيت الحرب سجالاً بين الفريقين وكاد اللوق كنوت أن يقع أسيراً . ولو كان هذا اللوق أسر وصمد الحيش المصري لاعدائه لكان الأرحح ان المصريين حصلوا على الصلح واعترفوا بالهزيمة بالخالة الحديدة لان الرأي العام كان في ذلك الوقت قد تحول وصار الناس يخرجون من محاربة فلاحين يقاتلون من أجل حريتهم ورد المظالم عن أنفسهم .

ولكن كان يتخلل مديرتهم أي على فهمي وراشد باشا (تقصان . فان هذه التدبيرات كانت تقضي بان يزحف محمود باشا سامي بالنفي جندى في الصباح ويهاجم الانجليز من المينة . فقاظه في الليل رجال سعود وأخلوه عن الطريق فلم يصل الى الميعاد . ثم أن عرابي لو كان جندياً له سليقة الحرب لانضم اليها ووقف الى صفها ولو في مؤخرة الجيش مع الاحتياطي ان لم يقف في المقدمة . ولكنه لهدم فعله ذلك لم تظهر في الميدان جميع قوة الجيش التي كان يجب استخدامها . وأصيب هذان القائدان بجروح منعتهما من مباشرة الحرب . ثم من المؤكد أيضاً أن أحد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان الجيش .

فكلن الجيش المصري لهذه العوامل في ارتباك هائل في التل الكبير وقد مدت بوادر الخاتمة المحزنة . فلن عرابي قد أحسن قواده ولم يعرف أحداً يقوم مقامهم . وكان الذين يثق بهم قليلين ولم يكونوا من أهل الكفاية . وكان هناك رجل ربما كان يمكنه أن يسير بالذراع على نحو ما وهو عبد العال حلمي ولكنه لعله غير واضحة بقي بعيداً عن الميدان .

وكان عبد العال هذا أحد « الضباط الثلاثة » وكان من أشجع ضباط الحيش وكان قبلاً معيناً في الدفاع عن دمياط توقعاً لزعول الانجليز هناك وكان معه عدد كبير من أفضل الجنود وبخاصة تلك الفرقة السودانية التي كانت فرقته الأصلية .

ولو أن هؤلاء الجود أحضروا إلى التل الكبير مع قائدهم لكانوا على الأقل نجوا الجيش من وصة المار لأنهم كانوا في حماسة حارة ولم تكسر قلوبهم هزيمة سافة ولكن يظهر أن اللجنة أبقت في دمياط اعتماداً بأن هذه البلدة لا تزال تحتناج حامية إذ لم تقرر تعيين عبد العال خلفاً لملى فهمي .

وقد جال بخاطري بعض الاحيان أن يعقوب سامي رئيس لجنة الحرب مع ماسبق له من الخدمات في هيئة أمر الدفاع قد أغراه بعد ذلك وكلاء الحديو . فانه كان مسلماً من أصل يوناني ولذلك كان من حزب الحكم السادة وعدى وثائق تدل على أنه بينما كان يظهر كأنه ساعد عرابي الايمن اذا به رجل الحديوى الذي يعتمد عليه ويظهر أن الحديو كان ينظر اليه هذه النظرة ويعدّه من راحه ولذلك عومل بشدة بعد الحرب . وكان أحد الباشوات السيعة الدين بقوا الى سيلان . وقد أظهر خصوصاً وندماً في المحاكمة وجعل يدافع عن ولائه للحديو . وهذه الوثائق تثبت حده لعرابي وغيرته منه . فمن الممكن اذن أن يكون قد احتهد بعد اصابه على فهمي في عزل عرابي ابتغاء التعجيل في هزيمته فالتل الكبير ولم يرسل اليه عبد العال لهذا السبب . وقد أعطيت القيادة لرجل طيب لوجه غير قادر على القيام بأعبائها هو على باشا روبي أحد رفقاء عرابي القدماء . ولكن لم يكن له صفة أخرى تجعله صالحاً للقيادة .

اما عرابي فانه على الرغم من قرب هجوم الانجليز فقد بقي في خيام يحوطها الاعيان ورجال الدين الذين كان يقضي وقته معهم في الصلاة والذكر . وكان يعتمد على سعود الطحاوى لكي يثبت بتقدم ولى . وكان سعود يشعور بطنه وكان جيش التل الكبير في غاية التفكك فان الجنود المنظمة لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف او سبعة آلاف وكان معهم نحو الف خيال ومثل هذا العدد من المدافع وكان رجال الطوبجية يعرفون حرفتهم . وهذا هو كل القوة التي كان يمكن الاعتماد عليها . اما ما عدا هؤلاء فكانوا جماعة من المجندين الجدد الذين لم يدربوا وأجسادهم تكاد تكون عارية وكانوا من الفلاحين السذج يشتملون بمجد في حفر الخنادق ولكن لم تكن لهم قيمة حربية . وربما كان عددهم يبلغ عشرين ألفاً ولكن ليس عندى احصاء صحيح عنهم . وكانوا يكدون ليل نهار في انمام حفر الخنادق ولكن كان هذا فقط

كل ما استطاعوا أن يعملوه . وقد قال ستون باشا الأميركي بعد الحرب أنه يعتقد أنه لم يطلق واحد من جميع هؤلاء خرطوشة واحدة والارجح أنه مصيب في اعتقاده .
وحادث الحادثة فجأة في محرم ١٣ ستمبر . فقد كتب الكتاب الحريون الانجليز قصصاً خيالية عن تقدم الجيش الانجليزى سرّاً في الليل تحت جنح الظلام يهتدي بالنجوم وبهداية صابط من البحارة حتى خرج من المحسة ووصل الى التل الكبير حتى لا يتوهم القاري . أنه كان يتحس طريقة في الظلام لا يدرى الى أين يقاد . ولكن الواقع خلاف ذلك . كان حواسيس العرب والبدو الذين أشرت اليهم يدلونه على الطريق . وكان اثنان من صفار الضباط في جيش عرابي قد ارتشيا من الحديدو قبلأ على يد وكلائه وكانا في مركزين مهمين . واسم كل من هذين الضباطين يجب أن يدون تخليداً لعارهما وقضيتهما . فالولما هو عبد الرحمن بك حسن قائد الحرم الراكب وكان في مقدمة الجيش مع فرقة خارج الخطوط وكانت الصحراء من جهة الشرق مكشوفة أمامه . ففي تلك الليلة الممهودة نقل رجاله الى جهة بعيدة نحو يسار الجيش حتى يصير طريق الهجوم خالياً أمام الانجليز . وأما الثاني فهو الذي سبق أن ذكرته واسمه على بك يوسف الذي كان على قيادة خطوط الخنادق المتوسطة . وكانت هذه الخطوط لاتعوق سير المدفعية . وظهر من التحريات بعد ذلك ومن أقوال عرابي أن هذا المخلوق لم يكتب باخلا ، مرا كره بل وضع المصاييح لكي يهتدى بها جيش الانجليز . وقد ذكرت في أسماء أخرى لمن خانوا بلادهم ولكني لعدم ثقتي بالرواية أوتر عدم ذكرهم . أما هذان الاثنان فلن خيانتهم قد اشتهرت في القاهرة مدة سنوات لانهما لم يخفيا فعلتهما وخاصة على بك يوسف الذي كان نائب الشكوى من قلة المكافأة التي كوفى بها على خيانة وطنه

فقد دفع له الف حنيتها قبل المعركة وكان قد وعد بعشرة آلاف جنيتها بعد المعركة ولكن الحكومة لم تدفع له سوى معاش شهرى قدره ١٢ حنيتها مدة حياته . وكان عرابي وسائر الجيش قد باتوا تلك الليلة مطمئنين لان سعود الطحاروى كان قد غشهم وخدعهم . فبات هؤلاء الساكنين في خنادقهم ووراءهم عرابي على بعد ميل منهم واذا بجيوش العدو تنصب عليهم فاخترق الانجليز الخنادق من أمامها

الضعيفة وفي مؤخرتهم المدافع تصب النار ففر جميع المحمديين المحددون أن يطلقوا طلقة واحدة وكانوا في حالة شبه العري وقد أضاءهم حمر الخنادق ورموا بأدقهم وهرعوا يعدون والمدافع تمصدم وكانوا ليلهم بكيفية التسليم يطهرون كأنهم لا يزالون يجاربون فكانت الحرب أشبه شي بمجزرة وحدث كل هذا في القلب وفي المينة . أما في الليلة فقد صد محمد عبيد وكانت المدفعية المصرية تمجيداً لضرب هنا وهناك ولكن كل هذا لم يستغرق إلا رجوع أكثر من أربعين دقيقة . ووقع محمد عبيد في هذا الدفاع الشريف ووقع معه أكثر رجال المدفعية الذين صدوا لقتال ولكن لم تمض ساعة حتى انتهى القتال وصار الجيش الوطني خليطاً مشتبكاً .

أما عن الدور الذي مثله عرابي في هذا الصباح المشؤم فإني أرويه نقلاً عن بيان خادمه محمد سيد احمد الذي كان خادماً من سنة ١٨٨٨ مدة سنتين وهذا فضلاً عما رواه لي عرابي نفسه بعد ذلك .

قد كان سيد احمد هذا يروي لي هذه الحوادث عدة مرات وكان يقول لي ان الجيش كان مستغرقاً في النوم تلك الليلة لان الطلائع كانت قد روت ان الانجليز لم يتحركوا . وكانت خيام عرابي تبعد عن الخطوط نحو ميل لكنها كانت تقريباً في وسط خيام الجيش .

وكان عرابي مطمئناً كسائر الجنود قد خلع ملابسه وذهب الى فراشه ونام نوماً عميقاً ولم يستيقظ أحد الا على زفير المدافع . فلبس عرابي في الحال كسوته الحربية وامتطي حواده وذهب الى خط النار وكان معه خادمه هذا وآخرون . ولم يذهبوا بعيداً حتى قابلهم جمهور من الفارين يقولون انهم قد خسروا المعركة وكان العرب البدو الذين ينتمون الى الحائن سمود الطحاوي يركضون خيولهم هنا وهناك فيزيدون الارتباك . فجعل عرابي يحض الجنود على الثبات وصار يتقدم بهم الى الامام في ناحية محمد عبيد الذي كان لا يزال صامداً للانجليز ولكن أمواج الفارين ردت الى الوراء . وحمل خادمه سيد احمد هذا برجوه ان يفر وينجو . فامتل عرابي أخيراً الى هذه النصيحة . ولم يكن الخادم يعرف ان واجب مولاه ان يصمد ويموت في مكانه في ميدان القتال وكان يتحرب بأنه استطاع ان يجعل مولاه يسمع نصيحته .

وكان كلاهما متمتعاً بجواداً كريماً قد أهديا البها من مدو الغيوم القرية . فوصلا الى محطة التل الكبير قبل وصول الانجليز بدقائق ولم يتمكنوا من أخذ القطار . ولكنهما عبرا الحسر المقام على القنطرة قبل أن يفل ولما صارا على الضفة الاخرى وحد نفسيهما في وادي الطميلات فسارا الى بليس ركضاً . ولم يكن معهما أحد لان الارتباك الذي نال الجيش فصل عرابي من أركان حربه . وكان كل م عرابي أن يصل الى القاهرة قبل وصول خبر الهزيمة حتى يهيئ وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد . فأخذ القطار في بليس ووصلا الى القاهرة بعيد الظهر .

(وقد سمحت مثل هذه الرواية من مصطفى بك طبيب الجيش رواها لها في سنة ١٨٨٤ وكان ليلة معركة التل الكبير مائماً في خيمة قرية من خيمة عرابي وفي ملحق هذا الكتاب رواية عرابي نفسه)

ويظهر أنه عند وصول عرابي الى القاهرة كانت لا تزال برأسه آمال عن الاستمرار في الدفاع عن المدينة . فذهب توأ الى قصر النيل وانضم الى لجنة الحرب التي عقدت اجتماعاً وكان القرار الذي انتهت اليه اللجنة عبارة عن تسوية تقتضي الخضوع للتخدير من جهة والدفاع عن القاهرة أيضاً من جهة أخرى . ولم يفعلوا الاكثر من ذلك الى اليوم التالي عند ما وصلت الحنود الهندية بقيادة دورري لوالى العباسية والحقيقة أن وكلاء الحديو كانوا قد كسروا قلوب الوطنيين بدسائسهم كما أن اعلان السلطان بان عرابي نائر كان قد فت في عضد الوطنيين . ولم يكن يقول بالدفاع في هذا الوقت سوى رعاى الشوارع وكاتوا يجهلون كل شيء . وكان في المدينة حامية من المهندسين الجدد وكان في مقدورهم أن يثبتوا في القلعة ويحموها ولكنهم لو فعلوا ذلك لدمر الانجليز المدينة . ولم يكن أحد مستعداً لذلك ولذلك قررت لجنة الحرب أن تسلم في الحال مفاتيح القلعة التي طلبها . وكان عرابي قد قضى الليلة السابقة مع جون تينيه وهما في قلتي ومباشرة فصيح له تينيه بالتسليم فذهب الى القائد الانجليزى في الصباح وسلم سيفه واستأمر

(هذا رأي أحد في مذكراتي في سنة ١٨٨٤ انه في ٢٩ اكتوبر جاءني الاميرال الصربن عثمان وكامل وكابا يتكلمان بحماسة وطنية عن الحرب وقالوا لي أشياء كثيرة .

فما قاله عثمان أنه لم يكن هناك وقت الحرب لأنه كان سميًا ولكنه كان يعطف على
القضية الوطنية وقد سلك سلوكاً شريعياً بعد الانتهاء . وكان كامل عسوى في الحكومة
المؤقتة وكان يرى عرابي كثيراً وشهد بولطته ولكنه لأمه على نهاونه . فقال أنه كان
يجب عليه أن يصرب على يوسف بالرصاص بعد القصاصين لأنه قد عرف تماماً أنه
خائن وقد أخذ قبل المعركة حصة آلاف جنيه . وحدث أنه كان يوجد ١٨ ألف
جندى مصرى ليس أمامهم سوى ٢٥٠٠ جندي انجليزى بقيادة اللوق كسوت
نعم ان على يوسف الذى كان في القلب حمل على الانجليز ولكنه ترك ميدان القتال
فاختل نظام الجيش . وكان معظم هذه الرشوة التي رشاه بها الانجليز رائفة بها كية
كبيرة من الرصاص وبعد المعركة امتلأت القاهرة بهذه النقود الرائفة فاشتريها
الحكومة بسعر القطعة عشرة أو حصة فرنكلت .

وكانت الحوالات البريدية أيضاً مزورة ولكن على يوسف ألح في أن تكون
حوالاته موقفاً عليهما من شخص يعرفه . وكانت النقود التي ارتشى بها عد لغفار
انجليزى زائفة فأخذت زوجته بمصانمها وذهبت به الى زوجة اسماعيل جودت لكي
تستبدل بها نقوداً أخرى . وكسر الامير كلل بعض هذه النقود فوجد في داخلها
رصاصاً . اما البدو فلم يخذعوا فان الخائن سعود الطحاوى لم يقبل سوى الريالات
الفضية نسلها من أحد قواد الانجليز كما أخبر الامير كلل بذلك بعد الحرب . فكانت
المسألة فضيحة من جميع النواحي وكان كلل قد أمر بأن يذهب الى التل الكبير
للقبض على علي يوسف ولكن الجريمة في التل الكبير حالت دون ذلك . فيظهر من
ذلك ان جميع من كان حول عرابي قد خانوه بعضهم حباً في المال وبعضهم حسداً .
وكان محمود سامي يحمى عرابي وقد أضعاف الفرصة في القصاصين لأنه لم يكن قائد
الجيش بدلا من عرابي .

قد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ويحافظ على ميعاده مع علي فهمي الذى
كان جندياً شريعياً قادراً بينما كان غيره لا قيمة لهم . وكان عرابي يمنع الأتراك من
القيادة وفي الوقت نفسه لم يكن يبعد من الملاحين سوى غير الأكفاء . وكان محمود
سامي هو التركي الوحيد الامين ولكنه آرشخصه على مصلحة البلاد . وكان الامير كامل

حاضراً في مجلس الحرب في قصر النيل عند ما وصل عرابي وأخبر الاعضاء بهزيمة الجيش وهو يبكي أحر بكاء . وقد قال انه حارب حتى لم يبق سواه . وليس هذا صحيحاً . فوئحه الامير كامل وقال له « ان من يفامر بعمل عظيم يجب عليه أن يحسب حساب الخسارة »

(وقد قال لي الامير كامل ان عرابي لم يكن جديراً بأن يتولى القيادة العامة . فلو انه ضرب بالرصاص أو شق ستة أشخاص في أدوار الحرب الاولى لار كل شيء سيراً حسناً . ومما قاله أيضاً ان ما يقال من ان الجيش الانجليزى كلن في هذه الحرب يسير سير المتعز عار عن الصحة .

(وقال لي محمد سيد احمد انه كان حول عرابي نحو ألف جندي دبحوا جميعاً قبلما يترك ميدان القتال . ولكني لا أغلق أهمية على صحة هذه الرواية أو كدها وبخاصة من حيث العدد . والمظنون ان القتلى والفرحى من المصريين قد ملقوا نحو عشرة آلاف . وأكثرهم كانوا قتل لان الانجليز لم يستعملوا أقل هواة . ولكني مع كل ما ذكرته لا أضمن صحة هذه الارقام . وعلى كل حال في التل الكبير أكوام من عظام القتلى وم شهادة باطقة على ما جرى في المعركة)

الفصل السابع عشر

محاكمة عرابي

لما كانت هذه الحوادث تجري في مصر كنت أنا أقضى الصيف في كرايت والحرزن يقطع نياط قلبي . وكانت كل عواطفى بالطبع مع المصريين ولو ان جميع أسباب المكائبات بيدي ويهمهم قد قطعت . وكانت حتى الحرب في الاسابيع الاولى من القتال عظيمة بدوجة لا تدع أية منفعة من كلامي . فصمت امام الجمهور واستعددت لان أقدم دفاعي عن موافقي اراء المسألة المصرية . ومما كان يذكر ضدي ما ذكرته شركة روتر من ان عرابي قد فتح دارى القرية من القاهرة ووجد فيها سبعة عشر صندوقاً مملوءة بالبنادق ووجد أيضاً مدفعاً محاسياً من النوع الذى يحمل على ظهر

اليخوت والحقيقة في ذلك هي انه لم تكن نعمة الاسع عشرة بندقية وهذا المدفع وكنت قد اعددت ذلك لاهديه الى ابن رشيد في حائل . وكانت هذه الاشياء في منزلي فسمع بها بعض ولاة الامور فقلوها الى القلعة . ولم أحصل على معلومات عن هذه الاشياء . للارتباك الذي أعقب الحرب الا ما أتتبع في لندن من ان مدعى النحاس قد عدى غنائم الحرب وانه حل الى وزارة البحرية لكي يمرض على انظار الجمهور . وبعد الحرب بـ عشر سنوات كنت أتناول القداء مع ابن عمي لورد ويندهام في القلعة في القاهرة . وبعد القداء أخذني لكي يرى أسلحة دلو الصنعة فرأيت هناك مدفعين وسائر أسلحتي . ولما كان الصندوق الذي يحوى البنادق لا يزال اسمي عليه فإني استطعت ان أسترد جميع هذه الأسلحة .

وكننت مدة الحرب مكروهاً في دوائر الحكومة ولكن علاقتي كانت لا تزال متصلة بدار رئيس الوزارة . وكنت أقابل هاملتون وقد عرصت عليه دفاعي الذي نشرته في مجلة القرن التاسع عشر في وقت كانت أوشكت ان تذهب فيه حماسة الحرب وتنطفي حافوتها وكان المعكرون من الامة أخذوا يفسادون عن السبب والعاية من الحرب . وكانت مقاتلي تستند الى الدفاع الى العاطفة أكثر من العقل . وكانت تقيحها أكبر مما انتظرت فان سيرلوسون ومستريسموركي وعبرهما من الاحرار أخذوا يطوفون البلاد يدعون الى وقف الحرب وصار في البلاد شبه رأى عام يقاوم الحكومة في هذه الحرب . فتشجعت من ذلك . وحوالى ذلك الوقت أيضاً نلت خطاباً من الجنرال غوردون مؤرخاً بتاريخ ٣ أغسطس وكان وقتئذ في مدينة الكلب وقد صرح لي فيه بعطفه على القضية التي كنت أدافع عنها وهذا نصه :

مدينة الكلب في ٣ أغسطس سنة ١٨٨٢

عزيزى مستر بلنت

انك تقول في التيمس انك ستنشر بياناً عن المكاتبات التي دارت بينك وبين الحكومة فأرجو أن ترسل لى نسخة من هذه المكاتبات . فقد كتبت أنا مسودة كتاب عن الحوادث التي جرت بين بعثة كيف وبين ارتقا . شريف مصعب الوزارة وأسمايه « اسرائيل في مصر » وسأبعه بأخر اسميه « سفر الخروج » ولا أعرف

إذا كنت سأطبع هذا الكتاب لانه ليس من العوالب ان يشمت الانسان بأعدائه .
أعني بذلك الأعداء الرسميين .

ما أبلغ الدمار والخراب اللذين جرهما مالت وكولفن بل ما أؤخم عواقب سياسة التكنم التي جرى عليها ذلك وكولفن ومالت . قد فر ذلك من إجابة الاسئلة التي ألقيت عليه في البرلمان بدعوى المصالح الانجليزية . فياله من شقي اتني اعتقد تمام الاعتقاد انه لا يدري عن خطته أكثر مما يدري بواب ودارة الخارجية . وهل كان يمكن أن تكون خواتيم الامور أسوأ مما هي الآن لو انه صرح بكل شيء ؟ كلا . إذ ما هي النتيجة الراحة ؟ زوال المراقبة وزوال الموظفين الذين يتناولون في العام ٣٧٣ ألف جنيه وزوال نفوذ القناصل وزوال توفيق وزوال الربا وخراب مدينة الاسكندرية وفوق ذلك أمة نكرتنا . وسيدفع ككولفن الى الهدم ومالت الى الصين ولن نسمع عنها شيئاً . وكل هذا لأن القناصل والمراقبين لا يرغبون في أن يناقش أعيان البلاد الحكومة عن الميزانية في وزارة شريف . وأما عن عرابي فها حدث لشخصه فانه سيعيش في قلب الامة الى الابد : ولن تكون هذه الامة « خادمتكم المطيعة » مرة أخرى .

(ك.ج. غوردون)

واقبل نحيات المخلص لك

وقد رأيت في الحال أهمية هذا الخطاب لآتي وان كنت في ذلك الوقت مكروها في الدوائر الحكومية الا ان اسم غوردون كان ذا قيمة كبرى عند الجمهور وبخاصة عند ذلك الجمهور الذي بدأ يمضدني فاعتسدت على هذا الخطاب لكي أشرع في مكاتبات جديدة مع هاملتون . وكان مستر غلادستون قد قال في البرلمان عني أنني « من الشاذين البينين » الذين لا يعرفون مصر فارسلت اليه عن سبيل هاملتون نسخة من خطاب غوردون لي ثم لفت نظره الى ما ذكرته الجرائد من روايات الفظائع التي كان يرتكبها توفيق هو وورداؤه الشركس مع المعتقلين الوطنيين . فقد روى أن محمود فهمي القائد المهندس قد غلب وان السياط وسائر آلات التعذيب قد استعملت بلا رحمة . فسألت أما مستر غلادستون عما اذا كانت الحيوش الانجليزية قد ارسلت لمصر لهذا الغرض . وجاءني رد سريع وقد أعادني بعد ذلك عندما طلبت

لا يترك عرابي تحت رحمة الخديو حتى يفضي عليه بالهلاك بلا محاكمة .

وهناك نص هذا الخطاب :

« ١٠ شارع دوتنج سيريت — هوبتول »

٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لا أظن أنني في حاجة لأن أخبرك أن القلق قد ساور مستر غلادستون بصدد ما أشيع من ارتكاب العظائم مع الوطنيين في مصر . وقد أرسلت في الحال تعليمات للبحث عن حقيقة هذه العظائم ومع الإشارة بالاحتجاج على ولاية الأمور إذا كانت قد وقعت «حالا» . وأنه ليسرني أن أخبرك بأن ما لدينا من الحقائق يبي وقوع هذه العظائم المزعومة وقد أعطيت أوامر شديدة بأمر يعامل الوطنيون معاملة المروءة والانسانية .

ويظهر أن هناك بعض الزبنة في ارتكاب التعذيب مع أحد الحواسب ولكن التحقيقات تجري الآن والمضامات تؤخذ لمع تكرار التعذيب . ولكن على يقين بأن مستر غلادستون سينتكر «العظائم المصرية» ويدد لها كما يدد بالعظائم البلغارية «ولست أعلم من أن أدركك بأن رأيك أو رأي غوردون الصيبي عن عرابي سيتغير عند ما تقرأ الوثائق التي قرأها» .

« فنذا أشهر قليلة (وهذا خبر لا يجب أن يعشي) فما بعض التحريات عن غوردون فإنه قد عرض علينا بعض مقترحات بارلندا وكانت نتيجة هذه التحريات أنه ظهر لنا أن عقله لم يكن سليما »

وكانت هذه الجملة الأخيرة غريبة فإن السبب الذي جعل حكومة مستر غلادستون تعتبر أن عقل غوردون لم يكن سليما هو أن غوردون كان قد ساح في غربي ارلندا وأرسل وقت سياحته إلى أحد أعضاء الحكومة وهو لورد نورثبروك يقدم له مقترحات عن رد الأراضي للارلنديين باليمن وأيضا يقترح الحكومة الثانية لهم .

وكان هذا الخطاب قائمة علاقات حسنة بيني وبين دار رئيس الوزراء وصار لي بعض النفوذ عقب انتصار الحزب الانجليزى في التل الكبير وأسر عرابي وكانت نتيجة انتصار الحزب تغييرا هائلا ونحو لا في رأي الجمهور . فكان من حسن الحظ

أنى استطعت أن أقول كلمة منذ أسبوعين لأنى لو لم أقل هذه الكلمة فى ذلك الوقت لما سمع بعد ذلك أحد صوتى فى جليسة النصر . وكانت نتيجة هذا الفوز أيضاً أن برزت الحكومة جميع أعمالها السابقة وقسي مستر غلاستون من ناحية الوطنيين . وكان هناك خطر من أن يلجأ غلاستون لشرب ذبح الفلاحين أمام ضيقه الى تضحية عرابى نفسه . وكان عنده الوحيد فيما ارتك من الفتناع الحربية ماسبق ان أغرى به نفسه من أنه يعامل فى شخص عرابى رجلاً مجرمًا مقحماً غير جدير بالاحترام الذى هو من حق الوطنيين كالأ يمكن اعتباره قائد جيش متمددين .

ولدى ما يجعلنى اعتقد أنه لو كان عرابى قد وقع أسيراً فى يد واسلى فى التل الكبير لأعدمه فى الحال ولولا تدخل سير جون أديو وهو قائد أكبر سناً من واسلى واكثر تجارب لضربه بالمرصاص أيضاً فى القاهرة عند القبض عليه ولكن سير جون أديو أظهر لواسلى العار العظيم الذى يلحق بالجيش الانجليزى اذا كان قائد قوة منظمة قد احتاحت الحكومة الانجليزية الى تعبئة ثلاثين الف حندي لقميره لا يعامل المعاملة الشريفة التي هي من حق أسير الحرب . ثم أن برايت قد صرح لمستر غلاستون برأيه وهو فى أشد القبط عن هذا الموضوع وطلب معاملة عرابى معاملة حسنة . ويحب أن يعتقد أن قوة الرأى العام وحدها هي التى جعلت الحكومة تحجم عن تضحية عرابى كعارة عن اغلاطها وكان مستر غلاستون ولورد غرانفيل وسائر اللوردات الاحرار فى الوزارة مصممين على ذلك . ولكي أبين الاسباب التي جعلتهم يبعدون الى الوسائل الانسانية فى معاملة الوطنيين بحبان أذكر التفصيلات الآتية :

فقد أعلن تسليم القاهرة وأسر عرابى فى جريدة التيس فى يوم ١٦ منه وفى هذا اليوم أيضاً أرسل موبلى بل مكاتب التيس فى الاسكندرية تلغرافاً لجريدته يطلب فيه التكيل بعرابى وعشرة آخرين من زعماء الوطنيين . وأدركت من هذا ان النية سيئة بل فى غاية السوء . وأرسلت فى الحال تلغرافاً الى ناتون أسأله عن رأى الدوائر الرسمية . وكان جوابه الاول مطمئناً يقول فيه :

« ليس هناك في ظلي أقل خوف من أن يصرب أحد بالمرصاص . ولكن يجب عليك مع ذلك ان تطلب معاملتهم بالرفقة »

ولكن بعد ذلك ساعتين أرسل لي التفراف التالي :

« ان لجنة الدوائر الرسمية تصدد أصدقائك لا تظنن ما كتب لي خطا ،
استطيع أن أربه لرئيسي »

وكل يقصد هذا الرئيس نشري رئيس تحرير جريدة التيمس وكانت علاقته
به حسنة جداً . فكشفت في الحال الى هاملتون اقول :

« لا أنزل أن هلك أى خطر من وجهة اعدام أحد من الوطنيين في القاهرة
ولكن اذا كان يوجد هذا الخطر فانا آمل أن نحبري في الوقت الملائم لأن لي بعض
مقترحات بخصوص محاكمتهم محاكمة عادلة ومخصوص مسائل أخرى »

ومما هو ذو دلالة اني لم أنسلم رداً على هذه الرسالة مدة يومين وبعد ذلك جاءني
رد يقول ان هاملتون على وشك أن يسافر الى الارياض وعلى ذلك فلا يمكنني أن
أعتمد عليه .

ولكنني لم يسقط في يدي هذا السبب فاني كتبت رأساً الى مستر غلادستون
وقد فعلت هذا بعد أن استشرت ايون وروولي وهذا الاحير قالته في منزله بعد
ظهر يوم ١٩ منه وقرروا أن يكون ردولي المحامي عن عراي وسائر المعتقلين السياسيين
وكان ماتون الذي يعرف دحائل المسائل يرى أن الوقت لا يتسع للارجاء والتسويق
واتعقنا مع ردولي على الدفاع مبلغ ٣٠٠ جنيه ثم زاد هذا المبلغ الى عثمائة جنيه وهذا
غير ما كلف بدفع له في تأجيل القضايا . وفي أثناء ذلك خدمنا ماتون خدمة كبيرة
بأن تمكن من أن يجعل جريدة التيمس تعلن بأن عراي ورفاقه لم يعدوا الا برضى
الحكومة الانجليزية وأنه سيدافع عنهم محامون قادرون . ولم يكن عندما ما بدعهم هذا
الخبر ولكن بما أن التيمس قد أعلنته فان الحكومة وحدث من الصعب أن نرى
عن خطة الانسانية التي أدعناها عنها ونسناها اليها .

وهناك خطابي الى مستر غلادستون

١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

سيدى العزيز

أما وقد انتهى المصريون من معادمتهم الحربية وبما أن عراي وسائر الزعماء

قد سلموا أنفسهم لقوات جلالة الملكة فأني أتمرأ على مخاطبتكم لمصلحة العدالة ولمصلحة أولئك الذين أقت بهم مقادير الحرب في أيديكم .

والظاهر أن النية المقودة على تأليب محكمة عسكرية لمحاكمة الرعايا العسكريين والثورة للبحث عن علاقاتهم ببعض الاعمال العنيفة التي ارتكبوها . وستساعد المحكمة العسكرية بمحكمة مدنية في هذه التحقيقات . فإذا كانت هذه هي الية المقودة فأني أرجوكم أن تعتبروا الظروف التالية لاما حذيرة بنظركم وعنايتكم .

١ - إذا كان أعضاء المحكمة العسكرية المقترح تأليفها مصريين بينهم الخديو فاسمهم لى يكونوا أحراراً في حكمهم ويستحقون من المصايط الذين كانوا من حرب الخديو فيكونون لذلك معرضين .

٢ - وإذا لم يحصل ذلك فيجب أن تذكروا أن شهود الزور كثيرون في مصر وتزوير الوثائق العربية سهل فلذلك لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الشهادات . ويجب إذن وجود خبراء لفحص هذه الشهادات قبل قبولها .

٣ - وإذا كانت الينات مما يساعد المعتقلين فلا يمكن مثبها أن يقولوا الا وهو حائف . نفسه تغريه بالا يقدم مثل هذه الينات فيما بغري البلاط الشهود فان يقدموا يينات نصر بالمعتقلين . وإذا كان الخبراء وطنيين وسيكونون معرضين لجميع هذه الظروف .

٤ - وشهادة الادريين المقيمين في مصر ستكون مصسوغة بصيغة تافي مصلحة المعتقلين فهم ذو مصلحة في القضية . فقد خسر بعضهم بعض املاكه وتعطلت تجارة البعض الآخر وأصيب بعضهم بما مس كرامته فهو لذلك يرغب في الانتقام . ولهجة الانتقام بادية منذ الآن فيما يكتبه الانجليز المقيمون في مصر وفي الصحف الانجليزية .

٥ - ولا يكتفى اذا أريدت محاكمة المعتقلين بالصل أن يوجد ممثل للحكومة جلالة الملك في شخص أحد التراجمة أو نحو ذلك وقت التحقيقات . لأن الشعور السياسي قد طام بحيث لا يمكن لاحد في القاهرة أن يحكم حكماً نزيهاً بعد حوادث الستة الا شهر الماضية .

٦ - اذا كانت النية معقودة على أن يضم ضابط انجليز الى الاعضاء الوطنيين في المحكمة العسكرية كما هو الحال. فانهم سيحملون لغة المعتقلين ولن يستطيعوا فحص الينات أو استجواب الشهود فيكونون لهذا السبب في أيدي المترجمين الدين ربما يفرون الاقوال للاضرار بالمعتقلين. وأكثر تراجعة القنصليات سوريون مسيحيون يكرهون المسلمين كراهة شديدة. وليس في مصر انجليزى يوثق به لقيام بهذه المهمة. فوظفونا لايبرفون العربية أو يبرفونها معرفة قليلة ثم أن علاقتهم بالقلقل ستفسد بالطبع رأيهم السياسى .

فذلك يظهر أنه اذا لم تتخذ احتياطات خاصة فان الخطر من عدم تحقيق العدل عظيم .

وتلافياً لذلك بقدر الامكان قد عولت على ان أعين محامياً على مقتي أنا وبعض أصحابي للدفاع عن أم المعتقلين وسأذهب به الى القاهرة لكي تجمع الينات للدفاع عنه : وسيكون معي القسيس صابونجي كترجان . ولما كانت معرفتى بالعربية ناقصة فلت لذلك أستطيع ان اشتغل وحدى وصابونجي هو أحد أصدقاء المعتقلين وهو قادر على أن يتكلم عنهم . ثم هو يجيد معرفة الانجليزية والفرنسية والايطالية والتركية وربما كان خير من يعرف العربية . والمعتقلون يثقون به واعتقادي انهم يثقون بي أيضاً .

وهذه الطريقة فقط يمكنهم أن يحصلوا على ما هو من حقهم أى تحقيق كامل خلو من الغرض .

وفي الحتام أرى انه ليس من الضروري ان أعد باى وقت اشتغالى أنا ومن يقومون معي بالدفاع عن المعتقلين لن تتدخل مطلقاً في السياسة . وأكون شاكراً لكم إذا نكرتم باخبارى في أقرب وقت عن نوع المحاكمة وبام التهم التى متوجه الى المعتقلين . وأرجو أن أجد أنا ومن معي التسهيلات التى تسهل علينا القيام بعملنا في مصر ولن أشك في انكم لما جيلتم عليه من حب العدل والحق ستكتبوني من القيام بهذا العمل هذا واني الخ .

وهذا الخطاب الذي كنت أعرف ان من الصعب على مستر غلادستون مد أن ذكر « المطامع المصرية » الى حاسب المطامع البلغارية ان برد عليه بالرفض ، امته اليه بعد أن ردت هاملتون وأخبرته ببيتى . ولكن هاملتون لم يشجعي كثيراً كما كنت ذلك لى أبصاً من رفته التي أرسلها لى فى الصباح التالى ردأ على خطاب مي له . فقد قلت له فى هذا الخطاب انى سأكتب الي عرابى واسأله عن حكيمة إرسال خطاب اليه (الى عرابى) وقد رجوت ان أحصل على رد من رئيسه مستر غلادستون قبل يوم الجمعة . فكلن ردها ملتون كما يلى :

« ابي آمب لان أخبرك بأن خطابك قد تأخر بنحو ثلاث دقائق . ولكن على كل حال بحسب الاعتد على جواب سريع . فان مستر غلادستون سينقل كثيراً ثم هو ان يكتب الرد حتى يستشير آخري . وأنا نفسى أجهل المسائل التي ربما تؤدى اليها مقترحاتك ولذلك لن أنطوع برأى .

ولكن أليس من المشكوك فيه انه يمكن الدفاع عن انسلت بواسطة محامين حاسب وان هذا بخلاف القوانين الدولية والعرف ؟ وأنى أجهل أيضاً كيفية إرسال الرسائل الى أسرى الحرب ولكنى أظن انه لايتسى إرسال أية رسالة لعرابى الا اذا رضي الحديو وقائد الجيش الانجليزى . وعلى كل حال فواسطة المفاوضات سيكون مايت فى الارجح »

وبناء عل هذا الاقتراح كتبت خطابا الى عرابى أخبره فيه عن الطريقة التي ستمها فى الدفاع عنه وألقت هذا الخطاب بصورة منه لكي بطلع عليها مايت ولزيادة الاحتياط ذهبت بنفسى الى وزارة الخارجية وسلمت الخطابين لكي يرسلوا الى لورد تتردن حتي يكتب عليها مايفيد العناية بهما . ولكن سوء الحظ أبى الا أن يموت اللورد فى ذلك الصباح وكل البريد على وشك الفر فاضطرت الى إرساله على يد حادم باتون . ولكن الخطاب موحاً الى القاهرة ولكن مايت أبى أن يعلم

لخطاب ورد الى رسالتى . وهذا يدل على مبلغ معاكسة الحكومة لى في تعيين
مما بين للمتهمين وهاك كتابه لى :

القاهرة فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٨٢

سيدى :

نا . على التعليقات الواردة الى رئيس حكومة حلالة الملكة ها انا اذا ارد اليك
كتابك المرسل الى عرابى طي كتابك المرسل الى بتاريخ ٢٢ من الشهر السابق .
ادوارد ماليت

اما كتابي الى عرابى فكان كما يلى :

الى صديقى الشريف احمد عرابى باشا

انك كجندى ووطنى تدرك الاسباب التى منعتنى من ان اكتب اليك او
ارسلك مدة هذه الحرب المشؤمة . اما الآن وقد انتهت الحرب فانى ارجع ان
أريك ان صداقتنا لم تكن مقصورة على الالفاظ فمن الارجح انك ستحاكم وستكون
تتمتلك الثورة أو غير ذلك من الهمم التى لا أستطيع معرفتها الآن ، فاذا لم يقدم
عندك دفاع قوى يارع فامك تكون معرضاً لان يحكم عليك حكماً سريعاً . ولذلك
عزمت بعد مواظبتك على ان أسافر الى مصر لكي أقدم اليك التى تفيديك في
المحاكمة وسيكون معى محام انجليزى شريف قادر على الدفاع عنك وقد أخبرت
الحكومة الانجليزية عن نيتى هذه فارجوكم أن تولكنى فى القيام بهذا العمل فى
أقرب وقت لان رضاك ضرورى . وبمسن لك ان ترسل لى تفراما بالقبول وكتابا
آخر توافق به على ان أقوم بمهمة الدفاع عنك . وبممكنك ان تعتمد على طول مدة
اعتقالك و ان عائلتك لن تحتاج الى شئ . ما . والله يقوى قلبك ويعنحك القعدة
على تحمل السراء والصراء .
ولمرد سكاون بلانت

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كرايت — مسكس — انجلترا

وكلن جواب غلادستون قد جاء الى قبلما كنت استطره ويظهر منه انه كان قليل

البل الى محاكمة نزيهة وكان رأيه في ذلك هو رأى وزارة الخارجية . وكان الحواب
مرسلا عن واسطة هاملتون وهو :

١٠ شارع دوننج .

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لقد قرأ مسر غلادستون الكتاب الذى بعثته اليه بخصوص محاكمة عرابي
واقترحك تعيين محام انجليزى للدفاع عنه . وكل ما يستطيع أن يقوله لك الآن
انه سيمرض طلبك على لورد جرايفيل الذى سينشيره في هذا الموضوع ولكنه
لا يمكن أن يؤكد لك منذ الآن بأن طلبك سيجاب »

ولم يكن هذا الكتاب فضاً بآناً ولكن التثييط ظاهر فيه . وقد أضاف هاملتون
بعض عبارات تريد قوة هذا التثييط إذ قال في خطابه له : « اعترف بأنى كلما فكرت
في المصاعب التي تخطر ببالى أجدها تزداد عدداً باقترحك هذا . وستعرف عن هذا
الموضوع بعد يوم أو يومين أشياء كثيرة . ولكك لن نسمعها لأنى كلما سبقان
أخبرتكم عازم على السفر »

فقيت في شكوك بينا كانت الغفلة تزداد حرجا كل يوم . ولم أكن أحسر على
السفر الى مصر قبل ان احصل على جواب فاصل لأن وجودى في القاهرة لن يكون
منه أقل فائدة مالم أكن حاصلا على سلطة من الحكومة . وربما كان لايسمح لى بأن
أقابل المهمين . وكان برودلى قد سمم الانتظار وسافر الى تونس . وكان فصل
البرلمان قد انتهى وأكتر الناس كانوا يبادرون لندن وكلن الوزراء يوكلون وكلامهم
في القيام بأعمالهم وركبت حالة الاشغال

وكانت الصحف في أثناء ذلك تتناقش في مسألة اعدام عرابي وكانت صحف الفرنجة
الحرية بصرخن مطالبات باعدامه ولم يكن يسمح للاحتجاج على هذه الاقوال الامن
النواحي الضعيفة . وكانت اللجنة المصرية التى الفهاسير وفرد لوسون في الصيف وقد
أدت إذ ذاك بعض الاعمال الطيبة قد سكنت وأرسل لى لوسون نفسه كتاباً بمملوءاً
باليأس قال فيه :

« أي اشك كثيراً فيها اذا كانوا سيسمحون لعرابي بأن يحاكم محاكمة نزيهة :

لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم إذا فعلوا ذلك سيحكمون على أنفسهم. والسياسيون احذق من أن يفعلوا في هذا الفتح . وعلى كل حال أنت مصيب بما تحاوله من إنقاذهم شيئاً من الانصاف »

وكلن كل مايمكنني ان أعمله هو أن أبقى في لندن الخ على رئيس الوزراء . باجابة طلباتي وأوعز الى التيمس مكتابة ماأريد . وسعد ان اضطرت اربعة ايام كتبت الى علاءستون الكتاب الا أني اطلب منه جواباً فاطمأنا وذلك لأن الحالة في القاهرة كانت قد بلغت درجة خطيرة

٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كتبت اليكم منذ عشرة ايام بصدد إرسال محام للدفاع عن عرابي باشا وسائر المعتقلين من الزعماء الوطنيين في حالة محاكمهم وكذلك اخترتكم عما نويته من السفر الى القاهرة لكي اتولى تقديم اليبات التي تفيدكم ولكي ارقب الاجراءات . وقد رجوتكم بأن تبلغوني في أقرب وقت قراركم بهذا الصدد

وقد كان جوابكم الذي ارسلتموه بواسطة هاملتون جعلني اعتقد أن اقتراحي سينظر فيه وأن كنتم لاتؤكدون باجابة طلبي

وبما على ذلك قد اتفقت مع أحد المحامين المشهورين على أن يدافع عن المعتقلين في حالة رضى الحكومة بأن يدافع عنهم ولكي احصل على موافقة هؤلاء المعتقلين بأن يدافع عنهم محام كتبت الى عرابي باشا عن سبيل سير ادوارد ماليت أرجوه بأن يوافق على أن أرتب الدفاع عنه ولم يصل الى الرد للآن . وكذلك لم يصلنى منكم أم من لورد جرايفيل كتاب للآن .

وقد قرأت في التيمس رسالة من مكاتبها في القاهرة يقول فيها أنه قد قرر أن يحاكم النهمون امام محكمة عسكرية سيدكر أعضاؤها . وهذا هو نص الرسالة : « ستعين المحكمة العسكرية لمحاكمة جميع المتهمين غداً . والحديدو وشريف ورياض يلعبون الخلفاء كبيراً في ضرورة اعدام الزعماء وهذا رأى يكاد يجمع عليه الجميع الا القليلين »

وقد قال لى شريف وهو رجل معروف بأنه مغطور على القتل والرافة : انى

لا أطلب موت المتهمين لأنني أعتقد على أحد منهم ولكن لأن موتهم ضروري للامم
المام في هذه البلاد . وليس من يسكر فائدة الحملة الانجليزية ولكننا لا نريد أن
تأتينا الجيوش كل اثني عشر شهراً »

فاذا كانت هذه الرواية صحيحة فانها تؤيد ما كنت أتوحيس منه من ان
مستشاري الخديو يودون قتل هؤلاء المعتقلين وهي أيضاً تبرر ما سبق ان قلته من
ان المحاكمة لن تكون نزيهة . فلذلك أعود الآن وألح في وجوب منح المتهمين حق
الدفع الشرعي عن أنفسهم . وأرحوك لكي تخفف آلام الشكوك والمسئوليات
فتحرق صراحة هل تنوي الحكومة أن تسمح لمحامين انجليز بالدفاع عن المتهمين أم لا .
وهل تعطلي على التسهيلات التي وعدت بها في مكانة المتهمين والموصول على مترجمين
قادرين لترجمة أقوالهم .

وليس يمكنني في حالة الشعور الزاهن بين المؤملين ان أعمل أنا أو سواي
شيئاً لمصلحة المتهمين ما لم تحصل على الحماية والمساعدة السياسية .

وصرورة الحالة وحرصاً على عذري في رحائي لكم بسرعة الرد
ولكن هذا الكتاب لم يصل الى مصر غلاستون لانه كان قد برح لندن
وكان سكرتيره الذي يتكلم ما يرد اليه من المكاتبات هو هور سيمور فأخذ كتابي
هذا وأرسله الى وزارة الخارجية . وكتب الى يقول .

« بالسبة لقياب مصر غلاستون وقت وصول كتابك أرسلت مصبون
طلبائك اليه الى وزارة الخارجية . وقد فعلت ذلك لانه كان قد سلم كتابك السابق
اليه الى لورد جرانفيل كما أخبرك بذلك هاملتون ولأني فهمت من رقتك أنك
توافق على هذا العمل وفيها أيضاً توفير الوقت . وقد علمت ان لورد جرانفيل سيرسل
اليك رداً رسمياً يوضح فيه رأي الحكومة عن المسائل التي عرضتها »

وعلى هذا فهمت ان مصر غلاستون قد رفع عن نفسه مسؤولية قول « نعم »
أو « لا » وألقاها على عاتق لورد جرانفيل . ولما لم يكن جرانفيل أيضاً ببلدن فانه
لم يبق سوى كتابة وزارة الخارجية للفصل في المسائل التي عرضتها على مصر غلاستون
وعلى الرغم مما قاله سيمور من أن الحكومة سترسل لي رأيها فاني لم اتسلم سوى

رسالة موقفة بامضاء جوليان بنسبوت يقول فيها ان مستر غلادستون قد احال رسالتي الاثنتين على لورد جرافيل وان لورد جرافيل يأسف لانه يشعر ان ليس له الحق في مكاتبتى عن هذا الموضوع . وهكذا تحلى مستر غلادستون عن المساواة التي حاولت ان اربطه بها وكان قد عقد نيته على ان يقتل عرابى وكانت هذه أيضاً نية رجال وزارة الخارجية . وقد شرحت تفاصيل هذه المسألة لاهميتها التاريخية ولكي اين هنارى . ذلك المكر القدي كانت تلجأ اليه الحكومة .

وقد قرأني بعد ذلك على ان لانضج منى فرصة اخري فتشاورت مع باتون ولورد دلاوار الذي كلن قد آتى الى لندن وعرض ان يدفع نصف نفقات الدفاع عن عرابى (ولكي لاحظ هنا انه لم يف بوعده) وقرأنا على ان يرسل الى مصر اول محام نجده يكون خالياً من الاشتغال لكي يكون مساعداً لبرودلى الذي كان في ذلك الوقت في تونس . فيعمل مايمكنه عمله في القاهرة حتى يصل اليه برودلى . ولم يكن لورد جرافيل موافقاً علي وجود محامين للتمهين . ولكن التيسر كلسبق ان ذكرنا كانت قد قالت عن الحكومة انها لن تسمح بقتل عرابى الا بعد موافقتها وانه سيدافع عنهم محامون مهرة : ولم يكن لرجال الحكومة قوة علي تكذيب مانسبته اليهم التيسر علنا . وكان نفوذ باتون عند رئيس تحرير التيسر كبيراً لدرجة انه صار واثقاً من انه يستطيع ان يجعل لورد جرافيل يقبل وجود محام انجليزى مالاخاح على هذا الطلب في جريدة التيسر

وعلى هذا ذهبنا في ذلك اليوم الى مكاتب المحامين للبحث عن محام ولكتنا وجدناها خالية لانما كنا في اوقات العطلة ولكتنا وجدنا في الساعة الاخيرة الرجل الذي كنا نشده وكان هذا الرجل مارك نيبار ولم يكن يفضل احد في سعة الحيلة ومعرفة القانون وقوة العارصة . ولكن بتار أيضاً باه ابن سفير فكان يعرف الاساليب السياسية ويحيد معرفة الفرنسية وهي ذات قيمة كبرى في القاهرة . فلما رضي بالذهاب واعطياه ماسمح به الوقت من المعلومات اخبرناه بان يذهب رأساً الى مالت ويخبره بانه قد حضر لكي يدافع عن عرابى ويلجأ في مقابلة موكله . وهذا كان كل مايتطيع ان يفعله وهو اذا قدر علي ذلك ضد ادي عملا عطيا . فاذا رفض مالت

طله فعليه ان يخرج وان يستبد من كل حادثة لمصلحة المتهمين . ثم عليه ان لا ينقطع عن اخبارنا عما يحدث كل يوم بالتلفراف ونحن هنا ان اسكت عن المطالبة في الصحف وفي وزارة الخارجية حتى نجاب الى ما نطلبه . ولم يكن مارك نيسار ممن يندفعون بوقار السياسة وحرمتها لانه كما قلت كان ابن سفير وكان يعرف دخائل السياسة . وسافر تلك الليلة عن طريق برنذبزي ومعه بعض كتب التقدمة وجدول ارقام للاستعمال في ارسال التلفرافات . ولم يكن معه من الامتعة سوى حقيبة يد .

أما انا فقد اخرج على دلاوار في ان لا اذهب الى القاهرة لانه كان يعرف حتى وزارة الخارجية على .

وذلك لاني لو كنت بالقاهرة لوضعت تحت مراقبة المواسيس اوروبا كانوا قبضوا على وردوي الى ايجلترافي حين اني يقاني هنا في ايجلترافي بمكني ان اولى الحملات من الصحف الآن كل في مقدورهم وحدث ان يكسب القضية لمصلحتنا . وقد تمكن باتون في تلك الليلة من عمل مهم في التيسر وذلك ان دلاوار كان قد حصل على تأكيد من جرانفيل بارت الحديو سيمنج المتهمين جميع العرص التي تمكنهم من الدفاع عن انفسهم . وكان هذا التأكيد لا قيمة له من حيث الحصول على محاكمة زهية لان جميع المحامين الذين كان يمكن المتهمين ان يستخدموم كانوا من رجال سواحل البحر المتوسط الشرقية ولم يكونوا يفضلون المحامين الوطنيين بشي . ولكن استخدام حكومتنا لمثل هؤلاء المحامين كان يرفع عنها عبء انتقال الجمهور وكانت في الوقت نفسه تستطيع ان تنفذ اغراضها وتقدم المتهمين .

وكانت النية ان تنهى محاكمة المتهمين في المحكمة المصرية في يومين فاذا ما ثبتت عليهم ادلة الثورة عوقبوا في الحال بالاعدام وفي هذه الحالة يرفض قبول المحامي الانجمايزي باعتباره اجنبيا ليس له حق التدخل

وكانت المباراة التي فاهها جرانفيل امام دلاوار لا تزيد عما يأتي : « ليس عندي ما يجعلني أشك في ان الحديو وهو صاحب السلطة الشرعية سيمنج المتهمين جميع العرص المعقولة للدفاع عن انفسهم مادام لا يؤذى هذا العمل الي تأخير غير ضروري أو غير عادي وعلى المتهمين اولا ابدقائهم ان يتخذوا ما يناسبهم من الاحتياطات تحت مسؤوليتهم

فأخذ بانون هذا التصريح وكتبه في التيمس بالشكل الآتى :

« كتب لورد جرايفيل يقول ان جميع التسهيلات المقولة ستمح للمعتقلين في مصر واصحابهم لكي يعيشوا لهم المأمن عنهم ونا. على هذا قد أرسلت تأمرات من منبر برودلى بأن يقوم في الحال ويسافر الى مصر »

وظاهر من المناقشة الشديدة التي جرت بين لورد جرايفيل ولورد ديلاوار كيف صعب جرايفيل من تفسير كلامه على هذه الصورة (انظر الكتب الزرق) ولكن سر هذا الخبر في التيمس بهذه الصورة وضع لورد جرايفيل في مركز لا يستطيع - برتد عنه وهكذا أمكننا بهذه الحيلة ان نفهم يدبه على الرغم من مرة أخرى في المسألة (١)

ومع كل ذلك كدنا فقد كل شئ. وذلك لعودة كوامن الصحابة الى القاهرة مرة أخرى . وهو ثاى اثنين (هو والحديوى) بخشان على التحقيق. وكل عرض وزيارة الخارجية في ذلك الوقت تسجيل المحاكاة والانتها. منها قبل وصول برودلى من تونس . وذلك لان تونس كانت ولا تزال غير متصلة مباشرة بمصر وكان المرحح ان تنتهي عشرة أيام قبل وصول برودلى الى مصر . ولم يكن عسدم علم «نا أرسلنا نيبيل . فاعطيت لذلك الاوامر في الحال بنقل عرابي من اعتقال الانجليز وإرساله الى سجن الحديوى حيث لا يمكن أحداً ان يزوره وفي الوقت نفسه نرفع المسئولية عن عاتق الحكومة الانجليزية . وقد عمل هذا العمل يوم ٤ أكتوبر أى قبل وصول نيبيل بيومين فقط . وحدد يوم ١٤ أكتوبر للمحاكمة فيما لم يتمكن

(١) لقد قيل لى حديثاً بان تأييد التيمس لنا في وجوب محاكمة عرابي محاكمة زينة كالنقض منه خيئاً وذلك لانها كانت ترغب ان تتحمل الحكومة المسئولية حتى ينتهي ذلك بالبطرة على مصر ولكن لم أسمع ما يشير الى هذه النية في ذلك الوقت ولا زلت أحب ان اعتقد ان الباعث على تأييدنا هو العواطف الشريفة التي هي من أفضل تقاليد جريدة التيمس وأيضاً ما عرف به شري رئيس التحرير من طيبة القلب .

برودا، من الوصول الى مصر قبل يوم ١٨ منه . ولم يعد هذه التدابير سوى ظهور نيبار الفجائي في القاهرة .

ولكي يجهلوا الدفاع شاقا ويمجلوا المحاكمة حملوا القانون المرسى هو المعمول به في المحكمة العسكرية . وهذا القانون في حكومة لانرعى لخدمة آلة قوية للأنهام . فبناء على هذا القانون يجوز استجواب المتهمين والشهود قبل أن يبرأ محامهم ويستشيروهم وبهذه الطريقة لا يستطيعون ان يقولوا شيئا خشية ان يواجهوا بما سبق ان قالوا في استجوابهم الاول . ثم ان خصيان الخديو الزوج كانوا يزورون المتهمين في الفترات التي يكونون فيها في السجن فيضربونهم ضربا لكي يلقوا الرعب في قلوبهم ويكسروا اعنهم وعزة نفوسهم . وبعد كل هذا اعلنت الحكومة المصرية ان الدفاع عن المتهمين لا يكون ألا باللغة العربية وعلى هذا صار لا يمكن ان يدافع محاموهم عنهم . وقد ارسل لي نيبار هذه الاخبار بالتلغراف

وكان كل ما فعلته الحكومة الانجليزية لمنع الخديو من التماذي فيما كان يرتكبه من المظالم وضروب العنف السافل في اشخاص هؤلاء المتهمين انها عينت اثنين من الانجليز لكي يشرفا على التحقيقات . وكان هذان الاثنان رجلين شريطين ذوي مروءة . فكان اولهما سير تشارلس ولسون الذي رافقتني في سياحتي من حلب الى ازمير ومستر اردرن بيجان الذي كنت أعرفه في دمشق وكان في هذا الوقت المقترح الرسمي عند مالت في الوكالة . وكان كلاهما يعرف العربية وقد تأثر كلاهما من وقوف عراقي وقت المحاكمة والاعتقال وكانا يعطيان نيبار ما يحتاج اليه من المساعدة

وقد نجح نيبار في ان يجعل مالت يعترف بمركره كوكيل لعراقي ورفقائه كما اعترف أيضا بمركره ايف كمحضر للدعوى . ولكن نيبار لم ينجح في ان يحصل م على وعد بأن يكون المحامي عن عراقي انجليزيا . وكان مالت سوف في اجابة طلب نيبار في رده . ولكنه أي عراقي بان يحمله على الدوام على رياض باشا وزير الداخلية في وزارة الخديو . وكان هذا فرض طلبه على الدوام . وطول هذا الوقت كانت التحقيقات تجري بسرعة فحين ليدبار انهم يمدعونه وان ستنهي التحقيقات والمحاكمة قريبا يؤد له بالدفاع عن المتهمين

ويضا كانت الاحوال في هذا المأرق إذا رسالة حادثي من دلاوار في ١٢ أكتوبر يقول فيها « اذا لم تتداحرات شديدة فان حياة عرابي في خطر . ولا بد انك قد تسلمت معلومات عن ذلك من بيبسار »

وعلى أثر هذا الخبر السيء خرجت في الحال وذهبت الى باتون ووجدته لحسن حظي في مكتبه وكل معلوماته توافق معلوماتي فقرر رأيا على أن دلجأ الى الجمهور وسأشده بخصوص محاكمة المتهمين وان يحمل على وزارة الخارجية ونحبر مسرر علاستون على اعلان خطئه . فجلست وكنت كتابا نهائيا الى مسرر علاستون عبرت فيه عن عيبي من جرائميل وعددت جميع التهم التي اتهم بها ولم اس ان اهمه علاقته بجميع تفاصيل المسألة وعطفه القديم على الزعماء الوطنيين . ولم نتظر جوابا لان باتون وضع هذا الكتاب في مكل طاهر في التيمس التي كتبت مقالا افتتاحيا تعليقا عليه وذلك كله انما كان يسحا . شيرى رئيس التحرير وعطفه على مساعيا . وكان باتون قد عرف ان المحاكمة ستندى . يوم الاحد وان الحكم سينطق به يوم الاثنين وينبع ذلك اعدام عرابي مباشرة . وكان اليوم وقتئذ الجمعة فكان لا يزال امامنا ثلاثة أيام (وكان احدها الاحد ولا تصدر فيه الصحف) لا يقاطر رأي العام . وكانت هذه الايام القليلة كافية لحسن حفظنا لذلك

واظن ان هذا الوقت هو الفرصة التي انتهزها برابط وذلك عندما قرأ كتابي الى التيمس فذهب الى علاستون واخبره بأنه سيعد في التاريخ جاحداً للمبادئ . الانسانية اذا هو سمح بارتكاب هذه الخيانة العظيمة . وسواء أصبح هذا ام لم يصح فان وزارة الخارجية سلمت به وافقت بصوررة المحاكمة البرهة وكنت الى ماتت بان لا يضر علي وجود المحامين عن عرابي . والتلغراف التالي الذي ارسله لي بيبسار يدل على نجاحنا « أرسل جرائميل الى ماليت يشير عليه بان بدافع عن عرابي محام انجليزى . والمنظر أن الاجراءات مستطول »

وقد رأيت أنه من الضروري أن أذكر تفاصيل المصاعب الاولى التي اعترضتنا في سبيل محاكمة عرابي لأنني لا يمكنني بدون ذلك أن أنحو أثر تلك الاسطورة التي راحت في مصر وحلاصها أنه كان هناك اتفاق سرى بين عرابي

وعلاستون بأنه لن يعدم . وفي استنطاعي ان اثبت بالوثائق التي تحت يدي ان
علاستون لم يكن يطر الى المتهمين روح الأفة — دعك الاتفاق معهم — بل
بالعكس كان يجارى حراويل في السبي في اعدام عراقي بواسطة الحديو وذلك بإيجاد
محكمة نحاكة محاكمة صورية لكي يبرروا عطلاتهم وتورطهم في السنة الاشر الماضية
في مصر . ولم يكن وخر الصير هو القدي مع غلاستون من السير في خطته الى
النهاية بل أن صوت الجمهور الانجليزى هو الذى أخافه وألغى بالخطر الذى يهدد
شهرته اذا هو مصي في طريقه الى آخرها . وهذه هي الحقيقة التي أراد أصدقاء
علاستون أن يبرروها حطاً لسمعة . ولا عبرة أيضاً بما قوله الكتاب الفرنسيون
من التجاء علاستون الى الرفق بعد العنف من حراء ما طوه من وحود علاقة خفية
بين غلاستون وعراقي .

ولما انتهى دور الخطر هذا لم يكن من الصعب أن يتنبأ الانسان بأن تنفيع
المحاكمة ستكون سليمة . فان المحاكمة البرية في محكمة علنية ووجود محام انجليزى يش
معرفته أقدار الحديو ويكشف عن الخرائم الخبيثة — كل هذا لم يكن مما يفكر
فيه الحديو الا وهو يرتحم خوفاً . ثم أن التحقيق العلني هذا كان من شأنه أن يفسد
على الحكومة الانجليزية تدابيرها وبعد نظريتها عن الحوادث الماضية التي بت
عليها معاذيرها لانتقاد خطة العنف . ثم أن السلطان كان في حاجة الى عدم افشاء
أسراره . ولم يكن الخوف على حياة المتهمين قد زال ولكن الامل كان كبيراً في
الوصول الى تسوية اذا لم يمكن الحصول على البراءة . وقد ظهر التغيير في الحالة في
القاهرة منذ ١٦ الحادى كما تدل على ذلك التلغرافات التالية . وسأقص بقية قصة
المحاكمة كما وصلتني في التلغرافات والكتب :

من فييار الى بلنت في ٢٠ أكتوبر

« يظن ان الحكومة المصرية ستجنهد في الفاء المحاكمة وان الرؤساء والزعماء
من المتهمين سيطلب اليهم مبارحة البلاد فقط . وليس عندي من المعلومات ما يمكنني
من الحكم في قيمة هذا الخبر ولكنى أعلن انه غير مرجح »

وهالك تلغراف آخر ارسله الى برودلى وكل قد وصل في يوم ٢٠ أكتوبر الى القاهرة

« أعلن بوردي بك النائب العمومي في الحكومة المصرية انه ليس للحكومة قانون أو اجراءات تتبعها ولكنه اقترح علينا ان نتفق على الاحراءات . وصرح لنا أيضاً بان أعضاء المحكمة اغفل لا يهتمون . وهو يرجو ان لا أسس السلطان والحديد الا بكل ما يمكن من اللطف والرفق »

من نيبيل الى بلانت في ٢٠ أكتوبر

« أعلن انه بمكسبا الآن ان تقدم للدفاع دون ان محشي شيئاً . ان الاذن بالمحاكمة لا يقل قيمة عن عرش الحديد منه »

وكلن الخطر الذي يواجهنا هو رغبة وزارة الخارجية ان تتوصل بجميع الوسائل لانهاام عراقي بتهمة ما يقتضي اعدامه . فقد كتب الى شيرى يوم ٢٠ أكتوبر يقول : « بين العظماء هنا شعور شديد ضد عراقي وذلك لما يزعمونه من انه كلن له يدي مذبحة الاسكندرية او انه اعصى عن المصريين فيها »

ولكن هذا الخطر لم يظهر شديداً في القاهرة وكلت في الحقيقة ابعداً يمكن ان يوجه الاتهام نحو عراقي . لان الحائى الحقيقى في مذبحة الاسكندرية هو الحديد وليس في التحقيقات ما هو جدير بلفت النظر اكثر من تحوط الاتهام ونجسه السؤال عن هذا الموضوع ثم عدم ظهور أى بيعة ثبت تهمة احداث المذبحة على أى شخص ومع ذلك كانت هذه المسألة ذات اهمية كبرى في اعتبار حكومتنا من حيث وجوب القاء النبعة على عراقي نفسه . لان هذه المذبحة هي الاساس الذي بنت عليه حكومتنا خطة التدخل عنوة والقتال وبدون هذا الاساس نسقط الحجة الادبية للتدخل

ويمكن ان يقال هذا أيضاً عن سو . استعمال الراية البيضاء وقت اخلاء حصون الاسكندرية . وهذه مسألة كلن غلادستون نفسه لا يفتأ يكررها مع ان رفع الراية البيضاء من الامور المسموح هافى الحروب . فهاتان التهمتان أى مذبحة الاسكندرية ورفع الراية البيضاء وقت التفتقر كانتا من امم ما يمكن اتهام عراقي به تذرعا الى الحكم عليه بالاعدام لان الجمهور الانجليزى لم يكن يعابا بالتهمة السياسية ولا يرضى بان تكون سبباً للحكم بالاعدام

وفي أثناء ذلك كانت الاحوال تجري على ما رآه في القاهرة وفي ٢٢ من اكتوبر

ونيبيران بدخلا الى عرفة عراي وعرفاهما اخبرهم به كية نية دفاع قوى عه. وكان موقف عراي وهو في الحبس معلوماً بالوقر لانه مها قيل عن شجاعته المادية كل على مبلغ كبير من الشجاعة الادبية . وكانت هيته وسلوكه لذلك عند مقابلتها بلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر . فقد كتب دون ان يتردد تاريخ المسائل السياسية التي اشترك فيها باجمها وكانت روايته صريحة مقنعة . ولم تكن صراحة دون ذلك أيضاً عدد ماروى ضروب الاساءات التي عامل بها اولئك الاوغاد السفلة خصيان الخديو توفيق عندما قتلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه في هذا السجن

فقد كان مولاهم الخدير برسلم في الليل فيضربونه وبشتمونه هو ورقاهه. ولكن رقاهه لم يصرحوا لما فيهم من قصص الشجاعة الادبية بما نالهم من الجرائم التي انتمت فيها يد ذلك الظالم الحسان الذي صار رئيسهم الآن . فليس هناك اسوأ ولا ادعى الى الاسف من موقف الحبس والذلة الذي وقعه المهبون مازا الخديو القى كانوا يكرهوه ويحتفرونه منذ شهر فقط . ولكن من الحوادث المهمة استعراج اوراق عراي التي كان محبوسة في بيته والتي اخبر هو برودلى بها لاحصارها . وقد كان من الصعب حد اقتناع روحه واسها وهما مروغان بضرورة البحث عن هذه الاوراق وتسليمها للمحاميين عه وسب ذلك ان خدم الخديو كانوا قد زاورها أيضاً . وأخيراً احضر محمد سيد احمد خادم عراي هذه الاوراق وسلمها الى برودلى . ولكن لهذه الاوراق أهمية كبرى لانه وجد بينها كتيماً من السلطان ومن غيره لعراي . وقد أدى خبر وجود هذه الاوراق الى القاء الرعب والفرع بين أهل السراى وصار احتمال ترك الهاكة أمراً مرجحاً

فقد كتب الى نيبيران في ١٣٠ أكتوبر يقول : « اعتقد اننا قد ملكنا ناصية الحال الآن وان الخديو وعصيته يودون لو يستطيعون الخروج من المأزق الآن بترك الهاكة في اقرب وقت . وقد تمكنا بواسطة امانة خادم عراي وولا. زوجته من الحصول على جميع اوراقه لمعدا واحدة فقط . والاوراق محفوظة الآن في خزانة حديدية في عرفة بيان في القسيلة ... ولن نستطيع الحكومة مواجهه دفاعنا وسيتقروحت عليها

من نسوبة كالنقي مع عدم مصاحرة الاملاك . وماذا يمكننا ان نعمل اكثر من ذلك
ناظرين ان هذه مسألة ستدرسها قريباً »

ويجب ان نلاحظ ههنا ان التغير الذي اصاب الحالة السياسية في القاهرة قد وجد
صدى في لندن بين الصحف . فقد كانت القاهرة حافلة بمكاتبي الصحف وكل
رودلى من مهرة الفن الصحافي فلم يمحض عليه قليل زمن حتى جعلهم في صعه . وكان
كرمه (على حساني) كرم اسراف وبذخ فلم يكن يصن بالدجاج والشمانيا . اما مالت
وكولفن اللذان كانا يتفوقان في الزمن السابق فانهما لم يقدرتا على صالتيار الآت
وصارت الاسرار تفضى وتهدم النظرية التي سوهاا للتدخل بان عرافي وحيشه هما
وحدهما فقط اللذان كانا يمارضان في المطالبات الانقلابية وان الحركة الوطنية لم تكن
عامة . وكان مقام كولفن قد نزعزع في وزارة الخارجية وصار يعتبر كانه مصلل اما
مالت فقد ثبت عدم كفايته تمام الثبوت : وهاج محاحنا هداورد حراميل ولما رأى
ان الحالة في مصر تسير الى ارتباك لا يرجى له نظام احال المسألة جميعها الى لورد دوفرين
لسكي يصل الى نسوبة ما وكان هذا العمل افضل ما عمل . وقد أخبرني ماتون عن
هذه الحركة الجديدة وان أول اعمال دوفرين عند وصوله الى القاهرة سيكون ايجاد
نسوبة في المحاكاة . وقد ارسلت في ذلك الوقت كتابا إلى برودلي بالنسبة إلى هذا
الموقف الجديد وهو جدير باثباته هنا :

من بلنت إلى برودلي في ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

ارغب في أن ابين لك مرة اخرى امكسوى وآمالى في قيامى بامر الدفاع عن
مرابى وعن رفقائه لانه اذا تحققت هذه الامال فاني اجد فيها ما يبعينى عما افقته
ن الاموال بل اجد فيها اكثر من ذلك . فدهي ان الغرض الاصلى من الدفاع
كلن تخليص حياة المتهمين واطن انا قد حصلنا على هذه النتيجه وذلك لان حالة
لأرى العالم الانجليزى وعدم نجاحهم في التاء . نعمة فتة يونيو وحريق الاسكندرية
على عرافي يرجعان ذلك

وليس باقيا في البنات ما يمكن ان يصح حياة المتهمين في خطر . وسند وصولك
الى القاهرة وبما اطهرته من البراعة وما اصبحت من التوفيق قد صرنا بعد انفسنا الآن

سعداء. فأوراق عراى دلا من ان تكون في وزارة الخارجية قد صارت الآن في يده وانت الآن تخبرني بأن دفاعا سيكون وجها اد قد حصلنا على مركز تستطيع منه ان نحلى شروطنا على الخصم وعلى هذا لن تقع نافل من البراءة الشريفة اونترك المحاكمة وترك المحاكمة هو المرحح الآن فقد أمر لورد دوفرين بالسفر الى مصر وأخذ رئيس الوزارة اس في شخص الحالة وهل يمكن عمله نسوية . واسمع انه سيقدم مقترحا بشأن الوصول الى اتفاق مانجنا لفصائح التي تنتج عن افشاء الاسرار

فليس يتوقف علينا تخليص حياة عراى فقط بل شرفه وحرسته وأيضا حرية المساحين السياسيين المهين معه

« واعتقد ان لورد دوفرين سيجهد غاية جهده في ان يجعل عراى يرضي بالنفي في جزائر اندمان او في مكان آخر في الامبراطورية الانجليزية حيث يبقى سجيناً يعامل بالرفق ولكن لا يؤذن له في التجول . وأظن أيضا انه سيجاول الحصول على أوراقه . ولكن يجب الا يتجح لورد دوفرين في هذين المسعين ويجب ان تردوا عليه كل مقترحاته التي من هذا النوع وتقالوها بالرفض . فليس من واجبتنا ان نلخر للخديو او للسلطان شرفه او ان نخلص لورد دوفرين من المآزق التي يجوزها . وأنى سأعتبر فشلنا عظيماً جداً اذا لم نحصل على اكثر من ذلك . ثم اظن انه يجب على عراى ان يطلب أولا ان يحاكم محاكمة نزهة لكي لا يجرح شرفه ولكي يثبت أيضا براءة جميع الذين اشتغلوا في صفة مدة الحرب وم جميع افراد الامة . والا فاذا لم تكن النية محاكته فيجب سحب جميع التهم التي اتهم بها . ويجب ان يصد عفو عام وان وان لاتأخذ منه اوراقه وان كان يمكن الاتفاق معه على عدم نشرها مدة معينة من السنين . ولا يمكن في الظروف الحاضرة ان نعارض كل المعارضة في النفي لانه لا يمكن ان يقال عندئذ ان في قدرة الخديو نفيه بواسطة قرار . وهذا العمل من مصلحتنا لان دستور سنة ١٨٨٢ يمنع الخديو من استعمال هذا الحق . ويجب هنا ان نشر هذا الدستور وثيقة كبيرة الالهية لان السلطان قد اقره بعد ان منعه الخديو . ومع ذلك يجب ان نرفض السجن فقد يستطيع السلطان نفيه من السلطنة الصبانية ولكن ليس لاحدهم الحق في تعيين المكان الذي ينفي اليه

وتم لا يمكن الحكومة الانجليزية بعد ان سلمت عراقي للخيديوي لكي يحاكمه
تأخذه ثانياً وتعامله معاملة المحرم وهو لم يحاكم بعد . وقد ادركت الحكومة الانجليزية
ضحاوايت ان تأخذ عراقي ثانياً ، فديهي ادن انه اذا لم يحاكم ويحكم عليه بحرمانه
يجب ان يخرج من مصر وهو حر . ثم لا يمكن شرعاً ان يحرم من رتته ومن
نه . ولكني اعتقد انه سيرضي بان يرح البلاد برتبته الحربية وبشيء من المال
يوم بنفقه ويرد عنه الناقه حتي لا يحتاج الى ان يكسح يديه لكي يعيش . وهذه
شروط تحفظ كرامة عراقي فيمكننا ان نلج في الحصول عليها والافعلينا ان ندخل
في معمة الدفاع ومحامه بكل قوانا واعتقد انك لن تصني الى أي مقترح بخصوص
محامه صورية لا يلس فيها الخديو الا بكل لطف ورفق كما قال بورلي . فأما أن
عشر جميع الحقائق الصحيحة واما ان تسحب جميع التهم . واني أثق بانك ستعاويسي
في الحصول على هذه النتيجة دون ان تعتبر ما عسى احساسات القناصل والسفراء
والولاة . هؤلاء ، جميعهم لا قية لهم عندنا وانما يهنا حداً لاهمية شرف عراقي .
ولست أشك في أن مهارتك السياسية لاتقل عن مهارة دوفرين وقد استطعت ان
تجعل مالت يفعل ما شئت وستجعل دوفرين أيضاً يفعل ما ترغب . فاذا نجحت في
ذلك فاننا لن نتناقص عن « انقاب » الدعوى وطبي هذا كتاب مقدمة الى
لورد « دوفرين »

أما الكتاب التالي فهو من متر بيان مترجم مالت الرسمي وهو شاهد لا يمكن
انتقاص شهادته أو تجربتها ولذلك هي ذات قيمة تاريخية كبرى . وقد كان بيان
يدبر الوكالة البريطانية في القاهرة في بضعة الاسابيع التي سبقت ضرب الاسكندرية
ولما كان يجيد معرفة اللغة العربية كل ذلك واقفاً على حالة البلاد الحقيقية اكثر
من أي أحد آخر . وقبل أن يرسل لي هذا الكتاب كان قد عين لان يراقب التحقيق
بالتباية عن مالت وهذا هو الكتاب :

من بيان الى بلنت في ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٢

« . . اليوم آخر الايام قبل التأجيل . . ورجال قصر الخديو هما في نهيج
وارتباك بشأن مجي ، دوفرين . وهو سيصل هنا عدا . وقد كلن قدوم برودلي شديد

الالم عليهم اما قدوم لورد دوغريس هو الطامة الكبرى . واني اعتقد ان دوغريس
سيعرف في الحال حقيقة صاحبا توفيق والقول انه سيصفي الى كل من يتقدم اليه
قول ما . وعلى ذلك ستكون سمارته المؤقتة على معرفة بالحقائق أكثر من الوكالة
الداعية . وقد كنت أختلط بالاهالي قبل ضرب الاسكندرية ولذلك عرفت وجهة
النظر الانجليزية والتركية والعراية والتوفيقية . وجميعها يختلف بعضها عن البعض
الآخر . ولما لم يكن أحد يثق بما أقول احتفظت بمعلوماتي لنفسي وللكي قدمت
بعض الملحوظات لانميدة اسير نشارلس ولسون وهو الآن أكبر من عيهم
الموقف المصري من الرجال الرمحيين وهو رجل شديد الحذر له نصيب كبير من
المهارة وصحة الحكم ونواسطته تمكنت من ابصال بعض الحقائق الى مانت ولولاه
لأنخبرت مانت نسعي عن هذه الحقائق . وأطلى الآن ان مانت لم يبعد يحترم
الحديد أو يرى له أقل كرامة . وطول مدة الاحراءات كان يسلط معنا سلوك الراحة
الافيا بمس مصاحته . . وانت تعرف مقدار ارتباطه بالحديد فهو الآن يذوق الكائن
المرة ويرى الصنم الذي كان يعبدته يتهدم امامه كأنه بيت من ورق . .

وأظن أن أعمال ابراهيم اذا وحده تدل على طبيعة الحديد . فقد سمعت الحكاية
رأساً من القصر وكيف ان التيتونجي (أو حامل عليون الحديد) قد قبل يد الحديد
وطلب أن يأذن له أن يصبق في وجوه المساجين وقد بحث سير نشارلس ولسون
عن هذه القصة فوجدوها صحيحة بأكلها . ومع ذلك ولكون هذه القصة تمس الحديد
وتظهر للبلاد قدراته قد اتفقوا على ان يتركوها . وقد اقترحت عند ماحلف الشهود
زورا أن يطلب منهم القسم بالطلاق ثلاثا وكاد سير نشارلس ولسون يوافقني على
مقترحي ولكن انتهت المسألة بالاهمال والتروك

« واسرة ممومة لا تنكر الان هذه الاعمال . فهذا اذن هو الرجل الذي جئت
الى مصر لحايته (١) »

(١) لقد شهد الشيخ محمد عده بان حصيان الحديدوى قد دهبوا الى رعمه
الوطيين في السجن وصر يوم واهاموم . وكان الشح محمد عده معه أحد حولا-
المساجين وقد وقت به الاهانة مثل غيره .

« واداً لم يكن مركزي عنى من ان اوج لهرودى بما أعرفه عن الحديوى
ادن لاجبرته باشياء لو قيلت فى التحقيق السكأن فيها طرد الحديوى من القد ومع
ذلك فاني ارجو ان تنشى هذه الاسرار . واول رجل يحب التخلص منه هو رياض
فانه يمثل فى مصر دور اليس . وقد قال مند ايام : « ان المصريين ثعابين والطريقة
الوحيدة لمنع تنشى الثعابين هو سحقها بالاقدام . وسأسحق انا المصريين وهو
يسحقهم بالفعل الآن »

وهذا الخطاب يصف حالة القاهرة فى الاسبوع الاول من شهر نوفمبر أى وقت
وصول بعثة دوفرين . وكلن من حطنا الحس فى ذلك الوقت ان البرلمان كان مفعدا .
فقد انضم اليها من اعضاء البرلمان عدد من دوى القدرة على الكفاح مثل تشرشل
وولف وغوردست ولوسون ولاجوشير وروبرت بورلا ولورد مائرر وايلى ولورد ويمس
وعصوان أو ثلاثة من الارلنديين وكلن برسى ويندهام هو العضو المحافظ الوحيد
الذى انضم الى الاقلية التى كانت مؤلفة من ٢١ عضواً لغاومة الحرب

الفصل الثامن عشر

بعثة دوفرين

لما وصل لورد دوفرين الى القاهرة فى ٦ نوفمبر اتخذت الاحوال شكلا جديداً .
فقد كان رياض باشا وسائر وزراء الحديوى يفعلون ما يشاءون ولم يكن عليهم من الرقابة
سوى رقابة مالت الضعيفة . اما دوفرين فكل من عنصر آخر ولم يمض عليه طويل
وقت حتى اظهر للحديوى ان مركزه بالنسبة اليه ليس مركز مستشار بل مركز سيد
يطاع . ولم يمر اقوال الحديوى التفاتاً كبيراً وكذلك لم يلتفت الى روايات مالت بل
فتح ابواب السفارة لكل واحد يستطيع ان يزوده بمعلومات عن الحالة . وقد تمكن
ما كيزي وولاس فى بضعة ايام من الوقوف على حوادث مصر مدة السنتين الماضيتين
ووضع كتنا عن هذه الحوادث هو اصدق ما رأيته من حيث صحة الروايات .
وكلن ما كيزي وولاس هذا معاين لورد دوفرين وكلن لورد دوفرين على الرغم
من كله يشط عند الزوم ويعرف كيف يتوصل الى معرفة ما يحتاج اليه

قد معي اسبوعا بعد وصول دورين ومحاكمة عرابي مستمرة وكانت تسيطر على هذه المحاكمة رعية الحديو في احما، الحقائق وشعفه بأن لا تفلت الفريسة من يده. وخير ما يدل القارى. على الحالة هو تلك الخطابات والتلغرافات التي كان يرسلها الى كل يوم كل من برودي ونيبيار ونيبين للقارى. منها كيفية التدرج الى التسوية النهائية من برودي الى بلنت في ٦ نوفمبر

« اوافقك على جميع ما قلته وسأستغل بكل نبره . وانا الان هي . اركان الدفاع وهي تنحصر فيما يأتي :

- ١ - طهارة اغراض عرابي وشرفها
- ٢ - اتفاقه التام مع توفيق لقاية ١٢ يوليو
- ٣ - اتفاقه مع السلطان في جميع الاوقات
- ٤ - كون الحركة الوطنية كانت عمومية
- ٥ - كون تأليف المحكمة العسكرية غير شرعي
- ٦ - سخافة دعوى دفع الزاية البيضاء.
- ٧ - مروءة عرابي وتطرفه في انسانيته
- ٨ - الظلم الفاضح في جميع ما عمل قبل وصولنا
- ٩ - تعذيب المساجين
- ١٠ - الخطابات التي ارسلها توفيق ضد اجملترا
- ١١ - اكاذيب صحيفة المونيتور

« وسأطلب اخلاء سبيل جميع المسجونين . ولا تدفع مضمون هذا الخطاب . وكل ما أخشاه هو عظم الثقة التي نحتاج اليها مدة دفاعا فقد تستغرق ثمانية او تسعة اشهر . فسد عرابي وحده ٤٠٠ شاهد . . . وانا اصرف هنا بسخاء . فاني اولم الولاثم لمكانتي الصحف وتمكنت من جعل الاجيشيان غازيت لسان حالنا وجعلت الرأي العام هنا يميل الى عرابي . وعندما الان نحو ١٢ مترجما تراوح مرتبائهم من جيبه الى جيبين ونصف حنيه في الاسبوع . . . وغيايبي عن تونس هو بمثابة ضدان كل شي . هنالك . فقد ركزت جميع القضايا التي كانت بمكتبي ولكن بعضها

في غاية الاهمية . ويمكن يورك أن يخبرك بان عندى موظفين احدهما يتناول ٢٥٠ حينها والآخر يتناول مائة حبة في العام .. فأرحوك ان تعتبر كل هذا ... وكل ما اقله الآن ان نحاح علما ما يتوقف على الاتفاق مسخا . ان لم يكن بتقدير . ثم اذ كر ان كل اسنان هنا ضديا والناس ههنا لا يشتغلون الا بأجر ... فاجمعوا تبرعات باسم عرابي .. ولا ننس محاكمة نشبورن التي دامت تسعة اشهر . فقد تكون الحلال هنا كذلك .. واعود فأقول ان كل شيء يتوقف على ما نفقه . فلا نفتكر بشئ وانما أذكر العقبات .. واما اشتغل ١٦ ساعة في اليوم ... ولا يمكن بتقدير خدمة بيبار »

من فيبار الى بلنت في ٦ نوفمبر

« يظهر انك مرتاب في جدول التهم التي اتهم بها عرابي . فهو الآن لم يرسل البنا بطريقة رسمية ولم يقدم اليها حتي تم شهادة الشهود ولكن حلالة التهم هي كما ذكرتها التيس في احدي تلغرافاتها :

١ — سوء استعمال الراية البيضاء .

٢ — الاشتراك في مذابح الاسكندرية ونهبها في ١٩ يونيو

٣ — الاشتراك في إحراق المدينة بالنار

٤ — اثارة الحرب في ارض السلطان

٥ — التمرد على الخديو وعلى السلطان »

من برودي الى بلنت في ٧ نوفمبر

« اذا لم تكن نخشى النفقات فالتحاج مؤكد ... أنظر خطابي المرسل

لك امس .

« والمساءلة الوحيدة هي هل يفرج عن المعتقلين بدون محاكمة أو هل يتاح لهم ذلك بالدفاع عن أنفسهم . وانا مقتنع بأن الحكومة هنا تسعى لوقف التحقيق لان الحقائق التي ستظهر عند الاستعواب ستوقم جميع الموظفين الكبراء الموجودين الآن في الحكومة في خطر وتفشى أيضا أسرارنا نشين الخديو . وقد نرضى حكومتنا الاتفاق مع عرابي لهذا السبب الاحير لانها نخشى ان تظهر المحاكمة اننا قد عأنا الحيوش

وأحضرناها الى مصر وغزونا البلاد وقتلنا الوطنيين دفاعا عن اسفل اسان فيها .
وانا شخصياً ليس عندى شك فى ان الحديو وعمر لطفى هما اللذان درامذجة
الاسكندرية وذلك لسكى يقضيا على نفوذ عراي ومكانته اذ كان قد تحمل مسئولية
الامن العام . وفي يدى وثائق تؤدى الى نصف الطريق فى اثبات ذلك ولكن لم
يأت الوقت بعد لاعلانها »

من برودلى الى بلنت فى ١٨ منه (بالتلغراف)
« أعتقد انا منحصل على احسن تسوية . ولا نحمل على وراثة الخارجية .
اكنم هذا السـ »

من برودلى الى بلنت فى ٢٠ نوفمبر (بالتلغراف)
« لندن تناوض دوفرين . رغبة الحكومة المصرية فى التسوية قد قلت بالنسبة
لما نتقدمه من تقرير الرأى العام نحو عراي « شهادة سليمان سامي بأنه أحرق
الاسكندرية . وهي شهادة مزورة »

من برودلى الى بلنت فى ٢١ نوفمبر
« نتحدث قريباً أزمة شديدة . وأصدقاء الحكومة المصرية يؤكدون النية على
شنق عراي . ابق فى لندن »

من برودلى الى بلنت فى ٢١ نوفمبر
« لست أستطيع أن أصف لك مبلغ السفالة فى ملك الحكومة المصرية .
فعلي لا تعتبر قواعد اجراءات المحكمة ورجالها يقولون انهم لا يبالون شي . لانهم
يتفاضون بالطرق السياسية لشنق عراي »
من نييلر الى بلنت فى ٢١ نوفمبر

« نحن نكفح جميع قوات الحكومة المصرية وليس من يساعدنا . ولكنى
اعتقد أن لورد دوفرين سيأتى وبمخلصنا فى النهاية . ان الحكومة تنوى ان قتل
هؤلاء المعتقلين ظلماً وعدواناً ونحن نجد ليل نهار لسكى نحبط مساعيهم . وولسون
ودفرين يساعدانا ولكن الحكومة المصرية سريعة بقطعة ولا ذمة لرجالها . أما نحن
فبالضرورة نسير ببطء . وحذر »

من برودلي الى بلنت في ٢٦ نوفمبر
« تقترح الحكومة المصرية محاكمة عرابي على حدة . أرسل لنا رأيك بالتفراف »

من برودلي الى بلنت في ٢٧ نوفمبر (بالتفراف)
« أرسلنا لك خطابات لبیان الحالة . عندى ما يجعلني أعتقد ان الحكومة ترضي نفي عرابي ومحمود سامي وطلبة الى مدينة السكك أو أى مكان آخر اذا اعترفوا بنهضة الثورة وبالاتمرار على الحرب ضد أوامر الحديو ونحسبكم على الباقيين بالفى الديسب أو العمو . أرحوك أن لا نبوح بشي . من هذا . وأنا ونيييار موافقان على هذه التسوية وذلك للصعوبة القائمة في سبيلنا في نفي نهضة الاحراق الخ »

من بلنت الى برودلي في ٢٨ م
« لا أوافق على الشروط التي ذكرتموها . لا أوافق مطلقا على النفي في الكلب . سأستشير بعض أصدقائي عن المال . ومركزنا السياسي قوي جدا . وسأرسل الرد الهائي بعد »

من برودلي الى بلنت . خطاب مؤرخ في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢
(خصوصى ويجب عليه الرد بسرعة)

عزيزى بلنت

« أوجومك ان نستعمل تبصرك وهدو . نظرك وحكمتك في موضوع هذا الخطاب . لقد تحدثت اليوم مع دوغرين حديثاً طويلاً وهو يتكلم معنا بلهجة الصداقة وأملنا الآن ملف القضية . وليس يواجهنا من الصعوبات سوى مسألة احراق الاسكندرية . وليس هناك ما يبرهن على ان عرابي قد أمر بالاحراق . ولكن يبقى بعد ذلك حقائق كريمة . مثال ذلك انه لم يأمر بإطفاء النار ووقف التهب ثم صداقه الحية مع سليمان سامي بعد ذلك ثم عدم معاقبته المجرمين ثم شرائه البترول بكيات كبيرة ثم الكيفية المنظمة التي اتبعها الحنود في احراق المدينة

« هذه هي الصعوبة . فهل لم يكن في وسع عرابي وقف الحريق ؟ ثم ان خطبه السابقة فيها لهجة النار وتكاد نوحم بالدعوة الى الاحراق

« واذا أقرعنا ببعض التهم الرسمية كأن يعترف مثلاً ببعثياته أو أمر الخديو
عند ما أشار عليه بالسك عن الحرب فإنه عندئذ يسي
« وعندئذ يكون المني مدينة السك مع التساهل السك . وأظن أني أقدر
أن أحصل له هو وسامي وطله على هذه الشروط
أما الآخرون فأنني الديس أو المعو . وأظن أني أقدر على أن أحصل له على
مرتب بعد استعفاء أمواله مع عدم تجريده من رتبته » واذا لم رض نحن بهذا فإن
الحكمة ستطول وقد يتغير الرأي العام . فريد علينا النفقات ولا نفس مع كل ذلك
همة احراق الاسكندرية

« واذا افشيت شيئاً من هذه الاسرار فإنك تؤذينا أكبر اذى . فتأمل في كل
هذه المسائل واذكر مسئوليتنا العظمي الخطيرة . ودورس يتودد الينا . ارحوك
اذا وافقت على مقترحاتي ان ترسل لي بالتلغراف كلمة « سلام » واذا لم توافق
وكنت ترغب ان نستر في الدفاع مارسل لي كلمة « حرب » وانا مستعد ان ارفع
كفاح الرجال الى النهاية المرة . ولكني اعرض عليك كل شيء فتأمل وتدبر
واذكر الطوارئ .
صديقك المخلص

بردولى

من نيبيار الى بلنت في ٢٧ نوفمبر

عزيزى بلنت

ان بما يوسف له جد الاسف ان مصلحة البريد قد وقعت على مكاتبنا فقد
فتحوا خطابك الاخير المسجل الذى ارسلته الى وتسلمته انا يوم الجمعة الماضي .
وكان الخطاب جدول التهم التى قدمها لنا بوردلى وملحوظة صغيرة منك . ولا اظن
انه سرق من الخطاب شيء . وسأرسل هذا الخطاب الى ه. هاسكويث فى قاعة
الحامين «مبل بار» فى لندن وذلك حتى لا يتنبهوا اليه ويتحوه . وقد احتججت فى
الحال والسكى لا اعتقد أنهم سيكفون عن التحسس . ثم اني آسف ايضاً لأنى لا احتفظ
بنسخ من الخطابات التى ارسلها لك لى اراجعها . فلا تدعش اذن اذا وجدت
تكراراً في اقوالى . ولست أقدر على اخبارك بجميع المكيد التى يصوبونها لنا لاجلها

على الجلود . ويظهر لي ان الخطاب قد فتح من فوق الختم ثم الصق بالصمغ ثانياً .
ولكن هذا العمل متقناً ولولا ان الصمغ لم يكن قد جف تماماً لما كشفت هذه القطعة
عما فتحته انفتح من مكان الصمغ وارسل لك رقعة عن البريد الراسي فلا تدهش
تأخر هذا الخطاب

« وقد اشتغلنا بمجد مد ارسال البريد ولكن لم يجد شيء . منذ ذلك الوقت
سوى انه قد أذن لنا بالدفاع عن محمود سامي وقد جلسنا معه عدة جلسات . أما
« طلبه » فريض ومرضه ناشئ . في الاغلب من التهييج العصبي وهو يشكو من علة
الربو ولا أعرف هل يموت ام لا واسكني على أي حال قد اجتهدت لاحصل له
على المعونة الطبية وجعلته ينقل من عرقته وأحصرت له حادما وسريرا

« ان الينبات عن حريق الاسكندرية لم نرسل البنا وانما علمنا بها من الاجشيان
جلزيت وهذه الينبات قد تكون صحيحة وقد لا تكون . وهي ليست قوية ولكن
فيها ما يكفي لان يصعب المهمة بصعوبة الحقيقة . فمن المهم جداً أن نبحث عن طريق
أخرى للخروج من هذه الصعوبة وإيجاد حل آخر غير الحل الذي نتظره من المحكمة
العسكرية . ولست أشك في قدرتنا على تصيد هذه الينبات بل سحقها سحقاً وقت
الاستجواب في المحكمة . وبمكنتنا أيضاً أن نوجع الاحكام عن مذبحه ١١ يونيو ولكن
لراجع العليا نعتقد انه ان ثبت احدي هاتين التهمتين على عرابي فيحكم عليه
بالشنق . فلنفرض ان المحكمة حكمت على عرابي بالاعدام فليس هناك سوى الحكومة
الانجليزية لالغاء هذا الحكم . واني أعتقد ان من الخطر ان تترك للحكومة الانجليزية
لخص الينبات ومعرفة الطرق التي حصلوا بها عليها . اذ من المحتمل ان ورارة الخارجية
تتظر نظرة عاجلة وقد تترك عرابي في يده المحكمة وتصرح بأنه قد عمل كل شيء .
لضمان نزاهة المحاكمة وانها لا يمكنها التدخل لقلب الحكم بعد اذ منح الدفاع جميع
الفرص اللازمة ليشرح موقفه . ثم ان من المرجح انهم سيحكمون بحكم ما على عرابي
وأى حكم تنطق به المحكمة ها يكون كبير الخطر عليه وعلى سائر المعتقلين .

« والآن أرى بعد التأمل والاعتبار انه يجب على المعتقلين الا يأمنوا جانب
المحكمة اذا وجدوا للحلاص طريقة أخرى . فاداً عرضوا عليها شروطاً مقبولة لثني مع

صيان المعيشة فيجب الا نرفضها . والخلاصة انه اذا قر قرار المحكمة على ان عرابي مجرم فمن المؤكد الحكم عليه بالاعدام . واذا برى . فيبقى بدون ما يضمن له معاشه في منفى . وعندى ما يمتنى على اعتقاد ان هذه التسوية مقبولة عند الجميع ماعدا رياض اما دوفرين فوافق عليها

« متظر ردك اسكى أقف على رأيك واقبل نحيات المخلص لك »

« نيبار »

« حاشية — من جهة القضية كل شيء يسير على ما برام . فقد عاجلناها من الجهة القانونية ومن جهة الحقائق ومن جهة سفالة الاجراءات . ولكن هناك الاخطاء والاعتبارات التي أشرت اليها . وقد ناقش برودلى جميع الادعاءات في المحكمة ولدى دوفرين بكل قدرة وحكمة وحكمة . والعمل في صفنا ولكن الحكم لن يصدر من المحكمة وانما سيصدر من مجلس الوزراء . ومن المحال ان ننكر قيمة الاشاعات وليس لدينا من الوسائل ما يمكننا من تحييدها »

من برودلى ونيبار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر (بالتلغراف)

« نتحدثنا ماويلا مع دوفرين . فترجوك أن تأذن لنا بالاتفاق على امثل الشروط والتأخير يقضي على كل شيء . ولا يمكن الثقة بمعونة وزارة الخارجية . ودوفرين يميل الى الخروج تعليماته لكي يساعدنا وهو الآن مسيطر على الحكومة المصرية . ودفعنا عن مهمة حريق الاسكندرية غير متعم ومن هنا القلق فالتنهر الفرص الراحة . ومساعدة دوفرين ضرورية جداً . ارسل لنا بالتلغراف الاذن بالاتفاق . ستحدث مع دوفرين غداً في الساعة الحادية عشرة »

« برودلى ونيبار »

من نيبار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر

« اقسم لك بشرى اي لا أرى اننا يمكننا الحصول على اصل مما ذكرناه في تلغرافنا السابق . فوافق ولاحظ ان مصلحتنا الشخصية لا تتفق مع هذا الطلب »

« نيبار »

من بلنت الى برودلى ٢٨ منه (نصف الليل)

« لا أوافق على شروط التي الا اذ كان نفياً شريعياً بدون اعتقال مثل عددن
أو مالملة أو القصير . فاتفقوا في حدود ذلك »

من برودلى الى بلنت (بالتلغراف ٢٩ نوفمبر)

« اعطانا عرابي وثيقة مكتوبة يقرر فيها السلطة التامة لنا لكي نتفق بشأنه مع
دوفرين . ودوفرين يقترح أن عرابي مذهب من حيث الثورة فقط والغول عماداً
ذلك من النهم . أما الحكم فيخفف الى التي في ممكن طيب تتفق عليه أنت مع
ورادة الخارجة مثل جزر الاروريس وسيعطي مرتباً مناسباً ويومض عن استصفاء امواله
» واكبر غثي أنك لا تدرى الصعوبة التي تكابدها في دفع همة حريق
الاسكندرية والمحصل على شهود الدفاع . ووزارة الخارجية لن تتداخل في الحكم اذا
كل أقل من الاعدام فاذا كل الحكم بالسجن مدة طويلة في مصر فهي لن تتدخل
وانا مقتنع بان النتيجة ستكون أسوأ من هذا وانى أحشى هذه المسؤولية وذلك
لوقوفي على الحالة هنا . فارجو أن تكتب لنا بالموافقة على ما نعمل لكي تجنب
وقوع كلثة »

من بلنت الى برودلى في ٢٩ نوفمبر الساعة الثالثة بعد الظهر .

« استشرت دلاوار وأنا موافق على التسوية على أساس التلغراف الذي
ارسلتموه الى »

من برودلى الى بلنت في ٣٠ نوفمبر .

« كل شئ يسير على ما برام : اتحد مع دلاوار في البحث عن ممكن التي .
وهنا يقترحون فيجي . واشكرك على قنتك »
من بلنت الى برودلى في ٣٠ نوفمبر .

« لا قبل أن يكون المتني فيجي أو ازورس . يجب أن تلج في ان يكون المتني
في وسط بلاد اسلامية لكي يؤدي عرابي فرائض دينه . وهم لا يقدرين على الرفض .
سأستشير . دى لاوار ليس هنا »

من برودلى الى بلنت في أول ديسمبر .

« سلوك دوفرين جميل جداً . وهو يقترح أن يناوض دلاوار وزارة الخارجية

عن المنفى . والمغتفلون كلهم راضون »
 من برودلى الى بلنت في ٣ ديسمبر .
 « انتهت محاكمة عرابي . والاخبار الصحيحة عنها في حريدة ستاندارد .
 قامت الحكومة المصرية بجميع عهودها »
 من برودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .
 « لقد سر عرابي من النتيجة . وهو بشرك ويميل الى أن يكون المنفى في
 الكلب . دوفرين جدير بكل ثناء »
 من برودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .
 « مدش لعدم كتاباتك . نجاحنا تام . الانجليز هنا في حق »
 من بلنت الى برودلى .
 « أمهي الجميع . يقول دلاوار أن دوفرين حر في اختيار مكان المنفى . ولا أغل
 الكلب يوافق فمأ رأيك عن جبل طارق أو حرزي ؟ استشر عرابي »
 من برودلى الى بلنت .
 « أشكرك على تفراتك »
 يدرك القارئ ، من هذه التفرافات أي لم أرض بالتسوية التي عرضها دوفرين
 الا كرهاً . فقد كان الرأي العام متنافي ذلك وكنت أعرف أنه ليس في ومع
 وزارة الخارجية الا أن تقبل مايريدها عليه ولم تكن لدغية في أن تلصق بئانهم الثورة
 ولكن في الوقت نفسه لم يكن بمعنى بازا ، تفرافات برودلى وخاصة تفرافات نيبيل
 أن أرفض التسوية . فان المسؤولية كانت كبيرة .
 وكان على أيضا أن اعتبر مسألة التفرافات . صحيح انه قد فتح باب التبرعات
 ودخل فيه عدد من ذوي الجدارة . ولكن مبلغ هذه التبرعات لم يزد على مائتي
 جنيه وذلك في حين أن نفقات برودلى كانت قد بلغت في ذلك الوقت نحو ثلاثة آلاف
 جنيه . ولو استمرت المحاكمة شهراً آخر لبلغت التفرافات أكثر مما كنت أستطيع حمله ،
 وذلك في قضية لم تكن قضيتي بالذات . فلذلك استشرت ديلاوار وروبرت بورك
 لحدرنى هذا الاخير من الاعتماد على الرأي العام ونصح لي بالرضا . واندكر الآر

حديثي معه ونحن نروح ونفعل في ميدان مونتاجو حيث كلن يسكن وقتت متروداً نحو ساعة انتهيت في آخرها بالرضا وكانت النتيجة اني أرسلت تلفراف الموافقة وبعد ذلك وبعد مجادلات طويلة رضيت ان يكون المني حريرة سيلان وهي المكان الذي يؤثر عنه انه في اليه ابوا آدم عد ما طرد من الفردوس . ولم يكن من المستطاع وجود مكان أشرف منه

ولم يكتب دوفرين شروط الاتفاق وكلن برودلى قد سها ان يطالبه بذلك لانه كان يجب عليه أن يلح في كتابة شروط ولو فصل ذلك لوفر علينا عنا كبرا . وكان هذا الاهمال سبباً في تجريد عراي وسائر المساجين من رتبهم العسكرية ولم يكن برودلى ينتظر أن يرضى دوفرين بهذا العمل ولو انه كان منتظراً مشكلاً بعد الحكم بالاعدام . ثم نشأ النزاع أيضاً عن قيمة المرتب الذي سيسمح به لعراي بدلاً من أملاكه التي استصيفت . والظاهر ان برودلى كلن قد بالغ للمساجين في أمر هذا المرتب . أما انا فأعتقد انهم عوملوا بسخا لان أملاك اكثرم كانت قليلة القيمة ثم ان أملاك زوجاتهم لم تستصف . وكانت أ كبرم خسارة محمود ساي لانه كان يملك أملاكاً واسعة استصفتها الحكومة . أما عراي فلن ما أخذته الحكومة لم يكن سوى ثمانية فدادين ورثها عن أبيه وأثاث بيته المستأجر في القاهرة وخيوله ونحو سبائة فدان من الارض البور اشتراها في أيام عزه . وكانت كل هذه الممتلكات وقت الاستصفا لا يزيد ثمنها على ألفي جنيه أو ثلاثة آلاف لان الفدان من الارض البور في ذلك الوقت لم يكن يزيد ثمنه على بضعة ريالات . ولم يكن عنده من الوقت ما يساعده على اصلاحها (١)

(١) منذ مدة قريبة أرسل عراي الى الملك ادوارد عريضة طلب منه فيها تمويضا عن هذه الارض وهذا الطلب من اوهام عراي وهو يدل على ما يعرفه عنه المحتكرون به وهو انه قد دخل في س الهرم فهو في خرف الشيخوخة وقد كان أسوء شر وقساوه انا لم نطلب تحديد معنى الفدان العام ومن هنا نشأت اتهامات جديدة

وهناك مسألة أخرى كثر فيها النزاع في ذلك الوقت ولكن لم يعد لها أهمية الآن وهي هل اقرار المساجين كلن اقراراً للحكومة الانجليزية المصرية ؟ ولكنى لا أحتاج الى عنايه البحث الآن في هذا الموضوع وانما أقول ان الحكومة الانجليزية قد حققت غايتها فحطتنا قهر بالثورة ثم استندت الى هذا الاقرار لكي نجعل تدخلها في مصر ذا وجه شرعى. فلما حصلت على هذا لم تمن أقل عناية بسائر المساجين الذين لم يشملهم الضوفيطش بهم الخديو توفيق . ولكن ما حصل لهؤلاء . حصل لهم في عهد الاحتلال وانما لا اكذب عنه الآن والمذكرات لاتسع هذه التفصيلات . واطن اني قد اوضعت جميع الاعمال التي قت بها في الثورة المصرية في هذه المذكرات والآن وأنا أعيد النظر الى اعمالى الماضية واتذكر كيف ابتدأنا بالجاح وانتهيا بالعمل في محاولة الحصول لوطنيين من الحكومة الانجليزية على حقهم في معاملة حسنة — اقول انى وأنا الذى نظرة الى الوراء عن اعمالى الماضية لا ارى انى علت ما آسف عليه . وقد أعطأت بالطبع عدة اخطاء واشعر انى مشول الى حد كبير عن تصميم الوطنيين الذى أدى الى الحرب . ولكنى لا أزال اعتقد أن حظهم كلن يكون أسوأ لو أنهم لم يقاتلوا الانجليز وسدوا بمطالب القناصل الادورويين . فأقل ما في عملهم أنهم استفادوا من سماع العالم لقصيتهم واذا كلن العلاج قد انتصف من الانصاف من ظالميه فنلك لا يعزى الا الى جهود عرابي التى كنت اشجه فيها حتى الى وقت اعلان الحرب اذ كانت هذه الجهود تتيحة مباديى الوطنية السياسية . وقد كانت هذه الثورة حيا في أن تصفى انجلترا الى شكوى الفلاحين بعد ذلك وهي وان كانت قد حرمتهم حق الحرية السياسية قد عالجت معظم شكواهم

ولست أدري ماذا يأتي به المستقبل لمصر . فقد زادت ثروة مصر مدة الاحتلال الانجليزي ومع أنى لا اعتبر ان ثروة البلاد وغناها يدلان على حسن حالها قد كلن لها مع ذلك قبة من حيث انها جملا الفلاح يثبت في ارضه ويحتفظ بها لنفسه دون الاجانب وما دامت الحال كذلك فسنبقى الامة حية وربما يأتي اليوم الذي يعاد فيه الى الفلاح دستوروه وعندئذ يدرك الفلاحون حقيقة ثورة سنة ١٨٨٢ ويعرفون انها كانت بدعيانهم الوطنية وهي لئلك من محاسن تاريخهم ومفخرة

تاریخ احمد عراقی بفارہ

(الدليل الاول لكتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى)

هذا هو تاريخ حياة عرابي وحوادث سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ كما كتبه لي
أنا ولقد رسكاون كنت أمس في ١٦ مارس سنة ١٩٠٣ في الشيخ عبيد

كان مولدى فى سنة ١٨٤٠ فى بلدة حرية قريبا من الزقازيق فى الشرقية. وكان أبى شيخ القرية وكان يملك ثمانية فدادين ونصف فدان ورثها عنه وأصفت اليها ما اشترته مما كنت أدره من مرتبى الذى بلغ أحيانا ٢٥٠ جنيه فى الشهر فبلغت أملاكى ٥٧ فدان وهذا هو القدار الذى استصفته الحكومة وقت محاكى . وكانت هذه الارض وقت اشتريتها رخيصة لا يزيد ثمن الفدان عن بصة جنيهات فى حين انه يساوى ملفاً كبيراً الآن ، لأنها كانت فى ذلك الوقت رديئة أما الآن فهي جيدة . ولكن لم يكن فيها شيء . وكان كل ما أدره اشتري به أرضاً ولم يكن لى أملاك أخرى أو مقولات الا اثاث البيت والخيول وكلها لم يكن يتجاوز ثمنها الف جنيه .

ولما كنت صبياً دخلت الأزهر ودرست فيه سنتين ولكنني جلدت وعمري ١٤ سنة لأنني كنت مديداً القامة وكان سعيد يحب تعذيب أولاد المشايخ لكي يصيروا ضابطاً. فامتنعت فإقادي في الامتحان ما كنت قد تعلمت في الأزهر فبعت كتاباً بدرجة « بلاك أمين » ولم أنتظم في صف الخنود وأعطيت مرتباً مقداره ستون قرشاً في الشهر . ولكنني لم أحب هذا المركز لأنني خشيت الأرقى وكنت أطمح إلى منصب عالٍ مماثل منصب مدير مديريتنا . فقدمت عريضة إلى رئيسي إبراهيم بك لكي يرديني إلى الصف . فأخبرني إبراهيم بك بأنني أخسر في هذا العمل لأن مرتبي يقل عن عندئذ إلى خمسين قرشاً ولكنني ألححت عليه قبل . ثم لم يمض قليل حتى امتنعت مرة أخرى ففرت وكنت الأول فيه فجعلوني « جاويشاً » ثم امتنعت

مرة ثالثة فعينت ملازماً وكان عمرى وقتئذ ١٧ سنة . وكان سليمان باشا الفرنساوى يجيئني فألح علي سعيد باشا لكي يرقبني فصررت فأعقما وكان سني عشرين سنة . ثم تخفي سعيد باشا معه كباروه عندما زار المدينة قبيل وفاته بهام وكان هذا في سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢ م)

وكانت وفاة سعيد باشا من الكوارث التي نزلت بي لانه كان يحب أبناء البلاد، فقاما بمعايل فلم يكن كذلك ، ففي زمنه أعيد كل شيء الى أيدي الأتراك والشركس وصرى المصري في الجيش مجرداً من الحماية ومن الترقية، فبقيت فأعقما مدى ١٢ عاماً ولم يحدث فيها شيء حتى جاءت حرب الحبشة ، ولم أكن قد أرسلت الى الحرب الروسية ولكن لما نشبت حرب الجيش طلب جميع الجنود وسحبت الحاميات من طريق الحج وكلفت أنا بالذهاب لقيام سحب هذه الحاميات ، وذهبت وحدي فلم يكن معي جندي واحد ولم أزود بقرش واحد وكان علي أن أصـ ل الى مكان هؤلاء الجنود على الحال بقدر المستطاع ، فذهبت الى النخل والعقة والوجه وصررت أجمع الحاميات وأضع مكلمها العرب كحفراء للحصون . ثم عبرنا البحر الى القصير وذهبنا الى قنا ومن هناك الى القاهرة . ولم يدفع لي قرش واحد على قيامي بهذه المهمة بل قتت أنا نفسي بنفقت سفرى . وكانت البلاد في حالة مروعة من الظلم ومن ذلك الوقت بدأت أهتم بالسياسة رجاء أن أخلص البلاد من الخراب . ثم ذهبت الى مصوع واشتركت في الحملة التي كانت بقيادة راتب باشا وكان لورنج باشا الأمريكى رئيس أركان الحرب . ولم أشهد معركة لأنى كنت قائماً في ذلك الوقت بمسألة النقل بين مصوع والجيش ، وكانت المعركة من النكبات التي نزلت بالجيش اذ قتلت جنود سبع كتائب . وكان الخطأ بعزى الى لورنج باشا . وكان ابن الخديو حسن هناك وكان ضئ صغيراً يتعلم الجندية ولم يكن يقود الجيش ولم يؤخذ سيراً عند الاحباش . وبعد ذلك أخذت أفكر في الشؤون السياسية . وأتذكر اني رأيت الشيخ جمال الدين ولكنى لم أكلمه وقد أفادتنى علاقتي القديمة بالازهر معرفة عدد من الطلبة . وكان من أفضل من عرفتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل . وكان أول كتاب أدركت منه بعض الآراء عن المسائل السياسية كتاباً مترجماً الى العربية عن

« حياة بومارت » تأليف الملازم لويس. ولكن سعيد باشا قد أخذ هذا الكتاب معه في زيارته المدينة وكان ماذكر فيه من أن ثلاثين ألف جندي عرسى قد فتحو بلادنا قد هاج غضب سعيد باشا فرمى بالكتاب الى الارض وقال لي : « انظر كيف قهر مواطنوك » فأخذت الكتاب وقرأته طول الليل فلم أتم حتى الصباح . ثم ذهبت الى سعيد باشا وأخبرته بأنني قد قرأت الكتاب وإن السبب الذي جعل الفرنسيين ينتمرون هو أن جيشهم كان منظماً واننا نستطيع أن نعمل ذلك بمصر لو اردنا .

والآن نسألي عن الشعب الذي حصل في وقت اسمعيل ضد نوبار وهل لي يد فيه . فأقول أنه لم يكن لي يد فيه لاني كنت في وقت ذلك الشعب في رشيد مع الآلاى . ولكن في اليوم الذي سبق يوم الشعب أرسلت الى الحرية أماً واقامقام الآخر محمد بك نادى نهاراً لكي مظهر في أمر الدين فصاروا من الجيش ولم يدفع لهم متأخر مرتباتهم بل لم يكن لديهم ما يقتاتون به . وكانوا وقتئذ في العياصة . ولكني لم أعرف ماذا كان يدبر ضد نوبار باشا . والحقيقة ان اسمعيل باشا هو الذي دبر هذا الشعب بواسطة أحد خدمة شاهين باشا وصهره لطيف افندي سليم ناظر المدرسة الحربية . وانضم اليهم بعض الخنود المعزولين ولم يكونوا كثيرين . ووجدوا نوبار على أبواب الوزارة على وشك أن يركب مركبته . فهاجموه ولكوه وشدوا شاريه . وذهب الخبر الى اسمعيل باشا لكي يهدي . الشعب فذهب ومعه عبد القادر باشا وعلى فهمي تلك الملازم في حرسه فأمره بأن يطلق النار على الطلبة ولكن على فهمي أمر بإطلاق النار في الهواء فلم يجرح احد . ولم يكن على فهمي معنا في ذلك الوقت فقد كان أميناً لاسمعيل وكلت قد تزوج إحدى سيدات السراي واسكنه لم يحب أن يهرق دماً. هؤلاء الشباب

ولكي يخفي اسمعيل اشتراكه في ايجاد هذا الشعب انهمي أنا ونادي بك وعلى بك الروبي بأننا زعماء المشايخين وقدما للمجلس المؤلف من ستون باشا وحسن باشا أعلامون وعثمان رفقي الذي صار بعد ذلك وكيل وزارة الحربية وآخرين . فقررت في ذلك المجلس . اتانلا يد لنا في هذا الشعب اذ كنا في رشيد ولم نصل الى القاهرة الا في اقبل ومع ذلك قد ومضنا وفصل كل منا عن ألابه . فأرسل نادى الى

النصورة وأرسل الزوي الى الفيوم . وأرسلت أنا الى الاسكندرية كوكيل لمشايج
«صعيد الدين كانوا يرسلون المتأخر عليهم من الضرائب عيناً كالقول وغيره من
«الغلات الى الاسكندرية فكان يتسلمها بعض يهود في الاسكندرية ويرتونها جراً
ما يقترضه منهم اسماعيل من الاموال

ولكن قبل أن نفترق اجتماعنا اقترحت عليهم أن نكون عصبة لخلق اسماعيل
ولو فعلنا ذلك لخلقنا المأأة من وقها لان القناصل كانوا يرغبون في التخلص منه بأية
طريقة وكنا قد وفرنا على أنفسنا جميع المشاكل التالية وكنا وفرنا أيضاً ١٥ مليون
حينه أخذها اسماعيل وقت خلقه . ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة
فوافق الموحودون علي رأيي ولكننا لم نقدر على تنفيذه . ثم خلق اسماعيل فزال عما
عبه ثقيل ولكننا لم كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا نخلصنا من عائلة محمد علي
بأجها ولم يكن فيها أحد جديراً بالحكم سوى سعيد وكنا عندئذ أعلننا جمهورية . وقد
اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل على جسر قصر الليل فوافق
محمد عبده على الاقتراح . وكان اسماعيل قد جمع أموال للمديريات قبل خلقه ستة أشهر
وقد اعترف لطيف سد ذلك باشتراكه في هذه الاعمال . وقد اودع لطيف السجن
ولكن جماعة الماسون طلبوا من نوبل الافراج عنه فخلى سبيله

ولما خلف توفيق اسماعيل أعلن في أول أعماله انه ينوي منح البلاد دستوراً .
والآن نسأل هل كان مخلصاً في هذه النية ؟ فأقول أنه لم يكن مخلصاً ولكنه كان
ضيقاً الى درجة لا تصدق ولم يكن يقدر على أن يقول « لا » وكان يتأثر بما يثير عليه به
وزيره شريف باشا الذي كان يحب النظم الدستورية في الحكومات . وكان في عهد
والده يجمع الاموال وكان هذا ام ما جهن له . فكان يأخذ الهدايا من جميع المتقدمين
بالعرائض لايه وكانوا يعتقدون أنهم بارشاد توفيق يستطيعون تحقيق أغراضهم عند
والده اسماعيل فلم يكن توفيق يرغب في وجود دستور ولكنه شق عليه أن يقول :
« لا » عندما عرض عليه شريف هذا الرأي فوعده به ولكن لم يمض شهران حتى
وقع تحت نفوذ القناصل الذين منعوه من إصدار قرار الدستور فجمع عندئذ شريف
وزرائه وقرروا معه انه اذا استقال هم أيضاً يستقيلون وأقسموا له بشرهم ولكن

على الرغم من القسم انضم بعضهم الى وزارة رياض باشا الذي صار رئيساً للوزراء .
مكأن شريف . ولكي يرغبهم رياض في وزارته تعهد لهم بأن كل وزير سيكون مستقلاً
في وزارته وأن توفيق لن يتدخل في ادارة أعمالهم . فصار محمود سامي وزير الاوقاف
وعلى مبارك وزير المعارف وعثمان باشا رفيق وهو تركي كل يكره الفلاحين صار وزير
حربية وكانت الحكومة الجديدة حكومة جائرة . فقد كتب حسن موسى العقاد
عريضة بشأن نظام المقابلة (الفرائب) فكان جزاؤه لتقديم هذه العريضة النفي الى
البحر الابيض ، وعزل احمد فهمي لعريضة أخرى . وعزل آخرون لان الوزارة
لا تنتظر لهم بعين الرضا وكان أسوأ هؤلاء الوزراء جميعهم عثمان رفيق

وكنّا نحن الضباط كل منا مع الألبه وكنا قلبي صنوف الظلم لاننا مصريون :
وكان الضابط المصري يقبض عليه لاي علة ويوضع مكانه رجل شركي . وكانت
النية أن يعزل جميع الضباط المصريين . وكنت أنا من المفضوب عليهم لأنني رفضت
أن تؤخذ جنودى لحفر قناة التوفيقية وكانت العادة أن يسخروا في مثل هذه الاعمال
دون أجر . ودرت التداير لكي اشترك في مشاجرة في بعض الشوارع فأقتل ولكن
حب جنودى لى كان يعينني على الدوام من هذه المشاكل . وبات جميع الضباط
الذين لم يكونوا شركاء في خطر وفزع لا يرحلهم وكان هذا هو السبب في أن
على فهمي الذي كان متصلاً بالبلاط الخديو لزوجته احدى حواريه انضم البنات لانه
كان يخشى أن يعزل ويوضع مكانه شركي او تركي . وكان ضابطاً في الآلاي
الاول من الحرس وكان مركزه عابدين وكنت أنا في الصاوية مع الاكلاي الثالث .
وكان عبدالعال حلمي في طره وكان على روني يقود الخيلة .

ثم حدثت أزمة في يناير سنة ١٨٨١ . فقد كنت ذهبت الى دار نجم الدين باشا
في المساء . وكان هناك بعض الباشوات فآخذوا يتسامرون عن التغيرات التي ينوي
عثمان رفيق أن يقوم بها فطمت من كلامهم أنه قد تقرر أن أعزل أنا وعبدالعال من
قيادتنا ويعين في مكاننا ضابطاً تركي . وفي الوقت نفسه جاءني رسول يقول أن
على فهمي وعبدالعال في بيتي ينتظرا تاتي فذهبت الى البيت ووجدتهما وصحت
منهما هذا الخبر السيء . فجلسنا نتشاور فيما يجب أن نفعله فاقترح علينا

عبد العال أن نصطحب قوة ونذهب الى منزل عثمان رفي وقبض عليه أو نقتله .
ولكني قلت له : « كلا يجب أن تقدم عريضة أولاً لرئيس الوزراء . فإذا لم يقبل
نقدم عريضة أخرى للحدادي »

فكلفتني بأن اكتب العريضة . فكتبت العريضة وأوضحت الحالة وطلبت عزل
عثمان رفي وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندي وإعلان الدستور الموعود .

« ملحوظة من بلنت : أعلن أن عرابي قد أخطأ هنا إذ خلط بين هذين الطرفين
الاخيرين وبين الطلاب الاول الذي قدم في ٩ سبتمبر ولكنه ألح بأنه قد أثبت هذه
الثلاثة الطلاب في فبراير »

ثم وقفنا نحن الثلاثة هذه العريضة مع علنا بأن حياتنا قد صارت في خطر .

وفي اليوم التالي ذهبنا بعريضتنا لرياض في وزارة الداخلية فقرأها في غرفة
داخلية ثم خرج الينا وقال لنا : « هذه عريضة مهلكة . ماذا تطلبون ؟ نصير الوزارة ؟
ومن يأخذ مكانها ؟ ومن تقترحونه لكي يقوم بأعمال الحكومة ؟ »

وكنيت أقصده هو ووزراء السبعة بذلك . فغضب مني ولكنه قال أخيراً أنه
سينظر في طلباتنا وتركنا . وفي الحال التأم مجلس الحدادي وجميع رجال بلاطه
وأيضاً ستون وبلنت . واقترح الحدادي أن يقبض علينا وأن نحاكم ولكن الآخرين
قالوا : « إذا حاكم هؤلاء فيجب أن يحاكم عثمان باشا أيضاً » وعلى هذا تركت
المسألة لعثمان ليحلها كما يرى وانت تعرف الباقي .

أما عن سؤالك هل كان يعرف الحدادي في ذلك الوقت عرفنا على كتابة العريضة
فأقول انه لم يكن يعرف ذلك ولم يعرف أيضاً أن علي فهمي قد انضم الينا .

أما عن سؤالك هل كنت أعرف البارون ديديج فأقول اني لم أكن أعرفه ولم
أكن أعرف أحد من القناصل . ولكني سمعت ان أكبر القناصل نفوذاً هو القنصل
الفرنسي فكتبت اليه أخبره عن موقفنا ورجوته أن يخبر سائر قناصل الدول بأنه
ليس هناك أقل خطر على رعاياهم .

أما محمود سامي فلم أكن قد عرفته بعد ولكنه كان صديقاً لصديقي علي دوي
وسمعت انه من المتعلقين بالجرعة .

وكان من أصل شركسي ولكن عائلته عاشت في مصر نحو ستمائة سنة .
أما في المظاهرة الثانية التي حدثت في ٩ سبتمبر فقد كنا نعرف أن الحديو كان
في صفنا أنه أراد أن يتخاص من رياض القدي كان لا يكثرث لأوامره وقدراته
ونكلمت معه مرتين في ذلك الصيف ولكنا لم نتكلم في السياسة . وكانت رساله
لي على لسان علي فهي مقصورة على هذه الكلمات

« أتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم »

والآن نأتى عن احلاصه فأقول أنه لم يكن قط مخلصاً وإنما أراد أن يتخلص
من رياض . ففي هذه المظاهرة طلبنا عزل رياض مع سائر الوزراء ونحس نعلم انه
سينفخ لهذا الطلب . ففي صباح يوم ٩ سبتمبر أرسلنا كلمة الى الحديو نقول اننا
سنذهب الى قصر عابدين لكي نطالبه بأداء وعوده السابقة . فجاء . وكان معه كوكون
وكان حديثي أنا مع كوكون هذا فألتى كوكون هل ترضي بحيدر باشا فاجبته
بأبدا لا ترضى رحل بمت الى الحديو بقرابة ، ولم يكن لنا في هذه المرة الثانية طلبات
مكتوبة وإنما جددنا طلباتنا التي قدمناها في أول فبراير وهي : مجلس النواب وزيادة
الحبس الى ١٨٠٠٠ جندي كما تنص على ذلك فرمانات وعزل رياض ، فوافقونا على
كل ذلك ، وفرح الحديو بذلك ، واست أعرف هل كان كوفن هناك وهل نصح
للخديو بشئ . ما ، وإنما رأيت هناك كوكون وجولدميث وكنت أخطب كوكون
ولو حاول الحديو قتلى لاطلقت النار عليه ، والحقيقة أنه كل في أشد الجذل
والجور لهذه المظاهرة .

نأتى الآن عن أبي سلطان (سلطان باشا) فأقول انه كان مفتاعاً لأنه عند
ما ألفت وزارة شريف لم يعين في احدى الوزارات . وكان الظن ان مصبر رئيس
مجلس النواب أشرف وأهم . ولكنه هو لم ير هذا الرأي فساءه انه ليس عضواً
في الوزارة . وهذا أول ما جعله يقلب علينا . أما عن سؤالك هل أسيتت معاملة
الشراكية الذين قبض عليهم وأودعوا السجن للوزارة عند ما كنت وزيراً
للحرية فأقول آني لم أدخل السجن القدي كانوا فيه ولم أرم يذيون بل لم اقرب من
السجن مطلقاً

أما عن مسألة هياج الاسكندرية فليس هناك شك في أن الذي دبر هذا الهياج هو الخديو وعمر باشا لطفى المحافظ ومستر كوكسون . وقد دبر هذا الهياج قبل وقوعه بعدة أيام وكلن الغرض منه ازالة الثقة في لاي كوت قد تعهدت بحفظ النظام . فان الخديو أرسل تفرافاً بالارغام الى عمر لطفى كما تعرف . واتفق عمر لطفى مع السيد قنديل رئيس المستنظفين على ايجاد هياج . وأخى السيد قنديل هذه المسألة عنا ونحن في القاهرة . أما اشتر كستر كوكسون فينحصر في أن عدداً من الصناديق التي تحتوى على الاسلحة النارية أنزلت الى الاسكندرية وأرسلت الى دار الانفصالية حيث مستر كوكسون وبديهي انه كلن يقصد بازال هذه الاسلحة للمدينة تسليح بعض الناس وعندما سمعت بالمحدث أرسلت في الحال يهتوب سامي الى الاسكندرية وأمرته بأن يبحث بحثاً وافياً فانتهى من البحث بأثبات جميع هذه الحقائق التي ذكرناها . وقد قبلت أشياء كثيرة غير صحيحة . فليس صحيحاً انه وجدت أجسام من القتلى النصارى في لباس اسلامي . وابتدأ الهياج بين ماعلى وحمار . ولكن هذه المشاحة كانت عندياً ليس عبر . . وكلن عمر لطفى كما تقول من شيعة اسماعيل . وتساءلت لماذا ترك مثل هذا الرجل الخطر في مثل هذا المنصب الذي كلن يساعده على احدثات اكبر الاضرار وكل ما أقوله انه لم يكن تابعاً لوزارة الخيرية بل كلن يتسلم أوامره من وزارة الداخلية . وكلن من سوء حظنا اننا تركناه في مركزه . ولم ينهب نديم ولا حسن موسى العقاد الى الاسكندرية في هذا الشأن وانما ذهب حسن موسى العقاد في مسألة مالية .

وما تسألني عنه بصدد اسماعيل باشا صحيح . فقد عرض علينا اسماعيل أموالاً . وظروف المسألة هي هذه : كنا طالباً بعض المدامع من المانيا ولسكنهم دفعوا أن يملووها لنا ما لم ندفع الثمن . ولم يكن عندنا مال . فعرض علينا اسماعيل ٣٠٠٠٠ جنيه على شرط أن نقول اما نشتر في مصلحته . وكان الذي عرض علينا هذا المبلغ هو مسيو مجس (ماكس لافيسون) وكيل اسماعيل الروسي وكلن لحسن موسى العقاد يدق هذه المسألة . ولكن الاموال لم تظهر واذا كان اسماعيل قد أرسل المبلغ حقاً الى الاسكندرية قد بقي في ايديهم فاننا لم نلسه

ولم تكن تنتظر هجوماً لانا لم تكن نسمع إطلاق المدافع . وكنت انا نائماً واذا بي استيقظت على هدير المدافع قريباً منا . وكل على روبي في المقدمة فأرسل الى يقول يجب أن أغير مركزي لان العدو يضربنا من الجنب . فقامت وركبت جوادتي وذهبت الى حيث كلن لنا قوة من المتطوعين وأمرتهم بان يتجهوني لكي نذهب الى الخطوط الاولى ونامون المقاتلين . ولكنهم كانوا فلاحين ولم يكونوا جوداً وكانت القنابل نسقط حوالهمم فلاذوا بالفرار فذهبت الى الامام وحدي وورائي خادمي محمد . فلما رأي وحدي وانتي أتقدم الى الموت الا كيد أخذ بزمام جوادتي وأقسم علي أعود . فلما بانتي في المريعة ورأيت الجميع يفرون عدت : ورافني محمد حتى عبرنا وادي التل الكبير ثم حاذينا قناة الاسمعية حتى وصلنا الى بليس وهناك وجدنا مصكراً آخر وقد وجدت ان على روي كان سبقي هناك فعزمتنا على ان تقاوم . ولكن ما هو ان وصلت خيالة دوروري لين حتى فر الجميع فتركنا كل شيء وانجهمنا نحو الحمة الشمالية ولكنه لم يكن خائناً . أما الحوة فهم عبد الغفار على ما أظن ومن يليه في القيادة عبد الرحمن بك حسن وعلى يوسف خنفس . أنت تقول سعود الطحاوي ؟ ربما كان ذلك فهو لا البدو لا يوثق بهم وكان جده مع بونا بارت لما جاء مصر منذ مائة سنة .

والآن قد رجعت الى بلادي بعد عشرين سنة من النفي والأسي وبنو وطني صاروا يعتقدون اني قد بعث بلادي للانجليز وذلك لان بعض الصحف الفرنسية تقول ذلك .

—————

رأي الشيخ محمد عبده

في تاريخ عرابي

(في ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ عرضت على الشيخ محمد عبده في منزله في عين شمس تاريخ عرابي كما كتبه لي . فوافق على أكثره ثم قدم لي الملاحظات التالية عنه —
ولقد سكاون بثلث)

أولاً — بخصوص الشغب على نوبار أقول ان رواية عرابي صادقة ما عدا قوله عن علي فهمي . فان الامر الذي أعطي له باطلاق النار على الطلبة لم يكن يقصد منه التنفيذ . فكان على فهمي اطاعة للاوامر يطلق النار في الهواء . وقد أمر نوبار بالقبض على لطيف بك بعد انتهاء الشغب ولكنه أفرج عنه بعد ذلك لان الماسونيين طلبوا ذلك وكان لطيف عضواً في الجميعة الماسونية . وكلف يصرح بما قلم به في اهذه المسألة . أما ما قاله عرابي يصدد خلع اسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول انه من المؤكد اننا كما نتكلم مرأ في هذا الشأن وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح على أنا أن أقتل اسماعيل وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً نهلمسه فيها بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان يقصدنا من يقودنا في هذه الحركة . ولو اننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت فرمما كان في إمكاننا ان ننظم الحركة معه لان قتل اسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله وكان يمنع تدخل أوروبا . ولكن لم يكن من المستطاع في ذلك الوقت تأسيس جمهورية اذا نظرنا الى حالة الجهل الذي كان سائداً على العقول . أما عن قول عرابي ان اسماعيل أخذ معه الى نابولي ١٥ مليون جنيه فليس هناك من يعرف الحقيقة . وأما المعروف ان المبلغ الذي أخذه معه كان كبيراً جداً . وكان اسماعيل يدير المال في الاشهر القليلة التي سبقت خلعهم . فكانت الاموال التي نتجها من المديرية لكي ترسلها الى وزارة المالية يأخذها هو لنفسه .

ثانياً — أما عن قول عرابي أن توفيقاً كلن يأخذ الهدايا والرشى من مقدمي الأمراض لوالده أيام كلن اسماعيل خديوياً فقد يمكن أن يكون صحيحاً . ولكن لم اسمع هذه الاشاعات وهذا العمل لا يتفق مع سلوك توفيق لما صار حاكماً . فذلك لست أصدق هذا القول .

ثالثاً — أما عن ظلم رياض فاقول أن رياضاً كلن ظالماً ولكن ظلمه لم يكن يبلغ سفك الدماء . فانه كلن على الدوام يكره ذلك . فلم أسمع انه كان يأمر بالفنك بالناس سرّاً . ولم يكن هناك على أى حال خوف من أن يفعل ذلك باحد قبل حادثة قصر النيل . ولكننا سمعنا أقوالاً وروايات عن محاولة قتل عرابي وغيره من الضباط في صيف سنة ١٨٨١

رابعا — اما عن حادثة اول فبراير سنة ١٨٨١ في قصر النيل فأرى ان رواية عرابي مرتبكة وغير صحيحة . فان العريضة الاولى التي قدمها عرابي وسائر الضباط كانت تتضمن الشكوى من الحجب الذي يقع بهم من عثمان رفقى . وكان هذا العمل سبباً في غضب وزير الحرية فقد نبهه على ان يتخلص منهم وكان هذا اول ما لمت طر القنصل الى عرابي .

وكلن البارون ديرنج في خصام مع رياض فاهم لذلك بمسألة الضباط . اما العريضة التي يقول عرابي انه قدمها بنفسه الى رياض في يناير فلم تبين فيها أى اشارة الى الدستور او الى ريادة الجيش الى ١٨٠٠ جندى . فان هذه الطلبات لم تقدم الا في سبتمبر بعد المظاهرات . وكانت عريضة قصر النيل لا تزيد عن ان تكون شكوى من مساوى عثمان رفقى وطلب عزله من الوزارة . وكان رياض في المجلس الذي عقد عقب المظاهرات موافقاً على عمل تحقيق عن هذه العريضة . وكان هذا التحقيق يتطلب محاكمة الضباط وايضا عثمان رفقى امام المحكمة العسكرية . وكان رياض يكره العنف . ولكنه لما اوضح له انه اذا لم يستعمل العنف سيعد سكونه دليلاً على تشبعه مع الضباط ضد الخديو اضطر في النهاية ان يترك المسألة لعثمان رفقى يتصرف فيها كيفما شاء .

خامساً — أما عن مظاهرة عابدين في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فاني أقول أن

السبعة الأشهر التي كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسي الذي شغل جميع الطبقات . فقد صار عرابي محبوباً عند الأمتواتصل بالحزب الوطني وعرف سلطان باشا وسليمان أبائمه وحسن الشريفي وعرفني أنا أيضاً وكنا نحن الذين طلبوا الدستور . وقد أهمهم هو بالدستور لأنه رأي فيه ضماناً من انتقام الحديرو أو وزرائه منه كما كانوا ينتقمون أيضاً من سائر الضباط .

وقد قال لي هو ذلك جملة مرات وبناء على ذلك قدمنا العرائض بطلب الدستور وحملنا في الصحف حملات عديدة في هذا الصدد . وكان عرابي يزور سلطان باشا كثيراً في ذلك الصيف — وكان سلطان مترماً فكان يرسل إليه الهدايا من الثياب والحيل وغير ذلك لكي يعتمد علي قوة عرابي ونصفيده لهذه الحركة الدستورية . وحدثت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان وقد أصاب عرابي في قوله أن سلطان كان يطمع في أن يكون وزيراً بعد سقوط وزارة رياض .

ولكن شريف باشا الذي صار رئيساً للوزارة لم يفكر في تعيين سلطان . وبعد ذلك أمكن مصالحة سلطان بإعطائه رئاسة مجلس النواب . ولم يتشاجر مع عرابي إلا بعد اللامحة أي البلاغ الأخير الذي أرسله القناصل إلى الحكومة بأن عرابي جرد سيفه هنا في وجه سلطان ووجه أعضاء المجلس عندما رأى منهم تردداً في رفض اللامحة وكنا إلى هذا الوقت يسيران يبدأ يد

ورواية عرابي عن توفيق من انه ارسل يقول له : (انتم ثلاثة جنود وأناراجكم) صحيحة وهي تظهر مركز الحديرو أمام الضباط . وكان كولفن مع الحديرو في عابدين ولكنه لما كان لا يعرف العربية لم يلتفت عرابي إليه . وكان الكلامهم كوكسون وكان البارون دي ونيج قد استدعته حكومته بناء على طلب رياض الذي كان شقيقه بالضبط سادساً — أما عن الشغب في الاسكندرية فان عرابي صادق في روايته عن عمر لطفي والحديرو هما اللذان دبرا الشغب قبل حدوثه بضيعة أسابيع . ولكن روايته عن سيد قنديل غير صحيحة فانه كان ضعیفاً فلم يقو على اخلاء الشغب وهو أيضاً مخفي . فيما ذكره عن كوكسون . فان الاسلحة التي وردت إلى القنصلية إنما حمله بها الحامية المائتين وسائر الرعايا الانجليز . وقد حكم بالنفي على سيد قنديل 'عشرين

عاما ولكن عني عنه بعد ذلك فرجع وهو الآن في داره في الريف في مصر — وكثيراً ما تحدثت معه في هذا الموضوع . وعراقي صادق في قوله أن حسن موسى العقاد وعبدالله نديم لم يشتركا في أحداث الشف . فانه قد ذهب الى الاسكندرية لالتقاء خطبه أما العقاد فقد ذهب في مسألة مالية .

رأي الشيخ محمد عبد الله

في الثورة العراقية

(في ٢٠ مارس سنة ١٩٠٣ قدم لي المفتي الملعوظات التالية عن الثورة العراقية .
وافرد سطاون بلفت)

في أواخر أيام اسماعيل ساول البعض ادخل الماسونية الى مصر . وكانت جميع المحافل المصرية متصلة بالمحافل الاوروية وقد انضم الشيخ جمال الدين الى أحد هذه المحافل ولكنه لم يجد لها قيمة فخرج منها ، وكان اسماعيل باشا قد أخذ يشجع الحركة بنية الاستفادة منها وذلك عند ما وقع في ازماته . ولكن الماسونية لم تبلغ يوماً ما مركزاً قوياً في مصر

ومن المؤكد أن الشيخ عبيد قتل في التل الكبير ، فقد سمعنا اشاعات تقول انه حي برق في سوريا . ولما كنا في المنفى في بيروت كنا نرسل الى داخل البلاد لسؤال عنه ولكنهم كانوا يرجعون ويقولون ان رواية وجوه كاذبة

وكان محمود سامي دستورياً من عهد اسماعيل . وكان صديق شريف وكان كلاهما ينشد أملاً سياسية واحدة ومن الأرجح انه انذر عراقي بازمام القبض عليه لانه كان في ذلك الوقت عضواً بمجلس الوزراء . ولا بد أنه كان يعرف هذه النية أما بعد مسألة قصر النيل فانه كان مع عراقي والضباط قلباً وقالباً وكان هذا هو السبب في أن رياضا تخلص منه وعين داود باشا مكانه

وكان رياضا لا يقدر أهمية عمل عراقي ولكنه بعد ذلك صار يمحشاه . فابتدأ باحتقار الحركة والتقليل من شأنها لان هذه كانت عادته إذ كان لا يعتقد أن الفلاحين شأماً يذكر في السياسة

واستقال شريف باشا في فبراير سنة ١٩٨٢ لانه تشاجر مع عراي بل لانه كان بجشى تدخل أوروبا . وكان يعارض مجلس النواب في طلب مناقشة الميزانية واستقال لهذا السبب وكان راغب باشا من أصل يوناني ولكنه كان مسلماً . وكان رئيساً للوزارة في عهد اسماعيل ولكنه كان دستورياً وقد عين بعد اللانحة (البلاغ الاخير الذي ارسله القناصل للحكومة) رئيساً للوزراء . وكان عراي وزيراً للحريقة في هذه الوزارة . وكانت علاقته بهراي شريفة وقد بقى مع الحزب الوطني مدة الحرب ويقول بتران اول عريضة قدمت كان تاريخها ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ والراجع

ان هذا التاريخ صحيح

وكان ابراهيم الاغانى من أقدر تلاميذ جمال الدين وأفضلهم في الارهر وهو لا يزال الآن حياً وهو موظف في المحكمة :

لما انعقد مجلس النظار لكي ينظر في عريضة عراي التي طلب فيها عزل وزير الحرية عثمان رفقي ارتأى الحديو هو وعثمان رفقي أن يقبض على عراي وينقي الي البحر الابيض ولكن رياضاً طلب القيام بتحقيق أولاً . وبعد ارفض المجلس قابل طه باشا رياضاً وأخبره بأنه اذا اصطنع الرفق مع عراي فان الحديو يظن أنه (أى رياض) قد انضم الى الجنود ضد الحديو طمعاً في الحديوية لنفسه فلما سمع رياض ذلك سككت عن المعارضة . وقد أحبرني بهذا بعد ذلك محمود سامي وكان وزيراً في وزارة رياض وكان ابراهيم افندي الوكيل وحسن الشريبي واحمد محمود زعماء الاحرار في مجلس النواب .

آراء أخرى

للشيخ محمد عبده عن الثورة المراتية

(في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٣ قدم لي الشيخ محمد عبده الملاحظات التالية) :
 ما نرى الشيخ جمال الدين بعد عزل شريف بيضة أيام سنة ١٨٧٩ أمرت بلن أوج
 عاهرة وكنت استاذاً في مدرسة للمعلمين وطلب الى أن أذهب الى قريتي . وكان
 حلق في المدرسة الشيخ حسن وكان أعني . فسئمت وجودي في قريتي واوردت الذهاب
 الى الاسكندرية وكان البوليس يراقبني . فذهبت خفية الى طنطا وأخذت أجول
 فيها مدة طويلة . ثم رجعت الى القاهرة أملاً في أن أقابل محمود سامي وكان صديقي
 وكان في ذلك الوقت وزيراً للأوقاف . ولكنه كان غائباً . فذهبت الى علي باشا
 سارك وكان صديقي أيضاً وكان وزيراً للاشغال ولكنه قابلني أسوأ مقابلة ونصح
 لي في ذلك الوقت بأن لا أمكث في القاهرة ثلاثاً ، لأن الظن في وأتهم بالاشتراك مع
 مصبة التي تألفت من شاهين باشا وعمر لطفي وغيرها من حزب اسماعيل ضد رياض
 فذهبت ثانياً الى قريتي .

ولكني تولاني السأم ثانية لأن القرويين كانوا لا يفتأون يتشاجرون فعزمت
 على أن أرجع الى الازهر لكي أدرس فيه . وكان رياض لا يجد أحداً يجيد الكتابة
 بالعربية لتحرير الحريدة الرسمية فاستشار محمود سامي فأخبره بأنه لو كان في مصر
 ثلاثة مثلي لنجت البلاد وكذلك قال بهذا الرأي الشيخ حسن الذي عين خلفاً لي
 بمدرسة المعلمين .

وعلى ذلك عينت في آخر رمضان (أكتوبر سنة ١٨٨٠) محرراً ثانياً للجريدة
 الرسمية ولكن المحررين القديين كانوا هناك أحسا الفجرة مني فلم يتركوا لي شيئاً أكتبه
 وعلى هذا لم يتحسن تحرير الجريدة . فاستاء رياض من ذلك وأجرى تحقيقاً كانت
 نتيجة أن عينت رئيس التحرير م رقيت بعد ذلك الى رئيس المطبوعات . وكان
 هذا قبل نهاية سنة ١٨٨٠

وكانت أول مرة لقيتك فيها عندما زرتك مع روجر في فندق النيل وقد أرسلت لك محمد خليل . وهو الذي جاء بك بعد ذلك لزيارتي في منزلي . وكنت أنتقد الحكومة بشدة في الجريدة الرسمية وكنت لا أضيق على الحرائد باعتياري رئيس قلم المطبوعات . ولكن لم تكن الثورة من رأيي وكنت قانماً بالحصول على الدستور في ظرف خمس سنوات فلم أوافق على عزل رياض في سبتمبر سنة ١٨٨١ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعراي في دار طلبه عصمت . وكان قد جاء مع عراي لطيف بك سليم وكان هناك عدد كبير من الاثريين . فنصحت لعراي بالاعتدال وقالت له : « اني أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا وان لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب في ذلك » فأجابني عراي أنه يرجو أن لا تقع هذه اللعنة عليه وأن سلطان باشا وعده بأنه سيحصر له عرائض لطلب الدستور ممضاة من جميع الاعيان . ولكن هذا صحيحاً . فان جميع العمدة كانوا مستائين من رياض لأنه منعهم من نسجير العمال وقطع هذه العادة . ولم ينضم سليمان أباطه الى الثورة لانه كان يعتقد أنه لم يشأ أو انها بعد وكان الشرعي باشا ضد الثورة أيضاً .

ولكن لما منح الدستور انضمنا جميعاً الى الثورة لكي نحى الدستور . ولكن عراي لم يتمكن من ضبط الجيش وكانت عدد الصباط مطامع عديدة . ولم أكن أعلم شيئاً عن مظاهرة عابدين ولم أخبر عنها قبلاً لاعتقاد أني من حزب رياض . ولكن المظاهرة دبرت برأى سلطان باشا وشریف باشا وكانت آراء الحديو كثيرة التقلب من جهة عراي . وقد انضم الى رياض والى داود باشا في محاولتهما سحق عراي . ولكن المتظاهرين أخبروا الحديو عن المظاهرة قبل حدوثها يوم وافق عليها لانه كان يرغب في عزل رياض .

حديث مع عرابي

في الشيخ عبيد في ٢ يناير سنة ١٩٠٤

نأتلى عن تاريخ أول اتصال الحديو توفيق بنا نحن الجنود . فأقول أنه قبل حادثة قصر النيل أرسل إلينا الحديو على فهمي لخبره بما فعل ولكن على فهمي كل مدقنا وانضم إلينا في العريضة التي رفضناها إلى رياض باشا وقبض عليه أيضاً معنا ولما رأى الحديو مكانتنا في عين الجمهور بعد حادثة قصر النيل أراد أن يستفيد بنفوذنا في مناوأة رياض فأرسل إلينا على فهمي بهذه الرسالة : « أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم » وكان هذا بعد شهر من حادثة قصر النيل . وقد علمنا أيضاً من محمود سامي الذي كلف وزيراً أننا لمنا حطوة الحديو . وقال لنا محمود سامي في ذلك الوقت : « اذا رأيتوني عزلت من الوزارة فاعلموا أن الحديو قد تغير بحكم وانه يريد بكم شرأ »

وكان في سنة ١٨٨١ عند بدء القلاقل في الصيف ثقب بمحمود سامي وكان رياض باشا وزيراً للداخلية يث علينا الصيون ويحمل البوليس براقبتنا .

وكلن الاستياء مني عظيماً لأنني رفضت ان اسمح سفر جنودى لكي يجمعوا قنة التوفيقية بأمر على باشا مبارك وزير الاشغال . فتغير الحديو لهذا السبب ولا سباب أخرى علينا وعزم مع رياض على ان يعملوا لشق الاتحاد الموجود في الجيش وذلك بنقشبت الفرق في أماكن بعيدة بحول بعدها دون اتصال الضباط فطلب الحديو وكان في ذلك الوقت في الاسكندرية من محمود سامي وزير الحرية أن ينفذ هذه الخطة فلما رفض محمود سامي تنفيذ هذه الخطة كتب إلي رياض يقول . « قد قتل الحديو استغاثكم » ثم أشرك كلاهما أي الحديو ورياض على محمود سامي أن يبرح القاهرة ويسافر إلى قرية قريبا من طنطا وان يلزمها ولا يعود إلى القاهرة او يكتب الضباط . ولكنه حضر إلى القاهرة ونزل في منزله فذهبنا لزيارته فرفض ان يقابلنا . علمنا انه يراد بنا شر . وعين الحديو بدلا عنه داود باشا يكن فاشتد غيظنا من ذلك وايضا انهم سيعاولون اهلاكنا

وفي اوائل سبتمبر عاد الحديو ووزراؤه الى القاهرة وعقدوا نيهم على أن ينهوا منا فاستشرت عد المال وعبد الفارقائد الخيالة في الجزيرة وفوده بك حسن التانمقام في القلعة وكان المير الاى في القلعة قد عزله محمود سائ قبل استقالته ولم يمين مكانه أحد . وكان الامير الاى من جنسنا ولكنه كان خائناً فاتفقنا على ان قوم عظامرة نطلب فيها عزل الوزارة وتعيين وزارة وطنية وعقد مجلس النواب وزليعة الجيش الى ١٨٠٠٠ رجل ولسكننا لم نغير على فهمي عن اتفاننا هذا لاننا لم تكن ثق به في ذلك الوقت كل الثقة . وفي صبيحة اليوم التالى كتبت طلباتنا وبشئنا الى الحديو في قصر الاسماعيلية واخبرته باننا سنسير الى ميدان عابدين في العصر لكي نتسلم حوايه . وسبب ذهابنا الى عابدين بدلا من قصر الاسماعيلية هو ان قصر عابدين هو مقامه الرسمي ولم تكن لنا ايضا رغبة في ازعاج سيدات القصر ، ولكنه لو لم يحصر الى عابدين لسكننا ذهبنا اليه في قصر الاسماعيلية .

فلما تسلم الحديو عريضتنا أرسل الى رياض وخيري باشا وستون باشا فذهبوا الى ثكنة عابدين لمطلب رياض والحديو الجنود وأمر ا على فهمي بأن يحتل هو وحنوده قصر عابدين . فأطاع على فهمي ووضع جنوده في الغرف العليا حتى يستطيعوا أن يضربونا بالدار من النوافذ ، ولكنني لا أدري هل كانوا قد اعطوا خراطيش أم لا ؟ . ثم ذهب الحديو ووزراؤه الى القلعة وخالطوا الجنود بمثل ما خاطبوا به في عابدين وطلب الحديو من فوده بك أن ينقض علينا ويحج قائله له : « سألقبك في السجن » . ولكن الجنود تكلموا حول مركبته يخاف الحديو وأمر السائق أن يسير به الى العاصية وذلك بإشارة رياض لكي يخاطبني أنا أيضا . ولكنني كنت حينئذ أخذت جنودى وذهبت الى عابدين عن طريق الخسنية . فسألوا عن المدافع فقبل لهم أننا أخذناها الى عابدين . فلما وصل الحديو وجدنا قد احتلنا الميدان ووجد الخيالة والمدافع تواجه الباب الغربى

وكننت عند وصولي الى ميدان عابدين قد علت بوجود على فهمي في القصر فبعثت اليه بكلمة فترك القصر وجاء الى الميدان وانضم الينا ودخل الحديو الى القصر من الباب الشرقى ولكنه لم يشب عنا طويلا فانه جاء اليا ومعه حرسه وقواده ولكنني

له أن كوفئ بينهم وربما كان مع ذلك هناك، فطلب مني الخديو أن أنزل عن حواذى
نزلت . فطلب منى أيضاً أن أعقد سيقى . فأعذته . وهنا اقترب منى الضباط لانهم
كانوا يخشون الحياة والقتل . ووقف بعضهم أى نحو خمسين منهم بين الخديو وبين
القصر . أما رياض فانه لم يخرج من القصر الى الميدان بل بقي فيه
فلما أفضيت الى الخديو بمجمل مطالبنا الثلاثة قال لى
« أنا خديو البلاد وأعمل زى ما أنا عاوز »

فأجبت « ونحن لسنا عبيداً ولن نؤثر بعد اليوم » فلم يقل شيئاً آخر ولكنه
رجع الى القصر . ثم ارسلا فى الحال كوكسون مع مترجمه فسألني لماذا اطلب وجود
برلمان مع آي جندى . فقلت له اننا نطلب ذلك لكي نقضى على الاستبداد وأشرت
الى سائر الوطنيين الواقفين وراء الخنود . فأخذ يهددنى وقال لى : سنطلب هنا
حيثاً أنجليزياً » وطال الجدال بيننا وكان يروح ويدويقنا وبين القصر وفعل ذلك
نحو أربع مرات ثم أخيرني فى النهاية بأن الخديو قبل كل شيء . وقال ان الخديو
يرغب فى تعيين حيدر باشا بدلا من رياض . فلم أوافق على ذلك . فلما سأل
الى أن أذكر اسم رئيس الوزراء الذى أرغب فى تعيينه ذكرت شريف باشا
وذلك لانه كان لا يعارض فى وجود مجلس نواب وكنت أعرفه قبل ذلك معرفة
قليلة فى زمن سعيد باشا عند ما كان فى الجيش . وفى المساء أرسل لى الخديو فذهبت
اليه فى قصر الاسماعيلية . وشكرت لمواقفته على مطالبنا فقال :

« كفى . كفى . أذهب الآن واجل عن عابدين ولكن بدون موسيقى فياشارع »
وذلك حتى لا يظن أحد اننا نفعل هذا لسرورنا

ولما حضر الى القاهرة على باشا نظامي واحد باشا راتب من قبل السلطان
خاف الخديو لثلاثا يتنح تحقيق . وكان محمود سامي وزيراً للحرية فأمرنا بأن نهرج
القاهرة فنحبت أنا الى رأس الوادى وذهب عبد المال الى دمياط وبقي على نهجى
فى القاهرة . فلم أر على نظامي . ولكنى كنت قد ذهبت الى الزقازيق لزيارة
صديقي احمد افندى الشمسي وسليمان باشا أناظه . ثم بعد انتهاء الزيارة ألقى القطار
الى رأس الوادى . وكان احمد باشا راتب فى نفس القطار وكان مساماً

الى السويس . فوجدت نفسي في مركبة واحدة معه فتبادلنا التحيات وتعرف كل منا بالآخر فاجبرني أنه يريد الحج وأشياء أخرى ولكنه لم يخبرني عن المهمة التي حان الى الخديو من أجلها وأنا أيضاً لم أسأله . ولكنني أخبرتته بأنني على ولا . للسلطان وقصصت عليه جميع ما حدث . فقال لي . « لقد أحسنتم »

وتركته في رأس الوادي . وبعد ذلك أرسل لي نسخة من المصحف الشريف من جدة وبعد ذلك لما عاد الى الاستانة نسخت خطاباً أملاه السلطان على الشيخ محمد ظافر يخبرني فيه السلطان بأشياء أعرضها

أما يعقوب سامي فهو من أصل أغريق من الاستانة . وقد ذهب بأمرى الى الاسكندرية لفتح تحقيق عن مسألة الهياج ولكنهم لم يسمحوا له بعمل التحقيق . وكان يعقوب سامي هذا هو راجب باشا صاحب الاقتراح بقطع رأس الخديو . وأنت تقول الآن انه كان يحسن بنا أن نفعل ذلك . ولكنني كنت أربح في أن تتم ثورتنا دون أن تراق فيها قطرة دم واحدة .

اضطرابات الاسكندرية

هذه مدكرة تاريخية وضعت في سنة ١٨٨٣ عن اضطرابات الاسكندرية التي حدثت في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ . وهي موضوعة على أساس الادلة التي قدمت عن أسباب الاضطرابات :-

« هذه هي الحقائق التي أسعر عنها البحث في مسألة الاضطرابات :-

- ١ - علي أثر الخلاف الذي شجر بين الحديو ووزراء . وأعضاء الحزب الوطني في مسألة المؤامرة الشركية (مايو سنة ١٨٨٢) اجتهد الحديو أن يجد قوة يعتمد عليها بدلا من الجيش الذي كان يؤيد الوزراء . فعمل لشراء مساعدة البدو الذين يقطنون اقليم البحيرة بين القاهرة والاسكندرية بواسطة رجل يدعى ابراهيم بك نوميقي . وقد اتفق في هذا السيل عشرين الف جنيه . حصلت قبيلة أولاد علي علي أكثرها . وقد جاء مشايخ هؤلاء العربان الى مصر فاستقبلهم الحديو استقبالا فخا واتفق معهم علي أن يدخلوا جاغفيا آمن رجالهم الى القاهرة بطريق الخيزة على نية أن يمدثوا هياجا في المدينة . وذلك أن حزب السراي كان جادا في ذلك الحين في اثبات أن الفوضى ضاربة أطنابها في مصر وكان غرضه من ذلك أن يقيم الحجة على عدم كفاءة الوزارة الوطنية . وقد فشل هذا المشروع بسبب ضعف البدو الذين خافوا دخول المدينة التي فصلها النيل عن صحرائهم والتي يكثر فيها الجنود . ولكن عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الشرطي استطاع بعد ذلك أن يقطع جماعة من قبيلة أولاد علي بدخول الاسكندرية ، وهي في منقطعهم ، غير مسلحين للعب دور في الاضطرابات أما أسلحتهم فقد حفظها لهم رجال البوليس وسلحوها لهم يوم الاضطراب
- ٢ - كان عمر لطفى ، رغم شركيته ، يتظاهر حتى أواسط مايو بأنه كأكثر للموغلين موال للمحركة الوطنية مؤيد لقائمين بها ولكن ما علم الحديو أن استقدم اليه عمر لطفى هذا بعد الانذار القنصلى التهامي الذي قدم في ٢٤ مايو سنة ١٨٨٢ والذي استقالت الوزارة الوطنية أثر تقديمه . فلما وصل إلى القاهرة عرض عليه الحديو يوم ٢٦ مايو منصباً في الوزارة التي كان يسعى الى تشكيلها . ولا شك في أن

عمر لطفي كان يفوز بهذا المنصب لولا عودة عرابي الى السلطة (وهذه نقطة مهمة لأنها تكشف عن سبب اهتمام عمر لطفي بعد ذلك باسقاط عرابي)

٣ - لما رجع عرابي إلى السلطة باعتباره الرجل الوحيد القادر على حفظ الامن والنظام وبعد ضمان الامن الذي أعطاه لقصاصل عاد الحديو الى مشروعه الاول ، مشروع خلق الفوضى واختلال النظام ولكن في ميدان جديد غير ميدان القاهرة . وكانوا ينتظرون أن يعمل درويش باشا بسرعة ليحكم بين الحديو ووزرائه فكلن ضروريا أن يجد الحديو مطلقا يتفرع به الى التشهير بالخوذا ، ومن ثم أرسل يوم ٣ يونيو الى عمر لطفي تلغرافاً بالشهرة هذا نصه : —

« ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك في الصحف وحمل نفسه مسئولاً امام القصاصل . فاذا نجح في حفظ الامن فلا بد من أن تثق به الدول وان يصيح ما بقي لاس اعتبار . أصف الى ذلك ان أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والحواطر متهبجة ضليك الآن أن تختار لنفسك : فاما ان نخدم عرابي في ضمانته للامن أو أن نخدمنا »

٤ - أرسل الحديو صهره حيدر باشا مرتين خلال الاسبوع التالي الى الاسكندرية وكان يقابله مقالة سرية قل ذهابه وبعد اياه . وكان حيدر باشا في الاسكندرية يوم وقع الاضطراب ، فلما انتهى الاضطراب عاد الى الحديو في الحلـ .

٥ - نشرت جريدة المهروسة (لسان حال شريف باشا التي كان يحررها سليم نقاش السورى الماروني) في الاسبوع الذي سبق الاضطرابات بياناً مكفوا عن اضطرابات حدثت في القاهرة . وكلن الفرض من ذلك اعداد الاذهان لقبول انباء اضطرابات الاسكندرية وقد وزع هذا البيان في دوائر الاسكندرية الرسمية ووصل التحقيق الي مصدر التوزيع .

٦ - احتشد البدو الذين تقدم ذكرهم خلال هذا الاسبوع في ضواحي الاسكندرية وقد لفت نظر المحافظ عمر لطفي الى اجتماعهم بلا نتيجة وكذلك لفت نظره بلا نتيجة الى احتشاد الرعاع في الاحياء الافرنجية بلا مبرر وخلافاً للعادة .

٧ - حدث يوم ٩ يونيو (أى قبل الاضطرابات يومين) انه بعد أن تخبر

الحديو مع درويش باشا مندوب السلطان ان استقدم الحديو عمر لطفي الى القاهرة على قطار خاص وبعد ان قفوزه طويلا مفاوضة سرية عاد عمر لطفي الى الاسكندرية في القطار الخاص . وهناك أدلة غير مباشرة على ان درويش باشا والشيخ أسعد حين وصلا الى الاسكندرية تسلم كل منهما هدية من الحديو فأخذ درويش ثلاثين ألف جنيه وأخذ أسعد تسعة آلاف جنيه وهذا المبلغان حصل عليهما الحديو من طريق رهن متلكلت زوجته الخصوصية .

٨ - في يوم ١٠ يونيو أى في اليوم السابق ليوم الاضطراب حدث اجتماع في منزل درويش باشا بين درويش والشيخ أسعد أحمد رسولى السلطان من ناحية وعرابي ومحمود سامي من ناحية أخرى ولكن هذا أول اجتماع بين درويش وعرابي . وكانت مقابلة درويش ودبة حداً وقد طلب من عرابي أن يتخلى له عن قيادة الجيش باسم المصاحبة العامة وأن يوافق على الذهاب الى الاسكندرية . وقد وافق عرابي على هذين الطالبيين بشروط أهمها ان يحل درويش باشا كتابة من عهد المحافظة على الامن وما تمه من المسؤوليات . وقد وعد درويش باشا ما جاء هذا الطلب على أن يسلم امرأى الوثيقة المطلوبة يوم الاثنين ١٢ يونيو بدعوى أنه سيعقد اجتماع بين الحديو والتماسل في ذلك اليوم وهكذا تركت مسألة التبخلي لدرويش عن قيادة الجيش الى يوم الاثنين أيضاً .

٩ - حدث في اليوم نفسه وهو اليوم التالى ليوم عودة عمر لطفي الى الاسكندرية أن استدعى هذا قنديل رئيس البوليس ليتفق معه على تدبير اضطراب سديقي ساعتين وقد كان قنديل مريضاً أو مجازئاً ولكنه أتى غير أنه لم يشأ ان يورط نفسه في المسألة فعاد الى منزله ولزم فراشه تاركاً قيادة البوليس لمحسن بك صادق . وليس عمة أدلة على أنه كان في النية عمل شئ . غير اضطراب ساعتين اثنتين . والراجح انه لو سلم عرابي مطالب درويش بلا شرط لكان التدبير قد اتى أو لكان الاضطراب قد وقع في أول لحظة بواسطة الحند النظامي الذي كان يستخدم حينئذ باسم السلطان وهنا يجب الا ننسى ان البوليس والمستعظمين كانوا تحت قيادة عمر لطفي وهو الذي كان يتقدم مرتبائهم وانه ما دامت لم تكن قد أعلنت حالة حصار فلم يكن في الطاقة

أن يتدخل جنود الجيش في المدينة الا بناء على أمر مكتوب موقم عليه من المحافظ أما المحافظ فلم يكن مسئولاً قانونية الا امام الخديو لانه منذ استقال محمود سامي لم يعين وزير الداخلية .

١٠ — حدث يوم ١١ يونيو يوم الاضطراب بالذات ، ان استأجر مالطى حاراً (وقيل مركبة في بعض الروايات) وبعد ان طاف على محال الشراب في الاحياء الاوروية وقف عند مشرب « القرار » ثم أخذ يتشاجر مع المكلوى أوالسائق وهو مصري مسلم يدعى سيد العجبان على الاحرة فلما تبعه هذا الى المشرب طعنه المالطى بسكين فاصى هذا الى تصميم المشاحة واتساعها ولما طلب الى البوليس ثم الى المستحقين بعد ذلك ان يتدخلوا أبوا أو انهم تدخلوا ليضيقوا ضيقنا على ابالة ثم أطلقت النار من منزل يسكنه مالطيون على اليهود في الشارع ثم جاء جماعة من المسلمين اكرم برابرة مساجين بالعمي من الحي الوطني في المدينة ودخل البدو الذين تقدم ذكرهم في المدينة أيضاً واشتركوا في الشجار وهكذا تحولت الحادثة الى معركة عجمية وقد اهتم القنصل الانجليزي الذي وصلت اليه رسالة من لطفي عمر وضرب . ولم يحضر عمر لطفي في اول الامر الى محل الحادث فلما جاء في نيابة المدينة ولم يفضل قط شيئاً من شأنه ان يقف الحاج لابل انه قد سمع بمحض بعض البدو على الضرب ولم يحضر عمر لطفي حتي العصر السلطات العسكرية ولا هو أرسل الانباء الي عرابي في مصر ولكن تبادلت تفرقات كثيرة بينه وبين الخديو . وقد أمره الخديو في تفراف من هذه بالأيستخدام الحد النظامي . ولكن اقترح عليه ان يقف الاضطراب الذي كان قد تحول الى مذبحه مستعيناً بأم آلات الاساطيل الاجنبية الراسية في مياه الاسكندرية . وهكذا لم ترسل رسالة الى سليمان سامي قائد الجنود الا بعد الساعة الرابعة ولم تكن الرسالة التي أرسلت بعد ذلك مكتوبة ، الامر الذي أدى الى تأجيل التداخل العسكري وقتاً آخر . على ان أغرب من هذا كله ان طلب تداخل الجنود على الا يكونوا مسلحين ، وأخيراً أرسل سليمان سامي الجنود مسلحين على مسئوليت في الساعة الخامسة وقع الاضطراب .

١١ — حدث بعد ظهر يوم الاضطراب ان أقيمت الافراح في قصر الخديو

وفي الديوان نفسه وصرح علماً فيها أن عرابي قد هدم . وهناك أدلة حجة على هذه الافراح التي أقيمت في السراي وعلى ما وقع فيه الوطنيون من الاضطراب والخيرة ولم يدع عرابي الى التدخل في الامر الا حوالي الساعة الخامسة تقريباً

١٢ — لم يتحدث بعد يوم ١١ يونيو تحقيقات جديدة عن أسباب الهياج رغم الحاح عرابي التابع في شأنها . وثبت ان الحديوي كل يستعين ببعض القناصل كما انه من المعروف ان بعض الاوروبيين لعب دوراً في المراحل الاولى من الهياج ، وانه حينما تولى راغب رئاسة مجلس النظار وبعد التناغم الظاهري بين الحديوي والحزب الوطني سمح بأجراء تحقيقات ولو أن المسألة كانت قد عرفت تماماً .

١٣ — لم يتحدث تحقيق علني ولا محاكمة مع كل من عمر لطفي وحسين بك صادق (الذي كان يتولى قيادة البوليس بالنيابة في يوم الهياج) بل على العكس من ذلك أعطيت أجازة لعمر لطفي من الحديوي عقب الحادث بقليل وكان على وشك سفارة القطر المصري حينما أطلقت التيران على الاسكندرية . وانه كان بعد ذلك يقابل بالترحاب في السراي ثم منح المنصب الذي كان وعد به في حالة سقوط عرابي وهو مركز نظارة الحرية الذي يتربع فيه الآن ويستمتع بكل ما يحوطه من الأبهة والشرف .

تقرير احمد بك رفعت

الذي كتبه سنة ١٨٨٢ وهو في السجن

عرفت أسباب حادث ١١ يونيو وعرفت المساعي الاخرى التي بذلت لاحداث مثله بفرض اسقاط هبة مجلس النظار الوطني وضباطه والحزب نفسه الذي كان يدير دفة السياسة في ذلك الوقت في أعين الدول الاوروبية .

وحينما نشأ الخلاف بين الحديوي ووزارة محمود سامي (وذلك قبل الانذار) جرت في القاهرة اشاعة فخواها ان الحديوي سيعمل بواسطة بعض أتباعه على اثارة مذبحه في القاهرة — حتى ان محمود سامي (وزير الداخلية حينئذ) وهو بمنزل عمر

بك رحى في ليلة من الليالي وصلت الى ماسمه هذه الاشاعة فدعى اليه حكدار البوليس في الحال وأمره أن يذهب على فوره ويزيد قوة الفزر الليلية وأن يصل كل ما في جهده لحفظ النظام وخرج الحكدار في الحال ونفذ الاوامر . وأسمرت الوزارة طول مدة بقائها في الحكم ساهرة على منع تحقق هذه الاشاعة على وجه خاص وحينما رأى الحديوى أن خطته في هذا السيل غير مكللة بالنجاح دعى اليه ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحصرهم اليه . وحدث ذلك فعلا . وحينما مثل الاعراب بين يديه قابلهم بترحاب عظيم ووعدهم بعود بجة وأنهم المدير أن يأمرهم بجمع ثلاثة الاف رجل من الاعراب وأن يحصروهم الى العاصمة عن طريق الحيزة — وأمله من ذلك أن الاعراب قوم لائظام عندهم ولذلك فالاضطرابات تنشأ في المدينة بوصولهم ويعكرو صفو السلام وينسب كل ذلك الى الجيش . وكان رأى ان الاعراب تدخل كهراس للحديوى . ومضى شهر ومشايخ الاعراب يروحون ويمجئون دون أن يتمكنوا من جمع هذا العدد الكبير واحضارهم الى القاهرة وسبب ذلك خوف هذه القبائل من جنود الجيش وحينما فشل الحديوى أيضا في هذه الخطة كتب تلهفاته بالشفرة الى عمر لطفى وكان حينئذ حاكما لمدينة الاسكندرية وأخبره بما يأتي « ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك في الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل . فاذا نجح في حفظ الامن فلا بد من أن تضع فيه الدول ثقتها وعندها يضع مالنا من اعتبار . أضف الى ذلك ان أساطيل الدول في مياه الاسكندرية والخواطر منهجة عليك الآن أن نختار لنفسك : أما ان نخدم عرابي في ضمانه للامن وأما أن نخدمنا » وسرعان ما ذاعت أخبار هذا التلغراف على اللسان وقيل حينئذ أنه من أحد موظفي مكتب التلغراف بالسراي .

وفي يوم الحادث (١١ يونيو) ذهبت الى ديوان السراي أو المية (كما نسميه نحن مكتب مدير البلاط) ووجدت موظفي السراي في سرور وفرح عظيم لما قد حدث . وكانوا يتحدثون عنه ويبالغون في أخباره ويهزأون بعرابي وبضمانه في حفظ الامن .

و كانت العادة المتبعة منذ الحديوى السابق أن موظفى السراى لا ينتقون الا ما يرضى مولاهم . وفى كل يوم يتحدثون بما يصل اليهم من الاخبار وكانوا يهشون ويفرحون ان كانت موافقة لهوى الحديوى وينظفرون بكل ما يمكن ان يكون من مظاهر الحزن ان كانت غير ذلك .

وفى اليوم التالى للحادث انتشرت الاخبار فى القاهرة ان الحديوى أرسل تلغرافا لى عمر لطفي يأمره فيه بما يأتي : « اطلب المعونة العسكرية من الاميرال ولا تطلب حودا مصرية . » وأن عمر لطفي أجاب على ذلك بقوله « أن الاميرال غير موافق حشية أن يحدث شي . آخر من الحنود فى المدينة مما يكون من الصعب تلافيه . »

وحينما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثني عشر يوما سمعت جميع الاهالى يقولون بلسان واحد ان المحافظ (عمر لطفي) هو الذى ترك الحادث يصل الى هذا الحد لانه كان هناك ولم يصدر أى أوامر بمنعها كما أنه لم يتوجه الى مكان الحادث لا بعد مرور بضع ساعات . وأنه لم يستدع الحنود النظاميين مع انهم كانوا على مقربة من المكان وقالوا أيضا ان هذا التصرف كان بتخريب الحديوى . وسمعت منهم أيضا انه عند انتهاء المذبحة كان المحافظ (عمر لطفي) ينتقل من مكان الى آخر وان احد الاوروبيين كان مطلعا من نافذة ويده مسدس فقال احد البدو للمحافظ « هل اطلق النار على هذا الرجل يا باشا » . فأجاب « نعم اضربه » . فاطلق الاعراب عليه رصاصة وقتله . وقالوا ان كثيرا من الاموال المسلوقة فى هذا اليوم الاسود دخلت بيته وبيت أقاربه .

وسمعت من الاهالى فى الاسكندرية أيضا ان (عمر لطفي) كان يمرض بعض الناس أثناء المذبحة بكلمات تشجيع وأنه كان يعمل اشارات لرجال البوليس مغزاها ان لا يهتموا بشي . ويقول « سيوم يموتوا ولاد الكلب » . وقبل الحادث ذهب حيدر باشا مرتين الى الاسكندرية وكان يعود فى كل مرة الى القاهرة وأنه فى يوم الهياج كان موجودا بالاسكندرية وحينما اتت عاد الى مصر . ورحل بعد ذلك مع الحديوى فى زيارته للاسكندرية .

وحينما الفت القصة للبحث فى أسباب الهياج لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي .

بل على العكس من ذلك أوعز اليه أن يستقبل بحجة المرض وان يقول انه يريد الذهاب الى أوروبا للاستشفاء. وبعد تنفيذ ذلك استمر متقلبا بين مصر والاسكندرية الى أن أعلنت الحرب وعدها استقر بالاسكندرية وأصبح (أو عين) ناظراً للحرية. وكان عرابي في أثناء ذلك كله عاملاً جهده للمحافظة على تحقيق ضيافته للأمن دائم المرور في طرقات القاهرة أثناء الليل ليتفقد بنفسه البوليس وأرسل أوامره لجميع الأنحاء ان يسهروا على حفظ الامن .

كان عمر باشا لطفي حاكماً لمدينة الاسكندرية أثناء الهياج وكان هو الشخص المسئول قانوناً عن الامن ولكنه أهمله أهلاً تاماً ان لم يقل انه عمل على زيادة الاضطراب فاذا كان ذلك الاهمال بناء على أوامر عرابي — كما يدعي عمر لطفي مع ان حله في مركزه كانت مباشرة مع الحديوي من يوم ان أصدر الحديوي مرسوماً يقول انه بعد استقالة سامي من وزارة الداخلية يكون مرجع جميع شئونها الى السراي — فكيف عين ناظراً للحرية امهل كان ذلك مكافئة له على اطاعته لاوامر عرابي ولخائفة لاوامر سيده الحديوي ؟ واذا كان الاهمال من عند نفسه وبدون اعزاز فكيف انه مع هذا الاهمال والعجز يعين ناظراً للحرية ؟ وكيف انه لم يوجه اليه سؤال واحد مع انه اول شخص يجب ان توجه اليه الاسئلة ؟ والحق ان مجرى الحوادث يفي في بيان واصح على ان الحديوي بالانضمام الى عمر لطفي هما سبب هذا الهياج ؟

وقد لعب الحديوي دور الدسائس نفسه في السودان واعتاد ان يكتب الى الحياكم هنالك ان لا يابه بتقدم المهدي رغبة منه في زيادة الاضطراب . وكانت التلغرافات التي ترسل الى السراي من حاكم السودان غير هذه التي ترسل الى ديوان الحكومة . وفي اليوم الذي أرسلت فيه الاخبار الى ديوان الحكومة بان المهدي قتل احتهدت السراي ان تنفي هذا الخبر وكان الحديوي يتضرع من أي انسان يمنح في حديثه الى الهدوء ونشر السلام

وحينما كان الحديوي في سراي الرمل بالاسكندرية أثناء الحرب كان الاعراب الذين قدموا أنفسهم اليه لاثارة التلافل متجمعين حول القصر . وهم الذين نهوا وحرقوا الاسكندرية وارجعوا المهاجرين من أهالي البحيرة وسلموا أمتعتهم واحترقوا

على هذه الحال الى ان عزل المدير الذي كان بشجهم وعوقب كثير منهم حتى امتنعوا خوفا من الجنود الذين وصلوا الى المدينة واحتلوها
هذا ما أعرفه عن الحادث ولو كنت خارج السجن لاثبتته بشهود لا يمكن دحضهم بحال من الاحوال .

تقرير الشيخ محمد عبد الله

الذي كتبه وهو في منفاه سوريا عام ١٨٨٣

قبل حادث ١١ يونيو مايا م قلائل أعلنت جريدة المحروسة (وهي جريدة تعبر عن رأي عمر لطفي) ان الاوروبيين في الاسكندرية يعملون استعدادات حرية . ولم تعلن ذلك لاهالي الاسكندرية فحسب بل للقطر المصري بأجمعه وعينت في الوقت نفسه عدد القديين يسلحون أنفسهم .

وقد دفعت غرامة الخبز - اذ لم يكن هناك أى داع لهذه الاستعدادات - بعض الايمان الى سؤال أحد محرري الجريدة عن الامر - فقال انه أمر بنشره ولكنه لم يبع باسم الشخص الذي أرسله اليه .

وقد ذهب يعقوب سامي (وكيل نظارة الحرية) الى الاسكندرية قبل الهياج بمدة خمسة أيام ليستقبل درويش باشا . وحينما وصل الى هناك سمع ان تلغرافا من القاهرة يقول ان الخديوى ذبح وحينما بادر الى السؤال بالتلغراف من القاهرة عن حقيقة الامر أباهوه ان الخديوى قتل حقيقة وان العاصمة في هياج والمذابح قائمة ضد الاوروبيين . فأرسل تلغرافا ثانيا وهو في حالة شديدة من اليأس والذهول الى مكتب قصر النيل فاستلم رداً مناقضاً للأخبار التي سبق له سماعها وتبين فيما بعد ان هذا الخبر المكذوب أرسل من مكتب الازبكية بالقاهرة وقصد به إثارة الخواطر بالاسكندرية ولكن وجود يعقوب سامي هناك حينئذ أخر الهياج الى زمن آخر .

وقبل الاضطراب الحقيقي بيعة أيام شوهدت حركة غير معتادة بين الاوروبيين في الحى المجاور للميدان الاكبر (ميدان القناصل) وقد وجه احمد افندي نبيه رئيس

بوليس الناحية انظار الضبطية والمحافظة اليها بدون أى جدوى . وكذلك قدم طاهر افندى الكردي من ضباط البوليس تقريراً عن معلوماته الخاصة عن هذه الحركة ولكن عمر لطفى لم يتخذ أى احتياطات .

بل ان عمر لطفى نفسه كان من أهم الشخصيات الظاهرة التي اعتادت حينئذ على عمل الولائم لرجال الحرية حيث كان يدعى الخطباء الى منزله وهناك كانوا يحضون على اعتناق مبادئ رجال الجيش . فهو الذى من لغيره الخطة وتبعه كثيرون من ذوي الجاه والنفوذ في عقد مثل هذه المجتمعات وكان هو أهم من يدعي اليها . وكانت هذه المجتمعات تطرق بالخطباء والصحفيين والاجانب وغيرهم . وكانت تلقى الخطب على مسمع منه دون ان يظهر أقل اشارة تدل على رغبته في منها . وأول شيء سمعته في سبيل هذا المنع كان تصريحه الذى نشر بعد ذلك .

ولكن سعادة المحافظ عاد أخيراً وادعى ان الهياج تسبب عن خطابات قديم مع ان خطابات قديم في ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات لانه كانت تدعو الناس الى عدم الاشتباك في مشاجرة حتى ولو أسيت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الادويين منها أيام ان تلك هي الغاية التي كان يرمي اليها الخصوم لاعطه الانجليز حجة بتسكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية . وهناك كثير من الاعيان يشهدون بذلك والحقيقة أيضاً ان قديم لم يكن في الاسكندرية عند حدوث الهياج بل كان في القاهرة .

بدأ الهياج عند الساعة الواحدة بمناظر في شارع ابراهيم على مقربة من مركز البوليس بين وطنى اسمه العجلان وآخر من الجنسية المالطية ضرب الاول واقتله الى الارض مدرجا في دماؤه . وحينما أراد شقيقه ان يستعين ببوليس ايطالى لقبض على المعتدى لم يكن من هذا أيضاً الا ان ضربه واساء اليه وعندها قابل هذا الشقيق أعمال البوليس الايطالى بالمثل . وتجمع الناس وأصيب أحد رجال البوليس بضربة من شقيق المعتدى عليه . وكان رجال البوليس من القلة بحيث لم يتمكنوا من تفريق المتجمهرين ولكن لم تكن الى هذا الوقت قد وجدت مشاغبات بمعنى الكلمة الى أن أطلقت أعيرة نارية من النواقد بواسطة فريق من الادويين .

وقد هاجم نفر من الاوروبيين المسلحين بعض أوياش الاسكندرية الذين قابلوا ذلك بجمع كل ما وقعت عليه أيديهم من عصي ومظلات وكراس من الخواتيت وقوالم الطاولات وغير ذلك ولكن سعادة المحافظ لم يخف الى مكان الحادث الا بعد ساعتين ونصف من ابتدائه . وعندها أرسل القنصل الانكليزي المستر ككسون لكي يلحقه الى هناك بدون داع نعرفه لهذه الدعوة . وما كان من القنصل الا أن حضر وأخذ يشق صفوف الجماهير المتشددة معرضا حياته للخطر .

ولم يادر عمر لطفي حينئذ الى دعوة هذا الفريق من البوليس الذي كان تاهأ للضبطية وخاصة لاوامره الخاصة . ولم يكن له علاقة ما بنظارة الحرية اذ كانت مرتبته وأنظمتها كلها في أيدي الادارة دون سواها . وحينما اضطر أخيراً الى دعونه (البوليس) طلب اليهم ان يحضروا غير مسلحين مما أدى الى اقتناعهم ان المحافظ يرغب في زيادة الاضطراب . ولقد حضر الى مكان الحادث بهذه الروح وعلى هذه العقيدة واشتركوا مع الرعاع في القتل والنهب وكانوا يرسلون ما تظفر به أيديهم الى بيت سعادة المحافظ .

وحيثما رأى المحافظ ان الحالة أصبحت من الخطورة بحيث أن مسؤوليته الجنائية محققة أرسل في طلب الاسلحة وأمر أن ترسل في عربة من عربات الحكومة . ولكنها لم توزع على البوليس الذي كان قد نشقت حين وصولها .

ولقد كان معسكر الجنود النظامية على مقربة من الحادث ولكنه ترك أربع ساعات طوال ثم دون أن يهم بدعوتها وحينما أرسل في دعوتها كانت رسالته شفوية غير قانونية فخاف رئيس الفرقة مصطفى عبد الرحيم من المسؤولية وأرسل يطلب ان يكتب اليه الطلب بالطريق الرسمي المتعاد . وحينما أرسل هذا الطلب خرجت الجند وفرقت الجماهير وأعدت الامن بشهادة جميع قناصل الدول الاجنبية أنفسهم .

وكان يقصد المحافظ من اهمال الانظمة والاصول العسكرية ان يطول الجدل بينه وبين قائد الفرقة وبذلك يساعد نيران الاضطراب ان تمتد وتنتشر . وقد قيل ان سمادته كل يحرض الناس على النهب وحين سئل عن ذلك بواسطة أحد من

وصلتهم الاشاعة قال « نعم فعلت ذلك لكي أحول أنظار الجماهير عن القتل » يا الله
السموات أنها سياسة رشيدة حقاً !

وفي أثناء الهياج طاف احد خدم المستر ككسون القنصل الانجليزي على
الادرويين وحرصهم على التقدم وان يثابروا على النصال .

وحينما كان المحافظ وقائد القوات العسكرية ووكيل الصبطة جلوسا في ديوان
الحاكم المختلطة بعد المغرب ساعة واحدة وصل اليهم خبر غزاه ان عربية مملوءة
بالاسلحة كانت متجهة الى دار القنصل الانجليزي . وبينما قابل المحافظ هذا الخبر
بدون أى اهتمام قام قائد القوات العسكرية وأوقف العربية وأمر غ ما بها في ديوان
الصبطة .

وحينما تبين لقائد القوات العسكرية للوجود في « باب شرقي » ان عمر لطفي
نفسه يمرض على الاضطراب هم بالقبض عليه . ولكنه لم يتمكن من ذلك بما أن
القطر لم يكن تحت الاحكام العرفية حينئذ ولذلك انتظر حضور وكيل نظارة الحرية
يعقوب سامي لكي يفضي اليه بمحققة المسألة . ولكن فكرة القبض قد تلاشت حين
وصوله الى الاسكندرية

وحوالى الساعة السابعة مساءً وصلت أخبار الى الاميرالاي مصطفى عبد الرحيم
أن قواربا تسرع الى الشاطي . وعليها جنود بريطانية بقصد ابصالم الى البلدة .
وفي الحال أخطر المحافظ الذي استبعد ذلك كل البعد ولكنه لم يقنع وتوجه الى
القنصل الفرنسي الذي رافقه مع فريق من الضباط وشرذمة من الجند الى شاطي
البحر . وهناك تأكدوا من صحة الخبر وتوجهوا توافاً الى القنصل الانجليزي وبعد
شيء من الجدل صدرت الاوامر الى القوارب بالرجوع ثانية بمن عليها .

ولقد احتج أغلب من قبض عليهم من المتهمين في اليوم التالي لقبض مباشرة
بأن الذنب ليس ذنبهم فقط بما أن سعادة المحافظ نفسه أمرهم بالتهب والاعتداء . ولو
أنه حصل تحقيق في هذه الايام القلائل الاولى لاحتصرت الشبهة بناء على أقوال
الاغلبية الساحقة من المتهمين في شخص المحافظ . ولكن الاميرال سيمور

يسمح بمثل هذا التحقيق لتلاشي السبب الذي اعتمد عليه في المطلق النيران على الاسكندرية.

ولقد كان عند السيد قنديل أوراق تين كيف ان الامر نظم بواسطة المحافظ والمندوبى ودبر بالاتفاق فيما بينهما ، وحيثما قبض عليه أجبر على تسليم هذه الأوراق ومع ذلك لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي بل على التقيض من ذلك رقي الى أعلى مراتب المهلة .

وحيثما قامت المذبحة في طنطا ذهب ابراهيم باشا آدم مدير الغربية الى بناء الحكومة وجمع بقية الموظفين والكتاب والسكرتيرين وأغلق عليه وعليهم الابواب تاركا الاهلين وما يضعون وبذلك انتشر الاضطراب وكان لابد أن ينتشر أكثر من ذلك لولا ان أحمد بك المنشاوى وأخاه — ولم يكونا من موظفي الحكومة — أخذوا الاضطرابات وأقعدوا أرواح اليهود والمسيحيين والاغنياء من الرعاع ومهاجري الاسكندرية . ومع ذلك لم يسأل هذا المدير أيضاً عن شيء وأعيد الى وظيفته بعد الحرب ... ألا فليسجل الله عنده في أم الكتاب وزر من كانوا سبباً في اراقة هذه الدماء !

وفضلا عن ذلك فإن من بين الاحكام التي أصدرت في هذه الايام حكم صدر من محكمة الاسكندرية العسكرية ضد عبد الرزاق علوان وكيل مديرية البحيرة أثناء الحرب قاضيا بنفيه خمسة عشر عاما الى « مصوع » وذلك لمعاومته وتخريضه لثوار في دمنهور ويعلم الله وكل انسان يعرف كيف أنه عرض حياته للخطر في سبيل خدمة الناس والمحافظة على أموالهم . والسبب الحقيقي في هياج دمنهور هو ابراهيم بك توفيق المدير — الذي رغم فصله من وظيفته في اليوم السابق على الهياج ، عمل على تنفيذ خطته قبل ان يستلم المدير الذي عين بدله أعماله — ومع ذلك أعيد الى منصبه في مديرية البحيرة عقب انتهاء الحرب . وقد أخذ هذا الرجل أيضا ما يقرب من اثنتي عشر ألفا من الجنيئات رشوة من الاهالى . وعلى الصوم فما عمله من سيئات كلن يستلزم زمنا طويلا لاصلاحه

وانى اعتقد ان الحكومة الانجليزية كانت مستعدة أن تغفو عن أى جريمة ارضا.

للسحتي بها، الخنا ب العالي الخديوى . ويظهر ان مهمة « اعادة النظام » التي تتلقاها الآن الحكومة الانجليزية تنحصر فى تجسيم مطالع سموه واثارة رغبته فى الانتقام هو ومن حوله . مضحية فى سيل امواتهم جهور الاهلين البانس . وتمتدق انهم الممكن ابهامنا على لسان الصحف ان اعادة النظام ونشر لواء العدل كان بفضل الخديوى ونظاره والجيش الانجليزى .

ولست هناك ابة حاجة لسؤال المصريين عن مبلغ آلامهم . اذ يكفى فى ذلك أن نصت الى تأوهاتهم وأحزانهم .

تقرير عرابى

حقيقة حوادث ١١ يونيو عام ١٨٨٢ التى وقعت بالاسكندرية

ان حزب السراى المكون من الأتراك والشر اكة عدو للانسانيتهم يمتقدون ان الله القدير لم يخلق المصريين الا ليكونوا عبيدا لهم وخدامهم الذين يتخطونهم آله لنشر سلطانهم المطلق تبعاً لما توحى اليهم أهواؤهم وهم فى كل ذلك يعاملونهم بقسوة واحتقار . وحيناً رأوا (الأتراك والشر اكة من حزب السراى) ان مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمرها وان فريقاً نابهاً من بين هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيدهم قد خطوا خطوات شاسعة الى الامام وأصبح منهم وزراء . يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة وان سواهم من ذوى المواهب قد ارتفعوا الى مناصب رفيعة من مناصب الدولة وأن الامة بدأت تستنشر الحرية . وتخلع عن أيديها اغلال الاستعباد وان كل ذلك يحدث فى جو من الهدوء والسكينة — كبر ذلك جدا فى أعين خصوم المصريين وتبين لهم ان لاسبيل الى وضع العراقيل فى سبيل التقدم المصرى الا بأثارة حملة وحشية ذنيئة ضد أوروبا نعملها على انخاذ تدابير فعالة لاطفاء جذوة المصريين الثعلبين واخراجهم من وطنهم — اذ اتهم يولوجهم هذه الفاية بخلوهم الجول لاعادة عهد الاستعباد فى مصر — ولذلك اتفقوا فيما بينهم (حزب السراى) على تنفيذ هذه الخطة مستخدمين العيان الذى كنت أعطيك

للأوروبيين عن سلامتهم وحفظ الأمن في جميع أنحاء القطر المصري (وهو الضمان الذي جعلني الحديوي أعياه في حضرة درويش باشا مندوب السلطان وجميع قناصل الدول الأوروبية) وأخذوه وسيلة لتنفيذ مؤامرتهم - حتى يتمكنوا بذلك من تشويه حركتنا في نظر الأوروبيين - وأداة ذلك هي :-

أولاً - أرسل الحديوي الى عمر لطفي محافظ الاسكندرية أن يحضر اليه بقطار خاص في ٩ يونيو عام ١٨٨٢ وحين وصوله دارت بينهما محادثات طويلة زوده فيها بمعلومات خاصة بتنظيم الاضطراب في الاسكندرية وفي اليوم نفسه عاد عمر لطفي وبدأ في تنفيذ الخطط المتفق عليها حتى انه في ١١ يونيو (أى بعد أخذ المعلومات من الحديوي بيومين اثنين فقط) انفجر الاضطراب - ودليل ذلك هم جنود البوليس أنفسهم - الذين ارتكبوا أغلب جرائم القتل أمام باب رئيس البوليس وباب الضبطية. ولم يتم جنود البوليس بواجبهم على خلاف المعتاد ولم تحضر الخنود الى مكان الحادث الا بعد أن تلقاهم الخطب وحينما حضروا كانوا كالنظارات بدون سلاح - وذلك على خلاف ما يقتضي به واجبهم - وفي أثناء كل هذه الحوادث كان المحافظ وقائد الجندمة اساميل كامل باشا الشركي يراقباتها من أولها لآخرها ومع ذلك لم يتحركا الى استدعاء الفرق (الخنود النظامية) - لاطفاء الفتنة الا بعد ان وصلت الى ذروتها ونفذت أوامر الحديوي السرية ولو انه كان في استطاعتها أن يستدعيا الفرق في الحال اذا أرادا

ثانياً - لم يعطى عمر لطفي أى معلومات عن هذا الحادث مع انه يعلم انني أخذت تحت مسئولتي وبضامني حفظ الأمن والسلام في جميع أنحاء القطر وأن بيانا بهذا الشأن أعلن بواسطة الحديوي ونشر في جميع الجرائد المصرية والافرنجية .

ثالثاً - أن عمر لطفي بعد أن صنع كل ذلك - اذ هو المحافظ المسئول عن كل ما حدث في المدينة - عين رئيساً للجنة التحقيق في الحادث المحزن ثم طلب الأذن بالسماح له بالسفر الى الخارج لتبديل الهواء ولم يتأخر الحديوي عن اجابته الى هذا الطلب . وبعد ذلك اعتزل العمل ولكنه بقي في القطر لاعمال خاصة به الى أن قامت الحرب وعندها ذهب الى الحديوي في الاسكندرية عن طريق بور سعيد

وعين حينئذ ناظرًا لحرية . وكذلك فعل زميله اسماعيل كامل باشا الذي عين فيما بعد وكيلًا لمظارة الحرية — كل هذه أدلة بيّنة على أن الهياج دبر أو نفذ بواسطة الخديوى بالاشتراك مع عمر لطفي باشا واسماعيل كامل باشا وبقيّة خصوم المصريين وذلك رغبة منهم في إثارة الاوروبيين ضدهم .

تقرير أحمد بك رفعت

المقدم لمستر بلنت من تونس في عام ١٨٨٣

لا يزال يوجد أناس عندكم الحرّة الكلفة أن يقولوا ويكتبوا أن الحزب الوطني المصري ورئيسه مسئولون عن حوادث ١١ يونيو المشنومة بل أت بعض الكتاب لا يتردد في ذكر أسماء معينة وزعم أن أصحابها هم المحرضون على ما حدث في اليوم المشنوم وذلك رغم ما أظهرته التحقيقات الأخيرة . وذهب بعضهم وهو يحاول أن يشرح الحوادث ويمجراها أن يعين الفرض الملتقى من الهياج فكان في شرحه متناقضا حيث يقول « رغبة في القاء اللوم في بحيلة الباشا التركي (درويش باشا) من ناحية ومن ناحية أخرى في التعظيم من مركز عرابي الممتاز الذي اعتبره القناصل مسئولًا عن الأمن العام عند الثوار الى تدبير اضطراب بدون تحديد لطيفه أو شكله يخمد عرابي بعد ذلك بمجرد رفع يده » .

ونصفتي سكرتيرًا عامًا للحكومة المصرية في عهد عرابي ولا ملامى بأحوال بلادي وأحوال رجالنا أراي مضطراً خدمة للحقيقة والوطن أن أبسط هنا المعلومات والشواهد التي تدحض هذه الابطال دحضاً نهائياً . واني أعطيك هذه المعلومات التفصيلية بسرور عظيم لعلي باهتمامك الدائم بمصير هؤلاء المصريين الذين كلن ذنبهم أنهم أحبوا بلادهم ودافعوا عنها . كما أتى لم أخف أن أقدم هذه المعلومات أليم كنت سعيداً مع عرابي ورأيت بعيني رأسى رجالا يعدونها مفخرة أن يسبوا هذا الرجل الذي كان رمزاً لمستقبل بلادهم والذي لا يزال في صدقه وحرية ضميره كذلك الى الآن .

في يوم الاحد ١١ يونيو كان القومسير المماني درويش باشا ممتطياً عربته في الشارع المؤدى من سراي الجزيرة الى كوبرى قصر النيل . وكان حينئذ قد عقد اجتماعاً طويلاً في قصره الخاص مع عرابي باشا وجميع النظار السابقين ومتوجهاً بعده الى سراي الاسماعيلية حيث يقم الخديوى لكي يعرض على مسامحه تفاصيل ائتلاف اتفق عليه والذي الى حد قولهم كان يوفق بين الخديو الصغير المخلص وبين نظاره . وحينما وصل درويش باشا الى الكوبرى قابله طلعت باشا سكرتير الخديوى الخاص الذي كان مرسل اليه من قبل سيده ليخبره عن حدوث هياج في الاسكندرية وانه لا يزال مستراً منذ ثلاث ساعات وان الادريين والمسيحيين يذبحون في كل مكان . وكانت تلقى هذه الاخبار لدرويش باشا في هيئة الانتصار اذ ان وجهه طلعت باشا كان مشرقاً ياتلق . وكأنما أراد أن يقول بذلك ان عرابي الذي عمل من أجله كل ما عمل هو سبب هذا الهياج . والحقيقة ان عرابي كان قد تعهد في محضر من جميع القناصل أن يحافظ على الامن العام ولن يبيده اذا ما اضطرب أقل اضطراب . والآن هاجم الحوادث تكذبه وللذبايح دائرة منذ ثلاث ساعات وهو عاجز عن ان يفعل شيئاً لاعادة النظام . ولم يكن هناك شيء . أسعد ولا أسر لانصار الخديوى من ذلك . وكلت جل أملهم أن يسحق عرابي باشا ولو سحق في سبيله السلم الصموى نفسه . وما كان من درويش باشا حينئذ الا ان ارسل رئيس أركان حربه الذي كان معه في العربة الى عرابي . واذا كنت حاضراً في هذه اللحظة فقد أفسحت مكاناً لرسول درويش باشا في عربتي . وأخذته الى منزل محمود باشا سامى حيث كان يوجد عرابي حينئذ .

ولم نلبث الاخبار ان انتشرت في المدينة فزع الناس وأسقط في يد عرابي وأصحابه . بينما كانت سراي الخديوى في افراح . وكان محافظ الاسكندرية يجهز رسل عرابي بأن الجيش قبض على ناصية الموقف وأعاد الامن الى نصابه وفي الوقت نفسه كانت الاشاعات للدهشة تنتشر بين الناس في الطرقات . . . فالبعض يقول وكأنما هو يصل في ذلك بناء على تعليمات خاصة ان عرابي أصدر أوامره باقامة المذبحة دون ان يعطي ايضاحات أخرى . ويقول آخرون بلهجة الرجل الاكثر اطلاعا ان

الحركة دبرت بواسطة رئيس النظار السابق محمود باشا علمي الذي يتولى قيادتها ولكن المتدربين رأوا في المسألة مؤامرة خطيرة ولو أنهم لم يبدوا رأيا حاسما في الموضوع، اذ أنهم لم يعتقدوا ولم يتصوروا ان عرابي له علاقة بهذا الحادث لا مباشرة ولا بالواسطة .

ففي ٢٨ مايو اى قبل الحادث بأربعة عشر يوما أعلن عرابي الدول انه يتعمل تحت مسئولية الشخصية استتباب الامن والنظام . وكذلك أدرك عرابي واعلم ذلك مراراً في صراحة تامة ان سلامة مصر تتوقف علي استتباب النظام فيها . وكان يمارض دائماً في انزال الحديوي من على العرش بحجة انه حامى الحديوي من مثل هذه الطوارئ . . وقد أراد بهاتين الظاهرتين أن يطمئن القناصل على حياتهم وأنفسهم وأن يهدى . خواطر الجماهير . فكيف يتأني لهذا الرجل نفسه في لحظة هو أدرى الناس بخطورتها أن يسفه مبادئه ويعمل على قض ما وعد به ويظهر عجزه يديه ؟ ولو أن عرابي حقيقة كان يملك أن يوقف الهياج باشارة من يده كما يقول الكاتب سالف الذكر لكان لنا أن نقول كما يقول هذا الكاتب ان عرابي أراد ان يتظاهر بقوته ولكن ما الحكم اذا كان الحديوي لم يكلف نفسه حتى ابلاغ ناظر حرية بما حدث ولم يعلم عرابي باشا عن الحادث الا من طريق درويش باشا وكان ذلك بعد ابتداء الهياج بثلاث ساعات . فمن الطبيعي اذاً أنه لم يوقف ولم يتمكن أن يوقف الهياج باشارة من يده .

ولكن هناك حقيقة لاشك فيها وهي أن الحادث كانت له مقدمات تنبئ عنه وكان يدبر وينظم بمهارة تفوق الوصف . فقد ثبت أن بعض المتدربين السريين قاموا بتوزيع نايبت على الرعاع قبل حادث ١١ يونيو بيضة أيام قط . وان هذه « النايبت » ظهرت في أنحاء المدينة المختلفة دفعة واحدة وفي اللحظة التي قتل فيها المكاري بواسطة المالطي لسبب تافه . وثبت أيضاً أن طائفة المكاريين — وكانت معروفة بالهدوء والسكينة ومحبتها « القشيش » — لعبت دوراً خطيراً في هذا اليوم المشئوم تحت تأثير هذه الرشوة الصغيرة وأن بعض الأروام والبدو كانوا مسلحين بالسدسات أثناء الهياج ومحتمين في مخالي . يمازل معينة وغرضهم الوحيد

اشعال المذبة باطلاق النيران خلفه على جماهير الاوروبيين والمصريين وثبت أن بعض المشايخ المتحمسين انطلقوا من مكان لا يعرفه أحد وأخذوا يجرسون الاهالي على ذبح جميع المسيحيين . وأن قوة البوليس التي أرسلها المحافظ في الظاهر لتخمد الفتنة كانت تفر النمل بجراها بدل أن تحبهم وأن بعض المهاجرين البؤساء كانوا يقتلون علناً بواسطة رجال الضبط أمام أعين رئاسة البوليس ومعها . وثبت أن البدو الذين حضروا الى الاسكندرية من البقاع المجاورة لما كانوا على وشك أن يفروا بدورهم في النهب لولا أن ظهرت قوى الجيش النظامية وأجبرتهم على التراجع ولو أن ظهورها كان بعد أربع ساعات من قيام الفتنة

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن أم رسل هذه الفظائع والجرائم كانوا من الاروام والمالطين الذين لا يمكن اتهامهم بحال من الاحوال بالتمصّب للاسلام ضد الاوروبيين وكذلك المكاريين الذين يتكلمون قليلا من اللغة الانجليزية والفرنسية ولا يظن أنهم يحملون بضاً او كراهية للاوروبيين وكذلك البدو الاعراب من اهالي البحيرة الذين قتل منهم شركة روتر التلغرافية قبل المذبة بقليل أنهم قدموا اقرارهم بالولاة والطاعة لاعتاب الجناب الحديوي في مظاهر فحمة خلانة

ومن جهة أخرى فان محافظ الاسكندرية يفسر تروايه في ارسال الجيش النظامي لاختاد الفتنة بخوفه من انضمام الجند الى الثوار . ولكن معادته لم يفسر لنا ولم يسأل بتاتا كيف أن خوفه هذا الذي استشعره عند بدء المياج قد تلاشى حينما اشتدت المذبة ووصلت الى ذروتها .

ولكن الحقيقة في كل ذلك والتي كان عمل التلغراف المتصلون بالسراى على استعداد الى بسطها هو أن مراسلات عدة كانت تتبادل بين محافظ الاسكندرية والحديوي عقب اندلاع الفتنة مباشرة وكانت كلها تدور حول ارسال فرق من الاسطول الانجليزي أو الفرنسي للتدخل في الامر . ولقد كان الحديوي الصغير لمدة من الزمن ينتظر بضاغ الصبر نزول القوى الاحبية الى أرضه التي كانت مرسلة لتثبيت سلطانه وأن يراها في القاهرة نفسها وتقبض على عرابي وجميع الوطنيين ثم تعود ثانية الى بوارجها وهي تشد شيد المجد لحنايه العالي . ولقد كان حلد

باشا ابن عم الخديوي في الاسكندرية في يوم الهياج وساعد كما قبل على ذبح المسيحيين
البؤساء، وقد كان قبل ذلك يعقد اجتماعات طويلة لمدة أيام متتاليات مع الخديوي
في « الحرم الملك » وكانت دائما تعقد في المساء . ولم يلجأ المحافظ الى الجيش المصري
ليضع حدا للمذبحة وذلك باتفاقه مع الخديوي الا بعد فشل مفاوضاته مع قواد
البحر الاوروبيين لارسال قوى من قبلهم . وهذه معلومات لها قيمتها عند جميع
هؤلاء الذين يسمح لهم مركزهم أو تسمح لهم معلوماتهم عن السياسيين المصريين
أن يكونوا رأيا صائبا عن حوادث ١١ يونيو .

وهناك مسألة باقية ليست حقيقتها معلومة للجميع . وهي أن محافظ الاسكندرية
في وقت الهياج هو عمر لطفي وعمر لطفي هذا هو الروح الثانية لبراهيم المفتش
صاحب الموارد والارادات الضخمة والمفتش السابق لوجه القبلي الذي اشتهر بأعمال
« كراباجه » في الاهالي . وكان تعيين عمر لطفي في عهد وزارة محمود سامي بناء على
إلحاح وتوصيات الخديوي الخائرة . اما عرابي باشا فقد كان شعوره الشخصي وما هو
مولع به من الاستقامة ضد هذا التعيين وكان يشعر دائما بقلق من جرائمه . ولكن
رئيس النظار حينئذ كان يثق في كفاءة عمر باشا لطفي الشخصية ويعتقد انه لا يجرؤ
مطلقا على خيانة الحزب الوطني ولو انه لا يفتسي اليه وفي الوقت نفسه كان يرى في هذا
التعيين ارضا للخديوي (وذلك قبل وصول القوى الاجنبية) الذي كان دائم
التضجر مستمر الإلحاح في هذا التعيين ويقول أن الاسكندرية في حاجة قصوى الى
محافظ نشط قادر يملك حفظ الامن بها — وقد تنجح في الحصول على موافقة مجلس
النظار على هذا التعيين . وفي اليوم الثاني للمذبحة حصل عمر لطفي على اجازة غير
محدودة المدى من الخديوي وأعد معدانه للابحار على أول باخرة تقوم من الميناء .
وقد كونت ثلاث لجان بالتتابع للبحث في أسباب الحوادث واكتشاف المجرمين
الحقيقيين ولكن لم تنجح واحدة منها في مهمتها ولم يصلوا الى نتيجة ما بل ان لجنة
التحقيق بالاسكندرية حينما عاقبت أخيراً فريقاً من هؤلاء الذين قد صيبت أيديهم
بدماء الحوادث كان ذلك لانهم آلات لم تؤت من الذكاء القدر الكافي الذي ينبغيها
من الانهام . مع ان الاشخاص الذين دبروا كل شيء وساروا في تنفيذه لم يرد لهم

ذكر مطلقاً في التحقيقات — لماذا ؟ هذا هو بيت القصيد .

هذه يا سيدى هي الحقائق والمعلومات التى يمكننى ان أبسطها لكم ومهما كانت الاستنتاجات التى يمكن الحصول عليها مما ذكرته فأنى أظن انى قد أثبت كذب الاتهامات التى تكلم عن قصد أو عن جهالة ضد الحزب الوطنى المصرى وضد رئيسه . وانتمى مستعد ان أقسم على صدق هذه البيانات امام أى محكمة بل ومستعد ان أذهب الى لندن نفسها لأعطاها واعطاء جميع الايضاحات اللازمة .

ملحوظة — كل هذه البيانات التى أعطيت عن الحادث قدمت للورد راندلف نشرشل فى عام ١٨٨٣ وقدمت بواسطته على ما أظن الى ادارة الشؤون الخارجية . وكذلك قدمت اثباتات اضافية أخرى كنت جمعها بنفسى الى المستر جلادستون ليحتمها ولكنه أبى ان يقوم بهذه المهمة .

مذكرة مرفوعة للورد راندلف نشرشل

فى عام ١٨٨٣ عن رأى المستر بيان فى الحادث

لشهادة المستر بيان عن منشأ مذبحة ١١ يونيو أهمية كبرى نظراً للظروف التى أحاطت بمركزه فى مصر ولما هو عليه من الخلق العالى فى الوقت نفسه . فن المعلوم أنه كان مترجماً فى دار المندوب البريطانى حين نشوب الفتنة وكان بهذه الصفة فى احتكاك مستمر بالسراى والوطنيين من قبل السير مالىت . وأنه فى شهر يوليو فى زمن انقلاب العام الذى سبق الحادث تركه السير مالىت وفى عهدته السجلات الرسمية وقد استمر فى القاهرة الى ما قبل اطلاق النار على الاسكندرية يومين اثنين فقط وكذلك كان المستر بيان من أول من نزل الى أرض الاسكندرية بعد الحادث واشتغل شهراً مع اللورد شارلز يوزفورد فى البعثة البوليسية وهو صاحب الفكرة فى معاقبة الذين ارتكبوا أعمال النهب والقتل والحريق . ثم التحق بعد ذلك بأركان حرب السير جازنت ولزلى وحضر جميع وقائع الحرب وأنه بعد عودة السير مالىت عين هو والسير شارلز ولسن لمراقبة الاجراءات المتخذة فى محاسبة عرابي من قبل

حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا. وأنه استخدم في ترجمة الاوراق العربية المتعلقة بهذه القضية ومن بينها أوراق عرابي الخصوصية . وأنه وضع بالاشتراك مع الميجر شرميد تقريراً نشر في الكتاب الاخضر عن حالة السجون المصرية وهو تقرير استحق عليه الشكر من اللورد جرانفيل وأنه حين اعتزاله خدمة حكومة صاحب الجلالة الملك في ديسمبر عام ١٨٨٢ قدم له الشكر على خدماته من كل من اللورد جرنفل واللورد دفرين . وأنه من ذلك الوقت عاش في مصر حيث تولى بعد ذلك الدفاع عن قنديل وسجناء آخرين متهمين بالاشتراك في المذبحة . ولذلك كانت شهادته ذات قيمة خاصة بل هي أفضل ما يقدم في هذا السيل . ويمكن استخلاصها من التبذ الآتية المنتقاة من خطابات مختلفة .

ففي خطاب لمستر بلنت من لندن في ٦ نوفمبر عام ١٨٨٢ يقول « ان رجال السراى هنا في اربيلك عظيم أمام وصول اللورد دفرين الى هنا باكر . ولقد كان وصول برودلى صدمة قوية لمهم ولكن وصول اللورد دفرين هو الضربة الاخيرة . واني أعتقد في اللورد دوفرين أنه رجل فطن سيتمكن من فهم صاحبنا توفيق بسرعة وعلى ما علمت أنه سيفتح أذنيه لكل انسان وأن البعثة المؤقتة ستدعم بمعلومات أدق بكثير مما كانت عليه الحال مع دار الصيد في جميع الأوقات . ولقد حادثت كثيرين من الوطنيين قبل ضرب الاسطول لميناء الاسكندرية وهم من جميع الطبقات والاحزاب ووقفت على حقيقة القور من أبطاله الأربعة — انجلترا وركيا وعراي وتوفيق . وكان لون كل منهم واضحا تمام الوضوح » .

« . . . واني أظن أن مسألة ابراهيم أغا وحدها تكفي أن تدل على حقيقة انجاء الحديوى . فقد سمعت القصة كلها من السراى مباشرة — وكيف أن توتنجي قبل يد الحديوى وطلب أن يسمح له بأن ييصق في وجه السجناء الخ . وهذه هي المسألة التي حقق فيها السير شارلز ولسن ووجد أنها صحيحة من أولها لآخرها ولكن بما أن الحديوى كان لابد أن تظهر له عورات في هذه المسألة فقد تركت جانباً ولقد اقترحت حينما رأيت أن جميع الشهود حاثون في ابحاثهم ان البمين التي تطلب منهم هي بين الطلاق (على الطلاق بالثلاثة) وكان السير شارلز ولسن لمن رأبي

يضاً ولكن المسألة وقتت عند هذا الحد . وعائلة الخديوي نفسها لا تخفى حقيقتها لأن فيما بين أنفسهم ولا تحاول إخفاءها ومع ذلك فهذا هو الرجل الذي ذهبنا نحارب من أجله في مصر .

وفي السابع عشر من الشهر نفسه كتب يقول « المسألة تدور الآن على ما لو سمح للسجونيين وأعطيت لهم الفرصة في أن يسمع دفاعهم عن أنفسهم بإخلاص . لاني مقتنع الآن أن الحكومة هنا تعمل كل ما في وسعها لمرقلة اجراءات المحاكمة . وذلك لان المحققين التي تسفر عنها مناقشة المتهمين عس جميع الرجال الذين في الحكم الآن وتظهر حقائق غير سارة عن الخديوي نفسه . ولهذا السبب الأخير اعتقد أنه من الممكن ان تتفهم الحكومة الانجليزية مع عرابي على شروط معينة لانه من المؤلم جداً أن تظهر المحاكمة أن الرجل الذي أرسلنا جيشاً الى مصر للانتصار له هو أكبر رجل دجال فيها . وأنا شخصياً لا يكاد يخافني شك في أن الخديوي وعمر لطفي دبرا مذمعة الاسكندرية لكي يطعننا عرابي بها بعد ان جعل نفسه مسئولاً عن الأمن العام وأن عندي أدلة تكفي أن يجعل ظني أقرب للاعتقاد منه لأي شيء آخر ولكن لم يكن الوقت لاظهارها » .

وفي اجابة له على خطاب سئل فيه أن يعطي معلومات أوفى وابطاحات عن حادث ١١ يونيو قال :

١٧ فبراير سنة ١٨٨٣

« اني مسرور أن أسمع عن الحلة التي تمدها ولكني أرى أنه من الصعب جداً أن تظهر مسؤولية الحكومة التي تخلصت من شبائك الحادث بكل مهارة وخفة . أنت تسألني أن أعطيك براهيناً تؤيد نظريتك وأنا شخصياً ليس عندي شهادة معينة . حينما حضر اللورد دوفرين أخبرته ان المذمبة نشأت في الحزب الفرعوني (الحزب الخديوي) ولم تكن سياسة خاسرة فيما يتعلق بأنفسهم لأن غرضهم الواضح منها أن يشوهوا سمعة عرابي بعد أن أعلن ضمانته ومسئوليته عن الأمن العام ولكي يدفعوا الأوروبيين الى العمل على استقالته . وكان الرأي القائل بالصاق الحادث به مضحكاً حقيقة لانه كان انتحاراً له وقد أدر كوا جميعاً ذلك حينئذ . وحينما طلب الى اللورد دوفرين

أن آى له باثباتت تؤكد اعتقادى ان كلن عندى شىء منها ذهبت اليه في التهاية وأخبرته أنه لو أعطي ضيائاً كثنائاً لشهود أن لا يمسم أذى لاحضرهم اليه — بما أي لا يمكنني أن أحضرهم قبل ذلك — والشيخ عبده ورفعت يعرفان الحكاية من أولها لآخرها تماماً — وهؤلاء الشهود يشنون أن عمر لطفي أمر سليمان سامي أن يرسل اليه الفرقة بغير سلاح ولكن سليمان سامي أبى أن يستفعل هنا الاستفصال ويرسلها بهذا الشكل لادراكه ما يترتب على ذلك من النتائج وفي الوقت نفسه كان يدرك ما يصح ان يقال لو بقى بمجنوده بعيداً بينا المذبحة قائمة على قدم وساق ولذلك توجه بفرقة بعد تردد ساعة من الزمن وكانت مسلحة على قبض أوامر عمر لطفي وأخذ الفتنة . وفي مكنتي أن أحضر الرجل الذي تلقى الامر من عمر لطفي وأوصله الى سليمان سامي . ويمكنني أن أحضر شخصاً آخر سمع عمر لطفي يحرض أوباش المذبحة في الطرقات على أن يجزوا منازل المسيحيين على من فيها وأن لا يتركوا منهم أحداً . وهنا صالح اللورد دوفرين وقال أنه ليس من شأنه أن يحاكم عمر لطفي وكان ذلك قبل ظهور برودلى في الميدان وبعد ذلك مضيت في مجهوداتي معتبداً على نفسي فيها ثم التجأت الى برودلى وعكنا في النهاية من الحصول على شهادة الذين أرسلوا الرسالة الشفوية من الحديوى الى عمر لطفي في الليلة السابقة للمذبحة وفيها يأمره بإقامة الاضطراب — وذلك يضر الانسراح الجنوني الذي قوبلت به أخبار الفتنة في السراى — بقولهم « الآن قد فطنناهم » وكان جميع رجال التشريفات والحكم يرتصون من الفرح وغير ذلك من مظاهر النبطة والسرور . ومما زاد هذه الادلة وضوحاً تمييز عمر لطفي نظراً للحرية (أعرفاً بخدماته في ذلك اليوم) بدون أى سبب خاص يدعو الى ذلك التمييز أو كفاءة شخصية له . وإذا لم يكن مداناً حقيقة فلا يمكنه أن يهرب من نعمة الاهمال الثابت والعجز وعدم الكفاءة كحافظ يتحتم عليه اخذ الفتنة التي تح كل مسؤوليتها عليه دون سواء . ولكنه رغم كل ذلك عين ناظرًا للحرية . وهذه هي اعقائتي التي تغلب بها برودلى على الخصوم في جميع مساعيهم . ولا بد انك لاحظت — كما لاحظ كل انسان هنا — كيف أن مسألة المذبحة التي كانت في قلب

الامر قصب السبق المحرز ضد عرابي أخذت فجأة ثم توارت من الميدان بهذا الحكم المصحك »

وفي ٤ مارس كتب المستر يمان ليخبر المستر بلثت أن قنديل وسليمان سامي وآخرين طلبوا اليه أن يدافع عنهم امام محكمة الاسكندرية العسكرية التي كانت تتجه بواباها الى اعدامهم ثم أضاف الى ذلك بقوله :

« ولقد كانت الورقة الزاجعة في يدي في هذه الالة هي الشهود بطبيعة الحال الذين كنت اعدد باحضارهم لانهام عمر لطفي مباشرة والرأس الكبيرة بطريق غير مباشر . وأظن ان الحكومة تفضل أن تطلق سراح المتهمين عن أن تعرض نفسها لمثل هذا التعريض المارح » . وفي يوم ١٨ من الشهر قال « أتى واثق من الادرار عن المتهمين وربما استبدل بهم في قضص الالهام ناظر الحرية » . ولكن هذه الخطة أفستت بالأجراءات المهنية التي اتخذت حينئذ ومنع أى استشارة أو تواصل مع المتهمين الى أن انتهت المحاكمة وأما فيما يتعلق بقضية سليمان سامي ضد حرم من وسائل الدفاع دفعة واحدة

وفي هذه الاثناء عاد المستر ناير الى انجلترا وهو الذي انضم الى مستر بيان في مساهم الى الدفاع عن المتهمين وبناء على نصيحة المستر بلثت قابل المستر راندلف تشرشل والنسبر وفردلوسن . وكان تقرير المستر ناير حينئذ هو السبب في تصريح المستر راندلف العتي الذي عمل في شهر مايو - وهو أول تصريح علني له عن علاقة الحديوي بالذبحه والذي أدى بالمستر جلدستون الى الوعد بمحاكمة المتهمين محاكمة عادلة .

ومع كل ذلك ظن المستر ناير لم يجد مايشجعه على العودة الى القطر المصري ولقدلك استمر المستر يمان - ولو انه لم يكن محاميا - في الدفاع عن قنديل بطريقة عامة وكان المستر بلثت يمدد بالمعونة المالية اللازمة للمصاريف الضرورية لانه لم يأخذ أجرا على دفاعه ولم يتمكن قنديل من رؤية مستشاره المستر يمان الا بعد أن حوكم زميله سليمان سامي فكانت مهزلة أكثر منها محاكمة وبعد أن أجريت معه تحقيقات بمجموعة متضاربة من خصومه . وقد مضى تسعة أشهر في السجن وكان

يتبع في دفاعه طريقا منع عنه غوائل الهجوم . اذ أنه كان يطالب بالرحمة لابلعدل الذي لم يكن له موضع حينئذ .

وكتب المستر بيان في الثاني والعشرين من الشهر فقال : « ولكن يحلف انه لا يعرف أى شيء . يربط عمر لطفي بالمدبحة اللهم الا بعض شواهد عارضة بشترك في معرفتها كل الناس . وان عمر لطفي لم يعرض عليه أى اقتراح وأنه لا يظن ان المدبحة دبرت من قبل (هكذا) وكل ما هنالك ان عمر لطفي كان واقفا وقوفا تاما على شعور الاهالي ويعرف انه لا بد ان يتفجر في يوم من الايام . وحينما حصل الانفجار قال قتديل انه كان طريح الفراش وأردف ذلك بقوله ان عمر لطفي أو أى انسان آخر كان يمكنه ان يحمي الفتنة عند منشئها . بل ان تلغرافا واحدا لعراقي كان يكفي للوصول الى هذه النتيجة . وندا . أ واحدا ليجد كل يأتى على الفتنة في الحال ولكن عمر لطفي اكتبى بالطواف في المدينة وتبادل التلغرافات الشفوية مع الحديوى ومن الحال الوقوف على ما دار بين الاثنين حينئذ من المراسلات . اذ ان الكتاب كانوا يتقنون الأرقام دون ان يفهموا لها معنى وقد صدرت الاوامر باعدام جميع التلغرافات الشفوية (والظاهر ان مثل هذه التلغرافات تصدم دائما) . ويقول رفضت ان التلغرافات كانت خاصة باستدعاء الجند الى مياه الاسكندرية من البوارج . واذا كان الحديوى قد اعلم بهذه المدبحة عند الساعة الثانية او الثالثة فلماذا اذا لم يستدع السير مالت (الفصل الانجليزى) مباشرة ؟ فان السير مالت لم يعلم بها الا بواسطة تلغراف من كابر وهو في حجرة بليارد زيمبادا حولى الساعة السادسة مساء . وهنا هو الدليل الوحيد القائم ضد الحديوى . أما الادلة ضد عمر لطفي فهي أقوى من ذلك ولكن للاسف لم تمكن من الحصول على الشهود الذين عرضت ان احضرم لورد دوفرين . لاني لم أعرف اسماءهم بنفسى ولكني كنت أخبرت بواسطة شخصين معينين انه اذا وقف اللورد دوفرين وقفة مليية في هذه المسألة فلهاها يعطيني الاسماء . ويسلماني الاشخاص أنفسهم . ولكن اللورد دوفرين لم يقبل اعطاء الامان المطلوب ولا يمكنني ان أعطي تفاصيل أكثر من ذلك لاسباب أحب ان تصدقوني أنها أسباب قاسية لا يمكن التغلب عليها . ومع ذلك فان الشهود كان يمكن الحصول عليهم

وسائل أخرى ولكن ما كان يمكن الحصول عليهم بالطريقة التي منحت لي أولاً .
: وفي دليل على حسن نيتي اتى وعدت باحضار هؤلاء الشهود أيام كنت موظفا
حكومة ولكن عجزت عن القيام بما اخذته على عاتقي في هذا الشأن يكفيني لسحق
سحقاً تاماً . ولكن العهد قد نطاول على هذه المسألة الآن ولا يمكنني ان أحضر
شهود بعد . او على الأقل ليس لدى الوسائل في الوقت الحاضر التي تمكنني من
قيام بذلك ولو انني فيما بعد قد أتمكن من احضارهم . »

ثم قال أيضاً في الخطاب نفسه « واني اعتقد ان فكرة مجابهة المستر جلادستون
مذكورة تاريخياً فكرة حسنة جداً . ولكن حذار ان تذهب في تأييد معتقداتك الى
حد غير ملائم اذ قرر اكثر مما يمكنك ان تثبت . ومحمد عبده ورفضت شهادته
ضروريان لنا وسوف لا أمتنع عن الافصاح لك بما أعرف ولكني سوف لا أخبرك
عن مصادري » .

وقد أشار أيضاً الى هجوم اللورد رودلف تشرشل الثاني الذي قام به بمناسبة
تعزيز حكم الاعداد في سليمان سامي مما أدى بالمستر بلنت الى اعتزام تسليم جميع
الأوراق التي في حوزته ومن بينها التبذ القديمة التي ذكرت الآن للورد راندلف
« اعتبارها » الوسيطة الوحيدة لحقن الدماء وان لا يملأ هديرها بعد ذلك مرة ثانية » .
وأشار كذلك الى خطاب المستر ايف الذي ظهر في الوقت نفسه بمجريدة التيس ثم
قال « اني آسف ان ايف نشر هذه التبذ من خطابي ... اذ اني لم اكتبها بالصياغة
التي نجعل ما فيها من حقائق معدة للنشر . فاولا ان عرضي الشهود لم يكن على اللورد
دوفرين شخصياً بل على نكلسن (سكرتير دوفرين الخصوصي) الذي أعطاني على
كل حال جواب اللورد دوفرين . وأظن انني أشرت مرة الى المسألة امام اللورد
دوفرين الذي أجاب بشكل يدل على انه مطلع عليها ولكنني كنت في ذلك
الوقت منهمكاً في قضية عراقية الى حد انني لا اتذكر جيداً ما مر في هذه
اللحظة ... واني لا أعبا بما تنشره عني ضد مر لطفي ولكني أفضل أن لا توقعني
في مشاكل مع الخديوي . وقد عدلت أفكاري فيما يتعلق بمسئوليته عن الحادث ولا
يحميني بعد أن اهاجمه . واذا ما حامت حوله الشبه فيما بعد عن طريق عمر لطفي كان

ذلك حسنا وخيرا لكم ولكني لا أريد أن يهاجم باسي أنا شخصيا . وأنا الآن في حالة من التعاطف الحسن مع أغلب رجال الحكم وأنى أستعين بهذا الشعور الحسن لتحقيق مصالح التهمين عملائي وإذا ما قطع بيني وبين الخديوى على حين فجأة فمنهم هم الذين يضارون ولست أنا » .

ملخص الشهادات والادلة

مجموعة من الكتب الحضراء في عام ١٨٨٣

يثبت تاريخ مذبح الاسكندرية كما هو موجود في الكتب الحضراء (الكتب الازرق رقم ١٦-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ١٧-١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ٤-١٨٨٣) اداة السلطات المدنية والبوليس بشكل لا يحتاج الى الجدل وبراهن السلطات الحربية و فرق الجيش براءة تلمة مع الاقرار بملكها الامين المشرف . وتلك حقائق تؤكدها مجموعة من الشهادات عن هذه المذابح . والبوليس والجندرة كانتا تحت اشراف المحافظ عمر لطفي المطلق وكان عمر اطلق بدوره ليس مسئولا أمام وزير الحربية (عرابي) بل امام الخديوى مباشرة وذلك ما يجب أن يبقى عاقبا أبدا بالاذهان بينما كانت فرق الجيش تحت اشراف عرابي باشا وزير الحربية وحده . وقد قرر المستر جروجان (الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٩) — الذي كان قد عين واسطة السير أدوارد ماليت بناء على تعليمات القورد جرنفل ليجمع من مدينة لاسكندرية أدلة يتمكنون بها من اثبات أن عرابي هو مدير الحركة — أن البوليس بل الحادث بأبلم قلائل ابتاع كمية كبيرة من النبايت والدفوف ووزعها على الطيف لادنيا من الاعراب والبدو وأن هذه النبايت كانت توزع من منزل قريب جدا من الضبطية الرئيسية . (راجع كذلك اقرار المستر أدوارد باربر « الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٧ ») . وقد أضاف المستر جروجان انه لم تتخذ أي اجراءات ضد الاشخاص الذين وزعوا النبايت كما أن التفارب الطبية التي كتبها عشرة من الأطباء الاوروبيين الذين بحثوا جثث القتلى في المستشفيات أثبتت جميعا أن القتل حدث به

على لطعات من المدي وحراب البنادق . ولا يخفى أن المدي وحراب البنادق هي أسلحة البوليس الرئيسية والثابت أن البوليس في يوم المذابح كان يغير أسلحته البارية وكان مسلحاً بالحراب فقط (الكتاب الأزرق رقم ٤ صفحة ٧٥ المشؤلة الثالثة تحت رقم ٩٢ من مستر بروفنش الى المستر جروجان) وتقرر هذا الرجل له أهمية عظيمة اذ هو يثبت ان الطرقات كانت خالية من الفرق النظامية في يوم الحادث خلواً تماماً ومما يجدر ملاحظته أثناء قراءة الشهادات الخاصة بالمذابح في الكتب الزرقاء المشار اليها آتياً أن كلمة « جنود » تشير فقط الى الجنود وقلماء مذ في أى موقع منها على جنود الجيش النظامية .

ولنتكلم الآن على مسلح البوليس . يقول المستر بويس المهندس في الاطول الانجليزى (راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ صفحة ٢ : المشؤلة الثانية تحت رقم ٢) أن الجنود التى كانت تحت اشراف رئيس البوليس مباشرة لعبت دوراً كبيراً فى الحادثة . قتلوا المسيحيين حينما كان الرعاع يكفون عن ذلك . واذا انعكست الحال وأخذ الرعاع فى قتل المسيحيين كانوا يتركونهم وشأنهم ولا يدون حراكاً . ويقول المستر هيوات وهو كاتب حسابات انجليزى كان يبيت فى الاسكندرية منذ سبعة عشر عاماً (راجع الكتاب الأزرق . رقم ١٦ المشؤلة الرابعة تحت رقم ٢) أنه « اذا أردنا أن نعرف موقف السلطات المصرية والجيش أثناء الاضطرابات فيجب أن نقسها الى قسمين هما (١) البوليس (٢) الجيش . فأما عن الاول فليس عندي أقل تردد في القول بأنهم بدل ان يخدموا الفتنة قد بذلوا كل ما في قوام ليزيدوها استمراءاً وكلن مسلحهم في هذه الاثناء وحشياً قاسياً مبنياً على التعصب . وسوف يظهر على ما أعتمد من الكشف الطبي أن الجروح التى أصيب بها كثير من الاوروبيين كانت بيد رجال الجنود . ومما لا جدال فيه أيضاً أن كثيراً من النبايت وزعت على الاهالي بيد هذا البوليس نفسه بدون مقابل بينما زرعوا من الاوروبيين جميع أسلحة الدفاع التى كانت في حوزتهم حتى العصي التى يتوكأون عليها . ولقد علمت من أوثق المصادر أن الاجانب الذين كانوا يعيشون فى الاحياء الوطنية والذين التجأوا بطبيعة الحال أثناء الاضطرابات الى الضبطية أو أحد معاقل البوليس الاخرى

ذبحوا شر ذبحة بمجرد دخولهم هذه الاماكن . ومن جهة أخرى فاني مقتنع ولست في حاجة الى شرح أسباب هذا الاقتناع أنه لولا استدعاء الجيش في النهاية واتخاذ الفتنة لما كانت تنتهي الا عذبة ضخمة . وإذا كان الاوروبيون مدينون لاحد بأرواحهم فهو الجيش » . ويقول المستر جورج ييلافانثي (راجع المشولة الخامسة في القسم الثاني ص ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) « أن ابوليس انتصر علينا للاعراب وكثير من الضحايا الذين كانت يتودهم ابوليس الى الاقسام انزلوا من العربات وقتلوا بسان الحراب » . والمستر ستيفن راني يقول (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « لكي تحقق من حياة "سلطات ماعليا الا أن تعرف ما لم — بدأت الفتنة في الطريق عند الساعة الثالثة واستمرت الى الساعة السابعة وكثير معظم القتل بيد ابوليس واستمر الحال علي ذلك اى أن أرسلت فرقة من الحند لاختاد الفتنة وكان من الممكن احداها بهذه الطريقة في ربع ساعة لو أنهم أرادوا ذلك » .

ملحوظة : بمناسبة هذه المسألة نشر الى اس سليلان سامي ميرالاي الفرق ' نظامية لم يستدع الا في ساعة متأخرة بعد بدء الهياج .

ويقول المستر جرومان (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) « أنشأ جميع الجرحى في المستشفيات بان رجال الجندومة كان لم ضلع مع القوعاء في اللبحة وكذلك كان بكثير مهم جروح من رماح النادق » . ويقول هتيل سكينيليو الاسكنداني (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) « أن الثلاثة رجال الذين قتلوا وهم الدكتور ريتش والنيور ليجري وفن رب والارمين قتيلا الأخرى من الاوروبيين كانوا قد التجأوا الى الصبغة ليكونوا تحت حراسة ابوليس . وقد القيلة نفسها ذهبت الى المستشفى الاوروبي لايبحث عن صديق النيور فارديب . وهناك سألتني الحراس الذين كانوا في الخدمة حينئذ عما اذا كنت أملاك حفيظة كل هذه المرأة التي تدعني الى عمل كهذا . ولكنني اطلقت الى الداخل وكانت سلة متأخرة من الليل وسرعان ما رأيت امامي اكواماً من الجثث وعندها ترجمت وعدت في اليوم الثاني ووجدت ما يروى على السنين قتيلا كلهم عرايا وأجاسهم حلة

حروح من التبايت ورماح البنادق . وكثيراً ما جرح البوليس الاجانب من
لاورويين كما كان ينظر بين الارتياح الى الاعراب وهم يفعلون ذلك أيضاً
. (سج الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) وقد أخبر كل من المستر روبرت جيلبو
من الرعايا الانجليز والمستر جوزيف ليفي من مصنع السيويرو ليفي بمنشستر والمستر
نحاتي من مصنع فيفاتي وولده بمنشستر القنصل البريطاني في مدينة ليجورن « ان
السلطات المحلية اشتركت في المذبحة » وفي الصفحة نفسها توجد كلمة لكولونيل . . .
وهو أحد الضباط الاورويين ذوي الاعتبار كتبها في تربتا في ٢٨ يونية وهي الآتية
« ان أحد الوطنيين الافاضل واسمه وزير بك وقطن الدور الاول من المنزل المواجه
بثلاثة البوليس وقال امامي وامام محافظ المدينة وغيره من كبار موظفي الحكومة انه
. أي التبايت توزع على الجماهير من الشبايك التي امامه . هذا في الحي الاورويي بينما
كلن فريقاً من القوعاء يقتحم شارع دي سير وميدان دي لابي في حين آخرون
مختلفين . وبعد ذلك عدة رأى هو وزوجه وخدعه ثلاثة عشر أوريبا كانوا قد اتجأوا
الى رئاسة البوليس للحماية يسحبون خارجاً عرايا الاحساد مشوهي الخلق الى البحر
لكي يرموا فيه ويقول المستر ادون بلربر في صفحة رقم ١٧ » وفي أثناء هذه الحادثة
قصير فحصر جمع كبير من الاعراب من جميع الجهات وجهزوا بتبايت القيت اليهم
من منزل وطني عال قريب من الضبطية « ثم يقول بعد ذلك » وبعد اغلاق الباب
صعدت الى الدور الاعلى ومن هناك رأيت عدداً كبيراً من الاورويين مقتولاً في
الطريق وكان البوليس يساعد القتلة . ولما لم يكن البوليس جيوب فقد كان ينجي
مغامره ورا . انبراميل وأحياناً تحت أغصان الباليغات » . ويقول للمسترجون ولس في
صفحة ١٧ » وفي هذه اللحظة وصل رجال البوليس وعددهم ثلاثون أو أربعون
وبدأوا يطلقون اعبرتهم بدون أي مبرر ظاهر لذلك . وكانوا يرون الاورويين
مدحرجين بدمائهم تحت أقدامهم ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ليدافعوا عنهم » . وقال
أيضاً » ورأيت أيضاً رجالاً من الجندمة يحملون بعض الامتعة المسروقة . ولكن
حيناً وصلت الفرق النظامية عاد الامن الى نصابه وكأنما لم يحدث شيء . » وفي اقرار
السنيدو فرتوني ما يأتي (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٩)

« وبعد قليل من الوقت رأيت عربات كثيرة مملوءة برجال الجندرية (ومجنود في ملابس زرقاء) آتية من ناحية مركز البوليس الرئيسي وكل من فيها ينظر الى النوافذ حيث كانت تتجه بناذهم أيضا ويصيحون للاعراب » تشجوا .
 اضربهم » . (راجع الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ١٠ المشولة الرابعة من القسم الرابع) . ويقول المستر ستوتون صراف الباخرة (اغتسبل) « سكان البوليس والموظفون المحليون أثناء الهجوم المثار اليه ينظرون للقوغا نظرة عطف ولم يتخذوا أى اجراء لحماية المسيحيين وكبح جماح القوغا . ولم يكن فى الطريق أى أثر للمجنود النظاميين فى هذه الاثناء »

وقد كتب الاميرال السير بوشامب سيمون الى الاميرالية عن مسلك الفرق النظامية فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ١٠٨) استمرت الاضطرابات مدة ساعتين او ثلاثة قبل ان تدعى الحماية الى تقلا السلاح . ولكنها حينما حضرت ظهرت الطرقات بسرعة محدودة وساد النظام فى الشطر الباقي من الليل » ويقول المستر كلغرت نائب القنصل الذى أسندت اليه أعمال القنصلية بعد ان جرح المستر كوكسون (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ٣٩ ورقم ٩٢) فى ١٢ يونيو « لم يتدخل البوليس ليحصى الاورويين . الى ان حصرت الفرق النظامية وأعادت النظام » وكتب فى اليوم نفسه (راجع الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٤ المشولة الثالثة تحت رقم ٢) « وقد كان مسلك الجنود النظامية حسناً جداً ولم تحبذ القوغا » وفى الرسالة نفسها ما يأتى : « نهب البوليس المنازل والدكاكين على حد سواء . وبعد رسائلي التلغرافية اليك نجددت معركة فى حي من أحياء المدينة الدنيا ولكن فريقاً من الفرسان فرق الثوار فى الحال . والمدينة الآن فى سكون تام » ويوجد فى البيان الذى أذيع على الاورويين مهوراً بامضاء جميع القناصل بعد اجتماعهم فى منزل المحافظ فى ١٢ يونيو الفقرة الآتية « حدثت اضطرابات خطيرة فى يوم الثلاثاء بالاسكندرية ولكن الجيش المصرى أعاد النظام ونعهد رئيسه بالمحافظة عليه . ونحن تثق فى الجيش المصرى »

الظواهر السابقة على المذبحة—(راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ المشولة

(الثانية) بيان المستر حويس المهندس الانجليزى « لاحدال أن الحادث كان منظماً من قبل بدليل بعض الظواهر الضئيلة التى ما كان يعبأ بها الانسان فى ذلك الوقت كالذى حدث لى فى صبيحة يوم السبت اذ كنت خارجاً من منزلى قسابلنى مانع خضر فى الطريق وطلب الى أن اشترى وآكل لان التصاري سيزبحون باصكر . وقبلت هذه الكلمات بعد ذلك لكثيرين غيرى ولم يعبروها ماتستحقه من الانتباه أو أى انتباه على وجه الاطلاق . (المشولة الرابعة تحت رقم ٢) ويقول المستر هيوات « بناء على معلومات جمعت من مصادر مختلفة كثيرة أصبح عندى اعتقاد راسخ ان حادث ١١ يونيو كان نتيجة خطة مدبرة . » (المشولة الخامسة تحت رقم ٢) . ويقرر المستر الكسندر فينس « بناء على تعليمات تمحلت عليها فيما بعد أصبح عندى عقيدة أن هذه المسائل كانت مدبرة . وبدأت فى وقت واحد تقريباً فى جميع أنحاء المدينة » (المشولة الخامسة رقم ٢ صفحة ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) ويقرر المستر جوردج بلافاشي « كانت مشاجرة يوم الاحد مع الماطلي مدبرة تديرواً محكماً بواسطة البوليس حتى انه نشأ عنها هذه الحوادث الوحشية التى اشتملت على التهمب والقتل وقد كنا رقياءه كما كنا فى الوقت نفسه ضحايا . وظهور الفتنة فى ثلاث جهات فى وقت واحد يدل على أن الامر كان مدبراً . » . ويقرر فليبوليس « كنت فى السوق فى يوم ٢٨ يونيو حوالى الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر . وهناك رأيت كثيراً من البدو محمولون بنادق ويركونها فى بعض المخازن هناك بحجة حفظها لهم . وفى اليوم التالى بينما كنت جالساً فى إحدى القهاوى اقتررب منى أحد أصدقائى من المصريين ونهينى محذراً الى ان الاعراب سيقتلون المسيحيين فى يومهم أو فى اليوم الذى يليه » ويقول الورد جرنفل (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « أخبرنى للمستر سينادينو وهو أحد مدبرى بنك مالى يونانى بالاسكندرية أن عنده الادلة الكافية فى أن حادث الاسكندرية كان مدبراً . وكذلك أشار الورد جرنفل فى الرسالة نفسها الى مبشر امريكي قال « أخبرنا كثير من الناس ان الاضطرابات بدأت فى أحياء مختلفة متباعدة من المدينة فى وقت واحد وذلك فنحن نعتقد انها كانت مدبرة . » ويقرر الدكتور جنويس (راجع

الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ المشمولة الثالثة تحت رقم ٤) « أنى لا أعتقد أن المذبح كانت مدورة فقط بل هي أكثر من ذلك قد فقت بهارة وبظهر أن المشتركين فيها كانت عابثهم السلب والتهب وعلى كل فقد جمعوا بين هذه وبين الثورة » . ويقول المستر ستونين (راجع المشمولة الرابعة في الكتاب الرابع) « حينما نزلت الى الاسكندرية وطلعت فى شوارعها وجدت الناس فى الشوارع والطرق المؤدية الى المدينة العامة سائرين فى هدوء تام وسكينة . وحينما وصلتنا أخبار الفتنة بعد ذلك ثلاث ساعات فقط رأينا مئات من الاهالى مسلحين بخنجر بالعصى والسكاكين ولذلك فاني أعتقد ان الفتنة كانت مدورة من قبل » . ولم يتمكن المستر حروجان من إيجاد رابطة بين عرابي وبين التدابير الساعية على الفتنة ولو أنه كان مروداً بمعلومات صريحة من القورد جرنفل أن يجمع أدلة ضد عرابي تغيد اشتراكه فى تديرها (راجع الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٣ وصفحة ٨٨) . وغناسة قوله « ولقد تبينت أن سفر حسين موسى العقاد من القاهرة الى الاسكندرية كان فى الساعة السادسة بعد ظهر يوم ١١ يونيو : وسافر فى عربة من عربات الدرجة الاولى معه جون نينه الخنوى ووصلا اليها فى المساء » أقول أنه يمكن اثبات عدم صحة هذا الخبر على الإطلاق بواسطة جون نينه نفسه وهذا أمر مهم جداً لأن المستر جروجان يضيف الى ذلك (راجع المشمولة الاولى تحت رقم ٩٢ الكتاب الأزرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٤) « وفي اعتقادي ان حلقة الاتصال بين سيد بك قنديل وعرابي هو حسين موسى العقاد » . (راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ الرسالة رقم ٣ صفحة ٩) وقد أخبر الكونت دلاسال رئيس لوكسن حرم الحديوى المفوضية البريطانية فى برلين أن الكونت هاتزلت أخبره أن ضرب الاسكندرية كان خطة مدبرة اشترك فيها رجال الخندمة

مسلك عمر لطفى المحافظ

في يوم الاضطراب

ان ما قيل عن مسلك هذا الرجل في يوم الاضطراب في الكنب الزرقاء قليل جداً لا يشي غليلاً ويصل ذلك بمساعي الحكومة البريطانية بعد الحادث وانجائها من انهم عراقي وحياً لم نطفر بذلك لم تبدل أى مجهود في اكتشاف المدبرين حقيقين لها . ولكن في اقراري كتابين (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) قدمهما اللورد جرنفل الى السير ادوارد ماليت (الرسالة رقم ٢) وهما لكل من لوجي اوفريو واولو اوفريو من قائمتا بجزيرة مالطا وكانا سابقا بالاسكندرية ما يأتي « في يوم الاحد الحادي عشر من شهر يونيو الماضي حينما كنت في منزلي بالاسكندرية حوالي الساعة الثانية ونصف بعد الظهر سمعت صياحا عاليا في الطرقات فاطلقت من النافذة وعندها رأيت المتركسون القنصل الانجليزي وغيره من القناصل الذين كانوا معه مهاجمون بواسطة الرعاع . ورجال البوليس يعاونونهم في هذا الهجوم ويضربون حصارات القناصل بمؤخر بآدقهم وكان عمر لطفى المحافظ حاضراً حينئذ ولكنه لم يسئل اى مجهود ليحمي هؤلاء الاوروبيين او لتشتيت القوغاء . ورأيت أيضاً بعض الاعراب والجنود بصريون السنيور كلربي والسنيور مكفالى القنصل الايطالى والقنصل النمساوى . وقد جرحوا جميعاً جروحاً خطيرة وخصوصاً السنيور كلربي . والاقراران متشابهان في عبارتهما . وكتب المستر جروجان (راجع صفحة ٩ من الكتاب الازرق رقم ١٦) عن تكليفه من قبل اللورد جرنفل لجمع الادلة الكافية لانهم عراقي باشا قتل « اظن أن لدى محبلاً للتدليل ولكنى لم أصل اليها حينما كان الاتصال متعجلاً من الامور التي تثير كثيراً من الشكوك هو ما اذا كانت دعوة القناصل للذهاب الى قسم البيان بعد ظهر يوم ١١ يونيو قد صدرت من المحافظ عمر لطفى أم لا . لان عقيدتي الحالية أن الدعوة التي وجهت اليهم شعوريا كانت تقصد استدراجهم الى أيدي الجاهلين » .

وقال بعد ذلك : وكان بين ابلاغ كل رسالة وأخرى فترة من الزمن لا تسوجبها المسافة نفسها التي تفصل القناصل بعضهم عن بعض وكان ذلك مدبراً من قبل ، بقصد أن يصل القناصل متفرقين الى المكان الذي كانت تتجمع فيه القوامة . وبلغت الرسالة اولا للقنصل الفرنسي ثم الايطالي ثم غالبا اليوناني والالمانى واخيراً للقنصل الانجليزى ، وكتب المنتر كوكسون في رسالته لسير ادوارد ماليت (المشمولة الاولى تحت رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧ لعام ١٨٨٣) فقال : بعد نصف ساعة استدعيت بواسطة البوليس المحلى للتوجه الى مركز بوليس قسم البلبان حيث كان قد وقع شغب بين بعض الاعراب من الالهالى والمالطيين فى الناحية المجاورة وعدت لقصيلة حوالى الساعة الثالثة ونصف وخرجت مباشرة بناء على دعوة رسول كلن فى انتظاري لحضور اجتماع مع بقية القناصل فى قسم البلبان . ومن هنا يتبين أنه كانت هناك مؤامرة لاستدراج القناصل الى الجواهر . وبدل وجود عمر لطفى وهيته ساعة هجوم الجواهر عليهم انه كان مشتركاً فى هذه المؤامرة ومن الممكن اثبات ان عمر لطفى لم يستدع الجيش مطلقاً الا بعد أن استمرت اللذبة زمناً طويلاً وعندها أرسل الى سليمان سامى رسالة شفوية وليست كتابية يخبره فيها أن يحضر هو وفرقة الى المدينة بدون سلاح . وسوف تجد رأى سليمان سامى عن ملك عمر لطفى فى بيان المنتر جون نينه المطبوع . وكل من سليمان سامى وأخيه — وكلاهما أمير ألاى فى الجيش — يعلم أن عرابى باشا بصفته وزيراً الحربية ورئيساً للجيش المصرى قد أخذ على نفسه خطاً بمحفظ الامن والسلام وأن هذا الضمان تين . الآن أن لاقية له كما أن التة فى الجيش المصرى قد تلاشت بظهور هذه النتائج . والعلم بهذا الضمان ثابت من رسالة المنتر كوكسون الى السير أدورد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١١ لعام ١٨٨٢ المشمولة الرابعة تحت رقم ١٢٦) والمؤرخة ٦ يونيو حيث يقول : الحاقاً برسالتى فى ٢ الجارى أنتشرف بأن ابلفكم أن المدينة فى هدوء تام . وقد أفاد نصريح عرابى باشا الذى أبلغ الى فى ٢ الجارى والذي تعهد فيه بالمحافظة على السلم وأرواح الاوربيين كثيراً فى تطمين نفوسهم وتبديد مخاوفهم ويبدو غضب كل من الامير الاين سليمان سامى وأخيه من ملك عمر لطفى فى طاعت

١ يونيو من رسالة للستر كوكسون الى السير ادوارد ماليت (راجع رقم ١٧ عام ١٨٨٠ المشمولة الاولى تحت رقم ٢٣ صفحة ٢٣) حيث يقول « علمت انه حدث نهار غنيف بين المحافظ والاميرالين وأن المحافظ أصبح حاقداً عليهما. بينما هما جسامته في عبارات قاسية شديدة بخيانة دينه وأيا أن يطعنا أوامرهم . » اذ أنت صابطين بعد أن قد ضمان عراي قيت تبين لها أن الاوروبيين سوف يتدخلون لاحالة وحينئذ تظعن القضية الوطنية طعنة نجلاء .

ويتبين اهتمام عراي بأنقاد الجيش المصرى من أى شبهة أو اتهام بالاشتراك في مداخل من تعليماته التى أعطاهها لعقوب سامي وعلى الخصوص تصنيفه ليكون في لجنة تحقيق التى كونتها الحكومة المصرية عقب الحوادث مباشرة ويقول عراي في هذه تعليمات « انك لانجمل اهمية الموقف القدى تقفه في الحالة الراهنة من لجنة التحقيق ذلايجنى عليك أن اعضاء هذه اللجنة ليسوا من هؤلاء الاشخاص الذين يجهلهم شرف الجيش أو شرف الوطن . وهذا يتطلب منك أن تأخذ جميع الاحتياطات في مجرى التحقيق وأن تكشف لنا عن الدافع الاصلى لهذه الفتنة . » وكذلك يتبين اهتمام عراي باشا بمنع أى أمر بخدش هبة الجيش بعد ذلك أو بمس ضمانه من رسالة المستر هورى المترجم في القنصلية الانجليزية بالاسكندرية المؤرخة ١٢ يونيو (راجع المشمولة الرابعة رقم ٢٢ الكتلب الازرق رقم ١٧) حيث يقول فيها « تعهد القناصل أن يذلوا اقصى ما يمكنهم من الجهد لتحقيق هذا الغرض ووعدوا بأن يمنحوا رعاياهم من اطلاق النار على الاهالى أو الجنود كما أن ضباط الجيش أخذوا على أنفسهم ايضا أن يحافظوا على الامن والسلم العمومى وأعلنوا انهم مسئولون عن ارواح الاوروبيين وقد وجه صاحب السعادة بعقوب باشا وكيل نظارة الحرياتالى الاميراليت العبارة الآتية « حافظوا على القناصل وعلى سلامة رعاياهم ما دام فيكم عرق ينبض . » وقد اجابه الضباط بالسبع والطاعة ... وكان أهم شئ عند القناصل هو مقدرة الجند على منع تجمهر الوطنيين في الاحياء الاوروبية ولقلق تعهد ضباط الجيش العظيم بتفريق أى اجتماع للوطنيين يحدث في تلك الاحياء . » ولا يتبين عن القنصل انه من تاريخ هذا

الاجتماع وبعد ان وضعت الاسكندرية رسمياً تحت اشراف الجيش الى ان ضربها الاسطول لم تحدث اضرابات تذكر وكذلك لم تحدث أى مذبةجة .

وبالنسبة لسلك عمر لطفي باشا يجب أن لا ننسى لاي اعتبار من الاعتبارات انه كما تم مدني للمدينة ونحت نصره المطلق بوليس ورجال الجندرية في المدينة يعتبر أول شخص مسئول عن الامن والنظام فيها . وانه في ذلك الوقت كان مسؤولاً أمام الخديوى دون سواء و كان الخديوي يقوم نفسه بأعمال ناظر الداخلية بناء على عدم تعيينه ناظراً جديداً لها واصداؤه تعليمات لمديري الوجه القبلى والحر . بأن يرجعوا لمكتبه الخاص في كل مسألة ذات بال مما يعرض عادة على ناظر الداخلية (راجع الكتاب الازرق رقم ٨ صفحة ٤٠ الرسالة رقم ٩٠ من السير مالميت الى الارل جراففل) . وقد لا يكون من الضروري الآن ان نضيف ان عرابي باشا بصفته ناظراً للحرية والبحرية لم تكن له أى سلطة على عمر لطفي حاكم مدينة الاسكندرية المدني كما ان من الثابت من بيان المستر جون نيت المرفق بهذا ان عرابي باشا لم يحط علماً بالحوادث الا في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٩ يونيو وان مكاتب التلغراف بمصر والاسكندرية حجرت في ذلك اليوم خصيصاً للرسالات بين الخديوى وعمر لطفي ومع ذلك لم يحدث تحقيق على عن مسلك هذا الرجل « عمر لطفي » من يوم المذبحة الى الآن لا بواسطة الحكومة الانجليزية او المصرية ولم يحدث اكثر من ان الخديوى عينه ناظراً للحرية محل عرابي باشا في السادس والعشرين من شهر يوليو التالى (اهر الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٢٣ الرسالة رقم ٦٤٤) .

وقد لازم سيد بك قنديل رئيس البوليس الذى يحاكم الآن منزله في يوم الاضطرابات والايام التى قتله لمرضه بينما حسن بك صادق وكيله الذى حل محله في ذلك اليوم والذي قال عنه المستر كليريت (الكتاب الازرق رقم ١٧ الرسالة رقم ٣٥ صفحة ٣٥) انه ينتمى الى حزب الجيش وانتقد انه لم يوقف عن العمل لسلكه يوم الحادث وعلاقته به قد عين بعد ذلك في وظيفة مهمة بالجيش بالسودان جزاءه على مسلكه في يوم ١٩ يونيو وتخلص بهذا التصيين من كل مناعب التحقيق ويجب ان لا يغيب عن الذهن حين قراءة هذه المذكرة السابقة المقتبسة من

كتب الزرقاء ان جميع الرسائل التي كتبت والشهادات التي جمعت فيها كانت مكتوبة ومجموعة تحت عقيدة ان المذابح من صنع عراقي والحزب الوطني وبقصد صاق النعمة بهم

ولتوضيح ذلك يجب ان ننقل قط كلمات القورد جرنفل الموجودة في رسالته في السير ادوارد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١٥ ورقم ٣ صفحة ٧) وهي «أرى ان أكلفكم بعمل ما يلزم لاتمام هذه الشهادة وخصوصاً القسم الذي يتعلق بصله من عراقي» وهذه خطة شاذة بذل بشكل لا يقبل الجدل ان فكرة اكتشاف مدبرين الحقيقين لحادث الاسكندرية كانت أقل رسوخاً في نفس القورد جرنفل من انهام عراقي باشا نفسه بأي شكل من الاشكال

ونجاح هذا المسمى يمكن استنتاجه مما قاله السير شارلز ولسن (راجع الكتاب الازرق رقم ٣٠١ الرسالة رقم ٤٥ مشمولة صفحة ٢٨) - عن النعمة الرابعة في ورقة الاتهام التي وضعت الى عراقي ومحمود سامي وطلبة ومحمود فهمي وعمر رححي وسيد قنديل بأنهم «حرضوا الناس على حرب أهلية وبأنهم ارتكبوا أعمال التخريب والقتل والنهب على الاراضي المصرية» - فقد قال السير ولسن «لا بد لي من تصريح انني اعتقد انه بناء على الشهادة الموجودة بين أيدينا لا يمكن لأي محكمة عسكرية ان تلصق بالمتهمين نعمة أكثر من الاشتراك في ثورة عسكرية ناجحة ضد الخديوي اللهم الا طلحة والسيد قنديل مع شيء من الشك بالنسبة لهما أيضاً»

وكتب السير شارلز ولسن أيضاً فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ٥ عام ١٨٨٣ الرسالة رقم ٤١ مشمولة صفحة ٦١) «بنيت المحاكمة على ما يظهر على فكرة ان هناك حوادث معينة مثل مذبحه ١١ يونيو لا يمكن حصولها الا بناء على أوامر عراقي» وذلك دليل كاف في نفسه على ان عراقي أصدر أوامره بعمل المذبحة.... ومن جهة أخرى فقد كان من الممكن تكوين دفاع حسن عن المتهمين وذلك بمناسبة سماع شهود بالاثبات دون شهود النفي ومن غير توجيه أسئلة اليهم من الدفاع»

ولقد تركت الحكومة الانجليزية فكرة ان المذبحة كانت مدبرة ومنظمة من قبل حنا استحال لها ان تثبت صلة عراقي بالحوادث. وفي الحكم الأخير معانجة أحب

ان ألفت اليها الانظار . وفي نهاية الرسالة كتب السير شاز ولسن « لم يكن هناك دليل على صلة عراى بالمذبحه التي وقعت بالاسكندرية في ١١ يونيو ومن المشكوك فيه ان المذبحه كانت أمراً مدبراً »

وعدم ظهور أى أثر للتفراغات والرسائل التي تبودلت بين المحافظ عمر لطفي والحديو وبين الحديو والسير مالت والقنصل الانجليزي والتي لاشك انها كانت مستمرة طول مدة الاضطرابات من المسائل التي تثير الشكوك وتحتاج الى الايضاح . وكل اسان غير متحيز يمكنه أن يحكم من الشذرات الساقية المقتبسة من الكتب الزرقاء . والتي لاجدال في انه قد أبعد منها كل ما يشتم منه راحة اتهام الحديوى او عمر لطفي او السلطات المدنية (بقدر ما تسمح به الحال طبعاً) ان هناك مسائل خطيرة ضد هؤلاء الناس قد سككت عنها وانها في أشد الحاجة الى تحقيق نشط وبحث دقيق

بيان المسترجون نينه

عن حوادث يونيه سنة ١٨٨٢ التي وقعت بالاسكندرية

وقد أصدره بامضائه في ٣٠ يناير سنة ١٨٨٣

كنت بالاسكندرية حين وصول درويش اليها في يوم الاربعاء ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ ورأيت على الرصيف وهو في طريقه الى سراى راس الستين وهو ذو الفقار باشا (مبعوث الحديوى وهو رومى مسلم وأحد مخلوقات سعيد باشا) ويقوب باشا (مبعوث عرابى وهو شركسى الا انه عرف بالامانة) وكذلك شيخ سيد وعمر لطفي (محافظ الاسكندرية)

وبعنا الظهر تروحه العلماء وبعض الاعيان والضباط لزيارة درويش ولكنه لم يستجبه بالحفاوة الكافية وكذلك زاره القاصل وكان للمسترج كوكسون والميو كيكومسكي في ملاسهما العادية — وزاره كذلك كل من الاميرال الفرنسى والاميرال الانجليزى

ب. ملابسها الرسمية . وكنت موجوداً حين استقبال المتر كوكون الذي ذكر
رويش ان الاميرال سيمون هو نفس قائد القوات البحرية في دلسنيو ولكن درويش
بحب على ذلك بأكثر من الاقسام . وبعد ان خرج القناصل قدم الاعيان عريضة
يشون فيها شكوى الشعب المصري وبظروا استيائهم من وجود الاسطول ورغبة
لأمة في الاستقلال وحادثهم درويش كثيراً عن هذه الموضوعات ووعدهم ان
الاسطول سيفادر المياه المصرية بعد زمن قصير . ولم أكن حاضرا هذه الواقعة ولكنني
سمعت عنها من صديقين لي وهما الفراني ونديم كانا حاضرين حينئذ . وكلف
ديم في هذه الاثناء ، دائم التردد بين مصر والاسكندرية . ولم يكن المقاد في الاسكندرية
على ما أعلم الى ما بعد الحوادث

وفي صبيحة اليوم التالي وهو الثامن من الشهر توجه درويش الى القاهرة وتبعه
دهو في طريقه الى المحطة بجمهورية كبير وكان يصبح صيحات مختلفة حول السلطان
والاسطول وكان ذو القنار وجبة ضباط الحديوي يتجادلون حول سفر يعقوب باشا
في عربة درويش ولكن درويش أمسك يعقوب من كتفه وجعله يدخل العربة
وبذلك أصبح فيها هؤلاء . الاربعة : درويش وأسمد وذو القنار ويعقوب . وعمل
ديم على أن يسافر في نفس القطار وغلا اندس بين السكرتيرين والخدم . وحضرت
رفود في دمنهور وطنطا وكفر الزيت لاعلان ولأنهم لعظمة السلطان وربما كانت
هذه الوفود خطية مدبرة .

والنقط الآتية مصحها من عرابي ومن رساله وأنى أعتمد في صحتها : قوبل
درويش في المحطة بالجند وللوظفين ولكن لم يقابله أحد من أعضاء الوزارة الوطنية
ولم يكن عند الجماهير مجلس ظاهر وأن درويش سار مباشرة الى سراى عابدين .
ولم يستقبل أحدا في ذلك اليوم ولم ير غير الحديوي وعائلته في قصر عابدين وقضي
ليته في قصر النوسة الذي كان مسا له وسمعت ان الحديوي أرسل في تلك الليلة
أو صباح اليوم التالي أحد الاغوات الى درويش واتفق معه بواسطة سكرتيره انه
لا بد ان يصله ٥٠٠٠٠ ر. جنها بمجرد الحصول على القود . وبذلك اكتسبه في صفه

مع ان التعليلات التي كانت صادرة لدرويش هي ان يعزل توفيق ويولي حليما بدله . ولم ير درویش يعقوب باشا بعد ذلك .

ومضى يوم الجمعة في زيارة للساجد والصلاة وفي احدى هذه الزيارات قدم له عالم من العلماء عريضة اغتاض لها درویش وحيثما حضر اليه العلماء بعد الظهر ليقدموا له احتراماتهم ويشوه شكواهم قابليهم بخشونة وقال لهم لقد حضرت لانكلم أنا لا لاستمع لكلامكم . فسبب هذا الحادث حركة غير اعتيادية في المدينة وفي المساء توجهت الرسل الى جميع جهات القطر وأنبأت الناس ان درویش لا يمكن الوثوق به . وفي يوم السبت أرسل درویش باشا في طلب عرابي ومحمود سامي . وحيثما حضرا قابليهما بكل ما يملك من مظاهر الاحترام . وأجلسهما بالقرب منه وتكلم معهما عن الحالة . وقد شرح عرابي لي هذا الحادث وقل لي عبارة درویش وهي « نحن هنا جميعاً اخوة وأبناء السلطان وان لحيتي البيضاء هذه تسمح لي ان اكون أبلك أنت أيضاً وغرضنا واحد وهو ان نصل الى تحويل الاسطول عن مياه الاسكندرية الامر الذي يعتبر مسبباً للسلطان وتهديداً للمصر . — وطلب اليهما ان يتفقوا جميعاً على ان يعملوا لهذه الغاية وعلى الخصوض عرابي ويجلس نظاره لكي يظهر اولاً ثم ليدعم السلطان . ويكون ذلك بتخليهم عن سيادتهم الحرية ولو في الظاهر فقط . ولكي يدخل عرابي السرور على السلطان أيضاً فليبه أن يتوجه الى القسطنطينية ولو لمدة وجيزة فقط . وأحارب عرابي على كل ذلك بأنه كلان يوده ان يتنحى ولكن الموقف كلان من العفة يمكن وانه أخذ على عاتقه مسؤولية حفظ الامن وانه لا يمكن ان يقف في منتصف الطريق أزا . هذه للمسئولية . فاذا ما تنحي فيجب ان يكون تنحيه تاما واستقامته نهائية في الباطن والظاهر . وعلى كل فانه لا يمكنه أن يتبع أى خطة من هاتين الخطتين الا اذا أعطيت له نخلة كناية من الضمان لانه لا يمكنه ان يتحمل تبعه أمور لا يكون له دخل فيها . وقد أنهم في حكمه بالبحث والاستعداد وامور أخرى وانه لا يمكنه ان يترك كرسية الا اذا أخلى طرفه اخلاء تاما من هذه الاتهامات . وقال عرابي أيضاً انه مستعد ان يتوجه الى القسطنطينية بعد ان نستتب الامور كفرده عادى ليقدم ولاء الى حلاله السلطان » ولكن درویش لم يكن مستعدا لتلقى هذا الرد وحيثما محمه :

يسر منه وامتنع لونه . ثم قال : « فلنعتبر الآن الامور قد استقرت . وما عليك حينئذ الا أن ترسل تلغرافاً الى محافظ الاسكندرية وقائد الحامية تخبرهما فيه انك تسحب عن مركزك لى وانك ستعمل كوكلى وسيبقى يوم الاثنين اجتماع في عابدين من الخديوى والتناصل وفي هذا الاجتماع نخليك من ضياتك للامن . ولكن عرابي رفض ان يفعل ذلك وقال انني سأبقى في مركزي منحملاً مسؤولية ضيائي الى أن أنسلم وثيقة مكتوبة تخليقني من الضمان وعند هذا الحد وقفت للسألة . ولم يقدم لمهادرويش في هذه الاجتماع لافهوة ولا سجاثر وبعد ذلك بعدة أخبرني محمود سامي أيضا بتفاصيل الحادث باجمعها وبعد الاجتماع مباشرة حمل تديم أخباره الى الاسكندرية وعاد الى مصر في صبيحة يوم الاحد .

وكننت في الاسكندرية في يوم الاحد أى في اليوم الثاني وكانت المدينة في مسكون تام وعند الساعة الثانية بعد الظهر أرسلت خادمي السوداني ليحضر لى عربية أتوجه بها الى مركز قيادة الحامية وكان القائد شركسيا اسمه خورشيد باشا ولكنه رجل طيب وكان من اتباع اسماعيل باشا ولذلك كان معاديا للخديوى توفيق . وبعد أن تأخر خادمي في هذه المهمة نصف ساعة عاد وطلب الى أن لا أذهب الى حيث اعزمت لان هناك مشجرة عند قهوة الجزازي في شارع الاخوات - وهي بقعة يتجمع فيها عادة في أيام الاحاد جميع أوباش الاوربيين والمخالفون الاعراب . وقال لى أيضا انه قتل اثنان من المسلمين . وبعد ذلك توجهت الى المكان على قدمي ولكنى لم اخترق الميدان بل سلكت شلوعا خلفيا . فوجدت شارع الاخوات ملوآ بالتحلوقات من افرنج ومسلمين ولكنى لم أر اقتالا بالقرب منى . ولكن على بعد مائتي ياردة شاهدت الجماهير توج كالبحر ورأيت طلقات نارية تنطلق من النوازل ولم تلبث المعركة أن تقدمت الى فاحيتنا وتراجعت الى ان وصلنا الى مدرسة الرهبان حيث رأيت أمام قهوة من القهوات حوالى اثني عشر روميا مدججين بالبندق وحيما نركنا الطريق بدأوا في اطلاق النيران على الجماهير بدون حساب . وفي هذه اللحظة رأيت عربية بداخلها جندي من جنود البوليس مجروحاً أو قتيلاً . ويظهر أن هذه كانت اشارة الخطر اذ بعدها مباشرة حضر مندوباً الى مكان الحادث جمهور من المسلمين من كل

ناحية وأغلبهم من البرابرة والاعراب من أهل الصعيد مدججين بالعصي وعندها أصبحت الطلقات النارية عامة في كل مكان ولذلك عدت الى منزلى . ولايت في طريقى عربة بها المتر كوكون وأخبرني احد المارة انه كان بمنزل رجل مالطى قبل ذلك بقليل وان هذا المنزل نفسه هو الذى أطلق منه الرصاص وحيثما كان المتر كوكون خارجا منه ضربه الاهالى لانهم اعتبروه مسئولاً عن اطلاق الرصاص . والمعروف انه كان نصيح للمالطيين قبل ذلك بان يحموا أنفسهم في حالة حدوث هياج ثم قابلت عقب ذلك عند الساعة الثالثة عمر لطفى بتشي في ملابس عادية مع نفر من البوليس وسألته عن السبب الذى منعه من إيقاف الاضطراب . قتل « لقد كنت مع القنصل الانجليزى الذى ضربه الاهالى » قتل « ولكن لماذا لم تذهبى لباسك الرسمى ومعك خمسون رجلا من البوليس السوارى وتوقف الاضطراب » . قتل انه لم يعثر على قنديل رئيس البوليس . « ولكن الحد . لماذا لا يقومون بالعمل مع أنفسهم » . « فاجاب انهم يعتقدون اجتماعا الآن » فألته ولماذا لم يرسل تلغرافا لندوب السلطان ؟ فاجاب في غلظة « وما شأنك وهذا » . وكانت القنصلية الفرنسية مملوكة باللاجئين الاوربيين .

وبعد ذلك توجهت الى منزلى وارتديت اردأ ملابسى وحملت عصاة يدي ثم خرجت ثانية ورأيت بضعة أطفال يحرقون بأمتعة سرقتها من المحلات التجارية وكان رجال البوليس موجودين حينئذ ولكنهم لم يفعلوا اى شئ . لمنع الاقتال وفي هذه الاثناء قابلت احد حراس القنصلية الروسية واخبرني ان القتل دائر ايضا بالقرب من الميناء وان المسافرين الذين كانوا على ظهور المراكب في ذلك اليوم قد ضربوا والقنصل ارسلا تافراغات الى مندوب السلطان . وكان ذلك عند الساعة الثالثة ونصف او الرابعة وكان الكلى ينتظر ان يتدخل الجيش في الامر وعند الساعة الخامسة ظهرت الفرق وانتهت الفتنة . واني اعتقد من مملك عمر لطفى ومن ظروف اخرى ان عمر لطفى مسئول عن استمرار الهياج . فقد كان الجيش يتدخل قبل ذلك لو انه طلب من الجيش التدخل ولم يتكأ .

ومن المرجح لهذا الاعتقاد الظرف الآتى . بعد الهياج باربعة أيام توجه حمر

لطفى الى المركب الاول الاسطول الماربط وأخبر الاميرال سيمور انه غير مسئول عن النظام وان عراقي عاجز أيضا عن المحافظة عليه . ورجاه ان يرسل فرقا من عنده وطلب ذلك في وقت كانت المدينة في هدوء تام . وكان عمر لطفى خصما لعراقي وصديقا للخديوي . وقد نحي عن مركزه كما سمحت بناء على طلب القناصل ترصية لقرأى العام وذلك حينما اعتزل راغب باشا الحكم وجاءت نظارة ذو الفقار . واوقفت لجنة التحقيق عن متابعة أعمالها حينما طلب عراقي أن يكون التحقيق شاملا بقناول الاوروبيين والمصريين على السواء .

وقد علت تفاصيل مقابلة عمر لطفى للاميرال سيمور على ظهر باخرة المستر ماربوت الذى كان يتخذ سيمور سكرتيراً له وعلت بعض المسائل الاخرى من لتسيو دى لكس القنصل الروسى .

اما من حيث منشأ المشاعات فهو كما يأتى : أحدث وصول الاسطول الى مياه الاسكندرية شعوراً عدياً شديداً بين المصريين وبين الحاية الاوروبية . فالأوروبيون رأوا فى حضور الاسطول مقدمات أولى للحرب وأصبحت معاملاتهم للاهالى على شئ كبير من العنف وكانوا يقولون « الآن سترون ماذا نفعل » وبالقسبة للمصريين أصبح الحوادث موضع حديثهم اليومي وأثيرت بينهم احتمالات كثيرة . وانتشرت فكرة جديدة وهى ان الجنود ستزل من الاسطول الى البر وان البلاد ستحتل بالانجليز . وكثيراً ما سلت فى هذه الاثناء عما اذا لم تكن هذه هى نية الاسطول الحقيقية . وازداد هذا الظن رسوخاً حينما عرف انه كتب عقد بين الاميرال سيمور ولتسيو كتراد نفون الا - طول لمدة ثلاثة أشهر وأصبح الناس ولا حديث لم الا ذلك وازداد المياج . ولكن الشهور ضلوا فرسين لم يكن بهذه الصفة العدائية لان الموقف الذى وقفه الاميرال كتراد حينئذ لم يكن عدائياً بل على العكس من ذلك كان يصل دائماً على التوفيق بين الوطنيين . وقد سبب هياج الاممكر بين الاهالى فزع الاوروبيين وخصوصاً الانجليز والمالطيين منهم الذين كانوا دائمي الاستشارة لقناصلهم عن الطريقة التى ينبغيها لحاية أنفسهم فى حالة حدوث اضطراب وقد أخبرهم المستر كوكون ان يستعملوا لحاية أنفسهم فى أواخر مايو او اوائل يونيو

وعرف في الوقت نفسه انه أرسلت آلات نارية من اليونان لتسليح الادوام
بالاسكندرية . واشترى الانجليز كل ما عثروا عليه منها في المدينة وعلقت من موطنى
مصلحة الجمارك ان بنادق ومسدسات من ماركة سنيدر أرسلت اليهم من الاسطول
وبناء على ذلك أصبح حدوث معركة من المسائل المؤكدة تقريبا واذ كان يوم
الاحد هو اليوم الذي يتجمع فيه الاوروبيون في القهوة وفي الطرقات لتعاطي
المشروبات ، فقد كان ينظر الى كل أحد نظرة خاصة وكان توقع الخطر بهذه القوة
التى ألبأت كثيرا من مسالي المصريين والاوروبيين على السواء الى ترك القطر .
وبدأ المسلمون كذلك يلحون أنفسهم بالعصي وعلى الخصوص النوبيين الذين
كان يوجد منهم بالاسكندرية ٣٠٠٠٠ . ومن المعلوم ان البرابرة قوم مشاغبون
ومحبون للقتال . وكان كثير منهم متحزبا لشراكة في هذا الحادث .

والقصة التى أقيمت الى عن منشأ الحادث في هذه الاثناء هى كما يأتى : فى صبيحة
يوم الاحد الحادى عشر من الشهر حضر أحد المالطين لزيارة أخيه الذى كان في
خدمة المتر كوكون . وأخذ حنبها بفتيشا من القنصل وخرج ليستمع به في المدينة
وركب عربة وأخذ يدور بها على جميع الخارات فى الحى الاوروبى وأخيرا وصل
الى قهوة الجزاز . وكان سكرانا فى هذه اللحظة وأراد أن يصرف السائق ويصطبه
قرشا واحدا فقط . فتشاجر لوما كان من المالطى الا أن قبض على سكين من سكاكين
القهوة التى تستعمل لقطع الجبن وكانت مربوطه في خيط كبير متصل بالحزان «الترابيزة»
وطعن بها السائق . وكانت طعنة نجلاء أصابت احشاء الرجل وحينما أتى آخر ليعاون
الجريح قتل أيضا يد يوناني آخر . وفي المشاجرة التى تلت هذا الحادث قتل خباز يوناني
كان يعيش في البناء الملاصق وبذلك أصبحت المشاجرة عامة . وكان معاون قسم
اقيان وهو الرئيس المباشر لبوليس هناك ابطاليا لا يعرف اللغة العربية ولم يتمكن
من إيقاف المشاجرة . وجرح أحد رجال البوليس من اتباع المعارف المذكور أما
البقية فقد انضمت للمشاجرة وناصرت الاهالى . وهذه المعلومات تلقيناها عن رجل
من رجال البوليس المسيحيين وكان حاضرا وقت الواقعة .

أما بالنسبة لتعديل رئيس البوليس فقد كنت رأيت في يوم الخميس السابق يحمل

سومارفا وعلت انه مريض لاني جسست نبضه وكن مصابا بالحمى . ولو ان عمر لطفي أراد أن يوقف الهياج لامكنه ذلك بكل سهولة .

والسبب الحقيقي في انتشار الهياج بهذه السرعة هو عرض الموتى من المسلمين لانظار الجمهور . وقد رأيت ٧٨ أوروبيا قتل وعلت من السكرتير المسلم في لجنة التحقيق وكذلك من الدكتور المسلم وهو مصطفى بك نجدى أن عدد القتلى من المسلمين كن مائة وأربعين منهم ٢٥ بربريا .

وكذلك كن للاعراب من قبيلة أولاد على ضلع في المشاغبات فقد رأيت ٢٠ أو ٢٥ منهم بالقرب من بيت جبارا وشاهدتهم يفتحون مخزنا للاسلحة النارية وكن أولاد على في هذا الوقت متحيزين للخبديوى بعد أن أخذوا ٢٠ ألفا من الخنثات رشوة من مدير البحيرة ابراهيم توفيق في دمهور . وسمعت فيما بعد من أحد موظفى مكتب التلغراف المحلى أن عمر لطفي أرسل في هذا اليوم كثيرا من التلغرافات الشفوية الى نائب السلطن .

وأقرر أيضا انى لم أترك الاسكندرية مطلقا قبل يوم ١١ يونيو بيضة أيام وبقيت بها الى ما بعد اطلاق القنابل عليها من الاسطول .

الملحق الثالث

خطابات من عرابي ناشأ لم تدمج في أصل الكتب

مترجمة عن العربية

إلى المستر بلنت من القاهرة .

٢٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

الى صديقي وروح جاني المستر ولفر بلنت . أدامه الله

بعد تقديم أوفر تحياتي وبشك أحر أشواقي لرؤية وجهكم المنير . أخبركم آتي نشرفت باستلام خطابكم المؤرخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وحدث الله على نعمتكم بالصحة التي أنغى دوامها . ألبسكم الله حلل العافية والرخاء . والحق أن خطابكم ملا في سروراً بلوحة أعجز عن التعبير عنها . كما آني أرجو أيضاً أن تبلغ وافر تحياتي لحرمكم المصون اللادى ملنت

والآن أخبر حمرنكم انى لا أعبا مآلامى ولا بالسجن ولا بالسباب ولا بأى شيء . يوجه الى بعد ذلك مادمت قد وقفت نفسى على حرية بلادى ولا شيء . بهمني الآن الا أن أتقد أهل بلادى من هذه الهوة الملوثة بالاناعي السامة وأن أتشلهم من مخالب هذا التنين الفظيع — ويكون ذلك بمعونة الفضلاء . من الانجليز الذين يفارون على سمعة بلادهم وشرفها .

وأريد فوق ذلك ان كلن فى العمر رجة أن أعيش طليفاً فى دمشق مع أولادى بعيداً عن السياسة مادمت بعيداً عن مصر واذا لم يسمح سلطان المسلمين بأن أعيش بين المسلمين قائى أفضل أن أظن لندن مجاوراً لآخواننا من محبي الانسانية ومساعدبها وأعيش هناك كرجل حر فى أرض الحرية — ولكن على ألا اكون محتدقاة او اشراف . وكذلك أمدقائى وأعوانى الذين قدموا لأرواحهم فى سبيل الوطنية يجب أن يعيشوا أحراراً . ومقابل ذلك قائى أعطي كلمة شرف أكيدة

أن لا تدخل في الامور السياسية في الوقت الذي أعيشه بعيداً عن بلادى » الى أن يقضى الله أمراً كلن مفعولاً » .

اما من حيث الطريقة التي ألقى بها الخصوم على النهم فيما يتعلق بمحوادث ١١ يونيو و ١٢ يوليو — فهذه مجرد اقراءات لا يمكن اثباتها بأدنى دليل او برهان منذ كانت هذه الاعمال تتنافى مع أعمالنا الشريفة . وقد اجتهد خصوصاً أن يثيروا أوروبا ضدنا بهذه الاتهامات لكي يمزقوا الحريات التي حصلنا عليها لبلادنا أربا وينزوها في الفضاء . ومن يدري فربما أجاد ذلك بلادنا ويأتي وقت تستكمل فيه حرينها وحلاصها بانجمه الرأي العام الانجليزى الحر اليها رعباً عن مسامى خصوصها المكشوفة

واني لا أعبا هذه الاقواب المارضة التي لم أكن أرغب فيها في اى وقت من الاوقات . واني مكتف بشرقى الشخصي الذي سوف يلأزمنى ماحيث ويبقى بعدى اذا مت . وسوف يرضيني دائماً أن أنادى « باحد عرابي المصرى » فقط وبغير اقواب .

وفي الحتام أرجو أن تبلغ اوفر تحياتي لحضرة صديقنا العزيز المستر مايونجى والمسيو جون نينه واخوانك الذين انضموا اليك في القفاح عن الانسانية ومن عندنا محمود باشا سامي وعلى باشا فهمى وعبد المال باشا حلى والشيخ محمد عبده واحمد بك رفعت يلفونك تحياتهم . أدام الله عزك يا صديق المحبوب صديقك احمد عرابي

من القاهرة

الى المستر بلنت

الى مهجة أرواحنا ومنقذنا للمستر ولفرد بلنت . أدامه الله وأبقاه

بعد تقديم اوفر تحياتي والتتويه بشرفكم الذي يعجز عن استيعابه الوصف أخبركم أنه بناء على تعليقاتكم ومشورة حضرة المحترم المستر برودلى والمستر نايبير قد اعترفنا بالثورة ضد الحدبوى وصدر الحكم علينا بالثى المؤبد . ولكن موافقتنا على ذلك لم تكن الا لتخفيف المصاعب التي تحيط بالسياسة الانجليزىة وان ثقتنا في عدالة

الشعب الانجليزى بجملنا نفقد انا سنحصل في المستقبل بطريقة تزيد من مجد اسم
انجلترا في التاريخ . وقد عاملتنا الحكومة المصرية من ناحيتها معاملة مخالفة للقانون
والعوائد المدنية في الاسلام فاصدرت مرسوما نصادر به املاكنا وأراضينا ومواشينا
مع ان المحكمة العسكرية نفسها لم تضمن حكمها قراراً كذا كما أن هذا المرسوم مخالف
لشريعة الاسلام ولم يكن له مثال الا في حادثتنا . لان قضية درويش باشا التي
حكم عليه فيها بالنفي وبالحرمان من الوظائف والاقارب ومن كل شيء . الا املاكه
فقد تركته ومقدارها ثلاثون الفا من الجنيهات — أو تزيد والاعجب من ذلك اننا
حررنا من التوارث بنا . على الشريعة الاسلامية في المستقبل وهناك أمر آخر لا يعدله
شيء في الظلم والاستبداد وهو اننا حررنا من حق آخر ثابت لنا بمقتضى الشريعة
الغراء — حررنا من ان يرث ابناءؤنا املاك آبائهم وأجدادهم بعد موتهم . وقد
احتجنا على ذلك بواسطة محامينا في المحكمة .

والآن نحن متجهون الى حديقة آدم : سيلان . ولكنى قبل ذلك قد أبنت
وجهة نظرى فيما يتعلق بسعادة مصر ورخاء أهلها لسير شارلز ولن ليكي يرضها
على اللورد دوفرين . وسأصطحب معى الى سيلان ابني محمد وزوجته وخادمت وخادى
الخاص فقط وسأترك في القاهرة أولادى الآخرين وأهم وأبى الى ما بعد الوضع
وبعد أربعة أشهر من الآن أى بعد الوضع باربعين يوما سأرسل ابني الى مصر
ليأتى بهم الى سيلان . أما اخوتي فيقيمون مع أقاربهم في القرية وبما ان الحكومة
المصرية لم تحدد مرتباتنا الشهرية الى الآن وتركزت تقرير ذلك لسعادة محافظ جزيرة
سيلان حسب ما يراه من تكاليف المعيشة هناك فاني واخواني نأمل من عواطفك
واحسانك الشريف ان تكتب لسعادة محافظ سيلان وكذلك نأمل ان يكتب
اليه صديقنا السير وليم جرمجورى لكي تعامل وتقدر مرتباتنا تقديراً حسناً . كما
اننا نرجو ان تسعى في تخليص ممتلكاتنا من المصادرة وان تجعلنا نعامل بشأنها
حسب الشريعة الاسلامية والعرف الاسلامي وان تحصل من الحكومة المصرية على
نصريح بارسال عائلتنا الى سيلان على فقئها الخاصة لأنه يستحيل علينا ان نفق
أي شيء في هذا السبل وحالتنا المالية للمصرة معروفة للجميع .

واننا نرجو بحرارة أن يكون أصدقائنا وأقاربنا في مصر تحت حماية ممثلي الحكومة
الانجليزية فيها حتى لا نسي. الحكومة المصرية مطمئنتهم وتتقدم منهم باتخاذ اجراءات
عبر شرعية ضدكم ولعلكم فمحن نضع أنفسنا وأصدقائنا وأقاربنا في ظل حي الفولة
البريطانية ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان والآآن يا صديق الحبيب سنبتع نصيحتك
الصادقة التي أسديتها في خطابك المكرم المرسل لنا بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٢
وسنمضي أبلنا في سيلان في تعلم اللغة الانجليزية وفي عبادة الله تعالى دون أن
تدخل في أي أمر من أمور السياسة على وجه الاطلاق — الى أن يأتي وقت بمشيئة
الله أو يهي. الله لنا ظروفا تقنع انجلترا اننا لم نكن ناثرين — بل على العكس من
ذلك كنا ندافع عن بلادنا دفاعا شرعيا

ونرجوك أن لا نحرمننا من اخبارك الشيقة التي نحن دائما في تشوق اليها .
وأرجوك ايضا أن تبلغ نحياتي وتحيات عائلتي الى السيدة المصونة اللادي آن بلنت
والى اللادي جرمجوري وشكرنا العظيم على كل ما فعلوه لنا وخدموا به الانسانية
وكل لخواني هنا — يعقوب سامي ومحمود سامي ومحمود فهمي وعلى فهمي
وعبد المال حلبي وطلبة عصمت واحمد بك عبد القفار يرجون أن تذكرهم ويلقونك
اسمى تحياتهم ونحن جميعا نرجو أن تبلغ تحياتنا لصديقنا السيروليم جرمجوري والمستر
لويس صابونجي والنسيو جون نينه وجميع أصدقائنا من ذوي المروءة الذين ساعدوك
في الدفاع عن العدالة .

ادام الله لنا حياتك يا صديق في سلام دائم

صديقك الخاضع لأمر الله
احمد عرابي المصري

٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢

خطاب من عرابي

كتب في كولومبو في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣

ووصل الى لندن في ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز الخ صابونجي

بعد التiche أخبرك أني نسيت بسرور خطايك المؤرخين في ٩ و ١٥ يوليو
واطمأنت لما جاء، فهما من حسن صحتك الخ .

واني أشكرك وأشكر اخوانك أنصار الانسانية لاستمراركم على محاربة جيش
الظالمين وعلى تبديده بثباتكم واني وان كان واجبي الآن أن لا أَدْخُل في الامور
السياسية إلا أن العدل يقضي على أن أبرئ درويش باشا من تهمة الاشتراك في
مذبحه الاسكندرية وأقول هذا دون اي شك او تردد . ولكني لا أبرئه من انه
أخذ رشوة من الحديو فان هذه عادة الأتراك ولكن المبلغ الذي أحده لم يكن
المتحصل من رهن اراضي ميت خالد التابعة لحرم الحديو ، فان الناتج من رهن هذه
الاراضي دفع رشوة لبعثة العمانية السابقة التي كانت برئاسة علي نظامي باشا وكان
مبلغها ٦٠,٠٠٠ جنيه أرسلها ثابت باشا الشرقي الى الاستانة بحواله من البنك
الانجليزي . وكذلك لم يطالب درويش إلى شينا سوى أن أسافر مع بعض رفاقي الى
الاستانة وكان وهو يعرض ذلك يقول للضباط انه رئيسهم ووالدهم لكي يغريهم
بالثقة به حتي ينجح في حضنا على السفر ولكنه فشل في ذلك .

وقد سبق أن أدليت بتصريح خاص الى المستر برودلي بشأن مذبحه الاسكندرية
وبآخر في الامر نفسه الى صديقنا النيل المستر بلنت ، وهذان التصريحان بوضوحان
ظروف تلك الحادثة . وقد علمت ان احدهما لم يصل الى المستر بلنت ولكنه لا يختلف
عن التصريح الآخر وفيه الكفاية . غير آتي لكي أقفك على الحقائق ولكي أحول

وبين الالتفات للاشاعات الكاذبة اكتب لك هنا تفصيلا ما أدكره من الظروف التي سقت حادثة ١١ يونيو والتي حصلت في اليوم نفسه أو بعده حتى تعرفها جميعها وهي كما يأتي :

اما الظروف السابقة للعادة فهي :

أولا - لما رأى الحديو قدم الحزب الوطني استكثره بالنسبة لنفسه ولشعاره وحره - وكانوا خيرى باشا الشركي وطلعت باشا الروي وأمثالها - وشرعوا بصمون خطة الهدم . وبنا على ذلك استدعى الحديو رعايا البدو بواسطة ابي سلطان باشا وحمد سلطان من عمران الشرقية واستخدمهم لمحاربة الحزب الوطني بعد ان منح بعضهم سيوفا مزينة بالفضة وشجعهم وأثار أطماعهم ، حتى بدأ الناس بوجه عام ان الاسماعيليات صارت معسكر البدو

وكلن الاوريون والقناصل في القاهرة يعرفون ذلك حق المعرفة وقد زاد عدد البدو الوافدين لدرجة انه سبب الخوف من وقوع اضطراب وشرع الاوريون يشتررون جميع الاسلحة التي يجدونها في حوانيت القاهرة والاسكندرية . وقد أثبت ذلك السير ادوارد ماليت في برقيته التي أرسلها الى الوزارة الخارجية بتاريخ ١١ يونيو ثانيا - لم تنقطع المراسلات السرية قط بين الحديو وعمر لطفي حتى أنتجت مذبحة الاسكندرية وبعض هذه المراسلات كلن شفويا والبعض في برقيات رقمية وكلن يدير حركتها خيرى باشا الشركي وطلعت باشا الروي ولما تم التدبير نفذه عمر باشا لطفي بالتعاون مع اسماعيل قنبل باشا الشركي . ولكن السيد قنديل الذي كان من الحزب الوطني لم يشترك معهم في ذلك ولم يدعوه يعرف شيئا مما دبروه اذ خشوا ان يقابل سوء أعمالهم بعمل الحزب الوطني فلا يجنون فائدة وهو بعيد عن كل شبهة .

ثالثا - قال باشجاويش ابطالى - ولا أذكر اسمه - لصديق له قبل الحادثة يوم « انه خير له ان يفادر الاسكندرية معه لانه علم ان شيئا من الاضطراب سيحدث » وقد فر ضلا ويعرف اسمه حسن بك صديق وكيل الضيقية وكذلك

ضباط البوايس ولا بد أن يعرفوا أيضاً اسم الشرطي الذي قبض على الماطلي .
ولكن القول بان البدو أودعوا أسلحتهم في الضبّة قبل الشغب محض اختلاق .

اما الطرود التي كانت يوم المذبحة فهي كما يأتي :

أولاً — لم يرسل الى محافظ الاسكندرية بياً بالمذبحة كما كان واجبه وانما أخبرني الخديو في صباح ١٧ يونيو ان المحافظ عمر لطفي أرسل اليه تلغرافاً يقول فيه ان مالطياً ملعن وطنيا بجديّة ثم لجأ الى دار يسكنها أوريون وان الناس تجمّحوا مرتقبين القبض على المعتدى وان البندقيات والمسدسات أطلقت عليهم من منازل الاوربيين وان ذلك أحدث مذبحة كبيرة

ثانياً — لما علم الخديو بذلك لم يخبرني به في الحال على الرغم من أنه يعلم ان السلطة التنفيذية ليست في يده وانه قل الي ضمان الأمن العام بعد ان استخدمه ليزد أسباب الاضطراب . بل انه على العكس استدعى وكيل الحرية ليلا وأرسله الى الاسكندرية في قطار خاص مع بطرس باشا والياور الاول لدرويش باشا لينضموا الى عمر لطفي في قمع المياج .

ثالثاً — نشأت الجمع كله عند مجرد ظهور سلجان بك سامي وحشوده في منطقة الاضطراب ثم وزع الجود في الشوارع وحمل يطوف بنفسه في أحياء المدينة وكذلك وقف الاضطراب في الحال ولكن المحافظ لم يستدعهم لمخبره بالامر الا بعد ان اتسع مجال الشغب ونفذت تدابير الخديو وشركائه لكي يسوئوا أعمالنا وينقضوا ضمانتي للامن العام .

أما ما حدث بعد يوم الحادثة فكان كما يأتي :

أولاً — لما أخبرني الخديو بالحادثة كما قلت آنفاً علمت في الحال انها مكيدة فأصدرت امارة على احرار تحقيق في أسباب الشغب وتعيين مندوبين عن الدول العظمى وآخرين وطنيين لكشف الحقيقة . وثنا على ذلك أصدر ديكريته بتعيين لجنة تحت رئاسة عمر لطفي نفسه الذي كان المسؤول عن الحادثة . وكذلك عين وكيل الحرية وطرس باشا عضوين بها ولكنني لا أذكر اسماء المندوبين الذين اختارهم الدول العظمى التي لحق برعايلها ضرر

ثانياً — لما وصل وكيل الحرية الى الاسكندرية ووقف على الحالة رجاني أن
رسل قوة عسكرية لتأييد الأمن فارسلت في اليوم التالي للاضطراب فرقتين من
المشاة وبلوكين من السوارى وطارئين من المدفعية وكان ذلك في اللحظة التي طلبت
فيها هذه القوة . وكتبت خطاباً الى وكيل الحرية راجياً أن يدل كل جهده لارالة
الاضطراب وتوطيد الأمن والهدوء في المدينة وخارجها وأن يكون متبصراً حين
يبدأ التحقيق وأن يحذر الوقوع في فخاخ الخادعين — أعنى عمر لطفي وجماعة الخديو —
وأن يدافع عن شرف الجيش والحكومة وأن يعقد بيته على معرفة الحقيقة وكشف
لجرم الحقيق

ثالثاً — أمر المحافظ بدفن القتلى دون كشف طبي كما يقضي القانون وبدون
حضور ممثلين للدول

رابعاً — لم تبحث لجنة التحقيق قط عن سبب المذبحة ولا عن القتلى وإنما
حصرت بحثها في الاملاك التي نهبت متذرعة بأن ممثلي الدول لم يخول لهم التحقيق
في شيء يخرج عن الاملاك للسروقة

خامساً — طلب عمر لطفي من الخديو السماح له بتغيير الهواء في سوريا لكي
يهرب من التحقيق ويبعد عن المسؤولية ولكن يعرف أن الحرب داية وقد حصل
على اجازة . ثم ذهب الي القاهرة ومكث فيها الى ما بعد ابتداء الحرب وبعد ذلك
لحق بالخديو عن طريق بود سعيد وقد كافاه الخديو على نجاحه في اشغال نار الفتنة
باعطائه وزارة الحرية . ولما استقال من منصب محافظ الاسكندرية ومن رئاسة لجنة
التحقيق عين ذو النقاو ماشا سر تشريفاتي الخديو خلفاً له ولم يبق عمل .

سادساً — كانت أوراق التحقيق مع المحافظ عمر لطفي ولم تؤسس على شيء من
الصدق وقد حفظت بمحاولة الاسكندرية ولا بد أن تكون هناك الآن ان لم
يتلفها الخديو

والآن انضح تماماً ان اعمال الخديو وجماعته كانت سرية ولم يكن استطاعتنا
أن نقف عليها لأنها كانت مصادرة لاعمالنا وقد استحوذت الحكومة على جميع

اوراقا ووثائقا مع أملا كنا ولا يمكننا أن نذكر تواريخ الحوادث بالهبط ولكن في هذا وفيها أرسل سابقا الكمامة .

وجميع أصدقائنا هنا يرسلون اليك تحياتهم ويرحونك أن تسعى حتى لا يعين مصر حاكم غير مسلم لانك تعلم ان أي حاكم غير مسلم يضر بحقوق المصريين .

وقد كتبت آرائي الى صديق العزيز المستر بلنت وحين نطلع عليها منتظم لمساعدتنا . حفظك الله الخ .
صديقك

في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣ احمد عرابي المصري

خطاب من عرابي الى صابونجي استلمه يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديق العزيز صابونجي

تحيات ... الخ .

سررت كثيرا بمخاطبتك المؤرخ في ٢٢ يونيو وأسأل الله أن يعبك ويرفلك في أعمالك وقد بلغت سلامك الى جميع رفاقنا وهم يرسلون اليك تحياتهم .

هذا ونرجو أن تبلغ صديقنا المستر بلنت اضافة الى ما كتبنا اليه بتاريخ ١٥

الحاري ، ان التفات التي تكلمها ١٠٠.٠٠٠ جندي مصري أثناء الحرب ، قدوقتها

كلها هات اكتبته بها الامة المصرية على اختلاف طبقاتها وعند ابتداء الحرب لم

يكن ثمة أكثر من ١٠.٠٠٠ جندي تحت السلاح ولا أكثر من ١٢.٠٠٠ بذلة في

المحارن ولم تكن جاهرة ، ولم يكن هناك أيضا غير ١٥٠٠ « بشل » من القمع .

ولكن عند انتهاء الحرب كان في خزائن الجيش والمدريات وفي المخازن ما يزيد قيمته

على مليون جنيه من النقود والحاصلات والماشية والعنم والاقشة وكانت الامة قد

تبرعت بها للجيش الذي يدافع عن بلادها . ويشهد بذلك اولئك الذين ذأوا استلا .

المخازن التي تركت في التل الكبير وكفر الدوار وكفر الزيات وغيرها من المرا كز

الحربية . وفي ذلك الوقت لم ينفق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة بل

بالعكس تركت خزائنه المالية وصندوق الدين وخزائن المديرية مملوءة بالأموال .

ويشهد بذلك ايضا ما نشرته الجرائد المحلية وغيرها في ذلك الوقت وهو أن المبالغ

التي وجدت في صندوق الدين زادت على المطلوب لرفع كوبونات شهري أكتوبر

وبوفير يبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه ولم يقل أحد أن املاك الحكومة صودرت أو نهبت . ولو كما ممن يبيعون شرهم أو ممن يقدمون رجا . هم ومصالحهم الشخصية على المصلحة العامة للوطن لاخذنا الاموال التي كانت بتلك الخرائن المملوءة ولكنا تحت تأثير الرغبة في الغنى نقوم بأعمال مختلف تماما عما عملناه ولما سرنا في طريق الاستقامة نقود الامة في دفاعها عن بلادها محترمين حقوق الامة التي نحمار بنا وحقوق الامم الاوربية الاخرى في أثناء الحرب ، ثم لما سلمنا الودائع التي كانت بأيدينا بذمة وشرف . وان الرجل الذي يدل على مثل هذه القصة وهذا الشرف لا يليق به أن يصير آلة بأيدي المستبدن ذوى النيات السيئة أو يؤجر نفسه باموال من السلطات أو من الشيطان بل انه في حرصه على شرفه ومسلكه يخشى أن تشوبها أية شائبة .

وقد أرسلت رفته هذا خطابا الى صديقنا السير ولیم جريجورى وأرجو أن ترجمه وترسله مع الترجمة الى عنوانه بعد أن نريه لصديقنا العزيز المستر بلنت . نسأل الله أن يبينك على الخير

صديقك المخلص

احمد عرابي المصري

حاشية — يا صديق العزيز أرجو لك هذه المناسبة ان تذكر صديقنا المكرم بما قلته في ختام نصريحي للمجلس الذي حاكمي ، وهو كما يأتي :

يا أنصلو الانسانية : اذا لم تكن نمة حركة وطنية ولا رأى عام في مصر بل كانت هناك حركة عسكرية كما يقول المفرضون ، فلماذا سجن عشرون الفامن الوطنيين بعد الحرب ومن بينهم حسن باشا الشريفي أكبر سرة الوجه القبلى أبا عن جد وسيد ابو سلطان الذى ساعده حين كان (ابو سلطان) بمجرد موظف في الحكومة . وأيضا عبد الله باشا فكرى العلامة المشهور صديق حسن الشريف باشا . ومن بينهم أيضا صديقاى محمود باشا سامى ومحمود باشا فهمي الاذان تطوعا في الجيش أثناء الحرب . ومن بينهم كذلك كثير من كبار الباشوات ورؤساء المصالح المدنية مثل حسين باشا الدرملى ومصطفى باشا نايلى وآخرين ، وكثيرون من العلماء الكبار وأعضاء مجلس النواب والدبرين والمتين والموظفين المدنيين من جميع الدرجات وأنعيان التجار والعد ومشايخ البدو ومشايخ الطرق الصوفية ، حتى ان سجون القاهرة

والاسكندرية والمديريات والمحافظات كانت نختق بهم أننا سجننا . وأخيرا نرى
كثيرون من أدكياتهم من الاراضى المصرية . فلذا اعتبر الجيش وحده فى حالة
ثورة فلماذا عوملت الامة هذه للعامة ؟

ولكن من جهة أخرى اذا كان الجيش وزعماء الامة — او الامة المصرية كلها
فى الحقيقة — قد اتحدوا رغم اختلاف العقائد واتفقوا جميعهم على واحد هو الحق ،
فلماذا تأتى أمة أخرى معروفة بأنها تقيم عهد الحق والعدل فتسحق هذه الامة المنكودة
الحظ لكي ترضى فردا واحدا لا يسمح له قانون بلاده بان يكون حاكما باى حال
وذلك رغم احترام الحكومة الانجليزية للقانون والدين ، وكيف يبدو مثل هذا
المسلك أمام العالم المتمدنين فى التاريخ ؟

احمد عرابى المصري

خطاب من عرابى الى المستر بلنت

كولومبو فى نوفمبر سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز المكرم . . . الخ المستر بلنت حفظه الله

اذكرك الآن بطروف العهد الحيف الذى حل ببلادنا مصر ودفعني الى ان
أكلف مسيو لويس صابونجى بان يكتب اليك خطابا باسمي بشأن النتائج التى
تنجم عن محاربة إنجلترا لمصر والاحوال التى نصير اليها البلاد راجيا إياك ان تبين
ذلك لرئيس الوزارة المستر غلادستون . وكنت أؤمل قبول هذا التصريح وجنى
بعض الخير من ورائه . وكان ذلك قبل ابتداء الحرب بضعة أيام . وقد كتبوننى
رغبتي وبأمرى وان كان الخطاب لم يكتب بخط يدي ولم يختم بختمى . وقد كتبت
اليك هذا الخطاب لأننيك بحقيقة تلك المسألة يا صديقى الكريم .

صديك

احمد عرابى المصري

١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣

قائمة بأسماء المكتتبين

الدفاع عن عراقي

جنیه	شطن	بنس	
١٠٠	٠٠		الورد وتورث
٦١	١٧	٦	مبلغ جمه فريدريك هاريسون
٥٠	٠٠		ج . باسحور ادواردز عضو البرلمان
٥٠	٠٠		رينشارد ايف
٢٥	٠٠		السير ولیم جرمجوری
٢٠	٠٠		ولیم جون ایلین عضو البرلمان
٢٠	٠٠		روبرت هاريسون
٢	٠٠		السير ولفرید لوسن . عضو البرلمان
٢٠	٠٠		ایرل أوف وییس
١٠	١٠		الانور ایل . بورك
١٠	١٠		سینسر تشاونجن
١٠	١٠		فردریک هاريسون
١٠	١٠		الجنرال الورد مارک کر
١٠	١٠		صمویل ستوری عضو البرلمان
١٠			الرایت انور ایل روبرت بورك عضو البرلمان
١٠			ر . فودمی
١٠			ت . س . کلرجوم
١٠			اللا دی جرمجوری

بنس شان جنيه

١٠

السير آرثر هوبهوس

•

ف. بكتون عضو البرلمان

•

اللورد راندولف تشرشل عضو البرلمان

•

ادوار كلارك عضو البرلمان

•

ر. س. فيشر

•

الجنرال س. ا. غوردن (مع الوعد بمجنيه كل سنة)

•

الاونورايل اوبرون لفريبر

•

وتتورث س. هولذ زورنى

•

الفريد النجورث عضو البرلمان

•

ا. كنجليك

•

فرنون واشنجتن

•

السير هنرى درموند وولف عضو البرلمان

•

ادجار درموند

٣ ٣

ملحوظه — جورج مرديث وولفريد مينل وآخرون اكتبوا بمبالغ أقل .
واللورد دلاوار اكتب على ما اعتقد بمبلغ ١٠٠ جنيه ولكن ليس عندى مذكرتها .

خطابات صابونجي

التي وردت إلي من مصر

القاهرة في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢

في ليلة أمس (الاحد) زرت منزل محمود سامي الذي يجتمع به زعماء الحزب الوطني كل ليلة للمناقشة في خطتهم . وفي الوقت نفسه لفت فوزي بك مدير البوليس الانظار الى اعلان من الحديو منشور في الجريدة الرسمية بشأن الاضطراب الاخير الذي حصل في الاسكندرية . وقد أحضرت الجريدة في الحال وأعطيت لديم فقرأ الاعلان في جميع فأحدث في الحاضرين آراء شديداً . أما أنا فاني لم أجد اى خطأ في الاعلان لانه وصف حالة اليلاد بمجمل وأبدى الاسف لما حدث واقعة الثقة من جانب الاوروبيين ثم دعا الى السلم والمهدوء والسلوك الودي اراء المسيحيين على اختلاف جنسياتهم الخ . . . وقد انتقد نديم وغيره هذا الاعلان وأثاروا مناقشة حادة استمرت حتى الساعة الثانية صباحا وحاولت عينا ان أنصح لهم وأهدي نفوسهم ولكنهم أصروا على القول بان الحديو ليس من شأنه أن يذيع مثل هذا الاعلان وان ماليت هو الذي نصح له به . وقد حاولت عينا أن أبين لهم أن ماليت غادر الاسكندرية منذ يوم الاربعاء ولكنهم حتموا أن يخلع توفيق وأن يولى ابنه عباس بك بدلا منه تحت الرصانة . والواقع أن نديما رغم خلقه الثورى العليق وميله الى الإصلاح مفسر متدفع سهل التأثر وأسوأ ما شهدته منه أنه كلما وجد نفسه مغلوبا في مناقشة ففز في عطف الى موارد التعصب الديني وشر ما في الامر انه بعيد عن الدين ولكنه يتظاهر بحماسة للدين تفوق حماسة شيخ الاسلام . وعراي باشا يعرف كل ذلك وقد نصح له فعلا بالاعتدال ومنعه من السفر للاسكندرية خشية أن يحدث شيئا آخر لان له هناك نفوذاً أكثر من أى مكان آخر . وأنا أبذل ما في استطاعتي لقيادتهم ولا أضن بأى جهد في هذا السيل ولكنى أخشى خلق نديم المتعج فانه يستطيع في أى أية لحظة أن يشعل نار حرب دينية

وقد كان الحزب الوطنى حنى الامس راضياً عن الوزارة الجديدة ولكنه اليوم اقلب خصماً لها وكان نديم وسامي قد اقترحا ان يشمل برنامج الوزارة أن جميع المكاتب الاجنبية الرسمية يجب ان يكون طريقها الوزارة وحدها وأن الحديو لا يحق له أن يقبل تلك المكاتب الا بموافقة مجلس الوزراء . ولكن الحديو رفض هذا الحد من سلطه فلراد الوزراء أن يحولوا دون قيام صعوبات جديدة وافقوا على تخفيف صيغة الفقرة . ولكن هذا العمل الذى اتخذه عرابي ووزراء آخرون في اعتدال وتبصر حرك شعور نديم فثار ضد الوزراء والحديو ممكاً وشرع يدعو الى خلع هذا الاخير . وقد جاء في احدى البرقيات أن مالت سافر الى فينيسيا وان المشر كلزبرت عين بدلا منه وتقول برقية أخرى ان السلطان أرسل الى عرابي بشا وسام الميديدى والى الحديو وسام « سوفنير » مرصعاً بالماس .

القاهرة في ٢٩ يونيو

ذهبت بالامس لارى حديقتك وكان نديم معى وكان الحر شديداً وقد مكثت هناك طول النهار وكان الوكيل الاوربي ولا أعرف اسمه (هو المشر روجل من لجنة الدومين) قد فر مع بقية الاوربيين الذين غادروا مصر أخيراً . وقد شكوا الجنائى العربى اليانا عدم معرفته من يلجأ اليه في حالة الضرورة . وزارنى يوم السبت ومعه حساباته راجياً أن أرسلها اليك ووعدته بان أحضر لهوكيلا مصرياً أهلاً للثقة ورجوت نديما أن يدلني على أحد معارفه . والحديقة في هذه السنة أكثر انتاجاً من المعتاد والمياه وافرة .

نسيت أن أخبرك في خطابي السابق ان انصار الحديو حاولوا أن يسموا نديما بسيجارة مسمومة وقد دخن نديم جزءاً منها وهو مطمئن فكان هذا الجزء كلفاً لأن يفتله وعيه وبصره مدة خمس وثلاثين ساعة . والحق ان نديما حرك دأمة .

وقد كان عرابي في الاسكندرية يوم ٢٧ الجارى وعاد منها الى القاهرة قبيل لرسالى البرقية اليك وقضيت طول الليل معه . وكان محمود سامى والباشوات الآخرون ونديا وعبدى حاضرين وحوالى منتصف الساعة الثانية عشرة ذهب الجميع ولكني بقيت

مع عرابي وسامي ونديم وحدثني عرابي عن الاستعدادات الحربية القائمة في تقط مختلفة من مصر. وقد اتخذت الاجراءات لردم قناة السويس في حش ساعات عندما تبدو من جانب اوروبا أول دلالة على العداء. والمظاهرة البحرية الحقاء التي قامت بها امخترا وفرنسا قوت الحزب الوطني مائة مرة حتى صار عبارة عن الامة نفسها. وأنت تعرف تمام المعرفة ان الدوافع الدينية تلعب دوراً كبيراً في مثل هذه الظروف وأن البعض ممن لا تؤثر فيهم العواطف الوطنية والسياسية تقوم الحاسة الدينية، وكذلك الحالة في مصر وأخشي مما أراه وأسمعه ان تعلن الحرب الدينية عند أول بادرة للعداء. من جانب أية دولة اوروبية. والحالة الحاضرة سيئة جداً وقد علت من قفص ايطاليا ان ١٠٠.٠٠٠ شخص عاقدوا مصر منذ قدم الاسطول ودعت القصفية البريطانية الزعابا البريطانيين الباقين الى المهاجرة من مصر حالا، والذين يختارون البقاء يجب عليهم أن يوقعوا اقراراً بأنهم يتقون هنا تحت مسئوليتهم الشخصية والرعب القاتل يشمل الآن جميع الاوربيين على اختلاف طبقاتهم ولا يوجد اكثر من اثني عشر محلا اوروبيا مفتوحة وتقلق القنادق ابوابها وليس هنا محلات مؤنثة لتؤجر ومنظر الاحياء الاوروبية بالقاهرة نأدى الكآبة ولكن الاحياء العربية مثل ما كانت عليه من قبل تستمتع بالحياة بطريقها الخاصة والفلاحون وحدم في قلق لأنهم لا يلفون من بشئى حاصلاتهم وقد مضت الآن ست سنوات والمحاصلات بهذا الوفرة والقمح الذي كان يباع بخمسة وعشرين فرنكا على الاقل لا يجد الآن شاريا بخمسة عشر فرنكا بينما قيمته في إنجلترا خمسة وثلاثون فرنكا للربيع. ونعمة ربح قدره خمسون في المائة على الدوام وقد فر الاوربيون الذين كانوا يجوبون داخلية البلاد وبشئرون من الفلاحين حاصلاتهم وأخذوا معهم أموالهم.

الاسكندرية في أول يوليو

رأيت أن اذهب الى الاسكندرية لان عرابي اضطر الى المكث بها مع راغب باشا والحديدو، وعلى ذلك أتيت الى الاسكندرية اليوم وأجرت غرفة في فندق (ابات) وهو مزدحم باللاجئين من الاوربيين وفي المساء ذهبت الى سراي رأس التين لأقابل

عراي باشا ولكنه كان مشغولا في مجلس حربي فكننت اليه مذكرة قلت فيها :
 «أولا — مادامت انجلترا تحدث هذه الضجة حول قامة السويس فمن المستحسن أن
 يخبر ممثلي الاول الاوربية بأن القناتة بصفنها طريقا دوليا لكل الامم يجب أن تبقى
 محايدة في حالة الحرب مع مصر ولا تمر بها بارجة أو أية سمية بها أسلحة ودخائر
 من تاريخ كيت الى تاريخ كيت . فاذا خالفت ذلك أية دولة فإن الحكومة
 المصرية تضر القناتة في الحال وتقع المسؤولية على عاتق الدولة التي تحمل عليها السيفنة
 الداخلة في القناتة . ثانيا — ينبغي للحكومة أن تخبر الدول التي أرسلت أساطيلها الى
 الاسكندرية لتوطيد السلم والهدوء في النجاء اللاد بأن يتساءل الاسطول في مياه
 الاسكندرية يدع نمية المصريين في هياج وهذا خط على الامن العام ومانع للناس
 من الرجوع الى الاسكندرية ماداموا يعرفون أن الاسطول لا يزال هناك . وبناء
 على ذلك يجب أن يرسل انذار الى الدول صاحبة الشأن وفيه انه اذا لم ينسحب
 الاسطول من تلقاء نفسه في مدة اربع وعشرين ساعة تصوب الحصون مدافعها اليه
 وترغمه على الانسحاب . واضفت الى ذلك انه مما يرفع شأن عراي ان يكون البادى
 في هذه الحالة ليرى اولئك الذين هددوه قبل شهر مضى انه بلغ الآن من القوة
 ما يجعله يهددهم ويتعداهم . ثالثا — عرضت على عراي باشا ان يتبع الحفرازاء الجيوش
 التركية ولا يسمح لها ان تنزل الى الارض فان الكراهية السابقة بين الاتراك والعرب
 لم تمت ولن يتفق الجنود الاتراك والعرب معا ووجود الجيوش التركية في مصر سيخلق
 الفوضى ويحدث الاقسام في الجيش والامة وبشل جهود الحكومة بواسطة الدساس
 المعتادة فخير له ان ينصح للسلطان بان يحجم عن ارسال جيوش الى مصر فاذا اصر
 على ارسال جيوش يعتبر كدولة مهاجمة ويقاوم على هذا الاعتبار .

في ٣ يوليو

في ليلة امس اثناء العشاء ارسل الى عراي باشا صابطا وترجمانه الخاص راجيا ان
 اذهب لزيارته وحالما دخلت غرفة الاستقبال وقف في ادب وقال بمنسيا : « كنت على
 وشك ارسال رقية اليك بالقاهرة ولكني علمت انك في الاسكندرية واليك جنت

لزيارتي بعد ظهر اليوم بينما كنت في المجلس مع راعب . وبعد شرب القهوة سألتني
عك وعن السيدة حرمك وعما اذا كنت علت شيئا من اخبارك وعن كيفية سير
الاحوال في البرلمان البريطاني . وقد اخبرته بكل ما عرفة قانباتي بان مراسلا جديدا
جريدة ستاندارد وصل اخبرا وزاره ليسأله عن وجهة نظره في الحالة الحاضرة وقال
عراي : « وقد قلت له اني آسف لانه اتعب نفسه في المجي ، الى بينما كان يستطيع
ان يحصل على كل المعلومات اللازمة من المستر بلنت في انجلترا وهو يعرفني كما عرف
نفسى . فقال المراسل ان الامة الانجليزية تدرك الآن تماما ان المستر بلنت من
اكر اصدقائه المصحين به ولهذا السبب نحسبه مفرضا يغال في الحقائق . وعلى اثر
ذلك حرت محاوره بين عراي والمراسل وربما تقرأها في الستاندارد . واخبر المراسل
عراي ايضا بان في انجلترا الآن جمعية لحماية الرعايا البريطانيين في الخارج وان هذه
الجمعية تطالب الآن بدماء الرعايا البريطانيين الذين قتلوا في الاسكندرية يوم ١١ يونيو
فأجاب عراي قائلا انه يسره كثيرا ان يسمع ذلك وانه هو نفسه سينضم الى الجمعية
لا يطالب بدماء الرعايا البريطانيين وحدهم ولكن بدماء جميع الضحايا من كل
جنسية الذين ضحى بهم على أرض مصر ، سيطالب بدمائهم من أصحاب تلك
الكثرة . وان من واجبه ايضا ان يطالب بدماء اخوانه المصريين الذين ذبحهم
الاوربيون وان الحكومة البريطانية نفسها كانت سبب الأذى بواسطة ممثلها في
مصر . وقد رجاني خمس مرات امام الجميع ان أرسل أصدق تحياته القلبية اليك
وأبكر احترامه الى السيدة فرينتك وكلم الحاضرين عنك وعن شديد اهتمامك
بالقضية الوطنية وقال انه لو كان كل الانجليز مثلك لأصبحت انجلترا جنة
والانجليز ملائكة

وقد ابدت في خطابك الاخير رغبتك في ان تسمع منى بياننا عن الشعب الذى
حصل في الاسكندرية يوم ١١ يونيو . وبما انى لم اكن في الاسكندرية في وقت
الحادثة أكتب اليك وصفها كما سمعت من الصباط والمصريين والاوربيين ثم كما سمعته
من الشا نفع ثلاث مرات ثم مرة أخرى في ليلة أمس

في يوم الاحد ١١ يونيو من مالطي مكلرا غرق في الحلال قبلا فلم يصير
الوطنيون المشاهدون للحالة حتى يحضر الشرطة بل هجموا على الماطلي وقتلوه فوق
الحمار واد ذاك شرعت الجالية الماطلية في اطلاق الرصاص من النواذف وكانت قد
تسلحت من قبل . فاحدث هذا اضطرابا عاما بين الجماهير التي تجمعت في الميدان
ومن ثم امتد العراك الى أجزاء عديدة من المدينة واستمر الى الساعة السادسة (أى
نحو خمس ساعات) حتى حضر الشرطة والجود ليفرقوا المتشاجرين

وقد جرح القنصل البريطاني جرحا خفيفا في ظهره بواسطة عصا وهو المعتبر
أصل الحادثة ومديرها ولكنه لم يخرج من بيته وكان الدافع له الى البقاء فيه خوفه
من القتل لا خطورة جرحه . ولكن على الرغم من ذلك بعث السير ماليت في
متصف ائبل الى المراسل اخذيد لجريدة « الدلي تاغراف » يخبره بان القنصل
البريطاني جرح جرحا مميتا وأنه قد يلم الروح قبل شروق الشمس ويرجو ان يرسل
هذا الخبر في الحلال الى لندن . غير اني نصحت للمراسل بان لا يتسرع وان
يرتقب حتى آتية بالنبا اليقين من عراي نفسه وذهبت في الليلة نفسها الى عراي باشا
وسأله عن حقيقة المسألة فلجابني بأنه أبرق أربع مرات ولكن لم يأت اليه جواب .
وبينا كنت لديه أنت برقية وبعد خمس دقائق جاء الحاج رازي وكان قد
أرسل من الاسكندرية خصيصا ليخبر عراي بالسبب الحقيقي لا شغب وتفصيل
حدوثه فعدت في الحلال الى المراسل وأخبرته بان مسألة القنصل لا أساس لها بل
على العكس لما فرق الشرطة الجماهير وجدوا عند باب القنصلية عربتين أربع وعشرون
بنندقية ومسدسان وصندوقان مملوءان بالبارود وكان القنصل نفسه قد أعدها جميعا
ليستخدمها الماطليون . وقد أخبرني عراي باشا في ليلة أمس بان لجنة التحقيق أثبتت
ان المشاجرة كانت مذبذبة وذلك أنه في صباح يوم الاحد الذي وقعت فيه الحادثة أخبر
ايطالى يشفل وظيفه كونستابل في البوليس المصري كونستابل آخر من رفاقه انه
ستحدث مشجارة خطيرة في اليوم نفسه وأنه خير لما ان يهربا وقد اختفيا بالفعل وهما
الآن في ايطاليا . والحرائد لا تكتم سر المسألة وتصرح بان القنصل البريطاني و

الاسكندرية هو الذى دبر المشاجرة وأعد لها اغراض سياسية . ولم يعرف عدد الضحايا وانقت الساطات الاوردية والمصرية على علم التحقيق في هذا العدد. والواقع ان الشعب كان أعظم مما وصفته الصحف فقد قتل فيه أكثر من ١٤٠٠ شخص معظمهم من الاوربيين . وكان الاوربيون كلهم مسلحين بالبنادق والمسدسات بينما الوطنيون لم يسلحوا بشير العصي ومع ذلك كان موقف هؤلاء خيراً من الاولين. وهذه التجربة المبدئية هي التي ثبقت من شجاعة الاوربيين وجعلتهم يفرون من مصر كالحجباء .

وقد وصل كتابك «مستقبل الاسلام» الى نديم وذكرت لمخلاصته وترجم خطابك الذي أرسلته الى المستر غلاستون ونشرته «التييس» الى اللغة العربية لينشر في «الطائف» وقد سر عرابي باشا به كثيراً وهو يقول ان الجو السياسى معتم وريعا أنتد بصواصف أشد وان الحرب أقرب من السلم ولا مثيل للنشاط البادى في الاستعداد للحرب في مصر في الوقت الحاضر ويستعد للحرب الجنود والفلاحون والبدو جميعاً. وسأغادر مصر في اليوم الذى تعلن فيه الحرب وعلى الرغم من ان الباشوات والضباط يطلبون ان أقفي في مصر أثناء الغروب لا أحسب ان بقائي يكون من الحكمة وأؤمل ان تدرك احوال نشوب الحرب وتبتي قبل شوبها بالتفراف على أن تكون الدلالة على وجوب مفادتي مصر هي كلمة «اكسودس» . واذا قامت الحرب فستغرب مصر تماماً وستغرق الاسكندرية ومديرتان معها وستندرس القناة الى الابد بياه البحر التي تندفق من سد أبي قير وستكون حرب اليأس ولن يسلم المصريون حتى يصحوا بكل نفيس. ويدلنى ما اسمعه وما أراه على انهم أعدوا العدد لسكي يجهلوا من الحرب في مصر ثورة عامة يقوم بها المسلمون في آسيا وأفريقيا .

الاسكندرية في ٣ يوليو

رجائي عرابي باشا أن أدون المكتبة الآتية التي أملاها على باللغة العربية بحضور عبد المال باشا ومحمود باشا مهني مفتش التحصينات وكثير من الباشوات والصايط وطلب الى أن أترجمها الى اللغة الانجليزية وأرسلها اليك لكي تتمصل

بتقديمها باسمه الى الرايت اونورا بل المستر غلادستون (وذكرها خطاب عراقي الى المستر غلادستون وقد سبق ذكره في أصل الكتاب)

حاشية - خولي عراقي باشا أن أخبرك بأنك بعد أن تقدم هذا الخطاب الى المستر غلادستون يمكنك ان تستخدمه كما تشاء سواء بنشره أو بغير ذلك .

الاسكندرية في ٤ يوليو سنة ١٨٨٢

نلت شاكرًا مكتوبك الرقيق مع قصاصات المرائد . ينظرون هنا الى السياسة التركية بعين الشك وسوء الظن وقد عزم عراقي والباشوات والضباط والامة علي منع الجيوش التركية من النزول الى البر ويقولون أنهم غير محتاجين الى مساعدتهم على الارض « واذا كانوا يرغبون حقًا في مساعدتنا فليحاربوا عدونا المشترك في البحر » .

الاسكندرية في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كنت ليلة أمس مع عراقي باشا حتى منتصف الليل ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدت بها مزجحة بالباشوات والضباط وغيرهم وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهنئوه لمناسبة الانعام عليه بالوسام المجيدى الاكبر . وعند الساعة الحادية عشرة انصرفوا وبقينا أربعة وحدنا بالغرفة وأخذنا نتكلم بحرية في مسائل كثيرة . وقد قرأت له برقيتك المؤرخة في اول يوليو فسر كثيرًا ولما ذكرت له اسم درويش هز رأسه وكأنه يقول : « نحن نعرف هذا الشخص حق المعرفة » . ثم قال لى : « أما عن ذهابي الى الاستانة فليقل الناس ما يشاؤون فاني ولدت في بلاد العراق وسقطت الاهرام الخالدة قبرى ولن يحاول الباب العالي أن يخرّب احدى المستلكات العثمانية ومن الامثال العربية : لا يجمع احد أهله بيده . وسيفكر السلطان مليا قبل أن ينوي دعوتي الى الاستانة او ارسل جيوش الى مصر » .

ويوجد الآن في مصر شعور قوى ضد الانراك والامة الانجليزية على السواء . وقد أيقنت أخيرًا ان اميرال الاسطول البريطاني هو ماليت او كلن آخر او شر منهما . وبالناس ارسل انذارا (والاذارات هي الطراز السائد الآن) ارسل اليك صورة منه مع هذا الخطاب وقد وجه الى طلبه باشا .

وقد أحدث دعياً شديداً بين الوطنيين وأيضاً بين الاوربيين القليلين الذين لا يزالون في مصر . وقد كنت في غرقى أكتب بعض الرسائل فاذا باحد خدم الفندق يأتى الى مرتجفاً ويخبرنى بشي . لا أنهمه بداءة لانه كان من شدة الخوف لا يطق الا بصف الالفاظ وقد حاولت ان أهدي روعه وسأله ما ذا فى الامر . فقال : « ألا تعلم ان الاسطول البريطانى سيضرب المدينة اليوم ؟ » فابتسمت لأبش فى نفسي شيئاً من الشجاعة وصحبت له بان لا يخاف وأنه لا يوجد خطر ولكنه قال وهو لا يزال يرتجف ان القاصل أمروا جميع الاوربيين بان يتوجهوا الى الخال الى ظهور البواخر . فسأله أجا . هذا الامر رسمياً الى الفندق ؟ فأجاب : « كلا ياسيدى . ولكن كل من بالفندق يغادرونه » . قلت له لا نهتم بهم وأعطينه ثيابي ليلبسها الى القلعة فرفض وتولى . وفى الخال قتت وذهبت الى عرابي باشا لأرى ما هو جار فلم أجد شيئاً جديداً سوى ان راغب باشا أخبر الاميرال انه لا توجد أعمال جارئة فى الحصون وقد سكن ذلك ثائرة الاميرال ولكنه لم يطمئن الشعب الخائف . ولذا ذهبت ثانيا الى طلبه باشا ورجوته ان يرسل الى جنديين ليحرسا مدخل فندق المساجيرى الذى أسكه الآن فتبعث الثقة في نفوس التازلين به . وقد كنت لدى طلبه باشا حين وصل اليه الاذكار فاعطانيه لكي أعزبه فمريت فى الخال بحضور عرابي باشا والضباط الآخرين . فلما قرأوه قال الكولونيل عايد بك : « هل فى الامكان ان أنجلترا لا ترسل اليها سوى موظفين مجانيين ؟ ان هذا الاميرال يدل ان يظهر نفسه في مظهر الرجل العاقل الجري . يبدى الخوف عند أدنى حركة فى الحصون ولا يقنأ بضايقتنا بانذاراته وبزعج الناس وبشعر شعور العرب وهو يضراً أكثر مما ينفع » . والواقع ان مدينة الاسكندرية أصبحت خاوية

وقد طفت أسس المدينة راكبا فلم أكدر أرى عشرين او ثلاثين أورديا والحوانيت والقملوى مقلقة والمهاجرة من الداخل مستمرة وقد أمر مستخدمو الدومين ووكلاء المراقبة وأصحاب المصارف الخ بأن يغادروا مصر . بل وصلت الحالة الى درجة ان أدوات شركة التلغراف الشرقية قلت الى بارجة الاميرال وقد أصبحت الخبرات بالتلغراف صعبة جداً وغير مأمونة ووضحت طريقة ارسال أحد التلغرافات متمبة

فعلى المرسل ان يكتب نص التلغراف ويعطيه لكتاب حجز نفسه في غرفة صغيرة جداً بها نافذة ذات قضبان حديدية وليس فيها سوى ثغرة صغيرة خمس بوصات. وكذلك الانجليز الشجعان الذين أتوا الى هنا باسطولهم لكي يسطروا العرب الذين لا يزالون يعيشون في هدوئهم المعتاد

اما عن نفسي فلا أدري أمن التبر ان أبقى في مصر في حالة الحرب أم لا ؟ ويريدني أصدقائي على ان أبقى ولكن لا أعلم ان كان ذلك مأموناً. ورجائي اليك ان ترأب اتجاهاً ودارة الخارجية وفي اللحظة التي تعلم فيها ان الحرب قررت ترسل الى تلغرافها بكلمة « موسى »

في ٨ يوليو — توجت صباح اليوم لأرى عرابي باشا فاعترني انه استقبل سيدة امريكية فنية من فيلادلفيا رحته ان يوقع باسمه على دفتر الامضاءات « أوتوجراف » وقال انه كتب لها باللغة العربية ورجاني ان أترجم ما كتبه الى الانجليزية وأخبرني أيضاً انه كان منذ يومين آتياً من القاهرة الى الاسكندرية فوجد في اللحظة حسنة ايطالي يستعدون لمغادرة مصر فشرع بمجادتهم ويشجعهم على البقاء في ديارهم لانه لن يوجد خطر مطلقاً وضمن لهم أرواحهم واملاكهم وقال انه يضمن سلامة كل انسان . وقد شجعت كلماته أولئك الاشخاص الذين علمهم العرب فاندفعوا اليه رجالاً ونساءً وبناتاً واطفالا ليقبلوا يده ويشكروه. وكان بينهم رجل مسن في طول عرابي نفسه شق لنفسه طريقاً بين هذا الجمع ولما وصل اليه وضع كلنا يديه على كتفه وقال له بالاطالية ما معناه « الله يباركك » . وفي النهاية عاد ثلثهم الى بيوتهم في القاهرة .

وبينما كنت مع عرابي نسلم خطانا من رجل ايطالي برحوه أن يقبله بصفة متطوع في الجيش المصري ويقول انه كان فيما سبق جندياً في الجيش الايطالي تحت قيادة غاريبالدي وأنه الآن يريد أن يحارب لاجل حرية مصر .

لا يشق السلطان كثيراً بدرويش باشا وقد أرسل معه الشيخ احمد أسعد وكيل السلطان في المدينة بصفة حاسوس عليه يرقب حركته وأعطي السلطان بدرويش باشا شرفاً خاصاً ليرمل به تلغرافاته وفي الوقت نفسه أعطى احمد أسعد شرفاً خاصاً

آخر وهكذا بحث هذين الملبوسين أحدهما ضد الآخر وكل منهما يرسل تلغرافاته مستقلا . وهذا الشيخ أحمد أسعد صديق حميم لعراي وقد ساعده كثيرا في أزمته الأخيرة مع الخديو .

ومنذ يومين كنت مع عراي فأناه رجل عربي بخطاب ففتحته وتلاه علي وعلى الضباط الآخرين وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة وكان الخطاب مكتوبا بأسلوب راق وفيه مدح كثير وقال كاتبه ان جميع الناس في مكة يدعون الله ان ينصر عراي وان الصلوات تقام من أحله ومن اجل نجاحه في الكعبة وعند قبر اسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفي كل مكان مقدس في مكة . ولم يتردد الكاتب في منح عراي لقب حامي حى الاسلام والدولة الاسلامية . وقد أتى بالخطاب رسول خاص . والمجلاز كله مع عراي ولم يرد شريف مكة أن يكدر علاقته مع السلطان فكلف أحد رجال حاشيته بكتابة هذا الخطاب وهو عباس أعا زمزم . ولما تلى الخطاب اتفق على كتابة خطاب شكر اجابة عليه .

ويظهر أن الاميرال الفرنسى ها يرتاب كثيرا في حركات الاميرال البريطانى وكلما رأى الاول الثانى يغير موقف بارجته يبعثه في الحال واذا خرجت بارجة انجليزية من المينا سارت في أثرها بارجة فرنسية واذا وصلت الى الاسكندرية بارجة بريطانية جديدة يبرق الاميرال الفرنسى في الحال طالبا ارسال بارجة فرنسية . والواقع ان هاتين الدولتين تتبع احدهما الاخرى كالقط والفأر .

في الاسكندرية الآن شيخ مشهور من الجزائر يدعى الشيخ محمد البزولى ويجهل جميع المسلمين والسلطان نفسه . وقد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة في الجزائر ثم في تونس ولما جاء الى مصر منذ أربعة أشهر بدأ ينشر الدعوة ضد عراي وأعلن للخديو أن عراي ناثر على السلطان واذا كان رجلا عالما فصيحاً ذا نفوذ أضرب عراي كثيراً وساعد في الخلاف القتال الذى قام بين سلطان باشا والتواب وعراي . وفي ذات مرة كان بخطب ضد عراي في اجتماع فسأله أحد الحاضرين هل يعرف عراي شخصياً فاجاب الشيخ مشتمراً بأنه لم ير عراي قط وانه لا يربح في رؤيته (ثم ذكر الخطاب كيف ان الشيخ قابل عراي بعد ذلك في احدى الولائم دون أن يعرفه وبحث معه

في مسألة الإصلاح وأثرت فيه مناقشاته ووجهه حتى صار أحد أنصاره المخلصين). ومنذ ثلاث ليال رأيت في دار عرابي وقد أتى لستانذه في أن يذهب الى السلطان ويسأله باسم جميع المسلمين ان يعطل عن ارسال جيوش تركية الى مصر فلما سمعت ذلك منه سأله كيف كان ، حين سررت برؤيته لأول مرة ، بدعو الى تدخل الأتراك بمحجة ان مصر ولاية عثمانية فاذا أنت الى مصر جيوش تركية كانت في بلادها ؟ فاجابني : « صحيح ان ذلك كان اعتقادي في ذلك الوقت ولكن لما سمعتك تقول ان الجيوش التركية اذا أنت الى مصر قلن نخرج منها وان وجودها في مصر سيجدد المصن القديم بين الحنود العرب والجنود الأتراك — وجدت امك مصيب في رأيك والآن أتيت لاستأذن من صاحب السعادة أن أذهب مع بعض اصدقائي الى الاستانة لامنح السلطان من ارسال جيوش الى هناك » . وأعلن أن عرابي أخبره بأنه تأكد من السلطان أنه لن ترسل جيوش الى مصر .

في ٩ يوليو

علمت من مصدر ثقة أن خير الدين باشا وسعيد باشا — والاول رئيس وزارة سابقة بالاستانة — يعارضان في فكرة ارسال جيوش الى مصر ويقال بأنه بينما كان الوزراء يبحثون المسألة في مجلسهم قام خير الدين وأراحم من آيات القرآن والحديث ما يدل على أن ارسال جيوش مسلمين لمحاربة أمة مسلمة هادئة أمر يخالف الدين وختم كلامه بحديث مؤداه أنه اذا تحارب شخصان مسلمان عذب القاتل والمقتول كلاهما عذاباً أبدياً في نار جهنم .

فهمت من الصحف التي تفضلت بارسلها ان ماليت وكلفن هاجلاك ولعلك تذكر اني كنت مصيباً في رأيي الذي كوتته لفسى شأن هذين الشخصين منذ اول يوم دخلنا فيه القاهرة . وقد اعتمدت أكثر من اللازم على صداقة ماليت وعلى اخلاص كلفن المزعوم والآن اصدقائنا هنا في أشد السخط عليها قرأت خطاب السير ولیم جویمجورى المشور في « التيس » وترجمته الى اللغة العربية لعرابي باشا فسر به كثيراً .

في ١٠ يوليو

هذا يوم الاضطراب البالغ ، يوم الرعب والشقاء والمرار العام . ففي صباح اليوم كنت في سريري فجاء إلى خادم وطلى من خدام الفندق وقال « قم واستعد للذهاب » . فأتت لأذا ؟ فأجابني : « لأن سيدي سيفلق الفندق ولن يبقى به أحد وقد ذهب الجميع إلى البواخر » . فتمت وأمرت الخادم بأن يحضر لي معجان شاي . فقال « لا يوجد شاي » فلبست ثيابي وزلت إلى قاعة الطعام ووجدت فيها صاحب الفندق في اضطراب ويأس . فسألته عن الحالة فأحاطني « أمر جميع القناصل رعاياهم أن يخلدوا الاسكندرية قبل الظهر » . فقلت : « هل تتركني أسكن الفندق وحدي وأعني به ؟ » فرفض ذلك قائلاً انه لا يمكنه . فرجوته أن ينتظر على الأقل ساعة حتي أذهب إلى نظارة البحرية وأعود . وفي الحال ركبت عربة وذهبت لأرى عرابي ولكني لم أستطع رؤية أحد من النظارة فقد كانوا جميعاً في المجلس . ووجدت سكرتير عرابي الخاص فأخبرني بأن الاميرال البريطاني أرسل كلمة شفوية فقط يقول انه سيضرب الحصون بعد أربع وعشرين ساعة وأن قناصل الدول الاخرى ذهبوا إلى الاميرال البريطاني ليألوه عن المسألة . ولما عدت إلى الفندق وجدت صاحبه قد حرم أمتعته ووضعها فوق عربات وأنه على استعداد للرحيل ولم أجد وقتاً كافياً لأحضر حقائبي الصغيرة وأركب عربة وأذهب . ولم أدر إلى أين أذهب . وقد خرجت الاساطيل فعلا من المياه . وذهبت إلى البحر استعداداً لاطلاق المدافع . وكان الناس - وأعني القليلين الذين بقوا حتى اللحظة الاخيرة - ينجون في سرعة كبيرة إلى البواخر المختلفة التي مكثت في الميناء لتستقبل اللاجئين . واستأظن أن ماحصرة الاسرائيليين من مصر تداني ما رأيت ، فان الرجال والنساء والاطفال والرضع الباكية بين أذرع أمهاتهم ، والشيوخ الذين لا يقدر على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون إلى ناحية البحر في رعب يذكر الانسان يوم القيامة . وكان هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يبرح همهم في ذعرهم ويأسهم سوى لمن القناصل والحكومة البريطانية التي أمت لمصر بهذه النكبة .

وسد أن شهدت هذا المنظر المزعج بدأت أفكر في مآلي ولكن كلما

ذهبت الى من أمرهم وجدتهم قد ذهبوا . ولم أجد مكاناً إلّا اليه سوى الترسانة
ولكنني لم أحسبها مكاناً آمناً لقرها من الحصون في حالة ضرب المدينة . وكان الوقت
بعضى أثناء ذلك وقد قرب انتهاء مهلة الأربع والعشرين ساعة . فجال فكري أن
أذهب الى إحدى البواخر ولكن سمعت أنها مزدحمة وكان أحد بخارة القوارب
مشغولاً بحمل حقائبى الى قاربه فعرض علىّ أن يأخذني الى القارب البريطاني المسمى
« تانجور » ولكي رفضت ذلك لأن جميع الرعايا البريطانيين والقناصل ومراسلى
الصحف — وأكثرهم بمر فوتي — كانوا في البواخر ولذلك لم أجد من الحكمة أن أرحل
بنفسي بينهم وعزمت على أن أبقى على الشاطئ . وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية
ولكن دنت آخر ساعة وكانت القوارب الأخيرة تروح . وفي هذه اللحظة قابلت
فريباً كل على وشك الانبحار مع زوجته فدعاني لأن أذهب معه الى الباخرة « سعيد »
أحدى بواخر المساجيرى ماريتيم فتوجهت اليها وهأنا أكتب فيها هذا الخطاب .
ولا أظن اني أقدر على ارسال هذا الخطاب اليك غداً لانه لا يوجد بريد بريطانى .
وقد اعقلت جميع مكاتب البريد بما فيها المكاتب المصرية .
وقد تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية وقلت أدواني الى
بارجة الاميرال البريطاني .

ولما رأيت أصدقائي منذ ساعتين وحدثهم ثابتن ومتأهين لقتال والمقاومة الى
الى آخر نقطة من دماهم معها كلهم ذلك
في ١١ يوليو

في صباح اليوم (الثلاثاء) عند الساعة السابعة تماماً أطلق الاسطول البريطاني
أول طلقة اشارة الى ضرب الحصون . وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة
قصيرة من الاسطول وقد أنت ساعة عرابي الخطيرة . وأما درويش فقادر الاسكندرية
عقب ابتداء الحرب وأبحر الى حيث لا يدري أحد . ومن بين ١١٧٠ شحصا كانوا
معى هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة كست الوحيد الذى يمتنى حسن الحظ
والساح لمرأى ورقاقه ولما أطلقت أول طلقة لوح في الهواء بالقبعات والمناذيل
والايدي مع الحثاف والنداءات الفدالة على الرضا وكان الرجال والنساء والاساقفة

والقوس والرايون والراهب في سرور وجفل يتنبأون بتسليم الحصون بعد ساعتين ولكن استيادهم بدأ بالصل والساعة الآن الواحدة والنصف ولما ينقطع إطلاق المدافع من الجانبين وقد كانت المقاومة حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يخطئ الاسطول والبعض الآخر لا يصل اليه والمسافة بين الطرفين بعيدة بشكل ظاهر ولكن لا يستطيع أحد الآن أن يتنبأ بالنتيجة . وأجلس في هذه الآونة فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ما أستطيع رؤيته ولكن ماذا يمكن الانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان اللثغ سوى ابراق المدافع وارجاعها ؟

مكنت بلا أخبار منك مدة أسبوع قريبا وكنت أنتظر أن يصلني نبأ منك حالما قررت الحكومة البريطانية الحرب ولكنك تركتني في ظلام حتى اللحظة الاخيرة ولم يكن أصدقاءنا ولا بعض القاصد أنفسهم ولا انا متأكدين من أن انجلترا كانت ترغب في الحرب بغية جديدة

وقد عزمت على السفر الى نابولي أو فينسيا حتى تستقر الاحوال في مصر وأظن ان هذا يتطلب أشهرا ويمكنك من خطاب عراقي الى المستر غلادستون - ولعلك تسلمت أمس كما ينبغي وقدمته اليه ونشرته - أن نحكم على نيات المصريين وتقدر الاضطراب الذي سيحدث في مصر مدة من الزمن . وقد مرقت الطلقة الاولى جميع المعاهدات قطعة قطعة وأرسلت ملايين دوتش الى جهنم وأبعدت الرجل التي اتفقت انجلترا وفرنسا على توليد سلطه وشمثلي . قناة السويس في بضعة أيام بـ ١٠٠.٠٠٠ من الفلاحين والبدو درجوا على كيفية اداء مهنتهم من قبل - هذا اذا لم تكن القناة قد دمرت الآن فعلا .

(وقد وصل صابونجي الى فينسيا يوم ١٩ يوليو ثم وصل الى لندن بعد بضعة الاسابيع)

برنامج الحزب الوطنى المصرى

الذى قدمه المستر بلنت الى المستر غلادستون في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١

مع رد المستر غلادستون

١ — يرى الحزب الوطنى محافظة على العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى وانخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه فى أعماله — ويعتقد أن (جلالة) السلطان عبد الحميد مولاى وخليفة الله فى أرضه وإمام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات مادامت الدولة العلية فى الوجود ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج وما يلزمه من المساعدة العسكرية اذا طرأت عليه حرب اجنبية وهذا بمقتضى القوانين والفرمانات الشاهانية كما يعتقد هذا الحزب أنه يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل ما فى وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية (أى من يريد سلب امتيازاتها ونسخ الفرمانات التى منحها استقلالها الاداري) وله ثقة بدول اوربا لاسيما انجلترا المدافعة عنه ويود أن تدوم هذه المحبة حتى يحصل على حرية مصر واحترامها .

٢ — هذا الحزب يخضع للجناب الخديو الخالى وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية على قانون العدل والشريعة حسب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ وقد قرئت هذا الخضوع بالعزم الاكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر القتل والالحاق على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم الشورى واطلاق عنان الحرية للمصريين وبطلبون منها الاستقامة وحسن السلوك فى جميع الامور وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما أنهم يمحذرونه من الاصفا الى الذين يمحذرون اليه الاستبداد والاجحاف بمحقوق الامة ونكث المواعيد التى وعد بانجازها

٣ — رجال هذا الحزب يعترفون بفضل فرنسا وانجلترا اللتين خدمتا مصر

خدمة صادقة ويطلبون ان استمرار المراقبة الاوربية هو الكفالة العظمى لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الاجنبية حرصا على شرف الامة وان كانت تلك الاموال لم تصرف في مصلحة مصر بل صرفت في مصلحة حاكم ظالم لا يسأل عما يعمل . ومعلوم لهم أن ما حصلوا عليه من الحرية والمعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين فهم يشكرونهما ويشنون عليهما .

ثم انهم يرون أن النظام الحالي لم يكن الا وقتيا والافهم يؤمنون أن يستخلصوا مالاينهم من أيدي ارباب الديون شيئا فشيئا حتى يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين . وهم لا يخفي عليهم شئ . من الخلل الحاصل في المراقبة ومستعدون لاداعته فانهم يعلمون أن كثيرا من المستخدمين في قلم المراقبة لا يقدرّون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة وبعضهم يأخذ الرواتب الجسيمة بلا استعفاف مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن اسلوب براتب لا يوازي خمس راتب الاجنبي وهذا يحكمون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف الخارج عن الحد ياتيا

وهم يطمحون من اعضاء الاجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتعهم بغيرها واقاضتهم فيها ولكنهم لا يريدون مدلوكة هذا الاصلاح بقوة أو جفوة بل يقتصرون على اقامة الحجة ويطلبون من فرنسا وانجلترا التصرف في هذا الامر فانها أخذتا على نفسيهما مراقبة المالية فيما مطالبتان بنجاحها وباستخدام أهل الامانة والاستقامة فيها لأنهما مسؤولتان عن رقابة مصر بعد ان تركتا ادارة ماليها من أهلها وتكفلتا بنجاحها .

٤ — رجال الحزب الوطني يعمدون عن الاخلال القبيح شأنهم احداث القلاقل في البلاد إما لمصلحة شخصية أو خسة للاجانب القبيح يؤؤم استقلال مصر . وهؤلاء الاخلال كبرون في البلاد (بل هم معلومون المصريين ولهذا اشتدت النفرة منهم) والمصريون يعلمون ان الصمت على حقوقهم لا يخلوهم الحرية في بلاد الف حاكمها الاستبداد وكرها الحرية فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الا سكوت المصريين وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية في هذه

السين الاخيرة فقدوا خناصرهم على توسيع نطاق النهديب وم يرجون ان يكون ذلك بواسطة مجلس شورى النواب (الذى انتقد الآن) وبواسطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وتعميم التعليم ونمو المثلث بين افراد الامة وهذا كله لا يحصل الا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله .

وبرى هذا الحزب ان مجلس النواب ربما اكراه على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة واستعين عليه بمجمل المطابع آلة تفوق نحوه السهام فيتكدر صفو الراحة ويحرم الابناء من التعليم ولهذا فوض الاهالى امرهم الى اراء المهادية وطلبوا منهم ان يصموا على طلبهم لملهم ان رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو وليس فى عزيمتهم ابقاء الحال على ما هى عليه بل متى تحصلت الامة على حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة فان اراء المهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد ان فتح المجلس فهم الآن بصفة حراس على الامة التى لاصلاح لها ولهذا يطلبون زيادة الجند الى ١٨٠٠٠ عكرى ويرجون التفتات قلم المراقبة لهذه الزيادة عند تقرير الميزانية .

٥- الحزب الوطنى حزب سياسى لا دين فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث ارض مصر ويتكلم بلغتها منظم اليه لانه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم ان الجميع اخوان وان حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية وهذا مسلم به عند اخص مشايخ الازهر الذين يعتقدون هذا الحزب ويعتقدون ان الشريعة المحمدية الملققة تنهى عن البغضاء وتشير الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الاوربيين القبيين بمصر من حيث كونهم اجانئب او نصارى واذا عاشرهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب كانوا من أحب الناس اليهم

٦ - آمل هذا الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وأديا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المصارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة . وللمصريين اعتقاد فى دول أوروبا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال ان تتمتعهم بهذه البركة . وهم يعلمون انه لم تزل أمة من الأمم حريتها

الا بالمد والكدهم ثابتون على عزهم آملون في تقدمهم واتقون بجانب الله تعالى
إذا نحل عنهم من يساعدهم

١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

رد المستر غلادستون

فصر هلواردن بنشر في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢ — الى ولفريد. ص. بلنت المحترم
سبدي العزيز

انك كما أوصل ستقدر الاسباب التي نجعلني لا أستطيع أن أعرض أي شيء.
يصح أن يكون جواباً مناسباً على خطابك الشائق بشأن المسائل المصرية التي تشغل
جزءاً من التفاني كل يوم

ولكني أدرك فائدة الحصول على مثل هذا الخطاب ممن كان مثلك مرجعاً في
هذه الشؤون وأشعر بالثقة التامة باقتنا سفتطيع ان نصل بهذه المسألة الى نهاية
مرضية ، الا ان كان ثمة نقص محزن في الادراك لدى أحد الجانبين او كليهما.
وقد أبديت آرائي الخاصة بشأن مصر في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن
أتولى منصبى بوقت وجيز ولا أرى الآن انى وجدت ما يوجب تغييرها .

المخلص

و. ا. غلادستون

دوننج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢١ يناير سنة ١٨٨٢

عزيزي ولفريد

أشعر باني مدين لك باعتذار كبير لاني لم أرسل اليك قبل اليوم نبأ يتسلى
مكتوبك الشائق الدال على المقدرة بشأن الحركة المصرية . وعذرى هو الاستراحة
ولكن غيابي عن دوننج ستريت لم يمنعني من تقديم خطابك في سرعة الى المستر
غلادستون وأرفق بهذا مذكرة منه . وهو بأسف لانه تأخر شيئاً ما في ارسالها .

ومن الصعب — ان لم يكن من المستحيل — ان اكتب في الحالة المرحجة
الحاضرة بينا الموقف يتغير من يوم الى آخر .

وقد نحسب أن الصفة الوطنية التي تنسب إلى الحركة لا بد أن نبدي ميزتها للمستمر غلادستون المعروف بمعطفه على القوميات الصغيرة التي تتجاهد في سبيل الاستقلال . وأما يظهر أن الصعوبة الكبرى (وأنا بالطبع أتحدث عن شخصي مع شعوري التام بالجهل) هي كيف نستطيع تأييد مثل هذه الحركة مع رعاية المسؤوليات التي حملناها على عاتقنا ومع المصالح التي نحميها ؟ إن كل حل يراد اختياره يبدو محاطا بهيئات وصعاب لا يمكن تخطيها . ويمكنني فقط أن أقول أنك إذا استطعت أن تعمل شيئاً في سبيل الوصول إلى حل تلك الصعاب فأنك تؤدي خدمة جليلة لمصر ولهذا البلاد وللحكومة الحاضرة وأنا أعلم أنك كنت بالفعل ذا نفع كبير وأنت بحق لك الكلام في هذا الموضوع عن يقين ومعروفة قبل أي شخص آخر

مع احترامي الخاصة للسيدة آن واعتذاراتي عن هذا الرد الموجز على خطابك

المخلص

١ . و . هاملتون

رد المستر غلادستون

على الخطاب الثاني من المستر بلنت المؤرخ بالقاهرة

في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

دونتج سترت نمرة ١٠ هوابت هول في ٢ مارس سنة ١٨٨٢

عزيزي ولقريد

قرأ المستر غلادستون خطابك الثاني بأهتمام كبير وهو يشكرك عليه ويؤمل أنك شعرت ، أو ستشعر ، من لفة خطاب المرش — وارفق بهذا نسخة منه يتد على رغبته — أن الحكومة البريطانية في الوقت الذي تنوي فيه نية ثابتة على إحترام الاتفاقات الدولية تتطاف على رغبة المصريين في انقراض ووسائل الحكومة الخلية

المخلص

١ . و . هاملتون

فقرة مقتطعة من خطاب الملكة أرسلها المستر هاملتون

« بالاتفاق مع رئيس الجمهورية الفرنسية منحت التفاتنا كبيرا لمسائل مصر حيث
الانظمة السائدة قد فرضت على واجبات خاصة. وسأستخدم نفوذى لاحتفظ بالمعوق
التي تأسست من قبل سواء بفرمانات السلاطين أو بالاتفاقات الدولية المختلفة ،
وذلك بروح التعاضد للحكومة الصالحة في البلاد وتقدم انظمتها في تبصر »

الملحق السادس

من الدستور المصري الصادر في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

خطاب من محمود سامى باشا الى الخديو

عند توليه الوزارة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢

مولاي

صدر أمركم الكريم بأن أشكل وزارة جديدة فصار من أوجب الفروض قضاءاً
على أن أعرض لمعالكم عن المبادئ، التي سأخذها دستوراً لأعمالى ومرشداً لسياسة
الوزارة الجديدة

ان الحوادث التي نالت على مصر من بضع سنين وشغلت الافكار العمومية في
داخلية البلاد وفي البلاد الخارجية على انواع شتى تنحصر في أمرين الاول تمهيدنا
المالية والثاني اصلاحاتنا الداخلية

ولقد نظم الدين العمومي تنظيمًا نهائياً وصدر في شأنه عدة أوامر سامية ختمت
بقانون التصفية الصادر في ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠ وقد عدت هذه الادوار وهذا
القانون كأنها معاهدات دولية ما فتئت حكومة عطمتكم عن اعتبارها ودراعتها
وستعنى الوزارة بانفاذ أحكامها بالدفقة والامانة

وصارت تصفية الدين السائر أمراً واقعياً فسدت حسابات الاكثية من اعترفت الحكومة الى الآن بحقوقهم وستصرف العناية الى الاستمرار على اتمام تصفية هذا الدين

كذلك الدين المقررة (قوصوليد) المختص بها قلم الدائرة الفنية ومصلحة الاملاك المبرية للموضوعتان رهنا لقرض سنة ١٨٧٨ سائرة أمورهما من تأدية فائدة واستهلاك في طريق الانتظام .

والادارات التي انشئت لتأكيد انتظام سير الدين المذكورة (وهي قلم المراقبة العمومي وادارة حزينة الدين وقلم المراقبة في الدائرة ومصلحة الاملاك الاميرية) يجب على الحكومة ان تحافظ عليها وتراعيها وذلك دأب الحكومة مع هذه الادارات من حين انشائها الى الآن .

فلا يغير شيء مما ذكر عن وضعه وسنشهد الوزارة في تأييد تلك الادارات والمصالح نهون عليها السير في سبيلها لانها تعد حسن سير هذه الادارات العمومية أمراً لازماً لانتظام الاحوال في اشغال الحكومة وعدنا ان الادارة العمومية في البلاد تستفيد من ذلك فوائد جمة لا شك ولا ريب فيها

وقد كان أبداً في خلد عطمتكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى الأناء بالاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالي والوزارة أيضاً من هذا الرأي وهي متوجهة عنها وعائيتها الى اصلاح المحاكم والمجالس وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم في أمر المعارف العمومية مساعدة البلاد على السير في سبيل المدنية والنجاح .

وستنظر في اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التي كانت موضوع أمانتي عظمتكم . ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب لئلا له أن يأتي الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وأن يحقق آمال البلاد المحصورة . ولذلك فأول شيء نشرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسي للمجلس الموحد . ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية .

التعهدات المتعلقة بالدين العمومي وما توجب هذه التعهدات ادراجه في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التي تلتحق الوزارة امام المجلس وكيفية المخابرة والمباحثة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها وسيكون هذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعبء من أن يكون سداً لقلق الببال .
هذه يا مولاي لائحة الورادة الجديدة وفقاً لآمال الوطن .

وعندي الرجاء الاكيدة ان الدول العظيمة — ولا سيما البلب العالي الذي وازرنا أبداً بعنايته ومساعدته فيما يتعلق بالحقوق والامتيازات التي منحها لنا — سنستمر على مساعدة حكومة عظمتكم مساعدة كانت أبداً وتكون أبداً مفيدة لقطر المصري

كذلك أرجو أن تكون عناية حكومتكم مصروفة في سبل المحافظة على الحقوق العمومية وحفظ النظام ومساعدة الامة في طريق التقدم والعمارة .

وقد وعد جنابكم العالي يوم توليتكم السعينة ان يفتح لمصر باباً جديداً للنجاح والسعد ونحن الآن تقدم بين يدي عظمتكم عزمنا على الاجتهاد في تحقيق ذلك الوعد فاننا نجد في نحصيل الغاية التي يروم جنابكم العالي الوصول اليها وأماننا كبيرة في المستقبل اذ ان ثقتنا في عظمتكم كبيرة أيضاً .

فأذا راقق لماليكم هذه اللائحة وهذه المبادئ التي قدمتها فأرجو التوقيع على الاوامر التي ارفعها لمقامكم الكريم متضمنة تشكيل الوزارة الجديدة .

وتفضل يا مولاي الخ

خطاب من صاحب السمو الخديو

الى سعادة محمود سامي باشا ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ (٤ فبراير سنة ١٨٨٣)

عززي محمود باشا سامي

ان أخذكم على عهدكم أمر تشكيل الوزارة الجديدة مع علمكم بأهمية هذا الامر الخطير يدبرهانا جديداً على اخلاصكم وصحة وطنيتكم
وقد عهدنا اليكم بذلك لما عهد فيكم من الاخلاص وصحة الوطنية قد تحققت

ذلك فيكم وأبدتموه بالأدلة العديدة في الخدم الصحيحة التي أبدتموها في المصالح التي عهدت إليكم .

وأنا نصادق على لائحتكم والمبادئ التي فصلتموها فان هذه المبادئ هي أساس العدالة ومن شأنها حفظ الراحة وتوطيدها في البلاد وتقديم جميع سكانها ونجاحهم ونوافق على رأيكم المتضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لأنعام الاصلاحات القضائية والادارية ونشر قانون أسس لمجلس النواب ينطبق على الآراء التي أبدتموها في لائحتكم .

كذلك يجب على حكومتنا الاهتمام بتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة وسنذل جهدنا في مساعدتكم على ذلك .
ورجو من الله عز وجل أن يكمل اجتهادنا بالنجاح حبا في خير البلاد وتقديم
الامة (محمد توفيق)

ذكر يتو

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الذكر يتو الصادر في ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ (١١ ذي القعدة سنة ١٢٩٨)

وبعد الاطلاع على قرار مجلس النواب

وقد انصح مجلس وزرائنا قررنا ما يأتي :

المادة ١ - تعيين أعضاء مجلس النواب يكون بالانتخاب والشروط اللازمة لمن له حق الانتخاب ولمن يجوز انتخابه تبين فيها بعد في لائحة مخصوصة تشمل أيضاً على كيفية الانتخاب .

المادة ٢ - يكون انتخاب أعضاء المجلس لمدة خمس سنوات ويمطى لكل منهم مائة جنيه مصري في السنة متباينة مصادره .

المادة ٣ - النواب مطلقو الحرية في اجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا يبعد او يعيد يحصل اليهم

المادة ٤ - لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما واذا وقعت من أحد من جنابة أو حنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز القرض عليه الا بمقتضى اذن من المجلس .

المادة ٥ - للمجلس حال انعقاده ان يطلب الافراج أو توقف الدعوى وقتنا لحد انقضاء مدة اجتماع المجلس ممن يدعى عليه جنائيا من أعضائه أو يكون مسجوناً في غير مدة انعقاد المجلس للدعوى لم يصدر فيها حكم

المادة ٦ - كل نائب يعتبر وكلاء عن عموم أهالى القطر المصري لا عن الجهة التى انتخبته فقط .

المادة ٧ - مجلس النواب يكون مركزه بمحروسة مصر ويقعد بامر يصدر من الحضرة الخديوية بمواظقة رأى مجلس النظار ويكون اجتماعه سنوياً .

المادة ٨ - تعقد الجلسات الاعتيادية السنوية بمجلس النواب مدة ثلاثة أشهر من أول شهر نوفمبر لثاية يناير واذا لم تكف هذه المدة لانمام الاشغال الموجودة وطلب المجلس ان تزد مدته من ١٥ يوما الى ٣٠ يوما فيجب الى ذلك بامر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٩ - اذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس في غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية بتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع .
المادة ١٠ - تفتتح الحضرة الخديوية أو رئيس مجلس النظار بالنيابة عنها مجلس النواب بحضور باقى النظار .

المادة ١١ - تفتح أول جلسة في كل سنة تلاوة مقالة يقرأها الخديو أو رئيس الطار بالنيابة عنه وتشتمل على بيان المسائل المهمة التى تعرض على المجلس في أثناء انعقاد جلساته وتنفذ الجلسة بعد تلاوة المقالة المذكورة .

المادة ١٢ - ينتخب المجلس في أثناء الثلاثة الايام التالية لتلاوة المقالة لجنة لتحضير حواشيها وبعد التصديق عليه من المجلس يصير تقديمه للحضرة الخديوية بمعرفة من يتقدم لهذا الغرض من أعضائه .

المادة ١٣ - لا يشتمل الجواب المذكور على التكلم في أي مسألة بوجه قطعى ولا على أى رأى حصلت المداولة فيه .

المادة ١٤ - ينتخب المجلس ثلاثة من أعضائه تعرض أسمائهم على الجانب الخديوي فيعين أحدهم ليتولى رئاسة المجلس مدة الانتخاب أى خمسة أعوام بمقتضى أمر يصدر من حضرته .

المادة ١٥ - ينتخب المجلس وكيلين لرئيسه ويعين بقلم كتاب بشرط أن يكون الوكيلان من أعضائه

المادة ١٦ - تحرر محاضر الجلسات بملاحظة قلم كتابة المجلس الذي يؤلف من الرئيس ومن الوكيلين ومن الكتاب .

المادة ١٧ - اللغة الرسمية التي تستعمل في المجلس هي اللغة العربية وتحرر المحاضر والمختصات يكون بتلك اللغة

المادة ١٨ - للنظار حق الحضور في المجلس وابداء ما يرومون ابداءه فيه ولهم أيضاً ان يستدعوا عنهم وكلاء من كبار الموظفين .

المادة ١٩ - اذا قرّر قرار النواب على ان يستدعي للحضور بمجلسهم أحداً للنظار للاستيضاح منه عن مادة معينة فلي الناظر ان يذهب الى المجلس بنفسه او يستنوب عنه أحد كبار الموظفين يجيب عما يسأل عنه .

المادة ٢٠ - لنواب حق الملاحظة على متوظفي الحكومة جميعاً ولهم في أثناء اجتماع المجلس ان يشعروا بواسطة رئيسه كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تمد او خلل او قصور يقع في أثناء تأدية الوظيفة من أحد متوظفي الحكومة التابعين لنظارته .

المادة ٢١ - النظار متكفلون في المسؤولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يقرره بمجلس النظار ويترتب عليه اخلال بالقوانين والقوانين المرعية الاجراء .

المادة ٢٢ - كل من النظار مسئول على الوجه المذكور بالبند السابق عن اجرائه المتعلقة بوظيفته .

المادة ٢٣ - اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأمر كل على رأيه بعد تكرار الحجة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة بالحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة

أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الي يوم الاحتجاج ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السابقين أو بعضهم .

المادة ٢٤ - اذا صدق المجلس الثاني علي رأي المجلس الأول الذي ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأي المذكور قطعيًا .

المادة ٢٥ - مشروعات القوانين والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونًا معتبرًا دستورًا للعمل مالم يتل في مجلس النواب بدا فبنداً ويقدر حكماً فحكماً ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الحديوية وكل قانون يتلى ثلاث مرات بين كل مرة وأخرى خمسة عشر يوماً واذا كان القانون مستعجلاً فيكون ثلاثاً مرة واحدة ويستغنى عن المراتين الاخرتين بمقتضى قرار مخصوص يصدر من المجلس واذا تراءى لمجلس النواب من قانون يطلب ذلك بواسطة رئيسه من مجلس النظار ومنى واقعت عليه الحكومة فتعمل مشروعاً وتقدمه لمجلس النواب على الوجه المعلن بهذا

المادة ٢٦ - - مشروع كل لائحة أو قانون يعرض على المجلس ينظر فيه بمعرفة لجنة من أعضائه تنتخب لذلك ويجوز للجنة المذكورة أن تطلب من الحكومة احراء بعض تغييرات في المشروع الذي تكلفت نظره وفي هذه الحالة يرسل رئيس مجلس النواب الى رئيس مجلس النظار المشروع والتغييرات المطلوب احرازها فيه قبل المذاكرة العمومية بمجلس النواب .

المادة ٢٧ - ان لم تطلب اللجنة اجراء تغييرات في المشروع المحال عليها أو طلبت ولم توافقها الحكومة على ذلك فيقدم النص الاصلى من مشروع القانون لمجلس النواب للمداولة فيه اما اذا صدقت الحكومة على تلك التغييرات فيقدم للمجلس النص الاصلى مع التغييرات التي حصلت فيه . للمناقشة فيها وفي حالة ما اذا كانت التغييرات قد صار قبولها من الحكومة فلائحه أن تبين رأيها للمجلس وتقدم له ملحوظاتها

المادة ٢٨ - عند تقديم المشروع للمجلس من طرف اللجنة يجوز للمجلس قوله أو رفضه وبسوغ له أيضاً احواله ثانية علي اللجنة للنظر فيه

المادة ٢٩ — على رئيس مجلس النواب أن يرسل الى رئيس مجلس النظار
القوانين والقرارات التي يصدق المجلس عليها .

المادة ٣٠ — لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو
عقارات أو مراكبي الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس
النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة
وكل جهة من جهات الحكومة أمرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر
كشوفات أو تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من
مجلس النواب يحاكم كمتلس ونرد الحقوق لأربابها .

المادة ٣١ — ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس
نواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكتر .

المادة ٣٢ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل
نوع من أنواعها

المادة ٣٣ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم
منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الادارة العمومية
بتلك النظارة .

المادة ٣٤ — لا يجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات البركو المقرر للاستانة أو
الدين العمومي أو فيما ألزمت به الحكومة في أمر الدين بيا على لائحة التصفية أو
المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية .

المادة ٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة
البند السابق) ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس
النظار ورئيسه لينظرها جميعا في الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالاكثرية .

المادة ٣٦ — اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى المدد
فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان
أثبت رأى لحته فيكون العمل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة وأما ما حصل
فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا

لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثاني
عقنقى المادة ٢٣ .

المادة ٣٧ - إذا أبد المجلس الثاني رأي المجلس الاول فى أمر الميزانية وجب
تفيد الرأي المذكور قطعيا كما فى المادة ٢٣

المادة ٣٨ — كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها
لا يكون نهائيا الا بعد الاقرار عليه من مجلس النواب ما لم يكن على أمر مبلغه وارد
فى ميزانية عامة مقررته هذا المجلس وأية مقالة عن أشغال عمومية خارجة عن الميزانية
أو مبيع شئ من أملاك الحكومة أو اعطاء أرض بدون مقابل أو امتياز لا حد لا تكون
نهائية الا بعد الاقرار عليها من مجلس النواب أيضا .

المادة ٣٩ - يجوز لكل مصرى أن يقدم للمجلس عريضة وبحال النظر فى
هذه العريضة على لحة ينتخبها المجلس وبناء على ما يحجب منها يحكم المجلس بقول
أو رفض العريضة وما يحكم بقوله بحال على الناظر المختص به ذلك .

المادة ٤٠ — كل عرض يختص بحقوق أو صوالمح شخصية يرفض متى كان من
خصائص المحاكم المدنية والإدارية وكان لم يسبق تقديمه لجهة الإدارة المختصة به .

المادة ٤١ — إذا طرأت ضرورة مهمة تستلزم المبادرة الى الاخذ بأسباب
الاحتياط لوقاية الحكومة من خطر أو المحافظة على الأمن العموى وكان مجلس
الدواب غير معقد وكانت الاحتياطات المرغوب اتخاذها داخلية بمخصائمه ولم يسمع
الوقت اجتماعه جاز لمجلس النظار اجراء ما يلزم اجراؤه على مسؤوليته مع التصديق
على ذلك من الحضرة الخديوية ولدى انعقاد مجلس النواب يقدم الأمر اليه ليرى
رأيه فيه

المادة ٤٢ — لا يجوز لاي شخص أن يعرض لمجلس النواب مسألة ما أو يناقش
فيها أو يشترك فى المناقشة الا ان كان من اعضائه أو من النظار أو من كان حاضرا
معهم أو نائبا عنهم .

المادة ٤٣ — يكون اعطاء الآراء فى المجلس بواسطة رفع اليد أو النداء بالاسم
أوضح الآراء فى صندوق

المادة ٤٤ — لا يجوز اعطاء الآراء بالنداء بالاسم الا اذا طلب ذلك عشرة من أعضاء المجلس بالاقل وعلى كل حال فالرأي فيها نص عليه المادة السابعة والاربعين يكون دائماً بالنداء بالاسم .

المادة ٤٥ — انتخاب الثلاثة الاعضاء الذين يعين منهم رئيس المجلس وكذا انتخاب الوكيلين والكتّاب الاول والثاني يكون دائماً بوضع الآراء في صندوق .

المادة ٤٦ — لا تكون المداولة بالمجلس صحيحة الا اذا كان حاضراً فيه ثلثا أعضائه بالاقل والا كانت المداولة لاغية ويكون صدور القرارات بالاغلبية المطلقة .

المادة ٤٧ — كل قرار يترتب عليه مسئولية النظار لا يجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة فيها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالحصة .

المادة ٤٨ — لا يسوع لاحد من النواب أن يستيب عنه غيره لابتداء رأيه

المادة ٤٩ — على مجلس النواب أن يحرر لائحة اجراءاته الداخلية وتكون تلك اللائحة نافذة الحكم بمقتضى أمر يصدر من الخضره الحديوية

المادة ٥٠ — للمجلس الحق أن يعدل هذه اللائحة الاساسية بالاتفاق مع مجلس النواب

المادة ٥١ — اذا أغضض معنى بند أو عبارة من هذه اللائحة فيكون تفسيره بانحاء مجلس النواب مع مجلس النظار .

المادة ٥٢ — كل احكام القوانين والوامر والقرارات المخالفة لهذه اللائحة لا يعمل بها بل تكون لاغية .

المادة ٥٣ — على نظارنا تنفيذ هذه اللائحة كل فيما يخصه .

صدر سراى الاسمعية في ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ و ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

الملحق السابع

مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسبس

في أثناء الحرب

لاسيناد (الهند) في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢

— الى الميونيخ

سيدى العزيز

أسارع الى الرد على خطابك المؤرخ في ١٧ . لما تقابلنا معا في بداية هذه السنة في مصر حيث كل عرابي وزيرا للحرية ذهبت لازوره مرة في ديوانه وفي أثناء زيارتي اياه كان يحيطه كبار القاهرة بالاحترام وكان في حوش قصر النيل الواسع جمع كبير من الفلاحين وكانت الفرقة السابعة لفرقة عملاء بالناس ومن ذلك ظهر لي أنه محل تقدير الرأي العام وفي المساء نفسه رأيته بالمرشح بجوق الخديو الى جانب سمحه

وقد قال لي في المحادثة التي حرت بيني وبينه هذه الكلمات بنصها :

« انى أعرف بامسيو دى لسبس انك كنت طول حياتك رجل تقدم وحرية
ولست أرغب غير ذلك لبلادى » .

ورأيته بعد ذلك مع الوزراء الآخرين في ولجة أقيمت « في نيو أوتيل » لثلاثة
الذكرى السنوية لاستقلال امريكا وقد اشترك في شرب نجبة الخديو . وبعد ذلك
عدت الى فرنسا ولم أعد الى مصر الا بعد ضرب الاسكندرية ولم تكن بيني وبين
عرابي باشا منذ ذلك الى نزول الحيوش الانجليزية في الاسماعيلية سوى العلاقات
الموضحة في مكاتباته دون ان تتقابل ولا مرة واحدة .

وهذه المكاتبات العربية التي أرسلت أصولها الى رئيس المجلس الحربى المتعقد

ماتقاهرة ، لم يكن لها عرض سوى وقاية الفئاة البحرية التي كان عرابي دائما محلها
في وقايتها وسوى حاية أرواح وأملاك الرعايا الاوروبيين المقيمين في مصر .
وأرسل اليك الترجمة الرسمية لتلك الوثائق وهي تشرف موكلك الذي توليت
الدفاع عنه في كرم نفس .

ويبدو لي من الصعب ان قائدأ لاحد الجيوش يمكن ان يعرض لعقوبة الاعدام
بعد ان سلم سيفه لقائد انجليزى منتصر .
وتقل يا سيدى تأ كيد احترامى الفائق الكونت فرديناند دى لسبس

المرفقات

بورسعيد في ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٢ (وصل من المعسكر)

الى السيد دى لسبس ييوسعيد

أشكر سعادتك على الجهود النبيلة التي تفصلت بيدها لاجل مع الجيوش التابعة لسفن
الدول من النزول في بورسعيد وكذلك على التشجيع الذي منحته لسكان هذه
المدينة والى الاوربيين لحضهم علي البقاء . وهذا متهمى ما يمكن أن أؤمله .
وتقبلوا أصدق الاحترام لشخصكم الكريم .

وزير الحرية والبحرية

الاسماعيلية في الصباح وصل الساعة ١٢ر٤٥ يوم اول أغسطس سنة ١٨٨٢ آب

من كفر الدوار

صاحب السعادة صديق المكرم السيد دى لسبس بالاسماعيلية

استلمت رسالتك المحررة بالفرنسية وناء على ما جاء فيها كتبنا الى مدير
بوليس القاهرة لكي يتخذ الاجراءات اللازمة لضمان طمأنينة الاوروبيين الموجودين
في المستش الاوربي بالعباسية بالقاهرة ولكي تترك لهم الحرية الكاملة في السفر
او الرحيل . وكتبنا أيضا الى مدير الشرقية ليضاعف عنايته بالاوروبيين الذين في
الرقابية ويضمن لهم الوقاية الكاملة وانا سعيد بتوطيد علاقات المودة بيننا

وزير الحرية والبحرية والمعسكر

الاسماعيلية في ٤ (٢) اغسطس سنة ١٨٨٢

الى السيد فرديناند دى ليس بالاسماعيلية

أتشرف بان أخبر سعادتك بان قومندان السفن الانجليزية بالاسماعيلية أرسل الى قائد قوات هذه المدينة منشورات في النية الصاقها على المحيطان وقد علم بهذا الامر اعضاء المجلس العام الموكل اليه أعمال الحكومة فاتخذ هذا القرار الآتي وأرسلت صورة منه الى قائد قوات الاسماعيلية:

قرر المجلس المجتمع اليوم قصر الليل بان المنشورات التي أرسلت اليك من حاسب قومندان السفن الانجليزية لالصاقها على المحيطان في المدينة ، والتي تنص على ان الاهالي يجب عليهم ان يمشوا في بيوتهم ويعطوا أسماءهم ليست لها أية صفة الزامية لان اصدار المنشورات التي من هذا القبيل من حقوق السلطات المحلية وحدها ولا قيمة لها اذا أتت من سلطة أخرى.

ونحن نتقل الى سعادتك هذا الخبر ماء على أمر المجلس واداني احترم جيدة القناة بغاية الدقة خصوصاً وانها أظهر عمل بنجل اسم سعادتك في التاريخ أتشرف ابلاغ سعادتك ان الحكومة المصرية لن تحرق جيدة القناة الا عند الضرورة القصوى وفي حالة قيام الانجليز بعمل عدائي ضد الاسماعيلية او يورسعيد او نقطة أخرى واقعة على القناة وستضطر السلطات المحلية الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل عمل عدائي ولكنها لن تكون مسؤولة عن النتائج التي تنجم فيما بعد كما تدركه سعادتك . وانا واثق ان سعادتك ستتعهد أحسن الوسائل لهذه الغاية من قبل ان يلجأ القوم الى شيء من ذلك.

وتفضل بقبول وفقر الاحترام

وزير الحرية والبحرية بكفر الوار

الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ (بدون تاريخ)

الى السيد دى لسبس بالاسماعيلية

علمت من تلغراف وارد الى من قائد الجيوش منبشة بمحورك مع حرمك وزوج
ابنتك الى المكان الذى عسكرت به الجيوش وأشركك لحضورك الى هذا المكان
لثقة والامان الذين ييشهما ذلك بالنسبة للاسماعيلية والقناة كلها ولعل سعادتك تعلم
حق العلم ان كل ما ننشده ونريده هو الامان والاعمال الطيبة . وسنساعد على ذلك
من جانبك بعون الله تعالى وتفضل بقبول وافر الاحترام

قائد الجناح الشرقي بالتل

الاسماعيلية الساعة ٤ والدقيقة ١٥ ما. (بدون تاريخ)

الى السيد فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أرسل اليك صورة من التلغراف الذى استلناه من رئيس أركان الحرب للجناح
الشرقي بالتل الكبير والذى يبرهن لسعادتك على ان الانجليز لا ينجزمون
حيدة القناة

من يعقوب باشا ياور وزير الحرية بقصر النيل

من رئيس أركان الحرب للجناح الشرقي الى سعادة ياور وزير الحرية بالقاهرة:
نخبر سعادتك انه في يوم الاربعاء الموافق اول شوال سنة ١٢٩٩ هـ قادنا التل لغتشر
على جميع النقاط التى توجد بها أعمال عدائية ولما وصلنا الى جناح الشلوة على
أخبار آجاء بها المستكشفون وقد تأكدنا من صدق هذه الاخبار اذ وجدنا ان
فرقة استطلاع كانت تمر على الشاطئ الشرقي لقناة المياه الحوة فابصرت بالقرب
من حمة القشرة بعضاً من جنود الاعداء ولما اقتربت جنودنا أطلق العدو النيران
ولكنهم قابلوه بشجاعة ففرت فرقة الاعداء الى بركة القنارب وقد أسرها رجا -
وقادوها الى جناح الشلوف ووجدوا بها ١٣٣ من دواب الخيل .

وقد حصل ذلك في اليوم المذكور ومنذ ذلك لم يظهر العدو وأخبار المسكر الشرقي حسنة ولم يعرف عدد الجرحى من الاعداء، وأما من حيثنا فلم يمس أحد .
ووجدنا من اللازم ان نخبر بهذه الواقعة التي استمرت نحو عشر دقائق
(بدون امضاء)

في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢ بعد الظهر

من وزير الحرية والبحرية بكفر القوار الى صاحب السعادة السيد دى لسبس
بالاسماعيلية

علما من تلقاف أرسله قائد الجناح الشرقي ان الانجليز أطلقوا المدافع من
برادهم على جيوشنا التي بجبهة الاسماعيلية وهذا العمل العدائي من جانب الانجليز
انتهاك لحومة القناة وتفض لحيدتها . ومصر مستعدة لان تزيل القناة من الوجود لكي
تدفع الاعمال الحرية التي يقوم بها الانجليز هناك فما هو رأى سعادتك ؟ نؤمل
ان يصل إلينا جوابك في مدة ٢٤ ساعة . لقد بذلت أكبر الجهود ونحن من جانبنا
قد احترمنا حيدة القناة حتى اللحظة التي ارتكب فيها الانجليز هذا العدوان مخالفين
جهودك واحترامنا للحيدة .

الاسماعيلية في ١٥ أغسطس - سنة ١٨٨٢ مسد وارداً من المسكر الى السيد
فرديناند دى لسبس

علما ان الانجليز يعملون الآن لاقامة حصون بجانب السويس والقناة وان
آلات الحرب والمدافع الخ تم بالقناة باذن من الشركة . وتشيد هذه الحصون
ينقض مبدأ الاحترام الواجب للقناة ووجود سعادتك لا يد منه لتتخذ الاجراءات
اللازمة لمنع هذه الاعمال واحترام حيدة القناة التي لم أسها من جهتي قط حتى اليوم .
وزير الحرية والبحرية بكفر القوار

الاسماعيلية في ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى المسيودي لبس بالاسماعيلية

علنا الآن من تلغراف ان القناة مهددة مع استعمال القوة ضد شخصك وان
التلغراف الفرنسي الخاص بالقناة قطع عند السويس وانه منع مرور سفن الدول عند
بورسعيد والسويس

واذا كانت الامور هكذا فما هي الاحتياطات التي ستخذها؟

وزير الحرية والبحرية بكفر الفوار

الى المسيودي لبس بالاسماعيلية

(ملحق بالتلغراف نمرة ٧١٧)

اذا كانت الامور هكذا فما هي الاحتياطات التي ستخذها للدفاع عن جبهة القناة؟

وزير الحرية والبحرية

يوم الاربعاء اول شوال سنة ١٢٩٩ قابلت جنود الاستطلاع التابعة لنا الجنود

الانجليز عند قناة المياه الحلوة وحدثت بين الفريقين موقعة وهذا ما يضطرنا الى رد

هذه القناة مع احترام القناة الكبرى فأعلنت بذلك الوزير

أقرار فينييه الذي أقسم عليه

بشأن الحوادث التي وقعت أثناء الحرب

جون فينييه الذي كان في الاسكندرية والذي يقيم الآن في لندن يقول ما يأتي مقسماً على صحته :

لى من الممر خمس وستون سنة وأنا سويسرى الاصل وقد عشت في مصر مدة اثنتين وأربعين سنة قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وقد ذهبت الى مصر لأول مرة بصفتي مدير زراعة القطن الخاصة بمحمد على وصرت بعد ذلك تاجراً . ولكنني اعتزلت التجارة منذ عشرين سنة . وفي أثناء إقامتي بمصر وقفت على أحوال الامة وعادتها وصار لى كثير من الاصدقاء الخصوصيين ومنهم عرابي بك الذي صار فيما بعد عرابي باشا .

وكنيت مقياً في الاسكندرية قبل أن يضرها الاسطول البريطانى وفي اليوم الذي ضربها فيه وفي صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القنابل تمر فوق بيتى وقد رميت بعض القنابل الكبرى وعليها اسم « الاسكندرية » في المنزل المجاور لمنزلى . وثلاثة القنابل التي مرت فوق بيتى قتلت احد عشر شخصاً وجواوين بالقرب من باب محرم بك وقد أحرقت قنابل السفن يوتا ومبانى ودمرتها في جميع الجهات . وفي صباح اليوم التالى استأنفت البوارج الضرب فاجابها حصن أو حصنان في ضفت . ورفع علم أبيض فوق الترسانة وأرسل طلبه باشا الى القومندان البريطانى ليسأله لماذا أعيد الضرب مع أن الحصون سكنت .

وكان جواب الاميرال لطلبه باشا كما قرره هذا لاآخرين بحضورى بأنه لوحظ أن بعض الحصون أصلحت في أثناء الليل وأنه بسبب إطلاق الدفعا في اليوم السابق قرر الاميرال إطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن كوم الذكة (دمشق) وحصن كوم الناصورة (نابليون) الا اذا سلت له جميع الحصون والتشلاقات . فأوضح له طلبه باشا انه لم يخول له تسليم أى حصن أو تشلاق له دون موافقة وزارة

الحديد وأنه من القسوة أن يضرب حصنا كوم المدكة وكوم الناضورة بعد أن قرر عرابي باشا عدم استعمالها وعدم الدفاع عنها لوقوعها داخل المدينة ولأن الطلقات منها قد تسبب دمار المدينة . فكان الجواب أن البريطانيين لا يمكنهم أن يراعوا ذلك وأنه إذا لم تسلح جميع الحصون والقشلاقات لغاية الساعة الثالثة فيعاود الانجليز الضرب ويدمروها فيين طله باشا أنه لا يمكنه أن يتخار مع الحديدو ومجمله بالرمل ويأتيه الجواب في الوقت للناسب وذهب طله باشا ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون إذا لم تسلح الحصون والقشلاقات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها فكان الجواب : « سنضربها جميعا وندمرها الا اذا سلت لغاية الساعة الثالثة » . فذهب طله الي الرمل وبقي العلم الايض نفسه يخفق فوق الترساة لحين عودته ولم يكن يرى أى علم ابيض آخر وقد ساد الخوف والذعر الاهالى حين علوا أن ضرب المدينة سيعود عند الساعة الثالثة وحدثت مهاجرة عامة من جانب الاهالى والحيش وفي الساعة الثامنة كت في ميدان القامل وكان مكتظا بالجنود وبكثير من الضباط المتنازين وكانوا سائرين في انحاء باب رشيد وكان سليمان بك سامى — وهو ضابط أعرفه — يقود الجنود الى باب رشيد بقصد اخلاء مدينة الاسكندرية لآء أمر بتدمير جميع الحصون وضرب القشلاقات بالقنابل في الساعة الثالثة .

وكان آلاى من الاهالى البائسين يفادرون المدينة حاملين أمتعتهم الى أمكنهم قتلها وكانت جثث الجنود القتلى تنقل بعيدا وقد صاح الجمهور حين رأى قائلا : « اقتلوا هذا الكلب الانجليزى . اقتلوا النصراني » ولحسن الحظ أنت في ذلك الوقت فرقة من الجنود المشاة فانضمت اليها وحنتى وبذلك نجوت . وفي الساعة الثالثة تقريبا رأيت عرابي باشا وكان يفادر المدينة مع الاورطنين الاولين متجهين الى القناة وأرشدني الى الانغماس للاطباء . والصليب الاحمر واتباعهم . وقبل ان استطيع الانضمام الى الاطباء سمعت ذئير المدافع من السفن واستمر الضرب نصف ساعة تقريبا ولكنه انقطع لان الحصون لم تنجب

وكان البدو من قبيلة أولاد على قد دخلوا المدينة من القلارى او باب عمود الصوارى فشرعوا ينهبون الحوانيت وقد رأيت كثيرين منهم قبض عليهم وجلدوا

بامر سليمان بك سامى اذ حاولوا ان يغادروا المدينة حاملين أسلحتهم . وكان عرابي باشا قد أمر قبل تحريره باغلاق باب المدينة لمنع البدو من دخولها او من مغادرتها باسلاهم وأمرت فرقان من الرديف بالبقاء في المدينة لتحرسا الشوارع الرئيسية وتحفظا الأمن والنظام ولكن الامر باغلاق باب المدينة كان سدى لان جميع الجيود بذلوا كل ما في استطاعتهم ليخرجوا من المكان وكان طلبه باشا بعد الظهر في الرمل يتباحث مع الحديو وكنت طول هذا الوقت في قاعة الطعام الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم محمود سامي البارودي ومحمود فهمي وقد غادرت المدينة معهم ومع عدد من الاطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكي تلحق بالجيش . وتمت الليلة في بعض القصور بالصواحي وبعد ان تركت المدينة قذفت الريح في أثناء الليل بدخان أزرق من المدينة وانضغ من ذلك ان النيران شبت في أمكنة مختلفة منها . ولم يكن في المدينة حريق حين عادرناها ولم يشعل الجيود النار فيها بل بذلوا أكر جهدهم لمنع امتداد الحرائق التي سببتها مدافع الاسطول ولحق العرب وغيرهم من السلب ومن المحتمل ان بعض جيود الفرقين اللتين تركنا لحفظ الامن والنظام انضوا الى البدو في نهب المكان ولكن هذا كان محالفا عاما لاوامر عرابي باشا والضباط الآخرين .

ويمكننى ان أقول مؤكداً ان عرابي باشا أو أي ضابط من الضباط الآخرين ما كان يفكر في ان مدينة الاسكندرية قد تشعل فيها النيران بأيدي العرب او غيرهم وأنا أعرف ان عرابي باشا وجميع الضباط الآخرين حزنوا ودهشوا اذ رأوا المدينة تحترق بعد ان تركوها وأبدوا جميعاً أملهم في ان ذو الفقار باشا محافظ الاسكندرية وصديق الحديو الحليم سيؤدى كل جهده مستطاع مع رجال المطافي لاختاد تلك النيران وحفظ الأمن . وأنا أقول في وضوح ان العلم الابيض الوحيد الذى رفع هو العلم الذى كان فوق الثرسانة حين ذهب طلبه باشا الى الاميرال ولم ينزله طلبه باشا اذ ذهب الى الرمل مؤملا ان يعود بجواب وزارة الحديو ولكن طلبه حمزه الحديو ووزاته بالرمل مع درويش باشا حتى الساعة الخامسة تقريباً ولما عاد الى المدينة كان الجيش قد أحلاها فكل من الحال حينئذ انزال العلم . وفي فجر اليوم التالى مشينا

مدة ثلاث ساعات على شاطئ قناة المحمودية ثم ركبنا « لنشاً » بخارياً مع عرابي باشا متجهين نحو كفر الدوار . ووقف بنا عند مكان يسمى عزبة خورشيد باشا حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك مر قطار به عربات حديدية في طريقه الى الاسكندرية وقال عرابي باشا ان هذا القطار طلب وأمر بإرساله ليقل الخديو وأسرتيه الى القاهرة وبعد ان ارتقينا عودة القطار مدة ساعتين جاء تلغراف يقول ان الخديو أدل رأيه ولن يبادر الاسكندرية وقد مكث عرابي باشا تلك الليلة في القلنس البخارى وبينما كان هناك أنت الانباء عن مذايح وقت في دمنهور وطلعا فأرسل عرابي في الحال ثلاث فرق من الخنود مع أوامر دقيقة لمديرى تلك الامكنة بأن يرسلوا جميع الاوربيين دون أنجر الى الاسماعيليه وبورسعيد وبان يحومم والا حكم عليهم بالاعدام . وبينما كنت مع عرابي باشا جاء نبأ يقول ان احمد بك المشاوى أحد سعاة طغطا خاطر بحياته وأفسد خمساته من الاوربيين المسيحيين واليهود فأرسل عرابي خطاباً خاصاً الى احمد المشاوى شكره فيه لحماية الاوربيين . وأصدر عرابي أمرأ ضمن الاوامر اليومية بأن جميع الاجانب أياً كانوا يجب ان يعاملوا بالاسانية في كل مكان وان تحميهم السلطات المدنية والعسكرية ومن يقصر في ذلك يحكم عليه بالاعدام . وقضى عرابي بنقل هذا الامر الى جميع انحاء القطر وشره بين أفراد الجيش وأرسل أبصاً الى القاهرة مع تعليمات حازمة خاصة الى « الضابط » او مدير بوليس العاصمة ليعنى بتنفيذه . وان يحاى الاوربيين في القاهرة وغيرها ليرجع فضله كله الى عرابي وأنا أعرف ان عرابي أمر برمي ستة وثلاثين من البدو بالرصاص لانهم قتلوا أوربيين ونهبوا أملاكهم وكذلك أمر بشق عدد من الاهالي في دمنهور وطلعا لانهم كانوا السبب في مذايح الاوربيين وأرسل الاشياء المنهوبة التي أخذها من الناهبين الى القاهرة واذكر ان دى شير أخذ أسيراً فنى به وعومل بالشفقة وقد اعتنيت بشأته

بارشاد عرابي

وكنت مع عرابي حين تسلم خطاب الخديو الذى رغب فيه اليه ان يذهب الى الاسكندرية فأجاب عرابي على هذا الخطاب باخبار الخديو انه ، أى عرابي ، في كفر الدوار ليرى العمل الذى أمر به مجلس الطوار الذى انعقد بالاسكندرية والذى

حضره الخديو ودرويش باشا وأنه عازم على العمل وفق هذا الامر وعلى تنفيذها بامانة . وكنت أيضاً مع عرابي حين وصل الخطاب الثاني من الخديو وفيه يفصل عرابي من منصب وزير الحرية اعتباراً من يوم ٥ رمضان وحين أنه معتبر عاصياً . وقد اجتمع المجلس على أثر ذلك في القاهرة ولم يحضره عرابي ولكن حضره أكثر من ستمائة من الاعيان أوأخصيصاً لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر هذا المجلس ان عرابي لا يمكن اعتباره عاصياً إلا بأمر السلطان وان الخديو ليست له هذه السلطة . وقرر أيضاً مواصلة الدفاع الوطني وقفا لقرار مجلس النظار الذي اجتمع بالاسكندرية بحضور الخديو ودرويش باشا والذي عهد الى عرابي باشا بالدفاع عن الوطن .

وبعد عشرة أيام أي حوالي العشرين من رمضان والخامس من أغسطس عقد مجلس آخر حين تقرر ان تقطع قناة السويس في أربعة أمكنة هي رأس العش والتمطرة وسنبل وشالوف . وكان عرابي ومحمود فهمي باشا هما المعارضان لاقتراح قطع القناة وحثا على ان لايفعل ذلك الا اذا أتى الجيش البريطاني عملاً عدائياً من ذلك الجانب وقد أعد كل شيء من الرجال والاجهزة لتدمير القناة في ليلة واحدة بأمر المجلس ولكن اذا التفراف يأتي من دى لسبس في مساء الثاني والعشرين من أغسطس وعلى ذلك سحب القديناميت بناء على أوامر عرابي وصار على العالم ان يحمده لعرابي انقاذه قناة السويس .

وكلمنا طلب أحد من عرابي ان يحمي الاوربيين منحهم كل مساعدة لحمايتهم وتأمينهم . وأنا أعرف انه منح الاوربيين حمايته بناء على طلب دى لسبس والفنصل الفرنسي وقنصل اليونان بالزافريق وغيرهم وقد صرح هؤلاء القناصل علناً بانهم لا ينادرون هذه البلاد التي عاشوا فيها طويلاً ما داموا لا يخافون شيئاً بفضل رجل متور كعرابي باشا . وكان تحت رياسته ضباط لعلمهم كانوا يعاملون الاوربيين معاملة سيئة لولا أن عرابي عارضهم وضمن قدر استطاعته الحرية والوقاية للجميع . وأئذ كر جيداً انه قبل ان يرقيات كاذبة أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية الى أوروبا وانها أحدثت صروراً بالنار ولذلك كلن في العزم ان يرسل ضابط الى مكتب التلغراف لينع

ارسل البرقيات الجفرية ولكن عرابي رفض ان يؤيد أي تدخل قاتلا ان طائفة التجار تهمة في هذه الحالة بأنه يضر بمصالح التجارة .

وكانت الخطوات التي اتخذها عرابي للدفاع عن بلاده عند الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذي عقد في الاسكندرية تحت رئاسة الخديو نفسه وحضره درويش باشا وغيره من رسل السلطان وهذا الامر لم ينتقض قط . ولما اتخذ عرابي موقفه وانشأ خط الدفاع عند كفر الدوار كن يسل وفق أمر مجلس النواب وكن الشعب المصري يؤيده ويسطف عليه . وكن الاعيان والتجار ورجال السلطات المدنية والدينية يأتون من أنحاء البلاد الى كفر الدوار يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ليهنئوا عرابي ويشكروه على وطنيته ويقضوا اليه أمر الدفاع عن الوطن وكانوا كلهم يأخذون حضا من التراب في أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم في العمل .

وقد رأيت بين هؤلاء الاعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا عرابي في كفر الدوار: فخري باشا واحد نشأت باشا مدير المائرة وجميع اعضاء المحكة الاحلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومي بالحاكم المختلطة وعثمان فوزي باشا ورؤوف باشا وعرفي باشا ومشارك والعلماء ومفتي الاستانة وكثيراً من القريين المتأزمين وكثيراً من الرؤساء وأسائذة الازهر وعددا من افراد أسرة رياض باشا والدملي باشا وحسن العقاد وكثيراً من العمدة وأصحاب الاملاك وعلى الخصوص واحد بك التشاوى القى أشرت اليه آفا . وقد اكتب الجميع بمبالغ تفضلية ففقات حرب البقاع ودفع البعض مبالغ هائلة وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف حشه . وكانت الاموال كلها ترسل الى القاهرة ولا يأتي منها شيء الى المعسكر وانما كن يرد اليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة وكن كبار الزائرين يشربون عرابي ومساخوه . وقد قال له مفتي القاهرة المهرم : « نحن نمشي أ كثر من خمسين ألف من الاعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الاملاك الخ نشكرك جميعا لانك توليت بيدك أمر الاسلام والامة وأنت في الحقيقة أكبر وطني في وادي النيل » فقال له عرابي ضمن رده : « اتنا لا نريد شيئا سوى العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا واملاكنا وحقوقنا .

يريد برلمان مستقلا ينتخب على أساس الحرية ووزارة مسؤولة وتؤدي بامتلاك ولايتهم.
يريد الاقتصاد الدقيق في الادارة دون مراعاة سياسة ودون موظفين اجانب على
رأس الوزارة يبالغون مرتبات ضخمة . تريد مصر المصريين مع الحرية والسلامة
لكل الاجانب اذا خضعوا مثانا للضرائب والرسوم »

وأقول دون تردد ان عراقي لم ينقل قط السلب والمذايح الى ارض مصر وان
الامة المصرية وأعابها هم الذين عهدوا اليه بالدفاع عن البلاد، ولم يكن عراقي السبب
في أن ينهب أو يذبح أي مصري أو أخنبي بل انه على العكس عمل كل ما في وسعه
ليحمي حياة وأموال المصريين والاجانب على السواء . ولعاقب جميع الذين ارتكبوا
جرائم التهب والمذايح .

وقد كنت مع عراقي من اليوم الذي عاد فيه الاسكندرية الى الرابع والعشرين
من أغسطس اذ سافر ليحلق بالجيش المراتب بالقرب من الاسماعيلية . وقد لحقت
عراقي بالقاهرة في صباح اليوم التالي للوقعة وعقد اجتماع في بيت عراقي بالقاهرة
يوم الخميس للبحث في مسألة تسليم القاهرة فضارت فكرة عراقي التي ترمي الى تسليم
القاهرة دون دفاع وجاء نواب الجنود الانجليزية وصلوا الى العباسية فسألني عراقي
وطلبه رأيي فيما يجب ان يفعلوا فصحت لها بان يذهبوا الى القائد البريطاني وسلموا
له سيفيهما باعتبارهما أسيري حرب فيحبهما شرف انجلترا . وقد تركاني بمنزل
أولها وركبنا معاً الى العباسية .

جون نينه

أقسم على ذلك أمامنا في قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بانجلترا في
هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

الامضاءات

وبلى ذلك قصيدة طويلة نظمها المستر دلت في السياسة وشرفها وفي مصر
وانجلترا . ويبلغ عدد أبياتها أربعمائة تقريباً وقد نشرت في المجلد لسنة ١٨٨٣

مقتل اسماعيل صديق باشا

قضت ظروف على قلم الترجمة في « اللامع » ، حينما كانت الترجمة تنشر متوالية أن يترك تعريب ما كتبه مستر بلنت في كتابه هذا عن مقتل اسماعيل صديق باشا الملقب بالفتش ، فاكثفى بأن يقول في صفحة ٣٤ : وهناروى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن . ولعلك نمود هنا فنشر تعريب ما كتبه في هذا الموضوع وهو :

اذكر جيداً مقاله لي السير رفرز ولسن بشأن أكبر مأساة بين الحرائم الكثيرة التي ارتكها الخديو اسماعيل - وهي قتله اسماعيل صديق المفتش وكان هذا خيانة أثرت أكثر من غيرها في ولا. جماعة الارقا. والخدم الذين كانوا يحيطون بالخديو ، ولا أقول في ولا. دعايله المصريين لانه قد قد منذ زمن .

ولد اسماعيل صديق في الحزائر وآبى في طعوله الي مصر وارتفع بكفائه في خدمة الخديو وكانت بداية صله بالبلاط في عهد عباس وكان يشغل وظيفة رئيس اسطبلاته على ما أظن . ثم شغل مرا كز مختلفة في عهدي سعيد واسماعيل حتى صار اداة اسماعيل في انتزاع آخر قرش لدي الفلاحين . ولكنه رغم قسوته الشديدة على الفلاحين وتفوقه في اشكلو الوسائل لنهبهم كانت له في القاهرة شهرة حسنة الي حد ما لانه كان يعتبر عرياً يحفظ فضيلة الكرم وكان سخياً الي في تبديد الثروة التي يجمعها . وشغل في السنوات القليلة الاخيرة من حياته مركز وزير المالية وقد برهن دائماً لاسماعيل على أنه خادم مخلص أمين . ولكن بالرغم من هذا خانه اسماعيل الي حد القتل قبل أن اكتب هذا بيضة أشهر ، وكان ذلك في ظروف تدعو الي الاشتزاز حتى أنها أزعجت الامة المصرية رغم اعتيادها وقوع الجرائم في الدوائر العليا . وكان الدافع للخديو على ذلك دافعا أمانياً وهو متر نفسه بفعل التهمة في بعض حوادث الفتش التي ارتكها الي وزيره الذي زاد اخلاصه عن الحد ، ثم ضيان سكونه بقتله والتفصيلات التي ذكرها ولسن كما يلي :

كان اسماعيل في علاقته مع المتدوين الاوربيين الذين كان يدعوهم بين وقت وآخر لفحص شئون المالية ، معتاداً أن يخفي عنهم ما استطاع في الحقيقة في تبذره غير المعتول فقدم أخيراً بمساعدة وزيره اسماعيل صديق يباناً كاذباً عن دونه . غير أن الضغط كان شديداً عليه لان بعضهم أوماً الى الجنة — وأذكر جيداً أنه — رياض باشا — بأن الخديو يخدعها ، تخشي هذا أن تظهر الحقيقة كلها وأن يفضح وزيره بالوقائع اذا ما حققت الجنة . فعزم على أن يضحي بوزيره ليخلص منه . وتولى هذه المهمة بنفسه . وكانت بينه وبين وزيره صداقة شخصية متينة فكان معتاداً أن يمر عليه أحياناً بعد الظاهر في وزارة المالية ليأخذه معه في عربته الى شبرا أو الى قصر من قصوره . فمر عليه ولم يكن الوزير يرتاب في شيء فركب معه العربا الى قصر الجزيرة ونزلا هناك ودخلا . ثم اتحل اسماعيل بعض الاعذار وركب وحده في إحدى القاعات وأرسل اليه ابنه الاصغر حيناً وحسناً ويأوده مصطفى بك فهمي واذا بالاميرين يضربان الوزير الاعزل ويدفعان به الى إحدى البواخر الخديوية الراسية بجانب الرصيف . وهناك قتل هذا الرجل الحرم بعد ان قاوم مقاومة عنيفة »

ومن رأيي ولئن أن الفاعل المباشر لهذه الجريمة هو مصطفى بك مؤتمراً بامر الخديو وقد أخبرني بان الحقيقة يات حيناً مرض الباور الشاب بالحمل عقب تلك الفعلة واعترف بها في حديثه . ولكن عندي ما يدعوني الى الاعتقاد بان روايته فيما يتعلق باشتراك مصطفى بك غير صحيحة وان كانت بقية الوقائع قد ثبتت لي . والذي عرفته هو ان مصطفى بك سلم اسماعيل صديق الى اسحاق بك فلت في يده . ولست متأكداً من انه مات في الحال أو بعد حين . ويقول بعضهم ان اسماعيل صديق رمي مثل كثيرين غيره في النيل بعد ان ربط حجر في قدمه . ويقول آخرون انه قتل حياً الى ما بين وادي حلفا ودقعه وخنق هناك . ولكن الذي لاشك فيه هو انه لم ير حياً بعد أن رمي به الى ظهر الباخرة . وبعد أسابيع من سير الباخرة في النيل وأعلن رسمياً ان المقتش ذهب الى الصمد لتشيير الهواء وانه اعتاد الخمر هناك فلت .

ومن المؤكد أيضا ان مصطفى بك — وهو شاب معتدل لم يعتد مناظر العنف — ومن أصل جزائري كالفتش — أخافه الدور الذي أمر بلمه فرض على أثره مرضا خطيرا طال به . وهذه التجربة هي التي دعت الى أن يكون ضد سيده بعد سنة من ذلك ، ثم الى أن ينضم لعراقي في باكورة ثورة سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . وهو مصطفى فهمي الذي شغل منصب رئيس نظام مصر سنين عديدة .

فهرس الكتاب

- تمهيد بقلم عبد القادر حمزة ١١٠-٣
- نص كتاب التاريخ المصري ٣٤٣-١
- ذيل الكتاب ٤٧٠-٣٤٤
- ١- تاريخ عرابي بقلمه ٣٥٣-٣٤٤
- ٢- تقرير عن بعض حوادث سنة ١٨٨٢ بقلم الشيخ محمد عبده ٤٠٤-٣٥٤
- ٣- تقارير من جون نينيه رفيق عرابي ٤١١-٤٠٤
- ٤- خطابات من عرابي باشا لم تتمج في أصل الكتاب ٤٣٩-٤١٢
- ٥- برنامج الحزب الوطني ٤٤٣-٤٤١
- ٦- خطابات من معتر غلامتون ٤٤٥-٤٤٣
- ٧- الدستور المصري لسنة ١٨٨٢ م ٤٥٤-٤٤٥
- ٨- مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسييس ٤٦٠-٤٥٥
- ٩- قرار نينيه بشأن حوادث الحرب ٤٦٧-٤٦١
- ١٠- مقتل إسماعيل صديق باشا ٤٧٠-٤٦٨

تنويه - وجدنا في الطبعة الأصلية للكتاب (طبعة مطبعة البلاغ) خطأ في ترقيم الصفحات التالية لصفحة ٢٧٢ حيث بدأ الترقيم ب ٢٦٥ ويتالى الترقيم صحيحا إلى آخر الكتاب؛ فأثرنا تركه كما كان في الأصل وذلك تسهيلا على الباحثين الذين يعتمدون على الطبعة الأولى للكتاب.

من إصدارات مكتبة الأكراب

